الشرق الأوسط المعاصر

(محاولة للفهم)

تحرير : ديبورا ج . جيرنر
ترجمة : أحمد عبد الحميد أحمد
مراجعة : رءوف عباس

المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومي للترجمة
565

المشروع القومى للترجمة

الشرق الأوسط المعاصر
محاولة للفهم

تحرير: ديبورا ج . جيرنر
ترجمة: أحمد عبد الحميد أحمد
مراجعة: د. رءوف عباس

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٣

مطابع المجلس الأعلى للآثار

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٥٦٥
- الشرق الأوسط المعاصر: محاولة للفهم
- ديبورا ج . جيرنر
- أحمد عبد الحميد أحمد
- رءوف عباس
- الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه ترجمة لكتاب :

Understanding the Comtemporary
Middle East

Edited by: Debora J. Gerner
Lynne Rienner Publishers inc.
Boulder, Colorado, 2000

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel: 7352396 Fax: 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلي تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

الموضوع	الصفحة
قائمة الخرائط والجداول والأرقام الصور	٧
تمهيد : ديبورا ج . جيرنر	١١
١- المقدمة ديبورا ج . جيرنر	١٧
٢- الشرق الأوسط : مقدمة جغرافية أيان ر. مانرز ، و باربرا ماكين بارمنتر	٢٣
٣- السياق التاريخى آرثر جولد شميت	٦٣
٤- السياسة فى الشرق الأوسط ديبورا ج . جيرنر وفيليب أ. شروت	١٣٩
٥- العلاقات الدولية مارى آن تيترول	٢١٥
٦-الصراع الإسرائيلى الفلسطينى سيمونا شارونى ومحمد أبو نمر	٢٦٧
٧- اقتصاديات الشرق الأوسط إلياس هـ . توما	٣٢١
٨- النمو السكانى والتحضر وتحديات البطالة فالنتاين م . مقدم	٣٧٧

٩- علاقات القرابة والطبقات الاجتماعية والعرقية ٤١٥
لورى كينج إيرانى

١٠- دور المرأة ٤٦١
ليزا تراكى

١١- الدين والسياسة فى الشرق الأوسط ٤٩٥
جون ل . أسبوسيتو
ومحمد أ. مقتدر خان

١٢- الأدب فى الشرق الأوسط ٥٣٣
بريام كوك

١٣- اتجاهات وتوقعات ٥٩٣
ديبورا ج. جيرنر

الملحق رقم (١) : قائمة الاختصارات ٦٠٩

الملحق رقم (٢) : معلومات سياسية أساسية ٦١١

المشاركون فى تأليف الكتاب ٦٣١

قائمة الخرائط والجداول والأرقام والصور

١- الخرائط

١:٢ خريطة سياسية للشرق الأوسط

٢:٢ مساحة الإمبراطورية العثمانية

١:٣ مساحة الإمبراطورية الإسلامية

١:٦ إسرائيل/ فلسطين وخطة التقسيم لسنة ١٩٤٧ ، وحدود ١٩٤٨ ، وحدود ما بعد حرب ١٩٦٧

٢:٦ المناطق أ ، ب ، ج داخل الضفة الغربية

٢- الجـــداول

١:٤ النفقات العسكرية لدول الشرق الأوسط فى ١٩٩٦

٢:٤ المشاركة السياسية الرسمية فى الشرق الأوسط فى ١٩٩٩

١:٧ الموارد الطبيعية

٢:٧ مؤشرات التنمية

٣:٧ إسهام الزراعة والصناعة فى الناتج المحلى الإجمالى

١:٨ السكان والتحضر فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا

٢:٨ الشرق الأوسط وشمال أفريقيا : مدن يزيد سكانها عن مليون نسمة (١٩٩٥)

٣:٨ الشرق الأوسط وشمال أفريقيا : مؤشرات ديموجرافية أساسية

٤:٨ توزيع القوة العاملة على أساس الجنس ونصيب المرأة من الوظائف ١٩٩٠ - ١٩٩٤

٥:٨ نسب البطالة فى دول منتقاه على أساس الجنس والسنة

٦:٨ مؤشرات على مستوى التباين فى الحضر والريف فى دول منتقاه

٣- الأرقـــام

١ :٧ تحليل تخطيطى للتغير الاقتصادى والسياسى

٤- الصــــور

١ :٢ مدينة أريحا بالضفة الغربية

٢ :٢ وسط العاصمة السعودية الرياض

٢:٣ أحواض سقاية الإبل فى سلطنة عمان

٢ :٤ مدينة إسطنبول فى تركيا

٢ :٥ القاهرة الكبرى

٢:٦ لوحة الحج فى مدينة الأقصر فى معبد مصر

١ :٣ معبد الشمس فى «أبو سنبل»

٣:٢ فسيفساء بيزنطية فى معبد بالأردن

٣:٣ معبد رومانى قديم فى بعلبك فى لبنان

٣:٤ علم تركى وعلم يحمل صورة أتاتورك

٣:٥ وسط مدينة بيروت اللبنانية

١ :٤ عرض عسكرى فى العاصمة الجزائرية

٤:٢ اجتماع حاشد فى العاصمة الليبية طرابلس

٤:٣ صورة للرئيس صدام حسين فى أحد شوارع بغداد

٤:٤ صورة للرئيس المصرى حسنى مبارك

٤:٥ صورة للملك الحسن الثانى فى الدار البيضاء

٤:٦ لاجئون سودانيون

١ :٥ صورة تعبر عن صمود الشعب اللبنانى

٥:٢ قوات كويتية تستعد لتحرير بلادها

٥:٣ نساء عراقيات يتدربن على القتال ضد إيران
٥:٤ زعماء العالم فى مؤتمر مكافحة الإرهاب فى مصر
٦:١ لافتة بالإنجليزية والعبرية على مستوطنة بالضفة الغربية
٦:٢ سيدة فلسطينية مع ابنتها فى مخيم البريج للاجئين
٦:٣ السياسى الفلسطينى حيدر عبد الشافى
٦:٤ الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات
٦:٥ قوات إسرائيلية تشتبك مع متظاهرين فى الضفة الغربية
٦:٦ نشطاء السلام الإسرائيليون والفلسطينيون
٦:٧ نشطاء السلام الإسرائيليون
٧:١ امرأة فلسطينية تحيك قماشاً مطرزاً
٧:٢ فتاة إيرانية تنسج سجادة فارسية
٧:٣ قارب وناقلة بترول فى ميناء بحرينى
٧:٤ الرى بالتقطير فى صحراء سيناء المصرية
٧:٥ مطعم ماكدونالدز فى موقف الحافلات بوسط تل أبيب
٨:١ مدينة رام الله بالضفة الغربية
٨:٢ أطفال فى أحد أحياء القاهرة
٩:٧ – ٩:١ التنوع العرقى
١٠:٤ – ١٠:١ نساء الشرق الأوسط
١٠:٥ سميحة خليل مرشحة الرئاسة الفلسطينية فى ١٩٩٦
١١:١ حصن كعبة البحر فى مدينة صيدا اللبنانية
١١:٢ مسجد فى مدينة صلالة فى سلطنة عمان
١١:٣ المسجد الأموى فى العاصمة السورية دمشق
١١:٤ شبان من اليهود الأرثوذكس يؤدون الصلاة فى القدس

١١:٥ مظاهرات فى العاصمة الجزائرية
١٢:١ الأديب المصرى نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل فى الأدب
١٢:٢ الشاعر السورى الراحل نزار قبانى وأبيات من إحدى قصائده
١٢:٣ الكاتب الفلسطينى غسان كنفانى
١٢:٤ تشييع جنازة فرج فودة

تمهيد

المحرر ديبورا ج. جيرنر

كتاب «الشرق الأوسط المعاصر (محاولة للفهم)» هو فى الحقيقة خلاصة تجارب وخبرات نخبة كبيرة من الباحثين المتخصصين فى شئون الشرق الأوسط والذين سعوا جاهدين إلى تقديم نص يتسم بالدقة والموضوعية مع مراعاة أن يكون مواكباً لروح العصر ومألوفاً لدى القراء من الدارسين والباحثين . وتتناول الفصول المختلفة لهذا الكتاب العديد من الموضوعات الرئيسية والآراء المختلفة والبحوث فى إطار الجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والديموجرافيا والسياسة والعلاقات الدولية وعلم الاجتماع والأنثربولوجيا ودراسات الجنس البشرى ، وحل الصراعات والدين والأدب .

وعلى الرغم من أن كل فصل يعد قائماً بذاته ، إلا أن هذه المجموعة المتنوعة من مؤلفى الكتاب قد حاولت ، وعلى نحو متعمد ، أن تحقق ضرباً من التكامل والاندماج بين مناقشاتها والموضوعات التى يتضمنها كل فصل بغية أن يخرج هذا الكتاب باعتباره كياناً موحداً .

وتخوض مقدمة الكتاب مباشرة فى الأفكار المقولبة التى غالباً ما تثبت فى أذهان الدارسين عن الشرق الأوسط كما تعرض واحداً من الموضوعات التى نسجتها صفحات هذا الكتاب ، ألا وهو ذلك التفاعل بين القديم والحديث ، والذى يعتبر سمة بارزة تميز هذه المنطقة من العالم . ففى الفصل الثانى يصف أيان .ر. مانرز ، وباربرا ماكين بارمنتر التنوع الهائل الذى يزخر به الشرق الأوسط . ويقترح كلاهما أنه بدلاً من فرض «جغرافية» واحدة وجامدة على المنطقة ، فإنه من الملائم أكثر التفكير فى جغرافيات متعددة تعكس الأنماط المختلفة للمشاهد الطبيعية المتغيرة ، سواء كانت سياسية أم حدودية أم سمات طبيعية ، مثل وجود أو غياب المياه ومشاهد المدن. والواقع أن طريقة المعالجة هذه تسمح باستكشاف أوسع وأشمل للتفاعل بين البشر

وبياناتهم كما توضح أن زوال الحدود والحواجز الجغرافية لا يقل فى أهميته عن وجود مثل هذه الحدود حينما نكون بصدد تفسير ما يجرى فى الشرق الأوسط .

وفى الفصل الثالث من الكتاب ، يصف آرثر جولد شميت التاريخ الطويل للمنطقة ، بداية من الإمبراطوريات القديمة فى مصر والدولة السومرية قبل ما يربو على خمسة آلاف سنة ، وهنا يبرز دافع أساسى وهو التحول المستمر الذى يحدث مع تعاقب الغزاة على المنطقة أو ردهم على أعقابهم منها ومع استيعاب شعوب المنطقة للأجناس المختلفة لهؤلاء الغزاة الدخلاء وامتزاجهم معها ، يولى جولد شميت اهتماماً خاصاً بقيام شرق أوسط إسلامى كنظام سياسى واجتماعى متمتع بالحكم الذاتى وبالتحديات التى تجابه ذلك النظام والتى أفرزتها تفاعلاته مع الغرب فى القرون الثامن والحادى عشر والتاسع عشر والعشرين .

ويبدأ كل من ديبورا .ج. جيرنر وفيليب أ. سكوت من حيث انتهى جولد شميت حين يستعرض مناقشة السياسة الداخلية لدول الشرق الأوسط ، ففى الفصل الرابع يسلط كلاهما الضوء على عدة عوامل قد أثرت على نشأة وتطور هذه الدول ، من قبيل تراثها الاستعمارى وأنماط التنمية الاقتصادية ، وذلك قبل أن يتحولا الى وصف الأيديولوجيات السياسية المختلفة وأشكال التنظيم الحكومى التى تميز الشرق الأوسط فى الوقت الحاضر ويوضح كل من جيرنر وشروت أيضاً أن ثمة اختلاف أساسى بين السمات التى تميز النظم السياسية الشرق أوسطية والتى تعد غير مألوفة أو حتى فريدة بالنسبة للمنطقة ، وبين تلك الخصائص التى تعد أكثر انتشاراً على المستوى العالمى .

هذه الموضوعات يتناولها أيضاً الفصل الخامس ، والذى تستعرض فيه مارى آن تيترول العلاقات الدولية لدول المنطقة . إذ يبين هذا الفصل كيف أن التورط مع القوى العظمى قد حد مراراً من قدرة بلدان الشرق الأوسط على العمل ذاتياً وبشكل منفرد فى الساحة العالمية ، كما تحلل تيترول الطريقة التى يعمل من خلالها الشرق الأوسط كنظام فرعى إقليمى مع إعطاء اهتمام كاف للصراعات المتعددة والتى تفجرت مؤخراً، بما فى ذلك الصراع العربى الإسرائيلى ، والمشكلة الكردية ، والحرب بين إيران والعراق وغزو العراق للكويت .

أما الفصل السادس لسيمونا شارونى ومحمد أبو نمر فهو يبدو فريداً من نوعه من ناحيتين الأولى أنه يتناول تماماً صراعاً واحداً ، والثانية أنه شارك فى كتابته يهودية

إسرائيلية وفلسطيني يحمل الجنسية الإسرائيلية . ومن شأن هذا التعاون بين هذين الباحثين أن يسمح بقدر من المناقشة التي تنطوي على اختلاف بسيط في الرأي يثير الجدل . ويقدم أبو نمر وشاروني التطور التاريخي لعلاقة العداء بين الطرفين ويشرحان أبعادها الدولية ، ثم يتحولان إلى بحث المشكلات الرئيسية التي تؤدي إلى الانقسام بين العديد من الإسرائيليين والفلسطينيين. وهما يلخصان أخيراً المحاولات السابقة والحالية الرامية إلى حل هذا الصراع ويعلنان تحديهما للاعتقاد السائد بأن مثل هذا الحل يمكن التوصل إليه فقط من خلال مشاركة الولايات المتحدة وأطراف ثالثة أخرى.

وفي الفصل السابع ، الذي كتبه إلياس . هـ . توما ، نتحول إلى دراسة للأنماط المختلفة للتنمية الاقتصادية التي قد شهدتها بلدان الشرق الأوسط ، والحجة التي يسوقها توما هنا هي أن كل هذه البلدان بدأت في سياق تنموي محفوف بالصعاب (يعني بذلك البنية التحتية الفقيرة ، وعدم وجود حكومة مستقرة ، والمستوى غير المتوفر للمعرفة الفنية والعلمية) ، وهو السياق الذي بات أكثر تعقيداً من جراء هيمنة القوى الأجنبية . وحتى الوقت الحاضر ، كما يقول توما فإن أبرز ما يميز اقتصادات الشرق الأوسط يتمثل في الإنتاجية المنخفضة للأيدي العاملة ، والدين الخارجي ، ونماذج التجارة والاستثمار التي تعتمد على التبعية .

ويعرض الفصل الثامن ، وهو من تأليف فالنتاين . م . مقدم ، تفاصيل إضافية عن اقتصادات دول الشرق الأوسط ، مع التركيز على الارتباطات بين النمو السكاني ، والتحضر، والوظائف والبطالة ، والفقر وتفاوت الدخل ، وتصور مقدم الوضع الراهن في سوق العمل بحساسية خاصة تجاه الاختلافات بين الرجال والنساء في أجزاء متعددة من الشرق الأوسط . وهي تتوسع في مناقشتها استناداً إلى ما قدمته من دراسات حالة موجزة للاتجاهات الاجتماعية والديموجرافية في المغرب وتونس ومصر وبين السكان الفلسطينيين .

وبالنسبة للفصل التاسع ، الذي يتضمن تحليل لوري كينج إيراني لعلاقات القرابة والطبقات الاجتماعية ، والعرقية ، فإنه يضيف ميزة أخرى إلى التمثيل المعقد للشرق الأوسط والذي يقدمه مؤلفو هذا الكتاب . واعتماداً على الأدب الأنثربولوجي ، توضح

كينج إيرانى كيفية ارتباط الحقائق الاجتماعية المختلفة بعضها بالبعض الآخر وبالجوانب الأخرى للحياة فى الشرق الأوسط ، كما تطرح آراءً ثاقبة حول الجنس البشرى والعلاقات الأسرية التى غالبًا ما تكون مصدراً للغموض والتشوش لدى الغرباء، مؤكدة أن العديد من الجوانب المتعلقة بالقرابة والعرقية والطبقات الاجتماعية تتسم بدرجة عالية من التكيف فى سياقها الشرق أوسطى .

ويواصل الفصل العاشر طرح هذه الفكرة والذى تتطرق فيه ليزا تراكى إلى المزيد من التفاصيل عن وضع النساء . إذ تتحدث تراكى عن النساء فى بلدان الشرق الأوسط فيما يتعلق بالدولة العصرية وتبحث تأثير القيم والمثل التقليدية على الفرص المتاحة للنساء . وعلاوة على ذلك ، تقدم ليزا دراسة رمزية مكثفة لأنماط المشاركة السياسية للنساء وتوضح تنوع الخبرة التى تعتبر لازمة ثابتة فى كل صفات هذا الكتاب

وفى الفصل الحادى عشر ، الذى شارك فى كتابته جون.ل. أسبوسيتو و محمد .أ. مقتدر خان، نجد أن هنالك عودة إلى موضوعين تناولتهما الفصول السابقة ، ألا وهما التفاعل بين الدين والسياسة ، ووجود كل من الهياكل الاجتماعية الحديثة والتقليدية داخل منطقة الشرق الأوسط . ويلخص أسبوسيتو وخان الدور التاريخى للديانات اليهودية ، والمسيحية والإسلامية فى المنطقة ، ويبحثان بعدئذ الطرق والوسائل التى لا حصر لها والتى من خلالها ، ولاسيما الأكثر أصولية منها ، تواصل تأثيرها على سياسات الشرق الأوسط ومجتمعاته .

ونأتى بعد ذلك إلى الفصل الثانى عشر حيث تصف ميريام كوك ببراعة الدعامات التاريخية والثقافية التى يرتكز عليها الأدب فى الشرق الأوسط ، ومن أبرزها الشعر ، والقصص القصيرة والروايات والمسرحيات . وكما توضح كوك ، فإن الأدب لا يتواجد من فراغ وإنما يعكس واقع بيئته ويؤثر فيها ويتجلى ذلك كله من خلال الثورة الثقافية، وتأثير الاستعمار وحركات النضال من أجل الاستقلال ، وتجربة المنفى والهجرة .

وأخيراً يقدم الفصل الثالث عشر عدة تحديات حاسمة تواجه المنطقة فى القرن الحادى والعشرين ، من بينها تحديد الدور المناسب للدين والثقافة فى إطار علاقات المجتمع والدولة ، والحاجة إلى المزيد من التنمية الاقتصادية ، والتراث التاريخى للحقبة الاستعمارية والصراعات التى نشأت عن تلك الحقبة ، والمطلب المتنامى على نطاق واسع بشأن زيادة المسئولية السياسية .

***

والحقيقة أن هذا الكتاب ما كان مقدراً له أن يخرج إلى حيز الوجود بدون مساعدة العديد من الأفراد . ولكم كنت محظوظة فى اختيار المتعاونين معى ، وهم مجموعة متنوعة من الباحثين المتخصصين من شمال أفريقيا والشرق الأوسط والذين قد أمضى معظمهم وقتًا طويلاً فى المنطقة . ورغم أنه ربطتنى صداقة بعدد قليل من هؤلاء الباحثين قبل تنفيذ مشروع الكتاب ، وهى صداقة مازالت مستمرة ، إلا أننى عرفت العديد منهم من خلال سمعتهم وأعمالهم ، ولاشك أن الفرصة التى أتيحت لى للعمل مع هذه النخبة من الباحثين ومعرفتى بهم عن كثب وتعلمى الشىء الكثير عن سلوكياتهم ومبادئهم فى مضمار العمل ، قد كانت شرفاً حقيقياً ، وميزة كبيرة أعتز بها، أضف إلى ذلك أن مثل هذه النخبة المحترمة والمنكبة على عملها من الباحثين تولى اهتمامها الكافى بالمشاركة فى إصدار هذا الكتاب وعلى النحو الذى يطمئن كل هؤلاء الذين يزعمون أن الدراسة والتدريس متعارضان إلى حد ما .

وأتقدم بالشكر الخاص إلى توماس هارنويل ، وهو مصور محترف فى الشرق الأوسط ، والذى تحوى صفحات هذا الكتاب العديد من صوره المثيرة للذكريات ، كما أدين بالفضل إلى باربرا بارمنتر وإيان مانرز للدعم المالى الذى حصلا عليه من جامعة تكساس فى أوستن ، مما ساعد فى تغطية تكلفة إعداد الصور ، وأدين بالفضل أيضاً إلى توم لما أبداه من سخاء فى مشاركته بهذا العمل ، وأشكر كذلك جيفرى تيف الذى أعد خرائط هذا الكتاب والتى رسمها يدوياً ، والتى لسوء الحظ قد اختفت لدى قيامى بنقل منزلى ومكتبى فى خضم الاستعدادات النهائية لإصدار الكتاب . وأتوجه بالشكر هنا إلى العاملين فى إدارة الإنتاج لدى الناشر لما بذلوه من جهد كبير فى إعداد خرائط جديدة للكتاب .

وهناك أيضاً مراجعان مجهولان ، وأيضاً دونالو .لى. جوردون محرر المسلسلات الدرامية ، والذين قدموا اقتراحات ممتازة لجعل هذا الكتاب صديقًا للباحث بقدر الإمكان . وأعرب عن تقديرى وامتنانى أيضًا لمستوى الدعم التحريرى الذى تلقيناه من لين رينير ، وسالى جلوفر ، وليزلى بروكس أثاناسوليس ، وبيث بارتن . وعلى نحو خاص ، فإن النصيحة الحكيمة التى قدمتها لين طوال مراحل مشروع الكتاب قد ساعدت فى تنفيذه إلى حد كبير .

وفى جامعة كانساس ، شارك فيليب هوكستابل بكل ما لديه من خبرة تحريرية ، كما سعدت بانضمام رجاء أبو الخير إلينا فى النهاية حيث أضافت من رصيد خبرتها الشيء الكثير فى مجال تصحيح النصوص الطباعية . أما زميلى وزوجى فيليب أ. شروت فقد كان شريكاً لى طوال سنوات استكشاف منطقة الشرق الأوسط بكل ما تتميز به من تعقيدات مثيرة ومذهلة، وأخيراً لابد أن أعرب عن شكرى الخاص لكارول ج. فابيان، و.ل. إيلين كيندى ، ومارلى .ك . ماكيجنيس ، وريتا ستاكى ، والذين بدونهم لما كانت مشاركتى فى مشروع الكتاب أمراً ممكناً .

وختاماً ، فإننى أهدى هذا الكتاب إلى جميع أساتذتنا السابقين فى الشرق الأوسط، وإلى كل هؤلاء النساء والرجال الذين كانوا أول من فتحوا عيوننا على إمكانيات إجراء بحث عن هذا الجزء الرائع من العالم .

- ١ -

المقدمة

ديبورا ج . جيرنر

الإجابة المألوفة الأكثر تكراراً التى اعتدت سماعها عندما أخبر شخصاً ما أننى أقوم بدراسة وتدريس شئون الشرق الأوسط هى : هل أصابك الجنون ؟ أليس هذا بالأمر الخطير؟ كيف تقدمين على ذلك والمسلمون كلهم يكرهون المسيحيين واليهود؟ وكيف تنادين بالمساواة بين الجنسين بينما لا تزالين تكنين الاحترام والتقدير للثقافة هناك ؟ والحقيقة أن تلك الإجابة مردها تلك الصورة التى انطبعت فى أذهان سكان أمريكا الشمالية عن الشرق الأوسط كمنطقة تعد بؤرة ساخنة للصراعات وحوادث العنف ، وتغص بالمتطرفين والمتعصبين دينياً ، وحيث الإرهاب أشبه بالمرض المستوطن ، والنساء يعاملن على أنهن من المنقولات وممتلكات أزواجهن ويلعبن دوراً هامشياً فى الحياة .

ولم أكن قط على ثقة تامة من كيفية الرد على ردود الفعل هذه لأن منطقة الشرق الأوسط التى قد جئت إليها لمعرفتها عن كثب تحمل قدراً قليلاً من التشابه مع تلك الأفكار ، أو بالأحرى ، الصور الذهنية المقولبة المأخوذة عنها . ومن هذا المنطلق، فإن كتاب الشرق الأوسط المعاصر «محاولة للفهم» يتحدى هذه الصور المألوفة ويقدم صورة أكثر وضوحاً للعرب الذين يشكلون أغلبية بين سكان المنطقة ، كما يقدم صورة المنطقة من الأتراك ، والفرس والإسرائيليين وشعوب شمال أفريقيا والأكراد ممن يقطنون هذه المنطقة التى تتسم بتنوعها وروعتها .

وكما ورد فى هذا الكتاب ، فإن مصطلح الشرق الأوسط يشير إلى مجموعات متميزة ومختلفة من الدول تغطى أكثر من ستة ملايين مربعًا من المناطق الصحراوية، والجبال، والأراضى الزراعية الخصبة (وهى مساحة تبلغ تقريباً ضعف مساحة الولايات الثمانى والأربعين الواقعة فى الجزء الأدنى من أمريكا) . وفى منطقة

شبة الجزيرة العربية ، توجد الدول المنتجة للبترول : المملكة العربية السعودية ، الكويت ، البحرين ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، قطر ، سلطنة عمان ، اليمن ، وهذه الدول إضافة الى تلك التى تقع فى منطقة الهلال الخصيب (إسرائيل ـ الأردن ـ لبنان ـ سوريا ومناطق الحكم الذاتى الفلسطينية فى الضفة الغربية ـوقطاع غزة) تعرف فى الغالب بأنها «قلب» الشرق الأوسط وتضم هذه المنطقة أيضاً دول شمال أفريقيا : الجزائر ـ مصر ـ ليبيا ـ المغرب ـ تونس . وكذلك دول جنوب الصحراء: جزر القمر ، جيبوتى ، موريتانيا ، الصومال ، السودان (وذلك بمقتضى عضوية هذه الدول فى جامعة الدول العربية) وعلاوة على إسرائيل ، فإن دولاً غير عربية مثل تركيا وإيران من الدول التى لها أهميتها فى المنطقة ، وفى عهد الإمبراطورية العثمانية ، استطاعت تركيا أن تبسط حكمها على كافة أراضى الشرق الأوسط ، أما اليوم فإن الدولة التركية باتت تشغل مساحة أصغر وتتوزع جغرافياً ما بين آسيا الوسطى وأوروبا ، والشرق الأوسط ، وتقع إيران أيضاً فى أكثر من اتجاه حيث تجاور أفغانستان وآسيا الوسطى شرقاً بينما تجاور العراق وبقية البلدان العربية غرباً .

وجميع الديانات السماوية الثلاث : اليهودية ، المسيحية ، الإسلام ، لها جذورها الراسخة فى منطقة الشرق الأوسط ، ولا يزال لكل هذه الديانات جماعات كبيرة من المؤمنين بها فى المنطقة . كما أن تعاليم التوراة والإنجيل والقرآن والمبادئ والأحكام الأخلاقية والقصص والشعوب تعتبر كلها جزءاً لا يتجزأ من الطريقة التى يفهم العرب من خلالها العالم سواءً أكان أى فرد فى هذا العالم عضواً ينتمى إلى أى من هذه الديانات أم لا .

وجرت العادة على أن يستخدم العديد من الناس كلمات مثل : مسلم ، شرق أوسطى، وعربى بطريقة تبادلية بحيث تستعمل كل منها مكان الأخرى ، وهذا أمر غير صحيح تماماً ويجانبه الصواب . وبادئ ذى بدء ، ليس بالضرورة أن يكون كل فرد مسلم عربياً ، فالإسلام دين عالمى رئيسى ، وهو يمثل المرتبة الثانية ، فقط من حيث العدد ، بعد المسيحية حيث يبلغ عدد المسلمين فى العالم زهاء المليار نسمة وهناك أكثر من نصف المجتمعات الإسلامية فى أرجاء العالم إما فى أفريقيا أو آسيا (بما فى ذلك الفرس ، الأتراك ، الهنود ، الباكستانيين ، الإندونيسيين ، والصينيين) وهناك حوالى ٢٠ ٪ فقط من المسلمين العرب ، بينما تتوزع النسبة الباقية من المسلمين

فى شتى أنحاء جمهوريات الاتحاد السوفيتية السابقة وأوروبا ، وأمريكا الشمالية . صحيح أنه داخل العالم العربى ، حيث ظهر الإسلام هناك أكثر من ٩٠٪ من السكان مسلمون ، بيد أن هناك أيضاً عرباً من المسيحيين أو الدروز أو البهائيين أو اليهود ، وبوجه خاص هنالك عدد كبير من المسيحيين فى فلسطين ولبنان ومصر.

وليس ثمة شك فى أن التفاعل بين القديم والحديث ، يؤثر على قدرة العالم على فهم الشرق الأوسط وأيضاً على رؤية الشرق الأوسط لذاته ، فصاحب المتجر الصغير الكائن فى أحد الشوارع داخل أسوار المدينة القديمة بالقدس أو حتى الأسواق القديمة فى دمشق ، أو بغداد ، أو القاهرة ، لديه وعى بالتاريخ وأحداثه يفوق ما لدى مالك متجر لبيع آيس كريم باسكين روبينز فى تورونتو من ثقافة تاريخية ، وقد برز الصراع والتنافس على الشرق الأوسط فى التاريخ الأوروبى منذ ما قبل عصر الإمبراطورية الرومانية ، حيث عبر ذلك الصراع عن نفسه بطرق شتى ومتنوعة سواء عسكرياً ، أو دينياً ، أو اقتصادياً ، أو حتى فى صورة تنافس استعمارى ، بل إن دولة مثل الولايات المتحدة فى بداية نشأتها ، والتى بدت معزولة عبر المحيط الأطلسى ، قد وجدت نفسها متورطة عسكرياً ودبلوماسياً فى هذه المنطقة فى مطلع القرن التاسع عشر حيث دخلت فى صراع ضد «القراصنة البربر» فى شمال أفريقيا .

ومع هذا فإن الاتصالات بين الغرب والشرق الأوسط ، لم تكن كلها قائمة على العداوة. ذلك أن ثقافات أمريكا الشمالية وأوروبا قد تأثرت باستمرار بالشرق الأوسط ، وهو تأثر كان عميقاً فى أغلب الأحوال ، وخلال العصور الوسطى ، كانت أغلب أجزاء الشرق الأوسط أكثر تقدماً من أوروبا فى مجالات العلم والطب والرياضيات والعمارة والأدب والفنون المرئية والتعليم . كما أن أشهر أعمال الفلسفة اليونانية التى انتقلت الى أوروبا الغربية قد بقيت على قيد الحياة فى العالم العربى - الإسلامى ، ثم أعيد إدخالها إلى الغرب من خلال وسطاء من العرب .

والحقيقة أن بعض هذه الأعمال قد باتت فى طى النسيان فى مفردات لغة تعاملاتنا اليومية . وعلى سبيل المثال ، فإن الكلمتين الإنجليزيتين alcohol , algebra هما فى الأصل كلمتان عربيتان ، وقد أصبحتا جزءاً من اللغة الإنجليزية من خلال الكتابات العلمية والرياضية العربية والتى ساعدت فى إعادة ميلاد المعرفة العلمية فى

أوروبا فى نهاية العصور الوسطى . والفعل الإنجليزى Cipher الذى لم يعد مستخدماً الآن ومعناه الحساب بالأرقام ، يأتى مباشرة من الكلمة العربية صفر والتى تقابلها Zero فى الإنجليزية . وكان الفضل يرجع إلى العرب فى تعلم الأوروبيين، ولأول مرة طريقة الحساب بالنظام العشرى بدلاً من استعمال النظام المحدود للأرقام اللاتينية .

هذا التأثير لثقافة الشرق الأوسط لم يقتصر على العلم والدين وحدهما ، وإنما امتد إلى الأدب ، ففى خلال القرن الماضى ، حظى العديد من الشعراء والفلاسفة الشرق أوسطيون بشهرة واسعة فى الغرب . إذ إن الأساطير والقصص العربية والفارسية فى العصور الوسطى والتى جمعت فى مؤلف ضخم بعنوان ألف ليلة وليلة قد ترجمت لأول مرة إلى الفرنسية فى مطلع القرن الثامن عشر ، وفى أواخر القرن العشرين ، كانت الأعمال المترجمة الشهيرة لشركة ديزنى ، مثل علاء الدين ، وعلى بابا ، وسندباد البحار ، من الثوابت الأساسية كخطابات وقصص تروى للأطفال فى مرحلة ما قبل المدرسة فى العالم الصناعى ، وسحرت رباعيات عمر الخيام القراء الغربيين بعد أن ترجمها إدوارد فيتز جيرالد فى القرن التاسع عشر ، وفى الستينيات . نالت أعمال الشاعر اللبنانى خليل جبران شهرة واسعة فى أنحاء الولايات المتحدة ، وفى أواخر التسعينيات ، كانت دواوين الشاعر الصوفى الفارسى جلال الدين الرومى والتى صورت القرن الحادى عشر ، تحتل قوائم الكتب الأكثر مبيعاً ، وعندما فاز الأديب المصرى المعروف نجيب محفوظ بجائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٨٨ ، كان هناك إقبال مفاجئ من قبل الملايين من غير العرب على قراءة ثلاثية نجيب محفوظ وغيرها من مؤلفاته ورواياته .

ويحظى الشرق الأوسط أيضاً بأهمية كبيرة باعتباره إحدى المناطق العديدة التى تشهد فى الوقت الراهن تحولاً من مرحلة ما قبل التطور الصناعى إلى مرحلة ما بعد الاقتصاد الصناعى ، ومن عصر عالم الغربة إلى عصر عالم القرية الصغيرة ، والسكان فى دول الشرق الأوسط ، شأن السكان فى دول أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا يواجهون تحديات هائلة، بينما ينتقلون من الاقتصاد الريفى إلى الاقتصاد الحضرى ، ومن حياة تقوم على التقاليد إلى حياة قوامها الابتكار والإبداع ، ومن عالم الأساطير والحكايات التى يسمعها الناس وهم يتجمعون حول المدفأة فى برد الشتاء إلى عالم جديد انتشرت فيه الأطباق الفضائية وشبكة «سى إن إن» الإخبارية الأمريكية ،

وألعاب الفيديو المعروفة باسم نايتندو ولاشك أن كل هذه التغيرات يمكن أن يكون لها تأثيرها العميق على البنيان الاجتماعى للأسرة ، وعلى أدوار النساء والرجال ، ومكانة الدين فى المجتمع ، ومسئوليات الفرد تجاه الدولة ومسئوليات الدولة إزاء الفرد .

وهذا التنوع الذى تزخر به منطقة الشرق الأوسط يعنى أن هناك العديد من ردود الفعل المختلفة حيال هذه التحولات الاجتماعية الاقتصادية . وعلى سبيل المثال ، واستجابة لضغوط التحديث والتأثير الأوروبى ، تمكن كمال أتاتورك فى بداية العشرينيات ، ومعه الأتراك الشبان من إحداث تحول فى المجتمع التركى بالتخلص من القوانين والنظم التى كانت سائدة إبان عصر الإمبراطورية العثمانية وإقامة دولة تركية علمانية . ومع هذا وعبر الحدود من تركيا ، نجد أن الثورة الإيرانية (١٩٧٨ – ١٩٧٩) بقيادة آية الله روح الله خومينى، قد استجابت لضغوط التحديث من خلال الإطاحة بنظام حكم علمانى موال للغرب وإقامة جمهورية إسلامية ترتكز على القوانين الإسلامية .

وبينما يستكشف القارئ الأبعاد المختلفة لمنطقة الشرق الأوسط فى صفحات هذا الكتاب ، سيجد عالماً يعرف أنه موجود بالفعل ولكن لديه القليل من المعرفة به . ومن ثم ستؤكد فصول الكتاب بعض المفاهيم والأفكار الراسخة فى ذهن القارئ ، بيد أنها ستتحدى العديد من المفاهيم الأخرى . ذلك أن الشرق الأوسط عالم يموج بالتنوع الهائل وأيضاً بالتقاليد المشتركة ، عالم يعج بمتناقضات الثراء والفقر ، وأيضاً العديد من القيم والمثل والتطلعات المشتركة . وهذا هو عالم الشرق الأوسط .

- ٢ -

الشـرق الأوسـط
مـقـدمـة جـغـرافـيـة

أيان ر. مانرز. وباربرا ماكين بارمنتر

لعل بعض الصور التى قد تقفز إلى الذهن أكثر من غيرها حين يفكر العالم الخارجى فى الشرق الأوسط هى تلك التى تتمثل فى قافلة من الإبل، تعبر الكثبان الرملية فى الصحراء، والهياكل المعدنية الضخمة المقامة فوق الآبار البترولية لضخ النفط الأسود السميك، والصفوف الطويلة من الرجال وهم يؤدون صلواتهم فى المساجد، والمتظاهرين الملتحين الذين يرددون الشعارات والهتافات . وكل واحد منا يحمل «جغرافيته» عن العالم وأماكنه فى عقله، وأيضاً الطريقة التى يرى من خلالها كوكب الأرض الذى نحيا فوقه وتفسير ما يجرى فيه، ويحاول علماء الجغرافيا المحترفون تصحيح الأفكار المسبقة وطرح منظور أوسع بدلاً منها وبالمثل، فإن أى وصف جغرافى لمنطقة الشرق الأوسط شأنه شأن أى وصف لأية منطقة أخرى، سيبدأ باستعراض للبيئة الطبيعية : الجيولوجيا (علم طبقات الأرض) الجيومورفولوجيا (دراسة شكل الأرض وتضاريسها وتوزيع اليابسة والبحار على سطحها)، والمناخ والحياة النباتية والحيوانية، وذلك كخلفية لمناقشة الأنشطة الإنسانية فى المنطقة، واستخدام الأرض، وتنمية الموارد، وتوزيع السكان والتحضر، والتنظيم السياسى. ومع هذا كله فإن أفضل هذه الأوصاف غالباً ما تفشل فى تقديم صورة «حقيقية» عن الشرق الأوسط .

إن الشرق الأوسط لا يمكن تجزئته بسهولة إلى فصول مستقلة فى كتاب أو حتى تقسيمه بدقة بخطوط حدودية على خريطة . فالحدود تبدو غير واضحة، والثغرات تظهر بصورة غير متوقعة، وروح الألفة أو الحميمية فى الحياة اليومية تفاجئنا لدى توقعنا لما قد يحدث من أمور غريبة أو خطيرة . وتحدث تيموثى ميتشيل (١٩٨٨) عن ذلك عندما وصف كيف أن المسافرين الأوروبيين إلى مصر فى القرن التاسع

عشر كانوا يشعرون بالارتباك والتشوش دائماً لما كانوا يرونه لدى وصولهم إلى مصر : فقد كانوا يرون المنتجات والتحف المصرية القديمة المصنوعة يدوياً التى كانت قد جمعت وعرضت فى عواصم أوروبا ، بل أنهم زاروا القاعة المصرية فى المعرض العالمى الذى أقيم فى باريس حيث قرأ البعض منهم كتاب وصف مصر الذى يشمل ٢٢ مجلداً والذى عكف على إعداده نخبة مختارة من الفنانين والباحثين الفرنسيين الذين رافقوا نابليون فى حملته إلى مصر ، بيد أنه ما من شىء مما رأوه أو عايشوه كان يعادل تماماً ما قد كانوا يتوقعون مشاهدته ، وكان هناك فى الغالب شعور بخيبة الأمل وكان السؤال الذى يتبادر إلى أذهانهم عندئذ هو : أين كانت مصر الحقيقية؟ وبطريقة مماثلة ، فإنه من المرجح أن يكتشف الزائرون المعاصرون للشرق الأوسط أن معرفتهم الجغرافية بحاجة إلى أن تعاد صياغتها وهم يجابهون عالماً يتحدى العديد من توقعاتهم .

وعلى هذا ، فإن المدخل الصعب المؤدى إلى فهم منطقة الشرق الأوسط ، وبكل ما يتسم به من تعقيد ، مدخل لا يسافر عبره القادمون من الخارج فقط ، ففى الفيلم الإيرانى (باسهو) يحكى المخرج بهرام بيازى قصة صبى من صحراء خوزستان فى جنوب غربى إيران ، والذى تعرضت قريته للقصف .

ويفهم باسهو الشىء القليل فقط عن الأسباب التى فجرت الصراع بين حكومته وجارتها العراق . وكل ما يعرفه أنه أصبح الآن مشرداً ويتيماً . وعندما أعياه التعب ، استراح خلف شاحنة واستغرق فى نوم عميق ، وحين استيقظ انتابته الدهشة عندما وجد نفسه فى عالم هادئ من الغابات الخضراء ، والذى كان بالنسبة له أشبه بالجنة التى لم يكن ليحلم بها قط ، وقد أوصلته الشاحنة إلى مقاطعة جيلان فى شمال غرب إيران حيث استضافته فلاحة على الرغم من معارضة جيرانها . وباسهو هذا وهو من أصل عربى ، يتحدث بلهجة هى مزيج من العربية والفارسية ، وهى لهجة مألوفة لدى سكان المناطق الحدودية فى خوزستان . أما السيدة الفلاحة فتتحدث لهجة الجيلانى ، وهى لهجة فارسية ، ولعجزه عن التفاهم مع هذه السيدة التى استضافته أو حتى مع جيرانها فقد وجد باسهو مشقة بالغة فى التعامل معهم . ولكنه لم يكن بمفرده فى هذا الموقف . إذ إن السيدة التى فتحت له بيتها وجدت صعوبة هى الأخرى فى العناية بشئون مزرعتها بينما كان زوجها بعيداً عنها يشارك فى الحرب ، وحين يعود الزوج من جبهة القتال ويطلب رحيل الصبى عن البيت ، ترفض الزوجة الإذعان

لطلبه . وفى ضوء هذه الأحداث يمكن القول بأن هذا الفيلم انعكاس صغير لمشكلات أكبر يعيشها الشرق الأوسط حيث يستكشف الطرق التى يتعامل الناس من خلالها مع الخلافات ويواجهون المتغيرات المرتبطة بالبيئة ، والثقافة والحكومة ، والدين والجنس البشرى .

وهكذا ، ورغم أن مصطلح الشرق الأوسط قد يبدو وكأنه يعنى درجة من التجانس بين سكانه وشعوبه ، إلا أن المنطقة تعد متنوعة بطريقة غير عادية من حيث مشاهدها الطبيعية ، والثقافية ، والاجتماعية وبالنسبة إلى الكثيرين ، تبدو الصحراء التعبير المجازى الأساسى للشرق الأوسط ، ذلك التعبير أو الصورة التى باتت تتكرر فى الأفلام والروايات وربما كانت المنطقة التى يطلق عليها الربع الخالى فى الصحراء العربية أفضل انعكاس لتلك الصورة .

ومع هذا فإن المشاهد الطبيعية للشرق الأوسط تتضمن أيضاً جزر الشعب المرجانية التى تجتذب الغطاسين إلى البحر الأحمر ، وحقول الثلج الدائمة والأنهار الجليدية على منحدرات القمم البركانية لجبل آرارات (٥,١٦٥ متر) فى شرق الأناضول وجبل دامافاند (أكثر من ٥,٦٠٠ متر) فى سلسلة جبال البورز فى إيران ، والمسطحات التى تكسوها الأملاح وأحواض تبخير الأملاح فى منطقة دشت الكبير فى وسط إيران ، والمستنقعات الساحلية فى دلتا النيل . والشيء المؤكد إلى حد كبير هو أنه برغم المساحات الشاسعة من الصحراء والسهول فى الشرق الأوسط ، إلا أنه أيضاً مجتمع حضرى حيث يعيش ما يربو على نصف سكانه فى مدن حديثة تواجه نفس المشكلات البيئية والاجتماعية ومشكلات البنية الأساسية التى تعانيها المدن الأخرى حول العالم .

وهناك بالمثل تنوع ثقافى هائل فى منطقة الشرق الأوسط ، وهو تنوع يرجع إلى أن العديد من بلدان المنطقة كانت خاضعة للحكم العربى الإسلامى إبان القرن السابع عشر وبعده . وفى عصور تاريخية مختلفة ، تدفقت الشعوب الفارسية وشعوب آسيا الوسطى إلى الغرب وباتجاه الأراضى الواقعة حول شرق البحر الأبيض المتوسط . وكان معظم السكان فى المنطقة من المسلمين ، ولكن كانت توجد أيضاً مجتمعات كبيرة من المسيحيين واليهود . واللغات الرئيسية التى كان يتحدث بها سكان المنطقة فى ذلك الوقت هى العربية ، والتركية ، والفارسية ، وكلها تعد مختلفة تماما من

الناحية اللغوية. (فالعربية لغة سامية ، والفارسية لغة هندية - أوروبية ، والتركية لغة جبال الطاى والأورال فى آسيا الوسطى) .

ورغم الاختلاف بين هذه اللغات الثلاث ، إلا أنها تأثرت بعضها بالأخرى إلى حد كبير . فالفارسية تكتب بحروف عربية ، وكما كان الحال بالنسبة للغة التركية العثمانية إذ إنه منذ سنة ١٩٢٨ فقط بدأت اللغة التركية تستخدم الحروف اللاتينية المعدلة . وتزخر اللغات الثلاث أيضاً بالعديد من الكلمات المأخوذة من بعضها الأخرى، وكل واحدة منها لها أيضاً مجموعة من لهجاتها المحلية المختلفة . وعلاوة على هذا ، على سبيل المثال ، هناك من يتحدثون لغة البربر فى المغرب والجزائر ، ولغة البلوش فى جنوب شرقى إيران . ومن المرجح أن السكان الذين يتحدثون اللغة الكردية يشكلون رابع أكبر المجموعات اللغوية فى المنطقة ، كما أن اللغة العبرية تستخدم على نطاق واسع بين اليهود فى إسرائيل .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : كيف يتسنى لنا بعد ذلك وصف جغرافية الشرق الأوسط ؟ وفى هذا الفصل اخترنا تقديم جغرافيات متعددة للشرق الأوسط ، وطرقًا أخرى لرؤية وتصوير المنطقة . ومن ثم ، فإن الأمل يحدونا فى تقديم وصف للمنطقة أكثر ثراءً من ذلك الوصف الذى قد تحويه فى العادة صفحات قليلة ، حتى وإن كان الوصف الذى نقدمه هنا بعيداً عن كونه شاملاً .

الحـــدود :

لابد من الحديث أولاً عن كيفية تحديد جغرافية منطقة الشرق الأوسط . وبالمقارنة مع المنطقة التى صورها أى أطلس غربى صدر فى أواخر القرن التاسع عشر ، فإن المشهد الطبيعى السياسى للمنطقة التى نعرفها اليوم على أنها منطقة الشرق الأوسط التى لا يمكن بالفعل تمييزها أو إدراكها . وكمثال على ذلك ، يتضمن الأطلس الذى أصدرته صحيفة تايمز اللندنية فى سنة ١٨٩٥ سلسلة من الخرائط التى تحمل عناوين «شبه جزيرة البلقان» و «القوقاز» و «آسيا الصغرى» و «فارس» و «فلسطين» . كما أن هذه الأماكن ، ومثلما صورها الأطلس ، لم تكن مألوفة بشكل أو بآخر لدى هؤلاء الذين يعيشون فى المنطقة ، والذين لم يكونوا يعترفون بكيان جغرافى موحد وإنما بفسيفساء من المناطق المتباينة . فالعراق كان يشير إلى المنطقة الواقعة حول ممر شط العرب المائى ، وكانت منطقة الجزيرة تعرف بالأراضى المحصورة بين نهرى دجلة والفرات، بما فيها بغداد . وكانت الشام تشير إلى المنطقة الواقعة مباشرة حول دمشق

وبلاد الشام ، أما المنطقة الأكبر الآن تضم سوريا ، ولبنان ، والأردن ، وفلسطين . ولا يزال المصريون يطلقون اسم مصر على بلدهم ، بيد أن هذه الكلمة كانت تشير في الأصل إلى منطقة دلتا النيل فقط ووادیها الضيق ، وليس إلي الأراضى الشاسعة التي تدخل في نطاق حدودها الحالية . وتكشف خريطة الشرق الأوسط اليوم عن جغرافية مختلفة تماماً . وبلا استثناء تقريباً ، نجد أن الدول الحالية ذات السيادة كيانات جغرافية جديدة، أو هي بالأحرى نتاجات للتدخل الأوروبي ولتقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية .

والحقيقة أن مصطلح الشرق الأوسط ذاته مصطلح أوروبى أساسًا . ويبدو أن هذا المصطلح قد استخدم أول مرة في سنة ١٩٠٢ في إشارة إلى الاستراتيجية البحرية البريطانية في منطقة الخليج في الوقت الذى تزايد فيه النفوذ الروسى حول بحر قزوين والخطط الألمانية لإنشاء خط سكة حديد برلين – بغداد . ومن خلال الوثائق التي نشرتها صحيفة تايمز ، فإن مصطلح الشرق الأوسط ، وإلى حد كبير ، كان يشير إلى منطقة لها أهميتها الاستراتيجية بالنسبة لبريطانيا وهى المنطقة الواقعة بين الشرق الأدنى (وهو مصطلح أوروبى أساسى آخر مرادف أساسًا للمنطقة التى ظلت تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية) ، وبين الإمبراطورية الروسية الواسعة في آسيا الوسطى ، ومناطق الحكم الهندية (شيرول – ١٩٠٣) . وأثناء الحرب العالمية الأولى، كان يشار بوجه عام إلى قوة الحملة البريطانية إلى بلاد ما بين النهرين باعتبارها قوات الشرق الأوسط ، وذلك تميزاً لها عن قوات الشرق الأدنى البريطانية ، والتى كانت تعمل انطلاقًا من قواعدها في مصر . وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، تم الدمج بين هاتين القيادتين العسكريتين كإجراء اقتصادى ، ولكن ظل هذا المعنى لمصطلح الشرق الأوسط كما هو .

ومع مرور الوقت صار هذا الاسم مألوفًا ومؤسسيًا ، أولاً في القيادات العسكرية للحرب العالمية الثانية وبعد ذلك في الوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة (سميث – ١٩٦٨) . ومع هذا كله ما زالت هناك شكوك وملابسات تكتنف التحديد الأكثر دقة لمصطلح الشرق الأوسط . فهل يتضمن الشرق الأوسط أفغانستان من ناحية الشرق ؟ . ومع انهيار الاتحاد السوفيتي ، هل يجب إعادة تشكيل المنطقة لتشمل دولاً جديدة ذات سيادة ، مثل أرمينيا و أذربيجان ؟ . وفى أغلب الأحوال ، فإن دول المغرب ، وهي تونس والجزائر ، والمغرب، تكون مطروحة في المناقشات حول الشرق

الأوسط استناداً إلى حقيقة مفادها أن تلك الدول تربطها سمات ثقافية وتاريخية مشتركة .ولأسباب مماثلة ، فإن هذه المنطقة تضم السودان أيضاً على الرغم من وجود عدد كبير من السكان غير المسلمين ، وغير الناطقين بالعربية فى الجزء الجنوبى من البلاد. (بليك ، دويدنى ، ميتشيل – ١٩٨٧) . وفى هذا الكتاب ، اخترنا تفسيراً واسعاً حيث أدرجنا فى القائمة دولاً أخرى مثل تركيا ، وإيران ، وإسرائيل، إضافة إلى الدول الأعضاء فى جامعة الدول العربية .

ولعل مما يثير الدهشة أن مصطلح الشرق الأوسط يستخدمه أيضاً سكان هذه المنطقة. والترجمة العربية الحرفية للمصطلح والذى يعنى بالإنجليزية (Middle East)، وكذلك الترجمة التركية وهى (Orta docu) يمكن أن نجدها فى الكتب ، والصحف ، والدوريات وغيرها من المطبوعات . ومما يثير الاهتمام فى الوقت ذاته أن مصطلح الشرق الأوسط يستخدم على نطاق واسع فى المناقشات حول استراتيجيات الجغرافية السياسية فى المنطقة . وكمثال على ذلك ، قد يناقش المعلقون العرب السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط أو علاقة إسرائيل بالشرق الأوسط . وهكذا ، فإن المصطلح ربما يكون إشارة بمعناه الواسع ، إلى الكيفية التى يرى الآخرون من خلالها، سواء من خارج المنطقة أو من خارج البيئة الثقافية العامة ، هذه المنطقة ، وبمعناه الضيق قد لا يعدو أن يكون مصطلحاً لمجرد الوصف الذاتى .

وليس ثمة شك فى أن خريطة منطقة بعينها هى الأكثر تعبيراً عن جغرافيتها المحتملة ، ولكنها يمكن أن تكون خريطة جغرافية ومعلوماتية فى آن واحد . وبالنظر إلى الخريطة السياسية المعاصرة لمنطقة الشرق الأوسط ، يتبين لنا مدى هيمنة الخطوط الحدودية الطويلة والمستقيمة الممتدة عبر مئات الأميال فى الصحراء (انظر الخريطة ١ : ٢) . وهناك سمة أخرى فى خريطة الشرق الأوسط المعاصر ، والتى يشير إليها برنارد لويس ، وهى أن أسماء الدول فى هذه المنطقة ، هى فى معظمها أعيد إحياؤها أو أعيد بناؤها من أسماء قديمة (لويس ١٩٨٩ ٢٢ : ٢١) . فاسم سوريا ، مثلاً ، هو مصطلح ظهر أول مرة فى كتب التاريخ والجغرافية اليونانية ثم تبناه فيما بعد الرومان باعتباره اسماً لمقاطعة إدارية . ولكن مع بداية الفتوحات العربية الإسلامية فى القرن السابع أخذ هذا الاسم يتلاشى فعلياً واختفى استعماله محلياً. وترجع عودته للظهور مرة أخرى إلى القرن التاسع عشر ، وذلك إلى حد كبير من خلال كتابات ومؤلفات وتأثير الباحثين الغربيين . وبالمثل ، وعلى الرغم من أن

الأوروبيين قد اعتادوا الإشارة إلى أراضى الأناضول وآسيا الصغرى على أنها تركية منذ عصور الحملات الصليبية ، إلا أن سكان هذه المنطقة لم يستخدموا هذا الاسم حتى تأسيس جمهورية تركيا فى سنة ١٩٢٣ .

ولفهم التغيرات التى قد طرأت على الخريطة السياسية لمنطقة الشرق الأوسط ، فإنه من الضرورى أن نسترجع أنه فى نهاية القرن السادس عشر امتدت سلطة ونفوذ الإمبراطورية العثمانية من حدود المغرب غرباً إلى حدود إيران شرقًا ، ومن البحر الأحمر جنوباً إلى الشواطئ الشمالية والشرقية للبحر الأسود (انظر الخريطة ٢ : ٢)

وفى أوروبا، فرض العثمانيون حصاراً على ڤيينا مرتين . بيد أن القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهدا تراجعًا تدريجيًا من هذه المناطق الحدودية البحرية . إذ إنه فى الإمارات التركية والتتارية الممتدة من شبه جزيرة القرم وحتى منطقة القوقاز ، زالت السيادة العثمانية لتحل محلها الهيمنة الروسية ، وفى منطقة البلقان ، واجه العثمانيون التطلعات القومية المتنامية وعدواناً منسقاً من جانب النمسا وحليفاتها ؛ وفى شمال أفريقيا كان يتعين على العثمانيين التعامل مع سياسات التوسع وفرض الهيمنة العسكرية ممثلة فى الفرنسيين فى الجزائر (١٨٣٠) ، وتونس (١٨٨١) ، والإيطاليين فى ليبيا (١٩١١) .

وفى مناطق أخرى دب الضعف فى قوة الإمبراطورية العثمانية من جراء ظهور حكام محليين أقوياء . ففى أعقاب فشل الحملة الفرنسية بقيادة نابليون على مصر، مثلاً ، أسس ضابط عثمانى يدعى محمد على أسرة حاكمة استطاعت بالفعل أن تجعل مصر دولة مستقلة عن الحكم العثمانى . ومن ثم ، فإن إفلاس الإدارة المصرية بعد الجهود الرامية إلى تحديث اقتصاد البلاد وبنيتها الأساسية قد فتح الطريق أمام المزيد من التدخل الأوروبى المباشر فى شئون مصر من خلال لجنة الديون الفرنسية - البريطانية والاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ ، وذلك على الرغم من أن البلاد كانت لا تزال اسمياً تحت السيادة العثمانية . وفى لبنان ، فى أعقاب مذبحة المسيحيين المارونيين على أيدى الدروز فى سنة ١٨٦٠ ونزول القوات الفرنسية فى بيروت ، أرغمت بريطانيا وفرنسا السلطان العثمانى على تأسيس مقاطعة جبل لبنان التى كانت تتمتع بحكم شبه ذاتى مع تعيين حاكم مسيحى لها بالتشاور مع القوى الأوروبية (دريسديل) و (بليك) (١٩٨٥ : ١٩٦) .

وحتى فى المناطق التى لم تستطع القوى الأوروبية أن تفرض سيطرتها المباشرة عليها ، فإن هذه القوى قد أصبحت ، وبحلول القرن التاسع عشر ، تشارك بفاعلية فى شئون الحكم والتجارة لهذه المناطق . وساعدت هزيمة تركيا العثمانية فى الحرب العالمية الأولى فى رسم الخريطة الحالية للشرق الأوسط (فرومكين ، ١٩٩١) . وفى المرحلة الأخيرة لاضمحلال الإمبراطورية العثمانية ، أدمجت المقاطعات العربية الباقية مرة أخرى فى أراضى العراق ، وسوريا ، ولبنان ، وشرق الأردن ، وفلسطين ، وظلت خاضعة لفترة قصيرة للإدارة البريطانية والفرنسية المباشرة ، وإن كانت تلك الإدارة المشتركة قد أخذت شكل الانتداب من عصبة الأمم .

الخريطة السياسية للشرق الأوسط

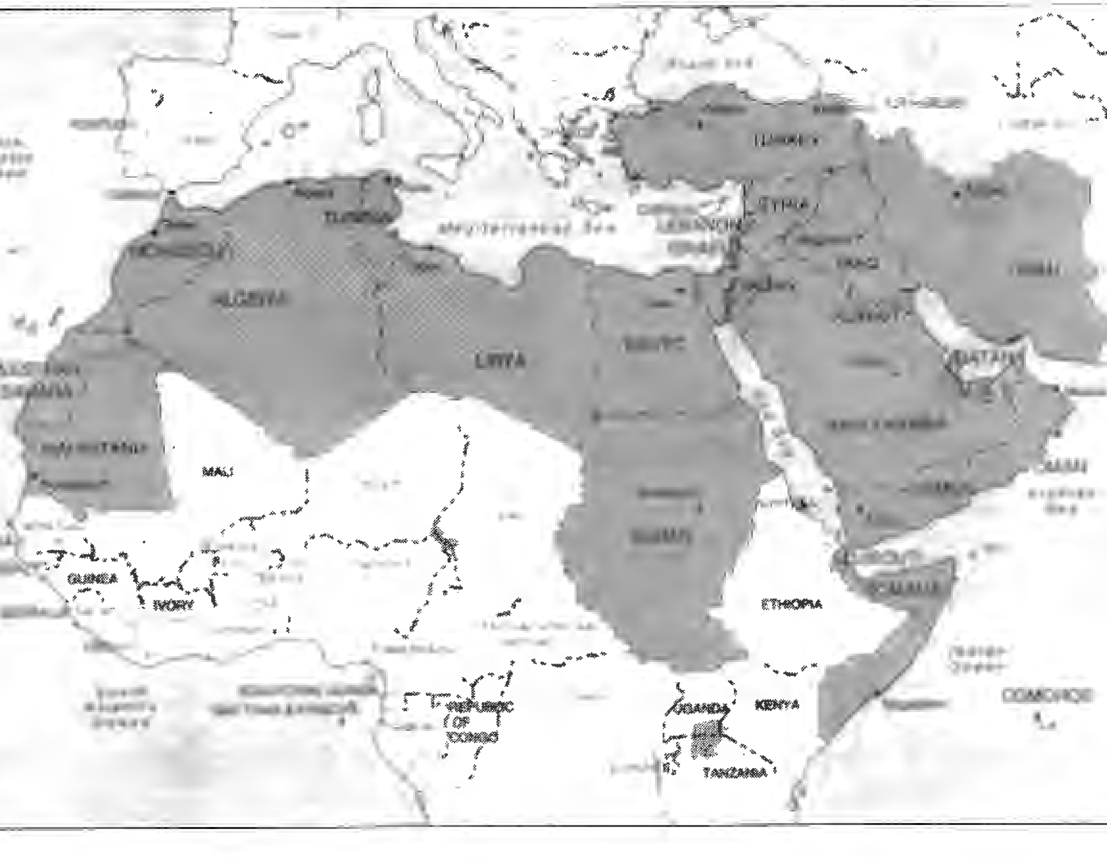

خريطة توضح حدود الإمبراطورية العثمانية

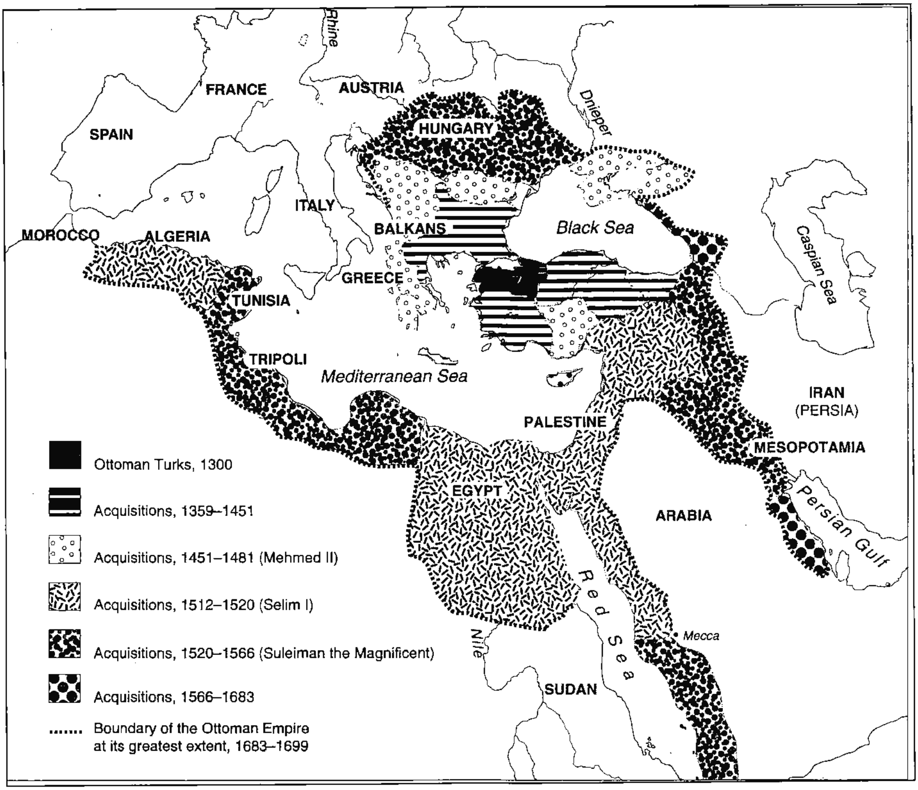

وعليه فإن خريطة الشرق الأوسط تتسم بأنها حديثة جداً وبأنها سبب للصراع بصورة متكررة. ومن منظور الموارد ، فإن عدم وجود توافق بين الحدود السياسية والمائية قد أدى إلى تعقيد تنمية المصادر النادرة للمياه . ومن منظور ثقافي ، فإن الأكراد ، وهم من غير العرب ، ولكنهم من المسلمين الذين يشكلون أغلبية من السكان تقدر بملايين عدة ، منتشرين عبر تركيا، وسوريا ، والعراق ، وإيران . وأدى سعيهم للحصول على حكم ذاتي ، بين الحين والآخر ، إلى دخولهم في مصادمات واشتباكات مع هذه الدول الأربع . وبالمثل ، فإن تقسيم المسلمين بين جماعتين إسلاميتين رئيسيتين: جماعة سنية وأخرى شيعية ، لا يتقيد بحدود قومية . وهوامش الخطأ لهذا التقسيم تتجاوز حقول النفط في جنوب العراق وشمالي المملكة العربية السعودية .

ومن منظور سياسي ، يوضح ظهور واختفاء ثم عودة الظهور المؤقت لفلسطين، أن الحدود لا تزال في حالة من التغير والتقلب . ولدى تفويضها بالانتداب على فلسطين في سنة ١٩٢١ ، سعت بريطانيا لتنفيذ الوعد الذي قطعته على نفسها عام ١٩١٧ بالعمل على إقامة وطن قومي لليهود ، بينما أكدت في الوقت ذاته ، وكما جاء في وعدها الذي عرف آنذاك بوعد بلفور نسبة إلى آرثر بلفور وزير خارجيتها في ذلك الوقت ، على أن الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية في فلسطين ستكون مصانة وستحظى بالحماية . وحقق تأسيس دولة إسرائيل في سنة ١٩٤٨ الرؤية الصهيونية بإقامة وطن مستقل يمكن أن يعيش الشعب اليهودي في ظله بمنأى عن الاضطهاد ، كما حقق له حلم العودة إلى الأرض التي كان قد أبعد عنها لما يقرب من ألفي عام عاشها في المنفى *.

ومن ثم فإن إحدى النتائج لهذه الأحداث قد كانت تتمثل في رحيل ، ومن خلال الهجرة إلى إسرائيل ، أعداد كبيرة من اليهود ممن عاشت أسرهم لقرون طويلة في مدن شتى في أنحاء الشرق الأوسط ، وأيضًا تشريد شعب آخر ، وهو الشعب

---

* يلح الكاتب هنا على فكرة «الحق التاريخي» لليهود في فلسطين التي أبعدوا عنها نحو الألفي عام ، وخاصة أن الخطاب موجه للقارئ الغربي الذي لا يعلم أن من جلبتهم الصهيونية إلى فلسطين من أوروبا ينتمون إلى سلالة آرية اعتنقت اليهودية حوالي القرن السابع الميلادي ، ثم اكتسحتهم هجمات الأتراك والمغول فانساحوا في شمال البحر الأسود وروسيا ووسط أوروبا حيث عانوا الاضطهاد هناك وليست لهم جذور أو روابط تاريخية في فلسطين . (المراجع)

الفلسطيني، والذى فر من بلاده أو أرغم على ترك دياره وأرضه خلال المعارك التى شبت وراح يبحث عن ملاذ آمن له فى مصر ، والأردن ، وسوريا ، ولبنان ، وفى أماكن أخرى فى المنطقة .

وعلى هذا النحو فإن المعالم والملامح الجغرافية لخريطة المنطقة قد أعيد رسمها وتشكيلها طيلة القرن العشرين . ومع انقضاء القرن الماضى ، تزايدت مجموعة متشابكة ومعقدة من المصالح حول الدول الجديدة فى الشرق الأوسط . ويرى لويس (١٩٨٩ : ٣٨) . أن ثمة صعوبات وتعقيدات للحدود التى أوجدتها الإدارات الاستعمارية ناهيك عن ظهور كيانات جديدة تقوم على أساس من الشعور بالولاء والانتماء للدولة . ومع هذا ، فإن المحاولات الهادفة إلى إحياء المد الإسلامى وبث الروح فى الإسلام من جديد ، والتى يتم التعبير عنها بأشكال مختلفة فى أجزاء عديدة بالمنطقة ، إنما تعد نوعاً من التذكير بأن قضية الهوية لا تزال تأخذ مجراها الطبيعى .

وبطريقة مماثلة أيضًا ، فإن انتقال سكان دول المنطقة عبر حدودها لابد وأن يذكرنا بأن هذه الدول ليست بمعزل عن بعضها. وعلى سبيل المثال ، لعبت هجرة الأيدى العاملة ، ولا تزال ، دوراً رئيسياً فى تشكيل الهياكل الاجتماعية والاقتصادية فى مختلف أرجاء المنطقة ، وذلك من خلال تحويل عائداتهم أو دخولهم من النقد الأجنبى إلى دولهم ، ومن خلال الخبرة المباشرة للعيش والعمل خارج حدود أوطانهم . ومن هذا المنطلق ، نجد أن هناك هجرات داخلية وخارجية تتفاعل فيما بينها: فهناك عمال ضيوف (gastarbeiter) من الأتراك يعملون فى ألمانيا ، وأيضاً عمال من المغرب فى فرنسا ، وقبل اندلاع حرب الخليج (١٩٩١ – ١٩٩٠) كان العمال من مصر ، واليمن ، والأردن ، يشكلون أغلبية القوى العاملة فى المملكة العربية السعودية وفى بلاد الخليج الأخرى . وأخيراً ، هناك بعض الأفراد ممن يعبرون الحدود دائمًا باعتبارهم لاجئين أو منفيين . وفى الغالب ، فإن هؤلاء الأفراد الذين يضطرون إلى مغادرة دولهم هم الأكثر قدرة من غيرهم على التعبير عن أواصر الارتباط القائمة بين الإنسان والمكان (بارمنتر ١٩٩٤) . وعلى هذا النحو ، فإن الهجرة ، سواء كانت إجبارية أو طوعية ، من الأمور التى تمس تجارب الكثيرين منا وتثير تساؤلاً أساسيًا لدى الكثيرين أيضاً ممن يكتبون عن الجغرافيا الثقافية المعاصرة عن طبيعة المكان والهوية فى ظل العولمة (ماسى وجيس – ١٩٩٥) .

الجفاف والمياه :

لنتخيل الآن أننا ننتقل من خريطتنا هذه لوصف المنطقة إلى نطاق أقرب . عندئذ تبرز إلى بؤرة الاهتمام ظواهر جغرافية أخرى ، ربما كان أهمها على الإطلاق ما يتعلق بوجود المياه من عدمه . فالجفاف عنصر سائد فى الأرض والحياة فى منطقة الشرق الأوسط بأسرها. وربما كان هذا أكثر وضوحاً أثناء موسم الصيف الحار والطويل عندما يتوقف ظهور المساحات الخضراء من الحقول المروية لتظهر بدلاً منها تلك المشاهد الطبيعية التى تميل إلى اللون البنى لمنحدرات التلال والسهول الجرداء ، والطرق والمدن التى يكسوها الغبار . وفى وصف مدينة مثل القاهرة ، تقول الكاتبة الفلسطينية ليلى أبو سيف : المدينة تكتسى لون الرمال ، ووجوه تتلون بلون واحد ، كما لو أنها قد نحتت وقطعت من الصحراء المحيطة بها... والأشجار هى الأخرى يعلوها الغبار وتغطيها الرمال الصفراء. فالقاهرة مصفرة دائماً (أبو سيف ١٩٩٠ – ٦) .

ورغم هذا ، تتنوع درجة الجفاف تنوعًا هائلاً داخل المنطقة . فشهور الشتاء تأتى بالمطر إلى العديد من المناطق ، وعلى الأخص المناطق الأكثر ارتفاعًا فى آسيا الصغرى ، وجبال زاجروس والبورز فى إيران ، وجبال لبنان ، وإسرائيل ، والضفة الغربية . ويمكن أن تتساقط الثلوج بغزارة فى مناطق تمتد حتى إلى جنوب عمان والقدس ، كما أن ذوبان ثلوج الشتاء قد أدى تاريخياً إلى حدوث فيضانات ربيعية غزيرة للمياه فى أحواض نهرى دجلة والفرات . وفى هذه المناطق ، نجد أن سقوط المطر والمرتبط بالمنخفضات الجوية لخط عرض الوسط والتى تتحرك خلال حوض البحر الأبيض المتوسط ، يكون طويلاً وغزيراً ويمكن الاعتماد عليه . فهذه الأمطار تعد كافية للزراعة الناجحة للحبوب طويلة الأجل والتى تعتمد بشكل خاص على الأراضى الجافة ، أو على طرق وأساليب الرى بمياه المطر . وفى المناطق الجبلية الأشد وعورة ، من المحتمل أن تحد التربات الأفقر والمنحدرات الجبلية من الفرص المتاحة للزراعة ، بيد أنه فى أماكن أخرى تلتصق القرى بعضها ببعض ، ويبشر حلول موسم الشتاء المطير ببداية دورة زراعية لحراثة الأرض ، وبذرها ، وحصادها .

وبينما يتجه المرء صوب الجنوب عبر المنطقة ، تهب عواصف الشتاء ولكن بشكل غير متكرر . فمدينة الإسكندرية تستقبل ، مثلاً ، معدلاً لا يقل عن ٢٠٠ مليون ملليمتر من مياه الأمطار سنوياً ، بينما تحصل مدينة أنطاليا على خمس هذا المعدل

فقط، وهى مدينة تبعد ٢٠٠ ميل إلى الشمال على الساحل التركى . وأصبحت الزراعة التى تغذيها مياه الأمطار محفوفة بالمخاطر على نحو متزايد . ففى جنوبى الأردن وشمالى الصحراء السعودية ، قد يكون سقوط المطر فى شكل عواصف كثيفة لدى هبوبها . وهنا تندمج السهول بصورة لا يمكن إدراكها فى الصحراء ، وهى الموطن التقليدى للرعاة من البدو . وفى هذه المنطقة ، يصبح أى شكل من النشاط الزراعى غير رعى الماشية أمراً ممكناً فقط حيث تنقل الأنهار الرئيسية المياه من المناطق الأكثر ارتواءً وتشبعاً بالمياه ، وكما هو الحال فى أحواض النيل ودجلة والفرات ، أو حيث الينابيع وآبار المياه الجوفية توفر إمداداً إضافياً من المياه اللازمة للرى .

وبالمعنى الواضح والدقيق ، كانت المياه ولا تزال «مصدراً لاستمرار الحياة» . ويبين القرآن الكريم أن الله قد خلق من الماء كل شىء حى ، ومن ثم فإن كل فرد بدءاً من مجتمع الرعاة البدو وحتى سكان المدن لديه نفس الاهتمام والرغبة فى توفر المياه وتوزيعها بشكل عادل . وعلى مدى القرون الماضية ، طورت مجتمعات الشرق الأوسط مجموعة من الأساليب للتعامل مع ندرة المياه ، وهى الأساليب التى كشف العديد منها عن تكيف وثيق مع الظروف الخاصة بإمدادات المياه (مانرز - ١٩٩٠) وعلى امتداد نهر النيل ، مثلاً ، سمح نظام رى الحياض التقليدى باستخدام مياه الفيضان من النهر لآلاف من السفن . ففى كل عام ، يقوم المزارعون ببناء جسور من الطمى فى مفيض النهر ، حيث يقسمون الأرض إلى سلسلة من الأحواض . وتوحى النقوش والرسوم الفرعونية فى مصر القديمة بأنه كانت تستخدم أساليب مماثلة فى إدارة المياه وذلك فى مطلع الألفية الرابعة قبل الميلاد . . B.C.E[1] ولأن منسوب مياه نهر النيل يرتفع فى الصيف ، يتم تحويل مياه الفيضانات إلى الأحواض وتظل محفوظة فى هذه الأحواض لأسابيع عدة . وما أن ينخفض منسوب مياه النيل ، يصبح من الممكن التخلص من الفائض فى المياه بإعادة تجفيفه فى النهر ومن ثم تزرع محاصيل شتوية مثل القمح ، والشعير ، والعدس ، والفول ، والبرسيم (علف مصرى) ، فى أنواع من التربة المشبعة بالطمى . ويحين موسم الحصاد فى مارس أو أبريل ، والذى ترتاح بعده الأرض حتى موسم الفيضان التالى ، وبضمان تدفق المياه بشكل موثوق ويمكن التحكم فيه ، وبالإسهام فى المحافظة على خصوبة التربة ، فإن رى الحياض قد أتاح الفرصة لتطوير نظام زراعى يحقق إنتاجية مرتفعة . وبطريقة

مماثلة ، ومن منظور نقدى للاستقرار طويل الأجل ، حال موسم الفيضان السنوى دون تكدس وتراكم الأملاح الضارة بنمو المحاصيل . وظل رى الحياض طريقة الرى السائدة فى وادى النيل حتى نهاية القرن التاسع عشر * ، والذى قد بدأت بعده المرحلة الحديثة لتنمية المياه تأخذ صورتها من خلال تشييد الجسور ، وخزانات المياه ، وشق القنوات والترع فى الصيف للسماح بالرى على مدار العام وزراعة محاصيل متعددة .

ومثلما أمكن تطوير نظام رى الحياض فى وادى النيل ، فإن أساليب أخرى لإدارة المياه بصورة تقليدية من قبيل الطريقة التى تعرف باسم قناتس فى إيران ، والشادوف فى مصر ، والنورياس نسبة إلى نهر أورونتيس فى سوريا ، قد كان لها هدف واحد ألا وهو الاستخدام الفعال لمصدر محدود من مصادر المياه ، ومن ثم تمكين المجتمعات من البقاء والازدهار فى ظل ظروف الندرة والتقلب . وبالنسبة إلى طريقة قناتس ، وهى طريقة متقدمة لتنمية ، وجمع ، وتوزيع مياه الآبار الجوفية من خلال شبكة للأنفاق تحت الأرض ، فمن المرجح أنها كانت تستخدم فى إيران فى أوائل الألفية الأولى قبل الميلاد ,ومسألة ما إذا كانت هذه الطريقة أثبتت نجاحًا بالغًا فى التكيف مع مجموعة متنوعة من الظروف المحلية تبدو واضحة فى انتشارها فى مناطق أخرى فى الشرق الأوسط فى خلال العصور المبكرة لحكم الخلفاء العرب ، ومن شمال أفريقيا إلى أسبانيا، وفيما بعد فى «العالم الجديد» .

ومع تزايد الطلب على المياه ، فإن تكنولوجيات أحدث تهدف إلى الاستخدام الأكثر إنتاجية لكل من المياه السطحية والمياه الجوفية قد أدت مراراً إلى توقف وإلغاء النظم التقليدية. وساعد بناء السد العالى فى مدينة أسوان المصرية فى الستينيات، على سبيل المثال ، فى أن تروى جميع الأراضى على أساس دائم ، الأمر الذى جعل من الممكن زراعة نوعين ، وفى بعض الأحوال ثلاثة أنواع من المحاصيل فى كل عام ، كما أتاح إمكانية توليد الكهرباء فى البلاد كلها . ومع هذا كان لهذه الفوائد والمنافع آثارها الجانبية البيئية ومن بينها ظهور مشكلات خطيرة تتعلق بانتشار أملاح التربة الزراعية (هوايت : ١٩٨٨)

وهنا يكمن أحد التحديات الرئيسية التى تواجه المنطقة فى الوقت الحاضر . فالطلب المتزايد على المياه لتلبية الاحتياجات الزراعية ، والصناعية ، والحضرية ،

والاحتياجات فى مجال النقل وغيرها ستكون من الصعوبة بحيث يتعذر تلبيتها حتى إذا كانت الإمدادات من المياه متوفرة بدرجة أكبر . فى الشرق الأوسط ، تتعقد هذه المشكلة أكثر نظراً للتوزيع غير العادل لموارد المياه وبسبب الافتقار إلى التوافق والتماثل بين الحدود السياسية والمائية . ونتيجة لهذا ، فإن تلك الدول حيث تعتبر الزراعة التى تعتمد على الرى بالغة الأهمية (مصر، العراق ، وبدرجة أقل ، إسرائيل، الأردن ، سوريا) لا تستطيع السيطرة على مصادر المياه التى تعتمد عليها شعوبها واقتصاداتها. وما يقرب من ثلثى إمدادات المياه المتاحة للدول العربية مصدرها فى دول غير عربية (جليك ١٩٩٤) . وطبقاً لبعض التقديرات ، ففى دولة مثل إسرائيل، يأتى ما بين نصف وثلثى المياه المستخدمة حالياً فى الرى وفى الأغراض الصناعية والمنزلية من خارج حدود ما قبل عام ١٩٦٧ . وبوجه خاص ، فإن الطبقات الصخرية المائية الرئيسية التى توفر المياه الجوفية للبلديات والمزارع فى السهول الساحلية لإسرائيل يعاد شحنها فعلياً من خلال سقوط المطر فوق الضفة الغربية. وفى مثل هذه الظروف ، لم يكن من قبيل المفاجأة أن حقوق وأنصبة المياه قد كانت مشكلة أساسية فى مفاوضات السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين حول الوضع المستقبلى للضفة الغربية . والواقع أن مسألة إلى أى مدى يمكن أن تمنح السيطرة على موارد المياه القوة لبعض الدول على حساب دول أخرى تبدو واضحة فى حالة نهر الفرات . فهذا النهر منبعه فى شرقى تركيا حيث ينشأ هناك ، ويشق طريقه خلال حافة هضبة الأناضول فى سلسلة من الممرات الضيقة، ثم يتدفق عبر السهول القاحلة فى سوريا والعراق إلى نقطة الالتقاء مع نهر دجلة (والذى ينبع أيضًا فى مدينة تركيا) فوق مدينة البصرة

صورة رقم ٣ : ٢ توضح أحواض سقاية قطعان الإبل فى منطقة ظفار بسلطنة عمان

بالعراق . ومن هنا، يتدفق النهران معاً من منطقة شط العرب إلى الخليج . ورغم أن معظم حوض التجفيف الضخم لنهر الفرات يقع فعلياً بالعراق ، فإن ما يقرب من ٩٠ ٪ من المياه المتدفقة سنوياً من هذا النهر تأتي من داخل تركيا . وهذا يعني أن الدولتين اللتين تستخدمان مياه النهر الواقعتان في مجراه ، وهما العراق ، وسوريا، تتأثران بالخطط المستقبلية التركية لتنمية نهر الفرات.

ولدى العراق دعاوى راسخة بشأن ملكيته لنهر الفرات ، وبالفعل فإن مصادر الطاقة والثقافة في بلاد ما بين النهرين كانت مرتبطة بالسيطرة الفعالة على مياه هذين النهرين (جاكوبسين وآدمز ١٩٥٨) . إذ إن أبرز ما كان يميز المرحلة الأخيرة من عصري الدولتين الساسانية والعباسية (من القرن الرابع إلى القرن الثاني عشر) هو ذلك التوسع في نظام الري. وفي القرن العشرين ، وخلال الفترة الأولى من الانتداب البريطاني والأخيرة بعد الاستقلال ، أعيد تأهيل وإصلاح نظم الري وأقيمت هياكل جديدة للتحكم في المياه . ففي السبعينيات ، بدأ العراق يخطط لبناء مستودعات رئيسية لتخزين المياه والتي ، كما هو الحال بالنسبة للسد العالي في أسوان ، كانت تهدف إلى توفير مخزون طويل الأجل من المياه . وعلى الرغم من نكسات الحرب إلا أن خطط العراق طويلة الأجل لازالت تتصور استخداماً أكبر لمياه نهر الفرات . وبدورها ، فإن سوريا ، شأنها شأن العراق ، تسعى وبصورة مطردة لاستخدام أكبر لمياه الفرات لتنمية الري وتوليد الطاقة وفي سنة ١٩٧٣ انتهت من بناء سد الثورة الضخم .

بيد أن تركيا هي التي لديها المفتاح الحقيقي لما يحدث في المستقبل ، وهي تعكف في الوقت الحاضر على تنفيذ مشروع هائل لتنمية المياه في جنوب شرقي الأناضول ، وهو المشروع الذي يطلق عليه بالتركية (Guneydocu Anadolu Projesi, or GAP). والذي يشمل كلاً من نهر الفرات ودجلة . وفي حال تنفيذه بالكامل ، فإن من المتوقع أن يتضمن هذا المشروع اثنى عشر سداً وخزاناً للمياه في نهر الفرات وعشرة سدود على نهر دجلة ، ناهيك عن منشآت إضافية لتوليد الطاقة . ويهدف هذا المشروع الضخم إلى ضخ حياة جديدة في المقاطعات شبه الجافة في جنوب شرق تركيا حيث مستويات المعيشة أقل بكثير من المتوسط القومي ، غير أن هذا المشروع يعد بوضوح أكثر من كونه مشروعاً آخر لتنمية المياه . إذ إن هذه المقاطعات موطن للأغلبية من

السكان الأكراد فى البلاد . ومن خلال توفير حياة أكثر أمنًا وراحة لسكان تلك المناطق، تأمل الحكومة التركية فى الحد من الدعم والتأييد لحركة الانفصال الكردية وإسدال الستار على صراع دموى ومكلف .

وفى سنة ١٩٩٠ ، بدأت تركيا ملء مستودع تخزين المياه خلف سد أتاتورك ، الأمر الذى أثار احتجاجات شديدة من جانب سوريا والعراق . ووفقاً لبعض التقديرات، فإن سد أتاتورك والخزانات المقترحة ومشروعات تحويل المياه على نهر الفرات يمكن أن تقلل من تدفقات المياه باتجاه مجرى النهر إلى سوريا بنسبة ٤٠ ٪ وإلى العراق بنسبة تصل إلى ٨٠ ٪ ، لاسيما إبّان سنوات الجفاف . وبوضوح أيضًا ، فإنه إذا نفذت جميع مشروعات المياه المقترحة ، سيكون الطلب الإجمالى على المياه زائداً إلى حد كبير عن التدفق الطبيعى للنهر . وعلاوة على ذلك ، من المحتمل أن تكون نوعية المياه وجودتها مشكلة بالنسبة لمستخدميها باتجاه مجرى النهر نظراً لأن النسبة المتزايدة من التدفق المتاح سوف تتألف من تدفقات مياه الصرف والتى تحتوى على نسب تركيز عالية للمواد الكيماوية الزراعية والأملاح .

وفى ضوء هذا الموقف الذى ينطوى على منافسة متزايدة على الإمدادات المحدودة للمياه . يرى البعض أن ثمة إمكانية لتفجر صراع حول المياه فى المستقبل . ولسوء الحظ ، ليس هنالك فى أى من أحواض النهر الرئيسية اتفاقيات رسمية بين جميع الدول الواقعة على ضفاف النهر بشأن حقوق المياه ؟ إذ إنه لا وجود لمثل هذه الاتفاقيات بالنسبة إلى نهر الأردن، أو نهر الفرات ، أو نهر دجلة ، كما أن الاتفاقيات القانونية الخاصة بنهر النيل تتضمن مصر والسودان فقط، حيث لا تشمل هذه الاتفاقيات الدول السبع الأخرى أعلى مجرى النهر والمطلة على ضفافه . ولقد أخذ يتكرر على نطاق واسع ما قاله بطرس غالى يوم أن كان يشغل منصبه كوزير دولة للشئون الخارجية من أن «الحرب القادمة فى منطقتنا ستدور رحاها حول مياه نهر النيل ، وليس حول السياسة» . وثمة رؤية بديلة أخرى تنم عن التفاؤل ومفادها أن المياه يمكن أن تصبح قاطرة للتعاون الإقليمى ويتضمن ذلك التبادل المعرفى ، وتبادل الخبرات فيما يتعلق بترشيد استخدام المياه وعدم إهدارها ، وهو ما يتم ، مثلاً ، من خلال نظم الرى بالتقطير ورى طبقات التربة التحت سطحية ، وإعادة تدوير وإعادة استخدام المياه المهدرة ، أو تحويل المياه من الدول التى لديها فائض للمياه إلى دول

لديها عجز فى المياه ، وكما هو الحال بالنسبة إلى خط أنابيب السلام المقترح والذى يمتد من تركيا عبر سوريا إلى الأردن، والضفة الغربية ، وإسرائيل ، وغزة ، وهى كلها أمثلة للتعاون الذى يمكن أن يحدث تحولاً فى جغرافيات المنطقة .

وكما وصف فيل . د . سوير ينجين فى كتاب له بعنوان أوهام مغربية ، فإن الرؤية المثالية لتنمية المياه بالنسبة إلى العديد من مهندسى الرى ومديرى الحكومة قد كانت تتمثل فى عدم إلقاء نقطة من المياه فى البحر (سوير ينجين ٣٩ : ١٩٨٧) .

وبالمثل ، فإن المستنقعات والأراضى غير الجافة كانت غالبًا أهدافًا للمشروعات الهندسية المائية الرئيسية لأنه ينظر إليها باعتبارها مساحات خالية «تهدر» أراضى يمكن أن يكون لها قيمتها كما تبدد موارد المياه . بيد أن المياه تعتبر أكثر من مجرد سلعة لها قيمتها الاقتصادية للمجتمع، أو مجرد مصدر يمكن تطويره ، ويعتمد تدفقها على قوانين أو نظم لضبط استخدامها على أساس اللتر الواحد تلو الآخر . فالمياه لها قيمتها ومعانيها الأخرى لدى هؤلاء السكان الذين يعيشون فى المنطقة .

ويدرك الناس بشكل متزايد أن المياه يعود إليها الفضل فى إمداد سلسلة متنوعة من العمليات البيئية بأسباب الحياة والبقاء ، والتى تدعم بدورها مجتمعات صيادى الأسماك ، وصيادى الحيوانات ، وجامعى القصب ، ومنتجى الملح ، وغيرهم . ولا شك أن البحيرات الساحلية فى دلتا النيل ، ومستنقعات شط العرب ، وبحيرة هولا فى إسرائيل وواحة الأزرق فى الأردن ، وبحيرة أشكوك فى تونس ، والأراضى الرطبة الأخرى المنتشرة فى أرجاء المنطقة ، لا شك أنها بمثابة نظم بيئية ذات إنتاجية عالية توفر موئلاً وعولاً لمجموعات متنوعة وأشكال مختلفة من النباتات والحيوانات . وهؤلاء السكان الذين يعيشون حول الأراضى الرطبة قد دأبوا تقليدياً على استغلال هذه الموارد ، الأمر الذى ساعد فى المحافظة على حياة متنوعة ومستديمة نسبيًا . وتتضمن القيم غير التقليدية الأخرى للأراضى الرطبة استيعاب ومعالجة النفايات الآدمية والنفايات العضوية الأخرى ، وإعادة شحن الطبقات الصخرية المائية تحت الأرض ، والعمل كمواقع للراحة والتغذية للطيور المائية السابحة وطيور الشواطئ التى اعتادت الهجرة فيما بين مواطن تربيتها فى شمالى المنطقة الأوروبية الآسيوية ومواطن بياتها الشتوى فى أفريقيا . وفى العديد من الحالات ، تم تجفيف هذه الأراضى الرطبة ، والتى تلوثت بشدة أو باتت جافة نتيجة لعمليات سحب المياه

الجوفية ، والتى كانت لها آثارها المدمرة على المجتمعات المحلية . وفى قرى صيد الأسماك حول بحيرة قارون فى مصر تلاشت مظاهر وأشكال عدة للحياة من جراء إلقاء النفايات الصناعية فى مياه البحيرة . وفى العراق ، قامت الحكومة بتجفيف أجزاء من مستنقعات شط العرب ، وذلك لأسباب سياسية إلى حد ما ، وبقصد ممارسة قدر أكبر من السيطرة على عرب المستنقعات (Marsh Arabs)، وغالبيتهم من الشيعة المعارضين لحكم صدام حسين .

وإطار العمل الخاص بالمحافظة على ما تبقى من الأراضى الرطبة فى المنطقة يتمثل فى اتفاقية الأراضى الرطبة ذات الأهمية الدولية (والتى باتت تعرف باسم اتفاقية رامسار) الموقعة فى ١٩٧١ . وحتى الآن ، فإن عشر من الدول التى يغطيها هذا الكتاب من الأطراف التعاقدية فى الاتفاقية ، والتى تحمى اثنين وأربعين من المناطق الرطبة تبلغ مساحتها الإجمالية ١,٨ مليون هكتاراً وتلتزم باتباع الخطوط والبنود الرئيسية المنصوص عليها فى الاتفاقية بشأن الاستخدام الأمثل والحكيم لهذه المواقع (مكتب اتفاقية رامسار – ١٩٩٨) . وتتضمن الخطوط والبنود وضع إطار العمل القانونى للحماية وعمليات المشاركة من جانب المجتمعات المحلية (بارمنتر- ١٩٩٦) . ومازال يتعين الانتظار لرؤية ما يمكن أن تحققه مثل هذه المبادرات على أرض الواقع ، ومع هذا فإن مجرد وجودها يعد دليلاً على زيادة الوعى بتعقد مشكلات المياه .

وهنا توجد صلات أو ارتباطات بين المياه والحياة والتى تعتبر حاسمة لأية محاولة لفهم البيئة والثقافة فى منطقة الشرق الأوسط . وهذا ما يوضحه القرآن الكريم حيث يبشر المؤمنين جميعاً بأن لهم جنَّات تجرى من تحتها الأنهار (شيميل– ١٩٨٥) . والحقيقة أن صور الحدائق والمياه التى تضمنتها أوصاف الجنة فى القرآن ، قد كان لها تأثيرها العميق على الفن الإسلامي والشعر (ماكدوجال ١٩٧٦) . ولم يكن هذا الوعد بالجنة مقصوراً على الأعمال الأدبية والفنية ، وإنما وجد أيضًا التعبير عنه فى حب الحدائق التى جرى تصويرها كانعكاس لجمال وروعة الجنة على الأرض .

وهذا الارتباط بين الدين والدنيا ، وبين المياه والحياة ، يتجلى أيضًا بوضوح فى قصة روتها أنيميرى شيميل عن ذلك السؤال المحيِّر الذى وجهته إليها سيدة مسنة فى الأناضول، وهو : (Ankara' da rahmet var mi?) ويعنى هذا السؤال بالعربية : هل

يوجد رحمة فى أنقرة ؟ وقالت شيميل تساءلت كثيراً عما قد يعنيه هذا السؤال فى حوار صغير أجريته مع بعض الأشخاص . غير أننى عرفت فيما بعد أنه كان يعنى أيضًا فى اللغة التركية : هل يوجد مطر فى أنقرة ؟ . ففى اللغة التركية تعنى كلمة rahmet رحمة الله أو نعمة سقوط المطر ، ولأنه من خلال هذه النعمة يتحول كل شىء قد يبدو ميتاً إلى شىء حى مرة أخرى (شيميل ٦- ١٩٨٥)

مشاهد من المدن :

حتى تبدو الصورة أكثر وضوحًا وقرباً ، فإنه يجب علينا الانتقال من الحديث عن ظاهرة إقليمية مثل المياه إلى البيئات المحلية ، وعلى الأخص المدينة . وكمدخل لهذا الموضوع ، نشير هنا إلى أنه فى فيلم قراصنة السفينة المفقودة ، يقف بطل الفيلم ، أنديانا جونز ، فوق سطح منزل يطل على مجموعة أخرى من المنازل الصغيرة ذات القباب البيضاء . ويشير مضيفه المصرى إلى المشهد من أعلى قائلاً : انظر ! إنها القاهرة ! مدينة مفعمة بالحياة والناس. جنة على الأرض . وهذا المشهد الذى كان ينظر إليه يشبه إلى حد كبير قرية صغيرة فى تونس . والواقع أن القاهرة ، حتى فى الثلاثينيات ، عندما جرت أحداث قصة هذا الفيلم ، كانت مدينة كبيرة تمتلئ بالمبانى السكنية ، والمصانع ، والمكاتب الحكومية ، والمسارح ، والمتاحف ، وغيرها من كافة معالم الحياة الحديثة فى المدن . والفيلم يؤكد على ما لدينا من توقعات وصور من مخيلتنا عن هذه المدينة العربية الشهيرة . وهى مدينة غريبة وفاتنة فى آن واحد ، الأمر الذى جعلنا نطيل النظر بارتياح إلى هذا المكان الساحر من نقطة ممتازة مرتفعة تركناها لكى يقفز منها أنديانا ، بطل الفيلم وفى مشهد رائع جرى تصويره ببراعة ، إلى الأزقة التى تشبه المتاهات وإلى أسواق القاهرة ذاتها .

وعلى أى حال فإن ، القاهرة التى لم يظهرها الفيلم ربما كانت ستبدو أكثر وضوحاً من أى مكان آخر على الأرض : مدينة نابضة بالحيوية والنشاط ، مدينة صاخبة ، والتى كان يقطنها فى ذلك الوقت ما يربو على مليون نسمة يعيشون حياتهم اليومية بطرق شتى كانت أبعد ما تكون عن الغموض . بيد أن الرؤية والخيال أسلحة قوية ولذا كانت مدن الشرق الأوسط هدفاً لتخيلات وتصورات لا حصر لها على مدار تاريخها. وما من مكان فى الشرق الأوسط أكثر وضوحًا من القدس ، تلك المدينة المقدسة للديانات السماوية الثلاث فاليهود ، والمسيحيون ، والمسلمون قد خاضوا حروباً لقرون

طويلة ليجعلوا من القدس مدينتهم . ويكتب ميرون بيفينيستى فيقول إن التسلسلات الزمنية لأحداث القدس تعتبر بمثابة محجر ضخم قطعت من جانبيه أحجار عملاقة لبناء أساطير (بينيفيستى ٤– ١٩٩٦) .

وليس ثمة شك فى أن المدن قد كانت مهمة دوماً فى تاريخ المنطقة ، حيث أخذت تتطور على نحو متكرر إلى ما يشبه نقط التقاء تربط الطرق التى اعتادت الجيوش والقوافل التجارية السفر من خلالها . وبالنسبة إلى الحكام ، كانت المدن تستخدم كمراكز للقوة والسلطة. وفى عيون المسافرين والتجار ، كانت المدن تقريباً واحات للأمان ، كما كانت أماكن مسوّرة ومحمية ، ومراكز تجارية ، وأيضاً مراكز للتعلم والترفيه .

وفى كتابه المعروف ، الذى يحمل عنوان المقامات ، والذى ألفه فى القرن الثانى عشر ، كتب الحريرى بإعجاب شديد عن مدينة البصرة فى العراق فقال كل ما تتوق إليه نفسك من أشياء مقدسة ودنيوية تجده هناك (الحريرى– ١٦٤ – ١٨٩٨) . واليوم نجد أن المدن القديمة ذات الأسوار فى المنطقة هى أجزاء صغيرة فى معظم الأحوال من نسيج حضرى أكبر يتغير فى كل يوم . وكما لاحظت جانيت أبو لغد ، فإن أية مدينة عند فترة زمنية معينة ، تظل أشبه بصورة لنظام معقد من البناء والهدم ، من التنظيم وإعادة التنظيم . (أبو لغد –١٦٢ – ١٩٨٧) . ويتضمن هذا النظام كلاً من الرؤية الرسمية التى يفرضها الحكام ، والغزاة ، ورجال الإدارة ، والقوى الوطنية من بين أوساط المواطنين العاديين التى تسعى لتأسيس أراضيها ونظمها الروتينية .

وتعتبر مدينة إسطنبول فى تركيا مثالاً رئيسياً لهذا الجدل بين الرؤية الرسمية والقوى الوطنية . ففى القرن الرابع ، نقل الإمبراطور قسطنطين مقر الإمبراطورية الرومانية من روما إلى موقع مستوطنة يونانية سابقة ، وهو مدينة بيزنطة ، التى تقع على نتوء جبلى يحده من جانب القرن الذهبى ومن جانب آخر بحر مرمرة . ورغم أن الاسم الرسمى للمدينة كان دائماً : Konstantinoupolis NEA Rome وهو ما يعنى

مدينة القسطنطينية ، أى روما الجديدة ، إلا أنها سرعان ما أصبحت تعرف باسم Constantinople وهو اسم ما زال متداولاً حتى بين الأتراك ، والذين أشارت وثائقهم وعملاتهم النقدية مراراً إلى المدينة على أنها Konstaniniye حتى نهاية الإمبراطورية العثمانية (سيليك ١٢ – ١٩٨٦) . وحظيت المسيحية بوضع خاص فى روما الجديدة، والتى كانت تعتبر آنذاك مدينة مقدسة ، حيث كانت كنائس ومعابد المدينة تضم مجموعة فريدة من الآثار والمزارات المقدسة التى كانت ترمز إلى نعم الله الخاصة . إذ إن كنيسة أيا صوفيا التى بناها الإمبراطور جوستينيان ، والتى تعلوها باسيليفا على شكل قبة ترتفع فوق المدينة ،قد جسدت العلاقة الوثيقة بين الدولة البيزنطية والكنيسة المسيحية . ولكن المبانى الأخرى والآثار ، وعلى الأخص القصور، والأسوار ، والأعمدة ، والكنائس ، والقنوات المائية ما زالت جزءاً لا يتجزأ من النسيج الحضرى اليوم والذى يعيد إلى الأذهان اليوم أكثر من ألف عام من الحكم الرومانى – البيزنطى.

وعندما استولى العثمانيون على المدينة فى نهاية المطاف فى سنة ١٤٥٣ وبعد حصار دام ثمانية أسابيع ، ورث السلطان محمد الثانى مدينة إمبراطورية رائعة ولكن فى حالة من الخراب يرثى لها . ومن ثم شرع السلطان محمد فى تنفيذ برنامج هائل لإعادة تسكينها وإعمارها حتى تعود المدينة إلى مجدها الغابر وإلى سابق عهدها المزدهر . وأعيد الألوف من السكان إلى المدينة ، والتى ظلت تعرف منذ سنة ١٩٣٠ باسم إسطنبول ، حيث جاء هؤلاء السكان من كافة مدن ومناطق الإمبراطورية . وكان من بينهم العمال المهرة ، وأصحاب الحرف المختلفة حتى يساعدوا فى تنفيذ المهمة الضخمة لإعادة الإعمار . وبالفعل ، فإن القصور الجديدة ، والمساجد العظيمة ، والمدارس ، والمكتبات ، والمؤسسات الخيرية ، والأسواق الواسعة ، والشبكات المحسنة لإمدادات المياه قد غيّرت من شكل المدينة ومظهرها. وكانت كل هذه رموزاً للقوة والازدهار التى تليق بعاصمة إمبراطورية عظيمة .

صورة ٢ :٤ . مدينة إسطنبول على امتداد مضيق البوسفور فى تركيا ، والتى تربط أوروبا بالشرق الأوسط ويبلغ عدد سكانها ٨ ملايين نسمة

وفى القرن العشرين ، ومع الانهيار التام للإمبراطورية العثمانية ، أعلن القوميون الأتراك الذين أرادوا تأسيس جمهورية علمانية على النمط الأوروبى ، أعلنوا عن أنفسهم من خلال التخطيط والتصميم فى المناطق الحضرية . وحين أدار هؤلاء ظهورهم صوب إسطنبول ، قرروا بناء عاصمة جديدة فى وسط الأناضول ، بعيدة مئات الأميال عن شرق إسطنبول ومتاخمة لمدينة أنقرة الصغيرة . وجرى تصميم مدينة أنقرة بعناية شديدة لخلق نمط مختلف تماماً للحياة العامة بالمدينة أو بالأحرى نمط حياة لا يمت بأى صلة لذلك الذى كان سائداً فى عهد الإمبراطورية العثمانية وإبَّان الحكم الإسلامى (كليس وباين ١٩٨٤) . وشارك مهندس معمارى يدعى هيرمان يانسن ، فى وضع الخطة الرئيسية لبناء المدينة على طريقة تعرف باسم جاردن سيتى ، وهى طريقة تعد معروفة فى أوساط المعماريين وفى ميدان التخطيط الحضرى . ونصت الخطة على إقامة مناطق مستطيلة للمنازل ، والشركات ، والصناعة ، تفصلها شوارع عريضة تحفها الأشجار وتنتشر فيها الحدائق والميادين العامة . وشجعت الحكومة طرزاً معمارية جديدة كانت تهدف إلى إعطاء تعبير عام

لصورة الأمة الحديثة (بوزدوكان ١٩٩٤) . وهذه الطرز المعمارية كانت تنطبق حتى على تصميم المساكن العادية ، وتعكس الرغبة فى تشكيل ليس فقط هيكل المدينة بل أيضاً سمات وخصائص الحياة الخاصة .

إن إسطنبول وأنقرة مثالان فقط للدلالة على الكيفية التى يمكن من خلالها لأشكال مختلفة من الرؤية ، لاسيما التى تساندها قوة سياسية ، أن تنظم وتعيد تنظيم المشاهد الطبيعية الحضرية . فمدينة القاهرة قد خطط لبنائها فى الأصل الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى القرن العاشر لاستخدامها كعاصمة رسمية للدولة الفاطمية ولتكون مجاورة لمدينة الفسطاط التى كانت مركزاً تجارياً مزدحماً فى ذلك الوقت . والفسطاط ذاتها قد كانت فى الأصل ، وقبل أن تنمو وتتطور ، مكاناً تنصب فيه الجيوش العربية معسكراتها وهى الجيوش التى ضربت حصاراً قوياً على حصن بابليون المنيع فى بيزنطة خلال الفتح العربى لمصر فى سنة ٦٤٠ . وفى دراستها عن القاهرة ، نقلت أبو لغد رواية مؤداها أن القائد الفاطمى الفاتح حمل معه خططاً دقيقة لبناء مدينة جديدة والتى تصور الخليفة المعز أن تكون مقراً لإمبراطورية حوض البحر الأبيض المتوسط (أبو لغد ١٨ - ١٩٧١) . وأطلق على المدينة الجديدة القاهرة ، والتى صارت آثارها ومعالمها المعمارية الموضوع المفضل للفنانين الأوروبيين .

وكما هو الحال فى مدن أخرى بالشرق الأوسط ، شهد القرنان التاسع عشر والعشرون العديد من المحاولات الرامية إلى تحديث وتحسين القاهرة . ففى سنة ١٨٦٧ ، شارك الخديوى إسماعيل ، حاكم مصر آنذاك ، والذى قد كان لديه اهتماماً شديداً بالتنمية الحضرية فى المعرض العالمى فى باريس .وهناك اجتمع مع بارون جيورجيس - أوجين هاوسمان ، خبير تخطيط المدن والذى أعاد تخطيط باريس لتعود إلى مدينة الشوارع العريضة والحدائق الفسيحة التى نعرفها اليوم . ولأنه كان يتوق بشدة إلى بناء عاصمة حديثة أمام طوفان الزائرين الأجانب والذين كانوا قد توافدوا على البلاد لحضور احتفال ضخم بمناسبة افتتاح قناة السويس فقد سارع إسماعيل إلى ترجمة مبادئ هاوسمان إلى خطة جديدة للقاهرة . ولأنه لم يشأ إضاعة الوقت ، اختار إسماعيل أن يترك المدينة التى شيدت فى العصور الوسطى ، كما كانت بلا غاز ، وماء، وصرف صحى ، أو طرق ممهدة . وبدلاً من هذا ، ركز جهوده على بناء مدينة جديدة على الطراز الأوروبى ، وبها الشوارع العريضة والحدائق على طراز

هاوسمان ، وتدار بالبخار و تضاء بالغاز . وكانت هذه إذن المدينة التى سيراها الأجانب ، وسيكون تدفقهم إلى القاهرة الجديدة كسائحين يرغبون فى مشاهدة الآثار التاريخية المبعثرة هنا وهناك (أبو لغد ١١١ – ٩٨ – ١٩٧١) .

وعلى الجانب الآخر لهذا الجدل بين الرؤية الرسمية والقوى الوطنية تبرز روح الدأب والمثابرة والحماس لدى المواطنين العاديين . فالحياة تنمو فى كل اتجاه من أعلى وحول ، ومن خلال وبين ، الخطط الرسمية شأنها شأن نبات الكرمة الذى يتسلق تعريشته .

وقد ذكرت أبو لغد (١٦٣ – ١٩٨٧) كيف أن الأحياء السكنية كانت تشكل كتلة معمارية من المدن فى العالم الإسلامى خلال العصور الوسطى وحتى فى عصور لاحقة وهذه الأحياء ، التى كانت تأوى فى الغالب أشخاصاً تربطهم أواصر القربى أو خلفيات عرقية أو دينية مشتركة ، كانوا يتمتعون بقدر كبير من الحكم الذاتى . وكان الشغل الشاغل للدولة فى ذلك الوقت هو تنظيم شئون التجارة وتأمين قدرتها الدفاعية. وهكذا ، فإن تلبية احتياجات وحماية مصالح المدينة وأحيائها مسئولية يضطلع بها المجتمع المحلى أساساً ، وتضمن هذا كله أشياء من قبيل النظافة وصيانة الشوارع ، وتوفير الإضاءة ، والرقابة على سلوكيات الناس . أما الأحياء الأكثر ثراءً ، فمن المحتمل أنه كان لديها مؤسساتها الخيرية ، وأنها كانت تعتمد على جهودها فى تنظيم إمدادات المياه من خلال النافورات العامة ، أو تعيين أفراد حراسة ليلية للمحافظة على الأمن الداخلى، والذين كانوا يتقاضون رواتبهم فى الغالب من المنح والأوقاف المخصصة للمؤسسات الدينية .

وعندما حاول الأوروبيون اختراق هذه الأحياء ارتبكوا وشعروا بالتهديد لما رأوه من شوارع مكتظة بالناس وتسودها الفوضى والتى عادة ما كانت تنتهى بأزقة وطرق مسدودة . ومع هذا ، فإن الهدف من طريقة تصميم وبناء هذه الأحياء وحتى المبانى الفردية هو تقليل الاتصال الجسدى وحماية الانفصال البحرى . وهكذا نظمت قوانين البناء الإسلامية وضع النوافذ ، وارتفاع المبانى المجاورة ، والمسئوليات المتبادلة للجيران تجاه بعضهم البعض من أجل حماية الخصوصية والمحافظة عليها (أبو لغد ١٦٧ – ١٩٨٧) . وبالطبع ، عاشت الأغلبية من سكان المدن فى ظروف متواضعة كانت تتشابه إلى حد قليل مع أنماط الحياة الرغدة والمترفة للأثرياء والأقوياء ، حتى

إن هـذا الواقـع قد انعكس بوضوح فى المبانى البسيطة والأحياء المزدحمة فى العديد من المناطق .

فى الوقت ذاته ، لم تكن الحياة فى المدينة خالية من المخاطر . فالاستخدام الشائع للمبانى الخشبية فى إسطنبول ، مثلاً ، جعل المدينة تتعرض بشكل خاص لاندلاع الحرائق . وفى الفترة بين ١٦٣٣ و ١٨٣٩ شهدت المدينة ١٠٩ حريقًا هائلاً ، والتى أزالت العديد منها أحياء كاملة ؛ وأيضًا فى الفترة بين ١٨٥٣ و ١٩٠٦ ، وصل عدد هذه الحرائق إلى ٢٢٩ حيث بدأت الحرائق تلعب دوراً رئيسياً متزايداً فى إعادة تشكيل وإعادة تصميم العمارة الحضرية (سيليك ٥٣ – ٥٢ : ١٩٨٦) . وكان تفشى الأمراض جانبًا قاسيًا آخر فى حياة المدينة ، لا سيما الطاعون الدبلى ، والذى عاد للظهور دورياً حتى القرن التاسع عشر ليحصد أرواح أعداد كبيرة من سكان المدينة.

وكما هو الحال فى مناطق عدة أخرى فى العالم ، شهدت منطقة الشرق الأوسط فى السنوات الأخيرة تجربة التمدين السريع والتحول إلى حياة الحضر ، وذلك ، وإلى حد كبير ، نتيجة لتدفق أعداد هائلة من المهاجرين من المناطق الريفية سعياً وراء الرزق وبحثًا عن فرص عمل وأوضاع معيشية أفضل . والحقيقة أن هذه التغيرات الديموجرافية قد أحدثت تحولاً دراماتيكيًا ليس فقط فى المظهر الطبيعى للمدن وإنما أيضاً فى صورة الحياة اليومية والروتينية للملايين من الأشخاص . ففى سنة ١٩٠٠ ، ربما عاش ١٠ ٪ من سكان المنطقة فى مستوطنات حضرية ، وبحلول ذلك العام أيضاً، استقر حوالى ٥٧ ٪ من السكان فى مجتمعات حضرية (الأمم المتحدة – ١٩٩٢) . والانطباع السائد عن حياة المدينة فى الوقت الحاضر يتمثل فى حركة البناء التى لا تتوقف وذلك النضال المستمر للتعامل مع العواقب الناجمة عن النمو العمرانى غير المقيد . فأينما ينظر المرء يجد زحفًا دائمًا لمشروعات سكنية ومبان وأبراج شاهقة الارتفاع تقع على امتداد الطرق الدائرية الجديدة . أما فى الأحياء السكنية القديمة ، نجد أن أصحاب المبانى يضيفون المزيد من الطوابق إليها ، بل إن البعض منهم يبيع أو يؤجر أجزاءً من واجهات تلك المبانى لاستخدامها فى مشروعات تجارية وبحيث لا يبدو أن هناك مساحة مخصصة لسير المارة على الأرصفة .

ولعل أكثر المراحل انفجاراً فى منظومة النمو الحضرى تلك التى حدثت فى غضون الأربعين عامًا الماضية نتيجة لظاهرة الهجرة المستمرة ، ومع هذا بدأت مدن

عديدة فى المنطقة تعانى من زيادة مطردة فى النمو السكانى فى أواخر القرن التاسع عشر ، خاصة وأن التحسن الذى طرأ على الخدمات الصحية والرعاية فى هذا المجال قد انعكس فى انخفاض نسب الوفيات . ومع بداية القرن العشرين ، مثلاً ، كانت مدينة إسطنبول قد بدأت فى التوسع والانتشار إلى ما وراء أسوار الأراضى التى كانت بمثابة المعالم الحدودية للمدينة البيزنطية – العثمانية الواقعة عند رأس القرن الذهبى . وفى الوقت الحاضر ، تمتد حدود المدينة لأميال على طول البسفور وعلى طول الشواطئ الأوروبية والآسيوية لبحر مرمرة . أما القرى التى ظلت وحتى الخمسينيات محتفظة بهويتها الخاصة فإنها صارت الآن مجرد أسماء على الخريطة ، حيث باتت شبه مغمورة تحت موجة المد المستمرة للمهاجرين . وكانت عملية بناء جسرين فى الثمانينيات عبر البوسفور ، يربطان أوروبا وآسيا ، ترمز لظهور إسطنبول جديدة أكبر.

أما مدينة القاهرة ، التى يبلغ تعداد سكانها ربع مليون نسمة فى بداية القرن التاسع عشر ، فقد شهدت زيادة سكانية كبيرة وصلت إلى مليون نسمة فى منتصف الثلاثينيات . وبحلول عام ١٩٦٠ ، كان تعداد سكان المدينة قد ارتفع إلى ٣,٥ مليون نسمة وإلى أكثر من خمسة ملايين فى سنة ١٩٧٠ . وحسب تقديرات أكثر تحفظاً، يعيش فى القاهرة اليوم ١٢ مليون نسمة بينما تشير تقديرات أقل تحفظاً إلى أن القاهرة الكبرى يعيش فيها الآن ١٦ مليون نسمة وخلال الثلاثين عاماً الماضية ، أضافت القاهرة إلى سكانها ثلاث مدن أخرى بالمقارنة مع ما كان عليه الحال فى هذه المدينة فى سنة ١٩٦٠ . وتمتد حدود القاهرة اليوم حتى الصحراء، الأمر الذى حدا بالحكومة إلى بناء مدن يطلق عليها المجتمعات العمرانية الجديدة ، وذلك فى محاولة يائسة لمواكبة الإيقاع المتزايد والمتسارع لاحتياجات الإسكان والوظائف للمهاجرين الجدد . وداخل المدينة ذاتها ، اختار خبراء التخطيط بناء طرق سريعة مرتفعة عبر الأحياء والضواحى ، مما ساعد فى تسهيل الانتقال بين المناطق السكنية الجديدة الواقعة على أطراف المدينة وبين البنوك ، والمصالح الحكومية ، والوزارات فى وسط العاصمة ، (دينيس ٩ – ١٩٩٧) . أما الأحياء الأقدم بالقرب من وسط المدينة فقد أزيلت حيث شيدت بدلاً منها مبان سكنية فاخرة وفقاً لأحدث الطرز المعمارية ، ناهيك عن مراكز المؤتمرات ، وفنادق الخمس نجوم ، بينما تم نقل سكان تلك الأحياء إلى مشروعات

سكنية حكومية . ورغم ما قد يعنيه ذلك من إرباك للحياة اليومية وترتيبات العمل ، إلا أن جهود الحكومة لتحويل وتحسين مظهر وشكل القاهرة تفسدها وتعوقها أيضاً ممارسات هؤلاء السكان الذين جرى نقلهم إلى مناطق أخرى ، والذين دأبوا على إعادة البناء فى المساكن التى شيدتها الدولة ، بل وارتكبوا العديد من المخالفات من خلال إضافة شرفات ، وقطوعات بطرق غير قانونية ، بل إنهم قاموا ببناء مساحات عامة وخاصة جديدة تتلائم واحتياجاتهم (غنام ٢٠ – ١٧ : ١٩٩٧)

ومن الواضح أن الإيقاع السريع للتحضر والتمدّن قد أربك خبراء التخطيط . إذ إن الاختناق المرورى ، والنقص فى الخدمات ، والافتقار إلى وسائل الراحة والمساحات المفتوحة ، وتلوث الهواء ، وعدم كفاية إمدادات المياه ، وشبكات الصرف الصحى التى تعمل بشكل يفوق طاقتها، قد أصبح ذلك كله من الأمور المألوفة فى العديد من المدن . وربما فقط فى المملكة العربية السعودية ودول الخليج الأخرى ، حيث أعداد السكان أقل وحيث يمكن استيعاب تكاليف البنية الأساسية وأموال الدعم لمشروعات الإسكان بسهولة أكثر ، ربما أن خبراء التخطيط فى هذه الدول قد حالفهم النجاح فى

(صورة ٥ : ٢) منظر عام للقاهرة الكبرى التى يقطنهاحوالى ١٢ مليون نسمة

فرض النظام على نمط النمو الحضرى . وفى أماكن أخرى ، نجد أن معظم المحاولات فى مجال التخطيط طويل المدى قد تعثرت لأن المخططين والسياسيين قد حاولوا التغلب على المتطلبات والاحتياجات العاجلة للسكان الذين تتزايد أعدادهم بسرعة .

وحتى الجهود قصيرة الأجل التى تبذلها الحكومة للتغلب على هذه المشكلة قد أخفقت فى بلوغ أهدافها ، لا سيما ما يتعلق منها بتوفير مساكن لذوى الدخل المنخفض من المهاجرين إلى المدن . ويعيش العديد من القادمين الجدد إلى المدن فى مساكن مؤقتة والتى غالبًا ما يشار إليها باسم مساكن العشوائيات . وحسب أحد التقديرات ، هناك أكثر من مائة من المناطق العشوائية التى يعيش بها ما يربو على ستة ملايين نسمة فى القاهرة الكبرى (بيات والجوهرى ٦ – ٥ : ١٩٩٧) . وفى تركيا يطلق على مثل هذه العشوائيات gecekondus وهى كلمة تعنى ترجمتها الحرفية المساكن الليلية ، حيث تعكس السرعة التى تقام بها المنازل بطريقة غير قانونية على أرض خالية . وطبقًا لبعض التقديرات ، عاش ما يزيد عن ٥٠ ٪ من سكان إسطنبول فى مثل هذه المناطق إبان الثمانينيات . وبالنسبة إلى هؤلاء الذين يرون مثل هذه المستوطنات السكنية من الخارج ، فإن الرواية المثيرة التى كتبها لطيف تكين فى ١٩٩٦ والتى تحمل عنوان حكايات من جبال القمامة ، وتصور تصويرًا دقيقًا إيقاع الحياة فى منطقة عشوائية تقع على حافة إسطنبول ، وتقدم وصفاً شاملاً لتجارب سكانها، ومخاوفهم ، وتتحدث عن الشائعات السائدة بينهم ، وعن الريح والغبار هناك.

ورغم أن الحكومات قد حاولت فى مناسبات عدة هدم المستوطنات غير القانونية، إلا أنها قد دأبت بين الحين والآخر على إصدار إعفاءات بشأن البناء على هذه الأراضى . وبمرور الوقت ، اكتسب العديد من هذه المناطق العشوائية وضعاً قانونياً ، بل إنه قد جرى دمجها عمليًا وإداريًا مع نسيج المجتمع الحضرى . إذ إنه قد تم استبدال المنازل المؤقتة بمساكن دائمة ووحدات سكنية متواضعة . وهكذا تحولت المساكن المؤقتة إلى ما يمكن وصفه بأنه سمة دائمة لمعظم مدن الشرق الأوسط ، مع وجود اختلافات وفروقات محلية متعددة مثل مدينة الأموات فى القاهرة حيث اتخذت أعداد كبيرة من الأسر من مناطق المقابر مساكن لها. وفى هذه الأحياء الجديدة ، حيث تظل الخدمات العامة غير كافية ، اعتاد السكان تنظيم شئونهم

المعيشية بأنفسهم أو السعى لطلب المساعدة من الهيئات الحكومية أو الدينية ، لا سيما فيما يتعلق برصف الطرق وسفلتة الشوارع ، وتركيب شبكات المياه ، وتنظيم أماكن تجميع القمامة ، وإنشاء وحدات صحية ، أو بدء خدمة النقل بالحافلات . وتلعب جمعيات المساعدة الذاتية وتحسين الخدمات فى هذه الأحياء دوراً مهماً رغم ، أنها جمعيات غير معترف بها غالباً، فى تحسين الخدمات فى تلك الأحياء وتغذية الشعور بالانتماء إلى المجتمع والإحساس بالهوية بين أوساط المهاجرين الجدد إلى المدينة . وهكذا ، فإنه بالنسبة إلى العديد من سكان المدن ، ما زال الحى يشكل أهم العناصر على الإطلاق ، من الناحيتين المكانية والاجتماعية ، فى مفهومهم وفكرتهم عن المدينة .

ص

خاتمة :

فى مقالة بعنوان «الجغرافيا فى كل مكان» ، يكتب دينيس كوسيجروف ما يرى أنه السحر الحقيقى للجغرافيا إنه الإحساس بالروعة والدهشة فى دنيا البشر ، والابتهاج للرؤية والتفكير بتعمق فى الفسيفساء الغنية بألوانها عن الحياة الإنسانية وفهم رقة تعبيرها فى الإطار الأوسع للمشهد الطبيعى الإنسانى (كوسيجروف ١٢٠ : ١٩٨٥) . ويحدونا الأمل فى أن يعكس هذا الفصل هذه الفسيفساء الغنية وفى أن ينقل ذلك الإحساس بالتداخل ونقصد بذلك الطرق التى من خلالها ترتبط المياه بالسياسة والاقتصاد ، والدين ، وكذا الطرق التى تتشكل المدن من خلالها سواء بواسطة ممارسات عالمية (اتصالات وروابط تجارية ، تجارب استعمارية ، هجرة العمالة ، تدفقات رءوس الأموال) أو ممارسات محلية وأيضًا الوسائل التى من خلالها ينتقل الجنس البشرى ، والمياه ، والأشخاص ، والسلع ، والأموال ، والأفكار عبر الحدود السياسية . ونود أن نؤكد أيضاً على الصلات والعلاقات التى تربط الأماكن بماضيها (ماسى ١٩٩٥) . ونحن لا نعنى بذلك الطرق التى من خلالها يكون الماضى حاضراً من الناحية المادية فى المشهد الطبيعى الحالى للشرق الأوسط ، وإنما نقصد الطرق أو الوسائل التى من خلالها قد يكون الماضى حاضراً فى ذاكرة الناس وفى التفسيرات الواعية وغير الواعية لتواريخ الأماكن (ماسى ١٨٧ : ١٩٩٥) .

وهذا كله يقترح أننا بحاجة إلى التفكير فى مسألة اللاحدود وبنفس القدر الذى نفكر فيه ونحن بصدد فهم معرفة الناس وتجربتهم عن المكان . وهذه الروابط والصلات بين الماضى والحاضر وغياب الحدود قد تناولها أميتاف غوش فى كتابه بعنوان «الأرض القديمة : التاريخ فى شكل حكايات مسافر» (١٩٩٤) ، وهو الكتاب الذى يعمد فيه الكاتب ، وهو باحث هندوسى من الهند ، إلى إعادة شرح وتفسير رحلة وتجربة عبد هندى سابق والذى كان قد سافر ، فى أوائل القرن الثانى عشر ، إلى القاهرة نيابة عن إبراهام بن ييجو ، وهو تاجر يهودى من تونس يعيش فى مانجالور . وفى مرحلة معينة ، يتحدث الكاتب وفى خطوط متوازية ، عن رحلة هذا العبد ، وسفره إلى تونس ومصر ، وإقامته مع أسرة مسلمة فى قرية صغيرة خارج القاهرة ، وعن تعلمه التحدث باللغة العربية ، وهو ما ساعده فيما بعد على قراءة وثائق العصور الوسطى . وفى مرحلة أخرى ، نجد أن الكتاب الذى كان يستند إلى «وثائق جينيزا»

(رسائل وكتابات أخرى عثر عليها فى الجينيزا وهو أرشيف فى معبد يهودى فى القاهرة) ، نجده يحمل شهادة على نمط من الحركة المتدفقة وبعيدة المدى إلى الحد الذى يجعل من رحلات قام بها رحّالة فى أواخر العصور الوسطى ، من أمثال ماركو بولو ، وابن بطوطة ، تبدو غير لافتة للنظر وغير مثيرة بالمقارنة (جوش ١٥٧ : ١٩٩٤) .

وكما تشير الخطابات المتبادلة بين بن ييجو وتجار آخرين ، فإن السفر بين المغرب، ومصر ، وسوريا ، واليمن ، والهند ، وعلى الرغم من أنه لم يكن خالياً من المخاطر (أحد هذه الخطابات يصف كيف أن تاجراً قد وقع أسيراً فى أيدى القراصنة قبالة ساحل جوجارات) ، إلا أنه كان متكرراً ومنتظماً . وتبرز هنا تركيبة مختلفة لجغرافية المنطقة . فبالنظر إلى الخريطة السياسية اليوم والعالم المقسم فى الشرق الأوسط ، نجد أنه من الصعب علينا العودة إلى الوراء وتصور إمكانية وجود عالم لم تكن فيه الحدود واضحة المعالم على نحو جلى أو دقيق ، أو بالأحرى ، مكان حيث اعتاد المسلمون واليهود والمسيحيون السفر بحرية وعبروا ممرات بشكل متكرر ودائم خلال حياتهم اليومية ومعاملاتهم التجارية . ويصف إس . دى . جويتياين هذه الفترة ، والتى تمتد تقريباً من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر ، وهى الفترة المعروفة باسم العصور الوسطى العليا عندما كانت منطقة البحر الأبيض المتوسط تشبه مجتمعاً للتجارة الحرة، والذى كانت فيه معاملة الأجانب ، كقاعدة ، تتسم بقدر كبير من التسامح (جويتياين ٦٦ : ١٩٦٧) . ويلاحظ جويتياين أن ، فيما عدا حالات قليلة ، فإن المئات من الوثائق والخطابات التى عثر عليها فى أرشيف جينيزا والتى تصف الرحلات إلى دول أجنبية أو فى هذه الدول لم تتضمن شيئاً عن العقبات التى كانت توضع فى طريق المسافر لأسباب سياسية (جويتياين ٥٩ : ١٩٦٧) .

ولم تكن مثل هذه الرحلات تقتصر على التجار وحدهم ، بل كانت تشمل أيضاً الفنانين، والدارسين ، والحرفيين الذين شاركوا فيها بصورة مستمرة . وعلاوة على هذا، كان هناك العديد من المسلمين الذين اعتادوا السفر لأداء مناسك الحج فى مكة. وحتى ظهور السفن البخارية فى القرن التاسع عشر ، كان معظم الحجاج يسافرون إلى مكة مع إحدى القوافل البرية الكبيرة التى تبدأ رحلتها كل عام من القاهرة ، ودمشق ، أو بغداد . بيد أنه حتى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كانت مثل هذه القوافل الضخمة تتألف من عدة آلاف من الجِمال ، والمئات من الخيل ، وما يتراوح

بين ٣٠ ألفًا و ٤٠ ألفًا من الحجاج (بيترز ١٩٩٤) ، الأمر الذى كان يعنى إحساسًا بمشاركة أعداد كبيرة من الأشخاص فى تلك القوافل. وفى قرون سابقة ، كان يمكن أن تستغرق هذه الرحلة ذهاباً وإياباً سنوات عدة لاسيما بالنسبة للحجاج القادمين من شمال وغرب أفريقيا ، والصين ، وجنوب شرق آسيا . ومن الهند، فى القرن السابع عشر ، أمضى الحاج صافى بن والى القزوينى سنة كاملة فى الذهاب إلى مكة والعودة منها (بيرسون ، ٤٥ : ١٩٩٤) . وشأنه شأن غيره من الحجاج المتعلمين ، قام القزوينى بتدوين رحلاته وتسجيلها بدقة كى تكون مرشداً للآخرين ، حيث تضمنت تفاصيل غنية عن الطريق الذى تسلكه قافلة الحجيج ومعلومات عملية عن المحطات أو الأماكن التى يتوقفون فيها بقصد الراحة من عناء الرحلة الطويلة ، ونقاط المياه ، وتكاليف شراء ما يلزم الحاج من الزاد اللازم لرحلته .

ولا يزال أداء فريضة الحج أمراً مكلفًا بالنسبة إلى العديد من المسلمين ، سواء بالنسبة إلى الزاد الذى يتزود به الحاج أو المال اللازم لرحلته . غير أنه بالنسبة إلى المليونين أو الثلاثة ملايين من الحجاج الذين يفدون إلى مكة لأداء مناسك الحج سنوياً، فإننا نجد نفس المعلومات الضرورية لهم متضمنة فى الملاحظات التى دونها القزوينى ، وأيضاً معلومات حول إجراءات الحصول على تأشيرة الحج وغيرها والتى يمكن العثور عليها من خلال شبكة الإنترنت . ومرة أخرى ، فإنه من خلال مثل هذه التجارب كتجربة رحلة الحج ، تتوحد وتندمج الأماكن المحلية معاً وتصبح جزءاً من العالم الآخر. وقد يشعر السائحون المسافرون على طول نهر النيل بالدهشة لدى رؤيتهم رسومات الطائرات الجامبو العملاقة وهى تزين واجهات المنازل البسيطة المشيدة من الطوب اللبن . وهنا يبرز المغزى الحقيقى والأهمية القصوى من وراء أداء فريضة الحج لدى المسلمين من سكان هذه القرى الصغيرة ، إذ إنها أهم تجربة فى حياتهم كلها حيث يطوفون حول الكعبة ، يؤدون صلواتهم فى جبل عرفات (وقفة عرفات) ، ويؤدون طواف الإفاضة ليعودوا بعده إلى أوطانهم وقد غمرهم الشعور بالفرحة لأداء الحج ، وهى صورة تعد حقاً رائعة وتأسر القلوب (باركر ونيل ١٩٩٥) .

فى الأطلس المعاصر ، ينقسم الشرق الأوسط عادة إلى مجموعة مألوفة من الدول، وكل دولة من هذه وبما تتميز به من سمات خاصة ، أشبه ما تكون بلغز الصور المقطوعة التى يتعين إعادة ترتيبها . ويرى بينيدكت أندرسون (٧ - ٦: ١٩٩١)

الشعوب أو الدول بمثابة مجتمعات سياسية متصورة أى بمعنى أن أعضاء من أمة بعينها لا يعرفون معظم رفاقهم من الأعضاء الآخرين ، ومع هذا فإنهم يتصورون أنفسهم وكأنهم جزءاً من مجتمع أوسع يشترك أفراده فى ذلك الإحساس العميق بالأخوة والرفقة . وبالنسبة إلى أندرسون ، فإن خريطة الرموز تفسر هذه العملية التصورية، وذلك ، على الأقل ، لأن تأثير هذا اللغز للصور المقطوعة بات شيئًا عادياً، حيث يمكن فصل كل جزء من هذه الصور تمامًا عن سياقه الجغرافى (أندرسون ١٧٥ : ١٩٩١) . وما نرغبه هو أن يشجع هذا الفصل الناس على استكشاف ما يكمن تحت سطح الخريطة ، وإعادة ربط تلك الخريطة بسياقها الجغرافى، وطرح أسئلة حرجة عن الكيفية التى قد تشكلت بها خرائطنا ومعرفتنا بالمنطقة ، وأخيراً محاولة تخيل جغرافيات بديلة .

(صورة ٦ : ٢) رسومات على الواجهة الخارجية لمنزل فى مدينة الأقصر بصعيد مصر تشير إلى أن صاحبه قد أدى مناسك الحج فى مكة

ملاحظات :

نود أن نعرب عن شكرنا الخاص لكل من كاى إيبيل وزجاله هاجيياشى لتعليقاتهم المفيدة على ما ورد فى الصفحات الأولى من هذا الفصل .

١- B . C . E : قبل العصر المسيحى ، وهو مصطلح يراه غير المسيحيين أكثر ملائمة لتسجيل التاريخ من مصطلح B . C .، والذى يعنى قبل الميلاد .

٢- C . E : و يعنى هذا المصطلح العصر المسيحى، وهو مصطلح يعادل المصطلح A . D (Anno Domini) أو سنة الرب .

المصادر :

١- ليلى أبو سيف - رحلة امرأة فى قلب العالم العربى ميدل إيست جورنال - تشارلز سكريبز أند متنر - نيويورك - ١٩٩٠ .

٢- جانيت أبو لغد - ١٠٠١ عامًا من عمر المدينة المظفرة - مطبعة جامعة برينستون -١٩٧١ . «المدينة التاريخية - الأسطورة التاريخية ، الجوهر الإسلامى ، والارتباط بروح العصر» . مجلة انترناشيونال جورنال لدراسات الشرق الأوسط ١٧٦ - ١٥٥ : ١٩ .

٣- جلال الأحمد - تائه فى وسط الزحام - مقالة مترجمة كتبها جون جرين - واشنطن - . D . C مطبعة القارات الثلاث - ١٩٨٥ .

٤- بينيدكت أندرسون - مجتمعات متصورة - لندن ونيويورك - مطبعة فيرسو - ١٩٩١ .

٥- عاصف بيات وكريم الجوهرى - (مقالات) - «القاهرة : السلطة ، الفقر ، الزحف الحضرى» - تقرير الشرق الأوسط - ٣٠ - ٢ : ٢٠٢ - ١٩٩٧ .

٦- ميرون بينفيستر - مدينة الحجر : التاريخ السرى للقدس - مقالة ترجمها ماكسين كاوفمان نون - بيركلى : مطبعة جامعة كاليفورنيا - ١٩٩٦ .

٧- بليك ، جيرالد ، جون دويدنر ، جوناثان ميتشيل - أطلس كمبريدج من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا - كمبريدج ونيويورك : مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٨٧.

٨- سيبل بوزدوكان - «العمارة ، الحداثة وبناء الدولة فى تركيا» آراء جديدة عن تركيا - ٥٥ - ٣٧ : ١٠ - ١٩٩٤

٩- زينب شيليك - تحديث إسطنبول - سياتل ونيويورك : مطبعة جامعة واشنطن - ١٩٨٦ .

١٠- فى - شيرول - قضية الشرق الأوسط ، أو بعض المشكلات السياسية للدفاع الهندى - لندن - جون موراى - ١٩٠٣ .

١١- دينيس كوسجروف - «الجغرافيا فى كل مكان : الثقافة والرمزية فى المشاهد الطبيعية الإنسانية» ص ١٣٥ - ١١٨ فى ديريك . آ . ر . جريجورى ، وركس ولفورد (مقالات) آفاق فى الجغرافيا البشرية - لندن - ماكميلان - ١٩٨٥ .

١٢- إيريك دينيس - «التخطيط الحضرى والنمو السكانى فى القاهرة» - تقرير الشرق الأوسط - ١٩٩٧ .

١٣- الاسدير دريسديل ، وبليك جيرالد - الشرق الأوسط وشمال أفريقيا : جغرافيا سياسية - نيويورك و أكسفورد : مطبعة جامعة أكسفورد - ١٩٨٥

١٤- ديفيد فرومكين - «كيف رسمت خريطة الشرق الأوسط الحديث» - سيمثيونيان ٢٢ - العدد ١٤٨ - ١٣٢ : ٢ - ١٩٩١ .

١٥- فرح غنّام - «إعادة التوطين واستخدام الفضاء الحضرى فى القاهرة» تقرير الشرق الأوسط ٢٠ - ١٧ : ٢٠٢ - ١٩٩٧ .

١٦- أمتياف جوش - فى أرض قديمة : التاريخ فى شكل حكاية مسافر - نيويورك - مطبعة فيتانج - ١٩٩٤ .

١٧- بيتر جليك - «المياه ، الحرب ، والسلام فى الشرق الأوسط» . البيئة - ٣٦ العدد ٦ : ٣ - ١٥ - ٤٢ : ٣٥ - ١٩٩٤ .

١٨- إس . دى . جويتيان - مجتمع متوسطى : المؤسسات الاقتصادية . بيركلى : . مطبعة جامعة كاليفورنيا - ١٩٦٧ .

١٩- الحريرى - يوميات الحريرى : مترجمة من العربية ، مع مقدمة وملاحظات تاريخية ولغوية من إعداد توماس شينيرى - لندن - مطبعة وليامز ونورجيت - ١٨٩٨ .

٢٠- ثوركيلد جاكوبسن ، و روبرت . إم . آدمز - «الملح والطمى فى زراعة بلاد ما بين النهرين القديمة» - مجلة ساينس ص ١٢٨ - العدد ١٢٥٨ - ١٢٥١ : ٣٣٣٤ - ١٩٥٨ .

٢١- روسين كيليس ، و جيوفرى باين - «تركيا» . ص ١٩٧ - ١٦٥ فى مقالة بقلم : مارتن وين : التخطيط والنمو الحضرى فى جنوب أوروبا - لندن ونيويورك - مانيل - ١٩٨٤ .

٢٢- برنارد لويس - «خريطة الشرق الأوسط : دليل الحائرين» - مجلة أميركان ساينتيست ٥٨ - العدد ٣٨ - ١٩ : ١ - ١٩٨٩ .

٢٣- اليزابيث ماكدوجال ، و ريتشارد ايتينجهاوس (مقالات) - «الحديقة الإسلامية» - واشنطن دى . سى : مجلس الأمناء بجامعة هارفرد - ١٩٦٧ .

٢٤- أيان مانرز - «الشرق الأوسط» ص ٦٦ - ٣٩ - فى مقال جارى . أر . كى - النظم العالمية لإدارة الموارد التقليدية - نيويورك : مطبعة هالستيد

٢٥- دورين ماسى - « أماكن لها ماضيها» - مجلة هيستورى وركشوب جورنال - ١٩٢ - ١٨٢ : ٣٩ - ١٩٩٥ .

٢٦- دورين ماسى ، وبات جيس - الأماكن ، الثقافات والعولمة - مطبعة جامعة أكسفورد للجامعة المفتوحة - ١٩٩٥ .

٢٧- تيموثى ميتشيل - استعمار مصر - كمبريدج ونيويورك : مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٨٨ .

٢٨- آن باركر ، و آفون نيل - رسومات الحج : فن شعبى لموسم الحج - واشنطن ولندن : مطبعة مؤسسة سمثيسونيان - ١٩٩٥ .

٢٩- باربرا بارمنتر - الأحجار تتكلم : المكان والهوية فى الأدب الفلسطينى - أوستن - مطبعة جامعة تكساس - ١٩٩٤ .

٣٠- «الأراضى الرطبة المعرضة للخطر وإدارة شئون البيئة فى شمال أفريقيا» ص ١٧٤ - ١٥٥ - مقالات بقلم ويل . د . سورينجين وعبد اللطيف بن شريفة - بيئة شمال أفريقيا فى خطر - بولدر ، كولومبيا : مطبعة ويستفيو - ١٩٩٦ .

٣١- م . ن . بيرسون - مسافرون متدينون : الحج فى العصور الأولى - لندن : سى هيرست - ١٩٩٤ .

٣٢- ف . أ . بيترز - الحج : رحلة الحج إلى مكة والأماكن المقسة - برنستون - جامعة مطبعة برنستون - ١٩٩٤ .

٣٣- مكتب اتفاقية رامسار - الأطراف الموقّعة على اتفاقية رامسار حول الأراضى الرطبة اعتباراً من ٣٠ أكتوبر ١٩٩٨ - الوثائق الرئيسية لاتفاقية رامسار - ١٩٨٨ .

٣٤- أنيميرى شيميل - «مياه الحياة» - تصميم بيلى - ٩ - ٦ : ٢ - ١٩٨٥
٣٥- جوردون سميث - «ظهور الشرق الأوسط» - مجلة التاريخ المعاصر - العدد ٣ - ١٧ - ٣ : ٣ - ١٩٦٨ .
٣٦- ويل سويرينجين - أوهام مغربية : أحلام زراعية وأوهام - ١٩٨٦ - ١٩١٢ - برينستون : مطبعة جامعة برينستون - ١٩٨٧ .
٣٧- لطيف تكين - بيرجى كريستين : حكايات من جبال القمامة - ترجمة روث كريستى وساليا باركر - لندن ونيويورك : ماريون بويرس - ١٩٩٦
٣٨- الأمم المتحدة - الكتاب السنوى الديموجرافى - نيويورك : الأمم المتحدة - ١٩٩٢ .
٣٩- جيلبرت هوايت - «الآثار البيئية للسد العالى فى أسوان» - مجلة البيئة - العدد ٣٠ - ٤٠ - ٣٤ - ١١ ٤ : ٧ - ١٩٨٨ .

-٣-

السياق التاريخى

آرثر جولد شميت

التاريخ هو دراسة الماضى المسجّل للإنسانية ورصد الأحداث والوقائع التى شهدتها في المراحل والعصور التاريخية المختلفة . أما تاريخ منطقة الشرق الأوسط فإنه يعد الأطول فى العالم كله . فهذه المنطقة ، قد عرفت ولأول مرة ، زراعة العديد من المحاصيل الرئيسية، وتم لأول مرة أيضاً ، استخدام معظم الحيوانات فى المزارع ، كما أقيمت أقدم القرى الزراعية. وهناك أيضاً ، كانت توجد أقدم مدن العالم ، وأول الحكومات والقوانين ، وكذلك أول النظم والقوانين الأخلاقية . وباعتبارها مفترق طرق للأشخاص والأفكار ، شهدت منطقة الشرق الأوسط عدة تغيرات جوهرية ، ومع ذلك ظلت بعض جوانب الحياة فى المنطقة كما هى دون تغيير . وفى فترات معينة توحدت المنطقة فى ظل وجود نظام سياسى وثقافى واضح ومتجانس ، وفى فترات أخرى انقسمت إلى أجزاء متنافسة . وخلال عهود التلاحم الداخلى وتعاظم القوة ، بسط الشرق أوسطيون سيطرتهم على مناطق عدة فى العالم وامتد نفوذهم إلى أجزاء فى أوروبا ، وأسيا ، وأفريقيا . ولهذا ، صار التفاعل الذى حدث بين الغزو والتكيف معه سمة خاصة تميز المنطقة . وفى هذا الفصل ، نعرض بإيجاز تاريخ الشرق الأوسط : الإمبراطوريات القديمة ، ظهور الإسلام والحضارة الإسلامية ، وتبعية المنطقة للسيطرة الأوروبية ، ونضالها من أجل استقلالها السياسى .

الشرق الأوسط القديم :

لعبت البيئة دوراً رئيسياً فى تشكيل تاريخ منطقة الشرق الأوسط . فمع انحسار الجليد الذى كان يغطى قمم الجبال فى المنطقة القطبية ، تناقص هطول المطر ، واضطر الصيادون وجامعو الطعام إلى تعلم كيفية التحكم فى الموارد التى كانوا يعتمدون عليها فى البقاء على قيد الحياة . واختفى الصيد وجمع الطعام كطريقة

لاستمرار الحياة فى شمال أفريقيا وجنوب غرب آسيا منذ حوالى خمسة آلاف سنة ، ليحل محلها أسلوب الرعى فى الحياة البدوية والزراعة المستقرة . وكما أشار كل من أيان . ر. مانرز وباربرا مكين بارمنتر فى الفصل الثانى ، فإن هطول المطر ليس كافياً فى العديد من أجزاء الشرق الأوسط وبالقدر الذى يدعم الزراعة المستقرة . ومع هذا ، فإن أقدم القرى الزراعية فى العالم قد اكتشفت فى شمال شرقى أفريقيا وفى المناطق الجبلية فى آسيا الصغرى . هاجر العديد من الرجال والنساء إلى أودية النيل ، والفرات، ودجلة ، حيث تعلموا كيف يروضون الفيضانات السنوية لرى حقولهم .

ومع انتشار زراعة الحبوب ، نجح الفلاحون تدريجياً فى تحسين أدواتهم وأوانيهم الفخارية . واحتاج هؤلاء إلى حكومات لتنظيم بناء السدود ، والحواجز ، والقنوات لأغراض الرى على نطاق واسع ، ولتنظيم توزيع مياه الأنهار ، وفى أغلب الأحيان لحماية المزارعين من الرعاة الغازين . ورغم أن البدو عملوا فى فترات معينة فى خدمة الأشخاص الذين استوطنوا هذه المناطق واستقروا فيها كتجار وجنود ، إلا أنهم سلبوا أيضًا مدنهم ومزارعهم . ورغم التوتر الذى حدث بين الفلاحين المقيمين والرعاة البدو ، فإنهم كانوا بحاجة إلى بعضهم البعض . إذ إنه بدون هاتين الجماعتين، ما كانت المدن ، والدول ، والحضارات قد ظهرت أبداً إلى حيز الوجود .

وقد نشأت أول حكومة معروفة فى المجتمعات الزراعية الأقدم ، مثل مصر ، والدولة السومرية ،وذلك قبل أكثر من خمسة آلاف سنة . وبداية من الألفية الثالثة قبل الميلاد ، عانت شعوب الشرق الأوسط من سلسلة من الغزوات التى اجتاحت المنطقة من الخارج ، وخضعت هذه الشعوب لحكم هؤلاء الغزاة ، واكتسبوا أفكاراً ومؤسسات جديدة ، ونجحوا فى نهاية المطاف فى استيعاب الغزاة أو طردهم من بلادهم . ونتيجة لهذا كله ، نشأت سلسلة متتابعة من الدول التى انصهرت فى بوتقة واحدة جمعت بين ثقافات حكامها ورعاياها ، وهو انصهار بلغ قمته فى قيام الإمبراطورية الرومانية .

وكانت الدول الأولى التى قامت على الزراعة المستقرة مملكتا مصر العليا ومصر السفلى ، واللتين توحدتا فى حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ليشكلا كلاً من مصر ، ومملكة سومر ، وهما المملكتان اللتان قد ظهرتا قبل ذلك بفترة قصيرة فى بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) . وقد طورت كلتاهما ممالك قوية تدعمها أنظمة بيروقراطية . وقوانين أخلاقية ، ومبادئ وأحكام دينية والتى أدت إلى تكامل وإدماج

النظام السياسى فى نظام كونى . وحشدت حكومات هذه الممالك أعداداً ضخمة من الأيدى العاملة لحماية الأراضى من الفيضانات والغزاة .

الغزوات السامية والإيرانية – الهندية :

تقطعت دول وممالك النهرين على أيدى المتسللين إليها والغزاة القادمين من الخارج . فالمملكة السومرية سيطر عليها غزاة كانوا يتحدثون اللغات السامية ، حيث أقاموا هناك دولة بابل ، والتى بلغت قمة مجدها فى عهد حامورابى الذى وضع قوانينها (١٧٥٠ – ١٧٩٢ قبل الميلاد) . وفى الوقت ذاته اختلط الغزاة الأوروبيون – الهنود من السكان المحليين فى منطقتى الأناضول وإيران وأدخلوا الحصان إلى بلاد ما بين النهرين . وباستخدام العربة التى تجرها الخيول ، تمكن شعب آخر من الشعوب السامية من احتلال منطقة دلتا النيل خلال الفترة من ١٧٢٠ إلى ١٥٧٠ قبل الميلاد . وبينما استطاع البابليون استيعاب غزاتهم ، نجح المصريون فى طرد الغزاة الذين احتلوا بلادهم ، بل وامتدت إمبراطوريتهم إلى سوريا.

صورة (١ : ٣) معبد الشمس فى «أبو سنبل» والذى بنى على ضفاف نهر النيل فى صعيد مصر وعلى مسافة تبعد حوالى ٥٠ ميلاً شمال الحدود مع السودان أثناء حكم رمسيس الثانى (فى القرن ١٣ قبل الميلاد)

وفى النهاية دب الضعف إلى مملكة مصر من جراء الخلاف الداخلى والضغوط الخارجية ، الأمر الذى أدى فى حوالى سنة ألف قبل الميلاد إلى ظهور سلسلة متتابعة من الغزوات والدول الناشئة . وفى الوقت الذى صار فيه مناخ الشرق الأوسط أكثر جفافاً ، هاجرت الشعوب السامية ومن بينها الفينيقيين والعبرانيين ، من الصحراء العربية إلى الأراضى الأكثر خصوبة فى سوريا وبلاد ما بين النهرين . وأصبح الفينيقيين فى الساحل السورى من أشهر التجار والبحارة والمستعمرين للعالم القديم . كما اخترع هؤلاء الحروف الأبجدية الفينيقية . وفى عهد الملك داود ، والذى حكم فى مطلع القرن العاشر قبل الميلاد ، أقام العبرانيون مملكة فى فلسطين (والتى أطلقوا عليها «أرض إسرائيل») وعاصمتها القدس ؛ وهى المملكة التى أصابها الانقسام فيما بعد وخضعت لغزاة أقوياء . وطور العبرانيون ديانة الإيمان بإله واحد والذى ، كما جاء فى الكتاب المقدس ، ظهر للنبى موسى على جبل سيناء ثم تجلى بعد ذلك للأنبياء. والحقيقة أن عناصر هذه الديانة الأخلاقية كانت موجودة فى ديانات سابقة فى الشرق الأوسط ، ولكن الأفكار العبرانية ، التى تتبلور فى الديانة اليهودية ، أثرت تأثيراً عميقاً فى التاريخ الفكرى لكل من الشرق الأوسط والغرب .

وأدى إدخال طرق رخيصة لصنع الأدوات الحديدية والأسلحة إلى قيام إمبراطوريات أكبر دامت لفترات أطول . ففى حوالى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد ، حلت المملكة الأشورية محل المملكة البابلية ، حيث تمركزت فى شمالى بلاد ما بين النهرين . وشهدت هذه الإمبراطورية ، وهى الأولى من العصر الحديدى ، دورات عدة من الصعود والهبوط ؟ والقوة والاحتمال ؛ والتى بلغت أوجها (فى حوالى سنة ٧٠٠ قبل الميلاد) ، وذلك حين بسطت المملكة الأشورية سيطرتها على سائر بلاد ما بين النهرين ، وسوريا ، بل ومصر أيضاً . غير أن منافستها السامية ، وهى مملكة الكلدانيين والتى خلفتها فى الحكم ، قد دعمت وساندت مجد المملكة البابلية قرناً آخر . وبعد ذلك ، تمكن الملك سيروس من بلاد فارس (٥٢٩ – ٥٥٠ قبل الميلاد) من الاستيلاء على بلاد ما بين النهرين ومنطقة الشرق الأوسط .

وخلال الفترة الممتدة من حكم سيروس وحتى العصور الحديثة ،تركز التاريخ السياسى لمنطقة الشرق الأوسط على صعود وهبوط إمبراطوريات متعددة الجنسيات متعاقبة ؛ وهى الإمبراطوريات الفارسية ، واليونانية ، والرومانية ، والعربية ،

وإمبراطورية الأتراك اللاحقة ، والإمبراطورية المنغولية ، والعثمانية . وشأن الإمبراطورية البابلية ، فقد كان معظم هذه الإمبراطوريات نتاجاً لغزوات خارجية . وقد أثار حكم هؤلاء الغزاة مقاومة القوى المحلية والتى تصدت فى النهاية لقوة الحكام، مما أدى إلى تفتت سياسى ، ومن ثم التعرض لغزوات جديدة من الخارج . وفى الغالب ، تبنى الغزاة الجدد مبادئ ومعتقدات رعاياهم الشرق أوسطيين ؛ إذ إنه قلما تمكن هؤلاء من فرض معتقداتهم .

وكانت إمبراطورية سيروس الفارسية ، والإمبراطورية الأخمينية التى خلفتها فى الحكم ، نموذجاً رئيسياً لنظام الحكم متعدد الجنسيات . ولأنها كانت تمتد من وادى الهندوس إلى النيل ، لم تستطع تلك الإمبراطورية حمل رعاياها على التفكير والعمل بشكل متماثل . وبدلاً من هذا ، تسامحت مع معتقداتهم وممارستهم طالما أنهم كانوا يطيعون قوانينها ، ويدفعون ضرائبهم ، ويرسلون أبناءهم إلى الجيش الفارسى . وكان حكام المقاطعات والأقاليم يتمتعون بسلطات مدنية ، وقضائية ، ومالية واسعة منحها إياهم الإمبراطور . علاوة على ذلك ، فإن وجود نظام إقطاعى لملكية الأرض جعل أعضاء الطبقة الأرستقراطية المحلية يدينون بالولاء المستمر للإمبراطور ، كما أدى وجود نظام للبريد ، وشبكة الطرق ، إضافة إلى وجود عملة نقدية موحدة ، وتقويم ميلادى ، ولغة إدارية ، إلى دعم أركان الإمبراطورية .

أما الديانة الرسمية للإمبراطورية ، وهى الزرادشتية ، فقد نشأت أصلاً فى بلاد فارس . وأكدت هذه الديانة على وجود إلهين فى هذا العالم : أحدهما يمثل الخير ، والآخر يمثل الشر ، وعلى مسئولية الأفراد فى الاختيار بين هذين الإلهين فى حياتهم، وكذلك واجبهم على تحمل العواقب بعد موتهم . والواقع أن الزرادشتية ، و الديانة المثرية ، نسبة إلى الإله مثرا إله النور وحامى الحقيقة وعدو قوى الظلام عند الفرس ، قد كان لها أتباعاً كثيرين اعتنقوها على نطاق واسع فى العصور القديمة . وقد بقيت الإمبراطورية الفارسية الأخمينية طيلة قرنين من الزمان قبل أن تخضع لحكم الإسكندر الأكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد.

الحكم اليونانى والرومانى :

يمثل الغزو الكاسح الذى قام به الإسكندر الأكبر للشرق الأوسط خلال الفترة بين ٣٣٢ و ٣٢٣ قبل العهد المشترك منعطفاً مهماً فى تاريخ المنطقة . ففى الألفية التالية ، ظل الشرق الأوسط جزءاً من العالم اليونانى . إذ كان الإسكندر يريد أن تنصهر وتمزج الثقافة اليونانية مع ثقافة الشرق الأوسط ، حيث حرص على أن يأخذ الأفكار ، والمؤسسات ، والإداريين من بين المصريين وسكان بلاد ما بين النهرين ، والفرس . ولم يحدث مثل هذا الانصهار أو التمازج إبّان حياته ، كما أنه لم يكتمل أبداً ، بيد أنه خلال الفترة من حكم الإسكندر وحتى ظهور الإسلام فى عهد النبى محمد ، كانت هنالك حضارة مشتركة تجمع ما بين شعوب العالم المتوسط والشرق الأوسط . إذ كانت المدن الساحلية ، وأشهرها مدينة الإسكندرية (التى سميت بذلك نسبة إلى مؤسسها) مراكزاً لهذا الانصهار أو التمازج الثقافى . وبعد حكم الإسكندر فى مصر، جاء خلفاؤه البطالمة الذين حكموا البلاد ثلاثة قرون . وقد شيد البطالمة المبانى العامة الأثرية مثل فنارة الإسكندرية ، إحدى عجائب الدنيا السبع ، والمتحف أو أكاديمية الباحثين ، والتى كانت تضم أكبر مكتبة فى علوم الآثار .

وقد حكم السلوقيون جنوبى الأناضول ، وسوريا ، وبلاد ما بين النهرين لمدة قرنين، وهم ينحدرون أصلاً من سلالة أحد قادة الإسكندر . وفى القرن الثالث قبل العهد المشترك ، فقد تمكن السلوقيون من السيطرة على الأراضى الشرقية حيث انتقلت إلى حكم أسرة أخرى تحدرت من سلالة بعض جنود الإسكندر ، كما ضاعت منهم بلاد فارس التى استولت عليها أسرة أوروبية هندية حاكمة ، وهى الأسرة البارثية .

فى الوقت ذاته ، ظهرت دولة جديدة فى أقصى الغرب : روما . فبعد أن استولت على قرطاجة ، ومقدونيا ، واليونان فى القرن المائة قبل العهد المشترك ، صارت فيالق الجيش الرومانى صوب الشرق حيث آسيا الصغرى ، وسوريا ، ومصر . ومرة أخرى توحدت معظم مناطق الشرق الأوسط تحت لواء إمبراطورية عالمية جديدة ، وذلك فيما عدا بلاد فارس وجزء من بلاد ما بين النهرين والتى ظلت تحت حكم البارثيين .وشأن الإمبراطوريات السابقة ، استوعبت الإمبراطورية الكثير من رعاياها فى الشرق الأوسط ، بما فى ذلك ديانات متعددة ، مثل الديانتين المثرية والمسيحية

واللتين جرى اعتناقهما على نطاق واسع فى مختلف أرجاء الإمبراطورية الرومانية ، إلى حد أن المنافسة كانت محتدمة بين هاتين الديانتين . وفى النهاية كانت الغلبة للمسيحية . وبعد اعتناق الديانة المسيحية ، نقل الإمبراطور قسطنطين (٣٣٧ – ٣٠٦ قبل الميلاد) العاصمة ، والتى كانت أيضًا المركز الثقافى والاقتصادى لروما ، إلى بيزنطة ، وأعاد تسميتها لتصبح القسطنطينية . ولكن المدينة أعطت اسمها القديم للدولة التى خلفت روما فى الحكم ، وهى الإمبراطورية البيزنطية . وحتى الآن ، يستخدم العرب ، والأتراك ، والفرس كلمة «الروم» للإشارة إلى الإمبراطورية البيزنطية ، وأراضيها ، أيضاً الديانة المسيحية الأرثوذكية اليونانية و معتنقيها .

صورة (٢ : ٣) مهادبة جنوب العاصمة الأردنية عمان تعتبر موطن رسوم الفسيفساء التى يرجع تاريخها إلى العصر البيزنطى

صورة (٣ : ٣) معبد بعلبك واحد من أروع الآثار الرومانية فى الشرق الأوسط ، ويقع شمالى وادى البقاع فى لبنان . وقد تم الانتهاء من بناء هذا المعبد حوالى سنة ١٥٠ فى العهد المشترك

وتحت الحكم الرومانى ، ازدهرت المدن التجارية ، وصار التجار السوريون والمصريون أثرياء من التجارة بين أوروبا وآسيا ، وشرقى أفريقيا . كما ازدهر بدو الجمال العرب ، أو البدو ، نتيجة لبراعتهم فى تجارة القماش والتوابل . وبرع شرق أوسطيون آخرون فى النقل البحرى والملاحة عبر البحر الأحمر ، والخليج ، والمحيط الهندى . بيد أن الحكم الرومانى قد عززه وجود جيش احتلال ضخم ، كما فرضت ضرائب باهظة على زراعة الحبوب فى مصر وسوريا . ولم يكن قادة روما متسامحين دائماً إزاء المعتقدات الدينية التى يعتنقها رعاياهم . فقد دمر الجنود الرومان المعبد اليهودى فى القدس ، واستشهد العديد من الأتباع الأوائل للمسيح . بل إن روما المسيحية كانت أقل تسامحاً . واعتنق العديد من المسيحيين فى شمال أفريقيا ومصر معتقدات كان يعتبرها الأباطرة من أعمال الهرطقة التى ترقى إلى جريمة الخيانة العظمى . وأدت جهودهم لقمع الهرطقة إلى إبعاد العديد من سكان الشرق الأوسط فى القرنين الخامس والسادس قبل العهد المشترك .

وكان يوجد منافس رئيس لروما (بيزنطة فيما بعد) وهو بلاد فارس . وهناك أفسحت الإمبراطورية البارثية المجال فى القرن الثالث أمام حكم الأسرة الساسانية . ولكنها كانت تستمد نفوذها وسطوتها من طبقة عسكرية أرستقراطية ومن وجود العديد من اللاجئين الدينيين الفارين من بيزنطة ، فقد هددت الأسرة الفارسية الساسانية الحكم البيزنطى فى الشرق الأوسط . وفى أوائل القرن السابع ، اجتاح الساسانيون سوريا ، وفلسطين ، ومصر . وبذلك اقتربت حقبة الحكم الإغريقى فى تاريخ الشرق الأوسط من نهايتها .

الشرق الأوسط الإسلامى كنظام متمتع بالحكم الذاتى :

ليس ثمة شك فى أن ظهور الإسلام على يد النبى الأمى محمد ، وهو تاجر من مكة ، فى أوائل القرن السابع ، وتوحيد القبائل العربية المتناحرة تحت لواء هذا الدين الجديد ، والفتح السريع للشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، واعتناق ملايين الأسيويين والأفارقة الإسلام ، والتطور الهائل الذى شهدته الحضارة العربية الإسلامية فى ظل سلسلة متعاقبة من حكم الخلفاء العرب المسلمين ، لاشك أن مثل هذه التطورات المتلاحقة كلها كانت إيذاناً ببدء حقبة تاريخية جديدة . وكان للمصريين ، والسوريين، والفرس تأثيرهم القوى على معتقدات الفاتحين العرب مثلما كانوا قد فعلوا من قبل باحتوائهم واستيعابهم الغزاة السابقين . ومع هذا ، فإن ظهور الإسلام أدى إلى خلق أفكار ومؤسسات جديدة ، وأيضاً آثار وذكريات ما زالت تجد صداها وتأثيرها العميق لدى شعوب الشرق الأوسط .

العرب قبل الإسلام :

بمجرد أن تم استئناس الجمل ، خلال الفترة من ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ قبل الميلاد تقريباً ، بدأت جماعات من سكان شبه الجزيرة العربية تجوب المنطقة بحثاً عن الماء والمرعى لقطعانهم من الماشية والإبل . وكان اللبن والتمر يشكلان الوجبة الرئيسية لسكان هذه المنطقة . واستطاعوا زيادة دخلهم من الإغارة على أو حراسة القوافل التجارية التى كانت تسافر بين سوريا والمحيط الهندى ، أو من خلال القتال والمشاركة فى المعارك التى كانت تخوضها الجيوش الفارسية والرومانية . وفى بعض الأحيان ، كان هؤلاء السكان العرب ينتقلون إلى الأراضى الخصبة ، حيث شيدوا المدن وأقاموا دولاً فيما يعرف الآن بسوريا ، والأردن ، واليمن .

ونظراً لعجزهم ، كبدو ، عن تطوير فنون العمارة ، والنحت ، والرسم ، فإن هؤلاء العرب الأوائل نظموا قصائد الشعر التى جسّدت مثلهم وقيمهم الأخلاقية ، وفى مقدمتها الشجاعة والجسارة فى المعارك ، والصبر على المحن والشدائد ، والإصرار على الانتقام ، وحماية ونصرة الضعيف ، وتحدى القوى ، والولاء للقبيلة ، وإكرام الضيف ، ومساعدة المحتاج ، والإخلاص والوفاء بتنفيذ المواثيق والوعود . وكانت هذه فى الحقيقة القيم التى شكلت الدستور الأخلاقى للبقاء فى الصحراء ، وكانت أشعارهم وقصائدهم ، التى اعتادوا نظمها من الذاكرة ، تعبر بصدق عن أفراح و أتراح الحياة فى البادية ، وتشيد بشجاعة خيولهم ، وتتغنى بأمجاد قبائلهم ، وتهجو أعدائهم وخصومهم . وحتى الآن ، لا يزال العرب يرددون هذه الأشعار والقصائد .

وفى العصور الرومانية لعب العرب الجنوبيون دوراً كبيراً فى العالم ؛ فقد طوروا بلاد اليمن ، واستعمروا أثيوبيا ، وعبروا المحيط الهندى . أما العرب الشماليون فكانوا معزولين نسبياً . واعتنق بعضهم اليهودية أو المسيحية ، ولكن معظمهم كانوا يمارسون عبادة أجدادهم الأوائل وأسلافهم أو كانوا يعتنقون عبادة الأرواح (الاعتقاد بأن لكل شىء فى الكون ، وحتى الكون ذاته ، روحاً أو نفساً) . وقامت قبيلة قريش ، وهى إحدى القبائل الشمالية ، ببناء الكعبة فى منطقة صحراوية صغيرة بمدينة مكة والتى تقع على طريق التجارة الرئيسى بين سوريا واليمن . واعتادت القبائل الوثنية التى كانت تقطن شمال غربى شبه الجزيرة العربية أن تعلق خلافاتها لأداء مناسك الحج مرة كل عام حول الكعبة ، والتى كانت تأوى ٣٦٠ من الأصنام التى تمثل الآلهة الخاصة بكل قبيلة . وصار بعض أهالى مكة أثرياء بفضل الأموال التى كانوا يحصلون عليها من القوافل التجارية والقادمين لأداء مناسك الحج السنوى .

محمد :

فى مكة حوالى ٥٧٠ ميلادية ، ولد أعظم الزعماء الدينيين فى العالم قاطبة ، وهو النبى محمد ، الذى ينتسب إلى فرع صغير من قبيلة قريش . ولأن محمداً كان يتيماً فى سن مبكرة ، فقد قام على تربيته ورعايته عمه أبو طالب الذى كان يعمل تاجراً فى إحدى القوافل . وعندما صار يافعاً اشتغل فى تجارة أرملة ثرية تدعى خديجة والتى تزوجها فيما بعد . وحتى سن الأربعين كان محمد تاجراً يتسم بالبساطة وعرف

بالأمانة بين أهل مكة . بيد أنه كان مهموماً وقلقًا دائماً بسبب تلك الفجوة العميقة التى تتسع يوماً بعد يوم بين القيم العربية المتمثلة فى الشجاعة وكرم الضيافة والممارسات والعادات الخاطئة التى كانت سائدة بين كبار التجار فى مكة . ولهذا كان يأوى دائماً إلى غار فى الجبال القريبة من مكة بغية التفكر والتأمل .

وذات يوم من أيام شهر رمضان ، سمع محمد صوتاً يقول له : اقرأ ! فأجاب ، وقد تملكه الشعور بالخوف والرهبة ما أنا بقارئ ، فرد الصوت :

اقرأ باسم ربك الذى خلق
خلق الإنسان من علق
اقرأ و ربك الأكرم
الذى علم بالقلم
علم الإنسان ما لم يعلم

وعاد النبى محمد إلى بيته وهو يرتجف من شدة الخوف وطلب إلى زوجته السيدة خديجة أن تغطيه بمعطف فضفاض قائلاً لها زملينى ! زملينى ! وهنا سمع صوت الملك جبريل يناديه مرة أخرى ويقول :

يأيها المدثر
قم فأنذر
وربك فكبر
وثيابك فطهر
والرجز فاهجر

وبعد أن بثت زوجته الطمأنينة فى نفسه ، سارع النبى محمد إلى قبول نداء الملك جبريل ودعوته بوجود الله ؛ فراح ينشر هذه الدعوة بين العرب ويحذرهم من عواقب يوم القيامة حين يقف الناس جميعاً بين يدى الله ليحاسبهم على كل ما قد عملوه فى دنياهم . وهكذا تكرر نزول الوحى على محمد وأخذ ينشر رسالة الإسلام بين قومه ، وهؤلاء الذين دخلوا فى هذا الدين الجديد سموا أنفسهم المسلمين وديانتهم الإسلام ، وهو ما يعنى الاستسلام لإرادة ومشيئة الله ، الخالق والحى الذى لا يموت .

وقد أثارت مجاهرة النبى محمد بنشر رسالة الدين الجديد القلق والانزعاج بين زعماء مكة وسادتها . أو لم يعر محمد أدنى اهتمام لثروتهم وسطوتهم ؟ . وإذا دخل

العرب فى الإسلام هل يمتنعون عن أداء مناسك الحج السنوى إلى الكعبة ، التى كانت تدر أموالاً كثيرة على التجار المحليين ؟ ولماذا اختار الله محمداً بالذات ، وليس أحداً من سادة قريش لنشر رسالته ؟ . وناصب كفار مكة العداء للمسلمين وآذوهم . وبعد وفاة عمه ، أبى طالب ، الذى كان يؤازره ويحميه من أذى المشركين ، أصبحت الحياة فى مكة مستحيلة بعد ما تعرض أتباع محمد لكافة صنوف العذاب والأذى من هؤلاء المشركين . وأخيراً ، طلب أهل المدينة المنورة ، التى تقع شمال مكة ، إلى محمد أن يكون حكماً ويتوسط فى حل نزاعاتهم القبلية ، ومن ثم وافقوا على الدخول فى الإسلام كشرط لذهابه إلى المدينة والتحكيم فيما شجر بينهم(*) .

وتعتبر هجرة محمد وأتباعه من مكة ، والذين أطلق عليهم المهاجرون ، من أهم الأحداث فى التاريخ الإسلامى ؛ إذ يبدأ التقويم الهجرى فى نفس السنة التى هاجر فيها محمد وأتباعه إلى المدينة وهى السنة التى توافق العام ٦٢٢ بالتقويم الميلادى . وفى المدينة أسس محمد أول نظام لمجتمع إسلامى عرف باسم الأمة الإسلامية ، وهو مجتمع كانت تحكمه الشريعة السماوية وتعاليم القرآن الكريم الذى أنزله الله على محمد. وثمة ارتباط وثيق بين السياسةِ والدين فى الإسلام ، فالله ، الذى يخاطب البشرية من خلال نبيه محمد ، هو المشرِّع الأعلى وهو خالق الكون كله . وهكذا ، صار النبى محمد زعيمًا سياسيًا ، وعندما حاول أهل مكة القضاء على الأمة الإسلامية، أصبح قائداً عسكرياً أيضًا . واعتماداً على قوة الإيمان والعقيدة ، استطاع المسلمون من أهل المدينة المنورة أن يقهروا جيوش كفار مكة التى كانت تفوقهم من حيث العدد والعدة ، ومن ثم أدى فتح المسلمين لمكة إلى اعتناق معظم أهلها الدين الإسلامى . وفى سنة ٦٣٠ ميلادية ، وبعد أن حقق نصراً مظفراً بفتح مكة ، دخل محمد وأتباعه لأداء مناسك الحج فى الكعبة حيث قام بتحطيم أصنامها التى كان يعبدها المشركون ، وأعلنها النبى حرمًا مقدسًا . وبعد عامين ، مات النبى محمد بعد أن كان قد تمكن من توحيد معظم شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام .

المعتقدات والمؤسسات الإسلامية :

المسلمون فى مختلف أرجاء العالِم يؤمنون بأنه ليس من إله فى هذا الكون إلا الله ، وحده لا شريك له وأنه لم يلد ولم يولد ، وهو القوى القادر والعليم الحكيم . وقد تكلم

الله مع سلسلة متعاقبة من الأنبياء والرسل كان آخرهم النبى محمد . وعلى الأنبياء اليهود أنزل الله التوراة كما أنزل الإنجيل على المسيح وحوارييه . ويعتقد المسلمون أن اليهود والمسيحيين أفسدوا كتبهم المقدسة وحرفوها ، ولذلك أنزل الله كتابه المحكم ، وهو القرآن الكريم ، على النبى محمد . ورغم أن المسلمين يرون أن القرآن أصدق من الكتاب المقدس فى شكله الحالى ، إلا أنهم لا ينكرون أياً من أنبياء الله ورسله ، بمن فيهم إبراهيم ، وموسى ، وعيسى . ويؤمن المسلمون أيضاً بيوم القيامة وهو اليوم الذى سيبعث الله فيه الناس جميعاً ليحاسبهم على أعمالهم ليكون الجزاء بعد الحساب الجنة أو النار .

ويقوم الإسلام على أركان خمسة ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ؛ و إقام الصلاة (خمس صلوات فى اليوم) ؛ وصوم شهر رمضان أثناء النهار كله ؛ وإيتاء الزكاة (مقدار من المال يخرجها القادرون من أموالهم إلى المحتاجين) ؛ وأداء فريضة الحج فى مكة المكرمة . كما يمتنع المسلمون عن تعاطى الكحوليات وشرب الخمر وغيرها من المسكرات ، وأكل لحم الخنزير ، ولعب الميسر ، وأيضاً عن اقتراف الذنوب والمعاصى . علاوة على ذلك ، يلتزم المسلمون فى حياتهم بضوابط ومعايير أخلاقية تحدد إطار العلاقات بينهم وتمنع الاختلاط بين النساء والرجال غير المتزوجين . وتتم الزيجات فى معظم المجتمعات الإسلامية من خلال الآباء والأمهات أو الآخرين من أعضاء الأسرة . ويعزو المسلمون الشرور والأخطاء والمعاصى التى يقترفها البشر إلى الجهل أو النسيان ، وهم يؤمنون بأن الله رحيم يعفو ويغفر لمن تاب .

إن الإسلام دستور للحياة ؛ فهو يحدد إطاراً للعلاقات بين الناس بعضهم بالبعض الآخر كما يحدد واجباتهم تجاه الله الذى خلقهم . وكانت الأمة الإسلامية التى أسسها محمد تتطلع إلى أن تكون مجتمعاً دنيوياً مثالياً يتهيأ المؤمنون فيه ويعدون أنفسهم ليوم الحساب . وفى القرون التى أعقبت وفاة النبى محمد ، استطاع العلماء أن يطوروا مجموعة من الأحكام والقوانين الإسلامية التى باتت تعرف باسم الشريعة ، والتى تهدف فى مجملها إلى تنظيم كافة الجوانب فى سلوكيات المسلمين . وقد استمد هؤلاء العلماء الشريعة من القرآن كتاب الله المنزل ، وأيضاً من السنة النبوية ، وهى مجموع أقوال وأفعال النبى محمد (أو أفعال أتباع محمد وصحابته والتى أقرها بنفسه) ، إضافة إلى ما أجمعت عليه الأمة ، والاستنتاجات القياسية ، والآراء والاجتهادات

الفقهية . ورغم ما أدى إليه ذلك من حدوث انقسامات وخلافات بين أفراد الأمة الإسلامية ، إلا أن الشريعة الإسلامية وحّدت المسلمين من مختلف الأجناس ، والسلالات ، والثقافات ، والمناطق والانتماءات السياسية .

الفتوحات العربية والإمبراطورية الإسلامية :

عندما مات النبى محمد ، سارع أتباعه إلى تعيين خليفة له . ورغم أنه ما من أحد استطاع أن يخلف محمد كنبى ، إلا أنه كان يتعين أن يقود شخص ما الأمة ، وهكذا وقع الاختيار على أبى بكر الصديق كأول خليفة للمسلمين . وأثناء خلافته ، انتصر المسلمون على المرتدين من القبائل العربية ، ثم حشدوا قواتهم وجيوشهم خارج شبه الجزيرة صوب بيزنطة وبلاد فارس . وفى عهد عمر بن الخطاب ، الخليفة الثانى بعد أبى بكر ، ألحقت الجيوش العربية هزيمة منكرة بجيوش كانت تفوقها قوة وانتزاع سوريا ومصر من السيطرة البيزنطية ، بل واستولت على فارس الساسانية . وهكذا ، فتحت الجيوش العربية معظم الشرق الأوسط خلال جيل واحد كما فتحت أجزاء كثيرة من العالم القديم خلال قرن . وقد رحب العديد من السوريين ، والمصريين ، والفرس بالحكم العربى لبلادهم الذى خلصهم من استبداد البيزنطيين واستغلال الساسانيين . ولم يرغم الفاتحون العرب سكان البلاد التى فتحوها على التحدث بالعربية كما لم يكرهوهم على اعتناق الإسلام ، ومع ذلك دخل الكثيرون منهم فى الإسلام تدريجياً .

وحرص الحكام الجدد من العرب على الإبقاء على القوانين والنظم الإدارية والمحلية واللهجات المختلفة بل وأبقوا حتى على موظفى الدواوين الحكومية فى البلاد التى فتحوها ؛ إذ كان ينقص هؤلاء العرب الكثرة العددية التى تمكنهم من حكم إمبراطوريتهم الجديدة بمفردهم ودون مساعدة من أحد . وطلبوا إلى كل شخص من غير المسلمين دفع الجزية ، أو الضريبة ، فى مقابل إعفائه من الخدمة العسكرية . ومرت عدة قرون قبل أن يصبح معظم السكان الذين عاشوا فى أراضى تحت الحكم الإسلامي مسلمين بالفعل ، وربما كان السبب فى ذلك يعزى إلى أن البعض من الخلفاء الأوائل لم يشجعوا تحول هؤلاء السكان إلى الإسلام خشية أن يؤدى هذا إلى تناقص عائدات الجزية أو الضريبة . وظلت القدس تحت الحكم العربى مركزاً دينياً ومكانًا مقدسًا يحج إليه اليهود والمسيحيين ، ولكنه أصبح مدينة مقدسة للمسلمين أيضاً.

وعلى الرغم من أن تسامح الفاتحين العرب مع سكان البلاد التى حكموها ساعد فى المحافظة على استقرارها ، إلا أن فتوحاتهم كانت مصدر توتر للأمة الإسلامية ذاتها . إذ خصص الخلفاء جزءاً من المغانم التى استولت عليها الجيوش العربية أثناء الفتوحات لاستخدامها فى الأغراض الخيرية أو فى مجالات تعود بالمنفعة على عامة الناس ، كما خصصوا رواتب للجنود فى الجيش ، بيد أن الغنائم الوفيرة والتدفق المفاجئ للثروة أديا إلى وقوع اضطرابات . ففى سنة ٦٥٦ ميلادية قتل الخليفة الثالث، عثمان بن عفان ، وأعلن أصدقائه أنهم يشكون فى أن يكون خليفته على بن أبى طالب قد تورط فى اغتياله . ومع إصرارهم على الثأر لعثمان ، دخل أنصار عثمان فى قتال ضد مؤيدى علىٰ فى معركة أدت إلى إعمال مبدأ الوساطة والتحكيم فيها وانتهت باختيار معاوية ابن عم عثمان ، حاكم سوريا . وعيّن معاوية نفسه خليفة ، ونقل مقر الخلافة إلى دمشق ، ونجح فى تهدئة الخوارج من المسلمين ، وجعل وراثة الخلافة فى أسرته ، الأسرة الأموية ، وهى فرع من قبيلة قريش ، ليحل نظام وراثة الخلافة محل النظام السابق الذى كان يقضى باختيار خليفة المسلمين .

وكانت النزعة السياسية ، وليست الدينية ، هى التى غيرت الخلفاء الأمويين . فقد عمد هؤلاء إلى سحق معارضيهم وخصومهم ، ونشروا الحكم العربى إلى شمال أفريقيا وأسبانيا وآسيا الوسطى ، بل وامتد حكمهم إلى ما يعرف الآن بباكستان (انظر الخريطة ١ : ٣) . أثار حكم الأمويين (٧٥٠ – ٦٦١) استياء وسخط العديد من المسلمين . وكان من بين هؤلاء الحسين ، حفيد النبى محمد ، والذى مات فى معركة كربلاء بالعراق فى سنة ٦٨٠ ميلادية . وأدى مقتل الحسين إلى ظهور حركة معارضة سياسية ودينية عرفت آنذاك باسم الشيعة . وحتى الآن مازال هناك خلاف بين أتباع المذهب الشيعى أنفسهم والذين يقولون إن على ابن أبى طالب وأحفاده هم أحق بقيادة الأمة الإسلامية ، وأتباع المذهب السنى الذين يعترفون بالخلفاء الذين حكموا البلاد بالفعل . وفى الوقت الحاضر ، يتفوق أتباع المذهب السنى على الشيعة من حيث العدد فى معظم أنحاء العالم الإسلامى ، ولكن المذهب الشيعى هو الدين الرسمى للدولة فى إيران وهو يميز الإيرانيين عن غيرهم من شعوب منطقة الشرق الأوسط .

الإمبراطورية العربية :

اعتمدت الدولة الأموية فى ما وصلت إليه من سطوة ونفوذ على قوتها الرئيسية المتمثلة فى القبائل العربية ، والتى كان الخلفاء يفضلونها حتى بعد أن اعتنق العديد من السكان غير العرب الإسلام . وتحول بعض المسلمين من غير العرب للانضمام إلى حركات ثورية ، كانت غالبًا موالية للشيعة ، وكانت مناهضة لحكم الأمويين . وقاد إحدى هذه الحركات الأسرة العباسية والتى أطاحت بالحكم الأموى فى سنة ٧٥٠ ميلادية وأقامت الخلافة العباسية فى بغداد وفى هذه المرحلة ، انتهت الوحدة الرسمية للأمة الإسلامية بينما استمرت سيطرة الأمويين على أسبانيا . وأطاح البربر فى شمال أفريقيا ، وكانوا من سكان القبائل التى يعنى تحولها من المسيحية واليهودية إلى الإسلام قبولها للهيمنة السياسية العربية ، أطاحوا بالحكم العباسى . وفى مناطق أخرى، سعى الحكام الطموحون ، وأمراء الحرب ، والزعماء الدينيون إلى الانفصال وإقامة دول يحكمونها . وقد خاض اثنان من أبناء الخليفة المعروف هارون الرشيد (٧٨٦ – ٨٠٩) قتالاً ضد بعضهما الآخر فى حرب أهلية جسّدت الصراع العربى الفارسى ؛ فهو الصراع الذى انتصر فيه الطرف الذى سانده الفرس . وفى خضم هذه الأحداث كلها ، نجد أن العرب إما ارتدوا إلى حياة البداوة أو تزاوجوا مع سكان البلاد التى فتحوها ، والذين بات العديد منهم الآن مستعربون سواء فى اللغة أم الثقافة .

وبالرغم من هذه الاضطرابات السياسية ، كان عهد الخلافة العباسية (الذى شهد حالة من الضعف المستمر حتى سنة ١٢٥٨) من أكثر العهود التى ازدهرت فيها الزراعة والتجارة. وبينما ازدهرت الصناعة والتجارة ، انسحب هذا الازدهار أيضًا على العلوم والآداب . وتنافس الحكام العباسيون فيما بينهم على رعاية حركة الترجمة الواسعة للأعمال والمؤلفات العلمية والفلسفية من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية ، بل وامتدت رعايتهم هذه لتشمل شعراء البلاط ، والمؤرخين ، وبناء المساجد والقصور ، وأيضًا رعاية البحوث الطبية والفلكية . وهكذا ، استطاع المسلمون المحافظة على تراثهم الكلاسيكى والعمل على تحسينه وتطويره ، ، وهو التراث الذى نقلوه إلى أوروبا فى العصور الوسطى ليكون إيذاناً ببدء عصر النهضة الأوروبية .

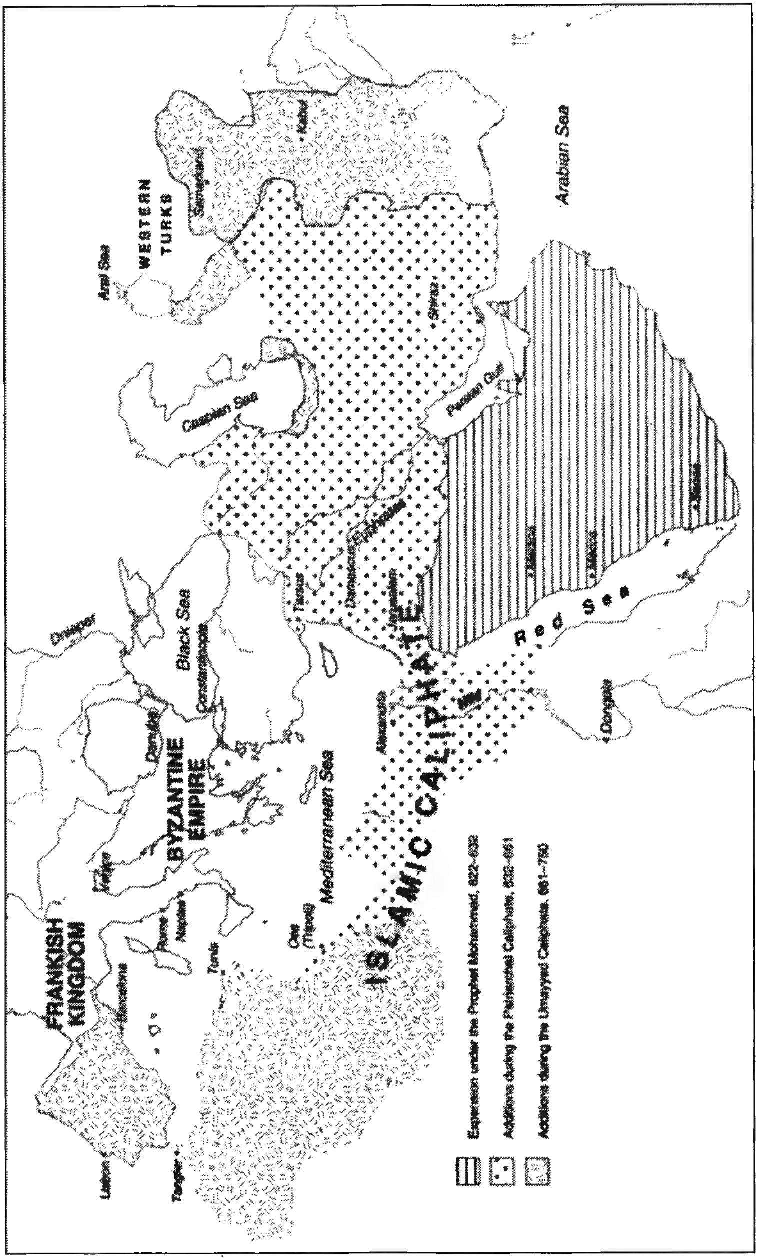

صورة (١ : ٣) خريطة توضح حدود الإمبراطورية الإسلامية

غزوات من الشرق والغرب :

بدأ تدفق الأتراك من شرقى آسيا فى القرن العاشر . وقد تم جلب العديد من هؤلاء الأتراك من قبل كجنود عبيد وموظفين للعمل فى خدمة الخلفاء العباسيين ، بينما خدم الآخرون منهم العباسيين أو الحكام المسلمين المحليين كحراس حدود ضد غير المسلمين فى أقصى الشرق . ولأنهم كانوا مدربين جيداً فى فنون الحكم والحرب ، فإن هؤلاء الغزاة الأتراك (جنود الحدود) كانوا يحفلون بالثقة والاعتماد عليهم لدى الخلفاء العباسيين أكثر من الرعايا الآخرين من المسلمين ، بل وتبوأوا فى أحيان كثيرة مناصب مرموقة .

وحصلت عائلة تركية كانت تعمل فى خدمة أسرة ملكية فارسية على إقطاعية ، وهى جزء من الأرض التى تمنحها الحكومة مقابل خدمة إدارية أو عسكرية ، وهى إقطاعية كانت توجد فى غزنة (أفغانستان حالياً) وذلك فى حوالى ٩٦٠ ميلادية . وقامت هذه العائلة ، التى عرفت باسم (الغزنويون) ببناء إمبراطورية امتدت إلى فارس وآسيا الوسطى ، وأجزاء من شمالى الهند . وبدورهم منح الغزنويون إقطاعيات إلى عشائر تركية كانت قادمة من آسيا الوسطى . وإحدى هذه العشائر ، وهى عشيرة السلاجقة ، تحولت سريعاً إلى غزو الأراضى الواقعة باتجاه الغرب عبر بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين وصولاً إلى الأناضول ، حيث ألحقت الهزيمة بالبيزنطيين فى سنة ١٠٧١ . وأدت المكاسب العسكرية التى حققتها هذه الأسر والعشائر إلى اجتذاب المزيد من الأتراك للعمل كغزاة ، الأمر الذى فتح الطريق أمام هجرة واسعة النطاق للقبائل التركية مع خيولها ، وجِمالها ذات السنامين ، وماشيتها ، وإبلها . وفى فترة قصيرة جداً ، أصبحت أذربيجانَ (شمال غربى فارس) ، وشمالى العراق ، ومناطق كثيرة من الأناضول ، والمناطق الجبلية والتى لم يستطع العرب فتحها ، أصبحت مناطق تركية .

وكان هؤلاء الأتراك من المسلمين السُنَّة الذين شيدوا مدناً جديدة وأعادوا بناء مدن قديمة . وأنقذ الأتراك الخليفة العباسى الذى كان العاملون الشيعة فى دواوين الحكومة قد احتجزوه رهينة لديهم ، فاستعاد سلطته ، وإن لم يكن قد استرد صلاحيته . إذ إنه لعدة أجيال ، ظل الخليفة العباسى يحكم فى بغداد إلى جانب سلطان سلجوقى (صاحب الصلاحيات) . وحرص الأتراك على تقوية وتعزيز المؤسسات التعليمية السنية،

وتشجيع المذهب الصوفى (التصوف الإسلامى) ، وتثبيط عزيمة كل من يحاول إعادة تفسير الشريعة . ورغم أن الصوفية قد أتاحت للمسلمين قدراً أكبر من المشاركة فى أمور دينهم والتأمل الروحى فى شئون الخلق والخالق ، إلا أنها قد تسببت فى أن يهجر البعض منهم الأمور الدنيوية . وبمجرد أن عجز المسلمون السنّة عن مراجعة الشريعة الإسلامية ، فإن الاحتياجات الاجتماعية المتغيرة جعلت الحكام والرعايا يتجاوزونها ، بل إن ممارساتهم صارت أبعد ما تكون عن الأحكام والتعاليم الإسلامية.

ومع توافد البدو الأتراك بأعداد كبيرة من الشرق ، جاءت جماعة مختلفة من الغزاة من الغرب . وفى سنة ١٠٩٦ ميلادية ، أعلن البابا إرسال حملة صليبية لاستعادة الأرض المقدسة للمسيحية . وكان المسلمون قد حكموا القدس لما يربو على أربعة عقود من الزمان بدون أن يلحقوا أى ضرر أو أذى بالمصالح المسيحية ، بيد أن غزو السلاجقة لمنطقة الأناضول قد أدى إلى إضعاف الإمبراطورية البيزنطية وإلى تهديد طرق الحج المسيحية إلى الأرض المقدسة . وساعد الصليبيون البيزنطيين فى وقف تقدم السلاجقة ثم استولوا على غربى سوريا وفلسطين من الحكام المسلمين الضعفاء والمنقسمين على أنفسهم . ولما يقرب من قرن ، ظلت القدس عاصمة لمملكة مسيحية أوروبية بعد إجلاء السكان المسلمين واليهود منها .

ويميل كل من المسلمين والمسيحيين إلى المبالغة فى التأكيد على الدور الذى لعبته الحملات الصليبية . فخارج مدينة القدس ، قلما عمد الصليبيون إلى استئصال السكان المحليين، ولم يحدث أن استولوا على مراكز السلطة لدى المسلمين ، وهى القاهرة ، ودمشق ، وحلب ، والموصل . وما أن توحدت مصر وسوريا على يد حاكم مسلم سنى قوى ، وهو صلاح الدين الأيوبى ، ولم يستطع الصليبيون أن يهددوا المدن الإسلامية، ومن ثم تمكن المسلمون من استعادة القدس فى سنة ١١٨٧ ميلادية . وظل الصليبيون يسيطرون على جزء من الساحل السورى لقرن آخر وقاموا بغزو دلتا النيل مرتين ، إلا أن أحفاد صلاح الدين من الأيوبيين أوقفوا زحفهم .

ولكن منطقة الشرق الأوسط تعرضت لأضرار أشد هولاً بدأت مع غزوات المغوليين فى القرن الثالث عشر والذين جاءوا إليها من الأراضى الواقعة شمال الصين. إذ ألحقت الجيوش المغولية بقيادة جنكيز خان (١٢٢٧ - ١٢٠٦) هزيمة منكرة بالحكام المسلمين الضعفاء وغزت آسيا الوسطى وشرقى بلاد فارس . وبعد

جنكيز خان، خلفه فى قيادة الجيوش المغولية حفيده هولاكو الذى واصل زحفه داخل بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين وفى سنة ١٢٥٨ ، استولى على بغداد وقضى قضاءً مبرماً على الخلافة العباسية . ولم يكن هؤلاء المغوليين مسلمين . ولأنهم كانوا فى الأصل من البدو الذين اعتادوا ركوب الخيل والعيش فى السهول والوديان العشبية ، فإنهم لم يروا أن ثمة حاجة إلى المدن أو إلى الفلاحين الذين ساندوهم ، ولذلك قاموا بتدمير أعمال الرى والحقول الزراعية فى بلاد فارس ، وبلاد ما بين النهرين ، وسوريا، وأينما سارت جيوشهم كانت تأتى على الأخضر واليابس وأهلكت الحرث والزرع . وهكذا صار العديد من الحكام المسلمين ، وحتى الحكام السلاجقة الذين بقوا على قيد الحياة فى الأناضول ، صاروا أتباعاً للمغوليين . ولكن فى سنة ١٢٦٠، أخفق المغوليون فى الاستيلاء على فلسطين ومصر ، حيث تمكن المماليك ، وهم من الجنود العبيد الأتراك، من الإطاحة بحكم الأيوبيين . واستطاع المماليك بناء إمبراطورية مزدهرة فى مصر وسوريا ، حصن القوة الإسلامية حتى غزوهما على يد الأتراك العثمانيين فى ١٥١٦ - ١٥١٧ . فى الوقت نفسه ، اعتنق الحكام المغوليون فى بلاد فارس الإسلام ، وتبنوا الثقافة الفارسية ، وأعادوا بناء الكثير مما كانوا قد دمروه .

والحقيقة أن اختراع البارود فى أوروبا فى القرن الرابع عشر أدى إلى تغيير العلاقة مع بقية العالم * . واستخدم هذا الاختراع فى بادئ الأمر لتدمير التحصينات المنيعة ولكنه استخدم فيما بعد لقتل الحيوانات والناس . وبفضل الأسلحة النارية والسفن التى تبحر مسافات طويلة ، استطاع الأوروبيون استكشاف الأراضى النائية وغزوها وتمكنوا فى النهاية من تطويق العالم الإسلامى . والمعروف أن الدول التى تستخدم البارود سلاحاً رئيسياً لها تحتاج إلى وحدات من المشاة كبيرة العدد وأكثر تنظيماً من فرق الفرسان الإقطاعية التى عرفتها العصور الوسطى . وأدى تبنى أوروبا للأسلحة النارية إلى زيادة كبيرة فى الممالك القوية ، وإلى ظهور طبقة متوسطة تجارية ، وفى النهاية إلى ظهور ما عرف بالثورة الصناعية . وفى الشرق الأوسط تعلمت بعض الدول

* كان البارود اختراعا صينيا ، انتقل إلى أوربا فى القرن الرابع عشر ، وتطور استخدامه فى المجالات الحربية مما أدى إلى اختراع الأسلحة النارية ، وخاصة المدافع ، وسرعان ما استخدمها العثمانيون على نطاق أوسع من استخدام المماليك له (المراجع) .

الإسلامية كيفية استخدام الأسلحة النارية فى البر والبحر ؛ بينما لم تستخدم دول أخرى هذه الأسلحة . وأدت ثورة البارود إلى إضعاف شوكة جنود الخيول هناك أيضاً، بيد أنها أخفقت فى تحديث المنطقة على النمط الأوروبى .

الإمبراطورية العثمانية :

كانت الإمبراطورية العثمانية دولة إسلامية قامت على استخدام الأسلحة النارية . وانطلاقاً من بداياتهم المتواضعة فى أواخر القرن الثالث عشر كغزاة أتراك يعملون فى خدمة السلاجقة ، توسع العثمانيون فى ممتلكاتهم فى الأراضى لتصبح إمبراطورية كبيرة والتى امتدت ، فى أوج مجدها فى أواخر القرن السادس عشر ، من وسط أوروبا إلى منطقة الخليج ومن الجزائر إلى أذربيجان . ومثلما فعل معظم الغزاة ، أغار العثمانيون الأوائل على أراضى الفلاحين وهم يمتطون خيولهم . وخلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، استطاعوا رغم ذلك أن يطوروا قوات منظمة من جنود المشاة المحترفين ، والتى أطلق عليها الجنود الانكشارية (الجند الجود) ، والذين استخدموا مدافع الحصار والأسلحة النارية الخفيفة ضد الأوروبيين أو جيرانهم المسلمين . وكان من سياسة الدولة العثمانية أن تأخذ الصبية من رعاياها المسيحيين كشكل من أشكال الجزية . وبعد اعتناقهم الإسلام ، يتم تعليم هؤلاء الصبية اللغتين التركية والعربية ويجرى تدريبهم كجنود ، أو فى بعض الأحيان ، كإداريين فى دواوين الحكومة . وباعتبارهم عبيداً للسلطان العثمانى ، كان محظوراً على الجنود الانكشارية الزواج أو تملك الأرض ، وكان يتعين عليهم العيش فى ثكنات عسكرية حتى يكونوا على أهبة الاستعداد للقتال فى أى وقت . وكان يطلق على نظام التجنيد والتدريب * اسم دوشرمه devishirme نسبة إلى أنه نظام جماعى يعيش فى كنفه الجنود العثمانيون وموظفو الدواوين الحكومية .

---

* يختلط الأمر على مؤلف هذا الفصل بين مسمى الضريبة البشرية التى فرضت على المسيحيين ببلاد البلقان ، وعرفت باسم «ضريبة الدم» (دوشرمة) ، وبين نظام الانكشارية ، وهم الجند الذين ينشأون من بين الصبية الذين تحصل عليهم الدولة عن طريق ضريبة الدم ، والذين كان من لا يليق منهم للخدمة العسكرية يشتغل بخدمة قصر السلطان وفى الوظائف الادارية . (المراجع) .

واعتماداً على المساندة التى كانوا يحظون بها من جيوشهم المعدة إعداداً جيداً والولاء الشديد من جانب موظفى الدواوين والإداريين الأكفاء ، غزا السلاطين العثمانيون الشعوب المسيحية فى البلقان وحاصروا مدينة القسطنطينية . وفى سنة ١٤٥٣ ميلادية ، واستولوا على هذه المدينة لينتهى بذلك حكم الإمبراطورية البيزنطية الذى دام ألف عام . وصارت القسطنطينية ، التى كانت ذات يوم من أعظم مدن العالم المسيحية (إسطنبول حاليًا) مركزاً إسلاميًا . وخلال القرن التالى ، تمكن العثمانيون من إخضاع معظم جيرانهم المسلمين ، بمن فيهم المماليك فى مصر وسوريا . وكان الفرس فقط ، والذين حكمهم الصفويون Safavids بعد سنة ١٥٠١ ، هم الذين حافظوا على استقلالهم ، وذلك إلى حد ما بسبب اعتناقهم المذهب الشيعى ، وأيضاً بسبب تعلمهم استخدام الأسلحة النارية .

وكانت قوة الإمبراطورية العثمانية ترتكز على عاملين أساسيين : الأول أن قوة الطبقة الحاكمة كانت تتسم بالتوازن بين الأرستقراطية التقليدية وجنود الانكشارية وموظفى دواوين الحكومة ، والثانى يتمثل فى أن رعايا الإمبراطورية العثمانية من الشعوب الأخرى كانوا منظمين فى طوائف دينية تسمى الملل ، والتى كانت تتمتع بحكم ذاتى فى إدارة شئونها القانونية ، ومدارسها ، ورفاهيتها العامة . ولا شك أن هذا التقسيم الداخلى قد عزز من مكانة السلطان العثمانى . فطالما أن باستطاعة السلطان تحريض وتأليب الطبقة الأرستقراطية ، مثلاً، ضد طبقة الانكشارية فإن هاتين الجماعتين الحاكمتين كانتا تؤديان مهامهما وواجباتهما على الوجه الأكمل كمدافعين عن الإمبراطورية العثمانية وأيضًا كمديرين يتولون تصريف شئونها . أما رعايا الإمبراطورية ، الذين انقسموا إلى مجتمعات مسيحية ويهودية ومسلمة متعددة ، فكانوا غير قادرين على أن يوحدوا صفوفهم لمواجهة سادتهم أصحاب الإقطاعيات والأراضى، وذلك لأنهم كانوا مبعثرين هنا وهناك من الناحية الجغرافية وإن كانوا حققوا الاكتفاء الذاتى فيما بينهم . واعتاد هؤلاء الرعايا اللجوء إلى قادتهم وزعمائهم وحاخامتهم والعلماء ورجال الدين والقساوسة ، والذين يتم تعيين معظمهم من قبل السلطان العثمانى وكانوا مسئولين أمامه * ، وذلك للقيام بالوساطة بينهم وبين

* لم يكن للدولة دور فى تعيين رجال الدين فى مختلف الطوائف غير الإسلامية ، وإنما ترك ذلك لأبناء كل «ملة» ، واقتصر دور الدولة على اعتماد من يتم اختياره رئيسا للطائفة (الملة) فى صورة فرمان يصدر لهذا الغرض . (المراجع) .

الحكومة. ولقرون طويلة ظل الأسلوب بشأن التنظيم الاجتماعى سائداً فى المنطقة . وحتى الآن، يبدو أن العديد من سكان الشرق الأوسط يميلون إلى تحديد هويتهم على أساس ديانتهم أكثر من ميلهم إلى تحديدها على أساس جنسياتهم .

ومن بين كافة العوامل التى أدت إلى إضعاف الإمبراطورية العثمانية ، يمكن القول بأن أهمها على الإطلاق كان انتصار موظفى الدواوين الحكومية الانكشارية وجنود الانكشارية على الطبقة الأرستقراطية . وقد حدث هذا خلال فترة حكم السلطان الأكبر، سليمان الأعظم (١٥٢٠ - ١٥٦٦) ، وذلك عندما عيّن مجموعة من كبار الوزراء والذين كانت تعود نشأتهم وأصولهم إلى الانكشارية .

ولأن هؤلاء الوزراء لم يجدوا من يردعهم ، سواء السلاطين العثمانيين المتعاقبين أو أفراد الطبقة الأرستقراطية التى تزعزعت سلطتها ، فإن ذلك شجعهم على التمادى فى الفساد داخل الحكومة العثمانية لخدمة مصالحهم الخاصة . وهكذا أخذ جنود الانكشارية يتزوجون ، ويشترون العقارات ، ويلحقون أبناءهم بالجيش الذى توقف عن التدريب ودبّ الضعف فى صفوفه ليتحول إلى مجرد طبقة اجتماعية وراثية متميزة . واستشرى الفساد والمحسوبية وعدم الكفاءة فى الحكومة والجيش . وزادت الضرائب ، وعلى الأخص المفروضة على الفلاحين ، والذين اضطروا إلى دفعها رغماً عنهم . وتلاشى الازدهار الزراعى والتجارى ، وكان ذلك يرجع جزئيًا إلى أن طرق التجارة بين آسيا وأوروبا تحولت بعيداً عن الشرق الأوسط . وقام العديد من الرعايا الذين كانوا موالين للإمبراطورية بحركات تمرد وعصيان احتجاجًا على سوء الحكم العثمانى . وبحلول القرن السابع عشر ، اضمحلت الإمبراطورية العثمانية ولم تعد ذلك السوط الذى تخشاه وترهبه أوروبا المسيحية .

خضوع الشرق الأوسط للغرب :

خلال القرنين الثامن والتاسع عشر ، حقق الغرب تفوقًا عسكريًا ، وسياسيًا ، واقتصادياً على شعوب وبلدان الشرق الأوسط ، والتى كانت تزدرى حتى ذلك الوقت أوروبا ودولها وتنظر إليها من علياء . وبينما كان العرب والأتراك قد سيطروا يومًا ما على طرق التجارة بين أوروبا وآسيا وفرضوا شروطهم الخاصة فى المعاملات التجارية معهما ، نجحت أوروبا بحلول سنة ١٨٠٠ ميلادية فى بيع منتجاتها

الصناعية وصادراتها إلى الشرق الأوسط فى مقابل حصولها على المواد الخام والمنتجات الزراعية . وتم إعفاء الأوروبيين فى الأراضى الإسلامية من دفع الضرائب المحلية ومن التقاضى أمام المحاكم ؟ إذ إنه فى عهد الإمبراطورية العثمانية كان هذا الإعفاء مضموناً بموجب معاهدات أُطلق عليها الامتيازات الأجنبية . وبينما كانت الأساطيل البحرية الإسلامية تسيطر ذات يوم على مياه البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندى، تحولت هذه السيطرة بعد ذلك إلى السفن التجارية الأوروبية التى باتت لها الهيمنة على أعالى البحار . وفى الوقت الذى كان السلطان العثمانى وحده هو الذى يمكنه اختيار وقت ومكان الهجوم على أوروبا ، ومن ثم إجلاء وفرض شروطه للدخول فى سلام معها ، تبدلت الأوضاع بعد ذلك وصارت جيوشه تخشى الجيوش النمساوية والروسية التى كانت أكثر قوة . وجاءت الصدمة الأكبر عندما احتل نابليون مصر فى سنة ١٧٩٨ لأن فرنسا كانت حليفاً للعثمانيين .

تغريب الإصلاحات :

فى أوائل القرن السابع عشر ، رأى بعض السلاطين ووزراؤهم أن ثمة حاجة تدعو إلى إجراء تغيير داخلى . وفى بادئ الأمر ، اعتبر هؤلاء الإصلاح بمثابة استعادة للمؤسسات والممارسات التى قد جعلت إمبراطوريتهم قوية فى الماضى . بيد أن الهزيمة التى لحقت بهم على أيدى الجيوش الغربية علمتهم أن الظروف والأوضاع قد تغيرت ، وأن هناك ضرورة لمزيد من التعديلات الجذرية . وهكذا ، حدث أول تغريب للإصلاحات داخل الجيش . إذ حاول السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ – ١٨٠٧) تأسيس فيالق عسكرية جديدة بالجيش تكون مدربة ومجهزة وفقًا للطراز الأوروبى . وإزاء هذه الخطوة ، فإن جنود الانكشارية تخوفوا بشدة من هؤلاء المتطفلين الذين سوف يسلبونهم قوتهم ونفوذهم فبدءوا فى التمرد ، ودمروا الفيالق الجديدة ، وخلعوا السلطان سليم . فى الوقت نفسه ، أعاقت النزعة المحافظة للعلماء ونقابات التجار والصنّاع الإصلاح فى جوانب أخرى فى حياة الإمبراطورية العثمانية . بل إن إدخال الطباعة فى البلاد قوبل، ولفترة طويلة ، بمعارضة قوية من جانب العلماء والكتّاب ، حيث أدان الفريق الأول الطباعة باعتبارها اختراعًا مخالفاً للإسلام ويتعارض معه بينما خشى الفريق الثانى من فقدان وظائفهم .

ورأى الحكام أن الإصلاح لا يمكن أن يكون قاصراً على الجيش ومعزولاً عن بقية المجتمع . وبالإضافة إلى هذا ، فإن فشل الجهود السابقة للإصلاح جعل الحكام المسلمين يتعلمون أن الدفاع عن التوسع الأوروبى كان يعنى تركيز السلطة فى يد الدولة وكان تغريب الإصلاح يعنى حكم الفرد المطلق وليس الديمقراطية . وهناك ثلاثة من المصلحين فى الشرق الأوسط يعتبرون أمثلة فى هذا المجال : الأول محمد على ، حاكم مصر (١٨٠٥ – ١٨٤٨) ، الثانى السلطان محمود الثانى أحد السلاطين العثمانيين (١٨٠٨–١٨٣٩) ، والثالث نصر الدين شاه (١٨٤٨–١٨٩٦) فى بلاد فارس . وحاول كل واحد من هؤلاء الثلاثة تركيز السلطة فى يده ، ووجد كل منهم نفسه مسلوب القوة والإرادة فى مواجهة تصرفات وإجراءات أوروبية تخدم المصالح الإمبريالية .

وكان أقوى هؤلاء الثلاثة وأكثرهم قدرة محمد على ، وهو ضابط عثمانى تولى قيادة فوج عسكرى ألبانى أرسل إلى مصر . وتمكن محمد على من السيطرة على تلك الولاية العثمانية بعدما انسحبت منها قوات نابليون فى سنة ١٨٠١ * وتحول بعد ذلك إلى القضاء على منافسيه وتصفية خصومه من الطامحين إلى حكم مصر . وقتل محمد على المماليك فى ما عرف فى التاريخ باسم مذبحة القلعة الشهيرة ، وحد من نفوذ العلماء الذين كانوا يتمتعون بصلاحيات وسلطات واسعة فى مصر ، حيث استفاد من الخلافات والعداوات التى نشأت بينهم واستولى على الأوقاف والمنح التى كانت تمدهم بأسباب القوة . واعتماداً على مستشاريه من الفرنسيين والأجهزة الحديثة ، نجح فى تطوير الجيش ليصبح أقوى جيش فى المنطقة كما طور البحرية . وأخضع محمد على الطبقة الأرستقراطية الريفية لسلطة الدولة من خلال سيطرته على جميع الأراضى الزراعية . ولم يكن محمد على المالك الوحيد للأراضى فحسب ، وإنما كان هو أيضاً الذى يقرر أنواع المحاصيل التى يزرعها الفلاحون . إذ كان يزودهم بالبذور،

---

* من المعروف أن محمد على لم يصبح واليا على مصر إلا عام ١٨٠٥ عندما اختارته القيادة الشعبية المصرية ، وفرضته على السلطان فى سابقة لا نظير لها فى تاريخ الدولة العثمانية ، ولم تكتمل سيطرة محمد على على مقاليد الأمور فى مصر إلا بعد تخلصه من المماليك عام ١٨١١ (مذبحة القلعة) ، ومن الجند غير النظاميين (الباشبوزق) الذين كانوا مثارا للاضطراب والفوضى ، بإرسالهم إلى الجزيرة العربية لقتال الوهابيين . (المراجع) .

والأسمدة ، والأدوات اللازمة لهم ، وكان يشترى محاصيلهم ، ويقوم ببيعها ، فى الخارج غالباً ، مقابل أرباح عالية بقدر الإمكان .

وفى ظل حكم محمد على ، أصبحت مصر أول دولة فى منطقة الشرق الأوسط تتحول من مرحلة الاعتماد على الزراعة كمصدر للرزق والعيش إلى مرحلة الإنتاج وتصدير المنتجات الزراعية للأسواق الخارجية . وصارت محاصيل مثل التبغ ، والسكر ، والنيلة (صبغ أزرق) ، والقطن من المحاصيل التى تدر أموالاً على مصر ، وتجنى الكثير من العائدات الضرورية لتمويل مشروعات محمد على الطموحة فى ميادين التنمية الصناعية والتوسع العسكرى وأقام محمد على ، الذى كان أول حاكم غير غربى يتبنى الثورة الصناعية،العديد من مصانع الغزل والنسيج ومصانع إنتاج الأسلحة بمساعدة خبراء ومستشارين أوروبيين . وأرسل المئات من رعاياه إلى دول أوروبا للحصول على التدريب الفنى والعسكرى وجلب معلمين ومدربين أوروبيين للتدريس فى الأكاديميات العسكرية والمدارس فى مصر . بل إنه أرغم الفلاحين المصريين على الانخراط فى سلك الخدمة العسكرية وألحقهم بالجيش كجنود . وأصبح هؤلاء الجنود الفلاحين ، والذين تولى ضباط أتراك تدريبهم ، قوة فعالة إلى الحد الذى جعل إبراهيم باشا ، نجل محمد على ، يعتمد عليهم فى غزو سوريا فى ١٨٣٢ وكان على وشك أن يستولى على الإمبراطورية العثمانية كلها فى سنة ١٨٣٩ لولا تدخل بريطانيا . ورغم أن الإمبراطورية العثمانية اعترفت بالحكم الذاتى فى مصر فى سنة ١٨٤١ ، إلا أن محمد على قد شعر أن طموحاته قد أحبطت وأن إصلاحاته بدأت تتلاشى . ومع ذلك ، ظل ورثته يحكمون مصر مع بقاء سيطرة اسمية فقط للإمبراطورية العثمانية ، حتى الاحتلال البريطانى لمصر فى سنة ١٨٨٢ ، حيث بقى النظام الملكى جزءاً من التركيبة السياسية فى مصر إلى أن تمت الإطاحة بالملك فاروق فى سنة ١٩٥٢ .

وفى الوقت ذاته ، حاول السلطان العثمانى محمود الثانى ، والذى عاش أيضًا فى عصر محمد على ، إصلاح دولته من خلال تبنى سياسة مركزية ولكنه لم يكن أوفر حظاً من محمد على وكان نصيبه من النجاح أقل . وبعد أن تعلم الدرس من تجربة السلطان سليم الثالث ، أخذ يتريث حتى استطاع أن يستأصل شأفة الجنود الانكشارية ، والذين كانوا يشكلون العقبة الرئيسية أمام التغيير والإصلاح . وبعد ذلك ، أعاد تنظيم

الجيش ، وألغى نظام الإقطاع الذى كان يقضى بمنح أراض للعسكريين ، وبدأ فى إصلاح النظام المالى ، والتعليم ، والحكومة المحلية . بيد أن جهود السلطان محمود قد أعاقها اتساع وتشعب ممالكه وأراضيه ، كما أعاقتها حركات التمرد المحلية المختلفة ، والافتقار إلى طبقة من موظفى الدواوين المدربين والموالين له ، وكذلك الحرب اليونانية من أجل الاستقلال (التى ساندتها بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا) ، والحاجة المتزايدة للدول الصناعية لشراء المواد الخام من الإمبراطورية العثمانية ولبيع المنتجات الصناعية العثمانية إلى هذه الدول .

وبعد وفاة السلطان محمود فى سنة ١٨٣٩ ، أصدر ابنه مرسومًا إصلاحيًا والذى كان إيذانًا ببدء عهد التنظيمات ، الذى اتسم بالمزيد من المركزية وتغريب الإصلاحات فى الإمبراطورية العثمانية . ورغم أن حركة التنظيمات الإصلاحية هذه قد حققت نتائج أفضل مما حققته إصلاحات السلطان محمود ، إلا أنها لم تنجح فى حماية العثمانيين من التوسع الروسى فى مناطق البلقان ، ولذلك ساعدت بريطانيا وفرنسا العثمانيين على هزيمة روسيا فى حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦) . وبعد الحرب ، أرغمت الدولتان المنتصرتان حليفهما العثمانى على إصدار مرسوم آخر يقضى بمنح المسيحيين واليهود حقوقًا متساوية مع المسلمين داخل الإمبراطورية العثمانية .

وكانت بلاد فارس هى الدولة الوحيدة فى منطقة الشرق الأوسط التى لم تخضع أبدًا للحكم العثمانى . وبداية من القرن الخامس عشر ، تولت سلالات حاكمة مختلفة تتحدث اللغة التركية شؤون الحكم فى هذه البلاد مترامية الأطراف والمتباينة فى سماتها وخصائصها ، سواء بالنسبة إلى التحالف غير المستقر مع القبائل البدوية أو التنافس معها ، أو مع غيرها من أصحاب الأراضى فى الريف ، والتجار فى المدن ، والعلماء . وساعد إحياء الحكام للعادات والتقاليد الفارسية القديمة فى المحافظة على هوية قومية عززها تمسكهم بالمذهب الشيعى ، وذلك على النقيض من المذهب السنى الذى كان سائدًا فى الإمبراطورية العثمانية . وفى القرنين السادس والسابع عشر ، شهدت بلاد فارس ازدهارًا تحت حكم الصفويين Safavids الذين قاموا بتزيين عاصمتهم أصفهان وأقاموا علاقات تجارية ودبلوماسية مع الدول الأوروبية التى كانت بحاجة إلى حلفاء ضد الإمبراطورية العثمانية .

وبعد سقوط حكم الصفويين ، غزا مغامر عسكرى يدعى نادر شاه (١٧٣٦ – ١٧٤٧) مناطق كثيرة فى الهند ونجح فى طرد العثمانيين من أذربيجان . ولكن بلاد فارس انهارت أيضًا . وأبدت أسرة قاجار الحاكمة (١٧٩٤–١٩٢٥) مقاومة ضعيفة إزاء الانحلال والتفكك فى الداخل وأيضًا إزاء الاعتداءات الروسية والبريطانية من الخارج . وخلال السنوات الثلاث الأولى من حكم نصر الدين شاه ، بدأ وزيره الأول ، الذى كان معروفاً بكفاءته ، سلسلة من الإصلاحات العسكرية ، والمالية ، والتعليمية . بيد أنه فى سنة ١٨٥١ ، أعدم الشاه وزيره ، ودخلت البلاد فى موجة مستمرة من الاضطرابات القبلية الدينية . وفى أواخر حكمه ، بدأ نصر الدين فى بيع امتيازات إلى مستثمرين بريطانيين واستخدام ضباط روس لتدريب جيشه . وبدلاً من الاستفادة من الإصلاحات فى حماية بلاد فارس من الأجانب ، شجعهم الشاه على إحكام سيطرتهم عليها . ونتيجة لذلك ، تنصل رعاياه من سياساته ورفضوها ؛ وحملته مقاطعة التبغ التى عمت أرجاء البلاد على إلغاء واحد من أهم الامتيازات وأكثرها ربحية فى سنة ١٨٩٢ ، وتم اغتياله فى النهاية . وخلفه فى الحكم حكام من أسرة قاجار كانوا أقل حماساً منه للإصلاح ، بل وأكثر خضوعًا وإذعاناً للتدخل البريطانى الروسى فى شئون البلاد .

السياسات الأوروبية والإمبريالية فى القرن التاسع عشر :

إذا كانت القوة الأوروبية هى التى ألهمت الشرق الأوسط تنفيذ حركة الإصلاح، فإن السياسات والإجراءات والأفعال الأوروبية هى أيضًا التى حالت دون نجاح هذا الإصلاح. وخلال الفترة من ١٨١٥ إلى ١٩١٤ ، حققت الحكومات الأوروبية السلام فيما بينها من خلال المحافظة على توازن القوة . وبالنسبة إلى الشرق الأوسط ، كان هذا يعنى أنه لا بريطانيا ولا روسيا يمكن أن تسمح بتفوق أى منها على الأخرى . وخوفًا من أن يؤدى تفكك الشرق – الإمبراطورية العثمانية إلى سيطرة روسيا على مناطق البلقان والمضايق التى تربط البحر الأسود ببحر أريحه ، عمدت بريطانيا فى أغلب الأحيان إلى المحافظة على سلامة أراضى الإمبراطورية العثمانية وسيادتها . وهكذا قاد البريطانيون المعارضة الأوروبية لتهديد محمد على لسوريا العثمانية فى سنة ١٨٣٩ ، ولاحتلال روسيا للإمارات الرومانية فى سنة ١٨٥٣ والذى أدى إلى

اندلاع حرب القرم ، وإلى جهود روسيا المتكررة لاستغلال القومية والوعى القومى المتزايد فى البلقان .

وساندت الحكومة البريطانية الإصلاحات التى سوف تُمكّن الإمبراطورية العثمانية من مقاومة روسيا ، وعلى الأخص تلك الإصلاحات التى ظهرت إبّان عهد التنظيمات والتى وعدت بتحقيق المساواة لغير المسلمين . ولكن بريطانيا أكدت أيضاً على فتح أسواق الشرق الأوسط أمام منتجاتها الصناعية ، مستفيدة فى ذلك من اتفاقية بشأن التعريفات الجمركية والتى منعت الحكومة العثمانية من حماية الصناعات المحلية من المنافسة الأوروبية . وعلاوة على ذلك ، فإن أهداف روسيا التوسعية ، ومزاعمها بشأن حماية رعايا السلطان العثمانى من المسيحيين الأرثوذكس ، ودعمها للحركات القومية فى البلقان ، كل هذا قد أحبط جهود الإصلاح العثمانية .

وفى الوقت الذى حرصت فيه على حماية طرقها التجارية مع الهند ، تنافست بريطانيا مع فرنسا على الاستئثار ، بالسلطة وكسب النفوذ فى البحر الأبيض المتوسط؛ ومن ثم حاربت لطرد نابليون من مصر وفيما بعد لطرد محمد على من سوريا . ووقّعت بريطانيا معاهدات مع زعماء القبائل فى منطقة الخليج واحتلت عدن بغرض تطويق محمد على وحلفائه الفرنسيين . وبدأت شركة بريطانية أنشطتها فى مجال الملاحة البحرية بتسيير سفن فى مياه نهر الفرات اعتباراً من سنة ١٨٣٠ ، وقامت شركة أخرى ببناء أول خط سكة حديد من القاهرة إلى الإسكندرية فى سنة ١٨٥١ * . بيد أن دبلوماسيًا فرنسيًا يدعى فيرديناند مارى ديليسبس هو الذى نجح فى انتزاع امتياز من الحكومة المصرية لشق قناة عبر خليج السويس ، تربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، الأمر الذى يساعد فى اختصار الوقت الذى تستغرقه السفن فى رحلاتها من أوروبا إلى جنوب آسيا . وحاولت بريطانيا فى البداية عرقلة هذا المشروع الفرنسى ، غير أنها أصبحت المستخدم الرئيسى لقناة السويس بعد افتتاحها مباشرة أمام حركة الملاحة العالمية فى عام ١٨٦٩ . وتوسعت فرنسا أيضًا فى إمبراطوريتها عبر شمال

* لم يكن مشروع الخط الحديدى (الاسكندرية – القاهرة – السويس) امتيازا لشركة بريطانية ، بل كان مشروعا حكوميا مصريا ، تم تمويله بالكامل من الخزانة المصرية ، واسند بناءه إلى شركة بريطانية كمقاول منفذ (المراجع) .

أفريقيا ، فاحتلت الجزائر خلال الفترة بين ١٨٣٠ و ١٨٤٧ ، وأقامت حكومات وصاية فى تونس عام ١٨٨١ وفى المغرب عام ١٩١٢ .

رد فعل الشرق الأوسط على الغرب :

بحلول سنة ١٨٦٠ ، كان عدد من الشرق أوسطيون يتساءلون عما إذا كان التغريب قد تجاوز مداه . وفى الإمبراطورية العثمانية ، اعتنق العديد من المسلمين فكرة الجامعة الإسلامية ، وهى الفكرة التى تقول بأنه يجب على جميع المسلمين أن يتحدوا خلف السلطان ، لمواجهة التهديدات الخارجية والحركات القومية المسببة للخلاف والشقاق والتى يقوم بها رعايا البلقان من غير المسلمين . وأكّد الإسلام مجدداً على مبدأ اتحاد المسلمين معاً للدفاع عن الأمة ، ولكن هذا المبدأ أخذ معنى جديداً ، وهو أن السلطان العثمانى طالب بأحقيته فى الخلافة ، ومن ثم الولاء السياسى من المسلمين جميعًا ، وبغض النظر عن الذى يتولى حكمهم بالفعل . ونظراً لأنه كان لدى بريطانيا، وفرنسا، وروسيا رعايا من المسلمين داخل إمبراطورياتهم ، فإن الأوروبيين أدركوا على الفور الخطر الكامن فى فكرة الإسلام الشمولى .

والجامعة الإسلامية أحد مظاهر التغييرات الفكرية التى حدثت فى الشرق الأوسط . إذ أفرزت الإصلاحات المصرية والعثمانية أفراداً من طبقة الصفوة الجديدة المنظمة وفقًا للأساليب الغربية . وبينما التحق الشرق أوسطيون بالجامعات الغربية ، فإن المدارس ، والأكاديميات العثمانية والمصرية الحكومية تعلمت أن تؤدى عملها على النمط الأوروبى، كما بدأت تتعلم طريقة التفكير الأوروبية . واكتشف هؤلاء أيضًا أن بالإمكان تغيير الحكومات السيئة والإطاحة بها ، وأن لدى الأفراد حقوق وحريات ؛ وأنهم ينتمون إلى جماعات سياسية تسمى «أمم» ترتكز فى وجودها على الجنس ، واللغة ، والثقافة ، والتجارب التاريخية المشتركة . وفى أواخر القرن التاسع عشر ، أفسحت هذه الأفكار القومية والليبرالية المجال لنشأة حركات جديدة ، وفى مقدمتها الحزب الوطنى فى مصر، وحركة العثمانيين الجدد والتى صارت فيما بعد تركيا الفتاة فى الإمبراطورية العثمانية ، والجمعيات السرية العربية فى بيروت ودمشق ، وحركة الدستوريين فى إيران ، وحركة تونس الفتاة . وتمردت كل واحدة من الحركات وثارت ضد احتكار الحكام للسلطة فى بلادها وحاولت تشكيل حكومات أكثر دستورية ، بيد أن أيًا منها لم يحقق النجاح المتوقع .

بدايات القومية المصرية :

استأنف الخديوى إسماعيل ، حفيد محمد على (١٨٦٣ – ١٨٧٩) عملية تغريب الإصلاحات وضمن لمصر استقلالها المالى والإدارى عن الإمبراطورية العثمانية . وأرسل بعثات استكشافية للعثور على منابع نهر النيل كما أرسل حملات عسكرية لغزو جنوبى السودان وشيّدت فى العديد من أحياء القاهرة والإسكندرية شوارع عريضة ، وحدائق عامة ، ومنازل حديثة وقصور ضخمة . وتعزز الاقتصاد فى ظل وجود عدد كبير من المصانع والأشغال والمرافق العامة بفضل الانتعاش فى زراعة محصول القطن من جراء انخفاض الإنتاج من هذا المحصول فى الولايات المتحدة أثناء الحرب الأهلية هناك ، وتوفر رءوس الأموال الأوروبية ، وأيضاً حفر قناة السويس الذى جعل مصر مجالاً جذاباً للاستثمار .

وعلى الرغم من القفزة الهائلة للاقتصاد المصرى ، إلا أن مشكلات الخديوى إسماعيل تفاقمت . وفى سنة ١٨٦٦ ، شكل جمعية نيابية لإسداء المشورة للحكومة بشأن زيادة العائدات . وبدأت هذه الجمعية ، التى كانت متخوفة فى البداية ولكنها تشجعت فيما بعد بفضل وجود صحافة ناشئة واعدة ، بدأت الدعوة إلى تشكيل حكومة دستورية . واقترض إسماعيل مبالغ ضخمة من البنوك الأجنبية لتغطية نفقاته ومصروفاته . وبسبب عجزه عن سداد ديونه الشخصية ، اضطر إلى بيع حصة حكومته من الأسهم فى شركة قناة السويس إلى بريطانيا ، وقبل الرقابة البريطانية والفرنسية على الموارد المالية لمصر ، بل وسمح فى نهاية الأمر بتعيين ممثلين من هاتين الدولتين الدائنتين فى حكومته . وأبدى المصريون امتعاضهم الشديد إزاء هذه التغييرات . وطالبت الجمعية النيابية بتشكيل حكومة تكون مسئولة أمامها وتخلو من أى أعضاء أوروبيين ، وبأن يكون لها رأى فى ميزانية الحكومة ، وبإلغاء التخفيضات فى الميزانية لما ألحقته من أضرار جمة بالعديد من المصريين . وفى عام ١٨٧٩ ، أقال إسماعيل حكومته الأوروبية وعين بدلاً منها حكومة أولت اهتمامها بدعوة الجمعية النيابية بشأن إقامة حكومة دستورية ،الأمر الذى دفع القوى الأوروبية إلى الضغط على السلطان العثمانى لاستبدال إسماعيل بابنه توفيق .

ونزولاً على رغبة مستشاريه الأوروبيين ، قام توفيق باشا بحركة تطهير واسعة فى نظام حكمه حيث أبعد من الحكومة المعارضين والمنشقين وحاول إلغاء بعض ديون

أبيه . ولكن العديد من المصرين ، الذين تضرروا من جراء التدخل الأوروبى ، دعوا إلى الاستقلال . وكان مؤيدوهم الرئيسيين بعض ضباط الجيش من المصريين الذين تزعمهم عرابى باشا ، والذين كانوا يريدون أن تتحرر مصر من الأتراك والأوروبيين. وفى عام ١٨٨١ ، حاصرت قوات عرابى قصر توفيق باشا وطالبت بتشكيل حكومة جديدة تكون مسئولة أمام برلمان منتخب . ورضخ توفيق لمطالب عرابى ، وأصبح لدى مصر دستورها . بيد أن انتصار الحركة الوطنية لم يدم طويلاً ؛ فقد دب الانقسام فى صفوف قادتها ، وهدد الأوروبيون بالتدخل ، وانقلب توفيق ضد الوطنيين فى عام ١٨٨٢ . وهكذا نزلت القوات البريطانية إلى الإسكندرية ، واحتلت قناة السويس ، وسارت نحو القاهرة . واستسلم عرابى لتنتهى بذلك أول حقبة دستورية فى مصر .

وعندما احتلت بريطانيا مصر، وعدت بسحب قواتها بمجرد إعادة النظام إلى البلاد. وكان من اليسير لبريطانيا هزيمة الوطنيين وتعزيز حكم توفيق ، بيد أنه كان من الصعب علاج أسباب الاضطراب والفوضى فى مصر ، لا سيما عبء الديون الضخمة ، والضرائب الباهظة المفروضة على الفلاحين ، والثورة التى اندلعت فى السودان . ورأت بريطانيا أنه كلما طال بقاؤها فى مصر لحل مشكلاتها المستعصية ، كلما وجدت صعوبة أكبر فى مغادرة البلاد . وأصبح السير إيفيلين بارينج ، أو اللورد كرومر ، الممثل الدبلوماسى لبريطانيا فى القاهرة . واعتماداً على مساندة القوات البريطانية له ، نجح فى إصلاح المشكلات المالية والإدارية فى مصر . إلى حد أنه صار تدريجياً كما لو كان الحاكم الفعلى للبلاد .

ورغم الرخاء الاقتصادى الذى شهدته مصر ، سعى المستشارون البريطانيون جاهدين إلى تقويض سلطة الوزراء المصريين وإلى إجهاض أية مبادرة من جانبهم . ومع أن البريطانيين زعموا أنهم يعدون المصريين للحكم الذاتى ، إلا أن مصر تحولت فى حقيقة الأمر إلى ساحة تدريب للمستعمرين البريطانيين . وغالباً ما كان هؤلاء ينسون أن مصر ليست مستعمرة بريطانية وإنما ولاية عثمانية تتمتع بالحكم الذاتى وتحتلها القوات البريطانية مؤقتاً . وعلى سبيل المثال ، فإن التوسع فى نظام الرى فى ظل الحكم البريطانى لم يواكبه توسع مماثل فى نظام التعليم أو فى مضمار التنمية الصناعية . وصار اللورد كرومر مستبداً وحاقداً وبات شغله الشاغل هو تقليص سلطات عباس الثانى ، ابن توفيق باشا . وعندما خلف عباس أبيه توفيق فى عام ١٨٩٢ ، لجأ

إلى جماعة سرية من المصريين الشبان لمساعدته فى إحباط سلطة كرومر . وأسس المتحدث باسم هذه الجماعة ، وهو محامى وخطيب مفوه يدعى مصطفى كامل ، الحزب الوطنى . ودعا الوطنيون بريطانيا إلى سحب قواتها من مصر وطالبوا فى مرحلة لاحقة بدستور جديد للبلاد . وتجاهل كرومر مطالبهم ، ولكن خليفته وعد بالإسراع فى منح مصر حكماً ذاتياً . ولسوء حظ الوطنيين ، توفى مصطفى كامل وهو فى ريعان شبابه عام ١٩٠٨ ، وانقسم أتباعه على أنفسهم فتحول بعضهم إلى الانخراط فى المقاومة الوطنية بينما تبنى البعض الآخر فكرة الجامعة الإسلامية . وأدى اتباع بريطانيا للمزيد من السياسات القمعية لإبعاد عدد من الوطنيين البارزين إلى المنفى . ومع نشوب الحرب العالمية الأولى ، أعلن البريطانيون مصر محمية بريطانية، وخلعوا عباس من الحكم ، وقطعوا آخر ما كان يربطها من علاقة بالإمبراطورية العثمانية .

الليبرالية التركية والقومية العربية داخل الإمبراطورية العثمانية :

فى الوقت الذى خبت فيه جذوة حركة الإصلاحات ، التى عرفت باسم التنظيمات، دعت مجموعة من المفكرين المتغربين وضباط الجيش والتى أطلقت على نفسها «العثمانيون الجدد» ، إلى قيام نظام أكثر ليبرالية . وفى سنة ١٨٧٦ ، وفى ظل الثورات التى اندلعت فى البلقان ، وزيادة مديونية الدولة المستحقة لأوروبا ، والتهديدات بغزو روسى ، نجح انقلاب عسكرى فى وضع سلطان ليبرالى على العرش. ولكن سرعان ما حل محله سلطان آخر هو عبد الحميد الثانى ، الذى أصدر دستوراً فى شهر ديسمبر فى ذاك العام حتى يحبط المحاولات الرامية إلى تفتيت وتقسيم إمبراطوريته من جانب الروس . وعلى مدى عام تقريبًا ، كان لدى الإمبراطورية العثمانية برلمان منتخب من الشعب ، بيد أنه بعد أن شرعت روسيا فى الهجوم على البلاد وزحفت قواتها على إسطنبول ، أغلق عبد الحميد البرلمان وعلق الدستور . وطيلة ثلاثين عاماً ، عمد السلطان إلى تركيز سيطرة الدولة وقمع الحركات القومية والليبرالية . وفى مواجهة هذه الأحداث ، فإن مجموعة من الطلبة الذين درسوا فى الغرب ومعهم بعض ضباط الجيش والذين ترسخ لديهم الاقتناع بأن السبيل الوحيد لإنقاذ الإمبراطورية هو إعادة العمل بدستور ١٨٧٦ ، قد شكلت على الفور لجنة الاتحاد والترقى ، أو تركيا الفتاة . وفى عام ١٩٠٨ ، أرغمت هذه المجموعة السلطان

العثماني على إعادة الدستور وإجراء انتخابات حرة ؛ وفي عام ١٩٠٩ ، وبعد وقوع انقلاب مضاد فاشل ، قامت هذه المجموعة بخلع السلطان . غير أنه سرعان ما تحول نظام تركيا الفتاة إلى طغمة عسكرية . وبينما أخذت ثورات البلقان والإمبريالية الغربية تستولي على الأقاليم والولايات العثمانية الواحدة تلو الأخرى ، تبنى هؤلاء الزعماء ، وبصورة متزايدة ، القومية التركية ، وجرّموا هؤلاء الذين لم يتكيفوا مع الثقافة التركية . وكان من بين رعايا الإمبراطورية العثمانية الذين قاوموا القومية التركية هؤلاء الذين يتحدثون اللغة العربية . وبعد أن ظلوا ردحًا طويلاً من الزمان منقسمين على أنفسهم بسبب عداوات محلية ، وطائفية ، أو عائلية ، بدأت الشعوب في سوريا ، وبلاد ما بين النهرين، والجزيرة العربية تعتبر أنفسها أمة عربية واحدة . وهكذا قام محامون، ومدرسون ، وطلبة وضباط جيش من الناطقين بالعربية بتشكيل جمعيات قومية في المدن العثمانية الرئيسية . وكان البعض منهم يريدون منحهم حكمًا ذاتيًا داخليًا والمساومة مع الأتراك كرعايا عثمانيين ؛ في حين طالب البعض الآخر بالاستقلال العربي عن الحكم التركي. ودعا البعض إلى عودة الخلافة إلى العرب . ورغم أنه كان لدى حركة القومية العربية في البداية القليل من معتنقيها وأتباعها ، إلا أن أفكارها هي التي ساعدت في إشعال شرارة الثورة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى .

نظام الحكم الدستوري الفارسي :

انتشرت الليبرالية في بلاد فارس لأن حكامها من أسرة قاجار كانوا مستبدين وضعفاء. إذ لم يستطيعوا حماية الفلاحين وسكان المدن من قبائل البدو ، كما لم يستطيعوا وقف عمليات التوغل العسكري الروسية أو الهيمنة التجارية للبريطانيين وغيرهم من الأوروبيين . وكان الدستوريون أو المؤيدون لنظام الحكم الدستوري يتألفون من ثلاث جماعات : التجار ، والعلماء الشيعة ، والمفكرين الليبراليين . وأعرب التجار عن استيائهم إزاء الامتيازات التي قدمها الحكام الفارسيون إلى الشركات الأجنبية، الأمر الذي كان يشكل تهديداً لحياتهم ؛ وخشي العلماء الشيعة من أن تؤدي حركة تغريب الإصلاحات إلى تقويض الإسلام بوجه عام وإلى إضعاف نفوذهم بشكل خاص ، أما المفكرون الذين تأثروا في حياتهم بالأفكار القومية

والليبرالية الغربية ، فكانوا يعتبرون الحكام ، الذين يساندهم المستشارون الأجانب ويعتمدون فى بقائهم على أموالهم ، عقبة رئيسية فى طريق الإصلاحات الفارسية .

وبدا واضحًا أنه كان لدى هذه الجماعات الثلاث غايات وأهداف متعارضة ومتباينة ، وذلك على الرغم من أنها كانت تتبنى موقفًا موحداً حيال معاداة الإمبريالية وكانت تجمعها المشاعر القومية ، مما دفعها إلى تنظيم مقاطعة التبغ فى سنة ١٨٩٢ وإشعال نيران ثورة وطنية فى سنة ١٩٠٦ . ورداً على ذلك ، أصدر الشاه الحاكم آنذاك دستوراً جديداً يقضى بتشكيل برلمان (مجلس) منتخب يختار الشعب أعضاءه ، بيد أنه فى سنة ١٩٠٧ ، استدعى خليفته القوات الروسية لقمع المجلس وأنصاره من الثوريين . ومع هذا ، واصل مؤيدو نظام الحكم الدستورى نضالهم خارج العاصمة . وساعدهم زعيم قبلى بارز فى استعادة طهران ، واستبدلوا الشاه الحاكم بآخر أكثر مرونة .

وبمجرد أن ملكوا زمام السلطة ، أخفق الدستوريون فى تنفيذ برنامجهم الخاص بالإصلاح القومى ولم تنجح ثورتهم فى تغيير الأوضاع السياسية والاقتصادية ، وانقسموا إلى فصائل ، وتدخل الغرباء فى شئونهم الداخلية مما أدى إلى تفاقم مشكلاتهم وأشاد الليبراليون الغربيون بالدستوريين لما قاموا به من إيجاد مناخ للحرية فى بلد ظل الفساد يخيم عليه طويلاً وجثم على أنفاسه حكام مستبدون ، ولكنهم لم يفهموا الثورة . وسعت الحكومة البريطانية فى هذه الأثناء أساساً إلى حماية تجارتها والدفاع عن الهند . فى نفس الوقت ، حصلت شركة بريطانية على امتياز لاستكشاف البترول فى جنوبى إيران . وجاء أول اكتشاف بترولى رئيسى فى سنة ١٩٠٨ ، وتأسست شركة البترول الإنجليزية الإيرانية فى السنة التالية . وقامت هذه الشركة ببناء مصفاة لتكرير البترول فى عبدان ، وعندما تحول الأسطول البريطانى إلى استخدام البترول بدلاً من الفحم فى سنة ١٩١٢ ، فإن دور إيران الجديد كبلد منتج للبترول جعلها تحتل مكانة بارزة ورئيسية فى الاستراتيجية الإمبريالية البريطانية .

وقد اتفقت بريطانيا وروسيا فى ١٩٠٧ على تحديد مناطق النفوذ مع إيران . ومن ثم كانت منطقة النفوذ الروسى تغطى الثلث الشمالى من البلاد ، بما فى ذلك طهران . أما بريطانيا ، التى كانت منطقة نفوذها تقع على الحدود الشمالية الغربية مع الهند ،

فإنها أذعنت لجهود روسيا ومحاولاتها الرامية إلى تشديد قبضتها على الحكومة الإيرانية قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى . وحتى الثورة البلشفية التى اندلعت فى ١٩١٧ وما تبع ذلك من انسحاب للقوات الروسية لم يثن الدولتين عن عزمهما ومحاولاتهما من أجل السيطرة على إيران .

الحرب العالمية الأولى ، والجهاد العثمانى ، والثورة العربية :

جاء نشوب الحرب العالمية الأولى ليكرس استمرار خضوع دول وشعوب الشرق الأوسط للسيطرة السياسية الغربية. فمنذ القرن الثامن عشر ، كانت روسيا قد سيطرت على الأراضى الواقعة شمال وغرب البحر الأسود ، وعلى جبال القوقاز ، ومعظم ساحل بحر قزوين ، وأيضاً على مساحات هائلة من آسيا الوسطى المسلمة . وكانت إيران محمية روسية بالفعل ، وكان نظام القيصر فى روسيا يتوقع السيطرة على إسطنبول ومضايق البوسفور والدردنيل فى الحرب. واحتلت بريطانيا مصر ، وجزيرة قبرص ذات الأهمية الاستراتيجية فى البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك عدن فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، كما أرجعت معاهدات بشأن توفير الحماية لمعظم حكام منطقة الخليج. وكان المستثمرون البريطانيون والفرنسيون قد ضخوا استثمارات هائلة فى أراضى الشرق الأوسط ، وفى المبانى ، والمصانع ، والسكك الحديدية ، والمرافق. وفى ١٩١٤ ، بدأ من المرجح أن تصبح ألمانيا حامية ما تبقى من أشلاء الإمبراطورية العثمانية ، ومن ثم عكفت بعثة عسكرية ألمانية على إعادة تنظيم جيشها، وكان لرأس مال رجال الأعمال دوره فى تمويل بناء خط سكة حديد يمتد من إسطنبول إلى بغداد ، مما أدى إلى زيادة نفوذ ألمانيا فى الشئون الداخلية للإمبراطورية العثمانية.

وكان قرار إسطنبول بدخول الحرب العالمية الأولى كحليف لألمانيا هو الذى حدد، وبصورة نهائية ، مصير الإمبراطورية العثمانية . وفشل الإعلان العثمانى للجهاد (النضال من أجل الإسلام) فى حشد المسلمين تحت حكم التحالف وحثهم على القيام بثورة عارمة. وبينما صدت بريطانيا الهجمات التركية على قناة السويس وأرسلت قواتها العسكرية إلى بلاد ما بين النهرين وفلسطين ، أخذ ولاء العرب للسلطان العثمانى يخبو. وهكذا أجرى الشريف الحسين بن على ، أمير منطقة مكة ، (من نسل النبى محمد) والذى كان ينتمى إلى الأسرة الهاشمية الحاكمة ، مفاوضات سرية مع

السير هنرى مكماهون ، المفوض السامى البريطانى فى مصر والذى تعهد بتأييد حكومته منح العرب الاستقلال إذا قام الحسين بثورة ضد الأتراك.

ومع ذلك احتفظ البريطانيون ببغداد والبصرة ومنحوهما حكمًا إداريًا خاصًا ، واستثنوا من ذلك منطقتى مرسين والاسكندرينة وأجزاء من سوريا تقع إلى الغرب من مدن دمشق ، وحمص ، وحماة ، وحلب. غير أن هذه الشروط لم تحقق حلم القوميين ودعاة القومية العربية بصورة منح الاستقلال لجميع المناطق والأراضى العثمانية الناطقة بالعربية. ورغم أن الحسين شعر بالإحباط وخيبة الأمل ، إلا أن قيام الحكومة العثمانية بقمع العرب فى سوريا قد أثار غضبه وأدى إلى إعلانه الثورة العربية فى ١٩١٦ . ونجح العرب والبريطانيون معًا فى طرد الأتراك من فلسطين وسوريا ، فى حين استولت القوات الإنجليزية – الهندية على بلاد ما بين النهرين (العراق) . واستسلمت الإمبراطورية العثمانية رسمياً فى أكتوبر ١٩١٨ .

ولأن العرب كانت لهم الهيمنة على فلسطين ، وسوريا ، والعراق ، توقع زعماؤهم أن تمنحهم بريطانيا الاستقلال مقابل تأييدهم لها إبان الثورة العربية . وحث الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون على منح الحكم الذاتى لهذه الأراضى العثمانية السابقة فى البند الثانى عشر من بنوده الأربعة عشر ، والتى وافقت عليها بريطانيا وفرنسا كأساس لصنع السلام . وطبقًا لمراسلات الحسين – مكماهون ، والتى أكدتها فى ١٩١٨ الضمانات البريطانية والفرنسية الجديدة للعرب ، تقرر أن تتولى أسرة الشريف حسين الأسرة الهاشمية ، حكم منطقة الهلال الخصيب والحجاز .

ولكن هذا لم يتحقق . إذ إنه أثناء الحرب ، كانت بريطانيا قد قطعت على نفسها التزامات وقدمت وعوداً متضاربة إلى أطراف معنية أخرى . وفى سلسلة من الاتفاقيات والمعاهدات السرية ، وافق الحلفاء على أن تكون مضايق البوسفور والدردنيل، وإسطنبول ، وشرقى الأناضول من نصيب روسيا القيصرية ، وأن تكون أجزاء من غربى الأناضول من نصيب اليونانيين والإيطاليين ، على أن تحصل بريطانيا وفرنسا على معظم الأراضى العربية. ومن ثم ، خصصت اتفاقية سايكس – بيكو فى ١٩١٦ جزءاً من الساحل السورى للسيطرة الفرنسية المباشرة ونصّت أيضًا على أن تبسط سيطرتها على منطقة أكبر تقع خلف الساحل السورى وتمتد حتى مدينة الموصل . وتولت بريطانيا حكم جنوب العراق وحصلت على منطقة نفوذ تغطى بقية

العراق وفلسطين ، على أن تكون الأماكن المقدسة المسيحية تحت إدارة دولية . وظل العرب فى الصحراء فقط بمنأى عن الحكم الغربى .

فى الوقت ذاته ، كانت هناك جماعة أخرى ، وهى جماعة القوميين اليهود ، أو الصهاينة ، والذين كانوا يحثون القوى الغربية على الاعتراف بحقهم فى إقامة دولة لهم فى فلسطين ، أو أرض إسرائيل . ومنذ بداية الثمانينيات (وإلى حد ما بسبب المذابح الروسية المنظمة ضد اليهود) ، استقر بعض اليهود الأوروبيين فى فلسطين ، والتى كانت لا تزال تحت الحكم العثمانى وكان يقطنها أساسًا السكان العرب . وأثناء الحرب العالمية الأولى ، اطلع حاييم وايزمان ، وهو كيميائى بارز وزعيم صهيونى كان يعيش فى إنجلترا ، اطلع مجلس الوزراء البريطانى على أرائه وأفكاره والتى تقضى بأن يعلن وزير خارجية بريطانيا السير آرثر بلفور تأييد الحكومة البريطانية لتأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين . وأكد على أنه لن يحدث أى شىء من شأنه إلحاق الضرر بالحقوق المدنية والدينية للسكان غير اليهود فى فلسطين ، والذين كان عددهم يزيد فى ذلك الوقت عن تسعة أعشار مجموع السكان هناك . وهكذا صدر ما عرف بوعد بلفور ، والذى كان انتصاراً رئيسياً للحركة الصهيونية الوليدة .

التسوية السلمية بعد الحرب :

والحقيقة أن كل هذه الالتزامات المتضاربة قد طرحت على بساط البحث فى مؤتمر باريس للسلام فى سنة ١٩١٩ . وفى المؤتمر ، تحدث الأمير فيصل ، نجل الشريف حسين ، عن الحكومة المؤقتة العربية والتى قد أسستها الأسرة الهاشمية فى دمشق . وفى محاولة لمعرفة ما كان يريده العرب فى سوريا وفلسطين ، أرسل ويلسون لجنة الملك – كرين ، والتى وجدت أن العرب يعارضون الحكم الفرنسى والاستعمار الصهيونى ويفضلون الاستقلال . بيد أنه تم تجاهل تقرير هذه اللجنة . وسمح البريطانيون للقوات الفرنسية بدخول بيروت وأذعنوا فيما بعد لسيطرة فرنسا على سوريا ، بما فى ذلك لبنان وليس فلسطين . وأعلن القوميون العرب فى دمشق استقلال سوريا فى مارس عام ١٩٢٠ وأقسموا على المقاومة ، ولكن الفرنسيين هزموا قواتهم فى يوليو وأطاحوا بالحكومة المؤقتة العربية .

وفى هذه الأثناء ، كان الحلفاء قد توصلوا إلى اتفاق حول كيفية تقسيم وإدارة الأقاليم والمقاطعات العثمانية التى غزوها . والتزامًا بمبدأ حق تقرير المصير الذى

أعلنه ويلسون ، لم تقم بريطانيا و فرنسا بضم هذه الأراضى إلى إمبراطوريتها وكما قد فعل الغزاة السابقون . وبموجب ميثاق عصبة الأمم ، فإنه قد تم تحديد الأراضى العثمانية التى استولى عليها الحلفاء خلال الحرب بأنها تلك الدول التى قد تطورت إلى الحد الذى يمكن معه الاعتراف مؤقتاً باستقلالها ، على أن تخضع للوصاية الأجنبية لفترة قصيرة تحت إشراف عصبة الأمم . وبناءً على هذا ، صارت فرنسا القوة المنتدبة على سوريا ولبنان ، وجرى انتداب بريطانيا على العراق وفلسطين . ومن حيث المبدأ ، كان يتعين على قوى الانتداب هذه إدارة شئون هذه البلاد لمصلحة سكانها وإعدادهم لحكم أنفسهم . وفى الواقع ، فإن نظام الانتداب هذا قد عاد بالفائدة أساساً على بريطانيا وفرنسا ، ولم يحقق أية منفعة لرعاياهما .

وشرعت فرنسا على الفور فى تقسيم سوريا إلى وحدات إدارية أصغر لإحكام سيطرتها على البلاد ، وهو الأمر الذى أغضب القوميين . وبعد الإطاحة بحكم الأمير فيصل وإقصائه من دمشق ، ثم تتويجه ملكاً فى بغداد فى ١٩٢١ فى الوقت الذى حاول فيه البريطانيون قمع ثورة شعبية اندلعت فى دولة العراق الجديدة ، والتى كانت قد تشكلت بسرعة من مجموعة من الأقاليم العثمانية القديمة التى تضم الموصل ، وبغداد ، والبصرة ، فيما عدا إمارة الكويت . وبالنسبة إلى عبد الله ، شقيق فيصل ، والذى كان البريطانيون قد وعدوه بحكم العراق ، أقام هؤلاء إمارة شرق الأردن ، وكانت عبارة عن أرض صحراوية تقطنها قبائل البدو . وساعدت بريطانيا عبد الله فى توطيد وتدعيم أركان دولته الجديدة من خلال تشكيل الفيلق العربى ، والذى كان قوات من الجمال تتألف من أفراد من معظم القبائل بقيادة ضباط بريطانيين . واحتج الصهاينة على أن مملكة عبد الله لم تكن مفتوحة أمام حركة الاستيطان اليهودى بينما رفض القوميون العرب بشدة تفتيت وتقسيم ما كانوا يعتبرونه سوريا الموحدة . وكان عبد الله نفسه يأمل فى أنه بمجرد رحيل الفرنسيين من سوريا ، سيكون بوسعه الانتقال من عمان التى كان يضايقه غبارها إلى دمشق التى تزخر بآثارها التاريخية .

وكان انتداب بريطانيا إلى الغرب من نهر الأردن يتطلب منها تنفيذ وعد بلفور بالسماح للمهاجرين اليهود بالاستيطان فى فلسطين . فما كان من الزعماء العرب فى فلسطين ، والذين خشوا من أن تذوب الأغلبية من السكان العرب فى الدولة اليهودية الجديدة التى كان يأمل الصهاينة فى إقامتها ، ما كان منهم إلا أن قادوا سلسلة من

الثورات احتجاجاً على ذلك . وهكذا نمت بذور الكراهية والعداوة بين العرب واليهود من ناحية وبين المسلمين والغرب من ناحية أخرى عقب الحرب العالمية الأولى . وبدأت الأجيال التالية تحصد ثمار تلك الكراهية والعداوة بين الجانبين .

الشرق الأوسط منذ الحرب العالمية الأولى :

عندما أسدلت الجيوش الأوروبية الستار إيذاناً بنهاية الحرب العالمية الأولى ، بدا أن بريطانيا سيطرت على الشرق الأوسط برمته . إذ انتشرت قواتها فى غربى الصحراء العربية ، وفلسطين ، وسوريا ، والعراق ، وبعض مناطق فى إيران ، وأجزاء فى القوقاز ظلت لفترةٍ طويلة تحت حكم القياصرة ، إضافة إلى المضايق التركية . ولكن انبعاث القومية حدّ من قدرة بريطانيا على حكم الشرق الأوسط كله . وتفجرت فى الحال ثورات عارمة فى أرجاء مصر والعراق ضد قوات الاحتلال البريطانى . وثار العرب فى فلسطين ضد المهاجرين اليهود وفى سوريا ضد المستعمرين الفرنسيين ، لأنهم كانوا يرون أن اليهود والفرنسيين أداة لخدمة المصالح الإمبريالية البريطانية .

وبعد أن تخلى عنها قادة تركيا الفتاة ، سمحت الحكومة العثمانية المهزومة للبريطانيين والفرنسيين باحتلال المضايق التركية ، بيد أن المحاولات العثمانية لتسريح الجيش التركى فى الوقت الذى غزت فيه القوات اليونانية منطقة الأناضول أدت إلى نشوب حركة تمرد قومى بقيادة الجنرال مصطفى كمال (الذى أطلق عليه فيما بعد لقب أتاتورك ومعناه «أبو الأتراك») . وسارع أنصار كمال إلى تشكيل حكومة قومية فى أنقرة والتى حلت محل السلطة العثمانية ثم ألغتها بعد ذلك . ورفضت الجمهورية التركية الجديدة معاهدة سيّفر لعام ١٩٢٠ والتى فرضها الحلفاء على السلطان العثمانى ، وهى معاهدة كانت تحتوى على بنود لم يقبلها الأتراك ، ومن تفاوضوا مع الحلفاء فى مدينة لوزان السويسرية للتوصل إلى معاهدة أكثر قبولاً لديهم والتى جرى التوقيع عليها فى ١٩٢٣ .

وفى إيران وقعت بريطانيا معاهدة مع الشاه القاجارى والتى بمقتضاها كانت بلادهم ستتحول إلى محمية بريطانية ، لولا أن المجلس رفض تلك المعاهدة ، واندلعت الثورات فى مناطق عديدة من البلاد . وفى سنة ١٩٢١ ، تمكن ضابط فى قوات

حـرس الشـاه ، يدعى رضـا خـان ، من الاسـتـيـلاء على السلطة وأقـام ديكتـاتورية عسكرية، الأمر الذى قلص من دور بريطانيا فى حماية حقولها النفطية فى جنوب غربى إيران .

(صورة ٤ : ٣) علم تركى يحمل صورة مصطفى كمال أتاتورك فى ذكرى تأسيس الجمهورية فى إسطنبول بتركيا

الإمبريالية الغربية فى الأراضى العربية :

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، بذل البريطانيون قصارى جهدهم للإبقاء على روابط الاتصال عبر المنطقة إلى الهند . ورغم أن الثوريين فى مصر لم يحصلوا على الاستقلال الذى قد سعوا إليه فى عام ١٩١٩ ، إلا أن بريطانيا وعدت فى ١٩٢٢ بإنهاء نظام الحماية على مصر والسماح للمصريين بوضع دستور رسمى ، وتأسيس برلمان ينافس الملك على السلطة . وظلت القوات البـريطانيـة فى مـصـر بحجةحماية القاهرة ، والإسكندرية ، وقناة السويس ، والمرافق الحيوية مثل المطارات

والمحطات الإذاعية المصرية . ويقى السودان رسمياً تحت الحكم الإنجليزى المصرى المشترك ، غير أن السلطة الفعلية كانت كلها فى أيدى البريطانيين . واحتفظت بريطانيا أيضًا بحقها فى الدفاع عن مصر ضد أى عدوان خارجى وفى حماية الأجانب و الأقليات . و بمقتضى الدستور الجديد أجرى المصريون انتخابات برلمانية فى عام ١٩٢٣ والتى حقق فيها الوفد المصرى السابق (الذى شارك فى مفاوضات مؤتمر باريس للسلام) فوزاً كاسحاً ليتحول بعدها إلى حزب الوفد .

وكانت فلسطين تخضع مباشرة لسيطرة وزارة المستعمرات البريطانية مع وجود مندوب سامى يتولى شئون الحكم فى القدس . وكان لدى الطائفة اليهودية وكالة يهودية وجمعية منتخبة لإدارة شئونها الداخلية ولم يكن لدى العرب المسيحيين والمسلمين مثل هذه المنظمات ، ورفض زعماؤهم اقتراحا بتشكيل هيئة تشريعية والتى لم يكن لهم فيها أغلبية تضمن سيطرتهم عليها وكان اليهود والعرب يتحدثون لغات مختلفة ، ويعيشون فى قرى مختلفة أو فى أحياء منفصلة ، وقلما كانت هنالك علاقات أو اتصالات فيما بينهم ، وذلك على الرغم من أن البعض من الجماعتين نجح فى تحقيق نوع من الانسجام سواء على المستوى الفردى أو العائلى . وكان المهاجرون اليهود من روسيا التى مزقتها الحرب ومن وسط أوروبا ينظرون إلى السكان العرب باعتبارهم قطاع طرق ، وأصحاب أراضى جشعين ، فى حين كان يخشى العرب الفلسطينيون من أن تجردهم الحركة الصهيونية من ملكية أراضيهم أو بيوتهم . وهكذا، فإن كلاً من اليهود والعرب ، وبما لديهما من ذكريات طويلة عن ضعفهم وعجزهم ، لم يظهر أدنى قدر من التعاطف تجاه بعضهما الآخر بينما شرعا فى التنافس على فلسطين والصراع حولها * .

ومع أن الفرنسيين وافقوا على أن تكون لهم السيطرة على سوريا ، إلا أنهم أحسوا بالاستياء من إضاعة فرصتهم للسيطرة على فلسطين وغربى العراق الغنى بالبترول .

---

* يلاحظ القارئ أن المؤلف يوحى للقارئ بأصالة الوجود الصهيونى فى فلسطين ، وتساويه مع الوجود العربى ، وبذلك يجعل القارئ يعجب لموقف العرب من اليهود فلا يدرك أن الوكالة اليهودية أسست خصيصا لتوسيع نطاق الهجرة اليهودية إلى فلسطين (التى بدأت منذ العام ١٨٨٢) واقامة المستوطنات اليهودية ووضع البنية الأساسية للدولة اليهودية بالتعاون التام مع حكومة الانتداب البريطانى فى فلسطين (المراجع) .

وكانت فرنسا مصممة على أن تستغل انتدابها على سوريا الذى منحته لها عصبة الأمم لكى تجعل من هذه الدولة مستعمرة فرنسية . وبعد أن تمكنت القوات الفرنسية مباشرة من طرد القوميين العرب من سوريا ، قسمت فرنسا البلاد إلى قطاعات: دمشق ، وحلب ، وشمال ساحل البحر الأبيض المتوسط للعلويين (طائفة شيعية منفصلة) ، والمناطق الجبلية الواقعة جنوب دمشق للدروز (وهم أيضاً طائفة شيعية) ، إضافة إلى جمهورية لبنان .

والواقع أن جمهورية لبنان هذه ، وهى الوحيدة من بين هذه المناطق المُقسَّمة التى ظلت باقية إلى ما بعد زوال الانتداب الفرنسى ، كانت النسخة المكبرة لمقاطعة جبل لبنان العثمانية ، والتى كانت تتمتع بقدر من الحكم الذاتى فى ظل الحماية الأوروبية خلال الفترة بين ١٨٦٠ و ١٩١٤ . وكان معظم سكان جبل لبنان من المسيحيين المارونيين (وهم أصلاً طائفة منشقة عن المسيحية الأرثوذكسية اليونانية والتى دخلت فيما بعد فى تحالف مع الكاثوليكية الرومانية) . وكان الفرنسيون يأملون أنه من خلال توسيع رقعة لبنان سيكون بمقدورهم الاحتفاظ بأغلبية مارونية كبيرة تكفى لإعطائهم السيطرة الفعالة على السكان الآخرين فى هذا البلد ، سواء أكانوا من الدروز، أو المسلمين الشيعة أو السنَّة ، أو اليونان الأرثوذكس ، أو أتباع الطوائف المسيحية الأخرى . وسرعان ما حصلت جمهورية لبنان ، والتى كان بها أغلبية ضئيلة من المسيحيين فى العشرينات ، على قدر كبير من الحكم الذاتى فى ظل القيادة المارونية . وعاد الحكم الفرنسي فى سوريا بالفائدة على المزارعين والتجار ، نظراً لأن حكومة الانتداب استثمرت أموالاً كثيرة فى مشروعات الطرق ، والأشغال العامة الأخرى ، غير أن هذا كله لم ينجح فى تهدئة غضب القوميين الذين ناضلوا لكى تنال الدولة العربية استقلالها . وفى شمال أفريقيا ، تعامل الفرنسيون مع الجزائر باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من فرنسا . فقد سيطر المستوطنون الأوروبيون على معظم الأراضى الزراعية هناك وهيمنوا على الحياة السياسية وسيطروا على الجزائر العاصمة والمدن الرئيسية الأخرى. ولم يتمتع المسلمون الجزائريون ، وهم من السكان البربر أساسًا وإن كان من بينهم العديد من العرب ، بأية حقوق سياسية ، وتمكنوا بالكاد من تشكيل حزب قومى علمانى. وفى تونس كان يتولى الحكم به مسلم (حاكم) والذى كان لديه وزراء من المسلمين ، ولكن السلطة الفعلية كانت فى يد الحاكم العام الفرنسى ومستشاريه . وكان وجود المستوطنين الأوروبيين فى تونس أقل مما كان عليه الحال فى الجزائر ، ناهيك

عن أنه ظهرت معارضة من جانب طبقة محترفة ناشئة ، والتى شكلت الحزب الدستورى .

أما المغرب ، والتى على النقيض من بقية دول شمال أفريقيا ، لم تخضع أبداً للسيطرة العثمانية ، فإنها باتت مقسمة الآن ما بين منطقة أسبانية فى الشمال ، ومدينة طنجة الدولية ، ومحمية فرنسية تشمل معظم البلاد . وكان يتعين على سلطان المغرب ووزراءه الحصول على المشورة والنصح من الحاكم العام الفرنسي . وتم بصعوبة بالغة قمع حركات التمرد التى تفجرت فى المناطق الريفية على نطاق واسع فى عام ١٩٢٥ ، والتى على أثرها شكل القوميون فى المدن حزب الاستقلال ، بيد أن الفرنسيين ضخوا استثمارات هائلة فى الزراعة والتعدين على أمل أن يطول بقاؤهم فى المغرب . وبالنسبة إلى إيطاليا ، التى استولت على ليبيا من الإمبراطورية العثمانية فى عام ١٩١١ ، فإنها نجحت تدريجيًا فى الاستيلاء أيضًا على طبرق وفزان ، والتى تؤلف ما يعرف الآن باسم ليبيا . وكانت إدارة شئون ليبيا أمراً بالغ الصعوبة ، كما أنه على الرغم من الجهود المضنية التى يبذلها الإيطاليون لاستعمار ليبيا وتشريدهم العديد من سكانها العرب من ديارهم ، إلا أن هذه الجهود لم تفلح فى جذب أعداد كبيرة للاستيطان فى هذا البلد .

الاستقلال فى تركيا ، وإيران ، وشبه الجزيرة العربية :

لعل أكثر ما يدعو إلى السخرية فى تاريخ منطقة الشرق الأوسط أن العرب ، الذين ألقوا بكل ثقلهم وراء الحلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى ، لم يحققوا أهدافهم السياسية بعد عام ١٩١٨ ، فى حين أن الأتراك ، الذين انضموا إلى القوى الرئيسية فى هذه الحرب وشاركوهم الهزيمة ، قد نجحوا فى نيل استقلالهم بمجرد أن وضعت الحرب أوزارها . وقد كان بالإمكان تقسيم الأراضى التى يتحدث سكانها اللغة التركية الواقعة فى تراقيا والأناضول بين بريطانيا ، وفرنسا ، واليونان ، وإيطاليا ، وربما أيضًا الولايات المتحدة ، بل كان من المحتمل أيضًا أن تنتقل بعض المناطق الشرقية إلى الأكراد . وبدلاً من ذلك ، قاد كمال ثورة شعبية فى أرجاء البلاد والتى نجحت تدريجياً فى كسب تأييد الجمهوريات الاشتراكية للاتحاد السوفيتى ، وفرنسا ، وإيطاليا، مما أدى إلى طرد الغزاة اليونانيين الذين كانوا قد احتلوا مناطق كثيرة من غربى

الأناضول ، وإقناع القوات البريطانية بالانسحاب من مضايق البوسفور والدردنيل ومنحت المعاهدة الجديدة التى وقعت فى لوزان عام ١٩٢٣ الاستقلال لكل من تراقيا والأناضول (مع عدم تخصيص أية حقوق للأرمن أو الأكراد) من الحكم الأجنبى وقبلت إلغاء الامتيازات الأجنبية والتى قد أعفت الأجانب الأوروبيين من السيطرة العثمانية .

وألغى كمال أيضًا السلطنة العثمانية والمؤسسات السياسية الأخرى التابعة للإمبراطورية المحتضرة فى ١٩٢٣ . وصارت أنقرة عاصمة لتركيا ، وهى أول جمهورية فى الشرق الأوسط الحديث . وأعقب ذلك المزيد من الإصلاحات الجذرية ، حيث أنهى كمال نظام الخلافة الإسلامية ، وألغى المؤسسات الإسلامية فى تركيا ، بما فى ذلك المحاكم الشرعية والمدارس الإسلامية ، والطرق الصوفية وجماعات الدراويش، وحتى العطلات الرسمية . علاوة على هذا ، ألغيت الحروف الأبجدية العربية التى ظلت تكتب بها اللغة التركية لما يقرب من ألف سنة ، واستبدلت بها حروف رومانية . وأصبح التقويم ميلادى والتوقيت الزمنى الغربى هما المعتمدان رسميا فى الدولة مثلما كان الحال بالنسبة للنظام المترى للأوزان والمقاييس . وحظر كمال على النساء تغطية وجوههن بارتداء الحجاب وأمر الرجال بلبس قبعات بدلاً من الطرابيش وهى أغطية الرأس التقليدية التى اعتاد أن يرتديها المسئولون والضباط فى الجيش .

وفقد العلماء معظم سلطاتهم كقضاة ومعلمين . وكان كمال يطمح من وراء هذا كله إلى إخراج تركيا من محيطها الشرق أوسطى وجعلها جزءاً من أوروبا . ولأنه قد أنقذ بلاده من الاحتلال على أيدى قوات الحلفاء ، كان معظم الأتراك يطيعون أوامره ويكنون له إعجاباً شديداً .

وكان هناك زعيم آخر يحاكى كمال فى بلاد فارس ، والمعروفة الآن باسم إيران، وهو رضا خان ، الذى كان ضابطاً برتبة عقيد فى الجيش ، والذى استولى على السلطة فى عام ١٩٢١ . بيد أنه عندما ثبت أن السياسيين فى إيران يدخلون مع بعضهم فى خلافات ومشاكسات دائمة وحين تبين أن الشاه يفتقر إلى الكفاءة فى الحكم ، قرر رضا احتكار السلطة كلها فى يده . وبعدما عين نفسه شاهاً جديداً للبلاد ، أسس رضا أسرة بهلوى الحاكمة وأعلن أنه يجب تسميه فارس إيران (وهى كلمة

فارسية معناها أرض الآريين) . وكما فعل كمال فى تركيا ، أضعف رضا خان شوكة العلماء وأضفى الطابع العلمانى على محاكمهم ، ومدارسهم ، وعلى مؤسساتهم الخيرية . وبالإضافة إلى هذا ، أصدر قوانين تحظر على النساء ارتداء الحجاب وتقضى بأن يرتدى الرجال والنساء ملابس أوروبية الطراز . كما أسرع الشاه الجديد فى كبح جماح القبائل البدوية التى كانت تسيطر على معظم المناطق الريفية فى بلاد فارس وذلك بإرغامهم على الاستيطان فى المناطق النائية كمزارعين . وفى محاولة منه لتعزيز سيطرة الدولة على الريف ، مد خطوط التلغراف وشبكة الطرق وأصدر مرسوماً بتشييد سكة حديد عبر إيران . ورغم أن وجود شركة البترول الإنجليزية – الإيرانية (شركة البترول الإنجليزية – الفارسية سابقًا) ، قد حد من سيادة إيران الاقتصادية ، إلا أن رضا شاه نجح فى إعادة التفاوض بشأن امتياز هذه الشركة لمصلحة البلاد . ومع هذا، عندما توسعت الشركة فى إنتاجها من البترول ، تزايدت أعداد الإيرانيين الذين التحقوا بالعمل فيها ، ومع انتشار المشاعر القومية فى شتى أرجاء إيران ، أخذ الكثيرون يتساءلون عن السبب الذى يجعل الأجانب يسيطرون على مثل هذا المرفق الحيوى .

فى نفس الوقت ، بدأت عمليات استكشاف البترول فى دول أخرى . واكتشفت شركات بريطانية ترسبات نفطية جديدة فى العراق والكويت ، كما توصلت شركات أمريكية عاملة فى البحرين إلى اكتشافات بترولية جديدة . وقام تحالف يضم شركات أمريكية ،والذى صار يعرف باسم شركة النفط العربية الأمريكية (أرامكو) ، بالتنقيب عن البترول فى صحراء شبه الجزيرة العربية . وكان يسيطر على هذه المنطقة الصحراوية لزمن طويل العديد من القبائل البدوية ، ولكن فى أوائل القرن العشرين ، استطاع قائد عسكرى بارز يدعى عبد العزيز بن سعود أن يبسط سيطرته على مناطق كثيرة من شبه الجزيرة العربية . وبعد أن نجح فى إخضاع معظم القبائل فى وسط وشرقى الصحراء العربية ، استطاع بن سعود أن ينتزع مكة والمدينة من الأسرة الهاشمية الحاكمة فى عام ١٩٢٥ . وبعد أن توج غزواته بفتح منطقة عسير ، أعلن بن سعود تأسيس المملكة العربية السعودية فى عام ١٩٣٢ . وظلت بلاده فقيرة حتى اكتشفت شركة أرامكو النفط بكميات ضخمة ، ومن ثم بدأت المملكة العربية السعودية بعد الحرب العالمية الثانية فقط تتطور لتصبح عملاقاً اقتصادياً .

وظل اليمن دولة مستقلة تحت الحكم الوراثى لأسرة الأئمة الشيعة الزيديين (زعماء دينيون) ، ورغم أن البلاد تتميز بطبيعتها الجبلية الخاصة وبأنها نابضة بالحياة، إلا أن البدو كانوا يسيطرون عليها ، كما كانت تفتقر إلى المدارس ، والرعاية الصحية ، والصناعة والبترول . وفى الجنوب ، حيث يلتقى البحران الأحمر والعربى ، كانت توجد مستعمرة عدن البريطانية . وكان العديد من شيوخ القبائل بالقرب من سواحل البحر العربى والخليج قد أبرموا معاهدات وضعتهم تحت الحماية البريطانية . وأصبحت عمان ، التى قد كانت فى القرون السابقة تتمتع بحكم ذاتى فى إدارة شئونها بالمنطقة، أصبحت محمية بريطانية ، رغم أن سيطرة بريطانيا عليها كانت اسمية . وجرى اكتشاف البترول أيضاً فى بعض هذه المناطق ، بيد أنه لم يتم استخراج أو بيع كميات كبيرة منه حتى الستينيات .

تراجع الإمبريالية الغربية :

مع انتشار التعليم والاتصالات ، تزايدت القومية والوعى القومى بين الشعوب الناطقة بالعربية والتى كانت ترزح تحت نير الحكم البريطانى والفرنسى . وهذا الشعور المتنامى بالوعى القومى قد تجسد إما فى القومية العربية ، وهى الفكرة التى تدعو إلى ضرورة اتحاد جميع من يتحدثون العربية فى دولة واحدة ، وإما فى شكل نزعة وطنية أكثر قوة وشمولاً . ومع زيادة أعداد العرب الذين التحقوا بالمدارس والجامعات، وفى الوقت الذى عملت فيه الصحف التى ظهرت بأعداد متزايدة على إذكاء روح الوعى القومى لديهم وحثهم على المطالبة بالاستقلال والحكم الذاتى ، راح هؤلاء العرب يهاجمون علنًا نظامى الانتداب البريطانى والفرنسى فى منطقة الهلال الخصيب ، وكذلك الهيمنة البريطانية الطويلة على مصر والسودان . والحقيقة أن البريطانيين أنفسهم كانوا يريدون إعداد العراقيين ، والأردنيين ، والفلسطينيين ، والسوريين ، واللبنانيين ، والمصريين ، والسودانيين للحكم الذاتى ولنيل استقلالهم فى النهاية ، ولكن كدول منفصلة عن بعضها البعض .

وكانت مملكة العراق هى التى قادت مسيرة العرب إلى الاستقلال . ورغم أن سكانها كانوا أقل تعليماً من السوريين والمصريين ، فإن البريطانيين كانوا على استعداد لأن يقروا رسميًا بأن العراق بات فى وضع يؤهله لإقامة دولة ذات سيادة . وفى عام ١٩٣٢ ، نال العراق استقلاله الرسمى وانضم إلى عضوية عصبة الأمم . وفى العام

التالى ، توفى الملك فيصل الأول فجأة وخلفه فى حكم العراق ابنه الأصغر . وتفجرت ثورة قام بها الآشوريون (المسيحيون النسطوريون) وقمعتها القوات العراقية التى ذبحت العديد من القرويين المسيحيين . ومنعت أقليات عرقية أخرى من تولى السلطة (هذه الأقليات أساساً من الأكراد غير العرب والتركمانيين الذين يعيشون فى الشمال ، والذين كانوا يشكلون خمس سكان العراق ، وأيضاً اليهود فى بغداد) . وبرغم أن معظم المسلمين العرب فى العراق كانوا من الشيعة ، فإنهم عانوا أيضاً من التمييز والتفرقة فى المعاملة .

وكان يسيطر على برلمان العراق زعماء القبائل من أصحاب الأراضى ، بينما احتكرت عائلات أرستقراطية معينة المناصب المهمة فى الحكومة . وأدت سلسلة من الانقلابات العسكرية إلى وصول العديد من ضباط الجيش للسلطة ، والتى توجت بتشكيل حكومة قومية عربية أطاح بها التدخل العسكرى البريطانى فى عام ١٩٤١ ، مخلفاً وراءه تراثاً من العداوة المتأصلة للغرب والتى ستعاود الظهور إلى السطح فى ظل حكم زعماء عراقيين من أمثال عبد الكريم قاسم فى ١٩٥٨ – ١٩٦٣ ، وصدام حسين منذ عام ١٩٧٩ .

ونجح عبد الله ، شقيق الملك فيصل الأول ملك العراق ، فى توحيد الأردن والتى صارت مستقلة رسمياً فى عام ١٩٤٦ . وقد ساعد الفيلق العربى ، الذى كان من أقوى مؤسسات الأردن وأطولها بقاءً ، البريطانيين فى قمع حوادث الشغب التى وقعت فى فلسطين غرب نهر الأردن ، وهى المنطقة التى ابتليت بالصراع اليهودى العربى حول «أرض الميعاد» .

وكان الأمل يحدو الحركة الصهيونية فى إقناع عدد كافٍ من اليهود بالهجرة إلى فلسطين لتكوين دولة يهودية . ومع ذلك ، وإبان العشرينات ، وفد إلى فلسطين عدد قليل من هؤلاء اليهود ، وكانت الأغلبية للسكان العرب . ولكن فى عام ١٩٢٩ ، وقع شجار عند الحائط الغربى من القدس (حائط المبكى) أعقبته حوادث شغب واسعة النطاق أسفرت عن قتل وإصابة العديد من العرب واليهود . وسارعت الحكومة البريطانية بإرسال لجنة للتحقيق فى الحادث والتى أعدت تقريراً جاء فيه أن عمليات بيع الأراضى المملوكة للعرب إلى المستوطنين اليهود قد تسبب فى أن يفقد العديد من الفلاحين من العرب الفلسطينيين حقوق إيجار هذه الأراضى ، ومن ثم أرزاقهم

وقوتهم اليومى . وألقى المستوطنون اليهود على العرب اللوم وحملوهم مسئولية هذه الأحداث وزعموا أنهم قد جلبوا الرخاء إلى فلسطين .

ومع تولى النازية مقاليد السلطة فى ألمانيا ، تسارع إيقاع الهجرة اليهودية فى الثلاثينيات ، الأمر الذى أثار مخاوف العرب بأنهم سيصبحون أقلية قريبًا . وفى عام ١٩٣٦ ، فإن الأحزاب السياسية العربية ، التى كانت لا تزال منقسمة لأسباب عائلية ودينية ، اتحدت فيما بينها من خلال تشكيل ما عرف باللجنة العربية العليا ، والتى نظمت إضراباً عاماً ضد سلطة الانتداب فى فلسطين . وتبع ذلك حرب أهلية دامت ثلاث سنوات . وزارت لجنة تحقيق بريطانية فلسطين فى عام ١٩٣٧ حيث أوصت بإقامة جيب مستقل فى جزء من أراضى فلسطين للهجرة اليهودية ولأغراض الاستيطان اليهودى هناك . ورغم أن هذا الجيب المقترح كان صغيراً ، فإن عرب فلسطين ، مدعومين من العراق ومصر اللتين نالتا استقلالهما حديثاً ، قد عارضوا مثل هذا التقسيم، مثلما عارضه اجتماع عقده المؤتمر الصهيونى ، وإن يكن لأسباب مختلفة . وواصل البريطانيون مساعيهم ومحاولاتهم فى هذا الصدد ، بيد أنه فى ظل المخاوف المتزايدة من خوض الحرب ضد ألمانيا ، أصدروا فى مايو ١٩٣٩ الكتاب الأبيض ، والذى فرض قيوداً مشددة وصارمة على الهجرة اليهودية وعمليات شراء الأراضى فى فلسطين . وهنا أحس الصهاينة بأنهم تعرضوا للخيانة ، لاسيما وأن معظم يهود أوروبا كانوا يتعرضون لخطر مميت ولم تكن هناك دولة أخرى يمكن أن تسمح باستقبالهم . ومن جانبهم لم يثق القوميون العرب فى الوعود البريطانية بشأن منح الاستقلال لفلسطين، حتى برغم أن العرب كانوا يشكلون أغلبية سكانية فى فلسطين ، وكانت حجة هؤلاء أن الصهيونية لم تكن سوى مظهر آخر من مظاهر الإمبريالية الغربية .

وكان عرب سوريا ولبنان يضمرون الكراهية لسلطات الانتداب الفرنسى فى هاتين الدولتين . وكان المارونيون فقط هم الذين يريدون وجوداً فرنسيًا هناك ؛ فى حين أن معظم المسيحيين الآخرين وجميع المسلمين فى سوريا كانوا يريدون تحقيق الوحدة العربية ونيل الاستقلال . وخلال فترة قصيرة تولت فيها حكومة يسارية السلطة فى باريس ، عرض الفرنسيون الاستقلال ، وهو عرض كانوا ينوون التراجع عنه حالما تتولى حكومة أكثر محافظة السلطة فى فرنسا . غير أن الهزيمة التى منيت بها فرنسا على أيدى ألمانيا النازية فى عام ١٩٤٠ ، مكنت بريطانيا والولايات المتحدة من

ممارسة ضغوط على الفرنسيين الأحرار المناهضين للنازية للاعتراف باستقلال سوريا ولبنان فى عام ١٩٤٢ ، ولكن الأمر استغرق ثلاث سنوات أخرى قبل أن تنسحب القوات الفرنسية من هناك .

وفى نهاية الحرب العالمية الثانية ، كانت مصر أكثر الدول العربية من حيث الكثافة السكانية . وكان بها معظم الصحف والمجلات ، والجامعات البارزة ، وأكبر دور السينما وشركات التسجيل ، وأكثر الكتاب شهرة فى العالم العربى . ومع هذا ، تخلفت عن الدول العربية الأخرى فى الحصول على استقلالها . وبينما احتدمت المنافسة بين حزب الوفد والأحزاب السياسية الأخرى حول كسب التأييد الشعبى فى الانتخابات البرلمانية ، لجأ الملك فؤاد الأول إلى استخدام نفوذه لدى العلماء ، والجيش، وأحياناً عمد القرى فى محاولة لتعزيز سلطته . ومع هذا واصل الجانبان نضالهما فى مواجهة الاحتلال البريطانى لمصر والسودان . وفى عام ١٩٣٦ فقط توصلت بريطانيا و مصر إلى اتفاق فى هذا الصدد لأن كلتا الدولتين كانتا تتخوفان من تنامى سلطة ونفوذ إيطاليا فى ليبيا وأثيوبيا ، وهما دولتان تشتركان فى حدودهما مع مصر والسودان . وبموجب هذا الاتفاق وافق البريطانيون على خفض قواتهم فى قناة السويس ، والقاهرة، والإسكندرية ، حيث تقلص عددها إلى عشرة آلاف جندى فى وقت السلم ، ولكن السودان ظل تحت الحكم الإنجليزى – المصرى المشترك .

وعندما توفى الملك فؤاد فى عام ١٩٣٦ ، خلفه فى الحكم ابنه فاروق ، الذى كان فى سن المراهقة فى ذلك الوقت ، والذى كان يحظى بإعجاب الشعب المصرى .بيد أنه فقد التأييد الشعبى فى عام ١٩٤٢ عندما أرغمه البريطانيون على تعيين حكومة أيدت وجودهم فى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية . وهكذا احتلت مصر قوات بريطانية ذات نزعة إمبريالية أكثر حتى مما كان عليه وضع القوات البريطانية التى احتلت مصر إبّان الحرب العالمية الأولى ، وذلك لأنه كان يتعين ، وبأى ثمن ، الدفاع عن البلاد ضد قوات إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية التى بدأت تغزو ليبيا ، وقناة السويس . وتنافست الحركات المناهضة للديمقراطية ، مثل حركة مصر الفتاة المؤيدة للفاشية ، والحزب الشيوعى ، وحركة الإخوان المسلمين ، على كسب التأييد لمصر . وبدا أن الأحزاب البرلمانية مثل حزب الوفد قد عفا عليها الزمن . وما أن أُسدل الستار على الحرب ، طالب المصريون بضرورة جلاء القوات البريطانية عن بلادهم ، بما فى ذلك قناة السويس .

الصراع بين القومية العربية والصهيونية السياسية :

نالت فكرة الوحدة العربية تأييداً متزايداً فى الهلال الخصيب ، ومصر ، وشبه الجزيرة العربية أثناء الحرب العالمية الثانية . وقد شجب العرب بشدة تقسيم الهلال الخصيب إلى منطقتين : الأولى تحت الانتداب الفرنسى ، والثانية خاضعة للانتداب البريطانى ، وأعربوا عن أملهم فى أن يؤدى الاستقلال إلى تحقيق الوحدة بين الدول العربية . واقترح نورى السعيد ، رئيس وزراء العراق ، إقامة اتحاد بين سوريا ، ولبنان، وشرق الأردن ، وفلسطين ، والعراق . ولكن الملك فاروق ملك مصر ، والعاهل السعودى بن سعود كانا يريدان أيضاً أن تكون لهما الزعامة فى العالم العربى. ولهذا ، دعت مصر إلى إقامة تنظيم أوثق وأكثر فاعلية بين جميع الدول العربية المستقلة . ووافق العرب على هذا البديل الذى اقترحته مصر ، ومن ثم تأسست جامعة الدول العربية وظهرت إلى الوجود فى ١٩٤٥ ، واختيرت القاهرة مقراً رئيسياً لها كما اختير دبلوماسى مصرى أميناً عاماً لها . وانضمت الدول العربية إلى عضوية الأمم المتحدة فى العام نفسه . ورغم أن الزعماء العرب ظلوا يدعون إلى تحقيق الوحدة بين دولهم ، والتى كانت معظم حدودها مصطنعة لأن الإمبريالية الغربية هى التى رسمتها ، إلا أن حكومات تلك الدول تبنت مواقف متباينة وسلك كل منها نهجاً مختلفاً.

وكانت القضية الفلسطينية هى القضية المحورية التى بدا أنها تجمع بين العرب جميعاً وبعد أن أبادت المحرقة النازية (Holocaust) معظم يهود أوروبا ، راحوا يبحثون عن ملاذ آمن لهم ، ولكن الأغلبية من السكان العرب فى فلسطين كانت تخشى تدفق اللاجئين من اليهود و الذين من المؤكد أنهم سيطالبون بإقامة دولة لهم على حساب الفلسطينيين . وبينما واصلت بريطانيا فرض قيود الهجرة اليهودية وفقًا لما ورد فى الكتاب الأبيض الذى أصدرته فى عام ١٩٣٩ ، لجأ البعض من اليهود إلى الإرهاب والقيام ببعض عمليات إرهابية . ونتيجة لهذا ، صارت الحكومة البريطانية أكثر عداءً للصهيونية وللاستيطان اليهودى ، مما أدى إلى تصاعد حدة القتال بين اليهود ، والعرب، والقوات البريطانية .

وفى عام ١٩٤٧ ، أعلنت بريطانيا أنها لم تعد قادرة على الاستمرار فى حكم الانتداب على فلسطين وأحالت القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة . وشكلت الأمم المتحدة لجنة خاصة زارت فلسطين للتحقيق فى المشكلة وأوصت بتقسيم أراضيها إلى

سبعة أجزاء ، ثلاثة لليهود ، وثلاثة للعرب ، على أن تكون كل من القدس وبيت لحم منطقة مستقلة تحت سيطرة الأمم المتحدة . بيد أن الدول العربية عارضت خطة التقسيم هذه ، والتى أعطت أكثر من نصف أراضى فلسطين لليهود الذين كانوا يشكلون ثلث السكان فقط ويملكون عشرة فى المائة من المساحة الإجمالية للأراضى الفلسطينية. ومع هذا ، صوت أكثر من ثلثى أعضاء الجمعية العامة للأمم المتحدة بالموافقة على خطة التقسيم ، وأصدرت الأمم المتحدة قرار التقسيم رقم ١٨١ بعد أن تمت الموافقة عليه .

وعلى الرغم من تهديدات مصر، والعراق ، والدول العربية الأخرى بالتدخل عسكريا ضد تقسيم فلسطين ، كانت القوات البريطانية تستعد للانسحاب من فلسطين ، واجتمعت الأمم المتحدة لبحث كيفية استعادة النظام هناك . وفى ١٤ مايو من عام ١٩٤٨ ، عندما غادرت القوات البريطانية القدس ، اجتمعت الوكالة اليهودية فى تل أبيب لإعلان دولة إسرائيل المستقلة داخل الأراضى التى كان يسيطر عليها اليهود . واعترفت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى السابق بالدولة اليهودية ، على الرغم من إرسال الدول العربية جيوشها لتدمير هذه الدولة .

والحقيقة أن قيام دولة إسرائيل كان بمثابة حدث ثورى مفاجئ بالنسبة لليهود وللعرب على حد سواء ، إذ إنه لم يكن هنالك أى وجود لدولة يهودية طيلة آلاف من السنين ، أما الآن فقد صارت مثل هذه الدول موجودة بالفعل فى جيب صغير فى منطقة تقطنها أغلبية من السكان العرب . ولم تستطع جيوش مصر ، والعراق ، وسوريا، ولبنان ، والأردن استعادة فلسطين من اليهود . ولاذ معظم السكان الفلسطينيين بالفرار إلى الدول المجاورة ، وذلك إما لأنهم فقدوا الأمل فى أن تستعيد الجيوش العربية فلسطين وإما لأنهم كانوا يخشون الطرد من أراضيهم على أيدى الإسرائيليين . ونتيجة لهذا، ظهرت مشكلة إنسانية تجسدت فى تشريد أكثر من نصف مليون لاجئ فلسطينى والذين استقروا فى مخيمات أقيمت لهم إما فى الضفة الغربية أو قطاع غزة ، واللتين لم تستولى عليهما إسرائيل ، أو فى الدول المجاورة ، وعلى الأخص سوريا ولبنان والأردن . ورفض اللاجئون الفلسطينيون الاندماج مع سكان الدول العربية وطالبوا بحقهم فى العودة إلى ديارهم . وعرضت إسرائيل السماح بعودة جزء من هؤلاء اللاجئين ، ولكن فى إطار تسوية سلمية مع العرب . ورغم أن الدول العربية وقعت اتفاقيات هدنة منفصلة مع إسرائيل ، إلا أنها رفضت الاعتراف

بالدولة اليهودية. ومن جانبها ، أعلنت إسرائيل أنه من حق جميع الإسرائيليين المجيء إلى الدولة اليهودية ليصبحوا مواطنين إسرائيليين ، وهكذا استقبلت الناجين من المحرقة النازية ضد اليهود، وأعطت الملاذ لليهود القادمين إليها من الدول العربية.

التغييرات السياسية فى الدول العربية :

كانت الهزيمة المريرة التى لحقت بالجيوش العربية فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ – ١٩٤٩ أحد الأسباب الرئيسية وراء سلسلة الانقلابات العسكرية التى ابتليت بها بعض الدول العربية ، والتى شهدت ثلاث ثورات متعاقبة . وأُطيح بالأنظمة الملكية العربية فى مصر عام ١٩٥٢ ، والعراق عام ١٩٥٨ ، واليمن عام ١٩٦٢ ، وليبيا عام ١٩٦٩ . وربما كانت الحاجة إلى قدر أكبر من المشاركة الشعبية وإلى توزيع أكثر عدلاً لثروات البلاد ومواردها السبب الجوهرى وراء اندلاع هذه الثورات وليست القضية الفلسطينية بحد ذاتها ، وإن كان الحال آنذاك يميل إلى تشكيل حكومة من ضباط الجيش الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة والذين لديهم التزام شديد بعملية الإصلاح الاجتماعى . وكان وجود اللاجئين الفلسطينيين فى العديد من الدول العربية تذكرة للعرب بفشل نظمهم القديمة فى حمايتهم والدفاع عنهم ضد الصهيونية والإمبريالية . ومع أن الفلسطينيين أنفسهم كانوا يفتقرون إلى المزايا الاقتصادية والحقوق السياسية التى يتمتع بها سكان الدول العربية التى استضافتهم على أراضيها ، إلا أنهم أصبحوا أكثر إقبالاً على التعليم وارتفعت نسبة المتعلمين بينهم وصاروا أكثر انخراطاً بشئون السياسة أكثر من غيرهم . ولم يتوقفوا أبداً عن دعوة الحكومات العربية إلى الحرب ضد إسرائيل لاستعادة حقوقهم الشرعية وأراضيهم المحتلة .

وتبنت الأنظمة العربية الثورية الاشتراكية ، وهو نظام سياسى يقف على الحياد ما بين شيوعية الجمهوريات الاشتراكية للاتحاد السوفيتى السابق ورأسمالية الغرب ، كما تبنت هذه الأنظمة الدعوة إلى وحدة العرب جميعاً . وكان من أبرز المدافعين عن هذه السياسات الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر . وكان ناصر هو العقل المدبر وراء ثورة الضباط الأحرار التى أطاحت بحكم الملك فاروق الفاسد فى عام ١٩٥٢ ، وهى الثورة التى بدأ بعدها نجمه يرتفع تدريجياً باعتباره بطلاً قومياً للعرب . ودخل ناصر فى مفاوضات لتوقيع اتفاقية جديدة مع بريطانيا جرى توقيعها فى عام ١٩٥٤

وعرفت باتفاقية الجلاء والتى تم بموجبها جلاء البريطانيين عن قناة السويس ، وتخلى مصر عن مطالبها إزاء السودان ، الأمر الذى أدى إلى أن يحقق الحكم الإنجليزى المصرى المشترك الاستقلال للبلاد فى عام ١٩٥٦ .

وقاوم ناصر الجهود الغربية الرامية إلى استدراجه لتحالف مناهض للشيوعية فى عام ١٩٥٥ ، ولكنه وافق بدلاً من ذلك على شراء أسلحة قيمتها ٢٠٠ مليون دولار من الكتلة السوفيتية ، وهى الخطوة التى أثارت المخاوف الغربية حيال المد الشيوعى فى العالم العربى . وعرضت الحكومة الأمريكية ، بالتعاون والتنسيق مع بريطانيا والبنك الدولى ، على مصر الحصول على القرض اللازم لبناء سد جديد بالقرب من أسوان والذى سيؤدى إلى التحكم فى مياه الفيضانات من نهر النيل ويساعد إلى حد كبير فى زيادة رقعة الأرض الزراعية فى مصر وفى توليد الطاقة الكهربائية ، بيد أنها تراجعت فيما بعد عن هذا العرض عقاباً لناصر على انتهاجه سياسات موالية للشيوعية. وجاء الرد من ناصر سريعًا وقوياً فى يوليو عام ١٩٥٦ بإعلانه قراره التاريخى بتأميم شركة قناة السويس البحرية . ورفضت الحكومتان البريطانية والفرنسية قرار التأميم والاستيلاء على شركة قناة السويس فتآمرتا مع إسرائيل على شن عدوان على مصر . ورغم أن الدول التى شاركت فى العدوان الثلاثى على مصر نجحت فى استعادة قناة السويس ، إلا أنها فوجئت بمعارضة شديدة من جميع الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة تقريباً . وهكذا ، اضطرت الدول الثلاث إلى سحب قواتها من القناة وبرز ناصر كبطل قومى عربى خلال هذه المواجهة مع الغرب .

وفى أوائل عام ١٩٥٨ ، رضخت مصر لمطلب سوريا بشأن إقامة اتحاد يضم الدولتين ، والذى أطلق عليه الجمهورية العربية المتحدة . وكان العديد من القوميين العرب يأملون فى انضمام الدول العربية الأخرى إلى هذا الكيان السياسى الجديد . وبدلاً من ذلك ، فضلت الأردن والعراق تشكيل اتحاد فيدرالى بينهما ، والذى ظهر إلى حيز الوجود فيما بعد عندما تمت الإطاحة بالنظام الملكى فى العراق . وتفجرت حرب أهلية فى لبنان بين القوميين العرب (غالبيتهم من المسلمين) والذين سعوا لتوثيق العلاقات مع الجمهورية العربية المتحدة، والطائفيين اللبنانيين (غالبيتهم من المسيحيين) والذين كانوا يريدون الاستقلال عن العرب . وإزاء ذلك ، احتلت الولايات المتحدة لبنان فى يوليو عام ١٩٥٨ وساعدت فى استعادة السلام هناك .

وبدا أن الاتجاه آنذاك كان يميل إلى تحقيق العروبة الشاملة ففى الوقت الذى اتحدت فيه اليمن مع الجمهورية العربية المتحدة ، استولى الجيش على السلطة فى السودان ، واستبدلت السعودية ملكاً ضعيفاً بشقيقه الذى ساد الاعتقاد بأنه مؤيد لناصر ولسياساته . ولم تكن الوحدة العربية قوية وفعالة فى أواخر الخمسينيات فحسب، وإنما حذت العديد من الحكومات العربية أيضاً حذو ناصر فى إعادة توزيع مساحات شاسعة من الأراضى على طبقة الفلاحين التى لم تكن تملك أرضًا ، بل وقامت هذه الحكومات بتأميم شركات كانت مملوكة للأجانب أو لرأسماليين محليين ، والتوسع فى التعليم العام ومؤسسات الرفاهة الاجتماعية . وكان الشعار السائد فى ذلك الوقت هو الاشتراكية العربية . إذ كان يحدو العرب الأمل فى استعادة مجدهم الغابر ، من خلال اتحادهم ، والعمل على تجنب الكتلتين المتنافستين فى الحرب الباردة ، والإسراع فى عملية التحديث ، وإقامة مجتمع عربى يسوده العدل والمساواة .

وشأن الحال فى باقى العالم العربى ، نالت دول شمال أفريقيا استقلالها الواحدة تلو الأخرى . وكانت ليبيا ، التى خضعت لحكم إيطاليا حتى الحرب العالمية الثانية ، أول دولة تحصل على استقلالها فى عام ١٩٥١ . وأعلنت فرنسا انتهاء احتلالها لكل من تونس والمغرب فى عام ١٩٥٤ . وكان ما يربو على المليون من المستوطنين الأوروبيين يريدون بقاء الجزائر جزءاً من فرنسا ، بيد أن الأمة الفرنسية بأسرها كانت قد ضاقت ذرعاً بالحروب المستمرة فى المستعمرات الفرنسية خارج بلادها ، ومن ثم منح الرئيس الفرنسى شارل ديجول الجزائر استقلالها فى عام ١٩٦١ . وسارع زعماء الجزائر الجدد بإعلان تأييدهم لناصر والقومية العربية .

المحور الشمالى :

ما سبقت الإشارة فى المقدمة ، ليست كل الدول التى تضمها منطقة الشرق الأوسط عربية. فرغم أن أغلبية من السكان المسلمين تعيش فى تركيا وإيران ، إلا أن هاتين الدولتين تفخران بثقافتيهما وتراثيهما المتميزين . ونجحت الدولتان كلتاهما أيضاً فى التصدى بقوة للنفوذ البريطانى واحتفظتا باستقلالهما بعد الحرب العالمية الأولى . ولأن كلتيهما تشتركان فى حدودهما مع الاتحاد السوفيتى السابق ، كان يتعين عليهما تحقيق التوافق والوئام معه . ورغم أن السوفيت ساعدوا الأتراك فى مقاومة اليونانيين والبريطانيين خلال فترة ظهور مصطفى كمال أتاتورك فى العشرينيات ،

استأنف الأتراك السياسة العثمانية فى معارضة الإمبريالية السوفيتية . ونجح عصمت أونونو ، الذى خلف أتاتورك فى الرئاسة ، فى إبعاد تركيا عن ساحة الحرب العالمية الثانية ، ومنع قوات الحلفاء من استخدام المضايق لإرسال الإمدادات إلى الاتحاد السوفيتى السابق . وأدى طلب ستالين بعد الحرب بشأن ضرورة تمركز قوات سوفيتية فى مضايق البوسفور والدردنيل إلى أن تعلن الولايات المتحدة مساندتها لتركيا فى عام١٩٤٧ من خلال ما عرف بمبدأ ترومان ،والذى كان أول التزام يصدر من جانب الولايات المتحدة فى زمن السلم بمد يد العون لدولة تقع فى نصف الكرة الشرقى .

وبحلول عام ١٩٥٢ ، كانت تركيا قد انضمت إلى منظمة حلف شمال الأطلسى (ناتو) وأرسلت قواتها إلى كوريا الجنوبية للدفاع عنها ضد الشيوعيين . بل إن حكومة أونونو سمحت بتشكيل حزب سياسى منافس وأطاحت به بعد ذلك فى عام ١٩٥٠ . وواصلت تركيا تحديث اقتصادها ومجتمعها ، بيد أن تاريخها الحديث اتسم بالانقلابات العسكرية والتحديات من جانب القوى الماركسية ، والإسلامية ، والانفصاليين الأكراد. وتظل تركيا بمثابة الجسر الذى يربط بين الغرب و الشرق الأوسط ، كما أنها قد صارت حلقة الوصل بين الجمهوريات السوفيتية السابقة فى آسيا الوسطى .

وكان يتعين على إيران أيضًا أن تطور سياسة محددة تجاه الاتحاد السوفيتى السابق. ورغم أن الدولتين وقعتا اتفاقية فى عام ١٩٢٣ والتى سمحت للقوات السوفيتية بدخول إيران فى أى وقت تتعرض فيه للغزو من قبل قوات معادية للاتحاد السوفيتى ، فإن حكومة رضا شاه سعت للحد من النفوذ السوفيتى . وفى الثلاثينيات ، توثقت علاقات إيران مع ألمانيا النازية ، والتى كانت مبادئها وشعاراتها بشأن تفوق الجنس الآرى تلقى صداها فى نفوس الإيرانيين والذين وجدوا فى ذلك وسيلة ملائمة لمحاربة السيطرة الإنجليزية – الروسية . ولكن عندما غزت القوات النازية الاتحاد السوفيتى السابق فى عام ١٩٤١ ، طالبت الحكومتان البريطانية والسوفيتية بطرد المستشارين الألمان من إيران وأحكمتا سيطرتهما على خط السكة الحديد عبر إيران لنقل أسلحة غربية إلى السوفيت المحاصرين . وتنازل رضا عن العرش لابنه محمد وغادر إيران إلى منفاه .

وفى نهاية الحرب ، رحلت القوات البريطانية عن إيران ، غير أن السوفيت حاولوا تشكيل أنظمة حكم صورية تدين بالولاء لهم فى كل من كردستان وأذربيجان . واستلزم الأمر صدور إدانة عامة من الأمم المتحدة ، وتهديدات أمريكية ، ودبلوماسية إيرانية ماهرة لإرغام الجيش السوفيتى على الانسحاب . ومع ذلك ، واصلت بريطانيا إحكام سيطرتها على مصادر البترول فى إيران ، وفى عام ١٩٥١ ، استولت حكومة قومية برئاسة محمد مصدق على شركة البترول الإنجليزية - الإيرانية . وكان القوميون الإيرانيون يعتزون بأنفسهم إلى حد كبير ، ولكن الدول الغربية أيدت بريطانيا وساندتها برفضها شراء البترول من إيران . وفى عام ١٩٥٣ ، أطاح انقلاب عسكرى دبرته أجهزة المخابرات الأمريكية والبريطانية بحكومة مصدق . وأعيد الشاه ، الذى كان قد فر من البلاد بسبب الانقلاب ، إلى السلطة على يد الجيش . وبدأ الشاه اتباع سياسة جديدة تمثلت فى تركيز السلطة كلها فى يده على حساب أصحاب الأراضى من الإيرانيين ، والتجار ، والعلماء . كما وقع معاهدة تحالف لمناهضة الشيوعية مع تركيا، وباكستان ، وبريطانيا ، والعراق . ورأت بريطانيا والولايات المتحدة فى إيران ، وتركيا وباكستان حصناً واقياً ضد زحف سوفيتى محتمل نحو منطقة الخليج الغنية بالنفط . وباع الغرب كميات هائلة من الأسلحة إلى هذه الدول ، بيد أن المتشككين ظلوا يتساءلون عما إذا كانت تلك الأسلحة سوف تستخدم فقط للحفاظ على أنظمة الحكم فى تلك الدول .

احتدام الصراع العربى - الإسرائيلى :

فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات ، بدا وكأن صراع إسرائيل مع الدول العربية المجاورة أخذ يخبو فى الوقت الذى حاولت فيه هذه الدول الاتحاد وناضل زعماؤها من أجل بقائهم فى السلطة . وسرعان ما انهارت الجمهورية العربية المتحدة عندما أعلنت سوريا إلغاء الوحدة مع مصر فى عام ١٩٦١ . وفى أوائل عام ١٩٦٣ ، استولت حركة قومية شعبية ، وهى حزب البعث ، والذى أعلن التزامه بالوحدة العربية والاشتراكية ، على السلطة فى كل من سوريا والعراق . وحاول حزب البعث إقامة اتحاد عربى جديد مع مصر ، ولكن المحادثات فى هذا الصدد انهارت بسرعة وفى الحال ، تفجر نزاع بين سوريا والعراق . وأطاح انقلاب عسكرى قام به الجيش بالحكم الملكى فى اليمن فى عام ١٩٦٢ ، بيد أن النظام الجمهورى الجديد هناك كان بحاجة

إلى مساعدة قوات عسكرية مصرية لكى يضمن استمراره فى السلطة . وبدأت المملكة العربية السعودية فى مساندة القبائل الموالية للإمام المخلوع ، الأمر الذى أدى إلى اندلاع حرب أهلية فى اليمن .

وكان الدافع الرئيسى وراء اتحاد العرب معًا والتئام شملهم من جديد هو انتهاء إسرائيل من مشروع تنموى واسع النطاق والذى أتاح لها فرصة الحصول على كميات كبيرة من المياه من نهر الأردن لرى أراض زراعية جديدة داخل الدولة اليهودية . وفى بداية عام ١٩٦٤ ، دعا ناصر زعماء الدول العربية الأخرى للحضور إلى القاهرة لمناقشة السبل الكفيلة بالتصدى إلى هذا المشروع الإسرائيلى ، والذى من شأنه حرمان الأردن ودول عربية أخرى من المياه اللازمة لمشروعات الرى فيها . وهكذا اتفق الزعماء العرب على القيام بإجراء مستقبلى ضد إسرائيل وأعلنوا تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية من أجل توحيد العرب الفلسطينيين سياسيًا . وفى الوقت نفسه ، شنت حركة فتح ، التى كان يقودها مهندس فلسطينى يدعى ياسر عرفات ، غارات داخل إسرائيل. ورغم أن سوريا هى التى كانت تحرض على هذه الهجمات ، إلا أنها كانت تأتى من الضفة الغربية التى كانت خاضعة لسيطرة الأردن . وفى محاولة لردع تلك الغارات ، شن الجيش الإسرائيلى هجمات مضادة على قرى الضفة الغربية فى أواخر عام ١٩٦٦ ، على الرغم من أن العديد من الإسرائيليين كانوا يريدون معاقبة سوريا .

ونشبت معركة جوية بين إسرائيل وسوريا فى أبريل ١٩٦٧ . وأقنع الاتحاد السوفيتى السابق مصر بأن إسرائيل تحشد قواتها استعداداً لشن هجوم على سوريا . ومن جانبه ، فإن ناصر ، الذى كان يتوق إلى إثبات أن مصر مازالت المدافعة عن القومية العربية ، أمر الأمم المتحدة بسحب قواتها لحفظ السلام والتى كانت تتمركز فى سيناء وفى منطقة الحدود الإسرائيلية المصرية منذ حرب عام ١٩٦٧ . وبينما قامت إسرائيل بتعبئة قواتها الاحتياطية ، أعلنت مصر إغلاق خليج العقبة أمام السفن الإسرائيلية . وتدهور الموقف وهددت الحكومات العربية ، والصحف والإذاعات العربية ، وكافة الشعوب العربية بتدمير إسرائيل وإعادة الفلسطينيين إلى ديارهم .

وعلى الرغم من أن الكثيرين فى الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية أيدوا إسرائيل ، فإن حكوماتهم كانت تريد تفادى نشوب حرب بإحالة النزاع إلى الأمم المتحدة. وقرر الإسرائيليون ، والذين كانوا يخشون تعرضهم لهجوم من العرب ،

توجيه ضربة وقائية . وفى ٥ يونيو ١٩٦٧ ، هاجمت الطائرات المقاتلة الإسرائيلية القواعد الجوية والمطارات العسكرية فى مصر ودمرت معظم القوة الجوية المصرية . وقبل أن يتمكن العرب من الرد على هذه الضربات ، قصفت المقاتلات الإسرائيلية القوات الجوية فى الدول العربية الأخرى . واحتلت القوات الإسرائيلية صحراء سيناء المصرية، والقطاع الذى تسيطر عليه الأردن فى القدس والضفة الغربية ، وأخيراً مرتفعات الجولان السورية . وفى غضون ستة أيام فقط ، ألحقت إسرائيل الهزيمة بمصر ، والأردن ، وسوريا . ومع أن الدول العربية وافقت على اتفاقيات وقف إطلاق النار التى توسطت فيها الأمم المتحدة إلا أنها رفضت الدخول فى مفاوضات سلام مع إسرائيل . وفى مؤتمر القمة العربية الذى عقد فى الخرطوم بالسودان ، اتفق الزعماء العرب على عدم التفاوض مع إسرائيل ، وعلى إعادة تسليح قواتهم المسلحة لاسترداد أراضيهم المحتلة بالقوة . وحاولت منظمة التحرير الفلسطينية دون جدوى تعبئة الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، الذين كان عددهم يربو على المليون نسمة تحت الاحتلال الإسرائيلى ، وحثهم على الثورة والتمرد . وبعد مداولات ومناقشات دامت خمسة أشهر، أصدر مجلس الأمن الدولى قراره رقم ٢٤٢ الذى تمت الموافقة عليه بالإجماع والذى دعا فيه إسرائيل إلى الانسحاب من أراض احتلتها فى حربها الأخيرة ، ولكن القرار أمر أيضاً جميع دول المنطقة بالاعتراف «بحق كل دولة فى المنطقة» فى الوجود والعيش «داخل حدود آمنة ومعترف بها» . ومع أن إسرائيل ، ومصر ، والأردن، وسوريا ، وكلها من الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة ، كانت ملتزمة بمقتضى ميثاق الأمم المتحدة بقبول قرارات مجلس الأمن الدولى ، إلا أن كل واحدة من هذه الدول كان لها تفسيرها الخاص لهذا القرار والذى قد أيدته جميع الدول العربية تأييداً كلامياً فقط منذ عام ١٩٦٧ . إذ إن القرار رقم ٢٤٢ لم يتضمن أية إشارة إلى الفلسطينيين ، والذين شعروا أنه لا القوى الكبرى ولا الحكومات العربية كانت تكترث فعلاً بهم وتولى اهتماماً لمصالحهم .

وبعد عام ١٩٦٧ ، أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية ، بقيادة ياسر عرفات ، منظمة سرية للمقاومة الفلسطينية . وصار العديد من الفلسطينيين المنتمين إلى هذه المنظمة مقاتلين ولجأوا إلى أعمال العنف ليس ضد إسرائيل فقط ، ولكن ضد أى من الحكومات العربية التى تتعاون مع الغرب ، ولا سيما الأردن ولبنان . وبدا أن

جماعات المقاومة الفلسطينية أكثر فاعلية فى تصديها لإسرائيل مما كان عليه الحال بالنسبة للجيوش المصرية ، والسورية ، والأردنية فى حرب عام ١٩٦٧ . وأدت الحروب الدعائية التى شنتها إسرائيل ضد الإرهاب العربى إلى تأييد الرأى العام العربى كله ومساندته القوية لمنظمة التحرير الفلسطينية .

ولجأ ناصر إلى شن ما عرف آنذاك بحرب الاستنزاف فى عام ١٩٦٩ ضد القوات الإسرائيلية فى سيناء فى محاولة ، وإلى حد ما ، للتصدى للمزاعم الفلسطينية بشأن القيادة العسكرية فى المواجهة مع إسرائيل . وأرغمت الهجمات المضادة لإسرائيل مصر على اللجوء إلى الاتحاد السوفيتى لطلب المزيد من المعونات العسكرية ، وسرعان ما اندلعت معارك جوية بين الجانبين فوق قناة السويس . ونتيجة لهذا ، طرح وزير الخارجية الأمريكى آنذاك ، وليام روجرز ، خطة سلام تقضى بوقف حرب الاستنزاف والبدء فى محادثات مباشرة تؤدى إلى تسوية سلمية بين مصر وإسرائيل على أساس قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ . ووافق ناصر على خطة روجرز للسلام ولكنه خرق هذه الخطة بشكل غير مباشر حين عمد إلى تحريك صواريخ سوفيتية إلى قواعد بالقرب من قناة السويس . فى الوقت نفسه ، هدد رجال المقاومة الفلسطينيون بالاستيلاء على الأردن ، ولكن الجيش الأردنى ، الموالى للملك حسين ، قام بسحق الفلسطينيين . وأصيب ناصر بأزمة قلبية مفاجئة أودت بحياته فى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ بعد الجهود المضنية التى بذلها لتحقيق المصالحة بين العرب . وأثارت الجنازة المهيبة التى أقيمت لناصر موجة عارمة من مظاهرات الحزن فى أرجاء العالم العربى بسبب مواقفه البطولية إزاء محاربة الإمبريالية الغربية . وتعهد أنور السادات ، خليفة ناصر ، بمواصلة سياساته فى لم شمل العرب وتوحيد صفوفهم ، والتصدى لإسرائيل ، وعدم الانحياز ، ومواصلة شراء الأسلحة من الكتلة الشرقية ، واتباع النهج الاشتراكى. ومع هذا ، تحول السادات فيما بعد إلى انتهاج سياسة تحرير الاقتصاد المصرى ، والانفتاح الاقتصادى ، وطرد معظم الخبراء السوفيت من مصر عام ١٩٧١ .

وانهارت مبادرة روجرز للسلام فى عام ١٩٧١ من جراء رفض إسرائيل والعرب تقديم أية تنازلات ، وغالباً ما كان يهدد السادات باستئناف الحرب ضد إسرائيل ما لم تنسحب من سيناء وتعترف بالحقوق السياسية المشروعة للفلسطينيين . كما حاول إقامة

اتحاد وثيق مع سوريا ، وليبيا ، والسودان . غير أن تهديداته لم تفلح كما لم ينجح مشروعه للوحدة مع هذه الدول . ونفذت جماعات من قوات الكوماندوز الفلسطينية سلسلة من العمليات الفدائية ضد الإسرائيليين والأجانب ، على أمل إقناع إسرائيل والدول المؤيدة لها بأن الأراضى العربية التى احتلتها إسرائيل فى عام ١٩٦٧ سيتم استعادتها حتماً . وبينما تفاقمت الخلافات بين العرب ونأت مصر بنفسها عن مؤيديها السوفيت السابقين ، شعرت إسرائيل والدول التى ساندتها بالرضا.

بيد أن شعور إسرائيل بالارتياح والرضا لم يدم طويلاً وسرعان ما تبدد هذا الشعور فى ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ عندما شنت القوات المصرية والسورية هجوماً مباغتًا على المواقع الإسرائيلية فى سيناء وفى مرتفعات الجولان . ورغم أن الإسرائيليين لم يكونوا مستعدين بشكل جيد لهذا الهجوم المفاجئ ، إلا أنهم استدعوا جنود الاحتياط وأرسلوهم إلى جبهتى القتال مع سوريا ومصر . وفى الأسبوع الثانى من المعارك ، تمكنت إسرائيل من التصدى للقوات المصرية والسورية . وسارعت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى إلى إعادة تسليح عملائهما فى الشرق الأوسط وتزويدهم بالعتاد الحربى اللازم على نطاق واسع . وعندئذٍ قرر العرب استخدام سلاح اقتصادى فعال . ففى عام ١٩٦٠ ، قامت الدول غير الصناعية المنتجة للبترول بتأسيس منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) ، والتى حاولت الحد من إمدادات النفط وتحديد أسعار مشتركة . وقد بدأت منظمة أوبك التأثير فى سوق البترول العالمية فى عام ١٩٧١ ، ووجدت فى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ذريعة لرفع أسعارها بنسبة ٤٠٠ فى المائة . وأعلنت الدول العربية الأعضاء فى أوبك أنها لن تبيع بترولها إلى الولايات المتحدة وهولندا وأنها ستوقف إمداداتها النفطية إلى المستوردين من الدول الأخرى حتى تنسحب إسرائيل من كافة الأراضى العربية التى احتلتها وتعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى . وقد صار سلاح البترول العربى حيوياً ومهماً إلى الحد الذى دفع أوروبا واليابان والعديد من البلدان الأخرى إلى الوعد بتأييد ودعم القضية الفلسطينية لضمان حصولها على الإمدادات من النفط لموسم الشتاء . وتبنى مجلس الأمن الدولى القرارين رقمى ٣٣٨ و ٣٤٠ والداعيان إلى وقف إطلاق النار وإلى الشروع فوراً فى إجراء مفاوضات بين إسرائيل وجيرانها العرب .

ورغم ما يزعمه الإسرائيليون من أنهم خرجوا منتصرين عسكرياً من حرب أكتوبر، إلا أن العديد من حكومات ودول العالم انقلبت ضدهم مما جعلهم يشعرون أنهم خسروا الحرب سياسياً . وسعى وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر إلى فض الاشتباك بين الجيشين المصرى والإسرائيلي وإلى عقد مؤتمر عام للسلام والذى انعقد بالفعل لفترة وجيزة فى جنيف ديسمبر عام ١٩٧٣ . وبدأ كيسنجر رحلاته المكوكية بين القاهرة والقدس حيث عقد سلسلة من اللقاءات والاجتماعات المنفردة مع الزعماء المصريين والإسرائيليين . وفى نهاية المطاف ، وافق هؤلاء الزعماء على الفصل بين الجيشين الإسرائيلي والمصرى من خلال إقامة مناطق منزوعة السلاح فيما بينهما ، وبعد ذلك خفت التوترات وانتهى الحظر البترولى الذى أعلنه العرب . وتوصل كيسنجر إلى اتفاق مماثل بين سوريا وإسرائيل . وثمة قاسم مشترك جمع بين هذين الاتفاقين وهو أن الدول العربية استعادت بعض الأراضى التى كانت إسرائيل قد استولت عليها فى عام ١٩٦٧ أو عام ١٩٧٣ ، ولكن الجانبين اتخذا خطوات كان من المأمول أن تفضى إلى إجراء محادثات للسلام بينهما فى المستقبل .

وأدى توقيع اتفاقية ثنائية بين مصر وإسرائيل فى عام ١٩٧٥ ، والتى توسط فيها أيضاً هنرى كيسنجر ، إلى المزيد من الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى المحتلة وإلى إعلان مصر عدم اللجوء إلى القوة لتسوية النزاع العربى – الإسرائيلى . وأعرب الجانبان عن تخوفهما إزاء الاتفاقيات السياسية : إذ قد يعرض الإسرائيليون أمنهم للخطر من خلال تقديم الكثير من التنازلات إلى العرب ، كما أن مصر ، وسوريا لم تريدا أن ينظر إليهما العرب الآخرون ، وعلى الأخص الفلسطينيين ، باعتبارهما دولتين خانتا القضية العربية . وفى عام ١٩٧٤ ، وافق العرب على أن منظمة التحرير الفلسطينية وحدها هى التى لديها الحق فى التحدث باسم فلسطين ، غير أن إسرائيل رفضت التحاور مع ما كانت تعتبرها جماعة إرهابية . وعندما فازت حكومة ائتلافية يمينية متطرفة ، بزعامة الإرهابى السابق مناحيم بيجن (الذى لعب دوراً فعالاً فى جماعة أرجون تسفاى ليومى شبه العسكرية السرية) فى الانتخابات العامة التى أجريت فى إسرائيل عام ١٩٧٧ ، بدا وكأن البلاد مقبلة على صدام مؤكد ومجابهة حتمية مع العرب. وفى هذه الأثناء ، أعرب الرئيس الأمريكى جيمى كارتر عن استعداده للانضمام إلى جهود الاتحاد السوفيتى فى استئناف مؤتمر جنيف مع

مـشـاركـة ممثلين فلسطينيـيـن فـى المحـادثـات الجـديـدة ، وهـو الأمـر الـذى أثار انزعاج إسرائيل .

وفى ذلك الوقت ، فاجـأ الرئيس المصـرى أنور السـادات العـالم كله حين أعلن أنه مستعد للذهاب إلى القدس لإجراء محادثات سلام مباشرة مع حكومة إسرائيل . ورغم أن أحدا لم يصدقـه فى البـداية ، فإن بيـجن وافق أخـيراً على استـقبـال السـادات فى القدس، وبدأت عملية سلام جديدة ، أدت إلى وساطة الولايات المتحدة ، وأفضت فى النهـاية إلى عـقد قـمة طـارئة تاريخـية فى منتـجع كـامب ديفيد بالولايات المتـحدة بحضور الرئيس كارتر باعتباره مضيفاً والسادات و بيجن كمفاوضين رئيسيين . وتم التوصل إلى اتفاقية سلام مؤقتة بين مصر وإسرائيل ، والتى وقع عليها الزعماء الثلاثة فى سبتمبر عام ١٩٧٨ . وبعد أن قام دبلومـاسيون من الجانبين بوضع التفاصيل ، تم التوقيع على معاهدة سلام نهائية بين مصر وإسرائيل فى مارس عام ١٩٧٩ . ونصت المعاهدة على انسحـاب إسرائيل على مراحل من سيناء ، وإقامـة عـلاقـات دبلوماسيـة كاملة بين القاهرة والقدس ، وعلى استمرار المفاوضات حول وضع الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحـتلال الإسرائيلى . وأعلنت الدول العربيـة الأخرى ، وأيضاً منظمـة التـحرير الـفلسطينية ، رفضـهـا لسياسات السادات ، وقطعت علاقاتها الدبلومـاسية مع مصر ، وتعهدت بالاستمرار فى معارضتها لإسرائيل .

الثورة الإسلامية فى إيران :

فى الوقت الذى كـان يراقب فيه العرب محـادثات السلام المصرية – الإسرائيلية ، اندلعت ثورة فى إيران ضد حكومة محمد رضا بهلوى والذى حكم إيران لما يقرب من سبعة وثلاثين عـامًا . وكـانت الولايات المتـحدة ومعظم الدول الأوروبيـة قد ساندت، ولفتـرة طويلة ، حكم الشاه بـاعـتبـاره حصنـهـا الواقى فى مـواجـهـة التـوسع السوفـيتى والقـومـية العـربيـة ، حـيث باعت لإيران مـا قـيـمتـه مليارات الدولارات من الأسلحـة الغربيـة . وأدى ارتفـاع دخل الفرد فى إيران والذى نشأ عن ارتفـاع أسعـار البـترول فى عـام ١٩٧٣ إلى جذب العديد من المستـثـمـرين الأمـريكيين والأوروبـيين إلى إيران ، حيث أعلن الشاه تنفيذ مشروعـات عـمـلاقـة لتطوير البلاد . وقد أعطت هذه الخطط والمشروعـات قـدراً قليـلاً من الاهتـمـام لما كـان يريده الإيرانيـون أو يحـتـاجـونه . إذ

تركزت تلك المشروعات على مجالات غير مهمة بدلاً من تركيزها على الاحتياجات الأساسية للسكان فى القرى النائية حيث يعيش معظم الإيرانيين أو فى المصانع أو المزارع حيث يعمل معظمهم . ولم يكترث نظام شاه بأية معارضة لسياساته لأنه أنشأ جهاز استخبارات ضخم عرف اختصاراً باسم السافاك (SAVAK) للتجسس على المعارضين والمنشقين وسجنهم وتعذيبهم .

وجاءت المعارضة لنظام الشاه من القوميين الذين كانوا قد ساندوا حكومة مصدق خلال الفترة من ١٩٥١ إلى ١٩٥٣ ، وزعماء نقابات العمال ، والماركسيين ، والمفكرين ، والطلبة . ولم يكن أى من هذه الجماعات من القوة بما يكفى للصمود أمام التهديدات بالسجن ، والتعذيب ، أو حتى الموت على أيدى عملاء السافاك . غير أن أقوى جماعات المعارضة تنظيماً وأكثرها شعبية كانت تتمثل فى الزعماء المسلمين ، وذلك إلى حد ما لأن إيران دولة شيعية ويمنح مذهبها الشيعى العلماء وكبار رجال الدين الصلاحية والسلطة لإعطاء تفسيرات جديدة للأحكام والقوانين الإسلامية . وكان من أبرز هؤلاء العلماء وأكثرهم شعبية أية الله روح الله خومينى ، والذى شن فى خطبه الدينية وكتاباته هجوماً حاداً على نظام الشاه وانتقد بشدة التدخل الأمريكى فى شئون إيران . وبعد نفيه من إيران فى عام ١٩٦٤ ، واصل الخومينى إثارة المعارضة ضد نظام الشاه من منفاه بالعراق ومن باريس فيما بعد . وكان يتم تهريب خطبه الدينية سراً إلى داخل إيران حيث أقبل عليها الإيرانيون وحرصوا على تداولها ، بل إن بعض هذه الخطب كان يذاع فى المساجد .

وأدى الهجوم على الخومينى فى الصحف الإيرانية إلى إطلاق الشرارة الأولى لمظاهرات شعبية عارمة تفجرت فى أوائل عام ١٩٧٨ ، وأفضت جهود الحكومة فى قمعها إلى إثارة المزيد من الاحتجاجات . وانقلبت أعداد متزايدة من كافة فئات وطوائف الشعب الإيرانى ضد حكومة الشاه وطالب هؤلاء بالحريات المدنية وحقوق الإنسان التى أيدها ودافع عنها الرئيس كارتر . بل إن كثيرين فى الولايات المتحدة تشككوا فى قدرة النظام الإيرانى على البقاء وكانوا يؤيدون الرأى القائل بأن تشكيل حكومة قومية هو السبيل الوحيد لاتحاد الشعب الإيرانى . ومن جانبه ، فإن الشاه ،

الذى أصيب بمرض السرطان وأصبح معزولاً عن الشعب عيّن رئيس وزراء قومى وغادر إيران فى يناير عام ١٩٧٩ ، وهو يتوقع أن يحظى بنفس القدر من الدعم الأمريكى الذى حصل عليه فى عام ١٩٥٣ . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث قط .

وقام الشعب الإيرانى ، الذى غمرته الفرحة برحيل الشاه ، بمظاهرات فى أنحاء البلاد تطالب بإعادة أية الله خومينى . وفى فبراير من العام نفسه ، سمحت الحكومة بعودة الخومينى ، وأعلن الجيش الإيرانى انشقاقه لينحاز إلى جانب الخومينى ، وقامت الحكومة بتسليم السلطة إلى زعماء الثورة الإسلامية . وتولت حكومة اعتنق أعضاؤها معتقدات وآراء كانت تتراوح ما بين الأفكار القومية والماركسية والإسلامية المتطرفة السلطة فى إيران بصورة مؤقتة ، وتشكلت على الفور لجان ثورية بدأت حملات اعتقال واسعة ضد عملاء السافاك ومؤيدى الشاه ، وقدمت العديد منهم إلى المحاكمة وسجنت وأعدمت عدداً كبيراً منهم . وأجرى استفتاء شعبى جاءت نتائجه مؤيدة لاقتراح الخومينى بأن تصبح إيران جمهورية إسلامية .

والحقيقة أن الثورة الإسلامية فى إيران كانت واحدة من نقاط التحول الجذرية فى تاريخ الشرق الأوسط الحديث . فقد أطاح نظام شعبى بحكومة كرست جهودها للإسراع فى تغريب إيران ورفع النظام الثورى الجديد شعاره بجعل الإسلام هو الأساس لسياساته والمرشد لاقتصاده ، وللمجتمع ، وللثقافة فى البلاد . ووعد النظام الجديد بتصدير نموذجه الثورى إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامى . وأحست إمارات الخليج، بما لديها من عائدات نفطية ضخمة وتفاوت كبير فى الثروات والدخول بين الأغنياء والفقراء ، بأنها باتت عرضة للخطر ، لاسيما وأن البعض من تلك الإمارات يعيش بها عدد كبير من السكان الشيعة . وأدى استيلاء مجموعة من الطلبة الثوريين الإيرانيين على مبنى السفارة الأمريكية فى طهران واحتجاز اثنين وخمسين من العاملين فيها كرهائن إلى إثارة غضب دول الغرب ، بيد أن هذا الحادث قد أتاح أيضاً الفرصة للمسلمين لانتقاد واشنطن والحكومات الغربية الأخرى التى كانت تعتبر معادية للإسلام .

ومنيت الجهود العسكرية والدبلوماسية الأمريكية لتأمين الإفراج عن الرهائن المحتجزين بالسفارة بالفشل الذريع . وفى ذلك الوقت ، وإدراكًا منها بحالة الضعف التى اعترت الولايات المتحدة بعد الثورة الإسلامية ، قامت القوات السوفيتية باحتلال

أفغانستان فى ديسمبر ١٩٧٩ . وبدا أن العدوان العسكرى بات أمراً دارجاً آنذاك حيث أعلن الرئيس العراقى صدام حسين رفضه معاهدة كان قد أبرمها مع حكومة شاه إيران عام ١٩٧٥ والتى تسمح لإيران بمشاركة العراق فى السيطرة على منطقة التقاء نهرى دجلة والفرات عند ممر شط العرب المائى . وتحول بعد ذلك إلى غزو إيران فى عام ١٩٨٠ . ولكن النزاع حول شط العرب كان مجرد ذريعة لعداوات أعمق فالعراق كان يراوده الأمل فى أن يحل محل مصر فى زعامة العالم العربى ، وأخذت إيران تدعو المسلمين فى كل مكان ، وخاصة الشيعة ، إلى الثورة على حكومتهم العلمانية واستبدالها بجمهوريات إسلامية . وهاجم العراق المقاطعة الجنوبية الغربية فى إيران ، التى يوجد بها معظم ثروات إيران النفطية وتقطنه أغلبية من السكان العرب والذين كان صدام حسين يأمل أن يكسب تأييدهم وأن يلتفوا حوله كزعيم للقومية العربية .

وفى بداية الحرب ، استطاع العراق تحقيق انتصارات عسكرية ضخمة ، ولكن الإيرانيون قد استجمعوا قواهم وصفوفهم وصدوا هجمات القوات العراقية واستعادوا فى النهاية أراضيهم المحتلة بل ونجحوا فى الاستيلاء على بعض الجزر الاستراتيجية بالقرب من مدينة البصرة ، ثانى أكبر المدن العراقية . ولم يحدث أن ثارت الأغلبية الشيعية فى العراق أو الأقلية العربية فى إيران ضد حكومتها ، ولكن كل من الدولتين أنفقت مبالغ طائلة على شراء الأسلحة وتكبدت خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات ، كما دمرت مصافى تكرير النفط فى الدولتين ، ناهيك عن المبانى السكنية ، والمتاجر، والمصانع ، والأسوأ من ذلك كله أن الجانبين بذلا قصارى جهدهما فى تجنيد المواطنين الذكور من مختلف الأعمار ، وحتى العمال الأجانب والصبية ، وأخذا يدفعان بهؤلاء إلى ساحة القتال ليحلوا محل آلاف الجنود الذين سقطوا ضحايا فى المعارك . ولجأت الدولتان ، وعلى الأخص العراق ، إلى شن هجمات صاروخية على المدن السكنية فى كل منها واستخدام الغاز السام ضد بعضهما البعض .

وسرعان ما أدركت إيران أنها سوف يتعين عليها إطلاق سراح رهائن السفارة الأمريكية لكى تكسب تأييد المجتمع الدولى فى حربها ضد العراق . وقام دبلوماسيون بدور الوساطة فى النزاع ونجحوا فى تأمين الإفراج عن الرهائن الاثنين والخمسين بعد أن أمضوا ٤٤٤ يوم فى الأسر . وبدا أن إدارة الرئيس رونالد ريجان تفضل العراق ولكنها باعت صواريخ وقطع غيار أمريكية إلى إيران مقابل الحصول على أموال سرية

يمكن استخدامها فيما بعد فى تمويل حركات التمرد المناهضة للشيوعية فى نيكاراجوا، وهو ما عرف فى ذلك الوقت بفضيحة إيرانجيت . وعندما أخذت إيران والعراق تهاجم ناقلات النفط لكل منهما فى الخليج فيما أطلق عليه آنذاك «حرب الناقلات» وحين شرعت الدولتان بعد ذلك فى قصف ناقلات للبترول التابعة للدول الأخرى ، لجأت الولايات المتحدة إلى استخدام ناقلات تحمل العلم الكويتى والتى كانت ترافقها سفنها الحربية . وفى عام ١٩٨٨ ، كادت الحرب أن تندلع بين الولايات المتحدة وإيران عندما رصد ضابط بالبحرية الأمريكية ، بطريق الخطأ ، طائرة ركاب إيرانية فقام بإسقاطها فوق الخليج معتقداً أنها طائرة حربية ، ولكن إيران أدركت أنه ما من دولة تقريباً ستؤيدها فى حربها ضد الولايات المتحدة . وأصدر مجلس الأمن قراره بوقف إطلاق النار بين الدولتين المتحاربتين . وأعلن العراق قبوله لقرار مجلس الأمن، وحذت إيران حذوه فى يوليو ١٩٨٨ .

بيد أنه كانت للثورة الإسلامية فى إيران العديد من العواقب والنتائج غير المباشرة التى تجاوزت نطاق الحرب مع العراق . ففى خلال الفترة الواقعة بين ١٩٧٩ و ١٩٨٧ ، أخذت إيران على عاتقها مسئولية دعم ومساندة الانتفاضات والثورات الشعبية فى شتى أرجاء العالم الإسلامى ، مستخدمة فى ذلك حزبها الجمهورى الإسلامى لتصدير الأفكار الثورية . وأقام المقاتلون الإيرانيون معسكرات تدريب للجماعات الثورية بدءاً من جبهة تحرير مورو الإسلامية فى الفلبين وانتهاءً بجبهة البوليساريو التى تقاتل ضد السيطرة المغربية على الصحراء الغربية . ولكن الشىء الذى كان ينطوى على أهمية خاصة هو مساعدة إيران للشيعة فى لبنان ، والذين برزوا على السطح فى الثمانينيات كلاعب رئيسى فى الحرب الأهلية اللبنانية .

لبنان : ساحة التنافس فى الشرق الأوسط :

منذ استقلاله ، قدم لبنان وجهاً واحداً إلى الغرب ، ألا وهو ذلك البلد الذى يتمتع بنظام ديمقراطى ، والذى يعد مجتمعاً حضرياً إلى حد كبير جعله يستحق وصف سويسرا الشرق الأوسط . وبالنسبة إلى العديد من سكانه ، والعرب الآخرين بالتأكيد ، كشف لبنان عن وجه آخر ، وهو ذلك الوجه لبلد به العديد من المزايا غير العادلة التى يتمتع بها المسيحيون على حساب المسلمين (السنّة والشيعة) والدروز . ففى الوقت الذى انتقل فيه المزيد من اللبنانيين إلى المدن ، حيث بدا التفاوت فى الثروات والنفوذ والسلطة واضحًا ، وبينما زادت النسبة المئوية للمسلمين من مجموع السكان مقارنة

بزيادة السكان المسيحيين ، ازداد الشعور بالاستياء والسخط . غير أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية تحسنت بعد الحرب الأهلية فى عام ١٩٥٨ ، حتى على الرغم من أن المسلمين اللبنانيين واللاجئين الفلسطينيين كانوا لا يزالون غير راضين عن أوضاعهم الاجتماعية . ونتيجة لهذا تفجرت المناوشات أحياناً بين المسيحيين والمسلمين، أو بين الفلسطينيين واللبنانيين . وفى العادة كانت تنتهى هذه المناوشات فى سلام وبهدوء ، ولكن فى عام ١٩٧٥ ، بدأت الميليشيات السنّية والمسلمة والمارونية المسيحية معارك ضارية فيما بينها ، وسرعان ما انضمت إليها منظمة التحرير الفلسطينية واندلعت حرب أهلية على نطاق واسع . وفى عام ١٩٧٦ ، دعت الحكومة اللبنانية القوات السورية إلى البلاد لمساعدتها فى قمع الميليشيات المسلمة والفلسطينية . ونجحت القوات السورية بالفعل فى مساندة الحكومة التى يسيطر عليها المسيحيون المارونيون فى عام ١٩٧٦ ، ولكن هذه القوات بقيت فى لبنان وتحولت فى الحال إلى جانب المسلمين . وفى أوائل عام ١٩٧٨ ، قامت القوات الإسرائيلية بغزو جنوب لبنان، وذلك إلى حد ما ، لإبعاد الجيش السورى عن الحدود الشمالية لإسرائيل ، ولكنها انسحبت بعد أن نشرت الأمم المتحدة قوة دولية عازلة فى جنوب لبنان .

واستمر الصراع ، ولكن بدرجة أقل ، حتى الثمانينيات . إذ كانت تقوم جماعات من الفدائيين الفلسطينيين فى بعض الأحيان بشن غارات على شمال إسرائيل ، بينما كانت تقوم القوات الإسرائيلية بقصف ما كان يشتبه فى أنها قواعد لمنظمة التحرير الفلسطينية وأيضًا أحياء مدينة بيروت . وفى عام ١٩٨٢ ، قامت إسرائيل باجتياح شامل لجنوب لبنان ، حيث طردت الجيش السورى والمليشيات الفلسطينية ، وتجاوزت حدود المنطقة العازلة لقوة الأمم المتحدة ، بل وحاصرت العاصمة بيروت . وانتخب البرلمان اللبنانى رئيسًا مارونيًا تحالف مع إسرائيل ضد الفلسطينيين وأيضًا ضد العرب. وعندما قتل فى انفجار ، غزت القوات الإسرائيلية بيروت . وأثناء وجود المليشيات المارونية هناك ، اقتحمت الأحياء والمناطق التى يقطنها الفلسطينيون ، حيث قتلت المئات من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، وقامت القوى الغربية ، التى انتابتها صدمة شديدة بسبب هذه المذبحة المروعة (التى ألقى الكثيرون اللوم على إسرائيل لمسئوليتها عنها) ، بإرسال قوة متعددة الجنسيات إلى لبنان .

وكانت واشنطن تأمل فى إقناع سوريا وإسرائيل بمغادرة لبنان وفى إقناع المليشيات المختلفة بتسليم أسلحتها وصلاحياتها وسلطاتها إلى حكومة لبنانية جديدة شكلت من جديد . وبدلاً من ذلك ، فإن الإسرائيليين والقوة متعددة الجنسيات لم يغضبوا المسلمين السنَّة والفلسطينيين فحسب ، وإنما أيضاً السكان من الشيعة فى لبنان . وفى الحال ، فإن الشيعة اللبنانيين ، الذين تولى تدريبهم ثوريون إيرانيون ، قادوا شاحنات محملة بالمتفجرات واقتحموا السفارات الغربية ، وثكنات الجيوش الأجنبية ، والمعاقل المارونية فقتلوا وأصابوا المئات . وأدت هذه العمليات الانتحارية من جانب الجماعات الشيعية إلى إثارة وبث حالة من الفوضى العارمة بين القوات الأوروبية ، والأمريكية ، والإسرائيلية إلى الحد الذى أرغمها على الانسحاب من لبنان ، رغم أن إسرائيل احتفظت بوجود عسكرى لها فى جنوبى البلاد . وأدى نجاح الميليشيات الإسلامية المدعومة من إيران فى طرد بعض القوات الأجنبية إلى زيادة هيبتها وارتفاع شعبيتها فى أوساط اللبنانيين .

صورة رقم (٥ : ٣) مجموعة من المبانى فى وسط العاصمة اللبنانية بيروت وقد بدت عليها آثار الدمار من جراء الحرب الأهلية التى دامت أكثر من عقدين

الأزمة العراقية – الكويتية والمفاوضات العربية – الإسرائيلية :

لقد ظل العراق يعانى طويلاً من كونه يحتل المرتبة الثانية بين الدول العربية من حيث الأهمية ، سواء أكان تابعًا لمصر كمركز للثقافة العربية أو باعتباره يأتى فى المنزلة الثانية بعد المملكة العربية السعودية كأكبر منتج للبترول فى المنطقة . ولم يتمكن العراق من تحقيق غاياته المنشودة اعتماداً على قدراته وطاقاته الهائلة التى لم يدركها الكثيرون ، كما أن حربه ضد إيران فى الثمانينيات جعلته مديناً بأموال طائلة وقروض ضخمة مستحقة للسعودية ولدول الخليج الأخرى . ويعتقد العراقيون أيضاً أن الكويت بلد صنعته الإمبريالية البريطانية ، أو بالأحرى بلد ظهر إلى حيز الوجود فى غفلة من تاريخ العالم الحديث ، وهم يرون بناءً على ذلك أن الكويت ما هى إلا إمارة تحكمها أسرة مالكة تعمل على خدمة مصالح مستوردى النفط فى الغرب . وفى مناسبات عدة ، حاول العراق ضم الكويت ، على أمل توسيع خطه الساحلى لكى يصبح القوة الرئيسية فى منطقة الخليج . وفى يوليو عام ١٩٩٠ ، زعم العراق أن الكويت كانت تقوم بعمليات تنقيب عن النفط تحت الأراضى العراقية وأنها تطالب بسداد قروضه التى قدمها للعراق خلال حربه ضد إيران . وعندما أخفقت حكومات عربية أخرى فى تسوية النزاع بين البلدين ، أمر صدام حسين قواته بغزو واحتلال الكويت فى الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ ، ليكون ذلك إيذاناً باندلاع حرب الخليج .

ولم يكن العراق يتوقع على الإطلاق أن إقدامه على ضم الكويت سيلقى معارضة شديدة من الرئيس الأمريكى جورج بوش . وبمجرد أن فشل الضغط العربى فى إقناع العراقيين بالانسحاب من الكويت ، شرعت إدارة بوش فى إعداد حملة ضخمة لتحرير الكويت ، بدأت بالجهود الدبلوماسية ، ثم انتهت بإرسال قوات عسكرية وعتاد حربى إلى السعودية فى إطار عملية عسكرية أطلق عليها عملية درع الصحراء .

وخشى البعض فى الولايات المتحدة من أن يكون التورط العسكرى فى الشرق الأوسط مكلفًا ، ومرفوضًا من قبل دول أخرى ، ومن المحتمل أن يزعزع المصالح الأمريكية فى المنطقة . وكان الهدف من العقوبات الاقتصادية التى ساندتها قرارات شديدة اللهجة أصدرها مجلس الأمن الدولى هو تحذير العراق وإرغامه على سحب قواته من الكويت . ودعا الكويتيون الذين فروا بأعداد هائلة إلى الدول العربية الأخرى إلى القيام بإجراءات عسكرية بدلاً من العقوبات الاقتصادية . أما السعودية التى

عارضت فى ذلك الوقت تمركز أية قوات أجنبية على أراضيها ، نظراً لوجود الحرمين الشريفين بها (مكة المكرمة والمدينة المنورة) ، فإنها سرعان ما صارت قاعدة لقوات التحالف الأجنبية والعربية المناوئة للغزو العسكرى العراقى للكويت ، والذى كان يمكن أن يشكل تهديداً للسعوديين .

ومن جانبه حذر الرئيس العراقى صدام حسين ، الذى بدا أنه لم يعبأ بأية تهديدات من أن أية محاولة لإخراج العراق من الكويت ، التى كان قد أعلنها محافظة جديدة تابعة لبلاده ، ستؤدى إلى إضرام النار فى حقول النفط الكويتية . ومع هذا ، قرر التحالف العسكرى الدولى بقيادة الولايات المتحدة خوض الحرب ضد العراق فى ١٦ يناير عام ١٩٩١ ، والتى بدأها بما أسماه عملية عاصفة الصحراء . وحين أخفقت ستة أسابيع من الغارات الجوية وعمليات القصف الجوى المستمرة فى إرغام العراق على الانسحاب من الكويت ، تحولت قوات التحالف إلى المرحلة الثانية من الحرب فبدأت الحرب البرية ضد العراق والتى حققت نجاحاً كبيراً . ففى غضون مائة ساعة تقريباً ، تمكنت هذه القوات من طرد القوات العراقية من الكويت . وعندئذٍ ، قرر بوش وقف المعارك حتى على الرغم من دخول قوات التحالف جنوبى العراق .

وثار الشيعة فى الجنوب والأكراد فى الشمال ضد الحكومة المركزية فى العراق، بيد أنهم لم يحصلوا على العون الذى كانوا يحتاجونه من الولايات المتحدة وحلفائها ، ومن ثم تمكن صدام حسين من قمع حركات التمرد الشيعية والكردية . أما الضباط العراقيون الذين انشقوا عن الجيش والذين كانوا قد تآمروا على صدام للإطاحة به فقد كان مصيرهم الإعدام ، أو السجن ، أو الطرد من العراق . وأبقت الأمم المتحدة على عقوباتها التى فرضتها ضد العراق ، فحظرت عليه استيراد الغذاء أو الدواء لشعبه، ولكن صدام حسين أخذ يضع العراقيل أمام المفتشين الدوليين الذين كانت الأمم المتحدة قد أرسلتهم إلى العراق فى مهمة تستهدف التأكد من تدمير ترسانة الأسلحة الكيماوية ، والبيولوجية ، والنووية لدى العراق . ولهذا بدا وكأن التحالف الدولى قد حقق نصراً أجوف على العراق .

وعقدت إدارة بوش مؤتمراً للسلام، فى مدريد فى بادئ الأمر وفيما بعد فى واشنطن ، ثم موسكو والذى شاركت فيه وفود من إسرائيل ومعظم الدول العربية لإجراء محادثات حول عملية السلام . ورغم أن إسرائيل رفضت الدخول فى أية محادثات مع وفد منظمة التحرير الفلسطينية ، فإنه سمح بمشاركة ممثلين من

الأراضى المحتلة ضمن وفد أردنى – فلسطينى مشترك . وبينما تباطأ إيقاع المحادثات العلنية ، عقد مفاوضون إسرائيليون وفلسطينيون اجتماعات سرية فى النرويج وتوصلوا إلى اتفاق فاجأ العالم بأسره لدى إعلانه لأول مرة فى أغسطس عام ١٩٩٣ . وكان التوقيع العلنى على «إعلان المبادئ» من جانب إسرائيل ، ومنظمة التحرير الفلسطينية بحضور الرئيس الأمريكى بيل كلينتون إيذاناً ببدء مرحلة من المفاوضات المكثفة ، والتى ركزت فى أول الأمر على انسحاب القوات الإسرائيلية من غزة وأريحا .

وبعد عدة مماطلات ، توصلت إسرائيل إلى اتفاق فى مايو عام ١٩٩٤ مع سلطة الحكم الذاتى الفلسطينية يسمح لعرفات بالعودة إلى غزة . ولكن إسرائيل ظلت تسيطر على الفلسطينيين الذين كان يفترض أنهم يتمتعون بالحكم الذاتى فى حين احتفظت بقواتها فى غزة والضفة الغربية وعندما حظرت على العمال الفلسطينيين دخول أراضيها فى أوقات الأزمات ، وذلك برغم أن القليل من فرص العمل كانت متاحة داخل مناطق الحكم الذاتى الفلسطينية . وتخلى بعض الفلسطينيين المحبطين عن منظمة التحرير الفلسطينية لينضموا إلى حركات أكثر راديكالية مثل حركة المقاومة الإسلامية (حماس) . ووقعت الأردن وإسرائيل معاهدة سلام فى أكتوبر عام ١٩٩٤ ، وفى الوقت الذى أبدت فيه العديد من دول شمال أفريقيا والخليج استعدادها للدخول فى علاقات دبلوماسية وتجارية مع الدولة اليهودية . توصلت إسرائيل إلى اتفاق آخر مع منظمة التحرير فى سبتمبر عام ١٩٩٥ ، والذى نص على انسحاب القوات الإسرائيلية من المراكز السكانية الرئيسية فى الضفة الغربية ، مع إرجاء وضع القدس لبحثه فى مفاوضات مستقبلية ، وبقاء معظم الأراضى الفلسطينية تحت السيطرة الإسرائيلية . وتم اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى ، إسحاق رابين ، على يد متطرف يمينى يهودى كان يعتقد أن حكومته قدمت تنازلات كبيرة للعرب وجرى انتخاب حكومة جديدة برئاسة بنيامين نتانياهو فى مايو عام ١٩٩٦ والتى توسعت فى بناء المستوطنات اليهودية وانتهاج سياسات قمعية ضد الفلسطينيين . وبفضل الضغوط الأمريكية ، تخلى نتانياهو عن جزء من مدينة الخليل فى عام ١٩٩٧ وتسليم أراض محتلة أخرى فى عام ١٩٩٨ وكان الائتلاف الذى يرأسه نتانياهو هشّا فانهار فى النهاية ، الأمر الذى أرغمه على الدعوة لإجراء انتخابات مبكرة . وفى ١٧ مايو ١٩٩٩ منى نتانياهو بالهزيمة وفشل فى محاولة إعادة انتخابه ليكون الفوز من نصيب منافسه إيهود باراك زعيم حزب العمل .

خاتمة :

يبدو أن شعوب وبلدان الشرق الأوسط ليست على وئام وسلام ، سواء مع بعضها البعض ، أو مع أنفسها . إذ إن القومية العلمانية تسعى للتنافس مع الإسلام باعتباره الديانة الرئيسية للغالبية من عرب الشرق الأوسط ، والإيرانيين ، والأتراك . وقد أدى انهيار الاتحاد السوفيتى السابق إلى احتدام المنافسة حول الجمهوريات السوفيتية الجديدة فى منطقة القوقاز وآسيا الوسطى . وربما تكون الحرب الباردة قد انتهت ، ولكن واشنطن لا يمكن أن تعلن صراحة أهدافها السياسية أو تكشف عن أطماعها الحقيقية فى الشرق الأوسط . والحدود الحالية القائمة بين الدول ، وهى فى أغلب الأحوال حدود أقامها المستعمرون الغربيون لخدمة مصالحهم ، قلما تعكس الحدود الطبيعية وهى غالبًا ما تتعرض للانتهاك من قبل جيوش الدول القومية التى تتربص بجاراتها الضعيفة . وقد انتقل العديد من شعوب الشرق الأوسط إلى المدن المزدهرة والمتطورة حيث التحق أفرادها بالمدارس والجامعات وحصلوا على قسط وافر من التعليم ، وأصبحوا على صلة وثيقة بما يجرى فى العالم من حولهم من خلال متابعتهم لما تبثه وسائل الإعلام المسموعة و المرئية فى بلادهم ، ومن ثم ازدادت تطلعاتهم وطموحاتهم لتتجاوز حدود مجتمعاتهم . ويشعر الشباب على وجه الخصوص بحالة من الإحباط فى هذه المجتمعات ، وهو شعور يدفعهم غالباً إلى الهجرة من دول ذات كثافة سكانية عالية ولديها موارد نفطية قليلة (مثل مصر) إلى دول أخرى تفتقر إلى الأيدى العاملة ولكنها غنية بالبترول (مثل السعودية) ، الأمر الذى يجعلهم يعانون العديد من المشاكل الاجتماعية نتيجة اغترابهم وانفصالهم عن الآباء والأمهات ، والأزواج والزوجات ، والأطفال ، والأصدقاء . وفى الفصول الأخرى من هذا الكتاب ، سوف يتبين لنا أنه ما من منطقة أخرى تشكل خطراً كبيراً على السلام العالمى مثل منطقة الشرق الأوسط التى تموج بالاضطرابات والتقلبات بين الحين والآخر .

المصادر :

١- م . جميل أبو ناصر : «تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى» - مطبعة جامعة كمبريدج - نيويورك - ١٩٨٧ .

٢- د. ويليام كليفلاند : «تاريخ الشرق الأوسط الحديث» - مطبعة ويستفيو - كولورادو- ١٩٩٤ .

- سيدنى نتلتون فيشر ، وأوشينفالد ويليام : «الشرق الأوسط : التاريخ» الطبعة الخامسة - نيويورك - ماكجرو هيل - ١٩٩٧ .

٤- آرثر جولد شميت : التاريخ الموجز للشرق الأوسط - الطبعة السادسة - بولدر - كولورادو - مطبعة ويستفيو- ١٩٩٩ .

٥- ج . س . مارشال هورجسون : «مغامرة الإسلام» - ٣ مجلدات - شيكاغو ولندن - مطبعة جامعة شيكاغو - ١٩٧٤ .

٦- ألبرت حورانى : «تاريخ الشعوب العربية» - كمبريدج - مطبعة جامعة هارفارد - ١٩٩١ .

٧- تشارلز عيسوى : «التاريخ الاقتصادى للشرق الأوسط وشمال أفريقيا» - نيويورك - مطبعة جامعة كولومبيا - ١٩٨٢ .

٨- أندريه تشارلز جولبين : «تاريخ شمال أفريقيا من الفتح العربى إلى عام ١٨٣٠» ترجمة جون بيترى ومراجعة سى سى ستيوارت - نيويورك - براجر- ١٩٧٠ .

٩- نيكى كيدى : «جذور ثورة : تاريخ إيران الحديثة» نيوهافن ولندن - مطبعة جامعة يال - ١٩٨١ .

١٠- م إيرا لابيدوس : «تاريخ المجتمعات الإسلامية» - نيويورك - مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٨٨ .

١١- برنارد لويس : «الشرق الأوسط : تاريخ موجز للألفى سنة الماضية» - لندن وديدفيلد آند نيكلسون - ١٩٩٥ .

١٢- بيتر مانسفيلد : «تاريخ الشرق الأوسط» - نيويورك - فايكنج - ١٩٩١ .

١٣- أ . جلين بيرى : «الشرق الأوسط : ١٤ قرنا من الحكم الإسلامى »- الطبعة الثالثة - آير سارل ريفر - نيوجيرسى - برنتايس هول - ١٩٩٧ .

١٤- ج. ج . سوندرز : «التاريخ الإسلامى الوسيط » - نيويورك - : بارنز ونوبل - ١٩٦٥ .

١٥- ج . إيريك تسورشر : «تركيا : التاريخ الحديث» لندن ونيويورك : تاوريس - ١٩٩٣ .

- ٤ -

السياسة فى الشرق الأوسط

ديبورا ج . جيرنر . و فيليب أ . شروت

«استقبال حار للزعيم الإيرانى فى السعودية .. الأمم المتحدة تنشر قوة دولية فى الصحراء الغربية . مسلحون يقتلون مسئولاً فلسطينياً .. النساء الكويتيات يحصلن على حق التصويت فى الانتخابات عام ٢٠٠٣م .. مقتل خمسة جنود جزائريين فى هجوم.. منشقون عراقيون يطلبون مساعدة الولايات المتحدة .. ديكتاتور سابق يعود إلى السودان .. حزب الله يطلق صواريخه على شمال إسرائيل .. قطر تشهد تحولاً فى عهد حاكمها الجديد .. فشل محادثات تشكيل حكومة ائتلافية فى تركيا»

وكالة أنباء أسوشيتدبرس ، مايو ١٩٩٩

من منظور العناوين والمانشيتات الرئيسية التى تطالعنا بها الصحف اليومية ، تبدو السياسة فى منطقة الشرق الأوسط وكأنها خليط من الغموض ، والارتباك ، والتشوش ، والغموض والعنف فى أغلب الأحيان . ولدى سؤالهم عن السبب الذى يدفعهم إلى دراسة شئون الشرق الأوسط والسياسة فى هذه المنطقة ، فإن الطلبة غالبًا ما يقولون إنهم يريدون فهم الأخبار والتقارير الإخبارية التى يستمعون إليها ويقرأونها من خلال وسائل الإعلام حول ما يجرى فى المنطقة ، ولكنهم لا يعرفون من أين يبدأون . ولهذا، يركز هذا الفصل من الكتاب على الوضع السياسى الراهن فى العالم العربى ، وإيران وإسرائيل وتركيا ، ومن ثم يصف هذا الفصل أولاً العديد من العوامل العامة التى تؤثر على السياسة فى الشرق الأوسط المعاصر ، من قبيل التراث الاستعمارى والسياق الدولى المتغير وتأثير التنمية الاقتصادية ، ثم يستعرض بعد ذلك مجموعة متنوعة من المؤسسات السياسة والأيديولوجيات التى تضطلع بمهامها فى هذه المنطقة. ويولى الفصل أهمية خاصة لإيضاح تلك الخصائص والسمات التى تميز السياسة الداخلية للشرق الأوسط والتى تعد فريدة من نوعها نسبيًا ، وعلى الأخص

مثلاً انتشار أنظمة الحكم المكانية ، والتفرقة بين تلك الخصائص وبين الخصائص أو السمات الأخرى الأكثر شيوعاً مثل العلاقات الوثيقة التى تربط ما بين الدولة والمؤسسة العسكرية ، أما العلاقة بين الجنسين التى تعتبر ذات أهمية بالغة ، والتى سوف نشير إليها بإيجاز هنا ، فسوف تتناولها الفصول ٨ ، ٩، ١٠ بالتفصيل .

التراث الاستعمارى :

تتأثر السياسة الداخلية فى دول الشرق الأوسط بمجموعة من المتناقضات الظاهرية إذ إن هذه المنطقة القديمة التى يرجع تاريخها إلى السنوات الأولى لعمليات الاستيطان البشرى ، قد جرى تنظيمها سياسياً مؤخراً فقط فى شكل دول حديثة أو بعبارة أخرى وحدات سياسية مركزية تتمتع بالسيادة على جماعة من السكان أو أرض محددة . وفى الفصل الثالث ، يصف آرثر جولد شميت المراحل التى مرت بها هذه الدول للوصول الى نهاية القرن العشرين . ويقدم هذا الجزء وصفاً موجزاً لأهم جوانب تلك الحقبة التاريخية من أجل فهم السياسة المعاصرة فى المنطقة ألا وهو تأثير الإمبريالية الأوروبية فى الشرق الأوسط .

يشير مصطلح الإمبريالية (Imperialism) إلى قيام دولة أو إمبراطورية بفرض سيطرتها السياسية والاقتصادية على أرض أجنبية ، وفى سياق منطقة الشرق الأوسط يمكن القول بأن تورط القوى الأوروبية فى المنطقة ، ، ولاسيما بريطانيا وفرنسا ، كان يتسم بالتدخل فى شئونها إلى حد كبير ، ومن المنظور التاريخى لهذه المنطقة ، كان هذا التورط استبدادياً فى أغلب الأحيان ، وفى الوقت ذاته كان هناك تغير كبير فى سياق وطبيعة السيطرة الأوروبية على المنطقة ، سواء فيما بين المناطق الفرعية (على سبيل المثال شمال أفريقيا مقابل شبه الجزيرة العربية) أو فيما بين المناطق المتاخمة الواقعة داخل منطقة واحدة (مثلاً سوريا مقابل الأردن) وأخيراً ، فإن القرارات التى اتخذت أثناء العهد الاستعمارى تركت آثارها على دول المنطقة وهى آثار ظلت قائمة حتى الآن ومازالت تلقى بظلالها على التطور السياسى للشرق الأوسط حتى بعدما اختفت الأنظمة الاستعمارية السابقة .

وعلى النقيض من الأمريكتين ، فإن أفريقيا شبه الصحراوية وآسيا واللتين كانتا خاضعتين للاستغلال الاستعمارى فقط بعد اكتشافهما على أيدى الأوروبيين ،

وكذلك الامتداد الجغرافى والموارد الغنية فى الشرق الأوسط فقد كانت كلها دائماً معروفة لدى القوى السياسية فى أوروبا .

ومع هذا فإنه قبل منتصف القرن التاسع عشر نجحت القوة العسكرية للإمبراطورية العثمانية فى كبح جماح النشاط الاستعمارى الأوروبى الواسع فى أرجاء المنطقة . وتبعاً لذلك فعندما بدأ الأوروبيون أخيراً فرض سلطتهم ونفوذهم ، وهو الأمر الذى حدث مصادفة فى وقت تزامن مع ضعف السيطرة العثمانية ، نجد أن هذا كله قد حدث فى سياق الأنظمة الإمبريالية الأوروبية التى كانت قائمة . أما النمط الخاص بوجود مستعمر بمفرده يمارس سيطرته ويفرض هيمنته على منطقة متداخلة ومتجاورة كبيرة مثلما فعل البريطانيون فى أمريكا الشمالية وفى جنوب أفريقيا ، أو كما فعل الأسبان فى أمريكا اللاتينية ، فإنه لم يحدث قط ، ولذلك فإن التجربة الاستعمارية لدول الشرق الأوسط كانت متباينة إلى حد كبير عبر الزمن والمنطقة .

وتقدم حالة مصر مثالاً جيداً يعكس التعقد السياسى للنزعة الاستعمارية ، ففى بداية القرن التاسع عشر احتل الإمبراطور الفرنسى نابليون بونابرت مصر . ومنيت القوات الفرنسية بالهزيمة على يد البريطانيين الذين استعادوا السيطرة العثمانية على مصر ، ومع هذا، واجه الحكم العثمانى تحدياً خطيراً تمثل فى ظهور محمد على ، وهو فى الأصل جندى عينه العثمانيون والياً على مصر لإدارة شئونها ، والذى بدأ بدوره مرحلة تطوير مصر وتحديثها كدولة مستقلة وقوية ، ورغم أن خلفاء محمد على حاولوا حكم البلاد كولاة ، فإنهم عجزوا عن الاحتفاظ باستقلال مصر ، وهكذا تضافرت عوامل وأسباب عديدة أبرزها حفر قناة السويس ، والتى جعلت البلاد تنوء بأعباء الديون المستحقة للممولين الأوروبيين . ووفرت هذه المشكلات المالية ذريعة للغزو البريطانى لمصر فى عام ١٨٨٢ ولترسيخ السيطرة البريطانية المباشرة على مصر طيلة أربعين عاماً . وفى عام ١٩٢٣ منحت بريطانيا استقلالاً اسمياً لمصر ، ولكنها أبقت على نظام الحكم الملكى الموالى للبريطانيين واحتفظت لنفسها بالحق فى نشر قوات بريطانية فى البلاد ، وأصبحت مصر ساحة للمعارك خلال الحرب العالمية الثانية بينما سعت ألمانيا للسيطرة على قناة السويس ، وحتى بعد الإطاحة بالملكية الموالية لبريطانيا فى عام ١٩٥٣ غزت بريطانيا وفرنسا مصر لفترة قصيرة عام ١٩٥٦ فى محاولة أخيرة لإعادة تأكيد نفوذهما وسلطتيهما على القناة .

وعلى الرغم من اختلاف وتباين التفاصيل حول هذه الأحداث كلها ، فإنه يمكن أن نجد تشابكاً وتعقداً مثل هذا التورط الاستعماري فى معظم الدول الرئيسية بالمنطقة فالجزائر تحولت بالفعل إلى جزء إدارى تابع لفرنسا وشهدت المصالح الاستعمارية الفرنسية تنافسًا فى مختلف أرجاء المنطقة وأحياناً ما كان يؤدى ذلك إلى اندلاع للحرب بين الدول الأوروبية ، ومثلما حدث بالنسبة لنزاع فاشودا فى السودان فى عام ١٨٩٨ . وفى أوقات أخرى ، اتفقت بريطانيا وفرنسا على تقسيمات الأراضى العثمانية السابقة إلى مناطق أصبحت تعرف فى الوقت الحاضر باسم سوريا ولبنان والعراق والأردن وإسرائيل والأراضى الفلسطينية . وكانت منطقة الخليج تعتبر هامشية خلال معظم تلك الفترة ، الأمر الذى أتاح الفرصة للملك عبد العزيز بن سعود لإقامة دولة فى شبه الجزيرة العربية بعدما نجح فى توحيد مناطقها ومدنها ودون أى تدخل خارجى ، بيد أن هذه المنطقة صارت ذات أهمية قصوى فى الثلاثينيات مع اكتشاف النفط فى دولها ، الأمر الذى حدا ببريطانيا إلى إقامة عدد من المحميات المستقلة الصغيرة على شواطئ الخليج . وكانت بريطانيا وفرنسا مسئولتين عن معظم النشاط الاستعمارى فى المنطقة ، ولكن الدول الأوروبية الأخرى ولاسيما إيطاليا فى ليبيا وروسيا فى إيران ، مارست أيضاً نفوذاً هائلاً فيها .

والواقع أن تعقد هذه التفاعلات الاستعمارية قد أدى إلى ظروف سياسية متباينة ومختلفة للغاية ، وربما يمكن أن نجد أن من أقوى الأمثلة على ذلك هو ما يتبين من مقارنة تجارب إسرائيل والأردن ولبنان ، إذ إن الأجزاء ذات الكثافة السكانية العالية فى هذه الدول تشغل مساحة جغرافية صغيرة والتى فى ظل غياب الحدود يمكن أن يقطعها المرء بالسيارة فى يوم واحد . بيد أنه فى النصف الثانى من القرن العشرين ، فإن تجارب هذه الدول الثلاث لا يمكن أن تكون أكثر اختلافًا ، ذلك أن لبنان ، الذى خضع للسيطرة الفرنسية بموجب اتفاقية سايكس بيكو ، تطور كنظام ديمقراطى برلمانى حاول تحقيق توازن بين مصالح المسيحيين والمسلمين فى الوقت الذى حافظ فيه على الوضع المهيمن للمسيحيين ، ودولة إسرائيل الحديثة طورت نفسها من خلال الانتداب الذى فرضته عصبة الأمم على فلسطين ، التى كانت ذاتها من بقايا الإمبراطورية العثمانية ، والتى فى ظل السيطرة البريطانية نص وعد بلفور الصادر فى عام ١٩١٧ على منحها للحركة الصهيونية ، لتكون وطناً قومياً لليهود . كما

اقتطعت الأردن من منطقة أخرى تحت الحكم البريطاني ولكنها تشكلت سياسياً كمملكة عربية . ومع اقتراب القرن العشرين من نهايته ، نجد أنه لا يزال هناك كيان سياسى آخر وهو يظهر الآن بين إسرائيل والأردن ، وبإيجاز شديد فإن ثلاث أو أربع دول مختلفة قد انسلخت من منطقة ظلت ، لردح طويل من الزمن ، متماثلة ومتشابهة تماماً مع ثقافتها ومواردها .

وكما يتضح من هذا المثال ، فإن التجربة الاستعمارية كان عمرها قصير نسبياً فى سياق الإطار التاريخى لمنطقة الشرق الأوسط بأسرها ، إلا أنها كانت تنطوى على أهمية كبيرة فى تحديد الظروف السياسية السائدة فى الوقت الحاضر ، والاختلافات الراهنة بين المغرب والجزائر وليبيا ومصر فى شمال أفريقيا تعكس فى الحقيقة ، ما كانت عليه أحوال وأوضاع هذه الدول وقت أن كانت خاضعة للسيطرة العربية والفرنسية والإيطالية والبريطانية على التوالى فى أوائل القرن العشرين . وعندما أخذت الهيبة البريطانية فى الخليج تخبو ، سرعان ما حل محلها النفوذ الأمريكى ، بينما تأثر النظام السياسى الجزائرى بقوة من جراء حرب الاستقلال عن فرنسا . واستطاعت دول قليلة فى المنطقة وهى المغرب وتركيا والسعودية وسلطنة عمان أن تنجو من السيطرة الأوروبية المباشرة وبشكل كامل تقريباً (وذلك على الرغم من أن هذه الدول كانت لا تزال متأثرة بشدة بالتهديد بفرض تلك السيطرة) فى حين أن دولاً أخرى مثل جيبوتى أو الصومال الغربية والتى أجرت استفتاء حول استقلالها فى عام ٢٠٠٠ ، كانت من بين المناطق الأخيرة فى العالم التى تنال سيادتها السياسية ، وفى العديد من الحالات فإن الحدود التى فرضتها القوى الأوروبية لم يكن لها سوى قدر قليل من التأثير على توزيع الجماعات العرقية والإثنية على الأرض ، وهو ما يمكن ملاحظته بدرجة أكبر فى تقسيم المنطقة الكردية بين تركيا والعراق وإيران ، أو فى الدول ذات الحدود المصطنعة والتى تحوم الشكوك حولها ، كما هو الحال بالنسبة إلى مزاعم العراق ودعاويه حيال الكويت ، أو مزاعم سوريا بشأن لبنان ورغم أن عهد الإمبراطوريات الاستعمارية قد ولى وانقضى ، فإن آثارها مازالت باقية ، بل إنها مازالت تمارس نفوذها القوى فى المنطقة .

السياق الدولى المتغير

فى أعقاب زوال الاستعمار الأوروبى خلال الأربعينيات والخمسينيات والستينيات هيمن على الشئون الخارجية للشرق الأوسط صراعان رئيسيان هما : الحرب الباردة ،

والنزاع العربى الإسرائيلى . وفى بداية القرن الجديد ، وضعت الحرب الباردة أوزارها وأسدل الستار عليها تماماً فى حين لا يزال النزاع بين إسرائيل والعرب قائماً . ولاشك أن لكل من هذين الصراعين انعكاساتهما وأبعادهما على السياسة الداخلية فى منطقة الشرق الأوسط .

وكان لنهاية الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتى السابق آثارهما العميقة على الدول الحليفة للسوفيت مثل سوريا والعراق وليبيا وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . إذ لم تعد المعونات العسكرية الأجنبية متاحة (رغم أن روسيا لا تزال تبيع أسلحتها للحصول على ما تحتاجه من النقد الأجنبى) كما لم تعد روسيا مهتمة بمنح وضع الأفضلية التجارية فى علاقاتها مع هذه الدول ، وهو ما كان يحرص عليه الاتحاد السوفيتى السابق فى محاولة لكسب حلفائه من الدول العربية .

فى الوقت ذاته ، يواجه حلفاء الولايات المتحدة خياراً أكثر صعوبة ، ولم تكن معارضة الشيوعية بالبرنامج الذى يصعب تسويقه للسكان المسلمين ، وذلك على الرغم من أن محاولة إدارة ريجان إقناع الدول العربية بأن عدوها الرئيسى هو الاتحاد السوفيتى وليس إسرائيل قد منيت بفشل ذريع .. وفى ظل غياب «تهديد شيوعى» فإن من المرجح أن يكون الأعداء الجدد الذين تسعى الولايات المتحدة لمجابهتهم وردعهم هم العرب والمسلمين أو كليهما ، وقد تجد الحكومات التى تعتمد على الدعم الأمريكى أن هذه السياسة تولد معارضة داخلية شديدة ، كما كان الحال بالنسبة لكل من مصر والسعودية .

ويمكن ملاحظة إحدى النتائج المثيرة لهذا التغير فى ميزان القوى العالمى فى الصومال ، والتى ظلت تخوض غمار حرب أهلية منذ أوائل التسعينيات ، وقامت دولة ثورية مركزية فى الصومال خلال الفترة من عام ١٩٦٠ الى عام ١٩٩١ ، ولكن هذه الحكومة كانت برمتها تقريباً نتاجاً للدعم الخارجى من حماتها الاستعماريين ، وفيما بعد من جانب رعاتها إبان الحرب الباردة . ومع نهاية الحرب الباردة ، فقدت الصومال أهميتها بالنسبة للقوى الخارجية . ونتيجة لهذا تقلصت المعونات العسكرية والاقتصادية التى كانت تحصل عليها بكميات هائلة فيما مضى ، كما تراجعت السيطرة السياسية للدولة وانتقلت تدريجياً الى العشائر والقبائل الصومالية التى دأب الشعب على أن يكن لها الولاء تقليدياً . وباءت محاولة الولايات المتحدة فى عام

١٩٩٢ - ١٩٩٣ بإعادة الحكومة الموحدة إلى البلاد بالفشل التام . وعلى أثر ذلك تفجرت موجة من العنف فى الصومال ، بيد أنه مازال من غير الواضح كيف سيعمل نظام الحكم فيها ، والذى يفتقر تماماً إلى المركزية فى ظل نظام سياسى واقتصادى دولى يحترم الحكومات القوية ذات السيادة .

وعلى النقيض من الحرب الباردة التى طويت صفحتها ، فإن شبح الصراع العربى الإسرائيلى مازال يخيم على منطقة الشرق الأوسط وإن تكن حدة هذا الصراع قد خفت نسبياً مقارنة بسنواته الأولى ، فمصر والأردن قامتا بتطبيع علاقاتها مع إسرائيل ، وهناك الآن زيارات متبادلة بين الدول الثلاث ، وفى الوقت الذى نعكف فيه على تأليف هذا الكتاب أوشكت إسرائيل على إنهاء استعداداتها للانسحاب من جنوب لبنان بعد أن استمر وجودها العسكرى هناك عقدين من الزمان . أما سوريا التى حرمت من عدة مزايا اقتصادية ومن الدعم السوفيتى ، فإن بوسعها رفض الدخول فى المفاوضات حول مرتفعات الجولان التى تحتلها إسرائيل ، ولكنها لا تستطيع حل هذه المشكلة عسكرياً . ومع انتخاب إيهود باراك رئيساً للوزراء فى إسرائيل فى مايو عام ١٩٩٩ ، ومع استئناف المحادثات الإسرائيلية الفلسطينية فى أغسطس ، بدأت مرحلة جديدة من المفاوضات حول عملية السلام وإقامة دولة فلسطينية مستقلة . (وقدم مارى آن تيترول فى الفصل الخامس ، وسيمونا شارونى ومحمد أبو نمر فى الفصل السادس تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع) .

ومن المحتمل أن تكون أبعاد ومضامين مثل هذه التغيرات للمشهد السياسى العربى أكثر عمقاً وأثراً فى إسرائيل . فثمة مقدمة شائعة فى إسرائيل مفادها أنه بمجرد أن تحل مشكلتها الأولى ألا وهى البقاء ، فإنه سوف يتعين عليها بعد ذلك مواجهة مشكلتها الثانية وهى طبيعة الدولة اليهودية . وهكذا يشعر الإسرائيليون بقلق بالغ حيال الحركات والجماعات الأصولية اليهودية المتطرفة ، وإزاء ظهور أحزاب سياسية ذات جذور عرقية ، والمناقشات المحمومة حول المدى الذى يمكن أن تذهب إليه الحكومة بشأن وضع قوانين خاصة بالممارسات الدينية (كايل وبيترز ، ١٩٩٣ ، سبرينزاك ودياموند ، ١٩٩٣ ، إيفرون ١٩٩٥) ولعل مما يدعو إلى السخرية أنه فى الوقت الذى بات فيه العالم العربى يقبل وعلى نحو ينم عن التردد ، بقبول إسرائيل فى المنطقة ، فإننا نجد أن مشكلات السياسة صارت تشبه تلك المشكلات التى تواجه جيرانه .

وينبغي على الأردن ومصر ، وربما لبنان وسوريا يومًا ما أن تتكيفا مع التحول الذى طرأ على العلاقات الإسرائيلية العربية . فمع زوال التهديد الإسرائيلى نسبيًا ، بات من الأكثر صعوبة بالنسبة إلى هذه الدول أن تبرز سياسيًا وجود مثل هذه المؤسسات والجماعات العسكرية الكبيرة التى تستوعب العاطلين من الذكور وتوفر الحماية والدعم للحلفاء السياسيين ، وفى الوقت نفسه فإنه لم يتحقق سوى الشىء القليل بالنسبة إلى «عائد السلام» الاقتصادى : فإسرائيل تسوق منتجاتها عالميًا ، وليس محليًا، والمشروعات الاقتصادية المشتركة كانت محصورة إلى حد كبير فى قطاع السياحة والقليل من المشروعات . ورغم أن إنتهاء الصراع العربى الإسرائيلى قد يحقق السلام فى المنطقة فإنه قد لا يحقق الرخاء ، على الأقل فى البداية.

وعلى المدى الطويل ، ربما بعد نصف قرن آخر ، يمكن أن يكون الوضع فى المنطقة واعداً بدرجة أكبر . وقد روى لنا مغترب أمريكى أمضى معظم حياته فى مدينة رام الله، التى تقع مباشرة شمال القدس بالضفة الغربية ، روى لنا حكايات وقصصاً عن الأعوام التى سبقت سنة ١٩٦٧ ، عندما كان يذهب بسهولة إلى بيروت لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ، وحكى عن أصدقائه الذين عاشوا فى القدس والذين كانوا ينتقلون فى يسر ودون أية مصاعب إلى أماكن عملهم فى عمان . وبالنسبة إلى أشخاص مثلنا ممن عاشوا فقط فى عهد خيمت فيه الانقسامات السياسية على الشرق الأوسط ، فإننا ننسى أن مدناً رئيسية فى المشرق مثل بيروت ودمشق وعمان والقدس ويافا وتل أبيب تقع كلها فى دائرة لا تتعدى مساحتها ٥٠ ميلاً وتتركز فى بحر الجليل . وإذا كانت هناك شبكة طرق ملائمة وأزيلت القيود على الحدود ، لأمكن قطع المسافة بين المدينة والأخرى بالسيارة خلال بضع ساعات فى الصباح ، ومثلما يفعل الكثير من الأوروبيين الآن أثناء انتقالهم بين باريس وبروكسل وبون وأمستردام .

التنمية الاقتصادية :

كما هو الحال بالنسبة إلى جميع المناطق التى تحررت من نير الاستعمار ، تواجه دول الشرق الأوسط مشكلة تتعلق بالتنمية الاقتصادية ، وسوف نستعرض هذه المشكلة بالتفصيل فى الفصلين السابع والثامن ، بينما سنشير هنا إلى عدة جوانب تعتبر من أبرز الجوانب المرتبطة بالسياسة الداخلية .

وبادئ ذى بدء ، فإن أية مناقشة للشئون الاقتصادية فى المنطقة لابد أن تتناول كل دولة من دولها على حدة ، ولاسيما تلك التى لديها عائدات بترولية ضخمة وأيضاً تلك التى ليس لديها مثل هذه العائدات ، والواقع أن الثروة النفطية التى ظهرت فى عهد الدول المصدرة للبترول (OPEC) كانت السبب وراء بروز سياسات للإنفاق اتسمت بالتبذير والإسراف إلى حد لا يمكن تخيله . وذلك من قبيل زراعة القمح فى الصحراء باستخدام المياه المحلاه ، والهبوط اللاحق فى أسعار النفط إلى مستويات ما قبل ١٩٧٣ وهى سياسات تفضى إلى سلسلة من المشكلات السياسية الجديدة للاقتصادات القائمة على البترول ، أو ما يسمى بالاقتصادات البترولية . وعلى العكس من ذلك ، فإن الدول التى لديها القليل من النفط أو التى لا تملك نفطاً تواجه مجموعة من مشكلات التنمية ، والتى تشبه تلك المشكلات التى تعانيها أى من الدول حديثة العهد بالتصنيع .

وقد أدى الانخفاض فى عائدات البترول إلى ظهور مصادر محتملة عديدة لعدم الاستقرار فى الداخل ، ولعل من أكثر المشكلات وضوحًا هى أن الحكومات لديها موارد مالية أقل لا تكفى للتعامل مع الخصوم والمعارضين المحتملين للنظام ، سواء باختيارهم كأعضاء جدد فى هذا النظام ، أو بدفع أموال إلى قوى خارجية مقابل قمعهم (هذا الأمر يبدو أكثر تعقيداً فى الأنظمة الملكية لأن الخط الفاصل بين الدول والملكية الخاصة غير واضح كما أن المشكلات الاقتصادية الفردية يمكن أن تفضى إلى مضامين سياسية) . وعادة ما تطفو هذه المشكلات الاقتصادية على السطح عندما تعمد العديد من الدول إلى الحد من الخدمات الاجتماعية وإلى تقليص برامج الدعم لمحدودى الدخل من السكان على وجه الخصوص ، وهو ما يؤدى فى النهاية إلى إنحياز التأييد الشعبى تدريجيًا للتنمية الحاكمة ، وفى عدد من الدول ، أدت برامج إعادة الهيكلة الاقتصادية ، التى أوصى بها صندوق النقد الدولى (IMF) فى الثمانينيات والتسعينيات ، إلى اندلاع ما أطلق عليه «مظاهرات الخبز» وإلى نشوب اضطرابات مدنية .

وثمة تغيير سياسى أكثر وضوحاً يمكن ملاحظته فى المنطقة ، ففى الوقت الذى كانت فيه العائدات النفطية متاحة بوفرة ، اعتمد معظم البلدان الغنية بالنفط اعتماداً كبيراً على المغتربين من العمال الأجانب فى إنجاز العديد من الأعمال ، ليس فقط

الوضيعة بل أيضاً الخدمات المهنية فى مجالات مختلفة مثل المصارف ، والأعمال الهندسية ، والتعليم . ولأنهم كانوا أجانب ، لم يكن لدى هؤلاء العمال المغتربين أى رأى فى الشئون السياسية لتلك الدول . ومع البدء فى تطبيق سياسات جديدة تقضى بإحلال العمالة الوطنية محل العمالة الأجنبية ، أخذت تظهر طبقة متوسطة لها نسيجها الاجتماعى الخاص والمتميز ، ولو أن الشرق الأوسط اتبع النموذج أو النمط السائد فى العديد من الدول الأخرى ، سيؤدى هذا إلى ضغوط من أجل المزيد من الانفتاح الديمقراطى . ومع هذا لم يحدث بعد بدرجة كبيرة ، فإن مثل هذا الاحتمال مازال قائماً على نحو واضح .

وخارج نطاق الدول الغنية بالنفط ، نجد أن المشكلات السياسية الناجمة عن التنمية الاقتصادية تختلف عن تلك الموجودة فى مناطق أخرى فى العالم ، وبوجه عام ، فإنه ليس بالغ الثراء أو شديد الفقر وإنما هو بين هذا وذاك . وذلك على الرغم من وجود تناقضات قد تبدو صارخة فى كلتا الحالتين ، فتركيا وإسرائيل قد نجحتا فى تحقيق معدلات للنمو الاقتصادى يمكن مقارنتها بمثيلاتها فى عدد من بلدان آسيا حديثة العهد بالتصنيع ، فى حين أن دولاً أخرى فقيرة فى مواردها مثل جيبوتى وموريتانيا والسودان والصومال لديها إمكانات محدودة للغاية فى مضمار التنمية الاقتصادية وقد أدت الحرب الدولية إلى تعطيل التوسع الاقتصادى فى إيران والعراق والكويت ، بينما كان للحرب الأهلية ذات التأثير على لبنان والجزائر .

ويتساءل المفكرون العرب عن سبب عدم وجود نمور عربية فى منطقة الشرق الأوسط أسوة بما حدث بالنسبة إلى الاقتصادات التى تشهد نمواً سريعاً فى دول مثل تايوان وكوريا الجنوبية . وهنالك تفسير مفاده أنه فى غضون العقود الماضية ، أمكن للعمال المهرة من دول ليست غنية بالنفط (مصر ـ لبنان ـ فلسطين) جمع أموال طائلة أثناء عملهم كمغتربين فى منطقة الخليج بيد أنه لم يكن لديهم الحافز أو القوة التى تمكنهم من تحسين هذه الاقتصادات أو اقتصادات دولهم . وقد أدى التركيز المفرط من جانب الحكومات على النفقات الدفاعية والإنفاق على الصراعات الإقليمية إلى وضع العراقيل أمام الجهود والبرامج الرامية إلى تطوير اقتصادات لديها القدرة على المنافسة العالمية .

وفى الوقت الذى تتراجع فيه هذه المشكلات السياسية إلى الخلفية ، وبينما تواجه دول المنطقة المشكلات المشتركة المتمثلة فى الزيادة السكانية وهبوط عائدات النفط ، فمن المحتمل أن تبرز التنمية الاقتصادية كإحدى المشكلات السياسية الرئيسة فى المنطقة .

- **الهياكل غير الرسمية للسلطة :**

حتى يمكن فهم العمليات الخاصة بالسياسة فى الشرق الأوسط فهماً تاماً ، لابد وأن ينظر المرء إلى ما وراء الهياكل غير الرسمية للسلطة : الملوك ، البرلمانات ، ورؤساء الوزارات . وهى الهياكل التى سوف نناقشها فيما بعد . ولعل ما يكتسب أهمية خاصة هنا هذه الهياكل غير الرسمية للعلاقات الأسرية والاجتماعية : إذ إن المواطن العادى فى الشرق الأوسط ، سواء كان عربياً ، أم إسرائيلياً ، أم تركياً ، أم إيرانياً ، يجد أن مثل هذه العلاقات تنطوى على أهمية قصوى فى التأثير على الولاءات أو الانتماءات السياسية ، وعلى نحو يفوق ذلك التأثير الذى قد ينشأ بالنسبة لمواطن أخر فى أمريكا الشمالية أو أوروبا الغربية .

والكلمة التى اعتاد العديد من المحللين الغربيين استخدامها فى وصف هذه العلاقات الأسرية والاجتماعية هى قبائل بيد أن هذا المصطلح ليس دقيقاً تماماً نظراً لأن العلاقات السياسية الشرق أوسطية لا تختلف كثيراً فى اللغة أوالديانة أو التقاليد الثقافية ، أو العوامل التى تميز خصائص وسمات قبلية مع الاستخدام الشائع لهذه الكلمة (ومع هذا عندما توجد مثل هذه الفروق مثلاً فى ظل الخلافات الدينية المعقدة داخل لبنان أو فى العراق بين الأكراد الذين لديهم لغتهم المميزة فإنها عادة ما تترجم إلى انحيازات تنطوى على أهمية سياسية) وبدلاً من ذلك ، وكما يشير كل من لورى كنج وإيرانى فى الفصل التاسع ، فإن هذه الشبكة العريضة من العلاقات تقوم على الأسر الممتدة الجذور والروابط الجغرافية لمنطقة ما أو قرية بعينها .

وداخل هذه الشبكة من العلاقات الأسرية والاجتماعية نجد أن الروابط القائمة هى روابط اجتماعية أو اقتصادية أولاً وقبل كل شىء وهى بعد ذلك روابط سياسية ، ومع هذا ، ولأن السياسة تصبح أكثر محلية ، تزداد قوة العلاقات الاجتماعية القائمة . وتبعاً لذلك ، يمكن أن تتغير السيطرة السياسة فى قمة النظام مع حدوث تغيير قليل نسبياً فى

القاع : فمصر ، على سبيل المثال ، ظلت خاضعة للهيمنة السياسية الخارجية ولسيطرة الحكام الأجانب على مدى ٢,٢٨٤ عاماً ، من هزيمة آخر أسرة فرعونية على يد الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد وحتى الإطاحة بالملك فاروق المدعوم من بريطانيا فى سنة ١٩٥٢ . ورغم هذا كله ، يمكن ملاحظة أنه فى القرى الواقعة على امتداد دلتا النيل ، أو فى مختلف أحياء وضواحى القاهرة لا يزال يوجد أسلوب أو نمط مصرى متميز للسياسة المحلية . وقد أدركت الإمبراطورية العثمانية هذا الجانب فى حياة شعوب الشرق الأوسط فأبقت على سيطرة السكان المحليين على الشئون والقضايا المحلية من خلال إقامة ما عرف آنذاك بالنظام الملِّى الذى وضع كل جماعة (دينية تحت سيطرة سلطاتها الدينية فيما يختص بمعظم الشئون القانونية والاجتماعية والثقافية) . وعلى النقيض ، كانت الجهود التى بذلتها القوى الاستعمارية الأوروبية لتطوير حكومة مركزية مصدراً دائماً للغموض .

وفى الوقت ذاته فإن الأنظمة القديمة للعلاقات الاجتماعية تبدو أقل وضوحاً اليوم مما كان الحال عليه قبل قرن . وفى محيط الشرق الأوسط ، أدت عمليات التحضر السريع الى تعطيل وإضعاف تحالفات دامت قروناً طويلة وكانت قائمة أساساً فى القرى المعزولة . وعلى الرغم من أن المهاجرين الذين نزحوا إلى المدن الرئيسية مثل القاهرة وإسطنبول وطهران مازالوا متأثرين بتقاليد وعادات الأسرة والقرية ، إلا أن الروابط والعلاقات التى تربطهم تواجه تحديات عدة تتمثل فى الولاءات والانتماءات الاجتماعية الجديدة . ولا شك أن هذه الولاءات التقليدية تتآكل وتضعف أكثر بفعل هجرة العديد من العمال المغتربين ، وهم غالباً من الشبان ذوى المهارات العالية والتخصصات المهمة النادرة ، إلى دول منطقة الخليج وأوروبا أو أمريكا الشمالية للعمل والعيش هناك ، وحيث يصبح من الصعب الحفاظ على روابطهم وعلاقاتهم القديمة ، وعلى الأخص بالنسبة لأبناء وبنات المهاجر الذين يولدون خارج أوطانهم .

وهكذا فإن الشرق الأوسط المعاصر يزخر بخليط من الهياكل السياسية والتقليدية الحديثة . فالرئيس السورى الراحل حافظ الأسد وابنه بشار الأسد الذى خلفه فى الحكم، والرئيس العراقى صدام حسين ، والعاهل السعودى الملك فهد ، والعاهل الأردنى الملك عبد الله ، وغيرهم من الملوك والرؤساء فى المنطقة ، مازالوا يعتمدون فى حكمهم ، وعلى الأخص أجهزتهم العسكرية والأمنية ، على الأنظمة التقليدية للولاء ، والتى

تقوم على الأسرة والقرية . ويأتى معظم أعضاء الحلقة الداخلية لصدام حسين ومستشاريه وأعضاء حكومته من مسقط رأسه فى بلدة تكريت ، فى حين أن أجهزة الأمن فى المملكة الهاشمية الأردنية يهيمن عليها بدو الصحراء ، وليس الفلسطينيون الذين يشكلون أغلبية السكان .

وعلى العكس من ذلك ، فإن أفراد النخبة الاقتصادية فى بيروت وإسطنبول يبدو أنهم أقرب ما يكونوا إلى النموذج الأوروبى للعلاقات الاجتماعية ، بل إن البعض منهم فى الحقيقة قد يشعرون بأنهم أكثر ارتياحاً فى ظل وجودهم فى أوساط أوروبية عن وجودهم ضمن جماعات اجتماعية عربية أو تركية ، ويمتد هذا أيضًا إلى ميدان السياسة، ذلك أن هذه الدول لديها أنظمة بيروقراطية على الطراز الأوروبى ، وأنظمة سياسية مرنة ، وفترات من الحكم البرلمانى الطويل (الذى قد يشهد انقطاعًا أو توقفًا بين الحين والآخر) .

وعلى أية حال يمكن أن يتعايش هذان النظامان معًا . ففى إسرائيل ، نلاحظ أن حزب العمل ، الذى يميل إلى اجتذاب أفراد هاجر آباؤهم وأجدادهم إلى الدولة اليهودية من أوروبا ، لديه نظام على الطراز الأوروبى للولاءات المرنة والذى يرتكز على الأيديولوجيا . وخلافًا لذلك، فإن حزب شاس ، الذى ظهر فى التسعينيات كلاعب رئيس فى المسرح السياسى الإسرائيلى ، يجتذب الناخبين من الجماعات اليهودية ذات الأعراق والأصول العربية ، والتى هاجرت من المغرب واليمن والعراق . ويولى حزب شاس أهمية أكبر للعلاقات التقليدية والتوجيه السياسى من المرجح أن يظل العامل السائد فى سيادة الشرق الأوسط فى المستقبل المنظور .

أسطورة عدم الاستقرار السياسى :

بادئ ذى بدء يمكن القول بأن أية مناقشة حول السياسة الداخلية للشرق الأوسط والتى توجه إلى جمهور القراء فى الغرب لابد وأن تواجه واحدة من أكثر الأساطير انتشاراً وشيوعًا ، ولكن فى الوقت نفسه أشدها خطأً على الإطلاق ، والتى تتعلق بالمنطقة كلها ، ألا وهى أن الحكومات فى دول الشرق الأوسط غير مستقرة ومتقلقلة دائمًا . ولا شىء يمكن أن يبعد كثيراً عن هذه الحقيقة . وفى غضون العقود العديدة الماضية، فإن الكثير من هذه الحكومات كانت مستقرة بشكل استثنائى . والحقيقة أنه

لو عقد اجتماع للزعماء العرب اليوم ، فإن أبرز سمة يمكن ملاحظتها فيه هى وجود عدد لا بأس به من القادة العرب أنفسهم الذين كانوا فى السلطة إبان السبعينيات ، ومن بين هؤلاء على سبيل المثال ، الزعيم الليبى معمر القذافى ، والرئيس السورى حافظ الأسد، (الذى توفى وخلفه فى الحكم ابنه بشار الأسد) ، والسلطان قابوس سلطان عمان، والشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة ، والزعيم الفلسطينى ياسر عرفات . وحتى موته بعد إصابته بمرض السرطان فى عام ١٩٩٩ ، كان العاهل الأردنى الملك حسين صاحب أطول فترة حكم لزعيم عربى فى المنطقة كلها ، حيث ظل على رأس السلطة فى الأردن لما يقرب من خمسة عقود . والملك الحسن الثانى ، عاهل المغرب والذى توفى هو الآخر بسبب السرطان ، قد حكم المغرب منذ عام ١٩٦١ ، وحكم جيبوتى زعيمان فقط منذ استقلالها فى عام ١٩٧٧ ، الأول حسن جوليد أبتيدون ، الذى تولى الرئاسة حتى أبريل عام ١٩٩٩ ، وثانيهما ابن أخيه إسماعيل عمر جويلية ، الذى انتخب ليخلفه فى الرئاسة . وهناك أيضاً العاهل السعودى الملك فهد ، والشيخ جابر الصباح أمير الكويت ، والرئيس العراقى صدام حسين الذين يحكمون دولهم منذ ما يربو على عشرين عاماً . وعلى النقيض من ذلك سنجد أن اجتماعاً للزعماء الأوروبيين ، وفى حال عقد اليوم ، سيشارك فيه زعماء لم يكن لهم أى وجود تماماً فى السلطة خلال اجتماع مماثل عقد فى عام ١٩٧٠ .

وبالإضافة إلى هذا ، شهدت كل من مصر والسعودية انتقالاً سلساً للسلطة فى ظل ظروف اغتيال صعبة . أما الأردن وسلطنة عمان وتونس فقد شهدت بصورة أو بأخرى استبدال زعماء كانت حالاتهم الجسمانية أو العقلية قد تدهورت بزعماء آخرين، وفى تركيا ، نلاحظ أن النظام السياسى الذى تأسس فى العشرينيات مازال قائماً حتى اليوم ، بل إنه كان أكثر استقراراً من حكومات الدول الأوروبية المطلة على البحر الأبيض المتوسط مثل أسبانيا وإيطاليا ويوغسلافيا واليونان خلال فترة السبعين عاماً نفسها ، وذلك على الرغم من قيام الجيش التركى بثلاثة انقلابات عسكرية . وقد طرأت تحولات ثورية مهمة، ولاسيما فى العراق (١٩٥٨) ، وليبيا (١٩٦٩) وإيران (١٩٧٩) والتى أطاحت بالأنظمة الملكية التى فرضتها القوة الغربية على هذه الدول ، ولكن هذه التغيرات لم تكن حتى أكثر إثارة أو دراماتيكية من تلك التى حدثت فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى فى أواخر الثمانينات وأوائل التسعينيات . وعلاوة

على ذلك فإن الحكومات التى ظهرت بعد هذه الثورات كانت وإلى حد كبير أكثر استقراراً من تلك التى كانت قائمة فى معظم الدول التى خلفت الاتحاد السوفيتى السابق .

ومن المؤكد أن الشرق الأوسط شهد أيضًا تدخلات عسكرية ، وعمليات انتقال للسلطة شابتها تجاوزات ومخالفات وقلاقل واضطرابات سياسية داخلية ، ولكنها لم تكن أكثر من التى حدثت فى أمريكا اللاتينية أو جنوب شرق آسيا كما كانت أقل مما حدث فى بلدان ومناطق كثيرة فى أفريقيا . ومن المحتمل أن يكون الشرق الأوسط قد شهد سلسلة من الثورات والاضطرابات السياسية فى السنوات التى أعقبت زوال الحقبة الاستعمارية مباشرة . (وكما كان الحال تقريبًا بالنسبة لكل منطقة من المناطق التى استقلت حديثًا) ولكن استمرار هذه الاضطرابات كان القاعدة السائدة منذ منتصف الستينيات .

ورغم أن الأنظمة السياسية فى الشرق الأوسط ظلت مستقرة بوجه عام منذ أوائل السبعينيات إلا أن المنطقة تواجه حاليًا سلسلة من التحديات التى أفرزتها المتغيرات السياسية والاقتصادية للنظام العالمى الجديد . ويحدث هذا فى الوقت الذى صار فيه عدد من زعماء دول المنطقة طاعنين فى السن وباتوا يعانون من مشكلات صحية ، وعلى الأخص العاهل السعودى الملك فهد ، والرئيس السورى حافظ الأسد (الذى توفى وخلفه فى الحكم نجله بشار الأسد) والزعيم الفلسطينى ياسر عرفات . وهذه الشيخوخة الطبيعية التى أصابت القيادة السياسية فى فترة ما بعد الاستعمار ، إضافة الى وجود نسبة كبيرة من الشبان فى سن المراهقة والذين كانوا قد تعرضوا ، ولا يزالون للعديد من الأحداث والتطورات السياسية والاقتصادية والثقافية العالمية الراهنة ، يمكن أن يؤديا إلى حدوث تغيرات جوهرية بالمنطقة فى غضون العقود القادمة (وهو احتمال يلقى الترحيب من البعض ويخشاه آخرون) . والحقيقة أن هذا قد بدأ يحدث بالفعل ، إذ أن عاهل الأردن الحالى الملك عبد الله ، وأمير البحرين الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة (الآن ملك البحرين بعد تحول البلاد إلى مملكة فى عام ٢٠٠٢) والملك محمد السادس عاهل المغرب ، كل هؤلاء أصغر سناً بكثير قياسًا إلى أعمار آبائهم من الملوك والأمراء حين تولوا الحكم ، كما أن القيادة السياسية فى إسرائيل أخذت هى الأخرى تتحول إلى الجيل الأصغر سناً .

احتمالات التحول إلى الديمقراطية :

مع الزوال الفعلى للحكومات الماركسية اللينينية حول العالم ، فإن الديمقراطية الليبرالية ، التى تتميز بالتنافس المفتوح والشريف بين الأحزاب السياسية ، وبحماية حقوق التعليم السياسى ، قد صارت الأساس الأيديولوجى المهيمن الذى يضفى شرعية على السلطة السياسية (النموذج الرأسمالى الكونفوشيوسى فى آسيا لا يحظى بأى تأييد فى الشرق الأوسط) . ويعكس مصطلح الديمقراطية الليبرالية الاتحاد بين عمليتين مترابطتين وهما : التحرر السياسى والتحول إلى الديمقراطية السياسية . ويشرح ريكس برايكان ، وبهجت كورناى ، وبول نوبل هذه النقطة على النحو التالى :

التحرر السياسى يتضمن توسيع مساحة المشاركة الجماهيرية العامة من خلال الاعتراف بالحريات السياسية والمدنية وحمايتها ، ولا سيما تلك الحريات التى تزيد من قدرة المواطنين على المشاركة فى المسار السياسى الحر ومن قدرتهم على التنظيم الحر سعياً لتحقيق المصالح المشتركة . ويتضمن التحول إلى الديمقراطية السياسية التوسع فى عملية المشاركة السياسية بطريقة تتيح للمواطنين درجة من السيطرة الجماعية الحقيقية على السياسة العامة .

ويعتبر هذا الاختلاف مهمًا نظراً لأنه من الممكن أن تتوافر عناصر التحرر السياسى فقط دون أن تتوافر أى من عناصر التحول إلى الديمقراطية السياسية ، والعكس بالعكس. ويمكن مثلاً التخفيف من حدة القمع أو الاضطهاد السياسى بدون التوسع فى المشاركة السياسية الشعبية (مثل الأنشطة الثورية التى تعطى بعض السلطات لجماعات كانت مهمشة على السابق) بينما تفرض قيوداً على الحريات السياسية (مثل أعمال الاضطهاد والقمع التى تمارس ضد جماعات أو أفراد تعتبرهم مناهضين للثورة)

وخلافًا للعديد من مناطق العالم التى قد تكيفت بنجاح مع الهياكل الديمقراطية الليبرالية الغربية والقوانين الخاصة بالأوضاع المحلية (اليابان والهند وأمريكا اللاتينية على سبيل المثال) فإن عملية التحول إلى الديمقراطية تطرح مشكلات متعددة فى الشرق الأوسط . وربما يكمن أخطر التحديات وأهمها فى ذلك الوجود السابق للعديد من المؤسسات الديمقراطية ، وليست الديمقراطية الليبرالية فى المنطقة ، وقد

استطاعت الأنظمة الملكية الناجحة أن تحافظ على وأن تتوسع فى إقامة هياكل استشارية تقليدية، وفى دول مثل الأردن والكويت والمغرب أمكنها حتى أن تقيم مؤسسات ديمقراطية ليبرالية ، وإن تكن فرضت قيوداً صارمة على الصلاحيات والسلطات الممنوحة لتلك المؤسسات . وتعتمد الأنظمة الشرعية فى شرعيتها على الهياكل الحزبية السياسية الجماعية ، حتى على الرغم من أن تلك الهياكل قد تدهورت وتحولت إلى مجرد قشور. وتبعًا لذلك فإن الشرق الأوسط ورغم أنه ليس ديمقراطيًا ليبراليًا ، إلا أنه لا يخلو تماماً من هياكل للمشاركة السياسية أيضاً (وذلك على العكس ، مثلاً من الأنظمة العسكرية فى دول أمريكا اللاتينية فى السبعينيات) ومن ثم فإن الزعم بوجود ديمقراطية عربية مؤسسة إقليمياً ينطوى على قدر من المصداقية .

والنقطة الثانية التى ينبغى الإشارة إليها هنا هى وجود عيوب فى النماذج الشرق أوسطية الحالية بشأن الديمقراطية الليبرالية . فالعلمانية المتطرفة لدستور أتاتورك فى تركيا لا يمكن قبولها واستيعابها فى البيئة الحالية للصحوة الإسلامية وإيقاظ الشعور الدينى . وأدت المحاولات الأولى التى قام بها لبنان لتطبيق الديمقراطية الطائفية ، وهى نظام يفترض بأن الطائفية الدينية هى العامل الأساسى فى كيفية تنظيم المجتمع سياسيًا ودستوريًا على النحو الذى يضمن منح السلطات لجماعات مختلفة ، أدت إلى اندلاع حرب أهلية مدمرة . وكدولة غير إسلامية ، ولأنها تعتبر أيضًا دولة غير شرعية فى المنطقة ، فإن إسرائيل لا تصلح كنموذج (وذلك على الرغم ، وهو ما يدعو للسخرية ، من أن التعرض لفترة طويلة للديمقراطية الإسرائيلية ربما يكون ترك تأثيره على محاولات الفلسطينيين لتطوير مؤسساتهم الديمقراطية) .

وأخيراً ، فإن القوى الديمقراطية الليبرالية الرئيسية قد فعلت الشىء القليل فقط لتشجيع الديمقراطية فى المنطقة . فبريطانيا مثلاً ، خلّفت وراءها أنظمة ملكية مطلقة قبل انسحابها من الشرق الأوسط ، والولايات المتحدة قد دأبت على التسامح إزاء السياسات غير الديمقراطية لحلفائها فى المنطقة ، بمن فيهم النظام الملكى فى السعودية، والنظام البوليسى لرضا بهلوى (شاه إيران) ، وحكم الحزب الواحد فى مصر. وأخفقت تجربة فرنسا فى لبنان ، واتهمت فرنسا بالتورط فى إلغاء انتخابات الجزائر فى عام ١٩٩٢ .

وإذا ما وضعنا كل هذه الظروف فى الاعتبار فإن السؤال المطروح الآن هو : لماذا يجب أن يتوقع المرء أن يصبح التحول إلى الديمقراطية قضية أساسية فى الشرق الأوسط ؟ والحقيقة أن هناك ثلاثة عوامل على الأقل توحى بأنها ستكون كذلك . العامل الأول يتمثل فى أن إيجاد طبقة متوسطة متمدنة ومتعلمة قد أدى دائماً ، وفى ظل ثقافات متنوعة إلى ظهور حركات سياسية مؤيدة للديمقراطية ، والثانى هو أن أكثر اقتصادات المنطقة ديناميكية ونشاطاً وهى اقتصادات تركيا وإسرائيل ولبنان ما قبل الحرب الأهلية، كانت اقتصادات ديمقراطية ، وهى حقيقة قد أدركها الكثيرون. والعامل الثالث والأخير هو أن العديد من الظروف التى دعمت الأنظمة غير الديمقراطية وأضفت عليها الصبغة الشرعية ، بما فى ذلك السياسة التى ظلت سائدة إلى ما بعد الحقبة الاستعمارية، والتنافس فى مرحلة الحرب الباردة ، والثروة النفطية ، هذه الظروف أخذت تتلاشى لتفقد أهميتها .

ومع ذلك فإن عملية التحول الديمقراطى لن تكون سهلة . فمن الواضح أن أى حركة ديمقراطية ليبرالية ستكون بحاجة إلى التكيف والتأقلم مع الإسلام بصورة أو بأخرى . ووفقاً لنظريات ديمقراطية عربية ، فإن هذا يطرح القليل من المشكلات : إذ إن العديد من التفسيرات المرتبطة بالدين الإسلامى تبدو على الأقل متوافقة مع المثل والقيم الديمقراطية كما هو الحال بالنسبة للمسيحية البروتستانتية (وهى أكثر توافقاً من ديانات أخرى مثل الديانة الهندوسية حيث تأسست ديمقراطية ليبرالية) . بيد أن العديد من الاتجاهات القوية سياسيًا فى الإسلام المعاصر تعتبر اتجاهات محافظة إلى حد كبير ، وهى اتجاهات تروق وتصلح للمؤسسات التقليدية وتسعى لفرض قوانين ومبادئ ثقافية مناهضة للديمقراطية (على سبيل المثال ، دور المرأة فى المجتمع) .

وثانياً ، تركز أحدث نظرية ديمقراطية (على الأخص نظرية بوتنام ١٩٩٣) على أهمية مؤسسات المجتمع المدنى فى دعم وتعزيز الديمقراطية الليبرالية . وحول هذا الموضوع يقول عالم الاجتماع المصرى سعد الدين إبراهيم :

بينما نجد أن هناك مجموعة متنوعة من الطرق بشأن تحديد (مفهوم المجتمع المدنى) فإنها تدور كلها حول تنظيم المشاركة الاختيارية ، المنظمة والجماعية فى

إطار المساحة العامة التى تفصل بين الأفراد والدولة . وفى شكله المؤسسى يتألف دور المجتمع المدنى من منظمات غير حكومية (NGOs) من بينها الأحزاب السياسية، ونقابات العمال ، والاتحادات المهنية ، واتحادات التنمية المحلية وغيرها من الجماعات والمنظمات الأخرى . وبطريقة قياسية يشتمل المجتمع المدنى على القيم والقوانين السلوكية والأخلاقية للتسامح إزاء قبول الآخرين والالتزام الضمنى أو الصريح بالمعالجة السلمية للخلافات فيما بين الأفراد والجماعات التى تشترك فى نفس المساحة العامة وهو ما يعنى وجود الحكومة (إبراهيم ٢٩ : ١٩٩٥)

يتميز المجتمع التقليدى فى الشرق الأوسط بمجموعة من المؤسسات والمنظمات والجماعات غير الحكومية التى تقوم بالوساطة بين مجالى الشئون الخاصة والشئون العامة ، ولكنها توجد بوجه عام فى السياق غير الديمقراطى للمسجد أو الأسرة أو القبيلة فالمزارع ليس بحاجة إلى تكوين جمعية تعاونية زراعية فى الوقت الذى تكون فيه قريته قد شاركت فى أعمال حصاد الزيتون لأجيال قادمة ، والأم تبدى قدراً أقل من الاهتمام بتشكيل اتحاد للآباء والمدرسين فى وقت يكون فيه معلم طفلها هو نفسه ابن عمها الذى عرفته منذ الميلاد . ولاشك أن عملية زرع المؤسسات الغربية للمجتمع المدنى فى الشرق الأوسط ، والتى كانت هدفًا للعديد من مشروعات وبرامج التنمية الأمريكية والأوروبية هى أشبه بمحاولة صب القهوة فى فنجان مملوء بالقهوة فعلاً . إذ يبقى القليل من القهوة الجديدة فى الفنجان ، وفى نفس الوقت يؤدى ذلك كله إلى حدوث نوع من الفوضى .

وأخيراً ، لابد أن تتعامل أية حركة ديمقراطية مع مشكلة الأقليات العرقية ، وهى مشكلة لم تحل بعد فى كل من تركيا وإيران والعراق ولبنان وإسرائيل وفى دول أخرى. وبالإضافة إلى الجماعات العرقية الدينية الأصلية مثل الأقباط فى مصر ، والأكراد فى تركيا ، والعراق وإيران فإنه لدى العديد من الدول الأصغر أعداد كبيرة من السكان من العمال الأجانب والذين أقام بعضهم فى هذه الدول لأجيال طويلة ولا شك أن تأسيس حقوق وأدوار هذه الأقليات يمثل مشكلة حتى بالنسبة إلى الديمقراطيات الراسخة ، وهى مشكلة تبدو أكثر صعوبة فى دول يعتبر استقلالها السياسى جديداً نسبياً وتعتبر الديمقراطية الليبرالية فيها تجربة ينظر إليها البعض بعين الارتياب .

دور الجيش :

فى مختلف أرجاء الشرق الأوسط ، اضطلع الجيش ولا يزال بدور بالغ الأهمية فى كل من بناء وتنفيذ السياسة الداخلية للدولة ، وعلى نحو يفوق بكثير دور الجيش فى بلدان أوروبا وأمريكا الشمالية ، وعلاوة على ذلك فإن منطقة الشرق الأوسط تعد من أكثر مناطق العالم ذات الصبغة العسكرية والتى يتولى فيها العسكر الحكم فى معظم دولها ، وهناك عدة عوامل بعضها خاص بالمنطقة وبعضها الآخر ينطبق بوجه عام على الدول المستقلة حديثاً ، والتى تفسر لماذا يميل التوازن بين المؤسسات الحكومية للإدارة من ناحية والهياكل السياسية من ناحية أخرى ، يميل بقوة لصالح الأولى (بيل وسبرينجبورج ٢٢٨ : ١٩٩٤) .

أولاً وقبل كل شيء لابد من الإشارة هنا إلى أنه لا فترة الاستعمار ولا الاحتلال الأوروبى ولا الوضع السياسى الذى ظهر مباشرة بعد الاستقلال ، قد أفضيا إلى تأسيس جماعات مدنية شعبية . إذ إن القوى الاستعمارية ، التى كان كل همها منصباً على استغلال موارد المنطقة ، قد أثبطت أو قمعت المؤسسات الأهلية خوفًا من استخدامها كمراكز معارضة للحكم الاستعمارى . وقد استمر العديد من هذه السياسات بعد الاستقلال ، ولا سيما عندما تم تنصيب حكام من قبل القوى الأوروبية قبل رحيلها أو حين حصل هؤلاء الحكام على المساندة والدعم من خلال البرنامج المناهض للشيوعية والذى وضعته الولايات المتحدة وعندما تحالفت الدول مع الاتحاد السوفيتى حدثت المشكلة المعاكسة ، وهى أن معظم النشاط المدنى قد جرى تحويله إلى مؤسسات منظمة رسميًا وتخضع لسيطرة الدولة الأمر الذى أدى إلى ترك مساحة محدودة للنشاط المستقل .

وبدلاً من إقامة مؤسسات للمجتمع المدنى ، كان تركيز التنظيم الاجتماعى على التحديث السريع وتأسيس جيش قادر على مواجهة التهديدات الداخلية والخارجية لأنظمة الحكم الهشة . وفى كل من تركيا فى ظل حكم مصطفى كمال أتاتورك ، وإيران فى عهد حكام أسرة بهلوى ، كان الحكم الفردى المطلق يبرر باعتباره أمراً ضرورياً للتنمية الاقتصادية للبلاد . وفى أماكن أخرى نجد أن الصراعات الدولية ، الحرب العراقية الإيرانية ، وغزو الكويت ، والثورات طويلة الأجل بين إسرائيل

والعرب، قد كانت مبرراً هى الأخرى (أو وفرت ذريعة كما يجادل البعض) لمواصلة البناء الهائل للقوات العسكرية فى شتى أرجاء المنطقة .

وفى الوقت الحاضر ، فإن منطقة الشرق الأوسط التى يوجد بها أقل من ٤ ٪ من سكان العالم ، تمثل حوالى ١٠ ٪ من القوات المسلحة على مستوى العالم ، أو نحو ٢,٣ ملايين جندياً طبقًا لإحصاءات عام ١٩٩٥ . (الولايات المتحدة ACDA ، ١٣ : ١٩٩٦) وحتى الثمانينيات والتسعينيات كانت المنطقة تمثل ما نسبته ٤٠ ٪ من إجمالى واردات الأسلحة فى العالم (١٣,٨ مليار دولار فى عام ١٩٩٥) وذلك على الرغم من أن معظم هذه المشتريات من الأسلحة تتركز فى عدد صغير من الدول ، وهى السعودية ومصر وإسرائيل والكويت وإيران ودولة الإمارات . وكان نصيب السعودية وحدها من واردات الأسلحة العالمية ٢٧ ٪ فى عام ١٩٩٥ (الولايات المتحدة ACDA13 : 1996) ويوضح الجدول رقم (١ : ٤) إجمالى النفقات العسكرية لدول الشرق الأوسط . والملاحظ هنا أن الأولوية التى منحتها دول المنطقة فى ميزانياتها للإنفاق العسكرى قد أعطت الجيش نفوذاً سياسيًا هائلاً حتى فى مجال الشئون الداخلية ، وبقدر يفوق كثيراً ما هو عليه وضع الجيش فى بلدان أخرى حيث لا تحظى المؤسسة العسكرية سوى بنصيب ضئيل من مجموع الإنفاق الحكومى .

من ناحية أخرى لعبت القوة العسكرية دائماً دوراً رئيسياً فى أصول ونشأة الأنظمة الحاكمة ، الأمر الذى أدى إلى حدوث تفاعل مهم بين النخبتين السياسية والعسكرية ، وعلى سبيل المثال ، فإن توحيد الأراضى والمناطق الواقعة وسط شبه الجزيرة العربية لتتحول إلى المملكة العربية السعودية خلال العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن يمكن أن يعزى تماماً إلى الحنكة والخبرة العسكرية لدى عبد العزيز بن سعود (وذلك على الرغم من أن الفضل يعود أيضًا إلى ابن سعود فى تحقيق الوحدة السياسية بين المناطق التى فتحها) وفى الجزائر أدت حرب الاستقلال التى دامت ثمانى سنوات إلى تدمير البلاد تقريباً ، ولم يبق من مؤسساتها ومنظماتها السياسية والعسكرية سوى جبهة التحرير الوطنية (FLN) والتى تولت الحكم بعد استقلال الجزائر ، وفى ليبيا جاء معمر القذافى إلى السلطة من خلال انقلاب عسكرى فى عام ١٩٦٩ ، وظل الجيش بعد ذلك مصدراً مهماً للقوة بالنسبة للزعيم الليبى .

وخلال السنوات الأولى لقيام دولة إسرائيل بدا واضحاً أنه كان هناك ارتباط وثيق بين الجيش والماباى ، (والذى تطور فيما بعد ليصبح حزب العمل) ، وهكذا باتت هناك علاقة وطيدة بين المؤسستين العسكرية والسياسية . وفى غضون الأعوام الأخيرة ، أصبح الجيش يتمتع بقدر أكبر من الاستقلال (وعلى الأخص مع تراجع الهيمنة السياسية لحزب العمل) ولكنه لا يزال قوياً إلى حد كبير ، وقد تركت الخبرة العسكرية المشتركة لجميع المواطنين اليهود تقريباً بصمة لا يمكن محوها على سياسة تلك الدولة، ولاشك أن وجود نخبة من العسكريين من ذوى الخبرة وخاصة فى وحدات الجيش المختارة والخبرة القتالية التى اكتسبها الجيش فى العديد من الحروب التى خاضتها إسرائيل ، لا شك أنها كانت من بين العوامل المهمة وراء النجاح الذى تحقق فى الساحة السياسية .

وأخيراً ، وفى عدد من الدول تعتبر وحدات النخبة العسكرية إضافة إلى أجهزة الاستخبارات السرية الفعالة من الدعامات الأساسية فى تأمين وحماية النظام ضد المعارضة السياسية . ومن المؤكد أن هذا ينطبق على دولة مثل العراق ، والتى يوجد بها ست عشرة فرقة عسكرية من قوات المخابرات العسكرية ، والتى تتفاوت فى درجات قوتها ، وتعد كل واحدة منها مسئولة عن نوع محدد من أنواع الجرائم (ما كيا ١٩٩٣ : ٣٣٩) .

ويتطلب الالتحاق بالأكاديميات العسكرية العضوية فى حزب البعث العراقى الحاكم، وبمجرد قبولهم فى تلك الأكاديميات فإنه يتوقع أن يظهر العسكريون الجدد التزامًا صارمًا بالدفاع عن العراق والولاء التام لنظام صدام حسين . وفى أعقاب حرب الخليج التى أعقبت الغزو العراقى للكويت فى عام ١٩٩٠ كانت قد ترددت أنباء عن وقوع اضطرابات وحالات تمرد وانشقاقات على مستوى عال من جانب قوات الحرس الجمهورى التى تعتبر قوات الصفوة فى الجيش العراقى . ومع هذا ، فإن أجهزة المخابرات والأجهزة الأمنية الأخرى مازالت تعمل بكفاءة وفعالية ، الأمر الذى يقلل من إمكانية ظهور معارضة منظمة ضد نظام الحكم الحالى .

جدول رقم (١ : ٤) النفقات العسكرية لدول الشرق الأوسط

الدولة	القوات المسلحة بالآلاف	لكل فرد (بالدولار)	النسبة المئوية من إجمالى الناتج المحلى	إجمالى النفقات (بملايين الدولارات)
الجزائر	١٢٣,٧	٦٢	٤,٠	١,٧٦٤
البحرين	١١,٠٠	٤٧٦	٥,٥	٢٧٩
جيبوتى	٨,٤٠	٣١	٥,٢	٢٠
مصر	٤٤٠,٠	٤٣	٤,٥	٢,٦٢٩
إيران	٥١٣,٠	٤٩	٥,٠	٣,٣٠١
العراق	٣٨٢,٥	٥٦	٨,٣	١,٢٢٤
إسرائيل	١٧٥,٠	١,٦٢٤	١٢,١	٩,٣٥٩
الأردن	٩٨,٧	٨٥	٥,٦	٣٩٠
الكويت	١٥,٣	٢,٢١٨	١٢,٩	٣,٥٠٥
لبنان	٤٨,٩	١١٦	٤,٤	٤٧٤
ليبيا	٦٥,٠	٢٢٧	٥,١	١,٢٧٢
موريتانيا	١٥,٧	١٣	٢,٩	٣١
المغرب	١٩٤,٠	٥٤	٤,٣	١,٥٣٩
سلطنة عمان	٤٣,٥	٩٥٥	١٥,٦	١,٨٧٦
قطر	١١,٨	١,٣٣٤	١٠,٢	٧٤٠
السعودية	١٦٢,٥	١,٠٣٠	١٢,٨	١٦,٩٩٩
السودان	٨٩,٠	١٣	٤,٣	٣٧٩
سوريا	٤٢١,٠	١٠٥	٤,٨	١,٥٥٣
تونس	٣٥,٠	٤٢	٢,٠	٣٩٠
تركيا	٥٢٥,٠	١١٠	٣,٩	٦,٨٥٦
الإمارات	٦٤,٠	٨٣٠	٥,٢	٢,٠٢٨
اليمن	٤٢,٠	٤٢	٣,٧	٣٥٤
مجموع دول المنطقة	١,٤٨٤	١,٠٠١	٣,٦	٢٦٥,٨٢٣

المصدر : البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة (١٩٩٨)

وفى أغلب الأحوال يعمد الحاكم فى أى من الدول العربية إلى تعيين أقاربه أو أصفياءه للقيام بالمهام الأمنية . ففى داخل المؤسسة العسكرية السعودية يشغل الأعضاء المقربون فى الأسرة المالكة جميع المناصب المهمة ، فوزير الدفاع السعودى الأمير سلطان بن عبد العزيز هو شقيق الملك فهد بن عبد العزيز ، ونائب وزير الدفاع هو شقيقه الأمير تركى ، ووزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز هو شقيق آخر للملك فهد ، كما يرأس الحرس الوطنى ولى العهد الأمير عبد الله بن عبد العزيز ، وبالمثل نجد أنه فى الأردن هناك أغلبية ساحقة من ضباط الجيش تنتمى إلى العائلات البدوية من الضفة الشرقية وتربطها أواصر قرابة بالأسرة المالكة يعود تاريخها إلى الأيام الأولى لقيام الدولة وقبلها .

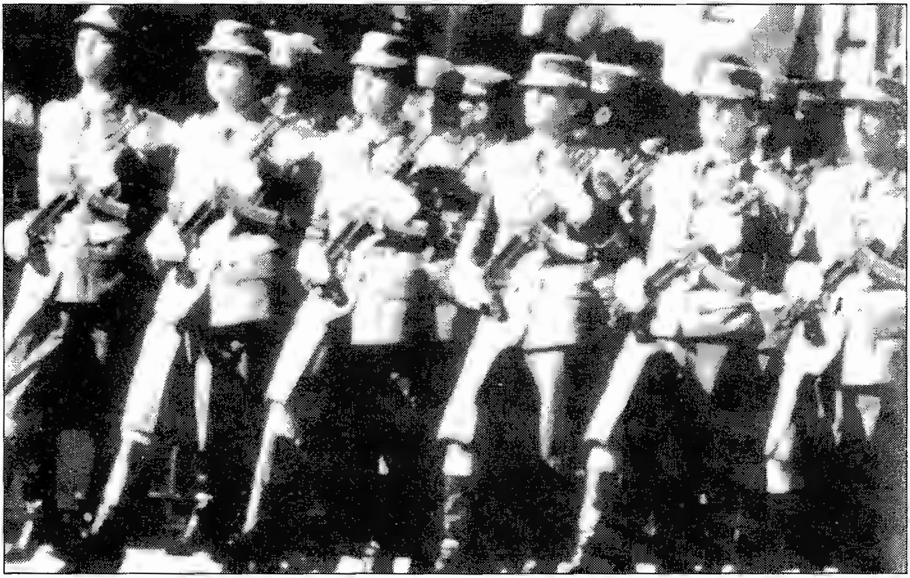

صورة رقم (١ : ٤) مجندات يشاركن فى عرض عسكرى فى الجزائر .

والحقيقة أن مضامين المشاركة الهائلة من قبل الجيش فى شئون الحكم فى بلدان الشرق الأوسط تعتبر عميقة فعندما ينبغى على نظام ما أن يعتمد على الجيش لحمايته من حركات المعارضة ، والإرهاب ، أو الاضطرابات والحروب المدنية ، يصبح ذلك

النظام عرضة لمخاطر ما يعرف باسم البريتورية ، أو الحرس الإمبراطورى الرومانى، وهو موقف تواجه فيه السلطات المدنية تهديدات مستمرة من القوات العسكرية القوية التى تحاول تشكيل كافة أنواع القرارات السياسية بينما تبقى رسميًا خارج الحكومة ويلسون ١٣٥ : ١٩٩٦) . وتظهر الإنذارات المتكررة التى وجهها الجيش التركى فى عام ١٩٩٧ إلى رئيس الوزراء آنذاك ، نجم الدين أربكان ، لإرغامه على الاستقالة من منصبه كرئيس للحكومة وأيضاً كزعيم لحزب الرفاه الإسلامى ، تظهر كيف أن هذه الضغوط العسكرية تؤتى ثمارها ، وعلاوة على هذا ، فإنه بمجرد أن تبدأ هذه الجيوش والمؤسسات العسكرية فى أداء المهام المرتبطة بالأحزاب ، والهيئات التشريعية ، وجماعات المصالح ، فإنها تعتبر أن تلك المؤسسات السياسية لا علاقة لها بالأمر كله (بيل وسبرينجبورج ٢٣٥ : ١٩٩٤) ، وهو ما يجعل الليبرالية السياسية أكثر صعوبة .

● الأيديولوجيات السياسية والمؤسسات والقيادة

كما هو الحال بالنسبة إلى معظم الدول المستقلة حديثاً ، فقد كان التحدى السياسى الأساسى للشرق الأوسط فى عهد ما بعد الحرب العالمية الثانية يتمثل فى مهمة بناء الدولة : تشكيل حكومات شرعية ، ومستقرة وقادرة على العمل اعتماداً على تمتعها بالحكم الذاتى سواء إقليميًا أو عالميًا (هدسون ١٩٧٧) . ولأسباب متنوعة لم يكن هذا بالأمر اليسير ، ففى المقام الأول ، كانت الهياكل السياسية الحالية فى العديد من بلدان الشرق الأوسط مفروضة عليها من قوى خارجية ، ولم تكن ناشئة عن عملية تدريجية نتجت من داخل هذه الدول . وهكذا كانت تضطر حكومات هذه الدول حديثة العهد بالاستقلال إلى المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وإلى الشرعية العريضة التى كانت ستتواجد لو أن نشاط بناء الدولة قد بدأ على مستوى القاعدة . وفى العديد من الدول ، كان يعنى وجود شركات متعددة الجنسيات قوية (ولاسيما شركات البترول الدولية) أن الدول الجديدة قد أمكن اجتذابها فوراً فى إطار الاقتصاد السياسى العالمى دون إتاحة الفرصة لتفويض نوع العلاقة القائمة والتى ستعود بأقصى قدر من المنفعة على اقتصاداتها . وهذا أيضاً قد جعل مهام الحكومة أكثر صعوبة .

وقد كان هناك تعقيد آخر تمثل فى الحدود غير الواضحة والقائمة بين الدول وكيان ما وراء الدولة الجماعى الذى استلهمته الشعوب من الثقافة الإسلامية العربية المشتركة، والتاريخ والرؤية المشتركة . (سيلا ٤ : ١٩٩٨) . ونتيجة لهذا يوجد ثمة

اختلاف جوهرى بين الحكم المثالى بتحقيق أمة عربية واحدة تجمع الشعوب العربية كلها ذات التاريخ والثقافة المشتركة والشعوب اليهودية المشتركة وتمتد من مضيق هرمز إلى المحيط الأطلسى ، وبين الممارسات العملية لما يربو على عشرين دولة عربية تتمتع بالسيادة السياسية . ففى عالم مختلف ومتباين ، قد يكون من الأفضل ظهور أمة عربية واحدة . فالمنطقة تتميز على الأقل بالتماسك أو التلاحم العرقى بين شعوبها وكما هو الحال فى الهند وروسيا وأندونيسيا كما يمكن مقارنتها من حيث الحجم بأى من هذه الدول الثلاث ، ومع ذلك فإن التورط الاستعمارى الأوروبى والمصالح المتعارضة والمتباينة لكل من جماعات الصفوة الإقليمية والدولية قد حالت دون تحقيق هذه النتيجة . ورغم هذا يرى بعض العرب أن الانقسامات والخلافات السياسية الحالية شرعية وأنها خلافات إشكالية أيضاً ويرفضون مثلاً ، فصل لبنان عن سوريا ، وفى هذا السياق ، فإنهم يعتقدون أنه من الملائم تماماً بالنسبة لدولة ما أن تتدخل فى الشئون الداخلية لدولة أخرى ، نظراً لأن الدول كلها جزء من عالم عربى أكبر ، ومن المنظور العربى ، فإن نموذج الدولة ـ الأمة المعاصرة قد يبدو أشبه بالحذاء الذى يعد مقاسه غير ملائم تماماً ، مما يسبب ورماً صغيراً فى مكان أو آخر .

مصادر الشرعية الحكومية :

طوال الخمسينيات والستينيات ، حاول الزعماء العرب الحصول على الشرعية لحكمهم بطرق ووسائل شتى ، ومن خلال أساليب ابتكار أيديولوجيا هائلة، مثل نظام حزب البعث ، حيث عمدوا من خلال هذه الأساليب المبتكرة إلى موازنة متطلبات الدولة مع تطلعات وآمال الأمة العربية جمعاء . وفى أوائل السبعينيات ، هيمن كل من نظام الحكم الملكى المحافظ والحكم العسكرى أو الجمهوريات الثورية ذات الحزب الواحد ، على المشهد السياسى برمته ، وكانت الأنظمة الملكية التقليدية ، مثل الأنظمة القائمة فى شبه الجزيرة العربية تستند بقوة على القبلية ، حيث يضطلع الملك أو الأمير بدور رب الأسرة الأكبر سناً والذى يفعل ما يرى أنه الأفضل لمصلحتها ، أما الأنظمة الملكية الدستورية كالتى نجدها فى دول مثل الأردن والمغرب وإيران فى عهد الشاه ، فقد أبقت على الملك باعتباره يمثل السلطة السياسية المطلقة ، ولكنها أسست أيضاً هيئات ومجالس تشريعية منتخبة ومنحتها سلطات وصلاحيات متواضعة كما طورت هياكل بيروقراطية حكومية مهمة .

وعلى النقيض من ذلك ، اضطلعت بعض الأنظمة الثورية بمهامها فى ظل قيادة فردية استبدادية (وعلى الأخص فى ليبيا وسوريا والعراق) فى حين اعتمدت أنظمة الحكم فى دول أخرى (مثل الجزائر ومصر وموريتانيا وتونس وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) على قوة الأيديولوجيا السياسية المهيمنة ، والتى تجسدت من خلال وجود حزب سياسى واحد ، من أجل توفير الدعم والمساندة والشرعية اللازمة لقيادة الدولة ، ولا يجب المغالاة فى التمييز بين هذه النماذج المختلفة لأنظمة الحكم نظراً لأنه فى منطقة كالشرق الأوسط نلاحظ أن السياق التاريخى يتضمن مجموعة من الطرق التى تتداخل وتتشابك من خلالها هذه الأنظمة (أندرسون ١٩٩١) . ولبنان هو البلد العربى الوحيد الذى لم يحكمه ملك أو قيادة ثورية فى القرن العشرين . إذ إن قيامه كدولة عربية ذات أغلبية مسيحية ، وكما نصت على ذلك الاتفاقية الوطنية لعام ١٩٤٣ ، جعله فريداً فى المنطقة .

ولا يمكن إدراج تركيا وإيران وإسرائيل ضمن النموذج الملكى أو النموذج الثورى ، ومع ذلك تعكس هذه الدول نفس الضغوط الناجمة عن التطور السياسى وعمليات النضال من أجل الشرعية الحكومية التى أثرت على المنطقة بأسرها . ولا شك أن الحكومتين التركية والإسرائيلية تعتبران نتاجاً للأيديولوجيات الأوروبية الليبرالية التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من قبيل الأيديولوجيات القومية ، وهى الأيديولوجيات التى كانت قد فرضت ضمن خلفية لمجتمعات أكثر تقليدية . وفى إطار تأسيس هياكلها السياسية استلهمت الدولتان كلتاهما أساليب وطرق التحديث السياسى غربية الطراز (فى حالة تركيا ، نظراً لقربها الجغرافى من أوروبا ، وفى حالة إسرائيل ، كنتيجة لنشأتها الأصلية كحركة قومية جمعت يهود الشتات) أكثر من استلهامها أسلوب الحكم الفردى أو العائلى والذى نجده حالياً فى الكثير من دول المنطقة ، وتبعاً لذلك فإن النظامين التركى والإسرائيلى يرتكزان على قواعد علمانية ديمقراطية رسمياً ، وذلك رغم افتقارهما إلى التكامل السياسى للأقليات السياسية أو العرقية ، وهما يقبلان أيضاً مبدأ المساءلة العامة للقيادة السياسية ، وفى أواخر التسعينيات رغم هذا كانت الدولتان تتعاملان مع سلسلة التحديات الرئيسية من جانب العناصر الأصولية التى تسعى لإعادة تحديد الدور الذى يضطلع به الدين داخل هاتين الدولتين ، وتسعى أيضاً لتحدى الطبيعة الديمقراطية الليبرالية .

صورة رقم (٢ : ٤) الحرس النسائى للزعيم الليبى معمر القذافى ينظمن اجتماعًا حاشدًا فى العاصمة الليبية طرابلس .

صورة رقم (٣ : ٤) إحدى صور الزعيم العراقى صدام حسين التى (كانت)* تنتشر فى أنحاء العاصمة بغداد . وفى الصورة أيضًا سيدة عراقية تحمل خبزًا على رأسها .

الإسلام السياسى :

مازالت الأنماط السياسية التى تأسست ضمن الثورات الأولى للاستقلال قائمة حتى اليوم ، وإن يكن قد طرأ عليها بعض التعديلات التى جاءت استجابة للضغوط من أجل المزيد من التحرر السيا[illegible] (ثورتون ١٩٩٥) . وفى الوقت نفسه ، ظهر فى غضون العقود الأخيرة نموذج جـ[illegible] لا وهو الجمهورية الإسلامية التى باتت تشكل تحديًا متزايداً وعلى درجة كبيرة من الأهمية للأيديولوجيات العلمانية القومية المستخدمة فى إضفاء صبغة شعبية على كل من النظم القائمة وحركات المعارضة فى الدول الثورية ، ولا يجب أن يدهشنا هذا لأنه يعكس فى الواقع نموذجين عامين أكثر عالمية : النموذج الأول نموذج شائع بالنسبة إلى أناس يرون أن العالم من حولهم

---

* آنذاك

يتغير دوماً ، ويشعرون بأن القيم التى يتمسكون بها بشدة مهددة بالخطر ، ويعتقدون أن الحكومة لا تستجيب لمخاوفهم وهمومهم بشأن تحويل الدين إلى مصدر للتقاليد والاستقرار . وهكذا يصبح التعبير الدينى طريقة لإيضاح أو إظهار الشعور بالإحباط إزاء الهياكل السياسية القائمة وعلى سبيل المثال ، جادل حسن البنا (١٩٠٦ – ١٩٤٨) وهو مؤسس حركة الإخوان المسلمين فى القرن العشرين ، جادل بأن الهيمنة الاستعمارية فى المنطقة إبان القرنين التاسع عشر والعشرين كانت نتيجة مباشرة لتضاؤل أهمية الإسلام فى حياة الناس ، ومن ثم فإن العودة إلى الإسلام والتمسك بآداب الدين الإسلامى وتعاليمه وأحكامه لابد وأن يؤديا حتماً إلى تحسن الوضع السياسى . والنموذج الثانى يتمثل فى أن الأفراد غالباً ما يركزون اهتمامهم على الأبعاد السياسية للدين عندما يرون أنفسهم عرضة للقهر والقمع على أيدى الحكومات العلمانية . وفى الشرق الأوسط ، هناك عدد من الدول ذات الهياكل والأجهزة الأمنية الداخلية القمعية الوحشية التى تخلق جواً يفضى حتماً إلى بروز حركات معارضة إسلامية (بوليت ١٩٢ :١٩٩٩) .

والحقيقة أن هذين النموذجين ظهرا فى إيران فى ظل حكم الملك البهلوى محمد رضا شاه . إذ إن الشاه قد عمد فى ذلك الوقت إلى ربط سياسته فى قمع خصومه ومعارضيه ومزاعمه بشأن حقه التاريخى فى الحكم ، ربطها بحكم البلاد استناداً إلى إجراءات تحديث غربية التوجه من قبيل ما عرف وقتها فى إيران بالثورة البيضاء . وقبل بضع سنوات من اندلاع الثورة الإيرانية التى أدت إلى تأسيس الجمهورية الإسلامية ، أقام الشاه احتفالاً ضخماً كان يعكس حالة الإسراف والبذخ الشديد التى كانت تعيشها أسرته ، وذلك بهدف ربط فترة حكمه بفترة حكم الإمبراطورية الفارسية القديمة . وكانت أغلبية السكان فى إيران تنظر بقدر كبير من الشك والارتياب فى سلوكيات الشاه وتصرفاته والتى كانت تعكس فى رأيهم مدى هشاشة وضع الشاه . وخلافاً للنموذجين التركى والإسرائيلى ، فإن النموذج الإيرانى برهن على أنه غير مستقر تماماً .

وعلى الرغم من أن أولى التجارب وأكثرها نجاحاً لتطبيق نظام الإسلام السياسى المعاصر قد حدثت على حافة العالم العربى فى إيران إلا أنه سرعان ما تجاوز هذا النموذج الإسلامى الناجح حدود إيران ليمتد إلى دول أخرى مثل السودان وموريتانيا ، بل إنه أضحى بمثابة تحد رئيس فى الجزائر ، وأثر أيضاً على ديناميكيات المسرح

السياسى فى أرجاء منطقة الشرق الأوسط ، بما فى ذلك مصر وأيضاً فى لبنان الذى كانت تقطنه فيما مضى أغلبية من السكان المسيحيين . ومن ثم يمكن القول بأن الجذور الراسخة للإسلام والتى تضرب فى أعماق المنطقة ، وتأكيده على المساواة الاجتماعية والاقتصادية وتحقيق العدالة بين البشر وهى القيم التى وعدت بها الأيديولوجيات الثورية القومية ولكنها عجزت عن تحقيقها ، ناهيك عن نظام العقيدة الشامل الذى يتسم به الإسلام والذى يعد مرشداً ودليلاً للمسلمين فى شتى جوانب حياتهم ، وانتقاده الهادف والموضوعى للأهداف والقيم الغربية ، كل هذا يعد عاملاً حاسماً ومهماً فى فهم النجاح الهائل الذى أحرزه الإسلام كأداة للعمل السياسى .

● **إطار عمل لتقسيم دول الشرق الأوسط إلى مجموعات :**

كما سبقت الإشارة يمكن تقسيم الحكومات فى الشرق الأوسط إلى أربع مجموعات: الجمهوريات الثورية القومية ، والدول الملكية ، والدول الإسلامية ، والدول الديمقراطية. وتتميز المجموعة الأولى التى تضم الجمهوريات الثورية القومية مثل الجزائر ومصر وسوريا وليبيا والعراق ، تتميز عامة بوجود حكم الحزب الواحد الذى يدعمه هيكل أو تنظيم مؤسسى قوى للدولة . والمجموعة الثانية تشتمل على الدول ذات الأنظمة الملكية سواء التقليدية أو البرلمانية، وهى المملكة العربية السعودية ، إضافة الى عدد من دول أخرى فى منطقة الخليج. أما إيران وموريتانيا والسودان فإنها تعتبر ضمن مجموعة الجمهوريات الإسلامية ، بينما تصنف تركيا وإسرائيل ولبنان بوجه عام ضمن المجموعة الرابعة والأخيرة للدول الديمقراطية، وذلك على الرغم من أن لدى كل واحدة من هذه الدول الثلاث عناصر قد تثير الشكوك حول نظمها الديمقراطية .

وبطبيعة الحال فإن أى جهد يبذل لإيجاد مثل هذا التصنيف لدول المنطقة قد يكون انعكاساً غير دقيق ولا يعبر بصدق عن الواقع الحقيقى ، لا سيما وأن معظم المؤسسات السياسية فى هذه الدول مجتمعة تحتوى على عناصر لعدة أنظمة . فمثلاً نجد أن جمهورية إيران الإسلامية تجرى انتخابات منتظمة قائمة على المنافسة فى الوقت الذى يلعب فيه الإسلام دوراً بالغ الأهمية فى العديد من الجمهوريات الثورية ، وعلى أى حال ، فإن هذا التصنيف لأنظمة الحكم فى دول منطقة الشرق الأوسط يقدم طريقة ربما تكون ملائمة لمناقشة التنوع فى الأشكال التى تأخذها حكومات الشرق الأوسط . (الجدول رقم ٢ : ٤)

جدول رقم (٢ : ٤) المشاركة السياسية الرسمية فى دول الشرق الأوسط فى (عام ١٩٩٩)

الدولة (سنة الاستقلال)	النظام التنفيذى والتشريعى	الأحزاب السياسية قانونية أم غير قانونية	تاريخ حق الاقتراع السياسى للمرأة	تاريخ أول تمثيل برلمانى للمرأة
الجزائر (١٩٦٢)	الرئيس ، الجمعية الشعبية الوطنية	نعم	١٩٦٢	١٩٦٢
البحرين (١٩٧١)	ملكية مطلقة ، مجلس شورى معين	لا	أ	أ
جزر القمر (١٩٧٥)	انقلاب عسكرى ، مايو ١٩٩٩	ن . أ	١٩٥٦	١٩٩٣
جيبوتى (١٩٧٧)	رئيس	ن.أ	١٩٤٦	–
مصر (١٩٢٢)	رئيس ، رئيس وزراء مجلس شعب	نعم	١٩٥٦	١٩٥٧
إيران (١٩٢٥)	زعيم دينى أعلى ، رئيس ، مجلس شورى إسلامى	لا	١٩٦٣	١٩٦٣
العراق (١٩٤٢)	رئيس ، جمعية وطنية	نعم	١٩٨٠	١٩٨٠
إسرائيل (١٩٤٨)	رئيس ، رئيس وزراء ، برلمان	نعم	١٩٤٨	١٩٤٩
الأردن (١٩٤٦)	ملك ، رئيس وزراء، جمعية وطنية	نعم	١٩٤٧	١٩٨٩
الكويت (١٩٦١)	أمير ، جمعية وطنية	لا	ب	ب
لبنان (١٩٤٣)	رئيس ، رئيس وزراء ، مجلس نواب	نعم	١٩٥٢	١٩٩١
ليبيا (١٩٥١)	رئيس ، جمعية شعبية وطنية	لا	١٩٦٤	ن . أ
موريتانيا (١٩٦٠)	رئيس ، رئيس وزراء ، برلمان	نعم	١٩٦١	١٩٧٥

المغرب (١٩٥٦)	ملك ، رئيس وزراء ، جمعية وطنية	نعم	١٩٦٣	١٩٩٣
عمان (١٩٥١)	ملكية مطلقة ، مجلس شورى منتخب جزئياً	لا	أ	ج
الأراضى الفلسطينية (د)	رئيس ، مجلس تشريعى	نعم	١٩٩٦	١٩٩٦
قطر (١٩٧١)	أمير ، مجلس شورى منتخب	لا	١٩٩٩	–
السعودية (١٩٣٢)	ملكية مطلقة ، مجلس شورى معين	لا	أ	أ
الصومال (١٩٦٠)	ليس بها حكومة	ن . أ	ن . أ	ن . أ
السودان (١٩٥٦)	رئيس ، جمعية وطنية	لا	١٩٦٤	١٩٦٤
سوريا (١٩٤٦)	رئيس ، مجلس شعب	نعم	١٩٥٣	١٩٧٣
تونس (١٩٥٦)	رئيس ، رئيس وزراء ، مجلس نواب	نعم	١٩٥٩	١٩٥٩
تركيا (١٩٢٣)	رئيس ، رئيس وزراء ، جمعية وطنية	نعم	١٩٣٤	١٩٣٥
الإمارات (١٩٧١)	اتحاد إمارات	لا	أ	أ
اليمن (١٩٩٠)	رئيس ، جمعية وطنية	نعم	١٩٦٧ (و)	١٩٩٠

المصدر : البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة (UNDP) : (٥٥٨) للعلومات التى وردت هنا عن النظم التنفيذية والتشريعية فى الدول المذكورة بالجدول ، ما عدا جزر القمر ، وجيبوتى ، وقطر والصومال والإمارات مصدرها ليفاين (١٦ : ١٩٩٨) .

ملاحظات :

(أ) تعنى أنه لا الرجال ولا النساء لهم حق الاقتراع فى الانتخابات .

(ب) تعنى أن النساء ليس لديهن حق التصويت أو الترشيح فى الانتخابات ، وفى عام ١٩٩٩ ، أصدر أمير الكويت مرسومًا أميرياً بمنح المرأة كافة حقوقها السياسية ، ولكن البرلمان لم يصادق بعد هذا على المرسوم .

(ج) تعنى أنه تم ترشيح النساء فى مجلس شورى غير منتخب .

(د) تعنى أن الأراضى الفلسطينية لم تحصل بعد على استقلالها

(هـ) التاريخ يشير إلى اتحاد كل من الجمهورية العربية اليمنية واليمن الديمقراطية الشعبية

(و) تشير إلى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية السابقة

(ن أ) لا تتوافر أية معلومات

الجمهوريات الثورية والقومية :

خلال الجزء الأكبر من القرن العشرين كانت الدولة الثورية القومية واحدة من أهم نماذج الحكم السائدة فى منطقة الشرق الأوسط على الرغم من أن هذه المنطقة قد عانت كثيراً ، من جراء قربها الجغرافى من أوروبا ، من التجارب المريرة التى أفرزها قرنان من التدخل الاستعمارى فى شئون دولها وفى شئونها السياسية على وجه الخصوص . ومع هذا ، فإن هذا الجوار الجغرافى من أوروبا أتاح على الأقل ميزة تعويضية واحدة ، ألا وهى تعرض المنطقة بصورة مكثفة ودائمة للتيارات الفكرية التى رافقت أركان الدولة الصناعية الحديثة فى أوروبا ، ولا سيما التيار القومى ، أو النزعة القومية ، والليبرالية السياسية ، والاشتراكية .

ونتيجة لهذا ، وكما أشار آرثر جولد شميت فى الفصل الثالث بعنوان الصحوة العربية ، بدأت (أنطونيوس – ١٩٤٦) فى الفترة من أوائل وأوساط الثمانينيات سلسلة من حركات الاستقلال وحركات تقرير المصير والتى بلغت أوجها فى القرن العشرين . وبسبب القيود التى فرضت أثناء الحقبة الاستعمارية ، أمكن تنفيذ القليل فقط من هذه الأفكار قبل الخمسينيات ، بيد أنه قد توفر على الأقل الأساس الفكرى من

خلال ظهور بعض الكتابات السياسية باللغة العربية ، وهى الكتابات التى تناولت تاريخ المنطقة (خالدى ١٩٩١ ، الطيبى ، ١٩٩٧) . وفى هذا الشأن ، كان الشرق الأوسط فى موقف يختلف تماماً عن مثيله فى آسيا أو فى منطقة أفريقيا الصحراوية ، واللتان كانتا معزولتين نسبياً عن التطورات السياسية الأوروبية من جراء التأثير الحاد للبعد الجغرافى الطبيعى فى الأيام التى سبقت ظهور الاتصالات السلكية واللاسلكية .

وتظهر أول حركة قومية ناجحة فى القرن العشرين فى الشرق الأوسط ، وهى الحركة التى قادها كمال أتاتورك فى تركيا عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى ، تظهر نتائج وانعكاسات هذه التأثيرات . إذ إن أكثر الأفكار المبتكرة إثارة لدى أتاتورك فى ذلك الوقت ، وهى إدخال العلمانية فى تركيا ، كانت تتوافق تماماًمع الحركات الثورية الليبرالية من أيام الثورتين الأمريكية والفرنسية فصاعداً . ورغم أن أتاتورك كان متردداً إزاء مسألة اقتسام السلطة ، إلا أنه أيد فكرة تبنى إصلاحات سياسية أوروبية ، من قبيل إيجاد نظام برلمانى ورئيس للوزراء ومجلس للوزراء يتم اختيار أعضائه من الجمعية الوطنية الكبرى . وهذا كان يعنى أن الهياكل الضرورية لحكومة تشارك فى السلطة كانت قيد التنفيذ بعد وفاة أتاتورك .

وعلى النقيض من ذلك ، فإن الجهود الأولى التى بذلها أهل الفكر وأعضاء الطبقات المتوسطة فى إيران للحد من سلطة أسرة كاجار الحاكمة وإعطاء السيطرة لجمعية أو برلمان منتخب قد منيت بالفشل . وبحلول منتصف العشرينيات ، كان قد تم استبدال حاكم أسرة كاجار بالشاه رضا خان ، والذى أسس أسرة بهلوى التى كان عمرها قصيراً نسبياً فى الحكم . وعمد رضا خان وابنه محمد رضا بهلوى إلى ربط عملية التحديث الاجتماعى ، والاقتصادى ، والعسكرى بالحكم القمعى والاستبدادى . ولم تبذل جهود كبيرة لتعزيز وتقوية البرلمان الوليد أو تطوير مؤسسات ديمقراطية أخرى (هاليداى ، ١٩٧٩) .

وبسبب النزعة الاستعمارية والحروب العالمية ، انقضت ثلاثة عقود أخرى قبل أن تبدأ عملية بناء الدولة فى الشرق الأوسط العربى ، ولكن حينما بدأ زوال الاستعمار فى أوائل الخمسينيات ، كانت هنالك حركات أيديولوجية مهمة جاهزة وبانتظار تحدى الأنظمة السياسية التى برزت بعد الحقبة الاستعمارية مباشرة والتى فرضتها بريطانيا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة . وهكذا ، شهدت حقبتا الخمسينيات والستينيات انتشار

هياكل وأساليب سياسية بديلة ، والتى كانت تجمع فى الغالب ما بين القيم السياسية الإسلامية والمبادئ والأسس التاريخية فى إطار عمل علمانى بطريقة رسمية . وما أثار استياء وامتعاض كل من الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وفرنسا أن معظم هذه الأيديولوجيات الجديدة كانت تعتمد على نظريات كارل ماركس ولينين أكثر من اعتمادها على نظريات توماس جيفرسون وجون لوك . ونتيجة لهذا ، أكدت تلك الأيديولوجيات على وجود دولة قوية ومركزية (وبيروقراطية) ، وهى سمة بارزة مازالت قائمة حتى اليوم حتى فى الدول التى كانت تتبنى نهجاً مختلفاً .

وحين ننظر إليها فى سياق الخمسينيات والستينيات ، فإن بوسعنا الإشارة إلى وجود عدة أسباب تكمن وراء توافق الأساليب «اليسارية» وانسجامها مع السياسة ، وهى أسباب لا علاقة لأى منها بما يطلق عليه «الاستثنائية العربية» أو الاحترام الشرق أوسطى ، وعلى نحو متميز ، للسلطة المركزية . وفى المقام الأول ، كانت عملية توحيد ودمج سلطة الدولة متوافقة مع الاتجاهات السياسية الغربية السائدة فى مضمار الحكم . وخلال العقدين السابقين ، أصبح لدى الديمقراطيات الليبرالية فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية سلطة مركزية متزايدة ، الأمر الذى مكنها فى البداية من مواجهة آثار أزمة الكساد ، ومن ثم تعبئة اقتصادها للحرب العالمية الثانية . وجادل كل من المنظرين السياسيين الماركسيين والتقدميين بأن مثل هذا التوسع فى سلطة الحكومة المركزية كان ضرورياً للتصدى للقوة الاقتصادية الرأسمالية الصناعية .

ثانيًا ، ومن منظور الخمسينيات ، وليس منظور الألفيتين الأولىٰ والثانية ، كانت عناصر النموذج الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى السابق عناصر جذابة تماماً . ففى غضون ٢٥ عاماً فقط ، كان الاتحاد السوفيتى قد تحول من مجتمع شبه إقطاعى إلى قوة صناعية قادرة على مجابهة الهجوم العسكرى لواحد من أكثر الاقتصادات تقدماً فى أوروبا إبان الحرب العالمية الثانية . ولهذا تمكن الاتحاد السوفيتى من النجاة من أزمة الكساد العظيم التى كانت قد اجتاحت معظم العالم الرأسمالى ، وفى فترة الخمسينيات ، نلاحظ أن الضرائب التى جباها ستالين من جراء فرض سياساته الوحشية على الشعب السوفيتى لم تكن معروفة أو مفهومة على نطاق واسع . وهكذا ، فإن الأشكال المتنوعة للاشتراكية كانت جذابة ليس فقط فى العالم العربى ، بل أيضاً فى كل منطقة كانت تشهد تجربة زوال الاستعمار(مثل الصين ، وفيتنام ، وكوبا ،

ومناطق أخرى فى أفريقيا) . وربما كانت الاشتراكية ستطبق حتى على نطاق أوسع بكثير مما كان مقدراً لها بالفعل لولا الجهود التى بذلتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) وأجهزة الاستخبارات الأخرى خلال فترة الحرب .

وأخيراً ، كان اليسار السياسى ، وليس اليمينى ، هو الذى قد دأب على معارضة النزعة الاستعمارية . وكما ستأتى الإشارة إلى ذلك لاحقاً ، فإن الأنظمة الملكية ، بلا استثناء تحالفت مع القوى الاستعمارية أو مع خليفتها الأخرى ، وهى الولايات المتحدة ، وحتى فى عهد الاستعمار ، قدمت الجماعات التقدمية والاشتراكية مساعدة لقضية مناهضة الاستعمار أكبر من العون الذى قدمته الديمقراطيات الليبرالية . وهنا نلاحظ أن اثنين من أبرز الأنظمة الديمقراطية الليبرالية الأوروبية وهما بريطانيا وفرنسا ، كانا أيضاً أكثر الأنظمة الليبرالية الأوروبية تدخلاً فى الشئون العربية . ورغم أنه من المحتمل أن تكون الولايات المتحدة قد استطاعت استغلال سياساتها المناوئة للنزعة الاستعمارية من أجل الترويج لجدول عمل ديمقراطى ليبرالى (وكما فعلت أثناء أزمة السويس فى عام ١٩٥٦) ، إلا أنها حرصت دائماً على إخضاع مثل هذا الهدف لمتابعة جدول أعمالها البسيط الخاص بمناوئة الشيوعية ، ومن ثم ، فإن قيام وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) بالإطاحة بحكومة محمد مصدق فى إيران عام ١٩٥٢ ، وسياساتها المعادية للناصرية فى أعقاب أزمة قناة السويس ، وتدخلها العسكرى فى لبنان ، وفى منتصف الستينيات ، زيادة النشاط العسكرى الأمريكى فى أندونيسيا ، كل هذا قد قضى على أية مصداقية مناوئة للاستعمار والتى يستحيل أن تكون الولايات المتحدة قد اكتسبتها يوماً ما .

والحقيقة أن المناقشة المستفيضة والوافية للتيارات الفكرية المتنوعة فى الفكر السياسى العربى خلال هذه الفترة يمكن أن يكفى لتأليف العشرات من الكتب ، ومع أنى استوعبت العديد من المؤلفات بالفعل . وهنا سنقدم موجزاً عن معتقدات أسلوبين أيديولوجيين قد كان لهما تأثيرهما العميق على الساحة السياسية الشرق أوسطية ، أولاهما : البعثية ، والناصرية ، وذلك قبل أن نتحول إلى مناقشة قصيرة للموقف المعاصر للجمهوريات الثورية القومية الثلاث : مصر ، وتونس ، وسوريا .

البعثية :

يعتبر حزب البعث واحد من الحركات السياسية فقط والذى يحظى بشعبية واسعة فى العالم العربى . وفي الأربعينيات تأسس حزب البعث العربى على يد سوريين ، هما ميشيل عفلق الأرثوذكسى اليونانى (الذى كان الزعيم الفكرى للحزب) ، وصلاح الدين البيطار المسلم السنى (الذى عمل كاستراتيجى سياسى) وقد اندمج هذا الحزب فى عام ١٩٥٣ مع حزب آخر هو الحزب الاشتراكى العربى ، ليشكلا معًا حزب البعث الاشتراكى العربى ، والمعروف أيضاً باسم الحزب الاشتراكى البعثى . وجاء الأعضاء الأوائل فى حزب البعث أساسًا من أوساط النخبة من المفكرين والمثقفين ، ولكن سرعان ما نال حزب البعث تأييداً واسعاً بين الجماعات المحرومة وأسس نفسه كحركة جماهيرية .

وكانت الأيديولوجيا الأساسية لحزب البعث تتألف من مجموعة من المبادئ والتى استندت إلى العديد من مصادر الشرعية فى العالم العربى : التاريخ ، الدين ، القومية، الحداثة ، الحرية ، والاشتراكية . والأهم من هذا كله أن الأيديولوجيا البعثية قد دعت إلى تحقيق الإصلاح الاجتماعى ، والعدالة الاقتصادية من خلال الاشتراكية العربية . وقاوم عفلق بقوة إغراء الاعتماد بشكل خاص على مفكرين اشتراكيين أوروبيين ممن كانوا يؤكدون دائمًا على فكرة الصراع الطبقى . وبدلاً من هذا ، أكد عفلق على أن النموذج الاقتصادى البعثى ليس رأسماليًا ولا شيوعياً . وإنما هو نموذج يقف فى منتصف الطريق ويعد نتاجًا لتاريخ العالم العربى الفريد من نوعه . وثمة عنصر رئيسى آخر للبعثية ، أو الفكر البعثى ، وهو تأكيده على الوحدة العربية الشاملة ، والتى كان من المفهوم أنها تتضمن توحيد الدول العربية القائمة فى كيان سياسى واحد كبديل للوطنية التى كانت تتمحور حول دولة بعينها . ومن ناحية ثالثة ، كانت البعثية مناهضة للإمبريالية ومعادية للصهيونية ، إذ إنها أكدت على تحقيق الاستقلال العربى الحقيقى من كافة صور الاستعمار .

وأخيراً ، دعت البعثية إلى التسامح إزاء جميع الأقليات الدينية داخل الإطار السياسى الإسلامى – العربى الذى كان يضم حكومة تمثيلية وحقوقاً مدنية . وأكد عفلق على أن الإسلام قوة تقويمية وتصحيحية تاريخياً ولكنها قوة تفتقر إلى دور أيديولوجى معاصر محدد أو دور سياسى (بيل وسبريجبورج ٧٣٠ : ١٩٩٤) .

ونتيجة لهذا ، يمكن القول بأن البعثية يمكن أن تروق لكل من الأغلبية السكانية المسلمة والمسيحيين الذين يمكن استبعادهم من صيغة قومية إسلامية أكثر وضوحاً . ويعد حزب البعث اللاعب السياسى المهيمن فى كل من سوريا والعراق ، وهو يلعب أيضاً دوراً أقل أهمية فى الأردن ، ولبنان ، وفى دول أخرى .

الناصرية :

كان جمال عبد الناصر عضواً فى حركة الضباط الأحرار التى خططت لثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ التى أطاحت بالملك فاروق . وبحلول نهاية عام ١٩٥٤ ، كان ناصر قد بدأ فى تعزيز وضعه وترسيخ مكانته كرئيس لمصر ، وكرئيس للوزراء ، وكرئيس أيضاً لمجلس قيادة الثورة والذى هيمن على مجريات الحياة السياسية فى مصر وحتى يتمكن من الاحتفاظ بالسلطة ، دعا عبد الناصر ، الذى كان يتمتع بشخصية كارزمية استطاعت أن تأسر قلوب الجماهير ، إلى تكوين دولة بيروقراطية قوية وإيجاد مجموعة متنوعة من المؤسسات القومية ، مثل الاتحاد الاشتراكى العربى الذى كان يسيطر عليه. وتطورت أفكار ناصر ومثله المرتبطة بالقومية العربية الشاملة والاهتمام المتزايد بالأيديولوجيات اليسارية لتتحول إلى عقيدة سياسية واقتصادية حظيت بتأييد شعبى واسع فى أرجاء العالم العربى وباتت تعرف باسم الناصرية .

وأكد ناصر دائماً على أنه يتعين تكييف الاشتراكية ومواءمتها مع الاحتياجات الخاصة بمصر ومتطلبات شعبها بدلاً من اتباع النموذج الماركسى للدول الأوروبية ، الذى كان يرفض الدين . وبدلاً من هذا ، وإلى حد ما كطريقة للاستجابة لجماعة الإخوان المسلمين ، حاول ناصر تأصيل نهجه الاقتصادى استناداً إلى النموذج الإسلامى لتوزيع الثورة الاقتصادية على أساس من العدل والمساواة :

النموذج الإسلامى كان يعنى وجود مجتمع بلا ظلم ، وهو ما يعنى التحرر من الجوع ، والحاجة ، والاستغلال ، والذى كان يعنى بدوره ملكية الشعب لوسائل الإنتاج ويتضمن وجود مجتمع مخطط . وفى إطار عمل الوحدة الوطنية ، تعمل الدولة على تشجيع الجميع من أجل العمل للمصلحة الوطنية . (هوبوود ١٠٠ : ١٩٨٥) .

ومع هذا ، وخلافًا للبعثية ، «لم تكن الناصرية فرضية علمية وضع تصوراتها بشكل جيد أيديولوجي واحد أو أكثر ، ولكنها برزت كأيديولوجيا من بين سلسلة من الاستجابات العملية للمشكلات ، الداخلية والخارجية ، التى واجهتها مصر وهى تحاول ترسيخ استقلالها السياسى والاقتصادى الذى نالته حديثًا» (هيرو ٢١٧ : ١٩٩٦) . وهكذا فإن تأثير الناصرية كحركة سياسية تناضل بعد وفاة ناصر لم يستمر ، بل وانهار العديد من الأحزاب الناصرية التى كانت قد تأسست خارج مصر .

دول الحزب الواحد :

هناك عدد قليل من الدول فى منطقة الشرق الأوسط لديها أنظمة سياسية تقوم بالفعل على التعددية الحزبية . وبدلاً من هذا ، يوجد فى أغلب الأحوال حكومة الحزب الواحد التى تهيمن على الساحة السياسية برمتها ، بالإضافة إلى مجموعة من أحزاب المعارضة غير الفعالة ، التى تفرض عليها قيود غالبًا ، والتى تحظى بقدر ضئيل من التأثير فى المسار السياسى للبلاد .

وفى إطار هذا المفهوم ، تعتبر مصر نموذجاً مثالياً للدولة البيروقراطية ذات الحزب الواحد. وينص الدستور المصرى لعام ١٩٧١ ، والذى جرى تعديله فى عام ١٩٩٠ ، على أن مصر جمهورية عربية اشتراكية وديمقراطية . ويدعو الدستور أيضًا إلى وجود رئيس قوى على رأس الحكم تسانده وتدعمه جمعية وطنية (برلمان) مؤلفة من ٣٥٠ عضواً على الأقل . وتتولى الجمعية الوطنية المصرية تعيين الرئيس ، وذلك من خلال إجراء استفتاء شعبى عام . ويتم الإعلان عن المرشح رئيساً للدولة إذا حظى ترشيحه بموافقة الأغلبية البسيطة من قبل الناخبين فى الاستفتاء . وفى الأصل ، كان الدستور المصرى ينص على أن يتولى رئيس الجمهورية الرئاسة لفترتين رئاسيتين فقط مدة كل منهما ست سنوات ، بيد أن الرئيس الراحل أنور السادات قد عدّل هذه المادة من الدستور بحيث تنص على أن بالإمكان إعادة انتخاب رئيس الدولة لفترات رئاسية غير محددة . وفى عام ١٩٩٩ ، تم انتخاب مبارك لرئاسة رابعة مدتها ست سنوات .

وخلال الفترة الواقعة بين استقلال مصر فى عام ١٩٢٢ وثورة الضباط الأحرار فى عام ١٩٥٢ ، جرى تطبيق نظام محدود للحكم قائم على التعددية الحزبية . وعلى مدى السنوات الخمس والعشرين التالية ، كان الاتحاد الاشتراكى العربى الحزب السياسى القانونى الوحيد . وعندما تم حل هذا الحزب في عام ١٩٧٧ ، أى بعد وقت قصير من إعلان أنور السادات العودة إلى النظام متعدد الأحزاب ، استبدل هذا الحزب بالحزب الوطنى الديمقراطى ، والذى واصل السيطرة على السياسة المصرية (راجع كورناى ، ١٩٩٨) . وفى عام ١٩٨٤ ، أجريت انتخابات عامة على أساس التعددية الحزبية لأول مرة ، وأصبح الآن فى مصر ما يربو عن عشرة أحزاب أخرى معترف بها بالإضافة إلى الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم. ومع هذا يعد تمثيل أحزاب المعارضة فى البرلمان تمثيلاً ضئيلاً للغاية ؛ إذ حصلت الأحزاب المعارضة على ١٤ مقعداً فقط فى الانتخابات العامة فى عام ١٩٩٥ ، والتى اتسمت بمقاطعة واسعة من الناخبين وباتهامات بالتلاعب فى نتائجها وتزويرها . وعلاوة على ذلك ، أجهضت الحكومة كافة المحاولات والجهود الرامية إلى تأسيس حزب سياسى إسلامى . ومع أخذ هذا كله فى الاعتبار لم تكن من قبيل المفاجأة أن تقاطع جميع أحزاب المعارضة انتخابات المجالس المحلية فى عام ١٩٩٧ .

وقد استطاع النظام السياسى المصرى أن ينجو من أزمتين سياسيتين كان من المحتمل أن يؤديا إلى انهياره ؛ ألا وهما موت جمال عبد الناصر بعد ثلاث سنوات من هزيمة مصر العسكرية فى حرب عام ١٩٦٧ مع إسرائيل ، واغتيال أنور السادات فى عام ١٩٨١ . والواقع أن الطبيعة المؤلمة فى البيروقراطية للدولة ، ناهيك عن اختيار أعضاء أحزاب المعارضة والسيطرة عليها ، قد حد بدرجة كبيرة من الخطوات الرامية إلى التحرر السياسى، والتحرر الاقتصادى فى مصر (تخفيف قيود الدولة على الاقتصاد حتى يتسنى للأسواق أن تلعب دوراً أكبر) قد أبقى على النظام الحكومى الذى أسسه ناصر كما هو دون أى مساس به. ولعل السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو ما إذا كانت مصر تشهد فعلاً مرحلة تحول ديمقراطية، أو ما إذا كانت ، وكما يجادل ايبرهارد كينلى (١٩٩٨) ، تمر بعملية زوال الليبرالية ، وبالتالى قد صارت أقل ديمقراطية مما كانت عليه خلال الثمانينيات .

وتقدم تونس مثالاً جيداً آخر للدولة ذات النظام متعدد الأحزاب رسمياً والتى يهيمن فيها الحزب الواحد تماماً على شئون السياسة . وكما هو الحال فى مصر ، كان أول زعيم فى تونس بعد الاستقلال وإلغاء الملكية شخصية قوية ومستبدة استطاعت أن تحدد المسار الذى تسلكه البلاد . إذ زعم الرئيس الحبيب بورقيبة أنه هو الذى اخترع تونس ، والحقيقة أن التأثير الذى تركه على البلاد طوال سنوات حكمه الثلاثين أو أكثر كان هائلاً وعميقًا . وطبقًا لدستور عام ١٩٥٩ ، تعتبر تونس جمهورية رئاسية يتمتع فيها رئيس الدولة بسلطات وصلاحيات تفوق تلك التى تتمتع بها الجمعية الوطنية المنتخبة . وفى ظل حكم بورقيبة ، عكفت تونس على تنفيذ نظام علمانى وقانونى على الطراز الغربى ، وحتى السبعينيات ، سلكت تونس مسار التنمية الاقتصادية ذى النمط الاشتراكى . وكانت المشاركة السياسية الشعبية تتم من خلال ما اعتبر ، ولسنوات طويلة ، الحزب السياسى القانونى الوحيد فى تونس ؛ وهو الحزب الدستورى الجديد ، وخليفته الحزب الاشتراكى الدستورى .

صورة رقم (٤ : ٤) الرئيس المصرى حسنى مبارك تولى السلطة منذ عام ١٩٨١

وفى الثمانينيات ، أدت صعوبات ومشكلات اقتصادية خطيرة أفرزتها السياسة الليبرالية الاقتصادية إلى تفجر موجة من حوادث الشغب والاضطرابات فى أنحاء تونس ونصح مستشارو بورقيبة بتنفيذ الانفتاح السياسى فى البلاد ، ولكنه رفض نصيحتهم ، بل وصار ينتهج سياسة أكثر قمعاً ، وأولى اهتماماً خاصًا لزعماء حركة الاتجاه الإسلامى . وفى النهاية ، أصبح الوضع الداخلى أكثر خطورة إلى حد الإطاحة بحكم بورقيبة على يد رئيس وزرائه زين العابدين بن على فى انقلاب

أبيض استطاع الاستفادة من مادة فى الدستور التونسى تنص على أنه فى حالة عجز رئيس الدولة عن الاضطلاع بمهامه ، يتم إسناد هذه المهام إلى رئيس الوزراء .

« وليس ثمة شك فى أن الانقلاب الأبيض الذى تزعمه بن على فى ٧ نوفمبر عام ١٩٨٧ ، مهد الطريق أمام حركة إصلاح سياسى اجتاحت أرجاء الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فى الثمانينيات . ووعد الرئيس الجديد بتأسيس وترسيخ حكم القانون ، وباحترام حقوق الإنسان ، وتنفيذ ذلك النوع من الإصلاحات السياسية الديمقراطية التى كان قد رفض بورقيبة إدخالها . وبالإضافة إلى الجزائر ، والأردن ، واليمن ، ركبت تونس ما كان يأمل الكثيرون فى أن تكون موجة من التحولات الديمقراطية فى المنطقة» (ألكسندر ، ٣٤ : ١٩٩٧) .

وبالنسبة للرئيس بن على ، الذى انتُخب لفترة رئاسية مدتها خمس سنوات فى عام ١٩٨٩ ، ثم أعيد انتخابه فى ١٩٩٤ ، وفى عام ١٩٩٩ ، فإنه قطع على نفسه التزاماً علنيًا بإدخال نظام حقيقى للتعددية السياسية فى تونس . بيد أن شيئًا من هذا لم يحدث. وعلى الجانب الإيجابى ، تتمتع تونس الآن بنظام سياسى متعدد الأحزاب ، حيث يوجد بها خمسة أحزاب سياسية معارضة على الأقل والتى وافقت الحكومة على أن تتنافس فى الانتخابات من أجل تمثيل محدود فى الجمعية الوطنية . ومع ذلك ، مازالت هناك عمليات قمع تمارس على نطاق واسع ضد الجماعات السياسية الإسلامية. فحزب مثل حزب النهضة ، الذى خلف حركة الاتجاه الإسلامى ، يوصف بأنه حزب إصلاحى أكثر منه ثورى ، وقد أشار مراراً إلى استعداده للعمل فى إطار قواعد الديمقراطية ، القائمة على التمثيل والمنافسة ؛ بيد أنه ما زال محظوراً من المشاركة فى العملية الانتخابية . علاوة على ذلك ، قاطعت أحزاب المعارضة الانتخابات العامة ، وجادلت بأن النظام الانتخابى منحاز إلى حد كبير للحكومة ، وأن نتائج الانتخابات تؤكد هذه الحقيقة . وهكذا ، يمكن القول بأن تونس ، وكما هو الحال فى مصر ، ما زالت فى الواقع دولة تسلك نهج الحزب الواحد ، رغم شعار التعددية الحزبية الرسمى الذى ترفعه .

الأنظمة الشخصية :

التفرقة بين الدول ذات الأنظمة الشخصية ودول الحزب الواحد ليست حادة ، وهو ما يوضحه كل من جيمس . أ . بيل و روبرت سبرينجبورج فى الوصف التالى للمذهب الشخصى :

المجتمعات والأنظمة السياسية الشرق أوسطية جاءت نتاجاً ومحصلة لمجموعة متنوعة من الثوابت والعوامل القبلية ، حيث كان للنزعة الشخصية التى سادت فى محيط الأسرة والعشيرة والقبيلة تأثيرها الواسع والذى يتسم بشموليته . فالزعيم الشرق أوسطى دأب على تولى زمام القيادة أو الزعامة اعتماداً على علاقاته الشخصية وعلى أتباعه وأنصاره . وقلما تدخلت المنظمات والمؤسسات الرسمية فى هذه العملية . وحتى عندما تطورت مؤسسات مثل البيروقراطيات الرسمية ، ظل الحكم الحقيقى وعملية صنع القرار السياسى محصورة فى إطار العلاقات والاتصالات الشخصية (١٦٠ : ١٩٩٤)

والأمثلة الحالية على هذا النهج أو النموذج فى الحكم تتضمن كلاً من سوريا ، وليبيا، والعراق ، وهى دول يحكمها كلها زعماء أقوياء أقرب ما يكونوا إلى الحكام الديكتاتوريين على الرغم من الوجود الرسمى للأجهزة والمجالس التشريعية .

ففى سوريا نجد أن النظام السياسى مزيج من البعثية والبطانة الشخصية التى تلتف حول الرئيس حافظ الأسد (الذى توفى وخلفه فى الحكم نجله بشار الأسد) . وقد حصلت سوريا على استقلالها كجمهورية فى عام ١٩٤٦ بعد ستة وعشرين عاماً تحت نظام الانتداب الذى منحته عصبة الأمم لفرنسا . ومع قدر قليل من الخبرة ككيان متمتع بالحكم الذاتى ، شهدت سوريا فى البداية فترة من انعدام الاستقرار السياسى ما بين عام ١٩٤٦ ، وعام ١٩٥٤ حيث وقعت أربعة انقلابات عسكرية . وبعد اتحاد سوريا مع مصر خلال الفترة بين عام ١٩٥٨ وعام ١٩٦١ ، والذى لم يدم طويلاً ، حقق البعثيون ما كانوا يريدونه وباتت لهم الهيمنة الفعلية داخل الحكومة السورية نتيجة الانقلاب العسكرى الذى حدث فى مارس عام ١٩٦٣ . وظل حزب البعث هو المسيطر على شئون البلاد منذ ذلك الحين .

وكان الرئيس الراحل حافظ الأسد قد تولى مقاليد الحكم فى عام ١٩٧٠ فى انقلاب أبيض ، وأصبح رئيساً للبلاد فى ١٩٧١ . وكان يعاد انتخابه كل سبع سنوات منذ ذلك الوقت ، وهو أمر لم يكن عسيراً نظراً لأنه كان المرشح الوحيد فى انتخابات الرئاسة . ووفقاً لدستور ١٩٧٣ ، تعتبر سوريا جمهورية اشتراكية وديمقراطية يحكمها رئيس قوى وبرلمان على أساس الشريعة الإسلامية . وهناك قدر من المشاركة الشعبية فى حكم البلاد من خلال جمعية وطنية تضم ٢٥٠ عضواً تتمتع بصلاحية الموافقة على الميزانية العامة وتقر القوانين التى تصدرها اللجنة المركزية لحزب البعث الحاكم . وفى غضون الأعوام الماضية ، كانت عدة أحزاب سياسية صغيرة قد تأسست لتكون بمثابة «معارضة موالية» رمزية لحزب البعث المهيمن ، وهى أحزاب ممثلة فى الجمعية الوطنية .

وقد شهدت سوريا استقراراً نسبيًا فى ظل حكم الأسد ، لا سيما بالمقارنة بسنوات الاستقلال الأولى . ويمكن أن يعزى هذا الاستقرار إلى عدد من العوامل ، من بينها «حقيقة أن سوريا كانت تخضع لسيطرة حزب سياسى قوى يستند إلى جهاز أمنى فعال وموثوق به إلى حد كبير» (فان دام ١٣٧ : ١٩٩٦) . وعلاوة على هذا ، فإن الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى حدثت إبان الثمانينيات ، بما كانت تنطوى عليه من عواقب سياسية ، قد أمكن معالجتها وتخفيفها نوعاً ما من خلال التحول إلى الاقتصاد الليبرالى. (ملحم ١٩٩٧ ، راجع أيضاً كنيلى ، ١٩٩٤) .

ومع هذا ، هناك تحديات محتملة خطيرة تواجه شرعية النظام ، على الأخص من جانب جماعة الإخوان المسلمين التى حاولت الإطاحة بالنظام فى مناسبات عدة (ولا سيما الانتفاضة التى اندلعت فى مدينة حماة فى عام ١٩٨٢) . وبالإضافة إلى هذا ، فإن استمرارية القيادة ذاتها والتى قد وفرت الاستقرار للنظام يمكن أن تخلق صعوبات فى المستقبل لأن القليل فقط من النخبة السياسية والعسكرية من الشبان . وكانت هناك أيضًا مشكلة خلافة الرئيس الراحل حافظ الأسد الذى تدهورت صحته فى الأعوام القليلة الماضية بيد أن هذه المشكلة انتهت بوفاته وانتخاب ابنه الأصغر بشار خليفة له فى الحكم بعدما كان مقدراً أن يخلفه فيه نجله الأكبر باسل الذى لقى مصرعه فى حادث سيارة مروع فى يناير عام ١٩٩٤ . وفى وقت من الأوقات ، بدا أن رفعت الأسد ، شقيق الرئيس الراحل ، أحد المرشحين البارزين لخلافته ، ولكنه بات الآن

خارج دائرة السلطة رسمياً بعد إقصائه من منصبه كواحد من ثلاثة نواب للرئيس السوري في ٨ فبراير عام ١٩٩٨ .

الأنظمة الملكية التقليدية والبرلمانية :

الشرق الأوسط هو المنطقة الوحيدة في العالم حيث استمرت الأنظمة الملكية التقليدية في عدد من الدول (تمييزاً لها عن الأنظمة الملكية الدستورية الموجودة في أجزاء من أوروبا) . وفي فترات معينة ، كانت منطقة الشرق الأوسط تستخدم في وصف السياسة المحلية لدولها سواء أكانت سياسة متعلقة بالقرون الوسطى ،أو حتى القرون البدائية، . ونظرة أقرب إلى المنطقة توحي بأن الأنظمة الملكية فيها قد توصف على نحو أفضل بأنها أشبه ما تكون إلى عملية تكيف مع أشكال ثابتة وراسخة لما يعرف بالزعامة الوراثية (انظر ويبر ١٩٤٧) لنظام الدولة – الأمة المعاصر . واعتماداً على مجموعة متنوعة من العوامل أهمها مصادر الشرعية مثل التقاليد والأعراف ، وتاريخ حكم الأسرة ، وعلاقات الأجداد وانتسابهم إلى النبي محمد ، والصفات الشخصية للزعيم ، ودور الأسرة الملكية كرمز للقومية ، اعتماداً على هذا كله يمكن القول بأن الأنظمة الملكية العربية الحالية قد أثبتت وإلى حد كبير أنها أنظمة مرنة ولديها القدرة على التكيف مع الأحداث ضماناً لبقائها واستمراريتها .

والواقع أن استمرار هذه الأنظمة الملكية يبدو أمراً مثيراً على نحو خاص عندما نسترجع أنه خلال الخمسينيات والستينيات ، ولم تستطع ستة من هذه الأنظمة البقاء على قيد الحياة بعدما عجزت عن الاستمرار في وجودها خلال فترة ما بعد الاستعمار، ومن ثم جرى إقصاؤها من السلطة ، مصر في عام ١٩٥٢ ، وتونس في عام ١٩٥٦ ، والعراق في عام ١٩٥٨ ، واليمن في عام ١٩٦٢ ، وجنوب شبه الجزيرة العربية (التي أصبحت جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) في عام ١٩٦٧ ، وليبيا في عام ١٩٦٩ ، ومع ذلك فمنذ عام ١٩٦٩ وتمت الإطاحة بنظام ملكي إضافي فقط (في إيران) الأمر الذي يوحي بأن الحكام الملكيين الباقين قد وجدوا الطرق الكفيلة بقمع السخط أو المعارضة الديمقراطية ، وتقييد حركات المعارضة ، أو بالأحرى تكييف حكمهم لمعالجة ، على الأقل ، الضغوط الداخلية من أجل الإصلاح السياسي . والتحدي الرئيسي الذي يواجه الأنظمة الملكية العربية اليوم هو أقل من مجرد إضفاء الصبغة الشرعية على سيطرتها السياسية من خلال التقليد أو العرف ، وأكثر من كونه

محاولة «لإيجاد رابطة أو حلقة اتصال مع الحداثة»، وكما جادل مايكل هدسون قبل ما يربو على عشرين عامًا (٢٣٠ : ١٩٧٧) . ولا شك أن وجود هياكل سياسية اجتماعية من قبيل الديوانية (اجتماعات غير رسمية للأعضاء من الصفوة تجرى خلالها مناقشة العديد من القضايا المعاصرة) ، إضافة إلى وجود المفهوم الإسلامى للشورى ، لا شك أن ذلك قد سمح بقدر معقول من المشاركة الشعبية فى شئون الحكم دون أن تضطر هذه الأنظمة الملكية إلى تبنى النموذج الديمقراطى . وعلاوة على هذا، فإن توفر الموارد الاقتصادية والمالية الضخمة لدى الأنظمة الملكية العربية قد جعل من الممكن ، فى بعض الأمثلة ، شراء أصوات المعارضين (كوس ١٩٩٤) . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن كل هذه الدول قد اختارت الانحياز سياسيًا مع الغرب . وباسم معاداة الشيوعية (فى الأصل) أو باسم مناهضة إحياء الإسلام وإيقاظ الشعور الدينى (فى الوقت الحاضر) ، أبدت الولايات المتحدة بشكل خاص استعدادها لتزويد الأنظمة الحاكمة العربية بما تحتاجه من الأسلحة والخبرات حتى يمكنها المحافظة على الأمن الداخلى ، وأيضاً على بقائها فى الحكم .

وفى أربع دول ، هى البحرين ، والكويت ، والمغرب ، وسلطنة عمان ، ظلت الأسر المالكة ذاتها تستحوذ على السلطة السياسية لما يزيد عن مائتى عام . ففى سلطنة عمان، حكمت الأسرة المالكة الحالية ساحل البلاد (دون أن تبسط سلطتها على الداخل) منذ عام ١٧٤٩ ؛ وأصبح السلطان قابوس حاكما للبلاد فى عام ١٩٧٠ عندما أطاح بوالده فى انقلاب أبيض بمساندة بريطانيا . وفى الكويت نجد أن حكم أسرة الصباح يعود إلى أوائل السبعينيات من القرن التاسع عشر عندما استقرت مجموعة من القبائل البدوية ، سابقًا على امتداد المنطقة الشمالية الشرقية من الساحل العربى ، أما أسرة آل خليفة فى دولة البحرين فقد تولت السلطة فى عام ١٧٨٣ بدلاً من الإيرانيين الذين كانوا يسيطرون على الجزر فيما مضى .

ولكن أكثر الأنظمة العربية بقاءً وأقدمها فى المنطقة على الإطلاق هو النظام الحاكم فى المملكة المغربية . إذ يرجع تاريخ الحكم الملكى فى تلك الدولة إلى اثنى عشر قرناً . وجاءت الأسرة العلوية ، التى تعود جذورها إلى النبى محمد ، إلى السلطة فى عام ١٦٧٠ ، وتمكنت من بسط سيطرتها على اتحاد المغرب الحديثة التى نعرفها اليوم فى أوائل السبعينيات من القرن السابع عشر . وخلافاً لما حدث فى معظم الدول

العربية ، استطاعت المغرب أن تنجو من الاستعمارين الأوروبي والعثماني . وبعد أن خضعت للسيطرة الأوروبية لفترة قصيرة في مطلع القرن العشرين ، حصلت المغرب على استقلالها في عام ١٩٥٦ ويتولى الحكم فيها الآن محمد السادس ، الذى خلف والده الملك الحسن الثانى فى يوليو عام ١٩٩٩ . وبالتالى فإن المغرب يمكن أن تدرج ضمن مجموعة صغيرة من الدول التى استطاعت فيها الأنظمة الملكية البقاء طويلاً فى الحكم بعدما استطاعت مقاومة الغزوات الاستعمارية والخروج سليمة فى حقبة ما بعد الاستعمار . (أثيوبيا قبيل الإطاحة بالإمبراطور هيلا سيلاسى ، وسيام / تايلاند ، مثالان لهذا النموذج الملكى) .

والأنظمة الملكية العربية الأخرى هى إما نتيجة لعمليات ترسيخ وتدعيم الأركان السلطة فى القرن التاسع عشر ، كما هو الحال فى المملكة العربية السعودية ، أو أنها «سلالات حاكمة»حديثة نسبياً حصلت على مكانتها السياسية إما جزئياً (قطر ، ودولة الإمارات) أو بصورة تامة (الأردن) من خلال المساعدة والعون من القوى الاستعمارية قبل انسحابها من هذه الدول . ففى الثمانينيات ، وقع البريطانيون معاهدات مع مجموعة من الزعماء المحليين فى منطقة الخليج ، والتى نصت على تبنى سياسة حكم غير مباشر والدعم والمساندة للأسر المحددة التى أبرمت معها هذه المعاهدات . وساعد هذا بالطبع فى تعزيز وتقوية مكانة الأسرة الحاكمة فى الخليج وتحويلها إلى أسر موالية انتقلت إليها السلطة الكاملة بعد ذلك حين استقلت هذه الدول حديثاً وبعد انسحاب البريطانيين من منطقة الخليج .

بعض هذه الأنظمة الملكية التى خُلقت بطريقة مصطنعة قد منيت بالفشل بسبب عجزها وعدم كفاءتها ، كما هو الحال فى العراق ،حيث لم يستطع أى من خليفتى الملك فيصل الأول المحافظة على وحدة البلاد ولم شمل العدد الكبير لسكانها . وفى دول أخرى ، مثل ليبيا ، كانت الأسرة الإدريسية تحكم البلاد ، ولكنها كانت مرفوضة دائمًا من جانب الشعب لأنها قد فرضت عليه ، ومن ثم لم تستطع البقاء فى السلطة بمجرد أن زال عنها الدعم والمساندة من الأوروبيين . وفى إيران غير العربية ، استطاعت أسرة بهلوى التى خلفت أسرة قاجار فى الحكم بعد انقلاب أبيض وقع فى العشرينيات ، والسيطرة على البلاد وحكمها فقط من خلال مساندة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، غير أنه أطيح بهذه الأسرة فى النهاية.

جوانب فريدة لنظام الحكم الملكى العربى :

من المهم ملاحظة أن المفهوم العربى لنظام الحكم الملكى يختلف إلى حد كبير عن النموذج أو المفهوم الأوروبى . ويشير هدسون إلى أن «نظام الحكم الملكى العربى المثالى ، والذى يستند إلى شرعية تامة هو النظام الإسلامى الذى يتولى الحكم فيه أكثر زعماء قبيلة ما قدرة وكفاءة وأقربهم نسباً إلى النبى محمد» . وبوجه عام ، لابد أن يكتسب هذا النظام شرعية من خلال زعامة قادرة ، و «ليست هناك إجراءات خلافات شرعية ، أى لا وراثة ولا انتخاب ، فى الثقافة العربية» (هدسون ١٦٧ : ١٩٧٧) .

وتقود هذه المعايير إلى اختلافين جوهريين بين المؤسسات الملكية الأوروبية والعربية. الأول هو أن الصراع بين الملكية والسلطة السياسية للكنيسة والذى ميز الكثير من النظام الإقطاعى الأوروبى ليس له مثيل فى العالم العربى . إذ لا يزال الحكم العربى فى ظل النظام الملكى يواجه تحدياً يستمد قوته من أسباب دينية ، وكما حدث بالنسبة إلى الثورة التى اندلعت فى السعودية من جانب جماعة الإخوان الأصولية ضد حكم عبد العزيز بن سعود فى أواخر العشرينيات . ولكن ليس هناك «بابا إسلامى» (أو نظام بيروقراطى كونفوشيوسى) يمكن أن يلجأ إليه الملك طلباً للشرعية وبمعزل عن سلطته الدينية ، أو ، وبالعكس ، «بابا إسلامى» يمكنه أن يهدد الملك بالامتناع عن الموافقة على تنصيبه فى الحكم .

والاختلاف الثانى هو غياب إجراء لخلافة الحكم معترف به على نطاق واسع ويحد من نمو الأسر المالكة التى تحكم لفترات طويلة مثل أسرة هابسبرج فى النمسا (١٣٨٢-١٩١٨) ومجلس هانوفر الإنجليزى الألمانى . ولابد من الإشارة هنا إلى أن مكانة أو وضع «الشريف» ، والذى هو من نسل النبى محمد ، يعزز من شرعية الحاكم، ولكن عند أية نقطة محددة هناك المئات أو الآلاف من الزعماء المحتملين الذين يتمتعون بتلك المكانة . وتبعاً لذلك فإن الشريف ولكونه يحمل هذا اللقب لا يعنى أنه يحمل نفس السلطة المستمدة من كونه الابن الأكبر للملك فى أوروبا ، مثلاً ، كما أن الزواج من أسرة الشريف لا يضمن لشخص ما أحقية المطالبة بالسلطة السياسية .

والحقيقة أن ميزة نظام الحكم العربى تكمن فى ميله إلى إفراز حكام فعالين نسبياً. فالأنظمة الملكية الفرعية لا تظهر النموذج ، الذى نراه سائداً فى أوروبا والذى يجسد زعيماً ضعيفاً متفسخاً . (على سبيل المثال ، الملك جورج الثالث فى بريطانيا العظمى أو الملك لويس السادس عشر فى فرنسا) والذين سمح لهما بالبقاء فى السلطة لا لشىء إلا لمجرد المحافظة على التقاليد الملكية التى تضفى شرعيتها أيضاً على سلطة الديانة المنظمة وطبقة النبلاء . علاوة على هذا ، فإن بالإمكان الإطاحة بالحاكم الضعيف أو الذى يثار الجدل حوله ، وكما حدث فى العصر الحديث فى سلطنة عمان وقطر ، وبدون أن يشكل ذلك تهديداً للنظام برمته .

وبالإضافة إلى هذا ، ولأنه لابد أن يظهر الحاكم قدرته على الزعامة ويبدى فى الوقت ذاته ولاءه لشعبه ، فإنه ينبغى عليه المحافظة على جسور التواصل والاتصال بشعبه من خلال سلسلة واسعة من المؤسسات التقليدية . فمثلاً ، وبعد فترة طويلة من توليه السلطة فى عام ١٩٩٩ ، تنكر الملك عبد الله الثانى ، عاهل الأردن فى شخصية سائق سيارة أجرة ، وترك وراءه أفراد حرسه الخاص ، وراح يقود سيارته فى أرجاء العاصمة عمان وهو يستمع إلى شكاوى الناس العاديين وإلى آرائهم حول الحكومة . وهذا التصرف غير المعتاد ، والذى يعيد إلى الذاكرة ما كان يفعله أيضاً الملك حسين والد عبد الله ، خلال السنوات الأولى من حكمه ، قد قوبل بالإعجاب والاستحسان من أفراد الشعب لا سيما وأنه يذكرهم بالحكايات والأساطير التى كانت تروى عن الملوك والأمراء العرب فى الأزمنة القديمة والذين كانوا يتركون قصورهم ويتنكرون فى هيئة شحاذين أو متسولين وهم يجوبون الشوارع والأسواق ليتسنى لهم الوقوف على أحوال الناس ولجس نبض الرأى العام فى ممالكهم . وعلى العكس من ذلك ، فإن السلطة «المطلقة» لأسرة البربون فى فرنسا أو أسرة رومانوف فى روسيا ، وهما الأسرتان اللتان حكمتا بمعزل تام تقريباً عن شعبيهما ، ليس لها نظيرها فى نظام الحكم الملكى العربى . (وهذه النقطة ذات أهمية خاصة لأن الصور «الشرقية» غالباً ما تنسب إلى الملك العربى قدراً من السلطة غير المقيدة أكبر من تلك السلطة التى نجدها فى الأنظمة الملكية الأوروبية) .

وأحد عيوب هذا النظام يتمثل فى أن الأنظمة الملكية العربية تبدو أكثر عرضة للأخطار ولأزمات القيادة من مثيلاتها فى أوروبا لاسيما عند وفاة الملك أو الحاكم

العربى ، وذلك نظراً لأن خط التسلسل فى نظام خلافة الحكم قد يكون أقل ثباتاً ورسوخاً. وعلاوة على هذا ، ونظراً لأن النظام العربى نظام أسرى بأكمله ، فإنه غالباً ما يتم استبعاد نصف السكان من السلطة المباشرة . ورغم أن النظام العربى قد تفادى ملوكاً ضعافاً من أمثال الملك جورج الثالث فى بريطانيا ونيقولا الثانى فى روسيا ، إلا أنه لم يحدث أيضاً أن أفرز ملكات قويات مثل الملكة اليزابيث الأولى والملكة فكتوريا فى إنجلترا أو الملكة كاترين العظمى فى روسيا .

المملكة العربية السعودية :

ليس ثمة شك فى أن المملكة العربية السعودية هى الأقوى بين دول منطقة الخليج؛ وهى أيضاً «الأكثر غموضاً» بالنسبة إلى غير السعوديين من «الباحثين والصحفيين الذين قد يحظر دخولهم البلاد بينما يعيش الجنود الأمريكيون والعاملون الأجانب فى شركات النفط داخل مجمعات سكنية مسورة» (كاريبكو ١٩٩٧) . ومن الواضح أن القيود الواسعة المفروضة على الحريات المدنية والسياسية تحد من معرفة ما يجرى داخل المملكة . ومن الناحية الرسمية ، يتولى الملك فهد مقاليد الحكم فى السعودية ، وهو الابن الرابع للملك عبد العزيز بن سعود مؤسس المملكة و موحدها . ولكن نظراً لما يعانيه الملك فهد من مشكلات صحية فى الآونة الأخيرة ، فإنه قد أسندت إلى أخيه غير الشقيق ، ولى العهد الأمير عبد الله ، مسئوليات ومهام إضافية فى غضون السنوات الأخيرة .

واعتماداً على مواردها الاقتصادية وإمكاناتها السياسية الهائلة ، حرصت القيادة السعودية دوماً على التأكيد على أنها تسلك نهجاً خاصاً فى سياساتها الداخلية مؤيداً للتحديث والتنمية مع التركيز على التعاون والتفاوض ، والحلول الوسط وعلى النمو الذى لايتعارض مع القرآن وأحكام الشريعة الإسلامية وتعاليمها . ومع هذا كله ، لم تكن الأسرة المالكة بمنأى عن الانتقادات والتهديدات التى استهدفت شريعتها السياسية. ويؤكد معارضو النظام ، سواء أكانوا العلمانيين أو رجال الدين ، أن الثروة النفطية للبلاد قد استخدمت فى إثراء الأسرة المالكة أكثر من استخدامها فى إثراء البلاد كلها ، وأن الحكومة يشوبها الفساد ، وأن رفض آل سعود المشاركة فى السلطة يتناقض وأحكام الإسلام . وهناك أيضاً شعور شعبى من السخط والاستياء حيال الروابط الوثيقة بين السعودية والولايات المتحدة .

وبعد اندلاع حرب الخليج ، حاولت مجموعة من المفكرين والمثقفين الذين تعلموا فى الغرب إقناع الملك بإدخال إصلاحات ديمقراطية فى السعودية ، وذلك من قبيل إقامة ملكية دستورية ، وإعطاء قدر أكبر من الاحترام لحقوق الإنسان ، وإتاحة الفرصة لتشكيل أحزاب سياسية ومنح المواطنين حق التصويت فى الانتخابات . ورداً على ذلك ، حث عدد من كبار رجال الدين الملك فهد على تحويل السعودية إلى دولة إسلامية تماماً على غرار نظام الحكم الإسلامى فى إيران . وفى محاولة لتهدئة هذه المعارضة الوليدة ، أعلن الملك فهد فى فبراير عام ١٩٩٢ تأسيس مجلس الشورى والذى تألف من ستين عضواً معيناً من أوساط المهنيين ، والأكاديميين ، ورجال الدين ، ورجال الأعمال ، والعسكريين المتقاعدين والذين يمثلون صفوة المجتمع السعودى . وفى يوليو عام ١٩٩٧ ، عين الملك مجلساً جديداً ووسع عضويته من ستين إلى تسعين عضواً . وفى مجلس الشورى الحالى ، هناك نسبة ٣٧٪ من الأكاديميين (من المؤسسات الدينية والعلمانية) ، ونسبة ٤٣٪ من البيروقراطيين والمهنيين ، ونسبة ٢٠٪ من رجال الأعمال ، ورجال الشرطة ، والدبلوماسيين ، والعسكريين (ديكمجيان ٢٠٩ : ١٩٩٨) . ويمكن للمجلس اقتراح قوانين ، ولكن قراراته غير ملزمة ، ومع هذا فإنه حينما تتطابق آراء مجلسى الشورى والوزراء حول موضوع محدد ، يتم إصدار قانون بشأنه عقب موافقة الملك على هذا الموضوع (ديكمجيان ٢٠٧ : ١٩٩٨) .

وفى الوقت نفسه الذى تأسس فيه مجلس الشورى الأول ، أصدر الملك فهد مرسوماً يقضى بإعادة تنظيم نظام الحكم المحلى أو نظام الحكم فى مناطق المملكة وأعلن النظام الأساسى الجديد ، والذى ، من بين تغييرات أخرى ، تضمن إجراءاً جديداً يجعل أحفاد وأيضًا أبناء عبد العزيز مؤهلين للخلافة فى إطار الأسرة المالكة . والحقيقة أن هذا النظام الأساسى الجديد ينطوى على أهمية بالغة إذا ما أخذنا فى الاعتبار أنه لا توجد قواعد واضحة بشأن كيفية انتقال السلطة داخل أى من الأسرات المالكة الحاكمة فى الخليج . إذ إن ولى العهد ، الأمير عبد الله أصغر من الملك فهد بسنتين فقط ، وليس من الواضح تمامًا من هو الشخص الذى سوف يعين وليًا للعهد عندما يصبح عبد الله ملكاً .

دول شبه الجزيرة العربية :

ثمة سمات وخصائص مشتركة تجمع بين الدول الأخرى ذات الأنظمة الملكية فى شبه الجزيرة العربية ، فهذه الدول صغيرة نسبياً بالنسبة لكل من الأرض والسكان ، مع وجود مساحة قليلة من الأراضى الصالحة للزراعة ، ووجود أعداد ضخمة من السكان المغتربين فى كل واحدة من بلدان هذه المنطقة والذين يضطلعون بالجزء الأكبر من النشاط الاقتصادى ، واعتماد كل هذه الدول على البترول والغاز الطبيعى فى الحصول على نسبة كبيرة من عائدات التصدير . ويواجه حكام كل دولة من هذه الدول ضغوطاً داخلية من أجل إجراء إصلاحات سياسية ليبرالية ، وهى الضغوط التى استجاب لها الكثيرون من هؤلاء الحكام بحذر من خلال رفع القيود على حرية الرأى والقيود المفروضة على وسائل الإعلام ، وإلغاء الحكومة المركزية ومنح سلطات وصلاحيات أكبر للوزارات ، وتأسيس مجالس شورى ، وإدخال الدساتير . ومع هذا كله لا تسمح أى من دول الخليج فى الوقت الحاضر بتشكيل أحزاب سياسية .

قطر ، وسلطنة عمان ، ودولة الإمارات :

شأنها شأن المملكة العربية السعودية فى بعض الجوانب ، تعتبر دولة قطر إمارة تقليدية محافظة دينياً ويتولى شئون الحكم فيها الأمير حمد بن خليفة بن حمد آل ثانى، والذى أطاح بوالده الشيخ خليفة بن حمد فى انقلاب أبيض فى ٢٧ يونيو عام ١٩٩٥ . وفى هذه الإمارة الغنية ، تعد القرارات التى يصدرها أمير البلاد ملزمة ، ويشغل أعضاء أسرة آل ثانى الحاكمة العديد من المناصب السياسية المهمة . فرئيس الوزراء عبد الله هو فى ذات الوقت شقيق الأمير حمد ، ونائب رئيس الوزراء هو أيضاً شقيق آخر من أشقاء الأمير حمد ، كما أن وزير الخارجية ابن عمه وصهره أيضاً والأمير حمد ، الذى يصغر غيره من الحكام الآخرين فى دول الخليج (ما عدا حمد بن عيسى ملك البحرين) يعتبر نفسه حاكماً عصرياً وغير تقليدى . إذ إنه قد سمح بالمزيد من المناقشات السياسية فى المنتديات والأماكن العامة وبدأ فى إعطاء حق الاقتراع للسكان ؛ ففى الثامن من مارس عام ١٩٩٩ ، أدلى حوالى ٢٣ ألفًا من الرجال والنساء بأصواتهم فى انتخاب أول مجلس محلى استشارى مؤلف من ٢٩ عضواً . (ويعتبر عدد الناخبين صغيراً لأن الأفراد من العسكريين أو رجال الشرطة ، وهؤلاء الذين حصلوا على الجنسية القطرية قبل أقل من ١٥ عامًا لا يسمح لهم

بالمشاركة فى التصويت ، كما لم يسمح بالتصويت للسكان المغتربين الذين يمثلون ٧٥ فى المائة من مجموع سكان البلاد) وأسفرت هذه الانتخابات عن فوز ستة من النساء. ومدة انتخاب المجلس المحلى أربع سنوات ، والتى من المتوقع بعدها إجراء انتخابات برلمانية لاختيار سلطة تشريعية .

وقد بدأت سلطنة عمان هى الأخرى فى التحرك ببطء فى اتجاه الحكم الدستورى والمشاركة السياسية الشعبية المحدودة . ففى البلاد الآن مجلس شورى يضم ثمانين عضواً تتلخص مهامه فى تقديم المشورة إلى الحكومة ، ومراجعة القوانين ، وتقديم ما يلزم من الوسائل الرسمية إلى الزعماء المحليين حتى يتسنى لهم بدورهم تقديم البيانات اللازمة إلى الحكومة . والعضوية فى هذا المجلس يحددها السلطان قابوس ، والذى يختار بنفسه أعضائه من بين مرشحين مختارين من كل محافظة من المحافظات التسع والخمسين فى عمان . وهناك سيدتان من بين أعضاء مجلس الشورى ، كما يتولى السلطان قابوس تعيين أربعة أعضاء من بين الأعضاء الخمسة والأربعين فى مجلس الدولة . وجاء القانون الأساسى الجديد، الذى صدر فى نوفمبر عام ١٩٩٦ ، ليعالج المشكلة الرئيسية بشأن استمرارية قيادة السلطة فى سلطنة عمان . (هذا مع الافتراض بعدم وجود من يخلف السلطان قابوس فى الحكم) . إذ تنص المادة الخامسة من القانون الأساسى على ضرورة أن يكون خليفة قابوس مسلماً ، وحكيماً ، وسليم العقل و (أ) ابناً شرعياً من أبوين عمانيين (نقلاً عن كتاب أوريللى ٨٣ : ١٩٩٨) كما ينبغى أن يكون من نسل أسرة السيد تركى بن سعيد بن سلطان (وهو الجد الأكبر للسلطان قابوس الذى تولى حكم عمان خلال الفترة بين ١٨٧١ و ١٨٨٨) .

والدولة الثالثة من بين الدول الخليجية التقليدية الصغيرة الثلاث هى دولة الإمارات، وهى اتحاد مؤلف من سبع إمارات جرى تشكيله عندما انسحبت بريطانيا من منطقة الخليج فى السبعينيات . وكان من المفترض أن يتبع استقلال البلاد إدخال دستور دائم وإجراء انتخابات ، بيد أن هذا لم يحدث أبداً . وهكذا ، فإنه على الرغم من أن دولة الإمارات تعد جمهورية من الناحية الفنية ، إلا أنها فى الواقع عبارة عن اتحاد من الإمارات لا وجود فيه لحق التصويت فى الانتخابات ولا أحزاب سياسية . ويتولى حكم البلاد التى يبلغ تعداد سكانها ثلاثة ملايين نسمة (من بينهم حوالى

٢٠ ٪ من العمال الأجانب) المجلس الأعلى الذى يتألف من حكام الإمارات السبع ويرأسه الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة . وهناك أيضاً جمعية وطنية اتحادية تضم أربعين عضواً ، والتى تعكس عضويتها توزيع السلطة فى دولة الإمارات إذ إن لدى إمارتى أبو ظبى ودبى ثمانية أعضاء لكل منهما فى هذه الجمعية ، ولدى إمارتى الشارقة ورأس الخيمة ستة ممثلين لكل منهما ، فى حين أن لدى إمارات أم القوين ، وعجمان ، والفجيرة أربعة أعضاء فقط لكل منها . وبين الحين والآخر تتفجر توترات فيما بين الإمارات السبع حول هيمنة إمارتى أبو ظبى ودبى ، وذلك بالنظر إلى كونها أكبر هذه الإمارات وأكثرها ثراءً . ولذا ، فإن الاتحاد الحالى لدولة الإمارات لا يمكن أن يستمر بدون وجود ومشاركة هاتين الإمارتين .

البحرين والكويت :

يدعو الدستور فى كل من البحرين والكويت إلى تشكيل جهاز تشريعى أو برلمان ، ومع هذا ، نجد أن فى البحرين التى تتألف من عدة جزر ، يعتبر الحكم البرلمانى ضرباً من الخيال أو الوهم القانونى . إذ إن الجمعية الوطنية التى تضم ثلاثين عضواً والتى جرى انتخابها جزئياً فى عام ١٩٧٣ ، قد تم تعليقها فى عام ١٩٧٥ بعد أن رفضت الموافقة على مرسوم أميرى يقضى بمنح الحكومة صلاحية اعتقال منتقديها ومعارضيها فى حالة الإدلاء «بتصريحات» أو القيام «بأنشطة تشكل تهديداً» لأمن البلاد الداخلى أو الخارجى . (ستورك ٣٤ : ١٩٩٧) . وفى ذلك الوقت ، قام الأمير عيسى بن سلمان آل خليفة ، والذى تولى حكم البحرين منذ استقلالها وحتى موته فى ٦ مارس عام ١٩٩٩ ، بتعليق الدستور وحل البرلمان ، وشكل الأمير مجلساً استشارياً معيناً فى ديسمبر عام ١٩٩٢ . ومع هذا ، فإن هذا الشعار التجميلى للإصلاح الديمقراطى (فخرو ، ١٧٥ : ١٩٩٧) لم ينجح تماماً فى تهدئة الضغوط الشعبية من أجل المزيد من المشاركة السياسية .

والواقع أن أكثر من ثلثى السكان البحرينيين من الشيعة وطوال سنوات قد كانت هناك مزاعم حول مؤامرات مدعومة من إيران للإطاحة بالحكومة التى تسيطر عليها أغلبية سنية . وفى ديسمبر عام ١٩٩٤ ، حرضت جماعات المعارضة على قيام انتفاضة شعبية والتى ظلت تتأجج وتخبو بين الحين والآخر . وكانت مطالب جماعات

المعارضة تتضمن منح الحقوق السياسية للمرأة ، واستعادة الدستور والبرلمان ، وتوفير المزيد من الفرص الاقتصادية . وجاء الرد من جانب الحكومة على هذه المطالب سريعًا، فكثفت من حملة القمع السياسى ، واعتقال المثقفين والمعارضين دون توجيه تهم إليهم ، وزيادة القيود على حرية التعبير (منظمة ووتش لحقوق الإنسان ، ١٩٩٧) . وأعرب زعماء المعارضة عن تفاؤل مشوب بالحذر من أن أمير البحرين الجديد ، حمد بن عيسى آل خليفة (ملك البحرين الآن بعد إعلان البحرين مملكة فى أوائل عام ٢٠٠٠) ، سيكون أكثر انفتاحًا إزاء قضية المشاركة المحدودة فى السلطة ، وذلك على الأقل فى التعامل مع أوساط الصفوة فى البلاد ، إن لم يكن مع عامة المواطنين .

والحقيقة أنه من بين جميع دول الخليج ، كانت الكويت الأكثر نجاحًا فى إجهاض الضغوط الثورية . والسبب فى ذلك يرجع إلى حد كبير إلى البرنامج الناجح والشامل الذى وضعته أسرة الصباح الحاكمة والذى يهدف المحافظة على سلطتها من خلال بناء أول دولة حديثة فى المنطقة . وعلى مدى عقود ، أنفقت الحكومة أموالاً طائلة فى دعم كل الاحتياجات الأساسية للمواطنين بدءًا من الكهرباء وحتى الإسكان ، ووفرت الدعم المالى اللازم للسفر إلى الخارج بقصد التعليم أو العلاج الطبى ، كما وفرت فرص عمل ووظائف مريحة و بأجور عالية جدًا لما نسبته ٩٦ ٪ من مواطنيها العاملين (سادويسكى ٧ : ١٩٩٧) .

ومع هذا كله ، فإنه خلال الفترة ما بين الهبوط المفاجئ الذى شهدته أسعار البترول فى العالم و تكلفة الإعمار فى الكويت بعد الغزو العراقى ، يبدو أن قدرة الكويت على استرضاء المعارضين والمنشقين قد تضاءلت ، الأمر الذى خلق وضعًا غير مستقر نسبيًا .

وفى الوقت الحاضر ، تعتبر الكويت الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط التى يسمح فيها للرجال بالتصويت فى الانتخابات دون النساء . وحتى عام ١٩٩٦ ، كان حق التصويت ممنوحًا للذكور فقط والذين كانوا مقيمين فى الكويت قبل عام ١٩٢٠ كما كان يحق لأبنائهم من الذكور الاقتراع ، أما ، الآن فإن النسل من الذكور والذين ينتسبون إلى ذلك (العدد القليل جدًا) من المواطنين الأصليين هم الذين يمكنهم الإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات ، بيد أن الناخبين لا يزالون يشكلون أقلية بالمقارنة

مع مجموع السكان . والجمعية الوطنية المؤلفة من خمسين عضواً لديها تاريخها الذى يتسم بالتقلبات لما شهدته من النجاح حيناً والإخفاق حيناً آخر ، فقد جرى حلها فى عام ١٩٧٥ ، وأعيد تشكيلها فى عام ١٩٨١ ، ثم علقت مرة أخرى يوليو عام ١٩٨٦ . وفى ذلك الوقت ، جادلت أسرة الصباح بأن الكويت لا يمكنها جمع شمل الانقسامات التى شجعت عليها الديمقراطية . وتحت ضغط شعبى مطالب بإعادة البرلمان ، أسست الأسرة الحاكمة مجلس الشورى الوطنى فى يونيو عام ١٩٩٠ . وتم حل المجلس أثناء الحرب مع العراق لكنه عاد يمارس نشاطه فى يوليو عام ١٩٩١ وظل قائمًا حتى بدأت الجمعية الوطنية عملها فى عام ١٩٩٢ .

وشهدت انتخابات عام ١٩٩٢ منافسة محمومة وكانت نتائجها صدمة للأسرة المالكة الكويتية ؛ فقد فاز مرشحو المعارضة بواحد وثلاثين مقعداً بعدما ألحقوا الهزيمة بالعديد من المرشحين الموالين للحكومة . وكان ١٦ من هؤلاء ينتمون إلى فصائل دينية مختلفة ، بينما كان الباقون إما ليبراليين أو يساريين ، والذين دأب الكثيرون منهم على انتقاد أسرة الصباح . وللإسلاميين أيضًا تمثيل جيد فى الجمعية الوطنية الحالية ، والتى انتخبت فى عام ١٩٩٦ ، ومع ذلك كانت شخصيات المعارضة العلمانية أقل نجاحاً مما كانت فى عام ١٩٩٢ ، الأمر الذى عكس الاستياء إزاء برلمان عام ١٩٩٢ . وفى مايو ١٩٩٩ ، حل الشيخ جابر الصباح البرلمان ودعا إلى إجراء انتخابات مبكرة بعد أن وجه النواب انتقاداً حاداً إلى أحد أعضاء الحكومة . وبعد ذلك بأسابيع قليلة فقط ، أعلن أمير الكويت رغبته فى السماح للنساء بالاقتراع فى الانتخابات وترشيح أنفسهن فيها حيث من المقرر أن تبدأ تلك الانتخابات فى ٢٠٠٣ .

الأردن والمغرب :

على الرغم من أن هاتين الدولتين ملكيتان إلا أنهما تتحركان باتجاه شكل من أشكال الملكية التى تشبه إلى حد كبير تلك الموجودة فى أوروبا المعاصرة . إذ إن الدور الذى يضطلع به البرلمان فى الدولتين يعتبر أهم من دور البرلمانات فى بلدان الشرق الأوسط الأخرى ، ففى الأردن والمغرب ، يتم اختيار أعضاء البرلمان من خلال انتخابات عامة تشارك فيها كافة الأحزاب السياسية ، وذلك على الرغم من أن السلطات المغربية لا تعترف ، مثلاً ، بحركة العدل والإحسان الأصولية .

وقد كانت الأردن ، وهى المملكة الدستورية الوحيدة الباقية فى المشرق ، ملكية دستورية منذ أن أسس دستور عام ١٩٢٨ مجلساً تشريعياً منتخباً (رغم أن الأسرة الهاشمية ما زالت تضطلع بالمسئولية المطلقة) . ودعا دستور جديد صدر فى فبراير عام ١٩٤٧ إلى تشكيل جمعية وطنية ومجلسين تشريعيين ؛ الأول مجلس نواب يضم ثمانين عضواً يتم انتخابهم فى اقتراع شعبى ، والثانى مجلس شورى يعين الملك أعضاءه . وخلال الفترة من عام ١٩٥٣ حتى عام ١٩٩٩ ، تولى الملك حسين الراحل حكم البلاد ، وهو حفيد الملك عبد الله والحفيد الأكبر للشريف حسين بن على شريف مكه ، وذلك بعد وفاة الحسين ، ثم انتقل الحكم إلى ابنه عبد الله الثانى .

وتمخضت انتخابات أكتوبر عام ١٩٥٦ عن وصول حكومة يسارية إلى السلطة أعلنت تحديها للملك حسين الشاب ، والذى رد على هذا التحدى بإعلان قانون الطوارئ وحظر كافة الأحزاب السياسية . وبعد حرب الأيام الستة مع إسرائيل والاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية ، التى لا تزال الأردن تطالب بإعادتها إليها ، ساد شعور عام بأنه من المتعذر إجراء انتخابات برلمانية . وأخيراً ، فى عام ١٩٨٤ ، سمح التعديل الذى أدخل على الدستور بإعادة تشكيل البرلمان التاسع (والذى تأسس فى عام ١٩٦٧) من خلال انتخابات فرعية لاختيار أعضاء جدد بدلاً من هؤلاء الذين قضوا نحبهم ، ومع هذا ، لم تلق تلك الخطوة استجابة على نطاق واسع فى الأوساط الشعبية . وبعد انقضاء أربع سنوات ، أعلن الملك حسين رسمياً إلغاء الارتباط الإدارى بالضفة الغربية، ليمهد بذلك الطريق أمام إجراء انتخابات برلمانية غير حزبية فى نوفمبر عام ١٩٨٩ ، والتى كانت الأولى خلال أكثر من عقدين .

ومع عودة الحياة السياسية تدريجياً ، كان الملك حسين يحاول «إجهاض الأزمة، وإيجاد توازن سياسى ، وهو توازن يعطى شعبه نظاماً سياسياً معدلاً كانوا يريدونه ، والذى يضمن مستقبل حكم الأسرة الهاشمية» (يورك ١٨ : ١٩٨٩) . وفى مواجهة حركة إسلامية قوية ، اختار الملك إشراك الإسلاميين فى الحكومة بدلاً من فرض حظر عليهم ، وكما حدث فى الجزائر ، ومصر ، وتونس . وكانت إحدى نتائج ذلك زيادة فى القوانين المقيدة للأنشطة مثل استهلاك الكحوليات والمطالبة بفصل الجنسيين ومنع الاختلاط بينهما فى حمامات السباحة والأندية الرياضية . وفى

الوقت نفسه ، اقتضت المشاركة فى الحكومة من الإسلاميين طرح حلول وسط وتسويات وصياغة تحالفات مع كيانات سياسية أخرى (أحمد ، ١٩٩٧) .

وأجريت الانتخابات متعددة الأحزاب التالية فى عامى ١٩٩٣ و ١٩٩٧ . وفى عام ١٩٩٣ ، شارك حوالى عشرين حزباً تعكس تيارات سياسية متباينة فى معركة الانتخابات . وفى نوفمبر عام ١٩٩٧ ، رغم هذا ، كان هنالك تراجعاً خطيراً فى خطوات الأردن باتجاه التحول إلى الديمقراطية . وقبل الانتخابات ، ذكرت منظمة ووتش لحقوق الإنسان إنه كان هناك ميل واضح لتثبيط عزيمة الأردنيين وصرفهم عن المشاركة فى أية مناقشة عامة حول القضايا السياسية التى تعتبرها شرائح المجتمع المدنى ذات أهمية وطنية ، وتساءلت المنظمة عما إذا كانت أية انتخابات ، فى ظل هذه الظروف ، يمكن اعتبارها حرة ونزيهة (أندونى ، ١٩ : ١٩٩٧) . وبالإضافة إلى هذا ، بات واضحاً أن التعديلات التى أدخلت فى قانون الانتخابات قد عززت موقف زعماء ومشايخ القبائل على حساب جماعات المعارضة . ونتيجة لهذا ، قاطعت تسعة من أحزاب المعارضة ، من بينها جبهة العمل الإسلامى ، الانتخابات تاركة الساحة مفتوحة على مصراعيها للمرشحين الموالين للحكومة لكى يحققوا فوزاً كبيراً فى الانتخابات ويضمنوا أغلبية المقاعد فى البرلمان .

وكما هو الحال فى عدد من الدول الأخرى ، حاولت المملكة المغربية معالجة مشكلة المعارضة السياسية من خلال إصدار دستور جديد أكثر ليبرالية إلى حد ما . ومع هذا ، وكما حدث فى الحكومة الأردنية ، يمكن للملك حل البرلمان وقتما يشاء ، وهو ما فعله طوال أكثر من عقد بدءاً من عام ١٩٦٥ . وبمقتضى دستور عام ١٩٩٦ ، يحتفظ الملك لنفسه بصلاحيات وسلطات سياسية مهمة ، إذ لابد وأن يوافق على جميع أعضاء الحكومة كما يمكنه حل البرلمان فى أى وقت .

وفى الوقت الحاضر ، يوجد بالمغرب هيئة تشريعية مكونة من مجلسين : مجلس نواب مؤلف من ٣٢٥عضواً يتم انتخابه بطريقة مباشرة لمدة خمس سنوات ، ومجلس مستشارين يجرى أنتخابه بصورة غير مباشرة من قبل مجالس محلية ، ومنظمات مهنية، ونقابات عمالية لمدة تسع سنوات . ويحق للرجال والنساء الاقتراع فى الانتخابات . وفى انتخابات نوفمبر عام ١٩٩٧ ، حصلت المعارضة (التى يهيمن

عليها حزب الاستقلال والاتحاد الاشتراكى للقوى الشعبية [USFB]على أغلبية المقاعد فى مجلس النواب . وضمت الحكومة الائتلافية الجديدة اثنين وعشرين عضواً من المعارضة من مجموع واحد وأربعين وزيراً . وأصبح عبد الرحمن اليوسفى ، زعيم الاتحاد الاشتراكى للقوى الشعبية ، رئيساً للوزراء .

صورة رقم (٥) الملك الحسن الثانى يستعرض حرس الشرف فى الدار البيضاء بالمغرب

- **الدول الإسلامية :**

فى شهر فبراير عام ١٩٧٩ ، وفى أعقاب أشهر من الاضطرابات المدنية التى تفجرت على نطاق واسع ، تمت الاطاحة بنظام أسرة بهلوى فى إيران والذى كان نظاماً مستبداً وشديد الولاء للغرب . ولعل ما أصاب الكثيرين من المراقبين الغربيين، وليس المراقبين فى المنطقة بالدهشة هو أن الحكومة المنتصرة الجديدة فى إيران لم تأت من انقلاب من جانب أوساط الصفوة الإيرانية ، ولا من الحركات اليسارية التى كان الشاه قد قمعها بوحشيته ، ولكنها جاءت من حركة إسلامية محافظة يتزعمها آية الله روح الله خومينى ، وهو رجل دين شيعى بارز عاد من منفاه فى باريس . ومع نجاح الثورة الإيرانية ، بدأ ميلاد عهد جديد للإسلام السياسى .

وكانت الجمهورية الإسلامية الجديدة التي أسسها الخوميني بمثابة انطلاقة راديكالية من حركات ثورية سابقة في الشرق الأوسط . فعلى النقيض من الناصرية والبعثية ، واللتين اشتملتا على مجموعة متنوعة من الأفكار المناهضة للإمبريالية والهيمنة الغربية ، نفذ الخوميني وأتباعه برنامج عمل سياسي محافظ كانت عناصره كلها مستمدة من التيار الإسلامي التقليدي والممارسة الإسلامية . ورغم أن تفاصيل طبيعة الحكومة الإسلامية معقدة ومثيرة للجدل في إطار الجمهورية الإسلامية ذاتها) ، إلا أنها تتميز بثلاث خصائص :

الخاصية الأولى : هي تطبيق القانون الإسلامي (الشريعة) بدلاً من النظم المختلفة والمتعددة للقانون المدني . وجاء هذا بالطبع متعارضاً مع الاتجاه الذي كان سائداً في القرن العشرين في الشرق الأوسط ومناطق ما بعد الحقبة الاستعمارية الأخرى والذي تمثل آنذاك في استبدال النظم القانونية التقليدية التي تقوم على الدين بنظم وقوانين علمانية موحدة ، والتي كانت مستخدمة في الغالب من النظم القانونية للقوى الاستعمارية السابقة ، وفي إطار الممارسة العملية ، يتضمن تطبيق الشريعة أيضاً فرض قوانين اجتماعية محافظة تقليدية والتي لم يرد ذكرها بالفعل في القرآن ، وأغلبها تلك التي تثار الشكوك حولها وتتعلق بالقيود المفروضة على سلوك المرأة .

والثانية هي أن جمهورية إيران الإسلامية وضعت السلطة العليا للدولة في أيدي مجالس دينية ، واختارت هذه المجالس بدورها زعيماً دينياً أعلى ، وهو المنصب الذي كان يشغله الخوميني حتى وفاته في عام ١٩٨٩ . ومع هذا كان هناك إلى جانب ذلك أيضاً الهياكل المألوفة للدولة الحديثة ، أي رئيس الجمهورية ، والبرلمان ، والنظام القضائي ، وغير ذلك من المؤسسات الأخرى . ومع أن السلطات الدينية لها صلاحية إبطال قرارات هذه الهياكل العلمانية ، إلا أن هذه القرارات لابد أن تستند إلى القوانين الإسلامية وتعاليم وأحكام الدين الإسلامي وليس إلى الأهواء الشخصية . ويجب أن يحصل المرشحون للحكومة على موافقة السلطات الدينية ، ومن ثم فإنه طوال حياته ، الخوميني يحتفظ بالسلطة المطلقة فيما يتعلق بأمور وشئون الحرب وقضايا السياسة الخارجية الأخرى ، برغم أنه لم يعمد في أحيان كثيرة إلى ممارسة هذه الصلاحية .

وأخيراً ، حرص الخوميني على اتباع نهج إسلامي أعطى أولوية قصوى للجهود التبشيرية . وتبعاً لذلك كانت الجمهورية الإسلامية تعتبر نفسها في طليعة ثورة إسلامية عالمية ، فسارعت على الفور إلى تصدير النموذج الإسلامي الإيراني ، أو

بالأحرى نموذج الإسلام السياسى المحافظ ، إلى الدول الأخرى . (وفى هذا الصدد فإن أجندة الأصولية الإيرانية بدت بالنسبة إلى الغرب أشبه ما تكون بأجندة الشيوعية الدولية ، رغم وجود بعض الاختلافات الملحوظة بين الاثنين) . وصادفت إيران نجاحاً محدوداً فى جهودها الرامية إلى تصدير الإسلام السياسى ، ولكن فكرة وجود دولة إسلامية محافظة تطبق أحكام وتعاليم الشريعة الإسلامية قد كان لها تأثيرها العميق والهائل فى مختلف أنحاء الشرق الأوسط خلال العقدين الماضيين .

بعد انقضاء عشرين عاماً تقريباً على عودة الخومينى المظفرة إلى إيران ، يمكن اعتبار تجربة الجمهورية الإسلامية بمثابة نجاح كبير . إذ إنه على النقيض من التنبؤات التى أطلقها العديد من المتشككين والذين توقعوا نهاية مبكرة وسريعة لنظام حكم من العصور الوسطى فرض على دولة متمدنة وصناعية ، فإن الجمهورية الإسلامية برهنت على قدرتها على البقاء ، بل وقدرتها على الاستقرار بوجه عام ، وهكذا أمكنها أن تتغلب بنجاح ، لم يكن متوقعاً أيضاً ، على عدة صعوبات وتحديات رئيسية ، من بينها تلك الحرب المدمرة مع العراق ، وانهيار أسعار النفط ، والأعداد الهائلة من اللاجئين الذين تدفقوا إليها من العراق وأفغانستان . والواقع أن هذا النجاح تحقق لإيران برغم أن رحيل الخومينى قد أصاب السلطات الدينية ببعض الضعف ، الأمر الذى أدى نسبياً إلى تباطؤ دول أخرى فى المنطقة فى تبنى النموذج الإيرانى .

ويعزى سبب ذلك الى عاملين : الأول : أنه وخلافاً للعديد من التوقعات والتكهنات فى الغرب ، لا يعتبر النموذج الإيرانى نموذجاً للدولة الدينية الشمولية . فالحكومة العلمانية ظلت قائمة كما هى ، سواء أكان ذلك لأسباب دينية (الإسلام يؤكد على أهمية الأمة ، أو المجتمع الإسلامى برمته ، وليس الأمة فقط ، أو النخبة الدينية) ولأن رجال الدين الشيعة أبدوا قدراً قليلاً من الاهتمام إزاء تحمل مسئولية سد الثغرات والفجوات التى كانت قائمة . وتوفر هذه المؤسسات السياسية العلمانية مصدراً طبيعياً للمعارضة لنفوذ السلطات الدينية ، ولا سيما فى المناطق الحضرية ، وعلاوة على هذا فإن السلطات الدينية ذاتها تستمد سلطتها وقوتها من تأييد واحترام أتباعها ، وليس من أى حق مقدس جوهرى . وكان الخومينى يحظى بتأييد شعبى واسع داخل إيران مما جعله قادراً على حشد ملايين الأشخاص والتفافهم حوله . ولكن لم يظهر أى زعيم آخر استطاع أن يملأ الفراغ الذى تركه بعد وفاته ، ومن ثم أدى إلى التنافس على الزعامة داخل المجالس الدينية إلى إضعاف سيطرتها .

والعامل الثانى : هو حقيقة أن قيام الجمهورية الإسلامية فى إيران يرتكز على المذهب الشيعى مما يحد من الإغراء المباشر الذى يمكن أن يحظى به النموذج الإيرانى فى مناطق أخرى من العالم الإسلامى . وهناك عدد صغير من المناطق الأخرى خاصة فى جنوب العراق وجنوبى لبنان والبحرين حيث يوجد نسبة كبيرة من السكان الشيعة وإلى الحد الذى يكفى للقيام بمحاولات لتطبيق هذا النموذج بشكل مباشر (رغم أنه فى لبنان ، حالت السيطرة العسكرية السورية والإسرائيلية دون تحقيق ذلك . وفى أماكن أخرى كانت قوات الأمن قد قمعت الحركات السياسية الشيعية) . وفى مناطق أخرى فى الشرق الأوسط حيث تقطنها أغلبية من السكان السُنَّة ، من المحتمل أن تكون العديد من المبادئ العامة للجمهورية الإسلامية جذابة ، بيد أن الخصائص والمواصفات الخاصة بتطبيق المبادئ الشيعية ليست بنفس القدر من الجاذبية.

صورة رقم (٦) ما يقرب من مليونى شخص قتلوا خلال الحرب الأهلية والمجاعة التى اجتاحت شرقى وجنوبى السودان منذ بداية الثمانينيات .

ونتيجة لهذا ، فإن الجماعات التى سعت لإقامة دولة «إسلامية» محافظة قد أصبحت مصدراً مهماً للمعارضة فى شتى أرجاء الشرق الأوسط ، ولكنها قد تمكنت من الوصول إلى السلطة فى ثلاث دول فقط هى : السودان وموريتانيا ، وإلى الشرق من إيران فى أفغانستان . بيد أن هذه الدول الثلاث فقيرة جداً ، وهامشية جغرافياً ، وفى حالتى السودان وأفغانستان ، فإن الحرب الأهلية قد أنهكتهما على مدى عقود طويلة . وقد واجهت الحركات الإسلامية تحديات جمة فى مصر وسوريا وتركيا وغزة والضفة الغربية والجزائر . وفى كل من الجزائر وسوريا تصاعدت حدة هذه الحركات الإسلامية لتصل إلى حافة حرب أهلية . ولكن اعتباراً من نوفمبر ١٩٩٩ ظلت هذه الدول كلها علمانية من الناحية الرسمية .

● **الحكومات الديمقراطية :**

كما ذكرنا من قبل ، هناك دول عديدة فى الشرق الأوسط وهى إسرائيل ولبنان وتركيا يمكن اعتبارها ديمقراطية على الأقل إسمياً . وقد طورت هذه الدول ترتيبات سياسية فى موازاة خطوط السلطات الأوروبية ، مع وجود أنظمة حكم برلمانية (بدلاً من الأنظمة الرئاسية) ومع هذا ، فإن هذه الدول ليست «ليبرالية» تماماً . وبدلاً من ذلك ، وبسبب التأكيد على الدين والعرقية المتأصلان فى هياكلها السياسية ، ومن ثم فإن من الأفضل وصف هذه الدول الثلاث بأنها ديمقراطيات «مشروطة» وإلى حد ما ، استخدمت هذه الدول النموذج الديمقراطى الليبرالى ، الذى تبنى قوانين أوروبية ويسعى للمساعدة الأوروبية ، وذلك لتحقيق أقصى فائدة ممكنة . (لتستعيد تركيا ما يمكن استعادته من أطلال الامبراطورية العثمانية ، ولأن لبنان كان بلداً صغيراً ومقسماً ، ولأن إسرائيل تعتبر دولة غير شرعية من وجهة نظر جيرانها العرب) ولكن بسبب الاختلافات المؤسسية التى ترتكز على الدين أو العرقية والقائمة بين جماعات المواطنين فإن هناك اختلافات مهمة بين الديمقراطية الموجودة فى هذه الدول الثلاث والتقليد الديمقراطى الليبرالى فى أوروبا وأمريكا الشمالية .

● **تركيا :**

فى تركيا تتركز السلطة فى أيدى أعضاء البرلمان ، والذين تمتد عضويتهم فيه إلى خمس سنوات . (من الممكن أن يدعو رئيس الدولة إلى انتخابات مبكرة ، ويقوم

البرلمان بانتخاب الرئيس لفترة رئاسية مدتها سبع سنوات) ورغم أنه مسموح بتشكيل أحزاب سياسية ، إلا أن الحكومة دأبت على حرمان الأكراد من حقهم فى تشكيل حزب سياسى على أساس عرقى ، بل وتحاول الحد من سلطتهم وقوتهم كجماعة عرقية متميزة. وموقف الحكومة هنا يتلخص فى أنه قد يحق للأكراد التمتع بحقوقهم المدنية الكاملة ، بيد أنه لا يمكنهم التعبير عن هذه الحقوق فى إطار تقرير المصير الكردى . كما أن تركيا قد شرعت فى فرض قيود على حرية التعبير لدى الحركات الإسلامية ، ولعل أحدث مثال على ذلك (وكما أشرنا من قبل) إقصاء حزب من الجمعية الوطنية . وعلى ذلك فإن عمليات التدخل المتكررة (وإن تكن لفترات قصيرة) من جانب المؤسسة العسكرية للمحافظة على نموذج أتاتورك ، وأيضاً عمليات القمع طويلة الأجل للحريات المدنية للأكراد ، من شأنها إضعاف أوراق الاعتماد الديمقراطية لدى تركيا .

● إسرائيل :

بالقياس إلى مواطنيها من السكان اليهود ، تعتبر إسرائيل من أكثر الأنظمة السياسية انفتاحًا فى الشرق الأوسط . ومع هذا فإن المبدأ الذى تأسست عليه إسرائيل بشأن الحفاظ على الهوية اليهودية للدولة وإخفاقاتها فى معالجة مشكلة الحقوق السياسية للفلسطينيين، سواء كانوا داخل إسرائيل أم داخل الأراضى المحتلة على وجه الخصوص، يحدان من المدى الذى يمكن أن تصل إليه وتوصف عنده بأنها دولة «ليبرالية» تمامًا . وعلاوة على ذلك ، وفى التسعينيات نجد أنه قد برز نوع من التحدى الجوهرى للقواعد الديمقراطية من جانب ما أطلق عليه آنذاك «نزعة إحياء اليهودية» .

ويرتكز النظام السياسى فى إسرائيل وبصورة مباشرة على قواعد ديمقراطية ، وكان معظم زعماء الحركة الصهيونية التى أدت إلى تأسيس إسرائيل من المدافعين بشدة عن الاشتراكية الديمقراطية ، وكان لدى إسرائيل ، ومنذ البداية ، مؤسسات ديمقراطية ليبرالية . ورغم أن الخدمة العسكرية مهمة بالنسبة للتقدم أو الترقى فى مضمار العمل السياسى ، إلا أنه لم يحدث قط أن تدخلت المؤسسة العسكرية للإطاحة بالحكومة ، كما أن المواطنين غير اليهود ، ولا سيما الأقلية الكبيرة من الفلسطينيين داخل إسرائيل يسمح لهم الإدلاء بأصواتهم وترشيح أنفسهم فى الانتخابات العامة ،

وذلك على الرغم من أن الأعضاء غير اليهود فى البرلمان الإسرائيلى (الكنيست) لم يكونوا مدرجين فى الائتلافات الحاكمة حتى وقت قريب جداً .

والواقع أن هيكل السلطة فى السياسة الإسرائيلية قد مر بثلاث مراحل مختلفة ، ففى السنوات الأولى لقيام الدولة ، كان المسرح السياسى حكراً على حزب واحد هو حزب العمل ، والذى كانت قيادته كلها تتألف تقريبًا من أفراد من أصول أوروبية ، ومارس حزب العمل سيطرته ليس فقط من خلال الآلية التشريعية للكنيست ، بل أيضاً من خلال السيطرة التى استحوزت عليها نقابات العمال والشركات والمؤسسات الحكومية ، والتى وفرت فرصاً هائلة للدعم والمساندة .

وفى عام ١٩٧٧ ، واجهت هيمنة حزب العمل تحدياً يتمثل فى ظهور مجموعة من الأحزاب المحافظة التى اتحدت تحت اسم الليكود . وبالإضافة إلى أنه وفر بدائل لسياسات حزب العمل ، فإن حزب الليكود على سبيل المثال كان أكثر اهتماماً بتوسيع المستوطنات اليهودية فى الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى حرب عام ١٩٦٧ وبالحد من سيطرة حزب العمل على المؤسسات الحكومية . وهكذا نال حزب الليكود إعجاب عدد من الناخبين اليهود الذين كانوا قد هاجروا من دول أخرى مثل المغرب واليمن والعراق ، ونجح الليكود بذلك فى كسر احتكار حزب العمل للسيطرة الإسرائيلية فى إسرائيل وتمكن من الاحتفاظ بالسلطة لسنوات عديدة ، سواء بصورة منفردة ، أم فى إطار ائتلافات وحدة وطنية مع حزب العمل.

وبدأت المرحلة الثالثة مع حدوث تغيير فى القوانين الانتخابية ، اعتبارا من عام ١٩٩٦ ، والتى أتاحت إمكانية الانتخاب المباشر لرئيس الوزراء . وقبل هذا ، الزعيم الذى يحصل حزبه على أغلبية الأصوات فى الانتخابات تتاح له الفرصة الأولى للتفاوض مع زعماء الأحزاب الأخرى لتشكيل ائتلاف حاكم . وإذا نجح فى مساعيه ، يصبح ذلك الشخص رئيساً للوزراء . وإذا لم ينجح يلجأ رئيس الدولة إلى الحزب الذى احتل المركز الثانى من حيث عدد الأصوات الناخبين ويمنح زعيمه نفس الفرصة مرة أخرى لتشكيل حكومة .

وعلى الرغم من أن نظام الانتخاب المباشر لرئيس الوزراء كان يهدف أساسًا إلى جعله أقل اعتماداً على ائتلافات برلمانية غير مستقرة فى الكنيست ، إلا أنه قد كان لهذا النظام تأثيره غير المتوقع فى تشجيع زيادة عدد الأحزاب الصغيرة فى انتخابات

عام ١٩٩٦ وعام ١٩٩٩ . إذ خسر كل من حزب العمل وكتلة الليكود مقاعد كبيرة فى البرلمان لصالح أحزاب جديدة ذات توجهات عرقية ، ولا سيما حزب إسرائيل بعاليا ، والذى يمثل أساساً المهاجرين الروس ، وحزب شاس ، والذى يشغل الآن الترتيب الثالث بالنسبة إلى عدد المقاعد فى الكنيست .

وعلاوة على حالة عدم الاستقرار البرلمانى التى يسببها انتشار الأحزاب الصغيرة ، فإن الهوية الليبرالية الديمقراطية الإسرائيلية تصبح أيضاً موضع شك من جانب بعض الأحزاب الدينية والتى تريد منح مزيد من السلطة للجماعات والمؤسسات الدينية . وكمثال على ذلك ، تحتدم المنافسة فى الانتخابات حول المناصب الخاصة بالمحاكم الدينية والعلمانية ، وذلك على الرغم من حقيقة أن المجالس الدينية لديها بالفعل سلطة أكبر فى إسرائيل من تلك التى كانت تتمتع بها فى معظم الأنظمة الديمقراطية الليبرالية الأخرى . وتبعاً لذلك ، تواجه إسرائيل العديد من المشكلات ذاتها المتعلقة بكيفية تحقيق التوازن بين السلطتين الدينية والعلمانية وهى نفس المشكلات التى تواجه الدول الإسلامية فى المنطقة .

● لبنان :

الوضع فى لبنان يبدو معقداً إلى حد ما . فمن الناحية الدستورية تعتبر لبنان جمهورية برلمانية بها مجلس نواب مؤلف من ١٢٨ عضواً منتخباً يعكسون تقسيماً طائفياً معقداً يضم ١٨ كياناً منفصلاً على الأقل . ومن ثم ، حاولت اتفاقية الطائف المبرمة فى عام ١٩٨٩ تعديل توازن القوة السياسية حتى يمكن أن تعكس بدقة أكثر الجماعات الطائفية المختلفة فى لبنان . ومع هذا لم تعدل تلك الاتفاقية فكرة تحديد المواطنين من خلال انتماءاتهم السياسية – الدينية .

والحقيقة أن العودة إلى الديمقراطية بعد ١٥ عاماً من الحرب الأهلية والصراع الدولى لم يكن بالأمر اليسير . وفى سبتمبر وأكتوبر عام ١٩٩٢ ، أجرت لبنان أول انتخابات عامة خلال عشرين عاماً . وقاطع العديد من اللبنانيين ، وخاصة المسيحيون، هذه الانتخابات لأنهم قالوا إن إطار العمل الانتخابى لم يكن نزيهاً ، مع هذا جادل آخرون أن المشكلة الحقيقية كانت تتمثل فى أن المسيحيين اللبنانيين لم يعودوا يمنحون التمثيل النسبى الكبير الذى كانوا يتمتعون به فى الماضى .

وبسبب مقاطعة الانتخابات جزئياً ولكن أيضاً نظراً لأنهم كانوا يعكسون كلاً من الأفضليات اللبنانية والبرجماتية اللبنانية ، فاز المرشحون الموالين لسوريا والجماعات الإسلامية الموالية لإيران بعدد من المقاعد في هذه الانتخابات . وكان رئيس الوزراء الجديد ، والذى شغل أيضاً منصب وزير المالية ، هو رفيق الحريرى ، وهو سنى ولبنانى- سعودى وُلِدَ فى لبنان . وقد نال الحريرى ، وهو ملياردير جمع ثروته من عمله فى مجال البناء والمقاولات ، تأييد كل من سوريا والسعودية ، (وهو تأييد كان ضرورياً) . واختار البرلمان إلياس الهراوى رئيسا للدولة . وعكست القيادة العليا للحكومة الاستخدام المستمر للروابط والعلاقات الأسرية والاختلافات الطائفية فى توزيع المناصب فى السلطة . إذ أصبح نبيه برى، زعيم حزب أمل الشيعى، رئيسا للبرلمان . وعين فارس بويز، زوج ابنة إلياس الهراوى ، وزيراً للخارجية ، وشغل منصب وزير الدفاع محسن دلول ، وهو شيعى تربطه علاقات بسوريا .

وعقدت الانتخابات البرلمانية الثانية التى أعقبت توقيع اتفاقية الطائف فى شهرى أغسطس وسبتمبر عام ١٩٩٦ ، فى ظل قانون انتخابى جديد تمت الموافقة علية فى يوليو السابق . وأكد المعارضون أن القانون الانتخابى الجديد يشكل انتهاكاً لاتفاقية الطائف لأنة حقق منافع وفوائد جمة لمؤيدى الحكومة ، ومع هذا لم يتمكن المعارضون من إبطال القانون . وخلال موسم الحملة الانتخابية ، تشكل تحالف غير رسمى مؤلف من الحكومة اللبنانية ، ممثلة فى شخص رفيق الحريرى ، ونبيه برى زعيم حركة أمل، ووليد جنبلاط زعيم الدروز ، وذلك بهدف الحد من فرص النجاح الانتخابى لحزب الله ، وهو الموقف الذى جاء متوافقاً مع رغبة سوريا فى تأييد ودعم حركة أمل الأكثر علمانية على حساب حزب الله الموالى لإيران . وبعد انتهاء الانتخابات وفرز الأصوات ، حصل ائتلاف الحريرى على عشرين مقعداً ، وحصل مرشحو حركة أمل على العدد نفسه من المقاعد . وكان نصيب المرشحين الدروز وحلفائهم المسيحيين عشرة مقاعد . وحصل حزب الله وحلفاؤه على سبعة مقاعد .

وبموجب القانون الانتخابى الجديد ، كان من المفترض إجراء انتخابات رئاسية فى خريف عام ١٩٩٥ لاختيار رئيس جديد بدلاً من إلياس الهراوى نظراً لأن الدستور

ينص على أن يتولى الرئيس منصبه لفترة ست سنوات فقط . ومع ذلك ، تجاهل البرلمان هذا الشرط ، وفى ١٩ أكتوبر عام ١٩٩٥ ، صوت أعضاؤه بالموافقة على تمديد رئاسة الهراوى لمدة ثلاث سنوات إضافية الأمر الذى أثار غضب العديد من اللبنانيين والذين اعتبروا هذه الخطوة بمثابة محاولة واضحة لتملق سوريا وكسب رضاها . وبعد ذلك بثلاث أعوام ، فى أكتوبر عام ١٩٩٨ ، تم انتخاب إميل لحود رئيساً للبنان .

خاتمة :

مع بزوغ فجر ألفية ميلادية جديدة ، تواجه دول الشرق الأوسط ثلاثة تحديات سياسية رئيسية . التحدى الأول يتمثل فى أن المنطقة تمر بمرحلة تغيير فى الأجيال ، سواء بالنسبة إلى زعمائها أو بالنسبة إلى قضاياها ومشكلاتها السياسية . إذ إن الوجوه وبرامج العمل التى ظلت تهيمن على العقود الثلاث الماضية من القرن العشرين لا يبدو من المحتمل أن تكون على القدر نفسه من الأهمية فى العقود الأولى من القرن الحادى والعشرين . والتحدى الثانى هو أنه من الناحية الفعلية ، تشهد كل دولة من دول المنطقة توترات متزايدة من التنافس مع تيارات سياسية تدافع إما عن المزيد من الديمقراطية أو عن قدر أكبر من النفوذ الدينى فى الحكومة . وهنالك أخيراً ذلك التحدى الذى يكمن فى الضغوط المتزايدة على الحكومات من أجل تنفيذ سياسات من شأنها تحسين الأداء الاقتصادى والاستجابة لاقتصاد عالمى بات لا يعول كثيراً على البترول . وفى هذا الجزء الأخير من الخاتمة سنتعرض بإيجاز لكل هذه القضايا .

وكما ذكرنا من قبل كانت معظم الحكومات فى منطقة الشرق الأوسط مستقرة إلى حد كبير ، حيث ظل زعماء دول المنطقة فى السلطة على مدى عقود طويلة . ومع هذا ، نلاحظ أن العديد من الحكام المحوريين صاروا إما كهلة أو مرضى ، ومن ثم من المرجح أن يموتوا أو يصبحوا عاجزين وغير قادرين على الحكم فى المستقبل القريب . وحتى عندماتم تعيين خلفاء لبعض حكام دول المنطقة ، كما حدث فى العراق، وحتى وقت قريب ، فى الأردن و المغرب ، فإنه لن يكون لدى الحكام نفس تجربة أسلافهم أو رؤيتهم المستقبلية ، وحين تكون مسألة الخلافة فى الحكم غير واضحة ، كما هو الحال فى مصر ، وليبيا ، أو السلطة الوطنية الفلسطينية ، يصبح من المحتمل ظهور فترات من عدم الاستقرار .

وبينما يخبو نجم زعماء الجيل الأكبر سناً ، فإن العديد من الذُريات الأقدم ، أخذوا يضمحلون أيضًا . فالحرب الباردة ، التى استخدمت خلالها العديد من دول المنطقة القوى الكبرى أو التى استغلت خلالها القوى الكبرى تلك الدول ، قد انتهت مع بداية التسعينيات . والعناصر الأخيرة والباقية التى تشكل منظومة الصراع العربى الإسرائيلى، وهى لبنان ، ومرتفعات الجولان ، وفلسطين ، تبدو الآن أقرب للتوصل إلى قرار أكثر من أى وقت مضى. والأيديولوجيات العلمانية الثورية التى ظهرت فى حقبة ما بعد الاستعمار ، مثل الناصرية والبعثية ، تلاشت تقريباً ولم تعد تلهم الجماهير

وتحركها أو تثير مناقشات فكرية جادة . ومن ثم فإنه ليس من المرجح أن تكون أجندة العمل المستقبلية مرآة تعكس الماضى .

وبدلاً من هذه المخاوف ، ظهرت مشكلة جديدة والتى من الواضح أنها تهيمن على دول المنطقة ؛ ألا وهى الضغوط المتزايدة من أجل الحكم الديمقراطى أو الدينى . وتواجه معظم دول المنطقة مطالب بشأن إتاحة قدر أكبر من المشاركة الشعبية فى الحكومة ، وقد حققت هذه الدول تقدماً كبيراً فى التكيف مع هذه المطالب . ولا شك أن مثل هذه الخطوات باتجاه المزيد من الديمقراطية متوافقة مع الاتجاهات السائدة فى معظم بلدان العالم .

وعلى أى حال ، فإن الشرق الأوسط يبدو فريداً تقريبًا فى قوة الدين المُسيَّس ، والذى يتسم عادة بطابعة المحافظ ، كبديل للديمقراطية العلمانية . وقد أثر هذا على سائر دول المنطقة ، بما فيها دول مثل تركيا وإسرائيل واللتين لديهما تقاليد برلمانية قوية . وقد جاء هذا الانبعاث للقوة السياسية للدين بمثابة مفاجأة للعديد من المحللين ، وهو انبعاث يصعب التنبؤ بمستقبله .

وأخيراً بينما بدأت تخبو الصراعات الإقليمية والعسكرية فى المنطقة وبينما صار الارتفاع فى أسعار البترول لدى الدول الأعضاء فى منظمة أوبك (OPEC) فى ذاكرة الماضى ، باتت مشكلة التنمية الاقتصادية تحتل أهمية متزايدة فى مضمار السياسة . ومع الهبوط فى عائدات النفط ، سوف تتعرض أنظمة الحكم فى الشرق الأوسط لمزيد من الضغوط من أجل التحول إلى الصناعة وتنويع قاعدة اقتصادياتها . ومن المحتمل أن تطالب طبقة المهنيين من الأطباء ، والمهندسين ، والمحامين ، والمحاسبين وغيرهم، والذين هاجروا يومًا ما للعمل فى الخارج وعاشوا هناك كمغتربين لا يضطلعون بأى دور سياسى ، من المحتمل أن تطالب هذه الطبقة بنصيب أكبر من السلطة وأن يكون لها دور سياسى فى بلادهم . كما سيحتاج الشرق الأوسط إلى إعادة تقييم دوره فى منظومة الاقتصاد العالمى ، وسيكون أيضًا بحاجة إلى أن يقرر ما إذا كان سيواصل سياساته أم لا فى إطار الاندماج والتكامل الإقليمين ، وتحقيق المزيد من الارتباط مع الاقتصادات الأكثر تطوراً فى أوروبا ، أو الانضمام إلى الاقتصاديات الأقل تطوراً فى أفريقيا وجنوبى ووسط آسيا . ولا ريب أن كل هذه التساؤلات ستكون صعبة بالنسبة إلى الأجيال الجديدة من العرب ، والإيرانيين ، والإسرائيليين ، والأتراك وهم يدخلون القرن الحادى والعشرين .

ملحوظة :

استفاد هذا الفصل إلى حد كبير من تعليقات دونالد ل . جوردون ، وجوين أوكروليك ، وكلاهما ليسا مسئولين عن أية أخطاء فى الحقائق أو التفسيرات والشروح التى يحتمل أن تكون قد وردت فيه .

المصادر :

١- أحمد ممتاز : «الإسلام السياسى : هل يمكن أن يصبح معارضة موالية ؟» - ميدل إيست بوليسى ص ٥ - العدد ٧٤ - ٦٨ : ١ - ١٩٩٧ .

٢- كريستوفر ألكساندر : «الحكم الفردى والمجتمع المدنى فى تونس» - نشرة ميدل إيست ريبورت ص ٢٧ - العدد ٧٤ - ٦٨ : ١ - ١٩٩٧ .

٣- عبد الله جمعة الحاج : «سياسة المشاركة فى دول مجلس التعاون الخليجى : مجلس الشورى العمانى» - ميدل إيست جورنال - ص ٥٠ - العدد ٥٧١ - ٥٥٩ -: ٤ - ١٩٩٦ .

٤- ليزا أندرسون : «استبدادية ورجعية الحكم الملكى» - مجلة العلوم السياسية الفصلية ص ١٩٦ - العدد (١) - ١٩٩١ .

٥- لاميس أندونى : «الانتخابات الأردنية - نكسة للتحول الديمقراطى» - مجلة ميدل إيست انترناشيونال - (عدد ٥ ديسمبر) ص ١٩ - ١٩٩٧ .

٦- جورج أنطونيوس : «الصحوة العربية : قصة الحركة القومية العربية» - نيويورك - مطبعة ج . ب بوتنام - ١٩٤٦ .

٧- جى أرنولد : «الدولة المارقة : القذافى والنظام العالمى الجديد» - لندن - كاسيل - ١٩٩٧,

٨- جيمس بيل و روبرت سبرينجبورج : «السياسة فى الشرق الأوسط» : - الطبعة الرابعة - نيويورك - هاربر كولينز - ١٩٩٤ .

٩- ركس برنيين ، بهجت قرنى ، وبول نوبل : «مقدمة : الجوانب النظرية الليبرالية العربية والديمقراطية» . ص ٢٧ - ٣ - فى (طبعات) برنيين ، وقرنى ، ونوبل، الليبرالية السياسية والتحول الديمقراطى فى العالم العربى ، المجلد الأول : الجوانب النظرية - بولدر : لين رينبر - ١٩٩٥ .

١٠- ريتشارد بولييت : «عشرون عاماً من الإسلام السياسى» - ميدل إيست جورنال - العدد ٥٣ - ٢٠٠ - ١٨٩ : ٢ - ١٩٩٩ .

١١- شيلا كارابيكو : «من الناشرين» - ميدل إيست ريبورت ٢٧ - العدد ٢٤ - ١ : ٣ - ١٩٩٧ .

١٢– ر . هوير ديكيميان : «مجلس الشورى السعودى» ميدل إيست جورنال ٥٢ – العدد ٢١٨ – ٢٠٤ : ٢ – ١٩٩٨ .

١٣– بواس إيڤرون : «دولة يهودية أم أمة إسرائيلية ؟» – بلومنجتون : مطبعة جامعة أنديانا – ١٩٩٥ .

١٤– أ. منيرة فخرو : «انتفاضة البحرين : عملية تقييم» – ص ١٨٨ – ١٦٧ – من كتاب جارى ج . سيك ، ولورنس ج . بوتر «الخليج الفارسى فى الألفية الجديدة : مقالات فى السياسة والاقتصاد ، والأمن ، والدين» . نيويورك – مطبعة سان مارتن – ١٩٩٧ .

١٥– جريجورى ف . جوز : «الأنظمة الملكية النفطية : تحديات داخلية وأمنية فى دول الخليج العربية» – نيويورك – مجلس العلاقات الخارجية – ١٩٩٤ .

١٦– فريد هاليداى : «إيران : الديكتاتورية والتنمية» – الطبعة الثانية – نيويورك – ١٩٧٩

١٧– «الجزيرة العربية بدون سلاطين» – ميدل إيست ريبورت ٢٧ – العدد ٢٩ – ٢٧ : ٣– ١٩٩٧ .

١٨– ديليب هيرو : «قاموس الشرق الأوسط» لندن – ماكميلان – ١٩٩٦ .

١٩– ديريك هوبوود : «مصر : السياسة والمجتمع : ١٩٤٥ – ١٩٨٤» . الطبعة الثانية – لندن – مطبعة الين وانوين – ١٩٨٥ .

٢٠– مايكل هدسون : «السياسة العربية : البحث عن الشرعية .. ملاذ جديد» – مطبعة جامعة يال – ١٩٩٧ .

٢١– منظمة ووتش لحقوق الإنسان : «الانتهاك الروتينى ، الإنكار الروتينى : الحقوق المدنية والأزمة السياسية فى البحرين» – نيويورك – منظمة ووتش لحقوق الإنسان –١٩٩٧ .

٢٢– مير زهير حسين : «السياسة الإسلامية العالمية» – نيويورك – هاير كوليتز – المطبعة الجامعية – ١٩٩٥ .

٢٣– سعد الدين إبراهيم : «الليبرالية والديمقراطية فى العالم العربى – رؤية شاملة» – ص ٢٩ – ٥٧ من كتب ركس برنيين ، وبهجت قرنى ، وبول نوبل – الليبرالية

السياسية والتحول الديمقراطى فى العالم العربى المجلد الأول : الجوانب النظرية - بولدر : لين رينر - ١٩٩٥ .

٢٤- رشيد خالدى : «أصول القومية العربية» - نيويورك - جامعة مطبعة كولومبيا - ١٩٩١, .

٢٥- إيبرهارد كينيل : «سوريا المعاصرة : الليبرالية بين الحرب الباردة والسلام البارد» - نيويورك - مطبعة سان مارتن - ١٩٩٤ .

٢٦- أكثر من استجابة للتيار الإسلامى : «إلغاء الليبرالية السياسية فى مصر فى التسعينيات» - ميدل إيست جورنال ٥٢ - العدد ٢٣٥ - ٢١٩ : ٢ - ١٩٩٨ .

٢٧- منصور : «ليبيا القذافى : سياسة التناقضات» - جينفيل - مطبعة جامعة فلوريدا - ١٩٩٧ .

٢٨- بهجت قرنى : «التحول الديمقراطى المقيد من أعلى : مصر» - ص ٦٩ - ٣٩ فى (طبعات) بهجت قرنى ، وركس برنيين ، وبول نوبل : الليبرالية السياسية والتحول الديمقراطى فى العالم العربى - المجلد الثانى - تجربة مقارنة - بولدر : لين رينز - ١٩٩٨ .

٢٩- كيت كيل ، و بيترز جويل : «إسرائيل .. إلى أين : التحديات الداخلية» نيويورك - أ.ب توريس - ١٩٩٣ .

٣٠- مارك ليفين : «الانتخابات العامة فى الشرق الأوسط والعالم العربى منذ عام ، - ميدل إيست ريبورت ١٦ - ٢٠٩ - ١٩٩٨ .

٣١- كنعان مكية : «القسوة والصمت : الحرب ، الاستبداد والثورة فى العالم العربى» - نيويورك - دبليو دبليو نورتون - ١٩٩٣ .

٣٢- هشام ملحم : «سوريا بين مرحلتين للتحول» - ميدل إيست ريبورت - عدد ٢٧ - ٧- ٢ : ٢ - ١٩٩٧ .

٣٣- أوجوستوس ريتشارد نورتون : «المجتمع المادى فى الشرق الأوسط» - المجلد الأول - ليون - أ . ج بريل - ١٩٩٥ .

٣٤- راجح عمر : «الأردن مشهد متغير» - مجلة ميدل إيست انترناشيونال - (٥ ديسمبر) - ١٩٩٧ .

٣٥- مارك أوربيلي : «التوازن العماني : عمان في مواجهة مستقبل غامض» - ميدل إيست جورنال ٥٢ - العدد ٨٤ - ٧٠ : ١ - ١٩٩٨ .

٣٦- أديث بنروز : «من الليبرالية الاقتصادية إلى التكامل الدولي : دور الدولة» - ص ٢٥ - ٣ من كتاب نيلوك وإيما مورفي - الليبرالية والاقتصادية والسياسية في الشرق الأوسط - لندن - المطبعة الأكاديمية البريطانية - ١٩٩٨ .

٣٧- روبرت بوتنام : «جعل الديمقراطية تعمل : المدنية في إيطاليا الحديثة» - برينستون - مطبعة جامعة برينستون - ١٩٩٣ .

٣٨- آلان ريتشارد ، وجون ووتر بيرى : «الاقتصاد السياسي في الشرق الأوسط» - الطبعة الثانية - بولدر - مطبعة ويستفيو - ١٩٩٦ .

٣٩- يحي صادوسكي : «نهاية الثورة المضادة ؛ سياسة التكيف الاقتصادي في الكويت» - ميدل إيست ريبورت ٢٧ - العدد ١١ - ٧ : ٣ - ١٩٩٧ .

٤٠- إفراهام سيلا : «الصراع العربي الإسرائيلي يقترب من نهايته : سياسة الشرق الأوسط والبحث عن نظام إقليمي» - ألباني - مطبعة جامعة نيويورك - ١٩٩٨,

٤١- جيوف سيمونز : «ليبيا : النضال من أجل البقاء» - الطبعة الثانية نيويورك - مطبعة سان مارتين - ١٩٩٦ .

٤٢- إيهود سير نيتراك ، ولارى دايموند : «الديمقراطية الإسرائيلية تتعرض لضغوط» - بولدر - كولومبيا - لين رينز - ١٩٩٣ .

٤٣- جو ستورك : «تفاقم أزمة البحرين» - ميدل إيست ريبورت ٢٧ - العدد ٣٥ - ٣٣ : ٣ - ١٩٩٣ .

٤٤- بسام طيبى : «القومية العربية بين الإسلام ودولة الأمة» - الطبعة الثالثة - نيويورك - مطبعة سان مارتن - ١٩٩٧ .

٤٥- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP) «تقرير التنمية البشرية» - نيويورك - مطبعة جامعة اكسفورد - ١٩٩٨ .

٤٦- الولايات المتحدة - (الوكالة الأمريكية للرقابة ونزع الأسلحة) - ACDA النفقات العسكرية ومبيعات الأسلحة في العالم - واشنطون دى سى - مطبعة الحكومة الأمريكية - ١٩٩٧ .

٤٧- نيكولاس فان دام : «الصراع على السلطة فى سوريا : السياسة والمجتمع تحت حكم الأسد وحزب البعث» لندن أ . ب . تاوروس - ١٩٩٦ .

٤٨- ماكس ويبر : «نظرية التنظيم الاجتماعى والاقتصادى» - نيويورك - مطبعة جامعة أكسفورد - ١٩٤٧ .

٤٩- فرانك ويلسون : «مفاهيم وقضايا فى السياسة المقارنة» - مقدمة إلى التحليل المقارن - آبر سادل ريفر - نيوجيرسى - برنيتايس هول - ١٩٩٦ .

٥٠- فاليرى يورك : «محاولة الحسين إضفاء الشرعية على الحكم الهاشمى» - ميدل إيست انترناشيونال (١٧ نوفمبر) - ١٩٨٩ .

ـ ٥ ـ

العلاقات الدولية

ماري آن تيترول

السيادة في الشرق الأوسط :

جميع المناطق التي لها حدود واضحة المعالم والتي نراها على الخرائط العالمية الحديثة يطلق عليها الدول الوطنية ، بيد أن خصائصها وسماتها كمجتمعات أو كيانات سياسية ليست متشابهة . والعديد منها يتأهل بالكاد لأن يكون بمثابة أمم ، وهنا لابد من الإشارة إلى أن هذا المصطلح يعنى بالتحديد وجود مجموعة من السكان تشترك في (أ) العيش على أرض تاريخية ، وأساطير مشتركة وذكريات تاريخية ، واقتصاد مشترك ، وثقافة شعبية مشتركة . (سميث ١٤ ، ١٩٩١ ، وأيضاً كونور ، ١٩٩٤) . والبعض من هذه الدول الوطنية يفشل أيضاً في اختبار التأهل إلى مستوى الدول . ومصطلح الدولة معناه وجود تنظيم سياسي إجباري يطالب باحتكاره الاستخدام المشروع للقوة من أجل تنفيذ أوامره وإرادته على منطقة محددة من الأرض (ويبر ١٩٧٨ ، جاكسون ١٩٩٠) . ومع هذا ، فإنه أيما كانت تقسيماتها وتصنيفاتها عند النظر إليها من الداخل ، أو حتى عند رؤيتها من الخارج ، فإن الدول – الوطنية تعتبر في الوقت الحاضر متساوية في السيادة . إذ إنه بصفتها عضواً في الجمعية العامة للأمم المتحدة (UN) ، وفي منظمة الدول المصدرة للبترول (OPEC)، أو في جامعة الدول العربية (AL) ، فإن كل دولة تتمتع بوضع أو مكانة متساوية . وحين كان يطلق عليها في بعض الأحيان دول ذات سيادة سلبية (جاكسون ٢٧ : ١٩٩٠) ، كان هذا الوصف يشير إلى مبدأ مفاده أن كل دولة معترف بها رسمياً لديها نفس الحقوق بمقتضى القانون الدولي ، بما في ذلك حقها في أن تكون حرة من أي تدخل في شئونها الداخلية.

وقبل القرن العشرين ، كانت الدول – الوطنية تندرج ضمن واحد فقط من عدة أشكال للتنظيم السياسى للأرض . وحتى بين الدول – الوطنية ، كان من المعتقد أن القليل منها ذات سيادة سلبية . فالحكومات الأوروبية ووكلاؤها ، والمقصود هنا ليس الجيوش والأساطيل البحرية فحسب ، بل أيضاً مراكب وسفن القراصنة والشركات ذات الربحية مثل شركة الهند الشرقية البريطانية ، وشركات الهند الغربية ، وقد شعرت بأنها حرة تماماً فى تنفيذ مشروعات إمبريالية مختلفة ، والتى كانت كلها تقريباً خارج أوروبا (دويل ١٩٨٦ ، بولانى ١٩٩٤) . وفى أواخر القرن التاسع عشر ، كانت هناك رغبة سائدة فى تكوين الدولة المثالية . وتغيرت المواقف تجاه الإمبريالية ، وازدهرت الحركات القومية . ووجد الإمبرياليون الغربيون أنفسهم مضطرين لتبرير سيطرتهم المستمرة على الأراضى الأجنبية .

وبعدما تبنوا موقفًا مشتركًا حيال السكان الأصليين ، قال الأوروبيون إنهم كانوا يشاركون فى «مهمة حضارية» تحمل على عاتقها «عبء الرجل الأبيض» للعمل كأوصياء أمناء على أمم «ليست مؤهلة» لحكم أنفسها (جاكسون ٧١ : ١٩٩٠) ، وأيضاً سعيد ١٩٩٣) . ولكن سرعان ما أخذ هذا التبرير يفقد مصداقيته خلال الحرب العالمية الأولى . وأرست الحكومة الأمريكية فى ظل قيادة الرئيس وودرو ويلسون مبدأ «تقرير المصير» كأحد أهداف الحرب آنذاك ، وهو ما كان يعنى حق الشعوب فى اختيار حكوماتها . وغير أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، بات هذا المبدأ محدوداً واقتصر جغرافيًا على وسط وشرق أوروبا ، وهى المناطق التى بدأ يخسر فيها الإمبرياليون هناك مواقعهم . وعارض الإمبرياليون من بين المنتصرين فى الحرب العالمية الأولى تطبيق مبدأ تقرير المصير فى بلدان آسيا والشرق الأوسط . ففى تلك المناطق ، كان هؤلاء إما القوى الاستعمارية المهيمنة أنفسها (راجع أنطونيوس ١٩٤٦، مورنيهان ١٩٦٣) ، أو كانوا يريدون أيضًا استقرار الحكم الاستعمارى من خلال تنصيب حكومات صديقة لحماية الاستثمارات الأجنبية المباشرة من جانب مواطنيها (بروملر، ١٩٩٤) .

وليس ثمة شك فى أن الموقع السياسى الطبيعى للشرق الأوسط كمفترق طرق استراتيجية واقتصادية تربط بين أوروبا وآسيا ، على سبيل المثال كانت قناة السويس

وفلسطين محطات متوسطة مهمة فى الطريق إلى الهند ، لا شك أنه يفسر بعض التردد لدى بريطانيا فى تخفيف سيطرتها على الكثير من دول المنطقة (فرومكين ٢٨٣ - ٢٨١ : ١٩٨٩) . وكان لدى الفرنسيين أيضًا مصالح إمبريالية فى الشرق الأوسط ، من بينها حكومات وأنظمة تابعة فى شمال أفريقيا وعلاقات واتصالات دائمة مع المجتمع المسيحى فى جبل لبنان . وكانت بريطانيا وفرنسا تريدان الحصول على امتياز الوصول إلى أراضى تردد أنها غنية بالاحتياطيات النفطية . وكانت الحكومة الأمريكية ملتزمة بالمثل بمواصلة الهيمنة الاستعمارية على الشرق الأوسط لحماية مستثمرى النفط الأمريكيين (بروملى ، ١٩٩٤) .

والحقيقة أن الإبقاء على الإمبراطورية العثمانية ، أو ما كان يوصف آنذاك «برجل أوروبا المريض» ، حيًا قد كان الشغل الشاغل للحكومات الأوروبية على مدى عقود طويلة . وخشى الزعماء الأوروبيون من أنه إذا ما انهارت الإمبراطورية العثمانية ، فإن دولهم سوف تضطر إلى خوض حرب حول اقتسام ما تبقى من أشلائها. ولكن الصورة تغيرت بعدما أصبحت بريطانيا وفرنسا حليفتين ، ومنى عدوهما المشترك ألمانيا بالهزيمة فى الحرب العالمية الأولى ، وبعد أن أدت الثورة وما تبع ذلك من الاهتمام بتدعيم وترشيح الجبهة الداخلية فى روسيا وخروجها من «اللعبة الكبرى» (التنافس الاستعمارى مع بريطانيا فى غربى أسيا) ، إلى تغيير توازن القوة فى أوروبا. وهكذا ، سمحت تلك القوى «للرجل المريض» بالموت فى هدوء وسلام لأن المنتصرين فى الحرب كانوا على ثقة من إمكانية السيطرة على «الدول الخليفة» دون أية صراعات قد تندلع فيما بينها . بيد أن هذه القوى المنتصرة لم تكن تنوى التخلى عن «أعبائها» الإمبريالية . وبدلاً من ذلك ، تبنت موقفًا مؤداه أن بعض الدول كانت «غير ناضجة» إلى الحد الذى يتعذر معه أن تتمتع بالسيادة الكاملة .

وبناءً على ذلك ، فإن مستعمرات مثل الجزائر ظلت كما هى بعد الحرب . وفى الوقت نفسه ظلت معاهدات الحماية والوصاية ، وهى «علاقات خاصة كانت تسمح لبريطانيا بالسيطرة على السياسات الخارجية لدول الخليج الصغيرة (أنسكومبى ١٩٩٧) ظلت سارية المفعول . وبالإضافة إلى هذا ، منحت عصبة الأمم ، والتى

سبقت ظهور الأمم المتحدة ، «حقوق انتداب للقوى الأوروبية ، الأمر الذى سمح لبريطانيا وفرنسا بالسيطرة اسمياً على الدول المستقلة التى نشأت من الأراضى التى كانت سابقاً جزءاً من الإمبراطورية العثمانية . ونتيجة لذلك ، شعر الزعماء والسكان فى مختلف أنحاء الشرق الأوسط بأنهم كانوا ضحية لخديعة مبدأ تقرير المصير ، وأصبح تحقيق السيادة السلبية هدفًا منشوداً للأنظمة السياسية المحلية . وفى الوقت نفسه، رغم هذا ، فإن استمرار الأفكار التقليدية عن الامتيازات التى تحصل عليها الدول وعن إمكانية تعرضها للخطر الخارجى ووجود قدر كبير من التشويش والغموض بين الأجهزة الحكومية الوطنية وهؤلاء الذين يتلاعبون بها ، قد تمخض فى النهاية عن ظهور ٢٢ دولة عربية ضعيفة فى نظام عالمى متكامل للغاية (سلامى ٣١ : ١٩٩٠).

هذا الوضع الشاذ قد نشأ بسبب ، إلى حد ما ، الطريقة التى شكّلت بها تداعيات ما بعد الحرب العالمية الأولى العلاقات الخارجية والداخلية لبلدان الشرق الأوسط ، وكما رأينا فى الفصول السابقة ، كانت الحدود الرسمية التى تحدد العديد من هذه الدول ثماراً أو نتاجاً لسياسة القوى الكبرى بعد الحرب . وبدلاً من جعلها تتوافق فى المصالح والتقاليد الوطنية ، جرى تقسيم الأراضى والشعوب وتم الربط بين الاثنين على نحو يخدم مصالح القوى الرئيسية ويؤدى إلى إضعاف شوكة جماعات وعناصر محلية تمثل تحدياً ممثلاً لسيطرتها على المنطقة. ومن ثم ، استقطعت القوى الإمبريالية الأوروبية أجزاءاً كبيرة من سوريا ، قلب الدولة العربية المستقلة المنشودة ، وهى الأجزاء التى استولى عليها منافسون محليون طموحون . وجرى استئصال لبنان المستقل من سوريا بما يتوافق مع مصالح الفرنسيين ومصالح المسيحيين المارونيين الذين يحظون بحمايتهم. وبالتالى ، أصبحت سوريا أصغر من حيث المساحة ، وأقل قدرة على البقاء من الناحية الاقتصادية ، ومن ثم أكثر اعتماداً على فرنسا . ليس هذا فحسب ، بل إن سوريا خسرت ساحة المعركة لصالح مؤسس تركيا الحديثة . إذ إن مصطفى كمال ، والذى كان يعرف باسم أتاتورك (أبو الأتراك) بعد عام ١٩٣٣ ، رفض قبول القوى المنتصرة كمحكمين وحيدين فى مسألة ترسيم حدود ما بعد الحرب فى الشرق الأوسط. وبدلاً من هذا ، قام بمد أراضى تركيا وتوسيعها من خلال الغزو

العسكرى ، فأضاف جزءاً من سوريا الكبرى إلى المنطقة التى خضعت لسيطرة حكومته الجديدة .

ولدى قيامهم بإعادة رسم خريطة سوريا ، أغفل صانعو الخرائط التفكير فى العواقب التى قد تنجم عن ممارستهم هذه وانعكاسات ذلك على سلامة ووحدة أراضى لبنان . ذلك أن قلب هذه الدولة الجديدة ، وهو مجتمع جبل لبنان ، قد تطور على مدى ما يزيد عن أربعة قرون كمجتمع متعدد سياسياً ، وثقافياً فى ظل الحكم العثمانى (حريك ١٤ - ١٣ : ١٩٩٠) . وكانت دولة لبنان الجديدة أيضًا دولة متعددة الثقافات تضم مجموعات متنوعة من السكان المسلمين والدروز إلى جانب المسيحيين المارونيين الذين كانوا المفضلين لدى الفرنسيين . وأدى وضع هؤلاء كأقلية إلى زيادة اعتمادهم على فرنسا التى تكفلت بحمايتهم . واستطاع المارونيون انتزاع تنازلات دستورية من الجماعات غير المسيحية والتى أعطت المسيحيين نصيب الأسد من السلطة السياسية فى الدولة الجديدة . ومع هذا ، وحتى مع تقلص نصيبهم النسبى من إجمالى السكان اللبنانيين ، قاوم المارونيون السماح للآخرين بالتمتع بنفس الحقوق السياسية التى حصلوا عليها . وأسهم هذا فى زوال شرعية الدولة ، وبدءاً من عام ١٩٥٨ ، فى اندلاع حرب أهلية (مكتبى ١٩٩٦) .

والحقيقة أن مصير الأسرة الهاشمية الحاكمة يعد مثلاً آخر للأخطاء التى وقع فيها صانعو الخرائط خلال حقبة ما بعد الحرب ، وهى الأخطاء التى أدت ، وبمرور الوقت، إلى تآكل سيادة دول الشرق الأوسط . وبدافع من الحاجة إلى مكافأة عبد الله بن حسين ، نجل حاكم الحجاز الهاشمى وزعيم الثورة العربية التى ساندها البريطانيون ضد الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى ، قام البريطانيون بتقسيم انتدابهم على فلسطين لإقامة إمارة شرق الأردن . وأعلن فيصل بن الحسين ، شقيق عبد الله والزعيم المحلى للثورة العربية ، ملكاً على سوريا فى عام ١٩٢٠ . وفى ذلك الوقت ، كانت سوريا بعيدة عن الدولة العربية والتى لطالما راوده من قبل حلم زعامتها ، بيد أنه وكما تبين فيما بعد ، لم يتزعم هذه الدولة لفترة طويلة . وشأنه شأن أخيه الذى كان يحظى أيضًا بحماية بريطانيا ، أطاحت فرنسا بفيصل من حكم سوريا ، حيث كانت فرنسا تمثل دولة الانتداب هناك . وفى عام ١٩٢١ ، أصبح فيصل ملكاً على العراق التى انتدبت عليها بريطانيا .

ويمثل العراق واحداً من أوضح الأمثلة على انحراف وفساد عملية رسم حدود الدولة الواقعة تحت الانتداب وأيضًا عملية بناء الدولة . إذ تم تجميع العراق من الأشلاء الكبيرة التى تبقت من ثلاث مقاطعات عثمانية هى : بغداد التى كانت تقطنها أغلبية من العرب المسلمين السنّة ، والبصرة حيث أغلبية السكان من الشيعة العرب ، والموصل حيث تم اكتشاف البترول على أراضى الأكراد المسلمين السنّة . (حار ١٩٨٥) . وتكمن جذور المشكلات المزمنة للعراق بالنسبة لعملية بناء الدولة في تاريخ هذا البلد المضطرب والذى يجمع فى تركيبته ثلاث جماعات طائفية كما سبقت الإشارة (مكية ١٩٩٦) . ومع هذا ، يقول عدد من الباحثين ، من بينهم مايكل هدسون (١٩٧٧) ، إن مشكلات العراق ليست فريدة من نوعها . ويعتقد هؤلاء الكتاب أن الافتقار إلى «السيادة الإيجابية» ، والتى يقصد بها الشرعية الشعبية إضافة إلى القدرة على الحكم ، كان سائداً فى مختلف أنحاء الشرق الأوسط .

والواقع أن الانتقال من نظام دولى حيث كانت كأن الطرف الأكثر قوة فقط هو الذى يتمتع بالسيادة السلبية على حساب طرف آخر كانت هذه السيادة معلنة كحق له، الواقع أن هذا الانتقال تزامن مع عملية تكوين الدولة الحديثة فى الشرق الأوسط . وكانت دولاً عديدة فى الشرق الأوسط صغيرة ، كما كانت كلها تقريباً ضعيفة ، وكان بعضها يعتمد على الدعم الخارجى من أجل البقاء . وأدت هذه الصفات إلى تقليص قدرة تلك الدول على حكم أنفسها بصورة مستقلة وأيضًا تقليص قدرتها على حشد تأييد وولاء مواطنيها (سلامى ١٩٩٠) . وعمد كل من القوميين – المواطنين وحكوماتهم إلى إلقاء معظم اللوم بالنسبة للمشكلات التى عانتها دولهم على الإمبريالية الغربية . ونتيجة لذلك، لم يجد زعماء وسكان بلدان الشرق الأوسط مفراً من الاندماج مع أيديولوجياتهم القومية وأفكارهم عن الدولة ، فيما كان يعد انحيازاً قوياً ضد التدخل الخارجى . وحتى برغم هذا ، وحيث كانت الدول فى المنطقة فى حالة من الضعف يتعزز معها الحيلولة دون حدوث ذلك ، استمرت عملية التدخل الخارجى من جانب القوى الكبرى (ويبر ١٩٩٥) وفى الوقت الحاضر ، ما زال التدخل الخارجى سمة من السمات التى تتسم بها العلاقات الدولية للعديد من بلدان الشرق الأوسط .

ويبدو أن الطبيعة الاستبدادية للحدود الجغرافية بين دول هذه المنطقة ، مقترنة بالمستويات العالية للتكامل الثقافى الناشئ عن الجذور الدينية ، والتاريخية ، واللغوية المشتركة ، يبدو أنها تشجع الانتهاكات والمخالفات الحدودية من قبل الدول المجاورة . وهنا ، لابد من الإشارة إلى أن الحركات متعدية القوميات مثل حركة القومية العربية، والتى ترتكز على أيديولوجيات قومية عربية ، وحركة الجامعة الإسلامية ، وكذلك حركات الإسلام السياسى التى تتجاوز الانقسامات العرقية ، توفر كلها أسباباً أيديولوجية للتدخل . ذلك أن طموحات عدة حكام فى دول الشرق الأوسط ، مثل مصر ، وسوريا، والعراق ، وإيران ، وحتى وقت قريب جداً السعودية ، قد شجعتهم على التدخل فى سياسات الدول الأخرى . ويبرر حكام تلك الدول تصرفاتهم هذه بأنها تأتى ضمن أهداف المهام التاريخية التى تتعدى حدود الدول ؟ ومنها ، على سبيل المثال ، هزيمة الإمبريالية ، وتحرير فلسطين، وتحقيق الوحدة العربية ، أو الدفاع عن القيم الإسلامية (سلامى ٨٧ : ١٩٩٤) . ومع هذا ، وحتى بعدما تحررت دول عدة فى الشرق الأوسط من الهيمنة الاستعمارية ، فإن الأشخاص الذين مارسوا ذلك النمط من السيادة السلبية ضد الدخلاء والقوى الخارجية نادراً ما كانوا يستخدمون تلك السيادة بصورة علنية فى انتقاد السياسات الخارجية لدولهم ، وكان هذا صحيحًا ، على نحو خاص ، بين المراقبين العرب قبل حرب الخليج فى عام ١٩٩٠ - ١٩٩١ .

صورة رقم (١ : ٥) ملصق على واجهة محل تصوير عليه عبارات توضح صمود اللبنانيين فى مواجهة عقود من الحرب الأهلية والعنف الدولى .

ولم يكن التدخل الخارجى مدمراً على الدوام لدول الشرق الأوسط . فبالنسبة إلى البعض ، ترك هذا التدخل تراثاً من الدخل النفطى كنتيجة لعمليات الاستكشاف

والتنقيب التى قامت بها الشركات الأجنبية فى المنطقة والتى كان العديد منها يتمركز فى بريطانيا أو الولايات المتحدة . ولأنها كانت تتحدد فى بداية الأمر على أساس الضرائب والرسوم، شهدت دخول الحكومات المصدرة للبترول زيادة بنسب ومعدلات فلكية فى أعقاب الثورة النفطية فى أوائل السبعينيات ، والتى أدت إلى ارتفاع أسعار البترول إلى أعلى مستوياتها وإلى انتقال السيطرة على الاحتياطيات النفطية من الشركات الأجنبية إلى الحكومات المحلية (تيترول ١٩٨٥) . وقد كان البترول نعمة ونقمة فى آن واحد لأصحابه ، (أموزيجار ١٩٨٢) . فعلى الرغم من أنه أعطاهم المزيد من الخيارات والنفوذ القوى فى مضمار السياسة الخارجية ، فإنه أدى أيضاً إلى عزل عناصر التنمية المشاركة فى بناء الدولة عن الانخراط فى معترك الحياة السياسية، الأمر الذى تسبب فى تراجع عملية التحول الديمقراطية . (انظر كريستال ١٩٩٠ ، جاسيورويسكى ، ١٩٩١) . كما عزز استراتيجية للتنمية الاقتصادية تعتبر أكثر استجابة للاحتياجات الخارجية من المتطلبات الداخلية (لوك ١٩٨٣ ، ١٩٨٥) .

ورغم أن الاحتياطيات النفطية ليست موزعة بشكل عادل بين دول الشرق الأوسط، إلا أن الدخل النفطى ينعكس على كافة دول المنطقة تقريبًا . وقبل انهيار أسعار البترول فى عام ١٩٨٦ ، أنفقت الدول المصدرة كميات كبيرة من المساعدات الأجنبية (هالوود وسنكلير ١٩٨٢) ، وخصصت مرتبات ضخمة دفعتها للعاملين الأجانب فيها (إبراهيم ١٩٨٠) ، وأيضاً الاستثمارات الأجنبية المباشرة فى الدول المجاورة (ستفينر ١٩٧٦) . وفى الوقت الذى ارتفعت فيه الأحوال النفطية بصورة مفاجئة فى بداية عام ١٩٧٠ ، تم إنفاق جزء كبير من هذه الأموال على شراء الأسلحة (دوايشه ١٩٨٢ – ١٩٨٣ ، نيتسان ويشيلر ١٩٩٥) . ولا شك هنا أن قدرة بلدان الشرق الأوسط على توزيع المعونات والحصول على أسلحة بدون الاعتماد على أطراف أخرى من خارج المنطقة ، لاشك أنه يعمل على زيادة نفوذ هذه الدول . وكمثال على ذلك ، فإن المساعدات السعودية للجماعات الإسلامية السنية تعمل على زيادة نفوذ الرياض بين الدول العربية مثل ، مصر ، والكويت . وفى أفغانستان ، ساعدت الأموال السعودية فى تغذية ونشأة أكثر الفصائل الإسلامية راديكالية ، مما أسهم فى زيادة هيمنة السعودية على السياسة الأفغانية بعد هزيمة النظام الاشتراكى هناك . كما أن العائدات النفطية تجعل من هذه الدول زبائن متميزين يسيل لهم لعاب

تجار السلاح فى العالم ، ومن بينهم الحكومات الأجنبية التى تستخدم الاعتماد الاستراتيجى للدول المصدرة للنفط فى إبرام عقود مربحة لها أو لصناعات الأسلحة المحلية لدى هذه الحكومات (كلوسون ١٩٩٥) .

الشرق الأوسط والقوى الكبرى :

كما أشار كل من ديبورا . ج . جيرنر وفيليب شروت فى الفصل الرابع ، بدأت معظم المناطق فى الشرق الأوسط القرن العشرين كعملاء أو أتباع لقوة أوروبية أخرى أو لأكثر من قوة . بل إن تركيا الحديثة ، قلب الإمبراطورية العثمانية القديمة ، قد كانت مستعمرة اقتصادية لدائنيها الأوروبيين منذ تأسيس لجنة الدين العثمانية فى عام ١٩٨١ (بولانى ١٩٤٤) . واشتملت فكرة الدولة التركية عناصر مما كان أتاتورك يعتبره أبرز نقاط القوة فى الغرب ، ألا وهى التحديث ، والعلمانية ، والقومية المتمركزة فى الدولة . وكان الهدف الذى ينشده هو أن يجعل من تركيا دولة حديثة تقف على قدم المساواة مع القوى الكبرى ، وليست دولة تابعة لأى من هذه القوى .

بيد أن بعض زعماء دول الشرق الأوسط رحبوا فعلياً بالتدخل الأوروبى فى شئون بلادهم . فالأمير مبارك أمير الكويت ، مثلاً ، سعى للحصول على الحماية البريطانية مع نهاية القرن التاسع عشر ، وذلك لحماية بلاده من الارتباط بالإمبراطورية العثمانية (روش ١٩٨٧ ، الإبراهيم ١٩٧٥) ، ولجذب المساعدة الخارجية لترسيخ مكانته وتعزيز وضع أعضاء سلالته لحكام للكويت (إنسكومبى ١٩٩٧) . ولجأ عبد العزيز بن مسعود إلى المسئولين البريطانيين لمساعدته فى الحصول على أكثر من نصف أراضى الكويت فى عام ١٩٢٢ (ديكسون ١٩٥٦) . وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، ظل يعتمد على الذهب البريطانى والأمريكى لمساعدته فى تعزيز فتوحاته فى شبه الجزيرة العربية ولضمان ولاء زعماء القبائل فى هذه المنطقة وكسبهم إلى جانبه (أندرسون ١٩٨١ ، سلامى ١٩٩٠) . وكانت كل حكومة فى الشرق الأوسط تقريباً تتوق إلى فتح أراضيها أمام عمليات استكشاف البترول والتنقيب عنه من جانب شركات مملوكة لأجانب . وتبعاً لذلك ، فإن التدخل الخارجى من قبل القوى الكبرى أو وكلائها لم يلق فى أغلب الأحوال أية إدانة أو استنكاراً من لدن الزعماء السياسيين فى الشرق الأوسط ، وذلك على الرغم من أن هذا التدخل كان يقابل بالشجب تقريباً من جانب المواطنين القوميين .

وفرضت الإمبريالية أعباءً خطيرة على معظم دول المنطقة . وبالإضافة إلى المصالح الاستراتيجية مثل حماية طريق التجارة إلى الهند ، استخدمت القوى الإمبريالية مستعمراتها والدول التابعة لها أساساً لجعل أنفسها ثرية (ولف ١٩٨٢) . وتعثرت الاقتصادات المحلية وباتت مشوهة من جراء رسم حدود قومية عبر مناطق وتجمعات سكانية كانت أجزاء من أسواق تجارية أكبر . وكانت المستعمرات والدول ذات التعبئة الاقتصادية تستنزف من منفعة المسئولين والمستثمرين من الخارج . وحصلت شركات النفط على نصيب الأسد من عمليات استغلال الاحتياطيات النفطية في المنطقة (انظر رائد ١٩٧٥) . وإلى جانب ذلك ، دأب المحتلون الأجانب على انتهاك العادات والتقاليد المحلية دون عقابهم أو محاسبتهم حيث عمد هؤلاء إلى الاستخفاف بديانة شعوب المنطقة ، وثقافتها وتراثها التاريخي . (أحمد ١٩٩٢ ، تيرول ١٩٩٥) . والأسوأ من هذا كله أن الهجرة المستمرة لليهود إلى فلسطين ، والتي كانت قبل سنوات قليلة من صدور وعد بلفور الذي تعهدت فيه بريطانيا بدعم ومساندة وطن قومي لليهود ، كانت تشكل تهديداً خطيراً لمجتمعات ودول المنطقة . وتفاقمت الأعباء السياسية والاقتصادية، والسيكولوجية الناجمة عن ذلك بسبب ممارسات الإمبرياليين التي استهدفت ليس فقط ضرب الكيانات الاجتماعية داخل الدول بعضها بالبعض لتعزيز سيطرتها السياسية (ميجدال ١٩٨٨ / النقيب ١٩٩٠) ، بل أيضًا تأليب كل دولة على الأخرى في العديد من المواقف والمناسبات مثل المفاوضات التي كانت تتم حول الامتيازات البترولية ، وذلك بغية زيادة العائدات الاقتصادية للمستعمرين (شيشولم ١٩٧٥) .

الاعتماد على الغير :

هي علاقة تقوم على عدم المساواة أو التكافؤ بين دولة نامية وأخرى متقدمة (كابوراسو ١٩٧٨) والإمبريالية . وخلال القرن الثامن عشر ، عندما كانت الولايات الأمريكية مستعمرات تابعة لبريطانيا ، سن البريطانيون قوانين عدة مثل قوانين الملاحة والتي نصت على إلزام أهالي وسكان هذه المستعمرات بشراء منتجات مصنعة في بريطانيا وإعادة بيع المواد الخام إلى بريطانيا ، ومن ثم ، استفادت بريطانيا ليس فقط من التجارة ذاتها وإنما أيضًا من قدرتها على معالجة المواد الخام المشتراة من مستعمراتها . وأدى هذا إلى توفير فرص عمل إضافية للعمال البريطانيين وإلى زيادة

عائدات الضرائب للحكومة . ومع أن التجارة الاستعمارية كانت علاقة تبادلية ، إلا أن هذا التبادل لم يكن متكافئًا وكان يهدف إلى إيجاد علاقة غير متساوية بصورة دائمة بين الشركاء التجاريين .

وخلال القرنين التاسع والعشرين ، مكنت الإمبريالية أوروبا والولايات المتحدة من كسب وصول تفضيلي مماثل إلى المواد الطبيعية الموجودة فى الشرق الأوسط . ووقعت الحكومات على عقود خاصة مع شركات النفط الأمريكية والبريطانية لتطوير صناعاتها المحلية . واشترت الشركات إمدادات ومعدات من السوق المحلية واستوردت جميع ، أو بالأحرى معظم ، العمال الذين يضطلعون بالأعمال الوضيعة . واحتلت عملية التنمية النفطية الأسبقية على تنمية الاقتصاد المحلى . وفى منطقة الحسا الغنية بالنفط فى السعودية ، جرى تدمير مناطق زراعية لاستيعاب خطوط أنابيب البترول ومحطات الضخ . وكان يتم بيع معظم البترول المنتج فى الخارج كمادة خام كانت تعالج وتستهلك خارج الدول المنتجة .

ولم تعد شركات النفط الأجنبية تملك احتياطيات النفط الشرق أوسطية . ومع هذا، فإن الطريقة التى جرى من خلالها تنمية هذه الاحتياطيات وكذلك طريقة تنمية الاقتصادات المحلية للدول المصدرة للنفط لا سيما بالنسبة لإنتاج الغاز والنفط ومبيعاتها، قد ضمنتا استمرار العلاقات الاقتصادية القائمة على التبعية بين دول الشرق الأوسط والأسواق الخارجية إلى ما وراء حدود سيطرتها . وعندما تهبط أسعار البترول، على سبيل المثال ، فإنه لا يوجد سوى القليل الذى يمكن أن تفعله دولة مصدرة للنفط ، أو حتى عدة دول مصدرة لجعل هذه الأسعار تعاود الارتفاع مرة أخرى . وقد صادفت منظمة أوبك (OPEC) بعض النجاح فى محاولاتها قلب الانخفاض الذى طرأ على أسعار النفط خلال فترة الستينيات كما نجحت أوبك فى الإبقاء على الارتفاع فى أسعار النفط خلال السبعينيات . غير أن الكثير من هذا النجاح اعتمد على الظروف التى شهدتها تلك الحقبة مثل إغلاق ممر قناة السويس المائى بسبب حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧ . والزيادات التى طرأت على النفط من حرب فيتنام . وفى غضون سنوات قليلة، فإن حدوث المزيد من التغيرات الهيكلية الدائمة من قبيل تنمية حقول نفطية جديدة خارج دول أوبك ، أدى إلى عودة الأسعار للانخفاض. ووصلت أسعار النفط إلى أدنى مستوياتها تاريخيًا فى منتصف

الثمانينيات، الأمر الذى أدى بدوره إلى حدوث مصاعب اقتصادية وصراعات داخلية فى العديد من الدول المصدرة للنفط (هانتر ١٩٨٦) .

والحقيقة أن الاقتصادات المحلية للعديد من الدول المصدرة للنفط قد تركزت على إنفاق العائدات النفطية بدلاً من توجيهها إلى إنتاج مجموعة متنوعة من السلع والخدمات التى تلبى الاحتياجات والمتطلبات لدى مواطنى هذه الدول . ذلك أن توافر السيولة النقدية من مبيعات النفط ، إضافة إلى زيادة الطلب على المنتجات الأجنبية ، بدءاً من الدبابات والطائرات والمدافع و انتهاءً بالسيارات والأجهزة الكهربائية والبرامج التليفزيونية ، كل هذا قد أفرز أنماطاً استهلاكية اعتمدت على السلع الأجنبية واستيراد كل شيء تقريباً من الخارج . وتشجع مصدرو النفط على التوسع فى طاقاتهم الإنتاجية لضمان أنهم يستطيعون مواصلة شراء ما يحتاجونه من الخارج . ومع التوسع فى القدرة الإنتاجية ، شعر البعض من مصدرى النفط أنهم مضطرون لإنتاج المزيد من النفط لزيادة استثماراتهم ولتمويل مشروعات أخرى . وسرعان ما أدت زيادة الإنتاج النفطى إلى وجود وفرة فى الأسواق البترولية ، مما دفع الأسعار إلى الهبوط ، بل وشجع على المزيد من إنتاج النفط للإبقاء على الارتفاع ودارت حلقات هذه الدائرة المفرغة مرة أخرى فى أواخر التسعينيات عندما تسبب الانخفاض فى أسعار البترول مرة أخرى فى حدوث صعوبات اقتصادية وصراعات محلية حول الكعكة الاقتصادية التى أخذت تتقلص وتنكمش . وعلى الرغم من التقلبات التى شهدتها أسواق النفط خلال الثلاثين عاماً الماضية ، إلا أن المنطقة لا تزال تعتمد على المبيعات النفطية للحصول على نسبة عالية من العائدات الحكومية .

التبعية :

التبعية هى علاقة استراتيجية بين قوة كبرى تسعى لإقامة قاعدة محلية ودولة أقل قوة تسيطر على مصادر قوة متوافقة مع احتياجات القوة الكبرى (جاسيورويسكى ١٩٩١ ، تيترول ١٩٩١) . والأمثلة على مصادر القوة الاستراتيجية الجذابة تتلخص فى الموقع الجغرافى ، والتسهيلات الخاصة بالموانى والقواعد العسكرية ، ووجود نظام مستعد للعمل نيابة عن قوى كبرى . وفى مقابل الحصول على مصدر أو أكثر من مصادر هذه القوة ، تقوم القوة الكبرى بتحويل أسلحة ، ومعدات تدريب عسكرية ،

وأنواع أخرى من المساعدات العسكرية والاقتصادية إلى الدولة التابعة الأقل قوة من الناحية الاستراتيجية . وهكذا تنشأ علاقة تبعية بين الجانبين ، بيد أنه خلافاً للحالة فى إطار علاقة التبعية ، فإن حكومة الدولة الأصغر غالبًا ما تحصل على مكاسب أكثر مما يحصل عليها الشريك الأكبر . وبينما تصبح الدولة التابعة منخرطة فى استراتيجيات السياسة الخارجية للدولة الحامية أو الراعية ، فإن اعتماد الدولة الراعية على المحافظة على مصادر قوتها الاستراتيجية يتزايد فى الوقت الذى يتناقص فيه نفوذها وتأثيرها على الحكومة التابعة . فى الوقت نفسه ، واعتماداً على استخدام مصادر القوة التى تحصل عليها من الدولة الراعية والتى تتكفل بحمايتها ، فإنه يصبح بوسع الحكومة التابعة حماية نفسها من التحديات التى تواجه سلطتها من خلال دفع أموال إلى الأعداء المحليين والأجانب تفادياً لعدائهم وكذلك استخدام القوة العسكرية ضدهم إذا لزم الأمر.

وقد أدت الحرب الباردة إلى زيادة أهمية التبعية فى علاقات دول الشرق الأوسط مع القوى الخارجية الرئيسية ، حتى على الرغم من أن علاقات التبعية كانت قائمة أيضًا قبل الحرب الباردة . وكانت القوة العظمى مهتمة بالمكاسب الاقتصادية ، ولا سيما من علاقاتها مع الدول المصدرة للنفط ، غير أن اهتماماتها الرئيسية كانت استراتيجية . وقد أخذ النصيب الأكبر من المعونات الخارجية من القوى العظمى شكل المساعدة العسكرية. وفرضت كل هذه القوى تقريباً التزامات فى صورة خدمات كانت تطلبها من الدولة التابعة فى الشرق الأوسط ، ومن بينها مثلاً ، الدعم الدبلوماسى والعسكرى ، ومنح الدولة الراعية وعملائها الأولوية التفضيلية بشأن إتاحة الوصول إلى الموارد المحلية للدولة التابعة (جاسيورويسكى ١٩٩١) . وكانت بعض الموارد التى توفرها الدول التابعة تستخدم من قبل ضباط عسكريين متمردين ضد حكومات تابعة ضعيفة ولا تحظى بأية شعبية . وثمة مثال على ذلك وهو الانقلاب الذى وقع فى عام ١٩٦٩ فى ليبيا وأدى إلى الإطاحة بحكم الملك إدريس (بيل وسبرينجبورج ١٩٩٤) . واستخدمت بعض هذه الموارد من جانب الحكومات التابعة ضد سكانها ، وهو ما حدث فى إيران (جاسيورويسكى ١٩٩١) .

ومع إعادة توجيه السياسة الدولية حول الحرب الباردة ، تغيرت أيضًا علاقات التبعية. إذ أصبحت سوق الامتيازات البترولية فى الشرق الأوسط أكثر تنافساً ، ليس

فقط في دولة مثل ليبيا على نحو خاص ، بل أيضًا في دول شبه الجزيرة العربية (بنروز ١٩٦٨) . وأدت هذه التغيرات إلى تحول السيطرة النفطية من الشركات النفطية الأجنبية متعددة الجنسيات إلى الحكومات المضيفة (تيترول ١٩٨٥) . وثمة فائدة واضحة أخرى من التركيبة المتغيرة لتوازن القوة الخارجي وهي الفائدة الناشئة عن استبدال الإمبريالية بقدر ما من الجدال حول السيادة الخارجية . وكان الاعتقاد السائد والمقبول بأن دول المنطقة كانت تتمتع بالحكم الذاتي وأنها كانت حرة في اختيار شركائها ، كان يعني أنه بالإمكان جلب أو استدعاء القوى العظمى للسعي لكسب حلفاء تابعين ، وهو الوضع الذي وجدت مصر نفسها فيه في محاولاتها الاستفادة من تمويل مشروع السد العالي في أسوان خلال الخمسينيات (موسلي ١٩٧٨) .

ورغم هذا كله ، فإن إقامة تحالف وثيق مع أي من القوى العظمى كانت تنطوي على مخاطرة الانتقام من نظام حكم تابع وخاضع من جانب القوميين الغاضبين . وشجع هذا الحكام الأقوياء على تطوير إستراتيجيات تهدف إلى المحافظة على الإستقلال من الدول الراعية أو الحامية إبان الحرب الباردة . ففي مصر ، مثلاً ، انضم الزعيم جمال عبد الناصر إلى غيره من زعماء الدول النامية في مؤتمر عقد في مدينة باندونج في إندونيسيا عام ١٩٩٥ لتشكيل ما عرف آنذاك «بحركة عدم الانحياز» . وقد وعدت حركة عدم الانحياز بتحقيق السيادة للدول المستقلة حديثًا . ومع هذا ، فإنه على الرغم من حدود البيانات والإعلانات المشتركة بشأن عدم الانحياز والاحترام المتبادل وكذا التأييد المتبادل من جانب الدول غير المنحازة اسمياً الأخرى ، نجحت دول قليلة في الشرق الأوسط في إيجاد أرضية وسطى للتعامل مع القوى العظمى .

ولعل الكويت تمثل إحدى قصص النجاح هنا ، فهي دولة صغيرة كانت قد شرعت في تحقيق توازن للقوة بين الدول الراعية المحتملة كجزء من استراتيجية بناء الدولة في ظل حكم أول أمير للكويت في القرن العشرين ، وهو الشيخ مبارك (الإبراهيم ١٩٧٥ ، أنسكوبي ١٩٩٧ ، عسيري ١٩٩٠ ، تيترول ١٩٩١) . وأتى الإصرار والمثابرة الكويتية لكسب شركاء خارجيين ثماره بعدما تعرضت البلاد للغزو من جانب العراق في عام ١٩٩٠ . إذ تمكن المواطنون الأجانب من ذوي النفوذ والتأثير والذين

تربطهم مصالح مع الشركات المملوكة للكويت من الدفاع عن القضية الكويتية وعرضها بنجاح على زعماء القوى الكبرى فى العالم فور سماع أنباء الغزو العراقى للكويت ، وقبل أن تتخذ هذه القوى قرارها بكيفية الرد على هذا الغزو ، ناهيك عن تحرك الحكومات الأوروبية التى تتلقى استثمارات كويتية رئيسية بسرعة لحماية المصالح الكويتية (تيترول ١٩٩٧) . ونظراً لأنه كانت توجد ، وإلى حد ما ، علاقات ودية بين الكويت وموسكو ، بما فى ذلك المساعدة الكويتية للاتحاد السوفيتى فى أعقاب الزلزال القوى الذى ضربه فى عام ١٩٨٩ ، أمكن إقامة تحالف دولى متعدد الجنسيات والذى ضم الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . وعلى الرغم من التأييد القوى للعراق بين كافة دول وشعوب الشرق الأوسط تقريبًا ، إلا أن وحدة حماتهم ورعاتهم من السوفيت والأمريكيين ، مقترنة بحوافز إيجابية تتراوح بين الإعفاء من الديون والوعود بتقديم مساعدات اقتصادية فى المستقبل من الكويت ، أدت إلى وقوف جميع هذه الدول تقريباً إلى جانب الكويت (تيترول ١٩٩٢) .

وعلى النقيض من الكويت وجدت معظم دول الشرق الأوسط أن تبنى استراتيجية غير منحازة كان أمراً صعباً ومن المتعذر الحفاظ عليه . وأعلنت السعودية التزام الحياد وعدم انحيازها إلى أى من الطرفين . ومع هذا ، وجدت السعودية نفسها منحازة تماماً إلى جانب الغرب على الرغم من حقيقة أن الولايات المتحدة والحكومات الغربية الأخرى كانت من أقوى المؤيدين لإسرائيل (قرنى ١٩٩١ ، كوانت ١٩٨١) . ولعل التطرف الدينى والمصالح البترولية يفسران جزءاً كبيراً من هذا التحول فى الموقف السعودى . علاوة على هذا ، أدت مجموعة من الضغوط المماثلة إلى تقويض جهود ما كان يطلق عليها دول المواجهة مما أدى إلى تغير موقفها فى المحافظة على حيادها. وللحصول على الدعم العسكرى فى حروبها ضد إسرائيل المدعومة من الولايات المتحدة ، تحولت سوريا ، ومصر ، والعراق إلى دول الكتلة السوفيتية .ومع ذلك فمع زيادة دخل المنطقة كلها من النفط ، وجدت دول المواجهة أن بوسعها الحصول على المساعدة العسكرية الأجنبية من جيرانها من الدول العربية المصدرة للبترول . (داويشه ١٩٨٣ – ١٩٨٢) .

التحرك باتجاه الحكم الذاتي الإقليمي :

أطلقت نهاية الحرب الباردة الشرارة الأولى لعملية إعادة رسم خريطة عالمية جديدة والتي أثرت أيضًا على العلاقات الدولية في الشرق الأوسط . وخلال حقبة تصاعد حدة المواجهة بين الشرق والغرب ، كان ينظر إلى الحروب الساخنة في الشرق الأوسط ، باعتبارها صراعات بالوكالة بين عملاء القوى العظمى . وبينما دب الضعف في القوة السوفيتية في أواخر الثمانينيات ، تضاءلت أيضًا القدرة السوفيتية على التدخل في الخارج . وتبعًا لذلك ، صارت المكونات المحلية للسياسة الإقليمية أكثر بروزًا . وبالإمكان رؤية هذه الآثار في انحياز القوى الكبرى خلال حرب الخليج (١٩٩١ - ١٩٩٠) وفي التغيرات في الدعم الخارجي للأطراف الرئيسية في الصراع العربي - الإسرائيلي .

وأدى الغزو العراقي للكويت في عام ١٩٩١ إلى تحول الولايات المتحدة بسرعة وفي غضون أيام قليلة من مرحلة التقارب مع العراق إلى مطالبته بالانسحاب الكامل من الكويت (سكيوليني ١٩٩١ ، سميث ١٩٩٢) . ومن خلال العمل مع مجلس الأمن الدولي ، صاغت الولايات المتحدة سلسلة من القرارات التي تدين العراق وتفرض عقوبات اقتصادية صارمة ضده . وكان الاتحاد السوفيتي عضوًا بارزًا في التحالف المناهض للعراق . ورغم أنها حاولت تشجيع التوصل إلى تسوية من خلال المفاوضات، ظلت الحكومة السوفيتية متمسكة بعضويتها في التحالف الدولي طوال الحرب ضد العراق والتي استمرت قرابة ستة أسابيع (ملكوميان ١٩٩٢) . وكان التعاون السوفيتي أمرًا حاسمًا في مجلس الأمن الدولي - الذي كان بمثابة الإطار الرسمي للتنسيق فيما بين أعضاء هذا التحالف الدولي المناوئ للعراق . ولو أن الاتحاد السوفيتي قد اختار استخدام حق النقض (الفيتو) في الاعتراض على قرارات مجلس الأمن الدولي ، لكان من المستحيل فرض العقوبات الاقتصادية على العراق خلال أيام فقط من إقدامه على غزو الكويت ولكان من الصعب أيضًا الشروع في الحملة العسكرية متعددة الجنسيات في يناير ١٩٩١ . كما أن المشاركة السوفيتية في هذا التحالف أدت إلى تهدئة حدة الانتقاد الموجه إلى السياسة الأمريكية من جانب الدول المتعاطفة مع العراق أو تلك المعارضة للأنشطة العسكرية الأمريكية في شبه الجزيرة العربية .

صورة رقم (٢ : ٥) قوات تعمل خارج الأراضى السعودية تتأهب لتحرير الكويت فى عام ١٩٩١

وحتى قبل نهاية الحرب الباردة كان الاتحاد السوفيتى قد خفف من حدة موقفه تجاه إسرائيل ، حيث سمح لليهود السوفيت بالهجرة إليها . وتبعًا لذلك ، أصبحت الولايات المتحدة القوة المهيمنة من خارج المنطقة التى تتدخل فى الصراع العربى الإسرائيلى . ومع هذا ظل الانحياز الأمريكى كما هو دون تغيير ، وشعر الفلسطينيون بالإحباط لا سيما وأن عروض التسوية التى قدموها كانت تعامل دائمًا باعتبارها مقترحات جديدة لجولات تفاوضية إضافية (عشراوى ١٩٩٥) . وأتاحت عملية إعادة رسم خريطة المنطقة فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة فرصة لمشاركين جدد من الخارج لكى يغيروا أجواء هذه المفاوضات . واستغلت الحكومة النرويجية هذه الفرصة، فاستضافت محادثات سمحت للإسرائيليين والفلسطينيين بالمشاركة معاً فى مفاوضات عقدت فى العاصمة الأسبانية مدريد إضافة إلى مفاوضات سرية أخرى فى أوسلو . ووقع الطرفان على الاتفاق الذى توصلا إليه من خلال هذه المفاوضات فى سبتمبر عام ١٩٩٣ فى واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية .

والحقيقة أن نهاية الحرب الباردة كانت إيذاناً ببدء فترة من الهيمنة العالمية من جانب الولايات المتحدة . وفى الوقت نفسه أدى انتهاء الحرب إلى زوال أداة مؤثرة لحشد التأييد من حلفاء الولايات المتحدة لسياسات كانوا يعتقدون أنها غير حكيمة ، ولا ضرورة لها ، أو تتعارض مع مصالحهم القومية . ونتيجة لهذا ، فإن مبادئ من قبيل الاحتواء المزدوج ، والتى كانت بموجبها كانت الولايات المتحدة تبرر طلبها إلى دول أخرى بضرورة عزل إيران والعراق ، لم تعد تحظى بالتأييد الواسع بين حلفاء الولايات المتحدة وبنفس القدر من النجاح الذى تحقق لسياسة الاحتواء المزدوج ضد الاتحاد السوفيتى السابق . وكانت فرنسا الحليف الغربى الرئيسى الوحيد الذى ينتهج سياسة خارجية مستقلة بشكل ملحوظ تجاه الشرق الأوسط خلال معظم الحرب الباردة (وود ١٩٩٣) . وفى الوقت الحاضر ، على أى حال ، تعتبر اتفاقيات أوسلو مجرد مثال واحد على تنامى الحكم الذاتى فى مضمار شئون السياسة الخارجية والذى تتمتع به دول داخل وخارج الشرق الأوسط فى ظل النظام العالمى الجديد .

الشرق الأوسط كنظام فرعى للسياسة الخارجية :

عندما غزا العراق الكويت فى أغسطس عام ١٩٩٠ ، كانت هناك لازمة أو عبارة مشتركة تتردد بين الناس دائماً مفادها أن مثل هذه المغامرة العسكرية التى أقدم عليها العراق لم تحدث قط من قبل . إذ لم يحدث أن شنت دولة عربية هجوماً عسكرياً على دولة شقيقة أخرى . بيد أن هذا لم يكن صحيحاً على وجه الدقة . فقد هدد العراق ، بل وقام بغزو الكويت عدة مرات فيما مضى . ورغم أن ما حدث من قبل لا يمكن مقارنته بالغزو العراقى الذى تم فى عام ١٩٩٠ ، إلا أن القوات العراقية كانت قد حاولت الاستيلاء على جزء من شمالى الكويت فى منتصف السبعينيات (عسيرى ١٩٩٠) . كما استخدم العراق تكتيكات للاستيلاء على أراض من الكويت ، حيث دأب بين الحين والآخر على إرسال قواته إلى المنطقة الحدودية فى محاولة لتوسيعها باتجاه الجنوب (تيترول ١٢٤ - ١٢٣ - ١٩٩٥) .

فى الوقت ذاته ، نجد أن الصراعات العربية - العربية الأخرى قد نسيها هؤلاء الذين اعترضوا بأنهم صدموا من جراء الغزو العراقى للكويت فى عام ١٩٩٠ . فعلى سبيل المثال، شنت مصر عمليات عسكرية مكثفة فى اليمن فى منتصف الستينيات فى

إطار ما عرف آنذاك بحرب الوكالة ضد المملكة العربية السعودية ، كما أنها دخلت لسنوات طويلة فى اشتباكات حدودية مع ليبيا . وساعدت ليبيا والجزائر جبهة البوليساريو فى نضالها من أجل إقامة «دولة صحراوية» فى جزء من المغرب التى كانت تحتلها أسبانيا سابقاً وأيضاً فى جزء من موريتانيا . كما وفرت الجزائر ملاذاً آمناً للاجئى جبهة البوليساريو الذين فروا من القوات المغربية والموريتانية . وشنت حكومة العاهل الأردنى الراحل الملك حسين هجوماً عسكرياً قوياً ضد جيب فلسطينى كان يتمتع بما يشبه السيادة داخل الأردن ، وهو الهجوم الذى أطلق عليه «سبتمبر الأسود» فى عام ١٩٧٠ . وتدخل السوريون عسكرياً فى لبنان أثناء الحرب الأهلية هناك ، وشأنهم شأن الإسرائيليين ، مازالوا يحتلون جزءاً من لبنان حتى اليوم . علاوة على ذلك ، دخلت دول شبه الجزيرة العربية فى اشتباكات حدودية فيما بينها وأيضًا فى عمليات سرية أخرى ضد جيرانها طوال معظم هذا القرن . كما أن الصراعات الحدودية والعمليات السرية فى منطقة الخليج ، والتى تشارك فيها إيران ، وهى دولة غير عربية، باتت أمراً مألوفاً وشائعاً .

ومن بين أكثر محاور الصراع استمراراً فى منطقة الشرق الأوسط هى تلك التى تتضمن أطرافاً متحاربة غير عربية . والأمثلة على ذلك تشمل الصراع بين إسرائيل والدول العربية ، والصراعات التى يشارك فيها الأكراد بفاعلية ، والصراع بين العراق وإيران ، فهذه الصراعات الثلاث تتداخل وتتشابك فيما بينها . وشأن الصراعات المماثلة فى مناطق أخرى بالشرق الأوسط ، فإن هذه الصراعات غالبًا ما تجذب قوة خارجية أو أكثر . وفى الوقت نفسه ، مازال الشرق الأوسط يعزز ويدعم المنظمات غير الحكومية الإقليمية (NGOS) والتى تعكس مصالح سياسية ، واقتصادية ، وثقافية مشتركة . وبعض هذه المنظمات ، مثل منظمة أوبك (OPEC) تضم فى عضويتها شركاء عرب وغير عرب . وهنالك منظمات أخرى مثل جامعة الدول العربية ، ومنظمة الدول العربية المصدرة للبترول أوابك (OAPEC) ، ومجلس التعاون الخليجى (GCC) تعتبر كلها منظمات عربية .

وأنا شخصيًا أعتبر نفسى من بين هؤلاء الذين يشعرون بالتشاؤم بوجه عام حيال ما قد أنجزته أو ما سوف تنجزه فى المستقبل تلك المحاولات الرامية إلى تشجيع وتعزيز روح الجماعة والتوافق فيما بين دول الشرق الأوسط . ومع هذا ، فإننى أعتقد

أيضاً أن استمرار هذه الجهود أمر مهم ومفيد . إذ إنه من المرجح أن تثمر تلك الجهود في نهاية المطاف عن تكريس وترسيخ التأييد لما يمكن أن نعتبره الآن تأكيدات أيديولوجية لروح الأخوة العالمية بين جماعات مختلفة من الدول في هذه المنطقة .

الصراع العربي – الإسرائيلي :

سوف نستعرض الصراع العربي – الإسرائيلي بتفصيل أكثر في الفصل السادس، بيد أننا نريد أن نؤكد هنا على عنصرين مهمين من عناصر هذا الصراع ؛ العنصر الأول يتعلق بالبعد الخارجي الواسع للصراع بوجه خاص ، والثاني يرتبط بدور الفلسطينيين في العلاقات الدولية في الشرق الأوسط بوجه عام . ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى أنه عندما أعلن الزعماء الصهاينة إقامة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ، سارع كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة إلى الاعتراف بها . وفي ذلك الوقت كانت مؤسسات إسرائيلية مثل الجيش وحزب العمل ، اشتراكية أكثر منها ليبرالية (بيل وسبرينجبورج ٢٦١ : ١٩٩٤) . ورغم هذا ، ففي الوقت الذي تبلورت فيه المواقف من الحرب الباردة ، أصبحت إسرائيل متطابقة في هويتها وتماثل مصالحها مع الولايات المتحدة . وإلى حد ما ، عكس هذا اعتماد إسرائيل اقتصادياً على الدعم الحيوي من الجالية اليهودية الأمريكية .

وقد توطدت علاقات إسرائيل بالحكومة الأمريكية في أعقاب حرب الأيام الستة في يونيو عام ١٩٦٧ . وعندئذ ، تحولت فرنسا ، التي كانت فيما مضى المصدر الخارجي الرئيسي لتزويد إسرائيل بالسلاح ، باتجاه الدول العربية بسبب المخاوف الفرنسية إزاء الأمن طويل الأجل لإمدادات البترول (فايسبرج ١٩٧٧) . وعلى الرغم من قيام إسرائيل بقصف سفينة الاستخبارات الأمريكية ليبرتي لإخفاء استعداداتهم بشأن الحرب، إلا أن السياسة الداخلية دفعت الولايات المتحدة إلى دعم إسرائيل وتأييدها خلال حرب عام ١٩٦٧ . وتضمن هذا الدعم الأمريكي تنسيق الإجراءات الخاصة بهزيمة أول استخدام منظم لسلاح البترول العربي ضد حلفاء إسرائيل (سانكاري ١٩٧٦) .

كانت الحرب العربية الإسرائيلية في أكتوبر عام ١٩٧٣ جزءاً لا يتجزأ من سياسة الحرب الباردة . إذ إنه بعد عام ١٩٧٢ مباشرة والذي شهد خروج مصر من القطب

السوفيتي وتحولها إلى القطب الأمريكي ، وضعت هذه الحرب إدارة نيكسون في موقف صعب لما زعمته بشأن تحقيق انتصار في السياسة الخارجية مما حدد سياستها الداخلية. وعلى الرغم من أن المسئولين الأمريكيين قد تلقّوا سلسلة من التحذيرات الواضحة بدءاً من ربيع عام ١٩٧٣ بأن الحرب بين إسرائيل والدول العربية كانت وشيكة (تيترول ٣٤ : ١٩٨٥) ، إلا أن الهجمات العربية على مواقع إسرائيلية كانت مفاجأة للحكومة الأمريكية . وأثارت الانتصارات العربية في بداية الحرب قلق الولايات المتحدة ، الأمر الذي دفعها إلى إرسال إمدادات عسكرية إلى إسرائيل عبر الجسر الجوي الذي أقامته على وجه السرعة ، الأمر الذي أدى إلى قلب كل المكاسب العسكرية التي حققها العرب . كما أتاحتِ الحرب الفرصة للاتحاد السوفيتي لكي يستعيد بعض الخسائر الدبلوماسية التي مني بها في المنطقة . إذ إنه عندما انتهك وقف إطلاق النار، الذي تم التوصل إليه بوساطة من الأمم المتحدة في ٢٢ أكتوبر عام ١٩٧٣ ، أعلن الاتحاد السوفيتي عزمه إرسال قوات عسكرية إلى المنطقة . كما أجرى اتصالات مع الولايات المتحدة بشأن إرسال قوة أمريكية سوفيتية مشتركة لحفظ السلام. أما الرئيس الأمريكي نيكسون ، الذي كان في موقف لا يحسد عليه في الداخل بعد ما بلغت فضيحة ووترجيت ذروتها في خضم التحقيقات في ملابسات هذه الفضيحة السياسية ، فإنه كان يتخوف بشدة من اتخاذ أي إجراء في الشرق الأوسط يمكن أن ينظر إليه على أنه بمثابة مساعدة للجانب العربي في الحرب مع إسرائيل . وبدلاً من ذلك ، وضع نيكسون القوات العسكرية الأمريكية في حالة تأهُّب ، ومن ثم جعل أي إجراء أمريكي سوفيتي مشترك في حرب الشرق الأوسط أمراً مستحيلاً (كيسنجر ٦١١ - ٥٥٢ : ١٩٧٩) .

والحقيقة أن الخوف من اتساع الحرب العربية الإسرائيلية وتحولها إلى صراع عالمي قد أثاره صانعو السياسة على أعلى مستوى في عدة دول مختلفة ، فحاول هؤلاء وسعوا جاهدين إلى تلبية المطالب العالمية ، والإقليمية ، والمحلية - المتعارضة . وكان بوسع الحكام المحليين التصرف وفقًا لمصالحهم بدون أي خوف أو قلق إزاء كيفية تأثير تصرفاتهم هذه على حلفائهم . والواقع أن هذا النمط السلوكي يعد تكراراً لتصرف القوى الأوروبية في الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها ، وخلال فترة الانتداب البريطاني في فلسطين ، وإبان الحرب الباردة في المنطقة قبل

وبعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ . وهكذا يمكن اعتبار القرار الجرىء والمفاجئ الذى اتخذه الرئيس المصرى الراحل أنور السادات فى عام ١٩٧٧ بالذهاب إلى القدس ، فى محاولة جادة وشجاعة لإنهاء الصراع العربى الإسرائيلى ، يمكن اعتباره فى الوقت نفسه مؤامرة والتى كانت فوائدها ومكاسبها المحتملة تتضمن إزالة عنصر جذب مهم للمواجهة بين القوى العظمى ، وإنهاء توازن الرعب بين العرب والإسرائيليين ، وإتاحة الفرصة لحل مشكلة ما يجب عمله حيال الفلسطينيين .

وفى أعقاب انتصار الإسرائيليين فى حرب عام ١٩٤٨ الأولى وما أعقب هذه الحرب من طرد الآلاف من الفلسطينيين من ديارهم (موريس ١٩٨٩) ، أخذت أعداد هائلة من الفلسطينيين فى الشتات تنتشر فى مختلف أرجاء المنطقة وتتوزع على دولها ، ولكنهم تركزوا فى مخيمات اللاجئين وجيوب متفرقة فى بعض البلدان العربية. واستجابة للفرص التى أتاحتها لهم العائدات النفطية الضخمة ، قام الفلسطينيون أيضاً بتشكيل مجتمعات سكنية من العمال والعائلات فى الدول الغنية بالبترول مثل الكويت . (انظر – ١٩٨٧) . وهكذا صار الفلسطينيون جزءاً حيوياً ومهماً من العناصر المكونة للنسيج القومى العربى . وتذكرة بعدم كفاءة الجيوش العربية وعجزها فى مواجهة الجيوش الإسرائيلية فى ميادين القتال ، فإن وجود اللاجئين الفلسطينيين فى الدول العربية كان يثير الشعوب بالخزى والعار، ويحرك الإحساس بالذنب لدى قادة هذه الدول وحكوماتها . ونتيجة لهذا ، فإن بعض الزعماء العرب من أمثال الزعيم المصرى جمال عبد الناصر (ناصر ١٩٥٥) ، والزعيم الليبى معمر القذافى (رارتمان وكلوج ١٩٩١) ، والرئيس السورى حافظ الأسد (سيل ١٩٨٨) ، والرئيس العراقى صدام حسين (أحمد ١٩٩١) ، شرعوا فى وضع تصورات لمهام تاريخية إقليمية تضمنت استعادة الأراضى الفلسطينية المحتلة كهدف أولىّ .

واعترفت الدول العربية بمنظمة التحرير الفلسطينية (P L O) باعتبارها الحكومة الشرعية – دولة فى المنفى – للفلسطينيين . ولأسباب مختلفة عديدة ، كانت كل واحدة من هذه الدول مترددة فى استيعاب أى عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين والسماح لهم بالعيش بين سكانها . ودعمت هذه الدول السيادة الإيجابية لمنظمة التحرير الفلسطينية نظراً لأن اختصار المنظمة إلى الأرض جعل السيادة السلبية أمراً

متعذراً ومن الصعب تحقيقه . وافتتحت منظمة التحرير الفلسطينية سفارات معترف بها رسميًا في العديد من العواصم العربية ، وقامت الحكومات العربية في الخليج باستقطاع ضرائب منظمة التحرير من الرواتب التي تدفع للعمال الفلسطينيين . وإضافة إلى الانتخابات المنظمة لاختيار أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني ، فإن المدفوعات الضريبية ، والتدفقات الكبيرة من المساعدات الخارجية من الدول العربية ، والمؤسسات غير الرسمية لمجتمع فلسطيني قد شجع على تطوير هوية فلسطينية متميزة على الرغم من غياب دولة فلسطينية لها أراضٍ وحدود واضحة (انظر جيرنر ١٩٩٤ ، وبيرتيز ١٩٩٠) .

وأدى توقيع اتفاق سلام منفصل بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩ إلى فقدان الاهتمام بالتدخل العسكري من جانب دول المواجهة العربية الأخرى (ويقصد بها تلك الدول التي قد شكلت الصراع مع إسرائيل) . وفي الوقت نفسه ، أدى اختفاء الاتحاد السوفيتي إلى إزالة وضع الصراع العربي الإسرائيلي كمسرح للحرب الباردة . وتبعاً لهذا ، تضاءلت مكانة الفلسطينيين البارزة آنذاك كما تناقص الاهتمام بمحنتهم . وجاءت الانتفاضة الفلسطينية التي تفجرت في ديسمبر عام ١٩٨٧ لتعكس يأس الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال وذلك وسط لامبالاة من بقية دول العالم . كما سلطت الانتفاضة الضوء على تغيير جوهري في تركيبة الصراع ، وهو تغيير ناجم عن اتفاق السلام المصري - الإسرائيلي ، إذ إن الصراع العربي الإسرائيلي قد أصبح الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني .

وفي بادئ الأمر ، كانت الانتفاضة ناجحة بشكل مذهل في تجسيد حركة مقاومة منظمة ومتماسكة . ومع دخول الانتفاضة عامها الثالث ، أظهرت علامات على الضعف ، كنتيجة للمعارضة الإسرائيلية التي لم تتوقف وكنتيجة لاستنزاف الموارد الفلسطينية (جيرنر ١٩٩١ - ١١٩٩ ، هانتر ١٩٩٣) . وجاء تأييد ياسر عرفات للغزو العراقي للكويت في صورة اقتراح طرحه الرئيس العراقي صدام حسين بشأن صياغة ميثاق وطني عربي لتنسيق الجهود من أجل تحرير فلسطين وقبول صدام لمواقف منظمة التحرير الفلسطينية بشأن ما قد يستتبع عملية التحرير هذه . (أحمد ١٩٩١) . بيد أن تأييد عرفات الصريح للغزو العراقي للكويت قد أتاح سبباً عقلانيًا لإعادة توجهات حكومات عربية أخرى فيما يختص بالعلاقات مع الفلسطينيين . ووجدت

الحكومات الخليجية ، التى بدأت تعانى نقصاً فى السيولة النقدية بسبب تقلص عائداتها النفطية طوال عقد كامل من ناحية وبسبب الحاجة إلى دعم الحرب الخاصة بتحرير الكويت ، وجدت فى موقف عرفات وانحيازه إلى جانب العراق ذريعة ملائمة لوقف معوناتها إلى منظمة التحرير الفلسطينية . وجرى طرد معظم الفلسطينيين العاملين فى دول الخليج بحجة أنهم يشكلون خطراً على أمن هذه الدول ، الأمر الذى أدى إلى تقلص الموارد المالية التى كان يحصل عليها الفلسطينيون الذين يعيشون فى الضفة الغربية وقطاع غزة . وفقد الفلسطينيون أيضًا الاعتراف الدبلوماسى من جانب حكومات تلك الدول وظلوا يعانون من ردود فعل انتقامية . و الأسوأ من هذا وذاك أن الفصائل والجماعات المتطرفة لدى طرفى الصراع الإسرائيلى الفلسطينى انخرطت بدورها فى ممارسات وأنشطة إرهابية متزايدة استهدفت عرقلة عملية السلام ، بينما جعل فقدان التأييد الخارجى التكيف خياراً جذاباً لكلا الجانبين .

الصراع الكردى :

الأكراد ، وكما هو الحال بالنسبة إلى الفلسطينيين ، شعب بلا دولة (مكدويل ، ١٩٩٦) . وكان الأكراد قد حصلوا على وعد بمنحهم منطقة ذاتية الحكم من قبل القوى الأوروبية بموجب معاهدة سيفر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . وعلى أى حال ، فإن جزءاً كبيراً من «كردستان» ، وهو منطقة كركوك ، كان من بين أول مناطق إنتاج البترول فى الشرق الأوسط . وبسبب احتياطياتها النفطية أراد البريطانيون ضم منطقة كركوك إلى العراق الذى كانوا منتدبين عليها (مار ١٩٨٥) . ونتيجة لهذا ، توزع الأكراد ، وهم من غير العرب ومن غير الأتراك أيضاً ، ما بين خمس دول مجاورة لبعضها البعض وهى إيران ، والعراق ، وتركيا ، وسوريا ، والاتحاد السوفيتى السابق (وهو الآن جزء من أذربيجان) . والواقع أن استمرار بقاء الجيوب العرقية الكردية يرجع الفضل فيه إلى وجود منطقة جبلية معزولة ، وسلطة زعماء القبائل على السكان المحليين ، والخلافات الكردية الداخلية وكذلك التوترات القائمة بين الأكراد وحكومات الدول التى تتأثر بالصراع . والحقيقة أن الصراع الكردى يعد أكثر من كونه مجموعة من الحروب الأهلية ؛ إذ إنه أيضًا نقطة انطلاق لصراعات تفجرت بين الدول التى انتقلت إليها عدوى الصراع والجيوب الكردية .

ويتزامن النفط والسياسة الانفصالية فى العراق ، حيث نجد أن أحد العناصر التى تجمع الأكراد معاً يتمثل فى إصرارهم الطويل على إقامة منطقة كردية تتمتع بالحكم الذاتى وتحصل على نصيب من عائدات النفط العراقية . وقد شارك الأكراد العراقيون فى انتفاضات وثورات متكررة ضد الحكومة المركزية منذ السنوات الأولى لقيام الدولة العراقية ، ففى أثناء الثلاثينيات والأربعينيات ، خاض المقاتلون الأكراد بقيادة الملا مصطفى برزانى حرباً أهلية متواصلة فى العراق . كما رفض الأكراد الإيرانيون الاستسلام إلى أية محاولة لاستيعابهم واحتوائهم . وخلال الحرب العالمية الثانية وبمساعدة من القوات السوفيتية ، تمكن الأكراد الإيرانيون من تأسيس جمهورية مستقلة لم تدم طويلاً أطلقوا عليها «مها باد» . وعلى الرغم من العداوة بين زعماء القبائل الكردية ، فإن الأكراد غالباً ما يساعدون بعضهم البعض فى صراعاتهم المدنية مع الدول المختلفة . وعلى سبيل المثال ، قاد برزانى عدة آلاف من المقاتلين الأكراد العراقيين إلى إيران للمساعدة فى الدفاع عن مها باد ضد القوات الإيرانية .

وبعد سقوط مها باد ، رحل برزانى إلى المنفى فى الاتحاد السوفيتى . وفى أعقاب ثورة عام ١٩٥٨ ، سمح له بالعودة إلى العراق . وأطلق النظام فى العراق سراح سجناء سياسيين أكراد وقام بتعيين أكراد فى مناصب حكومية مهمة . وكان الرباط المشترك الذى يجمع بين الأكراد والزعيم العراقى الجديد ، عبد الكريم قاسم ، هو المعارضة القوية للقومية العربية . ولكن سرعان ما انتهى هذا التحالف عندما بدأت الحكومة العراقية رفض المطالب الكردية بشأن منح الأكراد الحكم الذاتى . ومن ثم ، تجددت الحرب الأهلية فى العراق عام ١٩٦١ .

وكما أن لدى الأكراد الاستعداد أحياناً للتعاون مع بعضهم البعض ضد دولة ما ، فإنهم يشكلون أيضًا تحالفات مؤقتة مع دولة معينة ضد دولة أخرى أو ضد جماعة كردية أخرى . ويتلقى المتمردون الأكراد فى العراق مساعدات دورية من الحكومة الإيرانية ، وأحياناً ما تندلع معارك بين القوات العراقية والإيرانية فى المنطقة الكردية خلال الانتفاضات أو الثورات التى تندلع فى هذه الدولة أو تلك . وخلال أوائل السبعينيات ، تمت مساعدة المتمردين الأكراد العراقيين من جانب إيران ، وبصورة غير مباشرة عبر إيران ، من جانب الولايات المتحدة . وقد أدت المفاوضات التى جرت بين ممثلين من الحكومة العراقية والأكراد إلى تسويات حول العديد من

المشكلات التى أثارت الخلافات بين الجانبين . ومع هذا ، لم يحل عام ١٩٧٥ إلا وكانت الحكومة الإيرانية والولايات المتحدة قد توصلتا إلى اتفاق يقضى بوقف الدعم العسكرى للأكراد العراقيين مقابل حرية الانتقال عبر الحدود بين العراق وإيران ، وهو الأمر الذى أفضى إلى انتهاء هذه المرحلة من الحرب بين الجانبين (أحمد ١٩٩١) .

وفى أعقاب الثورة الإسلامية فى إيران عام ١٩٧٩ ، أصبح الأكراد العراقيون مرة أخرى هدفاً للمناورات السياسية الإيرانية . وخلال الحرب العراقية الإيرانية ، اعتبر صدام حسين المنطقة الكردية بمثابة نقطة يمكن أن تعرض العراق كله لأخطار استراتيجية . وهكذا دارت هذه الحرب ليس فقط بين العراق وإيران ، بل أيضاً بين العراقيين والأكراد فى كل من العراق وإيران . وفيما كان يعد انتهاكاً للمعاهدات الدولية، استخدمت القوات العراقية الأسلحة الكيماوية ضد القرى الكردية العراقية ، ومن بينها قرية حلبجة ، وقامت بتسوية المئات من هذه القرى بالأرض (ماكايا ١٩٩٣) . وبعد حرب الخليج ، ثار الأكراد العراقيون ضد حكومة صدام حسين ، ولكن عمليات ممارسات القهر الوحشية التى نفذتها القوات العراقية ضدهم أدت إلى تدفق أعداد هائلة منهم إلى خارج العراق واللجوء إلى إيران ، وتركيا . وأقامت بريطانيا ، وفرنسا ، وهولندا ، والولايات المتحدة منطقة ملاذ آمن للأكراد ، من بينها منطقة حظر طيران تتولى حراستها طائرات حربية متمركزة فى قواعد فى تركيا .

وداخل منطقة الملاذ الآمن ، تأسست إدارة كردية فى محافظة أربيل من جانب فصيلين كرديين كانا متحاربين فى أغلب الأحوال ، وهما الحزب الديمقراطى الكردستانى (KDP) بزعامة مسعود برزانى (ابن الملا مصطفى برزانى ، مؤسس الحزب) ، والاتحاد الوطنى الكردستانى (PUK) بزعامة جلال طالبانى . ومع هذا ، فإن العزلة الاقتصادية التى فرضت على منطقة الملاذ الآمن واعتمادها الكامل تقريباً على الموارد الاقتصادية من الخارج ، أديا إلى دخول هذين الفصيلين فى صراعات متكررة (باركى ١٩٩٧) . وقد أفضى التنافس بينهما على الموارد النادرة إلى تفاقم خلافاتهما حول أهداف وغايات زعيمى الحزبين . وبعد تجاهل النداءات الأمريكية بضرورة تسوية خلافاتهما سلمياً ، قام الاتحاد الوطنى الكردستانى (PUK) بطرد الحزب الديمقراطى الكردستانى (KDP) من محافظة أربيل فى عام ١٩٩٤ . وفى

المقابل ، عقد الحزب الديمقراطى الكردستانى فى عام ١٩٩٥ اتفاقاً مع صدام حسين للإطاحة بالاتحاد الوطنى الكردستانى ، ومن ثم أرغم هجوم عسكرى شارك فيه قرابة ٤٠ ألف جندى قوات الاتحاد الوطنى الكردستانى على الانسحاب إلى الجبال . وفى أثناء هذه العملية العسكرية ، تمكنت القوات العراقية من اعتقال المنشقين الأكراد ، وأمكن لصدام حسين العودة إلى كردستان بناءً على طلب زعمائها المحليين .

وكان للمشكلات التى واجهت العراق وإيران مع مواطنيهما من الأكراد صداها فى تركيا . فالنزعة الانفصالية الكردية فى تركيا تتعارض مع الركيزة الأساسية لفكرة الدولة التركية والقائمة على القومية التى تتمحور حول الدولة . وكانت صورة أتاتورك لتركيا كدولة وطنية يحكمها قانون مدنى موحد مرتبطة بنهاية النظام المللى العثمانى والذى كان قد أتاح لمجتمعات الأقلية قدراً كبيراً من الحكم الذاتى فى القضايا والشئون التى تؤثر على الجوانب الشخصية فى حياة الأفراد . وكان الضغط على جميع المواطنين فى تركيا الجديدة لحملهم على التوافق والتكيف مع القوانين والنظم العلمانية، والحديثة ، والقومية التى وضعها أتاتورك ، كان كثيفاً وعنيفاً فى بعض الأحيان .

وقام أتاتورك أيضاً بمحاولات وجهود ناجحة لاختيار عناصر من الأكراد مؤيدة لفكرة الدولة بدلاً من قمعهم أو قتلهم . وكما حدث فى العراق وإيران ، كانت حركات التمرد فى المنطقة الكردية فى تركيا متداخلة ومتشابكة مع الحركات القومية والسياسية والإقليمية . وخلال فترة الصراع الداخلى المرير فى تركيا فى منتصف السبعينيات ، برزت منظمة ماركسية – لينينية هى حزب العمال الكردستانى(PKK) من الحركة اليسارية . وفى عام ١٩٨٤ ، شن حزب العمال الكردستانى تمرداً مسلحاً والذى أسفر عن مقتل ما يربو على عشرين ألف شخص فى غضون عشر سنوات . وأشارت التقديرات إلى أن الجهود المتواصلة التى استهدفت قمع هذا التمرد كلفت تركيا حوالى ثلاثة فى المائة من إجمالى الناتج المحلى للبلاد سنوياً ، وأدت إلى إعلان حالة التأهب فى صفوف ما يقرب من ربع مليون من قوات الأمن والجيش فى تركيا (باركى ١٩٩٧ ، ماكدويل ١٩٩٦) .

فى الوقت نفسه ، أدت صراعات تركيا مع الأقلية الكردية فيها إلى تدخل بلدان مجاورة فى هذه الصراعات . إذ ساندت سوريا وإيران حزب العمال الكردستانى ،

والذى أقام قواعد عسكرية فى منطقة الملاذ الآمن فى العراق . وحتى خريف عام ١٩٩٨ ، وفرت سوريا ملاذاً آمناً لمتمردى حزب العمال الكردستانى ، ومع ذلك تدهورت العلاقات بين سوريا وتركيا بدرجة كبيرة ، وتحت ضغط تركى قوى ، طرد السوريون المنفيين من حزب العمال الكردستانى ، ومن بينهم زعيم الحزب عبد الله أوجلان . وفى العام التالى ، ألقى عملاء أتراك القبض على أوجلان وأودع السجن . وحظيت محاكمة أوجلان فى عام ١٩٩٩ بتغطية واسعة من الصحافة العالمية وانتهت بإصدار حكم بإعدامه . وتردد أن الأكراد من غير الأتراك أعربوا عن ارتياحهم إزاء عقوبة الإعدام ضد أوجلان لأنهم يعتقدون أنه كان مسئولاً عن أعمال إرهابية أدت إلى قتل أعداد كبيرة من الأتراك . ورغم هذا ، اتخذ الأكراد موقفاً مغايراً حيث عارضوا حكم عقوبة الإعدام ضد أوجلان ، وهو الحكم الذى يجرى استئنافه فى الوقت الحاضر .

وفى شهر نوفمبر عام ١٩٩٨ ، كانت قوات تابعة للأمم المتحدة توشك على التدخل عسكرياً فى العراق بعدما طردت حكومة بغداد فرق التفتيش عن الأسلحة . وشنت تركيا عمليات عسكرية ضد قوات حزب العمال الكردستانى التى كانت قد اتخذت من العراق ملاذاً لها . ودفع الأكراد تركيا باتجاه تأييد الحكومة العراقية اعتقاداً منها بأن جزءاً من الحل لمشكلة الأكراد الأتراك كان يكمن فى وجود عراق قوى بما يكفى لمساعدة تركيا فى كبح جماح حزب العمال الكردستانى والسيطرة عليه (باركر ١٩٩٧) . ورحبت الحكومة التركية فى أواخر عام ١٩٩٦ ، إدراكاً من جانبها لأهمية المصالح المتبادلة مع العراق ، باستئناف صادرات النفط العراقية من خلال خط أنابيب يمر عبر الأراضى التركية ، حيث كان يرأس الحكومة التركية فى ذلك الوقت نجم الدين أربكان الذى كان فى صدارة الزعماء الأتراك المؤيدين لتطبيع العلاقات مع العراق .

الصراع بين إيران والعراق :

ليس ثمة شك فى أن كلاً من الصراع الإسرائيلى الفلسطينى والصراع الكردى يتداخلان ويتشابكان مع الصراع العراقى الإيرانى . ذلك أن إيران ليست دولة عربية ولم تشارك أبداً فى المقاطعة ضد إسرائيل والتى شنتها الدول العربية المعارضة لقيام الدولة اليهودية (لوسمان ١٩٧٢) . وتبعاً لهذا ، كانت إيران حرة فى بيع النفط إلى

إسرائيل وأيضًا فى زيادة إنتاجها النفطى خلال فترتى الحظر النفطى الذى فرضته الدول العربية فى عامى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، وهو الأمر الذى أدى نسبيًا إلى الحد من فاعلية «سلاح النفط» العربى (تيترول ١٩٧٣) . وكانت إيران وإسرائيل كلتاهما قوتين عسكريتين إقليميتين طموحتين ، وكلتاهما أصبحتا من عملاء أمريكا وشركائها أثناء الحرب الباردة ، ولا سيما بعد تبنى مبدأ نيكسون الذى كان يؤيد الاعتماد الأمريكى بقدر أكبر على عملاء إقليميين بهدف احتواء الاتحاد السوفيتى (تيترول ١٩٨٥) . ومن ثم ، فإنه لم يكن من قبيل المفاجأة أنه ، خلال الحرب العراقية الإيرانية ، شرعت إدارة ريجان فى مبيعاتها القانونية من الأسلحة إلى إيران وذلك فى مقابل أموال لمساعدة ثوار الكونترا فى نيكاراجوا من خلال وساطة وكالة إسرائيلية (درابر ١٩٩١).

وكان العراق يحتل مكانة بارزة فى دفاعه عن المطالب الفلسطينية وذلك يعزى جزئياً إلى رغبات قادته فى التفوق بين القوميين العرب ، حتى قبل وفاة عبد الناصر. وفى عام ١٩٦٧ ، كان العراق أول من طالب بفرض حظر نفطى على حلفاء إسرائيل فى حرب الأيام الستة . وتحت وطأة الضغوط التى تعرضت لها اقتصاداتها ، اضطرت ثلاث دول عربية أخرى من الدول المصدرة للنفط إلى تأسيس ما أطلق عليه منظمة الدول العربية المصدرة للبترول أوابك (OAPEC) فى يناير عام ١٩٦٨ لإحباط مطالب عراقية مماثلة فى المستقبل (تيترول ١٩٨١) . وقاتل العراق إلى جانب سوريا فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وذلك على الرغم من العداء السياسى القومى بين هذين النظامين البعثيين وخلافاتهما حول القضايا الاقتصادية والتى تراوحت من حقوق المياه فى نهر الفرات إلى رسوم العبور لخط أنابيب البترول . وظل دور العراق كبطل مدافع عن القضية الفلسطينية فعالاً وثابتًا على الرغم من رفضه المشاركة فى الحظر النفطى عام ١٩٧٣ - ١٩٧٤ ضد حلفاء إسرائيل (تيترول ١٩٨١) . وقبل توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية فى مارس ١٩٧٩ ، قاد العراق فى اجتماع القمة الذى عقدته الدول العربية فى بغداد فى نوفمبر عام ١٩٧٨ حملة واسعة للانتقام من مصر بمجرد أن اتخذت مثل هذه الخطوة (أحمد ١٩٩١) .

ومن خلال تتبع خلافات العراق مع إيران ، يمكن القول بأنها ترجع إلى مئات الأعوام من الصراعات بين الإمبراطوريات العربية والفارسية المختلفة ، ولكن الجذور

الحديثة لهذه الخلافات تعتبر تراثاً تاريخياً آخر للإمبريالية للمواقف المتعجرفة والمتسلطة لهؤلاء المسؤولين عن تشكيل التسويات المتعلقة بالأراضى فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الأولى . ولذلك فإن مشكلة الأراضى هى التى جرّت الأكراد إلى هذا الصراع .

إن الحدود بين البلديين ، والتى رتب ورسم الجزء الأكبر منها قوى خارجية ، لم تجد اعترافًا أو قبولاً على الإطلاق من أى جانب منه وكان الخوف العراقى من الهيمنة الفارسية ، والذى ترسخ فى ذهنهما ، يستعد للتعدى الإيرانى تدريجياً على الأراضى «العربية» ، بما فيها الأراضى العربية فى خوزستان فى عام ١٩٢٥ ، وضم مناطق المياه حول خور مشهر فى عام ١٩٣٧ ، ومعاهدة عام ١٩٧٥ التى أعطت إيران نصف ممر شط العرب المائى (مار ٢٩١ : ١٩٨٥) .

وأدت المناورة الناجحة من جانب إيران فى النزاع العراقى الكردى فى منتصف السبعينيات إلى تحريك الحدود بين الدولتين من الجانب الإيرانى لمنطقة شط العرب «خط ثالويج» وهو خط وهمى يمتد أسفل ممر شط العرب المائى . وأدى انتصار إيران إلى الحد من إمكانية وصول العراق إلى منطقة الخليج وإلى زيادة اعتمادها على خطوط الأنابيب التى تمر عبر سوريا وتركيا لنقل بترولها إلى الأسواق الخارجية .

وفى أعقاب نجاح الثورة الإسلامية فى إيران فى عام ١٩٧٩ ، تحدى قادة الحكومة الإيرانية الجدد العراق مرة أخرى . وبحلول عام ١٩٨٠ ، كانوا قد بدأوا فى إثارة المشاعر المعادية للحكومة بين الأكراد العراقيين فى الشمال وتوجيه نداءات دينية إلى الشيعة العراقيين فى الجنوب . وقرر الرئيس العراقى صدام حسين غزو إيران فى عام ١٩٨٠ لأنه كان يرى ثمة ميزة عسكرية ناجمة عن حالة السخط المتزايد داخل إيران . كما أراد أن يضع نهاية للحملات الدعائية الإيرانية ضد العراق وللاشتباكات الحدودية التى كانت تشكل تحدياً للسيادة العراقية . وتوقع العراقيون نصراً سريعًا وتسوية بعد الحرب تؤدى إلى قلب قرون من المكاسب الإقليمية التى حققتها إيران رأسا على عقب . وفوجئ العراقيون بالمقاومة التى واجهت قواتهم وبالافتقار إلى مساندتهم من جانب العرب الإيرانيين . ومن ثم تحول الصراع بسرعة إلى حرب استنزاف طويلة شبيهة بتلك الحرب التى أوقعت العديد من الخسائر فى الأرواح فى فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى .

وكانت الحرب العراقية الإيرانية تنطوى على بعد نفطى مهم . وبينما اشتد غمار الحرب ، التهمت الأغلبية السكانية فى إيران الميزة التى كان العراق قد حازها من وراء هجومه المباغت على إيران . وسعى كل جانب إلى تدمير ليس فقط الجنود فى الجانب الآخر ، وإنما أيضًا تدمير قدرة عدوه على شن الحرب على الإطلاق . ونجح العراق فى تعبئة الدول الغنية المصدرة للنفط وحشدها فى تأييد ودعم حربه العربية ضد إيران على الرغم من ارتباط هذه الدول معًا فى إطار مجلس التعاون الخليجى الذى تأسس حديثًا آنذاك . وكان المجلس الجديد يضم جميع الدول الواقعة فى منطقة الخليج فيما عدا العراق وإيران . وقصفت إيران خطوط أنابيب البترول العراقية لشل قدرة العراق على شراء المزيد من الأسلحة اعتماداً على عائداته البترولية . ومع هذا ، فإن الإنتاج من النفط الذى خصصته الكويت والسعودية لبيعه لحساب العراق أبقى على تدفق الدخل النفطى إلى العراق . كما دعمت دول الخليج العربية الغنية بالنفط العراق بالأموال وشحنات الأسلحة . فقامت الكويت باستيراد عتاد حرب للعراق بل إنها شيدت طريقًا رئيسيًا يمتد من ميناء الشويخ إلى الحدود العراقية لنقل المعدات العسكرية بكفاءة أكثر . وعندما ردت إيران بقصف ناقلات البترول الكويتية لجأت الكويت إلى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وإلى القوى البحرية الرئيسية الأخرى طلبًا للحماية ، الأمر الذى أدى إلى استبدال الأعلام الكويتية التى كانت ترفعها هذه الناقلات بأعلام تلك الدول للحيلولة دون تعرضها للهجمات الإيرانية (عسيرى ١٩٩٠) .

وربما كان أهم عنصر من عناصر ما أُطلق عليها الحرب النفطية فى ذلك الوقت هو قيام السعودية بالتوسع فى إنتاجها النفطى والذى بدأ فى عام ١٩٨٥ ، وهو الإجراء الذى لم يؤد فحسب إلى جلب الدخل النفطى إلى الدول التى كانت تمول أيضًا هذه الحرب بل أدى أيضًا إلى هبوط أسعار البترول فى أنحاء العالم . وبالنسبة إلى دول الخليج العربى المصدرة للنفط والتى كان لديها فائض فى قدرتها الإنتاجية ، أدى الانخفاض فى أسعار النفط إلى زيادة الإنتاج للمحافظة على الدخل النفطى ، حتى وإن بلغت هذه الزيادة فى الإنتاج مستويات أقل مما كانت عليه قبل انهيار الأسعار . وبالنسبة إلى إيران ، التى كانت طاقتها الإنتاجية من النفط قد بلغت بالفعل أقصى مستوياتها والتى كانت محرومة من الموارد الأخرى للنقد الأجنبى كنتيجة للحظر

الأمريكى ضدها ، فإن الهبوط فى أسعار النفط أدى بشكل مباشر إلى تقليص قدرتها على إعادة تسليح نفسها . وكانت الحرب النفطية سلاحًا مضاداً فعالاً فى التصدى لميزة إيران المتمثلة فى التفوق العددى والكثافة السكانية ، كما أن آثار الحرب النفطية امتدت إلى نطاق أبعد وحالت دون تحقيق انتصار إيرانى . ورغم هذا كله ، لم تكن الحرب النفطية كافية لجعل العراق قادراً على كسب الحرب الأكبر التى انتهت دون أن يحسمها الطرفان فى ١٩٨٨ .

وفى ذلك الوقت كانت الأوضاع بين الدولتين المتحاربتين أبعد ما تكون عما قد كانت عليه قبل بداية الحرب . وعلى الرغم من ثراء جيرانه العرب ، اضطر العراق إلى اقتراض أموال من البنوك الغربية . وبحلول نهاية الحرب ، أصبح العراق مديناً بحوالى ١٥ مليار دولار للبنوك الدائنة (تيترول ٩٦ : ١٩٩٣) . وفى الوقت نفسه ،

صورة رقم (٣ : ٥) فتيات عراقيات يتدربن على القتال فى الحرب ضد إيران

فإن الشعب العراقى الذى كان قد عاش في ظل ظروف بالغة القسوة طوال الحرب ، توقع أن تفى فترة السلام بالوعود التى قد قطعت له أثناء استمرار الحرب فى الخفجى ١٩٩٥ . ومن ثم ، لم يستطع صدام إرضاء البنوك أو شعبه ، ولا سيما فى ظل الهبوط المستمر فى أسعار النفط الذى حدث من جراء الزيادة المتواصلة فى الإنتاج .

وتوصل تيم نيبلوك (١٩٨٢) إلى أن ثمة ارتباط أو علاقة بين الصراعات العراقية مع إيران والهجمات العراقية على الكويت . إذ إن إيران دأبت على تحدى السيادة العراقية وهو التحدى الذى كان يصادفه النجاح فى العادة . وغالباً ما كان عجز العراق عن تحقيق النصر ضد إيران يجعلها تتحول ضد الكويت ، التى تعتبر أصغر وأضعف من العراق بكثير والتى كانت مطالب العراق ودعاويها حيالها ضعيفة جداً . ورغم هذا ، وقبل عام ١٩٩٠ ، فإنه فى كل مرة يتحدى فيها العراق الكويت ، كان يحصل على شيء ما فى المقابل : أموال ، أرض ، أو تأثير على السياسات الداخلية والخارجية للكويت (عسيرى ١٩٩٠) .

ولكن أن تأتى نتيجة التحدى مختلفة فى عام ١٩٩٠ فإن ذلك يعكس التغيرات فى البيئة الخارجية التى جعلت التدخل الواسع من ائتلاف ضم دولاً من خارج المنطقة ضد العراق أمراً ممكناً ، إن لم يكن حتمياً . بيد أنه لم يحدث أن وقفت جميع الدول التى حصلت على مكافآت ومعونات مالية من الكويت إلى جانبها فى أعقاب تعرضها للغزو العراقى . فالأردن انتهك عقوبات الأمم المتحدة ضد العراق من خلال نقل إمدادات عسكرية عبر خليج العقبة إلى الحدود العراقية ؛ وأيّد اليمن المواقف العراقية فى معظم جلسات التصويت التى أجراها مجلس الأمن الدولى . وحتى رغم هذا ، وقفت الأغلبية الهائلة من الدول العربية إلى جانب الكويت . ومهما كان الدافع وراء ذلك ، وسواء كان سببه ، وكما فعلت الدول الأخرى فى مجلس التعاون الخليجى من منطلق الدفاع عن مصالحها أو كما فعلت مصر التى تم إغراؤها بإمكانية إعفائها من الديون المستحقة عليها لدى الكويت واحتمال حصولها على معونة اقتصادية جديدة ، أو كما حدث مع سوريا التى كانت تبغض النظام العراقى ، فإن العديد من الدول التى وقفت مع الكويت تحدت عناصر مهمة داخل مجتمعاتها حين أقدمت على تبنى مثل هذا الخيار .

وفى الغرب ، بدت الخلافات بين الكويت والعراق فى السباق من أجل كسب الحلفاء واضحة جداً . وفى الشرق الأوسط ، لم تكن الصورة بمثل هذه الدرجة من الوضوح . إذ إن بروز صدام حسين كرمز للقومية العربية ودعواته العلنية الصريحة إلى دعم الفلسطينيين ، إضافة إلى الفوارق والتبايانات الواضحة فى الثروات بين السائحين الكويتيين والسكان المحرومين فى مصر ، والمغرب ، والدول الأخرى الأقل ثراءً ؛ وكذلك ارتباط معظم الأعضاء البارزين فى الإئتلاف الدولى بالإمبريالية الماضية وباعتمادها الحالى عليها ، كل هذا قد شجع العديد من الدول العربية على تأييد العراق بدلاً من الكويت . وكان هذا الأمر صحيحًا ، ليس فقط بالنسبة إلى الشخص العادى فى الشارع العربى ، بل أيضاً بالنسبة إلى العديد من المثقفين من أمثال أستاذة علم الاجتماع المغربية فاطمة مرنيسى(١٩٩٢) والحقيقة أن العزلة الدبلوماسية والاقتصادية التى فرضت على العراق فى أعقاب تحرير الكويت ، وعلى الرغم من قرار صدام حسين بإحراق الكويت بإشعال النار فى منشآتها النفطية ، ورغم حملته القمعية والوحشية ضد انتفاضة الشيعة فى الجنوب (الشهرستانى ١٩٩٤ ، الخضيحى ١٩٩٤) ، والانتفاضة الكردية فى الشمال (الكتاس ١٩٩٤) ، الحقيقة أن هذه العزلة لم تؤد إلا إلى زيادة التحالف الواسع مع العراق فى شتى أرجاء العالم العربى .

ومنذ نهاية حرب الخليج ، دخل صدام حسين فى لعبة القط والفأر مع فرق التفتيش الدولية التابعة للأمم المتحدة والتى أرسلت إلى العراق لمراقبة إزالة أسلحته الكيماوية والبيولوجية . وفى معظم هذه المواجهات ، كان العراق يحظى بتأييد حكومات وشعوب الدول العربية . وعندما طرد العراق جميع الأعضاء الأمريكيين فى فرق التفتيش على الأسلحة فى أواخر عام ١٩٩٧ ، فإنه ما من حكومة عربية ، وحتى الكويت ، أيدت فكرة الانتقام العسكرى ضد العراق . وحين منع العراق جميع المفتشين الدوليين من أداء مهامهم فى أواخر عام ١٩٩٨ ، ونددت ست دول عربية من بينها مصر ، وسوريا، العراق من هذا الإجراء . بيد أنه على الرغم من هذا كله ، حظيت عملية إعادة تأهيل العراق وإعادته إلى الصف العربى بتأييد كبير بين الحكومات والشعوب العربية فى الشرق الأوسط وذلك إلى حد كبير بسبب التكلفة والأعباء المتزايدة والواضحة التى تكبدها الشعب العراقى من جراء العقوبات

الاقتصادية المفروضة عليه . وبالنظر إلى التحديات الإيرانية للدول الواقعة على الجانب العربى من الخليج ، مثل احتلال إيران لثلاثة من الجزر التابعة إلى دولة الإمارات ، فإن العامل الحاسم الذى يربط العناصر الحديثة فى إطار تصادم وتعارض الطموحات والتطلعات السياسية والجغرافية بين العرب والإيرانيين لا يحتمل أن يزول فى وقت قريب .

النزعة الإقليمية فى الشرق الأوسط :

كانت دول الشرق الأوسط من الدول الرائدة فى مضمار تبنى النزعة الإقليمية . وهذه النزعة التى ظهرت فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية كانت تدافع عن تأسيس منظمات دولية لأغراض وظيفية معينة مثل التنمية الاقتصادية والأمن العسكرى من جانب الدول التى ترتبط معًا بروابط الجوار ، والثقافة ، والمصالح المشتركة . وهكذا تأسست جامعة الدول العربية (الجامعة العربية فى عام ١٩٤٥ كمنظمة فقط ، وذلك على الرغم من رفض القوى العظمى قبول التعريف «القوى» الذى قدّمته الجامعة العربية للنزعة الإقليمية . إذ كان هذا التعريف يصر على أن يكون موضوع الأمن شأن داخلى تمامًا للدول المشاركة فيه بدلاً من كونه خاضعًا للتدخل من قبل المجتمع الدولى الأكبر والأوسع نطاقًا . (ماكدونالد ١٩٦٥) . وبالإضافة إلى المنظمات الإقليمية ، تأسست أيضاً منظمات وظيفية وذات أغراض ومهام محددة مثل منظمة أوبك (OPEC) وذلك بهدف متابعة أهداف الدول الأعضاء وتحقيق مصالحها المشتركة (تيترول ١٩٨١) . وهنالك دور مهم لكل من المنظمات الإقليمية والمنظمات الوظيفية ، ألا وهو بناء الإجماع والعمل على تطوير مواقف مشتركة على أساس من الوعى بالمصالح المشتركة وعلى النحو الذى يكفى لتمكين الدول الأعضاء من أن تبقى متماسكة ومتلاحمة فى ظل أية ضغوط .

والحقيقة أن المنظمات الإقليمية والمنظمات الوظيفية فى الشرق الأوسط تعرض نقطة محورية أخرى بالنسبة إلى تحديد هوية الجماعة بالإضافة إلى تحديد هوية الدولة وأيضاً حركات معروفة مثل حركة القومية العربية وحركة الجامعة الإسلامية . وبخلاف هاتين الحركتين ، يمكن القول بأن المنظمات الإقليمية والوظيفية من صنع ونتاج الدولة . وقد ساعد انتشار هذه المنظمات المؤسساتية العملية للسيادة السلبية من خلال إضفاء الصبغة الشرعية على الاتفاقيات والهياكل التى كانت قائمة فيما بين

الدول وداخلها مقصورة على عضويتها . وفى الوقت ذاته فإن النزعة الإقليمية تعتبر قيداً على السيادة السلبية لما تفرضه عليها من مسئولية رسمية ، لاسيما فيما يتعلق بسياسات مخططة بشكل محدد وترتبط بعملية التنظيم التى تتجاوز النطاق القومى . ومع هذا ، فإن العديد من هذه المنظمات ، بما فيها معظم المنظمات القائمة فى الشرق الأوسط ، تتضمن قواعد اتخاذ القرار والتى تتطلب تحقيق الإجماع . وهذا من شأنه المحافظة على سلطة الدولة العضو فى استخدام حق الفيتو والاعتراض على سياسات لا تروق لها .

وتتضاءل القدرة على تعبئة الإجماع حول أى مشكلة فى الوقت الذى تتسع فيه العضوية أو هذه المشكلة . وقد تؤدى إضافة أعضاء جدد إلى دمج واتحاد دول تعد مصالحها الجوهرية هامشية بالنسبة إلى مصالح الدول المؤسسة . ولقد عجزت الجامعة العربية عن تحقيق أى تقدم فيما وراء المستوى المتدنى جداً للتكامل أو الاندماج الإقليمى بينما كانت تتسع وتنمو لتتجاوز الدول الخمس المؤسسة التى تربطها علاقات جوار وثيقة ، والتى كانت أربعة منها قومية ، وهذه الدول هى (مصر ، وسوريا ، ولبنان ، والعراق – إضافة إلى الدولة الخامسة المؤسسة وهى الأردن) ، حتى وصل عدد الدول الأعضاء إلى ما يربو على عشرين دولة تتوزع عبر قارتين ، ومن بينها عدة دول لكل منها تاريخه المختلف ، ونظامها الاقتصادى ، وثقافتها وسياستها . وتأثرت منظمة أوبك بنفس المشكلة . إذ إن كل دولة من الدول الخمس التى أسست أوبك ، وهى (فنزويلا ، وإيران ، والعراق ، والكويت ، والسعودية) قد كان لديها موارد بترولية ومالية ضخمة إلى الحد الذى يكفى لأن يكون لها تأثيرها القوى على الأسواق من خلال خفض أو زيادة الإنتاج أو فرض قيود على إنتاجها . وأدى انضمام منتجين صغار إلى منظمة أوبك ، مثل الجابون والإكوادور وكذلك دول تعانى من متاعب اقتصادية مثل نيجيريا ، أدى إلى الحيلولة دون اتخاذ أى إجراء بشأن فرض قيوذ على الإنتاج . وبدلاً من ذلك ، فإن الدول الأعضاء الجدد فى أوبك عمدت بالفعل إلى تصعيد الصراعات السياسية المزمنة فيما بينها ونقلها إلى داخل المنظمة (مكداش ١٩٧٢) . وكان المؤسسون على وعى بصراعات المصالح بينهم ، ومن ثم تبنوا ميثاقاً ينص على أن تستند قرارات أوبك على الإجماع لحماية أنفسهم . كما توصلوا إلى اتفاقات غير رسمية جعلت الأعضاء متحررين من الالتزام بالقرارات

الجماعية فى ظل ظروف معينة . (تيترول ٤٢ : ١٩٨١) . وقد أتاح هذان الإجراءان لأوبك مواصلة تحقيق مصالحها المشتركة دون إرغام الدول الأعضاء على الانحراف بعيداً عن مصالحها المستقلة .

وفى الوقت ذاته ، فإن تضاؤل المصالح والأهداف المشتركة بين أعضاء منظمة دولية معينة يمكن أن يعزى أيضاً إلى حدوث تغييرات فى حكومات ونظم الدول الأعضاء . وقد تأسست منظمة أوابك (OAPEC) فى عام ١٩٦٨ بهدف إعطاء مؤسسيها الثلاثة ، وهم ليبيا ، والكويت ، والسعودية ، قاعدة تنظيمية يمكن من خلالها مقاومة مطالب الدول العربية الراديكالية باستخدام «سلاح البترول» وبغض النظر عن أوضاعها المالية أو قدرتها على توفير الخدمات العامة لمواطنيها . بيد أنه عندما أطاحت مجموعة من الضباط بقيادة العقيد معمر القذافى بنظام الملك إدريس فى ليبيا، عمد النظام الليبى الجديد ، وبصورة مفاجئة ، إلى انتهاج نفس المسلك المتشدد الذى كانت أوابك ، ومنذ تأسيسها ، تسعى إلى تفاديه .

وأدت حساسية التماسك التنظيمى للحفاظ على تماثل وثيق بين المصالح الأساسية والأيديولوجية للدول الأعضاء إلى قيام مؤسسى مجلس التعاون الخليجى (الكويت ، والسعودية ، وقطر ، والبحرين ، والإمارات ، وسلطنة عمان) باستبعاد اليمن نظراً لأنها لم تكن تشترك مع الدول الأعضاء فى منطقة الخليج فى النظم المتطابقة ، والسياسات الداخلية ، والخارجية المتطابقة ، والأيديولوجيات المتماثلة ، والتطلعات المشتركة ، والمشكلات الإنسانية ، والاجتماعية ، والسياسية المتماثلة .

وقد تأسس مجلس التعاون الخليجى فى عام ١٩٨١ ليحل محل ترتيبات أمنية ثنائية والتى جرى استبدالها بنظام أمنى إقليمى ، وأيضاً لتعزيز التكامل الاقتصادى بين أعضائه . ومع الأخذ فى الاعتبار أن العراق كان طرفاً فى الحرب الإيرانية العراقية ، قرر مجلس التعاون الخليجى أيضاً استبعاد العراق من عضويته (بيترسون ١٩٨٨) .

وعلى الرغم من التكامل الاقتصادى بين دوله الأعضاء ، إلا أن الإجراءات الأمنية لمجلس التعاون الخليجى لم تكن كافية على الإطلاق . وكانت بعض هذه الإجراءات قاصرة من حيث مفهومها ، وذلك من قبيل السياسات السعودية الرامية

إلى إقامة نظام مركزى لسجلات أجهزة الشرطة ، والسماح لقوات الشرطة فى الدول الأعضاء بالعبور إلى حدود الدول الأخرى فى الحالات التى تستدعى مطاردة وتعقب المجرمين . وفى بعض الأحيان أخفق بعض الدول الأعضاء فى تنفيذ التزاماتها حيال مجلس التعاون الخليجى . إذ رفض الأعضاء فى المجلس كلهم مساعدة الكويت فى أعقاب تحريرها من الغزو العراقى ، وذلك عندما أشعلت القوات العراقية قبل انسحابها النار فى حقول النفط الكويتية ، واضطرت الكويت إلى أن تطلب اقتراض حوالى مليون برميل من البترول يومياً لتلبية متطلبات مصافى التكرير التابعة لها فى الخارج . وكان هذا الرفض بمثابة صفعة قوية لسياسات مجلس التعاون الخليجى لأن المجلس قد تبنى اتفاقية بشأن اقتسام النفط فى عام ١٩٨٧ والتى كان الهدف من توقيعها معالجة وسد النقص فى أى انخفاض قد يطرأ على الإنتاج من جانب الدول الأعضاء (تيترول ٤٧ : ١٩٩٥) . وهكذا فإنه حتى حينما كان الأعضاء المؤسسون يرون أنفسهم «متماثلين» ، فإن المنظمات الإقليمية فى الشرق الأوسط باتت فى وضع لا تقوى فيه على التغلب على ربط أعضائها بالسيادة السلبية .

خاتمة :

تتأثر العلاقات الدولية للشرق الأوسط تأثراً عميقًا بموروثات الإمبريالية ، وعلى الأخص استمرارية التدخل فى المنطقة من جانب قوى خارجية وأثار هذا التدخل على النظم المحلية . وتتسم هذه المنطقة بحكامها المستبدين ، الذين يساندهم ويدعمهم ، ما لم تنصبهم مواقعهم بالفعل ، دول أجنبية ، وأيضاً بعدم كفاءتها فى مضمار السياسة الخارجية أو الداخلية ، أو كلتيهما معًا . ولقد أقنع مثل هذا الموروث الإمبريالى كلاً من الحكام والسكان على حد سواء بأن جهودهم لتغيير مجريات الأمور والأوضاع إلى الأفضل تظل عرضة للمخاطر من جراء أهواء الدول المجاورة ومصالح القوى العالمية المهيمنة .

وثمة موروث إمبريالى آخر يتمثل فى وجود عجز فى قدرة الدولة وتنعكس بدورها فى الشرعية الهامشية للنظم المحلية . والواقع أن الافتقار إلى السيادة الإيجابية ، مقترناً بالروح القومية المناهضة للإمبريالية والتى انحطت فى الوقت الحاضر إلى الدرك الأسفل لتتحول إلى الشوفينية التى تتسم بالمغالاة فى الوطنية ، وإلى الزنوفوبيا، وهى ظاهرة الكراهية والعداء الشديدين للأجانب (سلامى ١٨ : ١٩٩٤) ، الواقع أن هذا أدى إلى أن يظل العديد من بلدان الشرق الأوسط أشباه دول والتى يعتمد وضعها اعتماداً تامًا تقريبًا على قوانين وقواعد السيادة السلبية. ولقد أخفقت الجهود والمحاولات المتكررة لخلق تحالفات إقليمية داخلية وخارجية قوية مثلما أخفقت مراراً من قبل . وأحد أسباب هذا الفشل يرجع إلى الظهور المبالغ فيه للسيادة الخارجية كمبدأ مفضل . وهذا يجعل الحكام المحليين غير مستعدين لتقديم أية حلول وسط حتى تتحول المشكلات إلى أزمات يمكن حلها فقط من خلال جهود جبارة . وحتى المنظمات مثل منظمة أوبك (OPEC) ، والتى تأسست أصلاً بهدف حماية النفط الذى يعد المورد الأساسى للمنطقة ، قد تعثرت مراراً من جراء رفض الدول الأعضاء طرح حلول وسط بشأن تسوية خلافاتها الفردية فى إطار المصلحة العامة للمنظمة (مكداشى ١٩٧٢ ، سكيت ١٩٨٨ ، تيترول ١٩٨٥) . وبدلاً من ذلك يعمد الزعماء المحليون إلى طرح تصورات بشأن مهام إقليمية وحتى دولية يتولون تنفيذها بأنفسهم ، الأمر الذى يخلق مبررات وأعذاراً لتدخل إقليمى محلى ، وفى أغلب الأحيان تدخل إقليمى خارجى أيضاً.

والحقيقة أن نهاية الإمبريالية الرسمية لم تضع حداً للاهتمام الخارجي بالشرق الأوسط أو للتدخل الخارجي فى شئونه . وتضيف الموارد الهيدروكربونية أهمية إلى القيمة الجيواستراتيجية لمنطقة الشرق الأوسط ، الأمر الذى يؤدى إلى المزيد من التدخل الإستراتيجي والاقتصادى المستمر من جانب القوى العظمى فى المصالح القومية لدول المنطقة أو إلى مواصلة المهام التاريخية الدولية لهذه القوى . ولاشك أن هذه المهام التاريخية ، وهى كسب الحرب الباردة ، شجع على خلق منافسات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى من أجل الفوز بعملاء شرق أوسطيين . وهذه المنافسات إضافة إلى ارتفاع العائدات النفطية لدول المنطقة ،أدت بدورها إلى احتدام التنافس على نقل الأسلحة من مختلف أنحاء العالم إلى الشرق الأوسط وإلى بؤر التوتر والصراع العديدة فيه . وقد خلّفت الحدود الداخلية للدول والتى رسمتها القوى الإمبريالية قبل رحيلها من المنطقة موروثات أخرى . ومن بين هذه الموروثات الصراعات القومية كما هو الحال بالنسبة إلى الصراع الإسرائيلى الفلسطينى ، والصراع فى كردستان ، ناهيك عن حروب أهلية وحركات تمرد لا حصر لها . وثمة صراعات أخرى تتضمن قنابل موقوتة فى شكل ثورات متكررة مثل تلك التى تفجرت بين العراق وجارتيه ، إيران والكويت . وقد اجتذبت هذه الصراعات التدخل الخارجى مراراً ، كما أنها قد أدت إلى اندلاع حروب داخل دول المنطقة وأخرى خارجها .

وكان إسدال الستار على الحرب الباردة إيذاناً ببدء حقبة إستراتيجية عالمية جديدة والتى كان أبرز ما يميزها حتى الآن انهيار وتفكك الإمبراطورية السوفيتية السابقة والإعلان فى الوقت نفسه عن ميلاد إمبراطورية صينية جديدة . وحتى الآن ، فإن انتشار الصراعات المحلية والناجمة عن زوال الإمبراطورية السوفيتية قد حال ، على ما يبدو ، دون التدخل العسكرى من الخارج فى أوروبا الشرقية ، وآسيا الوسطى ومناطق أخرى ، مثل الشرق الأوسط . وشجع إحياء الأمم المتحدة أثناء حرب الخليج الثانية زعماء العالم على وضع تصور بشأن نوع مختلف من التدخل ، أو بالأحرى ، تدخل يمكن أن توفر الأمم المتحدة من خلاله وسائل وطرق بديلة تشجع على حل الصراعات . وحيث تتضاءل فاعلية هذه الوسائل وتقل أهميتها ، فإنه يمكن تصور الأمم المتحدة كعضو قادر على توفير ضرب من التدخل المركز إلى حد كبير والمتمثل

فـى تشكيل قـوات لحـفـظ السـلام ذات مـهـام مـحـدودة ومـؤقـتـة مـن النواحـى الجغرافية والسياسية .

وهنالك عنصر آخر للتدخل وهو الشركات متعددة الجنسيات . فهذه الشركات التى غالبًا ما تعتبر فروعًا لحكوماتها المحلية والتى تعمل فى ظل العولمة ، تتبع سياسات خارجية تتفق ومصالحها ، وتتواءم أحياناً أو تتعارض فى أحيان أخرى مع المواقف المحددة للقادة السياسيين . وأحد الأمثلة على ذلك سياسة خط الأنابيب . فالإقبال على الاستثمار الخاص فى مشاريع تنمية النفط والغاز فى آسيا الوسطى قد أثار جدلاً فيما يتعلق بعدد وموقع خطوط الأنابيب المطلوب مدها لإيصال هذه الإمدادات الهيدروكربونية الجديدة إلى السوق . ولأسباب معظمها سياسية ، أيدت الولايات المتحدة بقوة إقامة خط أنابيب جديد يمر عبر الأراضى التركية ، بينما ، ولأسباب معظمها اقتصادية ، أبدت شركات النفط العالمية مثل شيفرون وموبيل اهتمامها باستكشاف تكاليف وفوائد إقامة خط أنابيب يمكن أن يمتد عبر إيران . والحقيقة أن المسئولين التنفيذيين فى شركات النفط ، إضافة إلى المراقبين الأكاديميين ، هم من أشد المدافعين عن إعادة دمج إيران فى المجتمع الدولى . إذ إن اهتمام هؤلاء وشغلهم الشاغل يتجاوزان المشكلة البسيطة المتعلقة بالمكان الذى يجب أن يقام فيه مثل هذا الخط لأنابيب النفط . ولدى المستثمرين اهتمامات ومصالح بالنسبة إلى الاستقرار طويل للمنطقة بأسرها . ويعتقد القليلون أنه لا يمكن تحقيق مثل هذا الاستقرار إذا ظلت إيران مهمشة . وتبعاً لذلك ، فإن الشركات الكبيرة التى لها مصالحها فى هذه المنطقة تضطلع بدور فعال فى محاولة ، ومن خلال التدخل فى السياسات الأمريكية، إنهاء العزلة النسبية حول إيران والتى فرضتها حكومة الولايات المتحدة .

وليس من المرجح أن ينتهى قريباً التدخل الإقليمى الخارجى فى منطقة الشرق الأوسط من جـانب القـوى العظمى ، والمنظمـات الدوليـة ، والقطاعـات الماليـة والاقتصادية . ومع هذا ، فإن التدخل لم يكن أحادى الجانب أو سلبى . ومن الممكن لأنماط الاستثمار المتغيرة ، مثل محفظة الاستثمار المباشر الكويتية فى أوروبا والولايات المتحدة ، أن تخلق شراكات قائمة على المصالح المتبادلة بدلاً من علاقات الاستغلال . وثمة اتجاه أخر يمكن أن يحقق منافع إيجابية للشرق الأوسط وهو ذلك

صورة رقم (٤ : ٥) زعماء العالم أثناء مشاركتهم فى مؤتمر مكافحة الإرهاب فى منتجع شرم الشيخ فى مصر ، وهم من اليسار إلى اليمين : ياسر عرفات ، بورس يلتسين ، حسنى مبارك ، بيل كلينتون ، شيمون بيريز ، الملك حسين .

الذى يتمثل فى العولمة بما لديها من قدرة على التوسع فى المنافع المشتركة للاستثمار والتنمية الاقتصادية عبر العديد من الدول . وفى الوقت نفسه ، وبرغم هذا ، فإن القضايا الإستراتيجية ، التى تتراوح من انتشار الأسلحة إلى الإرهاب وانتهاكات حقوق الإنسان والتى تعتبر انتهاكات فى شتى أرجاء المنطقة ، تقتضى التدخل المباشر من جانب الحكومات والمنظمات غير الحكومية الأجنبية فى السياسة الداخلية والسياسات الخارجية للدول التى تسلك نهج العنف بشكل خاص . والحقيقة أن البعض يجادل بأنه إذا انتهى التدخل الخارجى ، فإن النتيجة ستكون تفاقم الصراع الإقليمى نظراً لأن الضغوط الخارجية على الأطراف المتناحرة المحلية سوف تختفى . وإذا ما قُدِّر للتدخل الإستراتيجى أن يصبح مُعولماً فإن بوسعه أن يحد من علاقات التبعية

فى الشرق الأوسط . إذ إن تحويل التبعية إلى نوع من الاعتماد المتبادل من شأنه أن يعطى الجانبين نصيبًا من الرخاء المتبادل ، فى حين أن تحويل التبعية إلى نظم متعددة الجوانب للتعاون والرقابة من المرجح أن يؤدى إلى تقليل بعض أشكال العنف من خلال زيادة الاعتماد على الموارد المحلية لتلبية الاحتياجات الإستراتيجية.

ولا شك أن تعقد وتشابك كل هذه السيناريوهات يجسِّد حالة العجز المستمرة التى تواجه العديد من نظم الشرق الأوسط إزاء معالجة وإدارة الصراعات المحلية سلميًا . وقد تفاقمت المشكلة بدرجة أكبر فى ظل وجود محنة اقتصادية وما تمخض عنها من ازدياد أهمية الحركات الاجتماعية الدينية والتى ، وعلى الرغم من أنها قد أدت إلى تعاظم التنافس السياسى الداخلى ، إلا أنها قد جعلته أيضًا أكثر حدة . وحتى مع هذا كله ، فإن أى تناقص جوهرى فى الأشكال التقليدية للتدخل الخارجى سيكون موضع ترحيب . وما لم يحدث شيء آخر ، فمن المرجح أن يسمح تقليص مثل هذه العلاقات لشعوب الشرق الأوسط بالمضى قدماً فى مهمتها الأساسية الرامية إلى إيجاد سيادة إيجابية وتحولها إلى دول لديها القدرة على حماية ودعم سكانها ، والذين سيتولون بدورهم حماية ومساندة تلك الدول .

المصادر :

١- أحمد يوسف أحمد : «جدليات البيئة المحلية ودور الآراء : السياسة الخارجية العراقية» - ص ١٨٦ - ٢١٥ فى كتاب بهجت قرنى وعلى الدين هلال دسوقى - السياسات الخارجية للدول العربية : تحدى التغيير . الطبعة الثانية - بولدر - كولومبيا مطبعة ويستفيو - ١٩٩١ .

٢- ليلى أحمد : «النساء ونوع الجنس فى الإسلام» - نيوهافين - مطبعة جامعة بيل - ١٩٩٢ .

٣- جهانجير أموزيجار : « الثروة النفطية : نعمة مختلفة جداً» - مجلة الشئون الخارجية العدد ٨٣٥ - ٨١٤ - ١٩٨٢ .

٤- أرفين أندرسون : «أرامكو ، الولايات المتحدة والسعودية ، دراسة لديناميكيات السياسة النفطية الخارجية» ١٩٣٣ - ١٩٥٠ - برينستون - مطبعة جامعة برينستون - ١٩٨١ .

٥- فردريك أنسكومبى : «الخليج العثمانى : خلق الكويت ، والسعودية ، وقطر» - مطبعة جامعة كولومبيا - ١٩٩٧ .

٦- جورج أنطونيوس : «الصحوة العربية : قصة الحركة القومية العربية» - نيويورك - ج . ب. - ١٩٤٦ .

٧- حنان عشراوى : «هذا الجانب للسلام» - نيويورك - سيمون آند شوستر - ١٩٩٥ .

٨- عبد الرضا عسيرى : «السياسة الخارجية للكويت : الدولة المدينة فى عالم السياسة» - بولدر كولومبيا مطبعة ويستفيو - ١٩٩٠ .

٩- هنرى باركر : «السياسة الطبيعية للمجتمع الكردى» - مجلة التاريخ الحديث ٩٦ (يناير) ١ - ٥ - ١٩٩٧ .

١٠-جيمس بيل ، وروبرت سبرينجبورج : «السياسة فى الشرق الأوسط» - الطبعة الرابعة - نيويورك - هاربر كولينز - ١٩٩٤ .

١١-سيمون بروملى : «إعادة التفكير فى سياسة الشرق الأوسط» - أوستن - مطبعة جامعة تكساس - ١٩٩٤ .

١٢-جيمس كابوراسو : «الاعتماد ، التبعية والقوة فى النظام العالمى : تحليل هيكلى وسلوكى» - المنظمة الدولية - عدد ٣٢ - ١٩٧٨ .

١٣-أرخيبالد شيسهولم : «أول اتفاق امتياز نفطى كويتى : سجل المفاوضات» - ١٩١١ - ١٩٣٤ - لندن - فرانك كاس - ١٩٧٥ .

١٤-باتريك كلومن : «العلاقات الأمنية الأمريكية الخليجية : المشكلات السياسية والاقتصادية المتزايدة» - المنتدى الاستراتيجى (أغسطس) - ١٩٩٥ .

١٥-ووكر كونر : «القومية العرقية : محاولة للفهم» - وينستون - مطبعة جامعة برينستون - ١٩٩٤ .

١٦-جيل كريستال : «النفط والسياسة فى الخليج : حكام وتجار فى الكويت وقطر» - كمبريدج - مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٩٠ .

١٧-جون دانيلس : «رحلة الكويت» لوتون - المملكة المتحدة : مطبعة وايت كريسنت - ١٩٧١ .

١٨-بازل ديفيدسن : «عبء الرجل الأسود : أفريقيا ولعنة الدولة - الأمة» - نيويورك - راندوم هاوس - ١٩٩٢ .

١٩-كارين داويشن : «الاتحاد السوفيتى فى الشرق الأوسط : هل أصبح قوة عظمى أفل نجمها ؟» - مجلة الشئون الخارجية ٦١ العدد ٤٥٢ - ٤٣٨ - ٢٥ - ١٩٨٢ - ١٩٨٣ .

٢٠-على الدين هلال دسوقى : «النظام العالمى والسياسات الخارجية العربية أولوية القيود» ص ٢٥ - ٤٨ فى كتاب بهجت قرنى وعلى الدين هلال دسوقى : السياسات الخارجية للدول العربية : تحدى التغيير الطبعة الثانية - بولدر كولومبيا مطبعة ويستفيو - ١٩٩١ . أولوية الاقتصاد : السياسة الخارجية المصرية ص ١٥٦ - ١٨٥ فى كتاب بهجت قرنى وعلى الدين هلال دسوقى . السياسات الخارجية للدول العربية : تحدى التغيير - بولدر - مطبعة ويستفيو - ١٩٩١ .

٢١-إتش آر بى ديكسون : «الكويت وجاراتها» لندن - مطبعة جورج ألن وأنوين - ١٩٥٦ .

٢٢–مايكل دويل : «إمبراطوريات» – إيثيكا – مطبعة جامعة كورنيل – ١٩٨٦ .

٢٣–تيودور درابر : «خط رفيع جداً : فضيحة إيران كونترا» – نيويورك – تتشستون بوكس – ١٩٩١ .

٢٤–حسن على الإبراهيم : «الكويت : دراسة سياسية» – جامعة الكويت – ١٩٧٥ .

٢٥–ديفيد فرومكن : سلام ينهى كل السلام : انهيار الإمبراطورية العثمانية وقيام الشرق الأوسط – نيويورك – أفون بوكس – ١٩٨٩ .

٢٦–مارك جاسيو – ويسكى : «السياسة الخارجية والشاه : بناء دولة عملية فى إيران» – إيثيكا – مطبعة جامعة كورنيل – ١٩٩١ . فضيحة قرانى والسياسة الإيرانية – المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ٢٥ – العدد ٦٤٤ – ٦٢٥ – ٤ – ١٩٩٣.

٢٧–جريجورى كدس : «مملكات البترول : التحديات الأمنية والداخلية فى دول الخليج العربية» – نيويورك – مجلس العلاقات الخارجية – ١٩٩٤ .

٢٨–ديبورا جيرنر : «الفلسطينيون ، الإسرائيليون ، والانتفاضة : السنة الثالثة وما بعدها» – دورية الدراسات العربية – الأعداد ٤ – ٣ : ٦٠ – ١٩ – ١٩٩١ .
«أرض واحدة ، وشعبان : الصراع حول فلسطين» – الطبعة الثانية – بولدر – مطبعة ويستفيو – ١٩٩٤ .
«أرض واحدة ، وشعبان : الصراع حول فلسطين» – الطبعة الثانية – بولدر – ويستفيو – ١٩٩٤ .

٢٩–شفيق جبرة : «فلسطينيون فى الكويت : الأسرة المالكة وسياسة البقاء» – بولدر – كولومبيا – مطبعة ويستفيو – ١٩٨٧ .

٣٠–بول هولوود وستيوارت سنكلير : «النفط ، والديون ، والتنمية : أوبك فى العالم الثالث» – لندن – جورج ألن وأونيون – ١٩٨٢ .

٣١–ألبا حريك : «أصول نظام الدولة العربية» ص ٢٨ – ١ فى كتاب جياكومو لوسيانى «الدولة العربية» – بيركلى – مطبعة جامعة كاليفورنيا – ١٩٩٠ .

٣٢-ديريك هوبوود : «مصر : السياسة والمجتمع ١٩٨٤ - ١٩٤٥» - الطبعة الثانية - بوسطن ، أونوين هايمان - ١٩٨٥ .

«سوريا : السياسة والمجتمع ١٩٨٦ - ١٩٤٥» بوسطن - أونوين هايمان ١٩٨٨ .

٣٣-مايكل هدسون : «السياسة العربية : البحث عن الشرعية» - نيوهافن - مطبعة جامعة ييل - ١٩٩٧ .

٣٤-روبرت هنتر : «الانتفاضة الفلسطينية : حرب من نوع آخر» طبعة منقحة ومعدلة - بيركلى - مطبعة جامعة كاليفورنيا - ١٩٩٣ .

٣٥-شيرين هنتر : «الأزمة الاقتصادية الخليجية ونتائجها الاجتماعية والسياسية» - ميدل *يست جورنال ٤٠ - العدد ٤ (الخريف) ٥٩٣ - ٦١٣ - ١٩٨٦ .

٣٦-سعد الدين إبراهيم «الآثار السلبية لاختلاف الدخل بين الدول العربية على التنمية فى الدول ذات الدخل المنخفض للفرد : دراسة حالة عن مصر» فى منظمة الدول المصدرة للبترول ، مصادر ومشكلات التنمية العربية الكويت - أوبك - ١٩٨٠.

٣٧-روبرت جاكسون : «أشباه الدول : السيادة العلاقات الدولية والعالم الثالث» - كمبريدج - مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٩٠ .

٣٨-فلز الدين كعكى : «البرلمان الكردى» ص ١١٨ - ١٣٣ فى كتاب فران هازلتون «العراق منذ حرب الخليج : احتمالات الديمقراطية» - لندن - زيد بوكس - ١٩٩٤.

٣٩-بورتون كاوفمان : «حالة الكارتيل النفطى : دراسة وثائقية للنشاط المضاد للاحتكار فى حقبة ما بعد الحرب الباردة» - ويستبورت كونيكتيكت - مطبعة جرينوود - ١٩٧٨ .

٤٠- عصام الخفجى : «إرهاب الدولة واضمحلال السياسة» - من ٢٠ - ٣١ فى كتاب فران هازلتون «العراق منذ حرب الخليج : احتمالات الديمقراطية» - لندن - زيد بوكس - ١٩٩٤ .

«الحرب كأداة لصعود وهبوط مجتمع تسيطر عليه الدولة» دراسة حالة عن النظام البعثى فى العراق - أمستردام ميدل إيست بيبرز العدد ٤ (ديسمبر) - ١٩٩٥ .

٤١- هنرى كيسنجر : «سنوات البيض الأبيض» - بوسطن - ليتل براون - ١٩٧٩ .

٤٢- بهجت قرنى : «الدفاع عن العقيدة فى خضم التغيير : السياسة الخارجية السعودية» من ٣١٠ - ٣٣٥ فى كتاب بهجت قرنى وعلى الدين هلال دسوقى - بولدر كولومبيا - مطبعة ويستيفو - ١٩٩١ .

٤٣- فريد لوسون : «التكامل الحتمى وعملية التعاون الخليجى» فى كتاب كينيت توماس ومارى آن تيترول : السياحة إلى الإقليمية : الدول الديمقراطية والرأسمالية وإعادة بناء عالم ما بعد الحرب الباردة - بولدر كولومبيا - لين رينر - ٢٠٠٠ .

٤٤- رونالد لوسمان : «المقاطعة العربية لإسرائيل» المحلية الدولية لدراسات الشرق الأوسط ٣ (أبريل) - ٩٩ - ١١٥- ١٩٧٢ .

٤٥- تيموث ليوك : «التنمية التابعة ودول أوبك العربية» الدورية السياسية ٤٥ - العدد ١٠٠٣ - ٩٧٩ - ٠٤ ١٩٧٢

«التنمية التابعة ودول أوبك : تكوين الدولة فى السعودية وإيران فى ظل نظام الطاقة الدولى» دراسات فى التنمية الدولية المقارنة ٢٠ - العدد ٥٤ - ٣١ - ١ - ١٩٨٥ .

٤٦- روبرت ماكدونالد «جامعة الدول العربية : دراسة فى ديناميكا التنظيم الإقليمى» - برينستون - مطبعة جامعة برينستون - ١٩٦٥ .

٤٧- كنعان مكية : «القسوة والصمت : الحرب ، والاستبداد ، الثورة ، والعالم العربى» نيويورك - نورتون - ١٩٩٣ .

«سياسة الخيانة» - نيويورك ريفيو أوف بوكس - (١٧ أكتوبر) ١٢-٨-١٩٩٦

٤٨-رانيا مكتبى : «تكوين الدولة والمواطنة فى لبنان : سياسة الضم والاستبعاد فى دولة طائفية» ، بحث مقدم إلى مؤتمر حول المواطنة والدولة فى الشرق الأوسط - أوسلو - النرويج - ١٩٩٦ .

٤٩- بهيبى مار : «تاريخ العراق الحديث» - بولدر - كولومبيا - مطبعة جامعة ويستفيو - ١٩٩٨٥

٥٠- جافيين ماكسويل : «لوردات الأطلس» لندن - سنشرى للنشر - ١٩٨٣ .

٥١- ديفيد ماكدويل : «التاريخ الحديث للأكراد» لندن - أى بى - تاورس - ١٩٩٦ .

٥٢- بيليفا ملكوميان : «السياسة السوفيتية وأزمة الخليج» - من ٩١-٧٦ فى كتاب إبراهيم «أزمة الخليج : الخلفية والنتائج» - واشنطن دى سى - مركز الدراسات العربية المعاصرة ١٩٩٢

٥٣-فاتيما مرنيس : «الإسلام والديمقراطية : الخوف من العالم الحديث» - ترجمة مارى جو ليكلاند - ريدينج ماساشوسيتس أديسون ويزلى - ١٩٩٢ .

٥٤-جويل ميجدال : «المجتمعات القوية والدول الضعيفة : العلاقات بين الدول والمجتمعات وقدرات الدول فى العالم الثالث» - برينستون مطبعة جامعة برينستون - ١٩٨٨

٥٥- زهير مكداشى : «مجتمع الدول المصدرة للنفط» - إيثاكا- مطبعة جامعة كورنيل - ١٩٧٢

٥٦- بينى موريس : «ميلاد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين» ١٩٤٧ - ١٩٤٩ - كمبريدج - دالاس مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٨٩

٥٧- ليونارد موسلى : «السيرة الذاتية لاليانور ألين ، وجون فوستر دلاس وعلاقاتها الأسرية» - نيويورك - دايل برس - ١٩٧٨

٥٨- دانيال بارترك موينيهان : «بانديمونيوم : العرقية فى السياسة الدولية» - نيويورك - مطبعة جامعة أكسفورد - ١٩٩٣

٥٩- حسن خلدون النقيب : «المجتمع والدولة فى الخليج وشبه الجزيرة العربية : منظور مختلف» - ترجمة أل . م كينى - لندن - روتليدج - ١٩٩٠

٦٠-جمال عبد الناصر : «تحرير مصر : فلسفة الثورة» واشنطن دى سى - مطبعة الشئون العامة - ١٩٥٥

٦١–تيم نيلوك : «السياسات العراقية تجاه دول الخليج العربية : ١٩٨١ – ١٩٥٨»، – من ١٤٩ – ١٢٥ فى كتاب تيم نيلوك العراق : الدولة المعاصرة – نيويورك، – مطبعة سان مارتن – ١٩٨٢

٦٢–جوناثان نيتسان وشمشون بيشلر : «إعادة تراكم رأس المال : تحالف دولارات النفط ودولارات الأسلحة : المقاولين العسكريين ، وشركات النفط ، وصراعات الطاقة فى الشرق الأوسط» – عملية الاقتصاد السياسى الدولى – ٢ – العدد ٥١٥ – ٤٤٦ – ٣– ١٩٩٥

٦٣–أديث بنروز : «الشركة الدولية الكبيرة فى الدول النامية : الصناعة البترولية الدولية» – كمبريدج – مطبعة إم أى تى – ١٩٦٨

٦٤–دون بيرتيز : «الانتفاضة : الثورة الفلسطينية» – بولدر – كولومبيا – مطبعة ويستفيو – ١٩٩٠

٦٥–إيريك بيترسون : «مجلس التعاون الخليجى» – بولدر – كولومبيا – مطبعة ويستفيو – ١٩٨٨ ٦٦– كارل بولانى : التحول العظيم – نيويورك – مارار ورنيهارت – ١٩٤٤

٦٧–وليام كوانت : «السعودية فى الثمانينيات» واشنطن دى سى – معهد بروكينجز – ١٩٨١ .

٦٨–كريستوفر – آلند : «جعل الديمقراطية آمنة للبترول» – بوسطن ليتل براون – ١٩٧٥

٦٩–آلان روش : «الصباح : تاريخ الأسرة الحاكمة فى الكويت ١٧٥٢ – ١٩٨٧»، – لندن مطبعة إيثاكا – ١٩٨٧

٧٠–إدوارد سعيد : «الثقافة والإمبريالية» – نيويورك – السويد أ. نويف – ١٩٩٣

٧١–غسان سلامه : «الدول القوية والضعيفة : عودة مؤهلة إلى المقدمة» من ٦٤– ٢٩ فى كتاب جياكومو لوسيانى «الدولة العربية» أوستن – مطبعة جامعة تكساس.

«ديمقراطية بلا ديمقراطية ؟» - تجديد السياسة فى العالم الإسلامى - لندن - ل ب توريس - ١٩٩٤

٧٢-أنتونى سامبسون : «الشقيقات السبع : شركات النفط الكبرى والعالم الذى شكلته» - نيويورك - مطبعة فايكنج - ١٩٧٥

٧٣-فاروق سنكرى : شخصية وتأثير المقاطعات النفطية العربيةً من ٢٦٥ - ٢٧٨ فى كتاب نعيم أشربينى ومارك . أ ، تيسلر «لنفط العربى : تأثيره على الدول العربية ومضامينه الدولية» - نيويورك - برايجر - ١٩٧٦

٧٤-إيلين سيسيوليزه : «الدولة الخارجة على القانون : سعى صدام حسين للسلطة وأزمة الخليج» نيويورك - جون ويلى آند هنز - ١٩٩١

٧٥-باتريك سيل : «الأسد : الصراع على الشرق الأوسط» لندن - ,٥ب توريس - ١٩٨٨ .

٧٦-حسين الشهرستانى : «قمع وبقاء الشيعة فى العراق» من ١٣٤ - ١٤٠ فى كتاب فران مازلتون «العراق منذ حرب الخليج : احتمالات الديمقراطية» - لندن زيدبوكس - ١٩٩٤

٧٧-بنجامين شودران : «الشرق الأوسط : النفط والقوى العظمى» - نيويورك - برايجر - ١٩٩٥

٧٨- أيان سكيت : «أوبك : ٢٥ عاماً من تقلبات الأسعار والسياسات» - كمبريدج - مطبعة كمبريدج - ١٩٨٨

٧٩-أنتونى سميث : «الهوية الوطنية» رينو - مطبعة جامعة نيفادا - ١٩٩١

٨٠-جان إدوارد سميث : «حرب جورج بوش» نيويورك - هنرى صولت - ١٩٩٢

٨١-روبرت ستيفنز : «الحدود العربية الجديدة» لندن - تمبل سميث - ١٩٧٦

٨٢-مارى آن تيترول : «منظمة الدول العربية المصدرة للبترول : تاريخ ، سياسات، واحتمالات» ويستبورت كونيكتكيت - جامعة جرينوور - ١٩٨١

- «ثورة فى عالم سوق البترول» - ويستبورت كونكتيكت - مطبعة كورم بوكس - ١٩٨٥

- «الحكم الذاتى ، الضرورة والدول الصغيرة : حكم الكويت فى القرن العشرين»
- مجلة المنظمات الدولية ٤٥- العدد ٥٩١ - ٥٦٥ - ١٩٩١
- «الاستقلال السيادة ، والمجد : النفط والسياسة فى حرب الخليج الثانية» - أوريانت ٣٤ العدد ١٠٣ - ٨٧ : ١- ١٩٩٣
- «النتائج السياسية لإعادة هيكلة النظم الاقتصادية : مؤسسة البترول الكويتية» - الألفية ٢٦ العدد ٤٠١ - ٣٧٩-٣ : ٢ - ١٩٩٧

٨٣- ويبر ستشيا : «محاكاة السيادة : التدخل ، الدولة والتبادل الرمزى» - نيويورك - مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٩٥

٨٤-ماكس ويبر : «الاقتصاد والمجتمع» - طبعة جونيتر روث وكلاوس ويتش - بيركى - مطبعة جامعة كاليفورنيا - ١٩٧٨

٨٥- ريتشارد فايسبيرج : «سياسة تسعير النفط الخام فى الشرق الأوسط ١٩٧٠ - ١٩٧٥» - بيركلى - مطبعة جامعة كاليفورنيا - ١٩٧٧

٨٦- إيريك ولف : «أوروبا وشعب بلا تاريخ» - بيركلى - مطبعة جامعة كاليفورنيا - ١٩٨٢

٨٧- بيا كريستينا وود : «فرنسا والصراع الإسرائيلى - الفلسطينى : سياسات ميتران» - ميدل إيست جورنال ٤٧ العدد ٤٠ - ٢١ : ١- ١٩٩٣

٨٨- وليام زرتمان و أ. ج كلوجر : «سياسة بطولية : السياسة الخارجية لليبيا» من ٢٥٩ - ١٣٦ فى كتاب بهجت قرنى وعلى الدين هلال دسوقى - «السياسات الخارجية للدول العربية : تحدى التغيير» - بولدر - كولومبيا - مطبعة ويستفيو - ١٩٩١

- ٦ -

الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى

سيمونا شارونى ومحمد أبو نمر

ليس ثمة شك فى أن الصراع العربى - الإسرائيلى ، ولا سيما البُعد الإسرائيلى الفلسطينى ، قد كان فى قلب السياسة الشرق أوسطية فى القرن العشرين . والحقيقة أن الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى يوفر فرصة فريدة من نوعها لدراسة وبحث مجموعة من الأفكار والمفاهيم التى لها أهميتها فى فهم السياسة الشرق أوسطية والسياسة الدولية بوجه عام . وتتضمن هذه المفاهيم الهوية القومية وحق تقرير المصير ، والمشاكل الأمنية ، ودور الدين ، والأهمية المتزايدة للاعبين الرئيسيين الذين لا يمثلون الدول أو الحكومات الرسمية ، أو العجز النسبى للقانون الدولى وللمنظمات الدولية مثل الأمم المتحدة (UN) فى التعامل مع الصراعات المعقدة ، وتورط القوى الكبرى فى هذه الصراعات ، و العولمة والاعتمادية المتبادلة الاقتصادية ، وأشكال حل الصراع التى تعتمد على العنف أو اللاعنف . ومع افتراض الأهمية النظرية والسياسية لهذه القضايا، فإنه ليس من المثير للدهشة أو المفاجأة أن يكون الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى من بين أكثر الموضوعات التى تحظى بأكبر قدر من الأهمية لدى المؤسسات البحثية والأكاديمية وأيضاً فى مجال الدراسات التطبيقية والعملية . كما يحظى هذا الصراع بتغطية واسعة بصورة منتظمة لدى وسائل الإعلام . ومع هذا ، وعلى الرغم من هذا الكم الهائل المتزايد للروايات المختلفة التى تنقلها وسائل الإعلام عن الصراع ، إلا أن العديد من الأشخاص لا يزالون ينظرون إليه من منظور مبسط وينطوى على بعد واحد، أو من منظور آخر وباعتباره صراعًا معقداً وذى أبعاد مختلفة بحيث يتعذر على الأشخاص العاديين إدراكها واستيعابها .

واستناداً إلى ما سبق ، فقد خصصنا هذا الفصل لتقديم إطار لفهم طبيعة الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى واحتمالات حله . وفى هذا الإطار ، فإننا نعتمد بصورة مكثفة

على الصورة الأدبية الموسعة لمثل هذا الصراع داخل مجالات متنوعة ومختلفة للدراسة، ومن ثم ، فإن تحليلنا يتسم بأنه متنوع ومتداخل فى مجاله ، وبأنه راسخ ومتأصل أيضاً فى مضمار تدريبنا الميدانى فى حل الصراع . ولعل من الأمور الفريدة التى يتميز بها هذا الفصل أيضاً حقيقة أنه شارك فى كتابته باحثان من الباحثين المتخصصين فى حل الصراعات : الأول إسرائيلى يهودى ، والثانى فلسطينى يحمل الجنسية الإسرائيلية . وناهيك عما قدمنا من خبرة أكاديمية ، فإننا قد عكفنا على لعب دور نشط فى غضون الخمسة عشر عامًا الماضية حيث شاركنا بفاعلية فى تلك المحاولات الرامية إلى تحقيق حل عادل ودائم للصراع .

وفى أغلب الأحوال ، فإن التفسيرات والروايات التى قدمتها وسائل الإعلام وكذا المؤسسات البحثية والمعاهد الأكاديمية المهتمة بمعالجة الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى قد سقطت كلها فى شرك التماثل الزائف والخادع . وبطريقة مماثلة ، نجد أنه قد جرى تقديم الصراع باعتباره صراعاً ممتداً بين حركتين قوميتين لديهما مطالبهما المتعارضة حول ذات المساحة من الأراضى . والحقيقة أن مثل هذا التفسير من شأنه أن يؤدى إلى حدوث نوع من الارتباك والغموض فى علاقات الصراع غير المتكافئ بين الإسرائيليين اليهود والفلسطينيين ، سواء فى الماضى أم فى الوقت الحاضر . وعلى سبيل المثال ، قلما يعترف أحد بأن قيام دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ ، والذى أكد على التطلعات والآمال القومية لليهود ، قد جاء على حساب الفلسطينيين ، والذين لم تتحقق حتى الآن رغباتهم وطموحاتهم بشأن تقرير المصير والسيادة على أراضيهم (نخلة زريق ١٩٨٠ ، سعيد ١٩٨٠ ، أبو لغد ١٩٨٢ ، كويجلى ١٩٩٠ ، أرورى ١٩٩٥) . وهنا نود أن نؤكد بداية على أننا لا نهدف إلى تمجيد طرف أو الانحياز له على حساب الطرف الآخر . والأحرى أننا نفعل ذلك لأننا نعتقد أن الحل الناجح لهذا الصراع يعتمد إلى حد كبير على الاعتراف بوجود مثل هذه التباينات والاختلافات الأساسية وكذا القدرة على خلق إطار عمل يمكن من خلاله تحويل علاقات القوة هذه .

ولتحقيق هذه الغاية ، فإننا نعتمد على كل من أدبيات حل الصراع وعلى خبرتنا وحقيقة أن المنطقة مألوفة لنا حتى نتمكن من إظهار واستجلاء تعقد هذا الصراع وتشابكه وتسليط الضوء على السبل الممكنة لحله . وكما هو الحال بالنسبة إلى أى

صراع آخر ، يجب أن يبدأ التحليل الشامل بعملية فحص ودراسة حذرة ومتأنية للأطراف المعنية المشاركة فى الصراع وأيضًا دراسة نقاط التحول التاريخية التى كانت تميز تصاعد هذا الصراع المحتدم تارة وتباطؤه تارة أخرى . ومع الأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن التاريخ بوجه عام والأحداث التاريخية بوجه عام والأحداث التاريخية للصراعات الطويلة بوجه خاص لا تكون بسيطة أو موضوعية أبدًا وأنها تعكس دائمًا مواقف سياسية محددة ، فإننا اخترنا أن يبدأ تحليلنا بوصف لأطراف الصراع فى محاولة لتوفير سياق يمكن من خلاله أن نفهم التفسيرات المتعارضة والمتناقضة لكل منها للتاريخ وأحداثه . وبعد المراجعة الشاملة لنقاط التحول الرئيسية والديناميكيات الحاسمة فى مختلف المراحل التاريخية لهذا الصراع ، سوف نتطرق إلى حيث القضايا الجوهرية ونقاط الخلاف . وأخيراً ، سنقدم إطار عمل لدراسة المحاولات السابقة والحالية لحل الصراع ولتحديد الشروط والعمليات التى نعتبرها ضرورية لتحقيق حل عادل ودائم .

الأطراف : شعبان – الفلسطينيون واليهود الإسرائيليون :

لا شك أن الصراع فى المنطقة قد شكل حياة ما لا يقل عن ثلاثة أجيال من الإسرائيليين والفلسطينيين . إذ إن الصراع العربى – الإسرائيلى ، ولا سيما البعد الإسرائيلى – الفلسطينى منه ، قد يعد دوراً محورياً ليس فقط فى الحياة اليومية لشعوب منطقة الشرق الأوسط كلها ، بل أيضًا فى حياة الفلسطينيين واليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل والأراضى المحتلة ، والذين يرى العديد منهم أن وجودهم بات جزءاً لا يتجزأ من التطورات السياسية التى تشهدها المنطقة (كيلمان ١٩٨٢ ، سيجال ١٩٨٩ ، هيلر ونسيبه ١٩٩١ ، روثمان ١٩٩٢ ، جيرز ١٩٩٤ ، تيسلر ١٩٩٤) . ومع هذا تميل العديد من الروايات البحثية والإعلامية إلى تجاهل وإغفال هذه الحقيقة ، فنجدها تفترض مسبقًا وجود طرفين مترابطين ومتلازمين متورطين فى الصراع . وهنالك اهتمام ضئيل أو ، بالأحرى ، عدم الاهتمام الذى ينبغى أن يخصص لتركيبة الأطراف ذاتها ، وهو ما يعنى الاهتمام بالاختلافات والفوارق ليس بين الكيانات والمجتمعات الفلسطينية واليهودية – الإسرائيلية فحسب ، بل أيضاً داخل هذه الكيانات والتجمعات الفلسطينية اليهودية – الإسرائيلية.

إن فهم طبيعة الصراع الإسرائيلى – الفلسطينى يقتضى منا القيام بتحليل أكثر تعقيداً للأطراف المشاركة فى هذا الصراع . ومثل هذا التحليل لابد وأن يتعامل مع تلك الأطراف باعتبارها متنوعة ومتباينة ، وفى الغالب باعتبارها مجتمعات مفتتة ومجزأة ، ومن ثم ينبغى أن نضع فى الحسبان كيف تحدد هذه الأطراف هويتها وكيف يراها الآخرون . ومع ذلك ، فإنه من المهم ملاحظة أن المعانى المرتبطة بأفكار ومفاهيم معنية للهوية والتركيبة المجتمعية تتغير بمرور الزمن . وهكذا ، فإن الدراسة المتأنية للمجتمعات الفلسطينية واليهودية – الإسرائيلية يجب أن تبرز وتؤكد على التغييرات التى تطرأ على تركيبة تلك المجتمعات ، وصورتها الذاتية ، وأفكارها ومفاهيمها عن بعضها وتفاعلاتها كل منها حيال الآخر ، (كيمرلينج وميجدال ١٩٩٣ ، شارونى ١٩٩٥) .

والحقيقة أن الصراع الإسرائيلى الفلسطينى قد لعب دوراً رئيسياً فى تشكيل الهويات الجماعية للفلسطينيين واليهود ، وعلى نحو يشير إلى التناقض المباشر بين الطرفين ، وذلك إلى حد أنه حتى وقت قريب كان كل طرف يعمد إلى إنكار شرعية هوية الطرف الآخر ومحض دعاويه ومطالبه فى هذا الصدد (كيلمان ١٩٨٢ ، موسى ١٩٩٠ ، فولكان ١٩٩٠) . والواقع أن مصطلح «الفلسطينيين» ومصطلح «الإسرائيليين» والذين يستخدمان فى الوقت الحاضر لوصف الصراع من خلال الروايات والتفسيرات البحثية والإعلامية ، كانا بحد ذاتهما متعارضين ومتناقضين يوماً ما . والحقيقة أنه حتى منتصف السبعينيات ، نجد أن العديد من اليهود فى إسرائيل وفى مناطق أخرى، وكذلك عدداً لا حصر له من السياسيين ، والباحثين ، والمحللين الإعلاميين فى أنحاء العالم ، لم يستخدموا مصطلح الفلسطينيين ، متعمدين من وراء ذلك تجاهل الاعتراف بحقوق الفلسطينيين فى تقرير المصير والسيادة على أراضيهم (حجار وبنيين ١٩٩٠ ، كيمرلينج وميجدال ١٩٩٣) . ومنذ الثمانينيات فقط ، كان قد تم إدخال هذا المصطلح وإدماجه ضمن المسار الرئيسى للصراع ، بل وقد جرى استخدامه بشكل خاص (بما فى ذلك داخل إسرائيل ذاتها) فى كل من المراجع البحثية والشعبية للصراع . وقد حدث اتجاه مماثل فى الأعوام الماضية ، وذلك فى أعقاب التوقيع على اتفاقيات أوسلو وتأسيس السلطة الوطنية الفلسطينية (PNA) ، حيث أخذ مصطلح «فلسطين» يحل تدريجياً محل صيغ أخرى مثل «الأراضى» و «الضفة الغربية» و «قطاع غزة» (آشر ١٩٩٥ ، سليمان ١٩٩٥) .

فى الوقت نفسه ، نجد أن الاستخدام المكثف لمصطلح «الإسرائيليين» يعتبر هو الآخر جديداً ، حيث يرجع إلى تاريخ تأسيس دولة إسرائيل فى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ ، وذلك عندما استبدل الإطار المرجعى لمصطلح «اليهود» بمصطلح «الإسرائيليين» ، ورغم أن شرائح كبيرة من المجتمع الدولى سارعت إلى تبنى هذا المصطلح الجديد ، إلا أنه حتى التسعينيات نجد أن الدول العربية ومعها حفنة من المتعاطفين مع القضية الفلسطينية ، من بينها عدة حركات للتحرر الوطنى ، قد تحاشت استخدام مصطلح «الإسرائيليين» لتستبدل به مصطلح «اليهود» أو «الصهاينة» .

ويوضح الاستخدام الشائع لمصطلحى «الفلسطينيين» و «الإسرائيليين» وجهة نظر مفادها أن الصراع الإسرائيلى – الفلسطينى يعتبر أولاً وأخيراً صراع يصعب حله وهو ممتد بين حركتين قوميتين تدعى كل منهما الحق فى ملكية قطعة واحدة من الأرض. وعلاوة على ذلك ، فإن القبول التدريجى والتطبيع لهذه الشروط يشير إلى ما هو أكثر من مجرد تحول له دلالته ، إذ إنه يشير إلى اعتراف متزايد بشرعية مطالب الهوية لدى الطرفين ويفتح المجال أمام إعادة صياغة لهذه المطالب وعلى النحو الذى لا يعتبر قاصراً على طرف دون الآخر (فيرنيا وهوكنج ١٩٩٢)

الفلسطينيون :

يشير مصطلح الفلسطينيين إلى العرب من المسلمين والمسيحيين والدروز الذين كانوا قد عاشوا فى فلسطين قروناً طويلة . ويقدر عدد الفلسطينيين فى أنحاء العالم بأكثر من خمسة ملايين نسمة وهم ينقسمون عادة إلى ثلاث مجموعات رئيسية : الفلسطينيون الذين يعيشون فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، والفلسطينيون الذين يعيشون داخل حدود ما قبل حرب ١٩٦٧ فى إسرائيل ، والفلسطينيون فى الشتات والمجموعة الأخيرة من الفلسطينيين تعتبر نتيجة مباشرة لقيام دولة إسرائيل ، والذى أدى إلى تدمير المجتمع العربى الفلسطينى ، الأمر الذى تسبب فى تشتيت الفلسطينيين وتفريقهم وإرغام العديد منهم على العيش إما فى المنفى أو كلاجئين وهنالك ما يقرب من ٧٠ فى المائة من السكان الفلسطينيين فى الضفة الغربية و ١٥ فى المائة من سكان قطاع غزة قد عاشوا فى مخيمات للاجئين منذ عام ١٩٤٨ (حجار وبنيين ١٩٩٠) ، (سعيد وآخرون ١٩٩٠) . والحقيقة أن تجربة التشرد وسياق مدة الكفاح الوطنى من أجل التحرر ساهما إلى حد كبير فى تسييس كافة قطاعات المجتمع

الفلسطينى . وقد اضطلعت منظمة التحرير الفلسطينية (PLO) بدور رئيسى فى عملية تسييس الفلسطينيين وفى ترسيخ الشعور بالهوية الفلسطينية الجماعية (كوبان ١٩٨٤ ، نصار ١٩٩١ ، كيمرلينج وميجدال ١٩٩٣) . وتأسست منظمة التحرير الفلسطينية من خلال جامعة الدول العربية فى عام ١٩٦٤ ، بيد أنها سرعان ما حصلت تدريجياً على قدر كبير من الاستقلال مع اعتراف الأنظمة العربية بها فأخذت تعمل كمنظمة سرية تنضوى تحت لوائها مختلف الفصائل السياسية الفلسطينية وإن يكن فى ظل توجهات أيديولوجية واستراتيجيات عمل متباينة . وتتضمن الفصائل الرئيسية داخل منظمة التحرير الفلسطينية حركة فتح ، أكبر هذه الفصائل والتى يرأسها ياسر عرفات ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (PFLP) ، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين (DFLP) ، والحزب الشيوعى الفلسطينى (PCP) ، وعلى الرغم من الخلافات بين كل هذه الفصائل السياسية ، فإن معظم الفلسطينيين قد اعتبروا منظمة التحرير الفلسطينية، ومنذ زمن طويل ممثلهم الشرعى الوحيد (كوبان ١٩٨٤ ، نصار ١٩٩١) .

ولا شك أن عملية التحليل الدقيق للروح الجماعية الفلسطينية ينبغى أن تولى قدراً كبيراً من الاهتمام للتركيبة الاجتماعية ، والاقتصادية ، والدينية للمجتمع الفلسطينى وللخلافات السياسية أيضاً . فبالنسبة إلى الفلسطينيين المقيمين فى الضفة الغربية وقطاع غزة وفى إسرائيل ، فإن مكان الإقامة غالبًا ما يعكس وضعهم الاقتصادى والاجتماعى . ويقيم الفلسطينيون ممن ينتمون إلى الطبقة العاملة فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، والذين عملوا حتى وقت قريب فى إسرائيل ، يقيمون فى مخيمات للاجئين وفى القرى . وهذه القرى يقيم بها أيضاً الفلاحون ، فى حين أن الفلسطينيين من الصفوة والطبقة البرجوازية الصغيرة ، والتى تتألف من التجار والمهنيين وغيرهم يمكن أن نجدهم غالبًا فى المناطق الحضرية (هلترمان ١٩٩٠) . وثمة مجال اجتماعى مهم آخر تأثر بالتصنيف الاجتماعى الطبقى وهو التعليم . إذ إن التجربة التعليمية للفلسطينيين تعتبر متفاوتة ومتباينة اعتماداً على الموقع الجغرافى وأيضاً على السياق السياسى والتاريخى. فعلى سبيل المثال ، خلال الثورة الفلسطينية ، المعروفة باسم الانتفاضة كانت إمكانية حصول الفلسطينيين على التعليم فى الضفة الغربية وقطاع غزة محدودة ومقيدة بسبب عمليات الإغلاق واسعة النطاق للمؤسسات التعليمية من جانب الجيش الإسرائيلى وأيضاً من جراء عمليات الاعتقال ، والسجن أو

الطرد لكل من الأساتذة والطلبة (الحق ١٩٨٨) . وقلما نجد من يعترف بأنه على الرغم من هذه الظروف الصعبة ، فإن الفلسطينيين يتمتعون بأعلى معدلات للتعليم الجامعي في العالم العربي ، بل وأعلى نسب التعليم في العالم كله (سعيد وآخرون ١٩٩٠) .

وثمة حقيقة أخرى قد تغيب عن أذهان الكثيرين وهي أن الفلسطينيين ليسوا جميعاً مسلمين ؛ فهناك فلسطينيون مسيحيون يعيشون كأقلية في الضفة الغربية وفي إسرائيل (أبو لغد ١٩٨٧) . ومع هذا ، وبسبب تحديات سياسية وتاريخية محددة واجهت الفلسطينيين ، نجد أن الخلافات الدينية داخل المجتمع الفلسطيني قد نحاها الفلسطينيون جانباً في سعيهم لتحقيق الوحدة تحت راية التحرر الوطني والنضال من أجل تقرير المصير . غير أنه في غضون السنوات الماضية ، بدأ الإسلام السياسي يلعب دوراً أكثر أهمية داخل المجتمع الفلسطيني وفي المجال السياسي (تراكي ١٩٨٩، ليجرين ١٩٩٠ ، آشر ١٩٩٥) . إذ إن الشهور الأولى للانتفاضة الفلسطينية التي تفجرت في ديسمبر ١٩٨٧ قد شهدت ظهور حركة المقاومة الإسلامية (حماس) في الضفة الغربية وقطاع غزة . ومع نهاية الثمانينيات ، صارت حماس لاعباً رئيسياً على المسرح السياسي الفلسطيني ، حيث اعتادت أن تحتل المرتبة الثانية بعد حركة فتح التي يتزعمها عرفات في الانتخابات المهنية والطلابية عبر الضفة الغربية ، ولاسيما في قطاع غزة . ومنذ توقيع اتفاقيات أوسلو في سبتمبر عام ١٩٩٣ ، استطاعت حركة حماس أن ترسخ نفسها كأكبر جماعة معارضة سياسية داخل المجتمع الفلسطيني (آشر ١٩٩٥) .

ومن المؤكد أن إعادة نشر القوات الإسرائيلية في بعض أجزاء الضفة الغربية وقطاع غزة وتأسيس السلطة الوطنية الفلسطينية (PNA) قد أحدثا تغييراً في المجتمع الفلسطيني وسياسته .ففي العامين الماضيين ، حصل الفلسطينيون على حكم ذاتي محدود ، وأجروا انتخابات عامة ، و بدأوا في تأسيس مؤسسات سياسية واجتماعية وأيضًا إقامة أجهزة أمنية ، ونظام قانوني ، ومحكمة عليا فلسطينية ، ومجلس للنواب يعرف باسم المجلس الوطني الفلسطيني (PNC) وعلى الرغم من كل هذه الإنجازات نجد أن العديد من الفلسطينيين قد أخذ يساورهم القلق بشكل متزايد حيال الثغرات والقيود المفروضة في الوقت الحاضر على عملية بناء الدولة ، وأيضاً حيال فشل «عملية السلام» ، ولاسيما وأن الأمل يراودهم في تحسين مستوياتهم المعيشية اليومية ،

ناهيك عن تطلعهم إلى حق تقرير المصير وإقامة دولتهم الفلسطينية (آشر ١٩٩٥ ، ربانى ١٩٩٦ ، جو بات ١٩٩٨) .

الإسرائيليون :

مصطلح «الإسرائيليون» والذى كان يستخدم فقط منذ تأسيس الدولة فى عام ١٩٤٨ ، يثير بلا شك مرجعيات توارثية لدى شعب إسرائيل ولدى الإسرائيليين القدماء. ومع هذا أشار العديد من الباحثين والدارسين إلى اختلافات متعددة فى موضوعات وأبحاث تذهب إلى أن اليهود الذين يقيمون حالياً فى إسرائيل هم سلالة تنحدر من الإسرائيليين القدماء . (إيفرون ١٩٩٥ ، شاحاك ١٩٩٥) . والواقع أن معظم الروايات الإعلامية والدراسات البحثية التى تعالج الصراع درجت على استخدام مصطلح «الإسرائيليون» نظراً لأنها تفترض وجود فاصل أو حاجز طبيعى بين الدولة ومواطنيها، وعلى أى حال فإن مثل هذا الاستخدام للمصطلح يعد مضللاً إلى حد كبير لأن سدس السكان الإسرائيليين يتألف من فلسطينيين يحملون الجنسية الإسرائيلية (لوستيك ١٩٨٠ ، ريكاس ١٩٨٩ ، سموحة ١٩٨٩ ، ١٩٩٢) . ومن ثم فإن مصطلح اليهود الإسرائيليين أو اليهود الذين يعيشون فى إسرائيل ، والذى نستخدمه فى هذا الفصل ، يصف بدقة أكثر هذا الطرف فى منظومة الصراع .

ويعرف المجتمع اليهودى – الإسرائيلى نفسه باعتباره مجتمعاً صهيونياً من النواحى الأخلاقية ، والسياسية ، والفنية . ويكمن الجانب الأخلاقى فى هذا التعريف فى الافتراض المسبق بأنه لا يمكن أبداً لليهود أن يأملوا فى تحقيق المساواة فى الحقوق كأقليات دينية أو ثقافية فى مجتمعات غير يهودية . والجانب السياسى فى إطار هذا التعريف قد استند على عنصرين أساسيين : (١) تعبئة وحشد جميع اليهود فى أنحاء العالم وتشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين ، و(٢) تأسيس دولة يهودية فى فلسطين ، وهى دولة إسرائيل ، وحشد الدعم المعنوى والمادى من اليهود وغير اليهود فى شتى أنحاء العالم من أجل ضمان الوجود المستمر لدولة إسرائيل كدولة يهودية . وأخيراً ، قيام إسرائيل كمجتمع صهيونى من الناحية الفنية يمكن إرجاعه إلى أن الهيكل القانونى لهذا المجتمع والنظام الروتينى لحياته اليومية إنما يتحددان فى كل مجال من خلال التفرقة أو التمييز بين اليهود وغير اليهود (دافيس ١٩٨٦) .

وعلى أى حال ، فإن الانقسامات والخلافات قائمة بالفعل ، ليس بين اليهود وغير اليهود فحسب ، بل أيضاً فى أوساط السكان اليهود –الإسرائيليين ، والذين يؤلفون ما

يربو على ٨٠ فى المائة من مجموع سكان إسرائيل (رانح ١٩٨٥) . والمجتمع اليهودى -الإسرائيلى مجتمع متغاير الخواص تماماً حيث يتألف من مهاجرين من عدة دول وتعكس مجموعة متنوعة من الجماعات العرقية واللغوية ، كما يعكس أقضليات دينية ، وخلفيات ثقافية ، وتاريخية ، وسياسية . والمجموعتان العرقيتان الرئيسيتان داخل المجتمع اليهودى الإسرائيلى هما : اليهود الأشكينازيين ASHKENAZI ، والذين تتحدد أصولهم من دول أوروبا وأمريكا الشمالية ، واليهود الميزراخيين MIZRACHI، والذين ترجع أصولهم أساساً إلى بلدان شمال أفريقيا والشرق الأوسط . ومصطلح ميزراخيم (ومعناه الشرقيون بالعبرية) ، أخذ يحل تدريجيًا محل مصطلحات أخرى مثل مصطلح اليهود السفارديم SEPHARDIM، والذى كان يستخدم فيما مضى للإشارة إلى هذه الشريحة من سكان إسرائيل (شوهات ١٩٨٨ ، سويرسكى ١٩٨٩) . وهنالك مصطلح آخر كان يستخدم مؤخراً فى الإشارة إلى هذه الجماعة وهو اليهود العرب ، وهو مصطلح سلط الضوء على أوجه التماثل والتشابه الثقافية الاجتماعية بين اليهود القادمين من بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ورفاقهم من اليهود العرب . بيد أن المؤسسة الإسرائيلية سعت لإزالة وتبديد أوجه التماثل هذه ، حيث عمدت إلى استخدام مصطلح الصراع العربى – الإسرائيلى كذريعة . (الكالى ١٩٩٣) . كما استخدمت الذريعة نفسها للتقليل من شأن الاختلافات والتباينات فى القوة والامتيازات بين اليهود الأشكانيازيين واليهود الميزراخيين . ولكن هذه الاختلافات بقيت كما هى دون تغيير لأن المؤسسة الإسرائيلية قد استخدمت مصطلح الصراع الإسرائيلى الفلسطينى لتحقيق الوحدة فى مواجهة العدو ولبناء شعور قوى بالهوية الوطنية (شارونى ١٩٩٥) . كما أن مركزية الصراع قد شكلت النظام السياسى الإسرائيلى والأحزاب السياسية البارزة .

وفى الوقت الحاضر ، تتضمن الخريطة السياسية الإسرائيلية خمسة عشر حزباً (والتى يتألف بعضها من عدة أحزاب أصغر) لديها تمثيل فى البرلمان الإسرائيلى ، أو الكنيست . وتاريخيًا ، يمكن القول بأن الحزبين السياسيين الرئيسيين فى إسرائيل هما : حزب العمل ، وحزب الليكود . وقد هيمن حزب العمل ، الذى تسيطر علية أغلبية من اليهود الأشكنازيين والعلمانيين ، على السياسة الإسرائيلية خلال الفترة ما بين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٧٧ . وقد شهدت الأيديولوجية الأصلية لحزب العمل

تحولات جوهرية فى غضون السنوات الماضية فى الوقت الذى حاول فيه الحزب توفيق وموائمة التوترات بين الصهيونية ، والاشتراكية ، والممارسات الديمقراطية (كيمرلينج ١٩٩٣ ، شابيرا ١٩٩٢) . وبمرور السنين ، كانت مبادئ الحزب وسياسته إزاء الصراع الإسرائيلى الفلسطينى متفاوتة ومتباينة . ورسميًا ، يؤيد حزب العمل «مبدأ الأرض مقابل السلام» ، ولهذا ينظر إلية بوجه عام على أنه أكثر اعتدالاً ورغبة فى التوصل إلى تسوية بالمقارنة مع حزب الليكود . وفى الوقت ذاته ، فإن حزب العمل، الذى شجع على بناء المستوطنات فى الضفة الغربية وقطاع غزة بعد عام ١٩٦٧ ، وكان حازمًا فى التعامل مع الانتفاضة ، ولسنوات عدة ظل يعارض إقامة دولة فلسطينية مستقلة جنبًا إلى جنب مع إسرائيل . ومع هذا كله ، وحتى وقت قريب جدًا ، فإن الفضل يرجع إلى حزب العمل وعلى الأخص شيمون بيريز واسحاق رابين، فى اتخاذ خطوة مهمة باتجاه توقيع اتفاقات أوسلو مع الفلسطينيين .

أما حزب الليكود ، الذى جاء إلى السلطة أول مرة فى عام ١٩٧٧ ، فإنه يعد محافظًا أكثر اقتصاديًا ودينيًا من حزب العمل وهو يتمتع بالمزيد من التأييد من اليهود المزراحيين ويهود الطبقة العاملة . ولقد تبنى هذا الحزب ، وبصورة تقليدية ، موقفًا أكثر تشددًا حيال الصراع العربى - الإسرائيلى بوجه عام وإزاء القضية الفلسطينية على نحو خاص . فبرنامجه الأصلى طالب فى مناسبات عدة بالسيادة اليهودية على جميع الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى حرب عام ١٩٦٧ ، فيما عدا صحراء سيناء التى أعيدت إلى مصر فى أعقاب توقيع اتفاقيات كامب ديفيد فى عام ١٩٧٩ (ليفى ويتسلر ١٩٨٩ ، سوندرز ١٩٨٥) . وقد تناوب حزبا العمل والليكود السلطة منذ عام ١٩٨٤ ، حيث هزم حزب الليكود بزعامة بنيامين نيتانياهو حزب العمل فى انتخابات مايو ,١٩٩٦ وعلى الرغم من أن حزب الليكود عارض فى البداية اتفاقيات أوسلو والاتفاقيات التالية وتعهد بالعمل على عرقلة تنفيذها ، إلا أنه سرعان ما تغير موقفه المتشدد هذا من جراء تعرضه لضغوط داخلية وخارجية على السواء . ومع هذا ، أدت سياسات نيتانياهو إلى حدوث حالة جمود رئيسية فى المفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين ، وهو ما يعتبر سببًا ضمن أسباب عديدة أخرى أفضت إلى إجراء انتخابات مبكرة فى مايو ١٩٩٩ ، والتى حل فيها زعيم الليكود الجديد ، إيهود باراك ، محل نيتانياهو كرئيس للوزراء .

تاريخ وديناميكيات الصراع :

ثمة وجهة نظر تقليدية شائعة بين الباحثين والدبلوماسيين فى مجال حل الصراعات فى الغرب مفادها أن إمعان النظر والبحث طويلاً فى الصراعات عامة وفى الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى خاصة يعتبر بمثابة جهد غير مثمر ، وذلك لأن التفسيرات التاريخية التى يطرحها أطراف الصراع غالباً ما تبدو غير متوافقة ، أو بالأحرى تصعب المواءمة فيما بينها . وفى الوقت ذاته ، لعب التاريخ دوراً رئيسياً فى تشكيل الهويات الجماعية للأفراد ، وفى صياغة مفاهيم وأفكار كل واحد منهم تجاه الآخر ، وكذا فى بلورة الاتجاهات والمواقف العامة إزاء الصراع واحتمالات حله . ووفقًا لهذا الرأى ، فإنه إذا تجاهلنا دور التاريخ ، سيكون من الصعوبة بمكان تأسيس إطار العمل وتوفير الظروف الملائمة لتحقيق سلام عادل ودائم . وهكذا فإن المشكلة هنا ليست ما إذا كان يجب التعامل مع التاريخ ، وإنما تكمن المشكلة فى كيفية الاقتراب من التاريخ وفهمه حتى تسهم دراسته واستيعابه فى تحليل الصراع وفى استغلال أساليب وفرص جديدة لحل هذا الصراع . ولتحقيق هذه الغاية ، سوف نستعرض بعضاً من تاريخ الصراع الذى تناولناه فى الفصل الثالث ، ونحدد عدداً من نقاط التحول المهمة فى سياق هذا التاريخ ، ونبحث إسهاماتها فى تصعيد الصراع أو تخفيف حدته . وفى مناقشاتنا هنا، سنولى عناية خاصة لأوجه الخلاف والتشابه فى المفاهيم والأفكار الفلسطينية والإسرائيلية لهذه الأحداث .

الصهيونية الحديثة وتقسيم فلسطين :

تتضمن نقطة التحول الأولى ظهور الصهيونية وبداية الهجرة اليهودية إلى فلسطين والاستيطان فيها إبان الثمانينيات من القرن التاسع عشر. وظهرت الصهيونية فى أواخر القرن التاسع عشر فى أوروبا رداً على نشأة القومية الأوروبية ومعاداة السامية . وأثناء وبعد المحرقة وعمليات الإبادة ضد اليهود (الهولوكست) ، والتى زادت من تدفق المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، حظيت الحركة الصهيونية باعتراف دولى كبير وتأييد واسع .

وليس هنالك تعريف واحد لمصطلح «الصهيونية» . وكما هو الحال بالنسبة إلى العديد من المصطلحات المتعارضة الأخرى ، فإن المعانى والممارسات المرتبطة بالصهيونية تعتمد على وجهة نظر خاصة للشخص أو للجماعة التى تقدم تعريفا لهذا

المصطلح . وعلى الرغم من وجود توجهات مختلفة للصهيونية (اشتراكية أم غير اشتراكية ، دينية أم علمانية) ، فإنه بالنسبة لمعظم اليهود ، تعتبر الصهيونية حركة لتقرير المصير القومى تهدف إلى استعادة حقهم فى العيش فى أرض أجدادهم (هرتسبيرج ١٩٦٢) . ومع هذا ، ينظر الفلسطينيون وآخرون كثيرون إلى الصهيونية باعتبارها أيديولوجية خاصة تؤكد على الحركة الاستعمارية الاستيطانية المسئولة عن احتلال فلسطين وتفريغ أرض فلسطين من سكانها واستغلالها ومحاولة طمس هويتها العربية (سعيد ١٩٨٠ ، عبده ١٩٩٢ ، زوينس ١٩٩٤)

والحقيقة أن التفسيرات المتعارضة والمتباينة لنقطة التحول هذه من جانب الفلسطينيين واليهود لا تكمن فقط فى وجهات نظرهم المختلفة وآرائهم عن الصهيونية سواء كأيديولوجية أو كمشروع سياسى ، وإنما تكمن أيضًا فى الرؤى والآراء المختلفة لدى الجانبين فيما يتعلق بأصول الصراع . ووفقًا للتفسيرات اليهودية السائدة ، ترجع جذور الصراع إلى قرون عدة ، والصهيونية كانت محاولة لضمان عودة اليهود إلى أرض إسرائيل التى كانت وعد الله إلى النبى إبراهيم و «ذريته» (زاخر ١٩٦٤ ، باركيس ١٩٦٤ ، جريزل ١٩٦٨ ، تيسلر ١٩٩٤) . وطبقًا للتفسيرات الفلسطينية يعتبر الصراع الفلسطينى - الإسرائيلى ظاهرة حديثة لا ترجع أصولها إلى الكتاب المقدس وإنما ترجع إلى الأيديولوجية الصهيونية وتنفيذها فى فلسطين من خلال اتباع سياسات تعيد إلى الذاكرة المشروعات الاستعمارية الاستيطانية حول العالم (خالدى ١٩٧١ ، مصلح ١٩٩٢ ، كيمرلينج وميجدال ١٩٩٣ ، لوستيك ١٩٩٣ ، فنكشتاين ١٩٩٥ ، جرينشتاين ١٩٩٥) .

والشيء الذى غالبًا ما تقوله الروايات التقليدية للصراع هو إن فلسطين لم تكن «أرضًا بلا شعب لشعب بلا أرض» كما زعمت الشعارات الصهيونية ؛ ذلك أن أرض فلسطين كان يقطنها سكانها الأصليون والذين سعوا للحصول على استقلالهم أولاً من الحكام العثمانيين وفيما بعد من البريطانيين . وهكذا ، أدت الهجرة اليهودية إلى فلسطين إلى تفجر نزاع كان قد مضى عليه قرن بين حركتين قوميتين تناضلان من أجل تقرير المصير والسيادة على الأرض . ومع هذا ، فمنذ البداية ، جرى وضع الفلسطينيين فى موقف غير ملائم . ووفقًا لما ذكره مؤرخون فلسطينيون ، فإن السبب الأصلى والجوهرى وراء ذلك الوضع غير الملائم للفلسطينيين يكمن فى قرارين سياسيين اتخذتهما أوروبا . القرار الأول اتخذته فى عام ١٨٩٧ المنظمة الصهيونية

العالمية التى اجتمعت فى مدينة بازل فى سويسرا وقررت إقامة دولة يهودية فى فلسطين . والقرار الثانى ، والمعروف باسم وعد بلفور اتخذ فى عام ١٩١٧ وهو القرن الذى قضى على حقوق السكان الأصليين فى فلسطين نص على وعد بتأييد إقامة وطن قومى لليهود فى أرض فلسطين (مصلح ١٩٩٢) .

ومع أخذ هذا السياق فى الاعتبار ، فإن الصدام بين الصهيونية والقومية الفلسطينية كان حتمياً تقريباً بل وتصاعد هذا الصدام ليتحول إلى مواجهات عنيفة فى عام ١٩٢٠ فى القدس ، وفى عام ١٩٢١ فى تل أبيب - حيفا والمناطق المحيطة بهما ، وفى عام ١٩٢٩ فى القدس والخليل (هيرست ١٩٨٤) . بيد أن أكثر هذه المواجهات أهمية فى إطار الصراع بين الجانبين حدثت خلال الثورة العربية ، والتى استمرت من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٣٩ . وكانت هذه الثورة أطول احتجاج قام به الفلسطينيون ضد التطلعات القومية اليهودية فى فلسطين قبل تأسيس دولة إسرائيل . وكانت هذه الثورة فى معظمها حركة شعبية واسعة ذات أبعاد عنيفة وغير عنيفة مثل الإضرابات، وعدم دفع الضرائب ، وغير ذلك من أشكال العصيان المدنى (خالدى ١٩٧١ ، هيرست ١٩٨٤) .

صورة (١ : ٦) لافتة مكتوبة بالإنجليزية والعبرية تقول :«هذا السوق بنى على أرض يهودية سرقها العرب بعد مذبحة عام ١٩٢٩» وقد علقت على جدار مستوطنة يهودية فى مدينة الخليل بالضفة الغربية وكانت هذه المنطقة فيما مضى جزءاً من سوق فلسطينى .

وانتهت الحركة الأولى من الثورة العربية بناءً على طلب اللجنة العليا العربية من أجل فلسطين (AHC) التى كانت قد تشكلت حديثًا ، والتى حثت الفلسطينيين على انتظار نتائج المباحثات والمداولات التى كانت تجريها اللجنة الملكية لفلسطين والتى عرفت باسم لجنة بيل والتى شكلتها بريطانيا للتحقيق فى الموقف . أما المرحلة الثانية من الثورة العربية فقد تفجرت من جراء تقرير لجنة بيل والذى أوصى بتقسيم فلسطين إلى دولتين من أجل استيعاب المطالب المتعارضة للفلسطينيين واليهود ، والتى أدت إلى المزيد من تفاقم الموقف ، الأمر الذى دفع القوات الصهيونية ، والفلسطينية ، والبريطانية إلى القتال من أجل السيطرة على الموقف . وفى ظل المقاومة الضارية من الفلسطينيين واليهود لخطة التقسيم ، اضطرت بريطانيا إلى التخلى عن هذه الخطة التى وضعتها فى عام ١٩٣٧ .

وعلى الرغم من ذلك ، استمرت خطط القسيم فى الظهور بين الحين والآخر : وسرعان ما أصبحت هذه الخطط معروفة واكتسبت شعبية على نحو خاص كما نالت شرعية دولية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية والهولوكست ، والتى أبادت اليهود كلهم تقريبًا فى أنحاء أوروبا ، كما أبادت مجتمعات الغجر ، والشواذ جنسيًا . والأشخاص المعاقين ، وغيرهم من الأشخاص الذين اعتبرهم النازيون «غير مرغوب فيهم ؛ ولا حاجة للعالم إليهم . ولعل أهم هذه الخطط ، خطة التقسيم التى أقرتها الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٧ ، والتى تعرف أيضًا بقرار الأمم المتحدة رقم ١٨١ ، والذى دعا إلى إقامة دولة يهودية ودولة عربية فى فلسطين . وفى الواقع أن هذه الخطة ، التى نصت أيضاً على انتهاء الانتداب البريطانى فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، «أعطت الدولة اليهودية الجديدة ٥٧٪ من مساحة فلسطين ، بما فى ذلك المنطقة الساحلية الخصبة» . ولكن الفلسطينيين اعتبروا هذه الخطة غير عادلة وتنطوى على عيوب وأخطاء جوهرية «لأنه وعلى الرغم من أن اليهود فى ذلك الوقت كانوا يمثلون حوالى ٣,٣٪ فقط من مجموع سكان المنطقة ، إلا أنهم حصلوا على نسبة ٧٪ من الأرض» . والحقيقة أنه وفقاً لتقديرات الأمم المتحدة آنذاك ، فإن تقسيم الأرض ، وبموجب خطة التقسيم ، كان من شأنه إعطاء الدولة اليهودية عائدات اقتصادية تزيد ثلاثة أضعاف عن العائدات التى يحصل عليها الفلسطينيون . وفى ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧ ، صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة لصالح هذه الخطة الخاصة والفريدة من نوعها (جيرز ١٩٩٤) .

وجاء الرد الصهيونى بالموافقة على قرار الأمم المتحدة رقم ١٨١ مع إبداء بعض التحفظات حيث أصر اليهود على أن يكون «الوطن اليهودى» وطناً يهودياً بصورة متميزة بدلاً من أن يكون وطناً دينياً ومتعدد العرقيات . وفى الوقت نفسه ، لم يتخل الزعماء الصهاينة عن اعتقادهم بأنه لابد وأن تصبح أرض فلسطين كلها فى نهاية المطاف تحت السيطرة اليهودية . ومن المنظور الفلسطينى ، كانت خطة التقسيم التى أقرتها الأمم المتحدة مجرد محاولة غير قانونية وغير شرعية لتقسيم فلسطين . علاوة على هذا ، تخوف الفلسطينيون من أن يؤدى وجود دولتين : إحداهما يهودية ، والأخرى فلسطينية ، إلى طرد الفلسطينيين الذين كانوا يعيشون فى المناطق التى صارت ضمن الأراضى المخصصة لليهود بموجب خطة التقسيم . غير أنه وعلى النقيض من الآراء المعارضة لهذا التوجه والتى تميل إلى تصوير الفلسطينيين باعتبارهم مولعين بالرفض والاعتراض وأنه لم يكن لديهم أدنى استعداد للتوصل إلى حل وسط ، فإن القيادة العربية داخل فلسطين وخارجها لم ترفض ببساطة خطة التقسيم كما يزعم الكثيرون ؛ بل إنها وافقت على الاقتراح البديل الذى طرحته لجنة الأمم المتحدة الخاصة بشأن فلسطين ، وهو الاقتراح الذى دعا إلى قيام دولة موحدة فى فلسطين على أن تكون هذه الدولة ديمقراطية وعلمانية وتمنح لمواطنيها حقوقاً متساوية (فلابان ١٩٨٧ ، فنكشتاين ١٩٩٥) .

وأثار تصويت الأمم المتحدة على خطة التقسيم موجة عنف غير مسبوقة والتى تصاعدت لتتحول إلى حرب شاملة فى أعقاب تأسيس دولة إسرائيل فى ١٤ مايو عام ١٩٤٨ . ولاشك أن الاختلافات فى تفسيرات التاريخ لدى كل من اليهود والفلسطينيين قد كانت واضحة أكثر فى الطرق التى أشار كل منهما إلى هذه الحرب . إذ يشير اليهود إلى تلك الحرب باعتبارها حرب استقلال حققت لهم تطلعاتهم وآمالهم القومية من خلال تأسيس دولة إسرائيل . ومع هذا ، وبالنسبة إلى الفلسطينيين ، فإن حرب عام ١٩٤٨ ، (التى تعرف باسم النكبة) كانت تعنى الكارثة والدمار وضياع الأرض. ففى أثناء هذه الحرب ، أصبح المجتمع الفلسطينى مدمراً فى النهاية . وصار ما يقرب من ٧٨٠ ألف فلسطينى لاجئين كنتيجة مباشرة لتأسيس دولة إسرائيل . واضطر بعض الفلسطينيين إلى الفرار ، فى حين طرد آخرون من ديارهم وأراضيهم بالقوة ، وتم تدمير حوالى ٤١٨ قرية عربية أو جرى تفريغها من سكانها (موريس ١٩٨٨ ،

١٩٩٠) . وانتهت الحرب بتأسيس دولة إسرائيل على ما يقرب من ٧٧٪ من المساحة الإجمالية لفلسطين . أما النسبة الباقية ، وهى ٢٣٪ ، فقد قسمت بين الأردن ، التى آلت إليها السيطرة على الضفة الغربية (بما فيها القدس الشرقية) ، ومصر ، التى أسندت إليها إدارة شئون قطاع غزة (مصلح ١٩٩٢) .

الصراعات الدولية :

فى معظم أدبيات الصراع ومراحله المختلفة ، فإنه غالباً ما يتم تقسيم السنوات منذ تأسيس دولة إسرائيل إلى ثلاث فترات : الفترة الأولى من مايو ١٩٤٨ إلى يونيو ١٩٦٧ ، والفترة الثانية من يونيو ١٩٦٧ إلى ديسمبر ١٩٨٧ ، والفترة الثالثة من ديسمبر ١٩٨٧ إلى الوقت الحاضر . وخلال الفترة الأولى بين ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧ ، كان الفلسطينيون يعيشون حالة من الشعور بالصدمة واليأس . فالظروف الصعبة والافتقار إلى قيادة سياسية وموارد اقتصادية قد أرغمتهم على الاعتماد على الدول العربية المجاورة . ونتيجة لذلك ، فإنه حتى عام ١٩٦٧ ، وباستثناء تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية فى عام ١٩٦٤ ، كانت القومية الفلسطينية فى معظمها صامتة ولا وجود لها ، وكان الزعماء العرب خارج فلسطين هم الذين يعبرون عن المقاومة ضد إسرائيل . وفى الوقت ذاته ، وعلى الجانب الآخر من خط التقسيم الإسرائيلى – الفلسطينى ، سعى اليهود الإسرائيليون جاهدين لبناء دولة يهودية على الطراز الغربى فى قلب العالم العربى . وتبعًا لذلك ، فإنه كان ينظر إلى الفلسطينيين الذين ظلوا فى إسرائيل بعد حرب ١٩٤٨ باعتبارهم مشكلة أمام تطوير دولة يهودية . ومن ثم ، جرى وضع هؤلاء الفلسطينيين تحت الحكم العسكرى حتى عام ١٩٦٦ ، بل وتم إخضاعهم إلى سلسلة من الإجراءات والقوانين التى كانت تنطوى على التفرقة والتمييز وذلك تحت ذريعة الأمن القومى لإسرائيل (جيرنر ١٩٩٤ ، لوستيك ١٩٨٠ ، زوريق ١٩٧٩)

والحقيقة أن حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، والتى يشار إليها أيضاً باعتبارها حرب الأيام الستة ، تعتبر واحدة من أهم نقاط التحول فى تاريخ الصراع . إذ إن هذه الحرب قد غيرت خريطة الشرق الأوسط تغييراً دراماتيكيًا ، حيث أدت إلى احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة ، وسيناء ، ومرتفعات الجولان . ومع هذا ، وخلافًا

للتفسيرات التقليدية الإسرائيلية ، والتى أصرت على أن إسرائيل احتلت هذه المناطق فى إطار حرب للدفاع عن النفس ، فإن ثمة دليل دامغ وواضح على أن إسرائيل هى التى بادرت بشن هذه الحرب تحت ذريعة «الهجوم الوقائى» (زيلكا ١٩٩٢) . وفى نهاية الحرب ، بدا أن غزو إسرائيل لهذه المناطق واحتلالها كان مجرد إجراء مؤقت . بيد أنه فى واقع الأمر ، وعلى وجه التحديد فى ١٩ يونيو عام ١٩٦٧ ، صوت مجلس الوزراء الإسرائيلى بالإجماع على إعادة سيناء إلى مصر وإعادة مرتفعات الجولان إلى سوريا فى مقابل تحويل هذه المناطق إلى مناطق منزوعة السلاح وتحقيق السلام مع العرب . وفيما يتعلق بالأردن ، طالبت إسرائيل بإدخال تعديلات على الحدود معها ، متذرعة بأسباب ودواعى أمنية ، بيد أن وضع مدينة القدس قد اعتبرته إسرائيل خارج دائرة التفاوض . ومن ثم أعلنت إسرائيل القدس مدينة موحدة وغير مقسمة وأنها جزء لا يتجزأ من إسرائيل (زلكا ١٩٩٢) . ولكن على الرغم من قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ ، والذى تمت الموافقة عليه بالإجماع فى نوفمبر ١٩٦٧ ، والذى دعا إلى انسحاب إسرائيل من الأراضى التى احتلتها خلال الحرب ، فإن إسرائيل اعترضت على الانسحاب الكامل ورفضت الانسحاب من أى من هذه الأراضى قبل توقيع معاهدة سلام. ورفضت سوريا القرار أيضًا فى حين رفضت مصر والأردن توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل قبل انسحابها من الأراضى المحتلة .

وهكذا فإن انتصار إسرائيل فى حرب الأيام الستة وقيامها بغزو واحتلال نسبة ٢٣٪ الباقية من أراضى فلسطين قد أديا إلى شعور مصر ، والأردن ، وسوريا بصدمة شديدة وحولا آمال الفلسطينيين إلى إحساس عميق باليأس . أما الفلسطينيين الذين لم يتم إرغامهم على الفرار من ديارهم (العديد منهم وللمرة الثانية) ليصبحوا لاجئين فى الدول العربية المجاورة فقد وجدوا أنفسهم تحت رحمة قوانين عسكرية صارمة فرضتها عليهم قوات الاحتلال الإسرائيلية . وبالإضافة إلى ذلك ، صادرت سلطات الاحتلال الإسرائيلية مساحات كبيرة من الأراضى الفلسطينية لبناء مستوطنات يهودية عليها فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، واللتين بدأ المسئولون الإسرائيليون الإشارة إليهما وفقًا لاسميهما الذين وردا فى التوراة : يهودا وسامرا . وبدأ بناء المستوطنات اليهودية فى الأراضى المحتلة فى غضون ستة أشهر وهو النشاط الذى حظى بتأييد هائل من الحكومة الإسرائيلية .

صورة (٢ : ٦) امرأة وطفلة فلسطينيتان تعيشان فى مخيم البروج للاجئين ، وهو واحد من ٢٧ من المخيمات المكتظة باللاجئين فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، والتى تأوى ما يقرب من نصف مليون فلسطينى.

وعلى أى حال ، فإنه مما لاشك فيه أن حرب عام ١٩٧٣ تحول آخر مهم فى تاريخ الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى ، وهى آخر الحروب التى اندلعت بين إسرائيل وقوات الجيوش العربية المتحالفة . وبدأت هذه الحرب فى ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ من خلال هجوم مباغت تم تنسيقه بين مصر وسوريا ، بيد أنه بعد إقامة جسر جوى ضخم لنقل أحدث العتاد الحربى من الولايات المتحدة إلى إسرائيل ، تمكنت الأخيرة من تحويل مجريات الحرب لصالحها . وفى نهاية الحرب فى ٢٤ أكتوبر ، أعادت إسرائيل الاستيلاء على معظم أراضى سيناء التى كان يتعين أن تنسحب منها ، بل وعززت سيطرتها على مرتفعات الجولان السورية . ورغم الانتصار العسكرى الذى حققته إسرائيل فى هذه الحرب ، إلا أنها كانت مكلفة جداً بالنسبة إلى

الإسرائيليين(*)؛ إذ إنها كانت إيذانا بنهاية الإحساس الجماعى لدى إسرائيل الذى كان قد تولد فى أعقاب حرب ١٩٦٧ ، كما أن هذه الحرب قوضت الوهم الذى ظل سائداً لفترة طويلة بأن إسرائيل قوة لا تقهر ، وهو الأمر الذى مهد الطريق أمام المزيد من القيام بعملية إعادة تقييم واقعى وانتقادى للمجتمع الإسرائيلى وسياساته ولا سيما فى إطار الصراع العربى - الإسرائيلى برمته . وبالنسبة إلى الفلسطينيين كانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ بمثابة فصل آخر فى تبديد الوهم الذى ترسخ لديهم عن قدرة الدول العربية على قيادة النضال الفلسطينى .

ونتيجة لحرب عام ١٩٦٧ ، ولا سيما فى أعقاب حرب عام ١٩٧٣ ، سعى الفلسطينيون إلى الحصول على تمثيل مستقل من خلال حركة المقاومة الوطنية التى قادتها منظمة التحرير الفلسطينية (PLO) وكان انتخاب ياسر عرفات رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية يمثل حجر أساس مهم فى النضال الفلسطينى من أجل تقرير المصير، والحصول على الاعتراف الدولى بمنظمة التحرير باعتبارها الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . وبحلول عام ١٩٧٤ ، تمكن الفلسطينيون من تنبيه المجتمع الدولى إلى محنة الشعب الفلسطينى، وتحقيق تمثيل مستقل فى العديد من المنظمات الدولية ؛ ومن بينها الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها ؛ ومن ثم الحصول على اعتراف العالم بهم على المسرح الدولى . ومع هذا ، وطوال هذه الفترة ، رفضت إسرائيل الاعتراف بوجود الفلسطينيين وحقهم فى تقرير المصير (كيمرلينج وميجدال ١٩٩٣) .

وليس ثمة شك فى أن الحرب الأهلية التى تفجرت فى الأردن عام ١٩٧٠ ، والتى اتسمت بوقوع مجابهات عنيفة يومياً بين الفلسطينيين والأردنيين ، كانت بمثابة نكسة كبرى للجهود الفلسطينية الرامية إلى تعزيز الحركة القومية خارج حدود فلسطين . وتصاعدت أشهر طويلة من حشد القوات لدى الجانبين لتتحول إلى أحد عشر يوماً من إراقة الدماء ، وهى الأيام التى يشار إليها غالبًا باسم مذبحة سبتمبر الأسود ، والتى أسفرت عن مقتل الآلاف من الفلسطينيين والأردنيين ، والتى أدت أيضًا إلى إفساد وتوتر العلاقة بين القيادة الفلسطينية والنظام الأردنى ، بل وأفضت إلى تدمير البنية التحتية السياسية والعسكرية التى أسستها منظمة التحرير الفلسطينية فى الأردن . (يتسلر ١٩٩٤) . وفى أعقاب هذه الأحداث الدموية، شرعت منظمة التحرير

الفلسطينية فى إعادة بناء قواعدها فى لبنان . وفى الوقت ذاته، أخذت حركة المقاومة الفلسطينية فى الأراضى اللبنانية تنمو ويشتد ساعدها . ومن ثم ، انعكست قوتها وتنظيمها فى نتائج أول انتخابات بلدية أجريت فى الضفة الغربية فى عام ١٩٦٧ . ولكن عندما تولى حزب الليكود مقاليد السلطة فى عام ١٩٧٧ ، شرعت إسرائيل فى اتخاذ إجراءات ضد العمد الفلسطينيين المنتخبين وضد المجالس البلدية المنتخبة حديثاً فى مدن الضفة الغربية ، حيث قامت بدلاً من ذلك بتعيين أشخاص كانت تعتبرهم أكثر «اعتدالاً» ومن السهل السيطرة عليهم . (جيرنر ١٩٩٤) .

وعلى النقيض من التكهنات والتوقعات الكئيبة للعديد من المحللين ، أسفر الفوز المفاجئ لحزب الليكود اليمينى فى انتخابات عام ١٩٧٧ عن هدوء مؤقت فى الصراع العربى – الإسرائيلى . فبعد بضعة أشهر من تولى ليكود السلطة ، فاجأ الرئيس المصرى الراحل أنور السادات الحكومة الإسرائيلية والإسرائيليين ، بل فاجأ العالم العربى والمجتمع الدولى كله ، عندما أصبح أول زعيم عربى تطأ قدمه أرض مدينة القدس . وثمة حدث آخر أسهم أيضاً فى تهدئة حدة الصراع ، ألا وهو ظهور حركة سلام متميزة فى إسرائيل ، والتى أطلق عليها حركة السلام الآن . وجادلت هذه الحركة التى أسسها فى عام ١٩٧٨ مجموعة من ضباط وجنود الاحتياط ، بأن الحكومة الإسرائيلية لم تفعل ما يكفى لتحقيق السلام مع مصر (بارأون ١٩٨٥ ، فولفسيلر ١٩٨٨) . ورغم أن حركة السلام الآن لم تستطع الاستفادة كثيراً من هذا التطور ، شرعت الحكومتان الإسرائيلية والمصرية فى إجراء مفاوضات مباشرة فى ذلك العام، وفى عام ١٩٧٩ ، أبرمت إسرائيل معاهدة سلام رسمية مع مصر ، والتى يشار إليها غالباً باتفاقيات كامب ديفيد ، وقد اعتبرت اتفاقيات كامب ديفيد مهمة فى تاريخ الصراع الإسرائيلى – الفلسطينى بسبب الأسلوب الذى أثار مشكلات عدة والذى استخدم فى معالجة البعد الفلسطينى فى إطار الصراع العربى – الإسرائيلى ، ولأن هذه الاتفاقيات مكنت الولايات المتحدة من ترسيخ دورها «كوسيط سلام» رئيسى فى المنطقة ومن ثم زيادة مجال قوتها ونفوذها . واشتملت الاتفاقيات على وثيقتين : الوثيقة الأولى بعنوان «إطار عمل للسلام فى الشرق الأوسط» ؛ والتى حاولت معالجة المشكلة الفلسطينية . ونظراً لصياغتها الغامضة فيما يتعلق بطبيعة الحكم الذاتى الفلسطينى وفشلها فى الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعى للشعب

الفلسطينى ومن ثم الاعتراف بها كطرف فى المفاوضات ، فإن الوثيقة أثارت ردود فعل قوية من جانب الفلسطينيين (ليش ويتسلر ١٩٨٩) .

وسرعان ما أصبح واضحاً أن حكومة مناحيم بيجن لم يكن لديها نية السماح لاتفاقيات كامب ديفيد بأن تؤدى إلى انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية وقطاع غزة . وعلى العكس من ذلك، ففى الثمانينيات ، واصلت إسرائيل تنفيذ خطتها لوضع الأساس للاحتفاظ الدائم بالأراضى المحتلة . وهكذا ، عمدت الحكومة إلى التوسع فى بناء المستوطنات ، وطبقت القوانين الإسرائيلية على اليهود المقيمين فى هذه المناطق، واتخذت خطوات إضافية فى مجالات مثل النقل ، والاتصالات ، والنشاط الاقتصادى بهدف ربط الضفة الغربية وقطاع غزة أكثر بإسرائيل وبهدف طمس معالم حدود ١٩٦٧ ، والتى يشار إليها غالباً بعبارة «الخط الأخضر» . (تيسلر ١٩٩٤) . وبالنسبة إلى الفلسطينيين ، فإن هذه الفترة قد شهدت ظروفاً اقتصادية قاسية واعتماداً متزايداً على إسرائيل ، كما اتسمت بوجود نقص فى المساكن الكافية، وبظهور أزمة فى قطاع التعليم وتدهور المنشآت التعليمية ، وغير ذلك من المشكلات العديدة التى قد صارت أكثر حدة كنتيجة لسياسات الاحتلال الإسرائيلى (نخلة ١٩٨٠ ، تمارى ١٩٨٠) .

ورغم ما أبدته من تحفظات حيال اتفاقيات كامب ديفيد إبّان هذه الفترة ، إلا أن منظمة التحرير الفلسطينية بدأت تلوح باستعدادها للتوصل إلى تسوية سياسية . ومن جانبها ، رفضت إسرائيل الاعتراف ، أو حتى إبداء أى رد فعل إزاء المرونة التى بدأت تظهر فى البيانات والتصريحات العامة لمنظمة التحرير الفلسطينية وبرنامجها السياسى . وبدلاً من ذلك ، شرعت إسرائيل فى اتخاذ إجراءات لإقصاء ما تبقى من زعماء فلسطينيين منتخبين فى الضفة الغربية وقطاع غزة وراحت تؤسس ما أسمته رابطات القرى ، والتى كانت إسرائيل هى التى تعين أعضاءها العرب مما جعلها تفتقر إلى المصداقية فى أوساط الفلسطينيين . وشجعت هذه الإجراءات على ظهور مقاومة ضارية من جانب الفلسطينيين ، الأمر الذى أدى إلى اندلاع اشتباكات خطيرة بين الفلسطينيين والجنود الإسرائيليين فى مارس وأبريل ومايو من عام ١٩٨٢ . وهنالك حدث مهم آخر خلال تلك الفترة وهو ظهور اللجان الشعبية ، بما فى ذلك الجماعات النسائية ، ونقابات العمال فى مختلف أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة . وهذه اللجان

المحلية ، التى كان معظمها تابعاً للفصائل المختلفة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، قد تأسست بهدف تلبية الاحتياجات وأداء الخدمات الضرورية للمجتمع الفلسطينى .

وكان الغزو الإسرائيلى للبنان فى عام ١٩٨٢ تصعيداً خطيراً للصراع الإسرائيلى – الفلسطينى . واستند قرار الحكومة الإسرائيلية بإلحاق أضرار جسيمة بالقواعد السياسية والعسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان مباشرة إلى آراء معظم أعضائها فى ذلك الوقت على أن منظمة التحرير كانت مصدر التوتر والاضطرابات فى الضفة الغربية وقطاع غزة . ورغم هذا ، فإن محاولة الحكومة الإسرائيلية السابقة فى عام ١٩٧٨ لتدمير مقر منظمة التحرير الفلسطينية وقواعدها فى لبنان لم تفشل فحسب ، وإنما صعدت الاشتباكات الإسرائيلية الفلسطينية عبر الحدود الإسرائيلية – اللبنانية ورفعت درجة حرارة التوترات بين إسرائيل والدول العربية (جيرنر ١٢٨ – ١٢٤ – ١٩٩٤ ، تيسلر ٥٩٩ – ٥٦٨ – ١٩٩٤) . وفى يونيو ١٩٨٢ ، غزت القوات الإسرائيلية لبنان للمرة الثانية ، مفجرة شرارة حرب اعتبرت من أكثر الحروب إثارة للخلاف والجدل فى تاريخ إسرائيل .

وكانت الأهداف التى أعلنتها إسرائيل رسمياً من وراء شن هذه الحرب هى إبعاد المقاتلين الفلسطينيين خارج محيط شمالى الجليل والقضاء على البنية التحتية السياسية والعسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان . ومع ذلك واصلت القوات الإسرائيلية تقدمها وتوغلت إلى ما وراء مساحة ٢٥ ميلاً والتى أعلنتها فى البداية مقراً لعملياتها العسكرية ، حيث حاصرت مدينة بيروت وراحت المدفعيات والقاتلات والدبابات الإسرائيلية تقصف المدينة فى محاولة لإرغام عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية على الجلاء عنها (شيف وياعرى ١٩٨٤) . ووافقت إسرائيل على وقف عمليات القصف فقط بعد الانتهاء من إجلاء منظمة التحرير عن بيروت فى أواخر أغسطس .

بيد أن وقف إطلاق النار لم يدم طويلاً . ففى منتصف شهر سبتمبر عام ١٩٨٢ ، وفى أعقاب اغتيال بشير الجميل ، الرئيس اللبنانى المنتخب حديثاً آنذاك ، عادت القوات الإسرائيلية إلى بيروت لتحتل المدينة كلها ولتفرض حصاراً على مخيمى صبرا وشاتيلا للاجئين ، التى كانت تأوى العديد من الفلسطينيين واللبنانيين الفقراء . وأدت هذه العمليات إلى وقوع واحد من أكثر الأحداث مأساوية ودموية فى تاريخ الصراع ، ألا وهو مذبحة صبرا وشاتيلا . وقام بتنفيذ هذه المذبحة المروعة القوات المسيحية

المارونية اللبنانية التى كانت معروفة بكراهيتها للفلسطينيين ، وذلك تحت سمع وبصر إسرائيل ، بل ، ووفقاً لبعض الروايات والشهود ، بموافقة إسرائيل وتواطئها الضمنى مع القوات المارونية . وبعد مرور ٤٠ ساعة على وقوع المذبحة ، وعندما رفع الحصار عن المخيمين ، وصل عدد جثث الضحايا الذين قتلوا فى تلك المذبحة المشينة إلى ما يتراوح بين ٧٠٠ و ٨٠٠ فلسطينى ، طبقًا لتقديرات إسرائيلية ، وكان أغلب هؤلاء الضحايا من المدنيين ، ومن بينهم العديد من النساء والأطفال . غير أن روايات متضاربة أشارت فيما بعد إلى أن عدد القتلى ربما تراوح بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ شخص. (شيف وياعرى ١٩٨٤، تيسلر ٥٩٩ – ٥٩٠ – ١٩٩٤) .

والحقيقة أن الاجتياح الإسرائيلى للبنان قد أعاد الحياة والنشاط إلى جماعات السلام الإسرائيلية التى كانت موجودة فى ذلك الوقت من قبيل حركة السلام الآن ، ولجنة التضامن مع جامعة بير زيت (والتى قررت أن تعيد تسمية نفسها لتصبح لجنة مناهضة الحرب فى لبنان) . وبالإضافة إلى هذا ، تسبب الغزو الإسرائيلى للبنان فى ظهور جماعات احتجاج جديدة مثل جماعة «آباء ضد الصمت» و «نساء ضد غزو لبنان» و«ييش جفول» (وهى كلمة عبرية تعنى حرفيًا «هناك حدود») . (كاميز ١٩٩٦ ، شارونى ١٠٩ – ١٠٦ – ١٩٩٥) . وفى معرض تساؤلها عن شرعية وأخلاقية هذه الحرب فى لبنان ، دعت جمعية ييش جفول الجنود الإسرائيليين إلى رفض الخدمة العسكرية فى لبنان . ولم يوقع المئات من هؤلاء الجنود فقط على التماسات أقروا فيها أنهم غير مستعدين لمواصلة السير فى هذا النهج ، بل إنه تم أيضاً إرسال عدد كبير من الجنود إلى السجن «لرفضهم تنفيذ الأوامر» . (كاميز ٣٨ – ٣٦ – ١٩٩٦) .

ولأول مرة فى تاريخ دولة إسرائيل ، لم يتشكك المواطنون الإسرائيليون فى جدوى سياسات حكومتهم فقط ، وإنما خرجوا أيضًا إلى الشوارع للإعراب عن سخطهم واستيائهم إزاء هذه السياسات ومنذ بداية الغزو الإسرائيلى للبنان ، تفجرت موجة من الأنشطة الاجتماعية : مظاهرات فى الشوارع وداخل الجامعات ، التماسات مناهضة للحرب ، ورسائل إلى الصحف ووسائل الإعلام . واستطاعت أول مظاهرة وطنية ضد الحرب فى ٢٦ يوليو عام ١٩٨٢ أن تجذب ما يقرب من ٢٠ ألفًا من الإسرائيليين والذين طالبوا بالانسحاب الفورى للجيش الإسرائيلى من لبنان . وبعد ذلك ببضعة

أشهر، ورداً على مذبحة صابرا وشاتيلا ، شهدت إسرائيل أكبر مظاهرات الاحتجاج على الإطلاق وفقاً لما أعلنته حركة السلام الآن وتقارير وسائل الإعلام ، حيث شارك في هذه المظاهرة حوالى ٤٠٠ ألف شخص وزادت حدة الاحتجاج السياسى فى أعقاب نشر تقرير لجنة كاهان وهى لجنة خاصة تشكلت للتحقيق فى تورط إسرائيل فى مذبحة صبرا وشاتيلا (كاميز ٣٦ - ٣٤ - ١٩٩٦) . والواقع أن تقرير اللجنة والمناقشات العامة التى أثارها التقرير ، ناهيك عن المظاهرات الواسعة المناهضة للحرب (والتى استمرت حتى انسحاب إسرائيل جزئيًا من لبنان فى عام ١٩٨٥) ، كل ذلك كان إيذاناً بحدوث تآكل تدريجى فى الإجماع الإسرائيلى فيما يتعلق بقضايا الأمن والسلام .

وبالنسبة إلى الفلسطينيين ، تسببت هزيمة منظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان فى حدوث انقسامات ونزاعات داخلية بين الفصائل المختلفة المنضوية تحت لواء منظمة التحرير ، بل وفيما بين الدول العربية التى كانت تساند هذه الفصائل . وفى الوقت ذاته، كانت القيادة الفلسطينية الداخلية تنمو وتنظم صفوفها ضد الاحتلال الإسرائيلى. وفى الحقيقة أن تدمير البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان، أسهم فى ظهور جماعات وحركات شعبية أكثر تنظيماً ، كما أسهم فى ظهور حركة مقاومة مستقلة ذاتياً فى الضفة الغربية وغزة . وسرعان ما نالت حركة المقاومة الوليدة هذه شهرة واسعة على الساحة العالمية مع تفجر الانتفاضة الفلسطينية فى ديسمبر عام ١٩٨٧ .

الانتفاضة الفلسطينية :

اندلعت هذه الانتفاضة الشعبية فى ٨ ديسمبر عام ١٩٨٧ ،عندما وقع حادث تصادم بين ناقلة دبابات تابعة للجيش الإسرائيلى ورتل من السيارات المليئة بالعمال الفلسطينيين والذين كانوا ينتظرون عند نقطة تفتيش عسكرية إسرائيلية فى الطرف الشمالى لقطاع غزة، (جيرنر ٩٧ - ١٩٩٤) . وأسفر الحادث عن مصرع أربعة فلسطينيين وإصابة سبعة آخرين بجروح خطيرة ، وسرعان ما راجت شائعات بأن هذا التصادم لم يكن حادثاً وإنما كان عملاً مدبراً ومتعمداً نفذته إسرائيل انتقاماً لمقتل بائع إسرائيلى فى غزة قبل ذلك بأيام قليلة . وهكذا تحولت جنازات القتلى الأربعة إلى مظاهرة ضخمة . وواصل الفلسطينيون احتجاجهم فى اليوم التالى ، وسرعان ما

امتدت المظاهرات وحركة المقاومة الواسعة من قطاع غزة لتشمل القدس الشرقية وبقية مدن الضفة الغربية . وعلى الرغم من أن هذا الحادث يعتبر المحرك الرئيس وراء اندلاع الانتفاضة الفلسطينية إلا أن هنالك اتفاق بين المحللين على أن الظروف المعيشية القاسية التى كان يعيش الفلسطينيون فى ظلها كانت تشبه وعاء الطهى الذى يعمل بالضغط ، ومن ثم كان الانفجار وشيكاً .

والمعنى الحرفى من الكلمة العربية انتفاضة ارتجاف أو اهتزاز . وبالنسبة للفلسطينيين ، فإن هذه الكلمة قد جسدت ليس فقط إصرارهم على إثارة رجفة جعلت الاحتلال الإسرائيلى فرائصه ترتعد ، بل جسدت أيضاً رغبة الفلسطينيين فى تخليص أنفسهم من وهم الاعتماد على القوى الخارجية مثل الأمم المتحدة ، والولايات المتحدة، وحتى الدول العربية وجامعة الدول العربية ، والاعتماد ، بدلاً من ذلك على أنفسهم فى أن يقرروا مصيرهم وحدهم دون أن يركنوا إلى مساعدة الغير . وكانت حالة التعبئة الفلسطينية غير مسبوقة ليس فقط فى مداها واتساعها بل أيضاً فى قوة تنظيمها . إذ إن الأشخاص الذين شاركوا فى الأعمال التى تتسم فى معظمها بالعنف والتى ميزت الانتفاضة ، بدءاً من مظاهرات الشوارع ، ومقاومة الضرائب ، والاضرابات التجارية و انتهاءً بتأسيس تعاونيات زراعية ومراكز تعليمية بديلة ، كانوا جميعاً على أعلى مستوى من التنظيم وأعلى درجة من الانضباط وجاءوا من خلفيات اجتماعية اقتصادية متنوعة ، وكانوا ينتمون إلى شرائح وتيارات سياسية مختلفة ويمثلون كافة مشارب الحياة فى المجتمع الفلسطينى . وفى غضون أسابيع فقط تحولت بؤرة الصراع واهتمام العالم إلى العشرات من الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة والذين كانوا جميعًا تحت قيادة واحدة (القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة) والتى طالبت بانسحاب الجيش الإسرائيلى من الأراضى الفلسطينية المحتلة وبحل عادل ودائم للصراع الإسرائيلى – الفلسطينى (نصار وهيكوك ١٩٩١ ، برنيين ١٩٩١ ، هنتر ١٩٩١) .

وعلى الجانب الآخر من الصراع الإسرائيلى – الفلسطينى ، فإن الحكومة الإسرائيلية التى فاجأتها الانتفاضة ، كانت تحاول وبصعوبة بالغة صياغة رد على الانتفاضة ، وفى الوقت نفسه ، شن حملة علاقات عامة دولية هدفها تحسين صورة إسرائيل فى أنحاء العالم . والحقيقة أن الانتفاضة الفلسطينية أحدثت تحولاً هائلاً فى علاقات القوة بين إسرائيل والفلسطينيين . ورغم أنه بالمعنى الاستراتيجى ، مازال

التفوق لصالح الجانب الإسرائيلى ، إلا أن الروح المعنوية العالية كانت من نصيب الفلسطينيين . فلأول مرة فى التاريخ الصراع ، استخدام التشبيه التمثيلى «ديفيد ضد جوليات» فى التحليلات البحثية والتقارير الإعلامية والتى وصفت إسرائيل بأنها جوليات ، ذلك المعتدى الغاشم ، فى حين وصفت الفلسطينيين بأنهم ديفيد ، ضحايا الاضطهاد والظلم الذين يصرون على تحقيق النصر فى مواجهة كل الظروف الصعبة لأنهم ببساطة أصحاب قضية عادلة (لقمان وبنيين ١٩٨٩ ، شيف ١٩٩٠، بيريز ١٩٩٠) .

ولكن الفلسطينيين كانوا يدركون تمامًا أنه من أجل تحقيق آمالهم بشأن تقرير المصير ، فإنهم كانوا بحاجة إلى تأسيس بنيتهم التحتية الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، وهو المشروع الذى حرمتهم إسرائيل من تنفيذه . ووصولاً إلى هذه الغاية ، أسس الفلسطينيون خمس لجان شعبية رئيسية للتعامل مع شئون الزراعة ، والتعليم ، وتخزين المواد الغذائية ، والرعاية الصحية ، والأمن . وسرعان ما صارت هذه اللجان ، التى مارست مهامها على المستويين القومى والمحلى ، أهم آلية عملية للتعبئة السياسية والمحافظة على المجتمع الفلسطينى . وفى رأى العديد من الفلسطينيين كانت هذه اللجان تمثل البنية الأساسية لدولة فلسطين المستقبلية أو ، على الأقل ، تمثل مؤسسات ديمقراطية مؤقتة تستهدف حكم المجتمع الفلسطينى خلال فترة الانتفاضة .

وقد اضطلعت النساء الفلسطينيات بدور فعال وحيوى فى إطار هذه اللجان الشعبية، والتى كانت تشبه اللجان النسائية التى لعبت دوراً مهمًا فى الضفة الغربية وقطاع غزة لما يزيد عن عشر سنوات (جاد ١٩٩٠ ، هلترهان ١٩٩١ ، شارونى ٧٢ - ٧٣ - ١٩٩٥) .

وخلال العامين الأولين من الانتفاضة ، كان المناخ العام داخل المجتمع الفلسطينى إيجابيًا للغاية . فالإحساس بالاعتماد على الذات ، مقترنًا بالقدرة على تجسيد الوحدة وحشد التأييد الدولى للقضية الفلسطينية ، منحا الفلسطينيين قوة هائلة وجعلهم يشعرون بالفخر والكبرياء والأمل فى أن حلاً دبلوماسيًا لمشكلتهم أخذ يلوح فى الأفق . والحقيقة أن المحللين يتفقون فيما بينهم على أن الانتفاضة مكنت الفلسطينيين من نبذ النضال المسلح ، والاعتراف بحق إسرائيل فى الوجود ، والإصرار جنباً إلى جنب مع إسرائيل (تيسلر ٧٢٥ - ٧١٧ - : ١٩٩٤) . وبات هذا التحول المثير والمفاجئ واضحًا فى

نوفمبر عام ١٩٨٨ ، عندما أقر ياسر عرفات رسميًا وعلنًا الحل المتمثل فى وجود دولتين وأعلن دولة فلسطين المستقلة فى الضفة الغربية وقطاع غزة .

وفى أغلب الأحوال تجاهلت الحكومة الإسرائيلية أهمية ومغزى إعلان عام ١٩٨٨ ، ومن ثم تعثرت الجهود الرامية إلى تحقيق حل سياسى . وبدلاً من ذلك ، واصل كل من الحكومة الإسرائيلية والجيش الرد على الانتفاضة باتباع أساليب القمع وسياسة التعنت . وكما حدث أثناء الغزو الإسرائيلى للبنان فى عام ١٩٨٢ ، قوبلت إجراءات الحكومة الإسرائيلية بانتقاد جماهيرى متزايد واحتجاجات واسعة من الإسرائيليين . وعلى الرغم من أن القيادات الرئيسية فى معسكر السلام الإسرائيلى قد اعترفت إلى حد كبير بالآثار المدمرة للاحتلال على المجتمع الإسرائيلى قبل أن تبدأ الانتفاضة ، إلا أن هذه الانتفاضة ذاتها كانت حافزًا رئيسيًا للتعبئة السياسية داخل اليسار الإسرائيلى. إذ قادت النساء والجماعات التى كانت تشارك فى السابق فى العمل التضامنى مع الفلسطينيين ، حركة النضال ، والتى تركزت حول واحدة أو أكثر من الرسائل التالية : إنهاء الاحتلال ، وإجراء مفاوضات حول السلام مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وإقامة دولتين لشعبين (كاميز ٤٨ – ٤١ – : ١٩٩٦) . ورغم أن حركة السلام الإسرائيلية كانت ناجحة إلى حد كبير فى حشد الرأى العام الإسرائيلى، إلا أنها أخفقت فى وجودها لتغيير سياسات الحكومة الإسرائيلية . وبحلول أواخر عام ١٩٩٠ ، كان الصراع الإسرائيلى – الفلسطينى قد تحول إلى حرب استنزاف فى الوقت الذى انصرف فيه اهتمام العالم كله إلى الأزمة فى الخليج (هاجر وبنيين ١٩٩٠ ، جيرنر ١٩٩١) .

الفلسطينيون واليهود الإسرائيليون فى التسعينيات

تمثل أزمة الخليج ، التى بدأت فى الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ بالغزو العراقى للكويت وتصاعدت لتتحول إلى حرب فى يناير عام ١٩٩١ ، نقطة تحول أخرى فى تاريخ الصراع (بينيس وموشابيك ١٩٩١ ، سيلفرى وكيرف ١٩٩١ ، هيرو ١٩٩٢) . وعلى النقيض من وجهة النظر المشتركة السائدة بين الباحثين والمحللين الإعلاميين بأن الفلسطينيين أقدموا على اختيار سياسى سئ بانحيازهم إلى جانب صدام حسين خلال هذه الأزمة ، فإن الموقف الفلسطينى كان أكثر تعقيدًا من ذلك (أندونى ١٩٩١) . وطوال هذه الأزمة ، أكد الموقف الرسمى الفلسطينى على مبدأين : شجب

الاحتلال العراقى ، والمعارضة للحل العسكرى بشأن الأزمة (عشراوى ١٩١ - ١٩٩١) . ولكن وكما هو الحال بالنسبة للعديد من المجتمعات الأخرى ، فإن المجتمع الفلسطينى ليس بالمجتمع المتناغم فى مجمله ، إذ كان هناك فلسطينيون أعربوا عن تعاطفهم مع صدام حسين لتحديه لدول الخليج ، ولمواجهته للولايات المتحدة ، والغرب بوجه عام وإسرائيل على نحو خاص . ومع ذلك ، وبصرف النظر عن وجهة نظرهم إزاء أزمة الخليج ، انتقد الفلسطينيون سياسة الكيل بمكيالين التى تبنها المجتمع الدولى والذى استخدم الأمم المتحدة والاحتكام إلى القانون الدولى لمطالبة العراق بالانسحاب الفورى من الكويت ، بيد أنه أخفق فى تطبيق الإجراءات نفسها على الاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية وقطاع غزة (عشراوى ١٩٢ - ١٩٥ : ١٩٩١) .

وأسهمت أزمة الخليج والحرب فى تصعيد التوتر بين اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين . ومع بدء الهجمات الجوية بقيادة الولايات المتحدة على العراق ، فرضت إسرائيل حظر تجول طوال ٢٤ ساعة يوميًا على الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهو الحظر الذى استمر لما يقرب من شهر ونصف شهر . ورد العراق على الهجمات الجوية ضده بشن هجمات بصواريخ سكود على كل من السعودية وإسرائيل ، وهى هجمات لم تكن فعالة وإن كانت أثارت حالة من الرعب والهلع بين سكان هاتين الدولتين . وعلى الرغم من أن تلك الهجمات أدت إلى إصابة مواطنين إسرائيليين فقط ، إلا أن أجواء الخوف والفزع كانت تخيم على السكان فى إسرائيل ، الأمر الذى دفع الآلاف من الإسرائيليين إلى الهرب من المناطق الحضرية إلى المناطق الريفية لتفادى هجوم صاروخى محتمل . وقد ضاعف من حالة الشعور بالعجز التى عاشتها إسرائيل حقيقة أن الولايات المتحدة طلبت إليها عدم الرد انتقاماً لهذه الهجمات الصاروخية ولئلا يؤدى الرد الإسرائيلى على العراق إلى تقويض التحالف الدولى بقيادة الولايات المتحدة والذى كان هشًا بالفعل (شيف ١٩٩٠) . وفى الوقت نفسه ، وعلى الجانب الآخر من خط التقسيم الإسرائيلى - الفلسطينى ، كان مليون ونصف المليون من الفلسطينيين يخضعون لحظر التجول التام ، بل وعانى العديد من هؤلاء من المجاعة ، ولم يكن لديهم أجهزة إنذار ضد هجمات صواريخ سكود أو أقنعة واقية من الغازات السامة لحماية أنفسهم من مخاطر هجوم كيماوى محمول جواً (ستروم ٥٩ - ٧٨ - ١٩٩٢ ، شارونى ٨٢ - ٨٣: ١٩٩٥) .

وبالإضافة إلى آثارها على إسرائيل وعلى العلاقات الفلسطينية – الإسرائيلية ، كان لأزمة الخليج مضامينها وأبعادها الخطيرة بالنسبة إلى الفلسطينيين فى كل من الضفة الغربية وقطاع غزة وفى منطقة الخليج . فقد تسبب حظر التجول الطويل فى ظهور صعوبات ومتاعب اقتصادية كبيرة والتى ازدادت حدة عندما اكتشف الفلسطينيون، الذين كانوا يعملون داخل إسرائيل قبل الحرب أن أرباب الأعمال الإسرائيليين قد استبدلوهم بمهاجرين يهود جدد . كما تأثر الفلسطينيون فى الأراضى المحتلة بمصير أقاربهم الذين كانوا يعملون ويعيشون فى دول الخليج . إذ فقد ما يقرب من ٤٠٠ ألف فلسطينى كانوا يعملون بالكويت مصادر رزقهم ومعيشتهم هناك وأرغموا مرة أخرى على الفرار من البلاد والبحث عن ملاذ لهم فى مكان آخر . ونظراً لأن معظم هؤلاء اعتادوا إعالة أعضاء أسرهم فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، فإن استبدالهم بعمالة أخرى قد تسبب فى فقدان هذه الأسر لمصدر مهم للدخل كانوا يعتمدون عليه فى حياتهم . وعلاوة على ذلك ، فإن المساهمات والمساعدات المالية الخارجية التى كانت تقدمها دول الخليج إلى منظمة التحرير الفلسطينية والمؤسسات الفلسطينية مثل المستشفيات ، والمدارس والجامعات ، قد توقفت تقريباً (أندونى ١٩٩١) .

وفى أعقاب حرب الخليج ، عاد الصراع العربى – الإسرائيلى إلى جدول أعمال سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط . ففى أكتوبر عام ١٩٩١ ، وبعد شهور من الجهود الدبلوماسية المكوكية التى قام بها وزير الخارجية الأمريكى آنذاك ، جيمس بيكر، عقد مؤتمر دولى للسلام فى العاصمة الأسبانية مدريد ، وهو المؤتمر الذى شارك فى رعايته الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . وشارك فى هذا المؤتمر كل من مصر، وسوريا ، ولبنان ، وإسرائيل بالإضافة إلى وفد فلسطينى – أردنى مشترك لأن الحكومة الإسرائيلية رفضت مشاركة وفد فلسطينى مستقل بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية . وقد استمرت محادثات السلام هذه طوال عام ١٩٩٢ والنصف الأول من عام ١٩٩٣ فى واشنطون دى – سى ، وفى مكان آخر حيث أخذت مسارين متوازيين: الأول ثنائى ، والثاني متعدد الأطراف . ورغم حقيقة أنه لم يتم التوصل إلى أى اتفاق خلال تلك الفترة وأنه بحلول منتصف عام ١٩٩٣ وصلت المفاوضات على المسار الإسرائيلى – للفلسطينى إلى حالة من الجمود العام ، إلا أن بعض المحللين يقولون إن حقيقة إجراء مفاوضات وجهاً لوجه بين المسئولين الإسرائيليين والفلسطينيين كانت بمثابة خطوة رئيسية مهمة إلى الأمام فى إطار العلاقات الإسرائيلية – الفلسطينية (تيسلر ٧٤٨ – ٧٥٠ : ١٩٩٤) .

وأثار فوز حزب العمل فى الانتخابات الإسرائيلية فى عام ١٩٩٢ الآمال بشأن تحقيق تقدم فى عملية السلام . وثمة علامة مشجعة أخرى فى هذا الاتجاه تمثلت فى إدخال الحكومة الجديدة قانون يرفع الحظر الذى كان مفروضاً على الاجتماعات واللقاءات غير المرخص بها مع أعضاء من منظمة التحرير الفلسطينية . وعلى الرغم من هذه التطورات ، ظل الوضع فى الضفة الغربية وقطاع غزة متوتراً ، بل وأخذ يتصاعد ليتحول إلى مصادمات عنيفة بين الحين والآخر . وفى أواخر أغسطس عام ١٩٩٣ ، عرف العالم أن مفاوضات سرية قد جرت بين مسئولين من الحكومة الإسرائيلية وممثلين من منظمة التحرير الفلسطينية فى النرويج لشهور عدة . وكان الإعلان عن أن الجانبين قد وقعا إعلان مبادئ مشتركة (والذى يعرف أيضًا باتفاقيات أوسلو) مفاجئاً ومشجعًا فى آن واحد . وبعد ذلك بفترة قصيرة ، شاهد العالم كلاً من ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وإسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلى وهما يتصافحان فى حديقة البيت الأبيض فى واشنطن دى سى فى ختام مراسم التوقيع على إعلان المبادئ .

وفى الأول من يوليو عام ١٩٩٤ ، وبعد سبعة وعشرين عامًا قضاها فى المنفى، وطأت قدما عرفات أرضًا فلسطينية حيث كان فى استقباله مئات الآلاف من الفلسطينيين وبعدها بفترة قصيرة ، شكل عرفات السلطة الوطنية الفلسطينية ، وأجريت أول انتخابات ديمقراطية فلسطينية فى يناير عام ١٩٩٦, وفى البداية ، حظيت اتفاقيات أوسلو بتأييد الجانبين الإسرائيلى والفلسطينى . وسبب هذا التأييد أن الأفراد العاديين من الإسرائيليين والفلسطينيين كانوا قد سئموا من موجة العنف التى كانت تميز الصراع الإسرائيلى الفلسطينى ، وكانوا يتوقون تمامًا إلى جنى ثمار السلام التى وعد بها

صورة (٣ : ٦) الطبيب السياسى الفلسطينى حيدر عبد الشافى كان أحد كبار المفاوضين الفلسطينيين الذين شاركوا فى عملية السلام بمدريد ، وفى يناير ١٩٩٦ انتخب فى أول مجلس تشريعى فلسطينى

زعماؤهم . بيد أنه بينما أخذت المفاوضات تتعثر وبينما لم يطرأ تحسن على الأحوال المعيشية ، انخفض التأييد للاتفاق ولعملية السلام برمتها . وعلاوة على هذا ، أدى الجمود الذى أصاب عملية السلام وإخفاق القيادتين الفلسطينية والإسرائيلية فى إطلاع المواطنين على ديناميكيات ونقاط الخلاف بين الجانبين ، إضافة إلى الافتقار إلى أى تحسن فى أوضاع المعيشة ، أدى هذا كله إلى التعجيل بظهور موجة جديدة من العنف.

صورة (٤ : ٦) الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات

وأدت أجواء الأزمة إلى تقوية المعارضة لاتفاقيات أوسلو وكشفت عن وجود انقسامات وصراعات داخلية داخل المجتمعين الفلسطينى والإسرائيلى . وهذه الانقسامات والصراعات التى باتت أكثر وضوحاً فى أعقاب توقيع اتفاقيات أوسلو ، تتضمن مسائل عن الهوية والمجتمع والآراء المتعارضة ليس فقط إزاء الحدود بين إسرائيل وفلسطين والعلاقات بينهما ولكن أيضًا حيال الهوية الاجتماعية والسياسية لكل مجتمع . وصارت الانقسامات السياسية الحادة داخل المجتمع الإسرائيلى واضحة فى نوفمبر عام ١٩٩٥ فى أعقاب اغتيال إسحاق رابين على يد مواطن يهودى كان يعارض فكرة رابين عن السلام .

ولكن على النقيض من المفاهيم والأفكار السائدة ، لم تكن اتفاقيات أوسلو معاهدة سلام. وبدلاً من ذلك ، كانت هذه الاتفاقيات تشكل جدول عمل للمفاوضات يغطى فترة انتقالية مدتها خمس سنوات ، والتى كان من المتوقع أن تؤدى إلى تسوية دائمة على أساس قرارى مجلس الأمن الدولى رقمى ٢٤٢ و ٣٣٨ . ودعت الاتفاقيات إلى فترة انتقالية والتى يجب على إسرائيل خلالها أن تنسحب تدريجيًا من المناطق الفلسطينية الرئيسية فى الأراضى المحتلة ، على أن يبدأ هذا الانسحاب من غزة وأريحا (أرورى ١٩٩٥ ، أشر ١٩٩٥) . وفى مايو عام ١٩٩٤ ، أى بعد خمسة أشهر

تقريباً على الموعد المحدد لتنفيذ الجدول الزمنى ، وفى أعقاب توقيع اتفاق القاهرة الذى كان يهدف إلى التصديق على إعلان المبادئ ، بدأ الجيش الإسرائيلى إعادة الانتشار فيما بدأت الشرطة الفلسطينية التحرك داخل المناطق الفلسطينية التى حصلت على الحكم الذاتى حديثاً .

وفى الوقت الحاضر ، يتمتع الفلسطينيون بالحكم الذاتى فى ٢٧ ٪ من الأراضى المحتلة (٦,٦ ٪ من أراضى فلسطين التاريخية) . وفى الضفة الغربية، تمثل هذه النسبة ٣ ٪ من المساحة الإجمالية ، بينما نجد أنه فى غزة ، تسيطر السلطة الوطنية الفلسطينية فى الوقت الحاضر على ٦٠ ٪ من الأراضى . ومع هذا ، وفى قرى الضفة الغربية تتمتع السلطة الفلسطينية بصلاحيات مدنية وشرطية فقط ، وتظل إسرائيل مسئولة عن «الأمن الداخلى» ، وهو معنى مفتوح للتفسير . وعلاوة على ذلك ، ونظراً لأن البلدات والقرى الفلسطينية تعتبر فى معظمها غير متماسة أو قريبة من بعضها ولأن إسرائيل لا تزال تسيطر على شبكة الطرق التى تربط بين هذه البلدات والقرى ، فإن بوسع إسرائيل أن تمنع ، وقتما تشاء ، كافة الأنشطة المرتبطة بنقل البضائع وانتقال الأشخاص عبر هذه الطرق (ربانى ١٩٩٦) .

ولعل مما أدى إلى زيادة تعقيد تنفيذ اتفاقيات أوسلو التى قد تأخر تنفيذها بالفعل ذلك الفوز المفاجئ الذى حققه حزب الليكود بزعامة بنيامين نيتانياهو فى الانتخابات الإسرائيلية العامة فى مايو عام ١٩٩٦ . وجادل نيتانياهو ، ووافقه فى ذلك العديد من المحللين ، بأن سياساته بشأن التوسع الاستيطانى و « تهويد» القدس الشرقية إنما كانت فقط تحذو حذو تلك السياسات التى كانت تتبعها حكومات حزب العمل السابقة . ورغم هذا ، أدى الأسلوب الفظ والذى لم يكن يقبل المساومة والذى لجأ إليه نيتانياهو فى تنفيذ سياساته هذه إلى تصعيد خطير فى العلاقات الإسرائيلية – الفلسطينية وإلى حدوث نكسة رئيسية أخرى ، ما لم يكن إلى انهيار تام ، فى عملية السلام . ولقد تمحورت النزاعات والخلافات الرئيسية حول مشكلتين رئيسيتين : المستوطنات اليهودية، والقدس . وهاتان المشكلتان ، إضافة إلى المشكلات المتعلقة باللاجئين الفلسطينيين ، والحدود النهائية ، لم يتم معالجتها فى اتفاقيات أوسلو وإنما تركت لبحثها خلال مفاوضات الوضع النهائى ، والتى كان من المقرر أصلاً أن تبدأ فى سبتمبر عام ١٩٩٨ ولكنها لم تبدأ عندما انتهت الفترة الانتقالية ، ومدتها خمس سنوات والتى نصت عليها اتفاقيات أوسلو ، فى مايو عام ١٩٩٩ .

صورة (٥ : ٦) مواجهات بين القوات الإسرائيلية والمتظاهرين الفلسطينيين فى مدينة الخليل بالضفة الغربية . وكان الفلسطينيون يحتجون على منعهم من الوصول إلى ساحة الحرم الإبراهيمى حيث يعتقد أنه المكان الذى دفن فيه النبى إبراهيم وزوجته سارة وأبناؤها

أرض واحدة ، وشعبان : المشكلات الرئيسية ونقاط الخلاف :

كما أوضح الجزء السابق ، فإن ديناميكيات الصراع ، ومدى الحلول ودور اللاعبين من الخارج ، والمواقف السياسية لكل من الفلسطينيين واليهود قد شهدت تغييراً دراماتيكيًا طوال مسيرة الصراع . وفى الوقت نفسه ، لم يطرأ أى تحول على المشكلات الرئيسية التى تميز الصراع . وتتضمن مثل هذه المشكلات المطالب والدعاوى المتعارضة لحركتين قوميتين بشأن حق كل منهما فى حيازة الأرض نفسها.

وقد كان الصراع الإسرائيلى – الفلسطينى بمثابة العامل الحافز والمحك الأساسى لترسيخ أفكار خاصة ومحددة عن «المجتمع المتصور» القومى للفلسطينيين ولليهود الإسرائيليين . وبالنسبة إلى الفلسطينيين ، كان هذا المجتمع المتصور يتمثل فى وجود

دولة فلسطينية مستقبلية ذات سيادة . وبغض النظر عن الخلافات المتعلقة بحدود الأراضى والهوية السياسية والاجتماعية لدولتهم المستقبلية ، فإن ثمة إجماع واسع بين الفلسطينيين على أن مبادئ تقرير المصير القومى والسيادة على الأراضى جزء لا يتجزأ ولا يمكن أن ينفصلا عن بعضهما الآخر وأنهما حاسمان وضروريان لبناء الشعب الفلسطينى . وهنالك إجماع حول المبادئ ذاتها التى أمكن استخدامها كأساس لمجتمع متصور يهودى - إسرائيلى . ومع هذا ، وعلى الرغم من أن اليهود حققوا حلمهم وأسسوا دولة يهودية ، إلا أن تحقيق هذا الحلم قد جاء على حساب الفلسطينيين، الذين لم تتحقق رغبتهم فى تقرير المصير والسيادة على الأراضى . وهذا التحول فى مسار الأحداث قد شكل ومن خلال طرق عدة ، الأساس للصراع الحالى .

وإن مبادئ تقرير المصير القومى والسيادة على الأراضى تشكل الأساس للصراعات المبكرة بين المستوطنين الصهاينة والسكان الفلسطينيين الأصليين . وقد ساهمت ديناميكيات وكثافة الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى طوال السنوات الماضية فى تصاعد واحتدام هذا الصراع ، بل وعززت الخلافات الحادة «بيننا» و «بينهم» . وجاء تأسيس دولة إسرائيل فيما بعد ليزيد من حدة هذه الخلافات بين القوميتين الإسرائيلية والفلسطينية : فكان الخلاف الأول بين قومية الدولة المؤسسية وقومية حركة التحرير ، بينما تمثل الخلاف الثانى فى علاقات القوة بين دولة الاحتلال وسكان يناضلون لتخليص أنفسهم من حكم تلك الدولة .

وقد أولت الدولة اليهودية الناشئة اهتماماً خاصاً لأمنها القومى . وبالنسبة للفلسطينيين ، على أى حال ، فإن التحرير الوطنى قد برز كأهم محور لهويتهم الجماعية ، ولا سيما عقب الاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية وقطاع غزة فى عام ١٩٦٧ وظهور منظمة التحرير الفلسطينية كأداة لتحقيق الآمال القومية . وداخل المجتمع اليهودى - الإسرائيلى ساعدت الإثارة الدائمة والمستمرة لمخاوف إسرائيل الأمنية فى تعزيز عسكرة حياة الإسرائيليين سراً وعلانية على السواء . ولكن بالنسبة للفلسطينيين ، فإن مركزية الصراع قد عبرت عن ذاتها فى تفضيل التحرر الوطنى ليس فقط كأيديولوجية أساسية للنضال ضد الاحتلال الإسرائيلى ، ولكن أيضاً كمسار مبدئى يشكل أفكاراً وطرق معينة عن الهوية الفلسطينية والمجتمع الفلسطينى .

وثمة تشابه بين مبدأ الأمن القومى ومبدأ التحرر الوطنى من حيث رؤيتهما لقوة ووحدة الأمة باعتبارهما أهم من القضايا التى يثيرها المواطنون العاديون والجماعات الاجتماعية المختلفة داخل تلك الأمة . وكنتيجة للتأكيد على الأمن القومى والتحرر الوطنى ، فإنه قد تم إرجاء مشكلات اقتصادية واجتماعية مختلفة داخل المجتمعين الإسرائيلى والفلسطينى لحين التوصل إلى حل للصراع بين الجانبين . وعلى الرغم من ذلك ، فإن الاختلافات بين القوميتين اليهودية - الإسرائيلية والفلسطينية ، والتى غالبًا ما يتم تجاهلها ، تعتبر أكبر بكثير من نقاط التماثل والتشابه وهى تتضمن اختلافات جوهرية فى السياق التاريخى والاجتماعى لهاتين الحركتين القوميتين ، وعلى الأخص ، تلك الاختلافات المذهلة بالنسبة للقوة والمزايا لدى المجتمعين .

ومن أجل صياغة حل لهذا الصراع الطويل والذى يمكن أن يكون مقبولاً لدى كل من اليهود والفلسطينيين ، يجب على المرء فى المقام الأول أن يحدد المشكلات الرئيسية لدى كل طرف . وخلال هذه العملية ، من الأهمية بمكان إعطاء اهتمام كاف للتغييرات التى طرأت على طريقة تحديد الطرفين للمشكلات التى تراكمت بمرور السنين وكذلك تحديد أوجه الخلاف والاتفاق فى مفاهيم الطرفين ورؤية كل منهما للمشكلات الرئيسية . وفيما يلى قائمة أساسية لبعض المشكلات التى يراها المحللون أنها جوهرية ومحورية بالنسبة إلى التوصل إلى حل عادل ودائم للصراع :

- ضرورة وجود حدود ثابتة ومتفق عليها بين إسرائيل وجاراتها .
- ضمان الأمن المتبادل لجميع دول وشعوب المنطقة .
- تحديد وضع القدس .
- المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية وقطاع غزة .
- دفع تعويضات للفلسطينيين الذين أرغموا على ترك ديارهم وممتلكاتهم كنتيجة مباشرة للصراع الفلسطينى - الإسرائيلى .
- الوضع السياسى ، والمدنى ، والقومى للفلسطينيين الذين يعيشون فى إسرائيل ويحملون الجنسية الإسرائيلية .
- ضمان بقاء إسرائيل وفلسطين والدول الأخرى فى المنطقة اقتصادياً وقيام علاقات اقتصادية بين هذه الأطراف .

● توزيع الموارد مثل المياه بين دول المنطقة .

● دور المجتمع الدولى فى حفظ ، وصنع ، وبناء السلام .

ومن المهم التمييز بين تلك المحاولات التى قد استهدفت أساسًا تلبية احتياجات وتطلعات أحد طرفى الصراع (اليهود أو الفلسطينيين) وتلك التى قد سعت لأن تضع فى الاعتبار احتياجات ، وتطلعات ، والحلول المفضلة لكل من اليهود والفلسطينيين . ووفقًا لما ذكره بعض المحللين ، فإنه لإيجاد ضرب من التوافق بين مفاهيم وأفكار الحل المتعارضة للصراع الإسرائيلى الفلسطينى ، قد يكون مفيداً هنا وضع هذه المفاهيم والأفكار على امتداد سلسلة متصلة على أن يحدها مصطلح «خاص» من ناحية ، ومصطلح «عام» من ناحية أخرى (فيتاليس ٢٩٠ : ١٩٩٢) . وهذه السلسلة تعكس بوضوح وجهة النظر السائدة ، والتى تشير إلى أن الصراع ينشأ أصلاً عن دعاوى ومطالب متعارضة لشعبين حول الحق الخاص لكل منهما فى تقرير المصير القومى وحقوق السيادة على المساحة نفسها من الأرض . ووفقًا لهذه الرؤية ، فإن الحلول التى تقضى بوجود دولة واحدة ، سواء أكانت يهودية أم فلسطينية ، تعتبر حلولاً خاصة فى طبيعتها نظراً لأنها تحدد رؤية الطرف الآخر ومطالبه .

وثمة ميل ، ولاسيما بين الباحثين فى مجال حل الصراع والذين يكتبون عنه باستمرار ، إلى رؤية الانتقال من السيناريوهات الخاصة إلى السيناريوهات العامة باعتبار الأخيرة مجموعة من التطورات التاريخية والاختيار العقلانى . وهكذا ، فإن المشروع الصهيونى لبناء دولة فى فلسطين ، والذى أدى إلى تأسيس دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ ، والذى قضى تمامًا على وجود السكان العرب الأصليين ، غالبًا ما تتم مقارنته بالمحاولات التى قام بها الفلسطينيون فى الخمسينيات والستينيات ، بدعم ومساندة الزعماء العرب ، لتحرير وطنهم .

وطبقًا لهذا التفسير ، فإنه بمرور الوقت وتأثير تطورات سياسية معنية ، انتهى اليهود الإسرائيليون والفلسطينيون إلى نتيجة مفادها أن رؤيتهم بشأن إقامة وطن خاص قد لا تؤدى إلى تحقيق السلام ، ومن ثم بدءوا تدريجيًا فى استكشاف السيناريوهات العامة . وعكست هذه السيناريوهات أن هنالك بعض الرغبة فى إيجاد حل وسط وكذلك الرغبة فى الاعتراف ، وإن يكن مع وجود العديد من التحفظات ، والاعتراف بالتطلعات والآمال القومية للطرف الآخر وحقه فى الحصول على

الأرض، وهذا الاعتراف ، يبدو واضحاً على نحو خاص فى أدبيات الصراع «كحل عادل» وكأفضل سيناريو للحل السلمى للصراع (كيلمان ١٩٨٢ ، فيتاليس ١٩٩٢) . ومع هذا فإن مثل هذه السيناريوهات تتجاهل الاختلاف الكبير فى ميزان القوة بين الفلسطينيين ودولة إسرائيل ، وهو اختلاف يعد حاسماً فى فهم التحول من الرؤى الخاصة إلى الرؤى العامة داخل المجتمعين الإسرائيلى والفلسطينى .

وثمة سلسلة متصلة مشتركة أخرى تستخدم فى تحليل محاولات حل الصراع وهى تلك السلسلة التى تفصل بين المحاولات العنيفة والمحاولات السلمية لحل الصراع. وشأن التصنيف الخاص - العام ، فإن مجموعة متنوعة من نظريات الاختيار العقلانى هى التى كانت وراء استلهام هذه السلسلة المتصلة . ووفقاً لهذا ، وبمرور الوقت توصل معظم الفلسطينيين واليهود الإسرائيليين إلى استنتاج مؤداه أنه لا يمكن حل الصراع من خلال القوة العسكرية وأن الدبلوماسية قد تكون أفضل السبل لحله . ومع ذلك ، فإنه فى معظم الروايات الإعلامية من الصراع ، كان هنالك ميل لتقديم الفلسطينيين على أنهم أكثر نزوعاً إلى العنف وأكثر تردداً فى قبول الحلول الدبلوماسية. ويكشف هذا الميل عن نفسه أيضاً فى أساليب العنف المختلفة التى يلجأ إليها الفلسطينيون ، والتى يشار إليها عادة بمصطلح «الهجمات الإرهابية» ، فى حين أن العنف الذى تقوم به دولة إسرائيل إنما يتم ، حسبما تردد دائماً ، باسم حماية «أمنها القومى» .

وكما أوضحت الأبحاث الانتقادية حول الإرهاب ، فإنه بدلاً من إلقاء اللوم على الضحية فى صراع ما بسبب لجوئه إلى أساليب العنف ، ينبغى أن نعكف على دراسة الظروف التى لا ترى جماعات معينة فى ظلها أنه لا يوجد بديل آخر سوى اللجوء إلى العنف لتحقيق هدفها . وباتباع هذا النهج من التفكير ، فإننا لا نتسامح إزاء العنف، بل إننا نعمد ، بدلاً من ذلك ، إلى الغوص فى أعماقه لمعرفة جذوره وأسبابه الحقيقية فى محاولة لاقتراح حل أكثر شمولية واستمراراً . (روكنبشتاين ١٩٨٧) . وهكذا ، وفى إطار الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى ، يبدو أنه فى الوقت الذى حققت فيه منظمة التحرير الفلسطينية الشرعية على المسرح العالمى ، ولا سيما بعدما اعترفت بها إسرائيل والولايات المتحدة كممثل رسمى للشعب الفلسطينى ، فإنها أخذت تتراجع تدريجياً عن أسلوب الصراع المسلح وتجنح إلى اتباع الوسائل الدبلوماسية لحل الصراع .

ومن المهم هنا الإشارة إلى أنه لا المجتمعات الفلسطينية ولا الإسرائيلية مجتمعات متجانسة ؛ إذ إنه داخل هذه المجتمعات أفراد وجماعات ما زالت ترفض التخلى عن الحلول الخاصة والمسلحة للصراع . ومن منظور حل هذا الصراع ، سيكون من قبيل الخطأ ببساطة تصوير أو وصف هؤلاء الأفراد بأنهم «أعداء السلام» ومن ثم ، العمل على قمع أنشطتهم . وبدلاً من ذلك ، فإنه من الأمور الملحة أن نبحث الدافع وراء هذا التمسك من جانب هؤلاء الأفراد أو تلك الجماعات ونتعرف على الحلول المختلفة التى يطرحونها لحل الصراع .

والواقع أن ما يمكن أن يزيد من تعقيد ديناميكيات الصراع وإمكانات حله هو دور الأطراف الخارجية ، وما تطرحه هذه الأطراف من برامج عمل وخطط وأفكار ومفاهيم عن السلام . فالولايات المتحدة ، مثلاً ، لديها تاريخ طويل ومعقد من المشاركة السياسية والاقتصادية في شئون وقضايا الشرق الأوسط . ومعظم الإدارات الأمريكية المتعاقبة اتفقت على أن حل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني يعتبر أمراً حاسماً لتحقيق سلام شامل فى الشرق الأوسط . واعتبر مرادفاً للاستقرار ، والذى يعد بدوره ضرورياً لضمان استمرار هيمنة الولايات المتحدة على المنطقة . ولتحقيق هذه الغاية ، اضطلعت الولايات المتحدة بدور الحكم والمفاوض الرئيسى فى آن واحد .

ومع هذا ، وعلى الرغم من مبادرات صنع السلام الأمريكية ، فإن الولايات المتحدة كانت تجد صعوبة فى لعب دور الطرف الثالث المحايد . وفى الحقيقة ، جادل بعض المحللين بأنه فى الشرق الأوسط ، وكما هو الحال فى العديد من المناطق الأخرى فى العالم ، فإن الولايات المتحدة قامت بدور المحارب أو الدولة المحاربة أكثر من قيامها بدور صانع السلام . فالولايات المتحدة ، وباعتبارها حامية إسرائيل وحليفتها الرئيسية ، كانت عاجزة ببساطة عن أداء واجبها فى إطار مهمتها المحددة كعامل مشجع على صنع السلام ، وفى الوقت نفسه ، فإن التناقضات بين أدوار مثل دور الوسيط وتلك التى تربط بالمساندة الدبلوماسية الرئيسية لإسرائيل ، وأيضاً أدوار مثل دور الممول المصرفى والمورد العسكرى ، كل هذا قد كان واضحاً تماماً فى علاقة الولايات المتحدة بإسرائيل (أرورى ١٩ – ٢١ : ١٩٩٥) . وعلاوة على ذلك ، وبسبب الإصرار الأمريكى ، الذى لم يواجه أى تحد إلى حد كبير ، من أنها الطرف الوحيد الذى لا يمكنه القيام بدور الوسيط بين الفلسطينيين واليهوديين الإسرائيليين ، فإنه قد تم تجاهل خدمات أطراف ثالثة محتملة أخرى أو جرى إحالتها إلى قائمة مبادرات ما وراء الكواليس . وقد أدى هذا الاتجاه إلى تهميش الأمم المتحدة كصانع

محتمل للسلام وإلى التخلى عن الفكرة التى كانت سائدة ذات يوم بشأن عقد مؤتمر دولى للسلام برعاية الأمم المتحدة (بينيس ٢١١ - ٣٣٢ : ١٩٩٦) .

وفى إطار استعراضنا للمحاولات السابقة والحالية لحل الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى ، نجد أن معظم الروايات والتقارير والتحليلات والتفسيرات التى تناقلتها وسائل الإعلام ، شأنها شأن الأغلبية من الأبحاث والدراسات حول الصراع ، تميل إلى التركيز على أنشطة المسئولين المنتخبين ، لتتجاهل بذلك المحاولات التى يقوم بها مواطنون فى كلا الجانبين على خط التقسيم السياسى لتحقيق حل سلمى للصراع . وقد عمد بعض الباحثين إلى التفرقة والتمييز بين السلام من أعلى والسلام من أسفل ، أو بين محاولات حل الصراع من القمة ومحاولات حله من القاع (فالك ١٨٩ : ١٩٩٤ ، شارونى ، ١٩٩٦) . وفى إطار الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى ، فإن حل الصراع من القاع يحدث أساساً حول موائد المفاوضات ، وفى العادة خارج المنطقة ، وهو حل غالبًا ما يتميز بمحاولات تهدف إلى تطبيق نماذج فعالة وعالمية لحل الصراع . ومع هذا ، فإن مبادرات حل الصراع من القمة تميل إلى أن تظهر من «الداخل» من بين أوساط المجتمعات الإسرائيلية والفلسطينية . ووفقًا لهؤلاء الذين يؤكدون على حل الصراع من القمة ، فإن الحركات الاجتماعية ، والاحتجاجات فى المظاهرات ، والأنشطة الجماهيرية تعتبر كلها وسائل أو قنوات بالغة الأهمية لصنع السلام وحل الصراع (شارونى ١٩٩٦) .

والحقيقة أنه قبل وقت طويل من المصافحة الشهيرة التى تمت بين عرفات ورابين، كان الإسرائيليون والفلسطينيون على المستوى الشعبى أو الجماهيرى قد شرعوا فى القيام بمبادرات فردية وجماعية على السواء بغية التوصل إلى حل عادل ودائم للصراع . وعلى الرغم من عدم مشاركتهن فى المفاوضات ، إلا أن النساء الفلسطينيات واليهوديات الإسرائيليات قد لعبن دوراً مهماً فى النضال من أجل إنهاء الاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية وقطاع غزة (هلترمان ١٩٩١ ، سترومر ١٩٩٢ ، شارونى ١٩٩٥ ، ايميت ١٩٩٦) . وتتضمن الأمثلة الأخرى لمبادرات حل الصراع على المستوى الجماهيرى تلك التى قامت بها جماعات مثل جماعة الأطباء الإسرائيليين - الفلسطينيين من أجل حقوق الإنسان ، والتى تقدم الرعاية والخدمات الطبية للمحتاجين من الفلسطينيين ، وأيضاً جماعات الحوار والمشروعات التعليمية المشتركة التى تأسست للتصدى للأفكار المقولبة الجامدة والمخاوف السائدة ولتهيئة

ظروف وأوضاع ملائمة للتعايش السلمى بين الفلسطينيين اليهود الإسرائيليين (أبو نمر ١٩٩٣ ، هورفيتس ١٩٩٢ ، فيرنيا وهوكنج ١٩٩٢ ، روزينفاسر ١٩٩٢ ، كاميز ١٩٩٦) .

وتظهر من المبادرات بوضوح أن خبرة حل الصراعات سلمياً تكمن فقط فى المسئولين أو الإجراءات الرسمية الحكومية . وبدلاً من ذلك ، فإن المواطنين والجماعات من مجموعة ذات خلفيات متنوعة ولديها مهارات مختلفة يمكنها أيضاً أن تلعب دوراً مهماً فى صنع السلام وعمليات حل الصراع . وعلاوة على ذلك ، هناك إدراك متزايد بين خبراء حل الصراعات والمواطنين العاديين على السواء بأن التفاعلات الحكومية - الرسمية بين ممثلى الدول ذات السيادة ليست كافية لتأمين تعاون دولى أو لحل صراعات عميقة الجذور . وحتى إذا وقّعت أطراف الصراع اتفاقاً للسلام ، فإن تنفيذه الناجح يعتمد على تأييد الأوساط الشعبية والجماهيرية لدى جانبى خط التقسيم السياسى (شارونى ١٩٩٦) . والحقيقة أن أحد العيوب أو الثغرات الرئيسية فى اتفاقيات أوسلو يكمن فى إخفاق كل من المسئولين الفلسطينيين واليهود الإسرائيليين فى الاستفادة من تجارب وخبرات نشطاء حركات وجماعات السلام لدى جانبى خط التقسيم الفلسطينى - الإسرائيلى . وهذا التمزق فى العلاقة بين صانعى السلام الرسميين وغير الرسميين قد تكون له جذوره الكامنة فى التعريفات المختلفة للسلام والتى تنبئ عن ممارسات الجماعة وتؤثر على علاقاتها مع بعضها البعض .

والحقيقة أن ثمة طريقة أخرى للبحث فى المبادرات المختلفة للسلام وحل الصراعات وتتمثل فى التركيز على تعريف السلام الذى ينبئ عن حلول للصراع . وأحد الاختلافات الأكثر شيوعاً وشهرة فى مجال دراسات السلام وحل الصراع هو ذلك الذى يكمن بين السلام السلبى والسلام الإيجابى (باراتس ٥٩٠ - ٥٢٩ : ١٩٩١) . ويتم تعريف السلام السلبى فقط على أنه غياب الحرب أو العنف المباشر ، فى حين أن السلام الإيجابى يتطلب القضاء على كافة أشكال العنف ، بما فى ذلك العنف المنظم ، وتحول المجتمع القائم على مبادئ المساواة ، والعدالة الاجتماعية ، ونبذ العنف . وفى حالة الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى ، يبدو أن الممثلين المسئولين لدى الجانبين كانوا ينظرون إلى السلام برمته باعتباره يتمثل فى غياب الحرب والعنف المباشر (السلام السلبى) ، بينما اعتبر النشطاء من الأوساط الشعبية السلام كعملية تحولية قائمة على وجود العدل (السلام الإيجابى) . وميزة هذا الاختلاف أو

التبـاين تكمن فى أنه يجـعل بإمكاننا التـوصل إلى ضـرب من الوفـاق والوئام مع المجموعات المتناقضة من القيم ، والتجارب ، والأساليب السياسيـة التى تشير إلى التعريفات المختلفة للسلام .

وعلى سبيل المثال ، فإن السلام قد جرى تعريفه وتصوره بطرق مختلفة من جانب اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين سواء قبل التوقيع على اتفاقيات أوسلو أو بعده . فالسلام لدى اليهود كان يعنى أساسًا السلام الذى يوفر الأمن ، وذلك على الرغم من أنه منذ توقيع اتفاقيات أوسلو فإنه قد جرى استخدام هذه الصيغة بطريقة تبادلية مع مصطلحات مثل مصطلح «السلام» ومصطلح «السلام والرخاء» . ومع هذا فبالنسبة إلى الفلسطينيين ، نجد أن المراجع والإشارات إلى «السلام» كانت تقترن دائمًا بإثارة مصطلحات من قبيل «العدل» و «المساواة» و «التحرر» و «تقرير المصير» . (شاروني ٤٠٠ – ٤٠١ : ١٩٩٥) . ومع ذلك فإن الاختلافات المهمة بين هذه المصطلحات و تعريفاتها ليست مستقلة أو منفصلة عن بعضها ، وإنما تعتبر متداخلة فيما بينها ويعتمد كل منهـا على الآخـر . ومن ثم ، يمكن لكل من حل الدولتين وخيـار الدولة ذات الطائفتين أو القوميتين أن يستوعبا هذه الرؤى المتعارضة للسلام .

صورة (٦ : ٦) نشطاء السلام الإسرائيليون والفلسطينيون الذين يشاركون معًا باستمرار فى مظاهرات سياسية

وعلى أى حـال ، فإن التـحدى الرئيسى هنا لا يتمثل فى قدرة كل مـجتـمع من المجتمعين اليـهودى الإسرائيلى والفلسطينى على إدراك سلامـة رؤية الطرف الآخر والاعتراف بصحتـها . ونظراً للطبيعة المتنافرة للصراع ، يبدو أن تنفيذ هذه الرؤى المتـداخلة يعتمـد على رغبـة واستـعداد الطرف الأقوى فى الصـراع ، وهو الحكومـة الإسرائيلية ، لاتخاذ الخطوة الأولى والاعتراف بحق تقرير المصير للفلسطينيين . وفى محاولة لكسب تأييد ناخبيها لمثل هذا الإجراء ، فإنه ينبغى على الحكومة الإسرائيلية القيام به ليس باعتباره تنازلاً من جانب واحد وإنما باعتباره خطوة أساسية وضرورية باتجـاه تحـقـيق للسـلام دائم فى المنطقـة . والواقع أنـه بقـبـولهم حل وجـود دولتين وباعتـرافـهم بحق إسرائيل فى الوجـود ، فإن الفلسطينيين قد كشفـوا عن إدراكـهم أن تنفيذ آمالهم القومية يعتمد على إحساس إسرائيل بالأمن . وهكذا ، فإنه من الأمـور الملحة الآن أن يفهم اليهود الإسرائيليون وأن يعترفوا علناً بأن سعيهم لتحقيق الأمن ، والاسـتـقـرار ، والرخـاء لن يتـجـسـد على أرض الواقع طـالما أن سـعى الفلسطينيين للحصول على العدل ، والمساواة ، وحق تقرير المصير لم يتحقق بعد .

صـورة (٧ : ٦) نشطاء السـلام الإسـرائيليـون يـحـتـجـون عـلى بـنـاء مـسـتـوطـنة يهـودية جديدة فى منطقة جبل أبو غنيم بالقرب من القدس وبيت لحم

خاتمة :

من الواضح أنه على مدى السنوات الماضية ، كانت القيادة الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية قد ابتعدتا عن الحلول العسكرية الخاصة للصراع إلى حلول دبلوماسية أكثر شمولاً. في الوقت ذاته ، من الواضح أيضًا أن المجتمعين القوميين : الفلسطيني واليهودي الإسرائيلي مازالا يتمسكان بتعريفات مختلفة للسلام ، وهي تعريفات تبلورت إلى حد كبير من خلال اختلافات وتباينات القوة بينهما التي فشلت اتفاقيات أوسلو في علاجها . وهذا التفاوت في علاقات القوة قد ترسخ وتعزز من جراء فشل محاولات حل الصراع الحالية والماضية في التوصل إلى علاج ناجح للمشكلتين الرئيسيتين في قلب النضال الفلسطيني ، ألا وهما حق تقرير المصير القومي ، والسيادة على الأراضي . ويشعر معظم الفلسطينيين بأنهم قد قدموا بالفعل تنازلاً خطيراً حين تخلوا عن حلم المطالبة باستعادة أرض فلسطين التاريخية ، وقبولهم بدلاً من ذلك لصيغة الدولتين ، دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، جنباً إلى جنب مع دولة إسرائيل .

وعلى أي حال ، فإن تنفيذ حل الدولتين يعتمد على الانسحاب الكامل من الأراضي التي احتلتها إسرائيل في عام ١٩٦٧ فيما يشكل انتهاكًا للقانون الدولي . وحتى الآن ، رفضت الحكومة الإسرائيلية الامتثال والعودة إلى حدود ما قبل عام ١٩٦٧ . وقد عرضت اتفاقيات أوسلو حلاً مؤقتًا لهذا الموقف من خلال التأكيد على استعداد ورغبة إسرائيل في إجراء مفاوضات مباشرة مع منظمة التحرير الفلسطينية ومنح الفلسطينيين حكماً ذاتياً محدوداً لإدارة شئونهم الداخلية . وفي الوقت الحاضر ، ومع تنفيذ اتفاقيات أوسلو بعد شهور من الموعد المحدد في الجدول الزمني وفي ظل عدم تحديد تاريخ حتى الآن للشروع في مفاوضات الوضع النهائي ، لا تزال إسرائيل تسيطر على معظم الأراضي التي يدور حولها النزاع ، ولا تزال تتوسع في بناء المستوطنات اليهودية . ونتيجة لهذا ، فإن الفلسطينيين في مختلف أرجاء الضفة الغربية وقطاع غزة ، والذين قد طرأ القليل من التحسن على حياتهم اليومية منذ التوقيع على اتفاقيات أوسلو في عام ١٩٩٣ ، قد بدأ صبرهم ينفذ وأخذوا يضيقون ذرعاً بأوضاعهم المعيشية السيئة. وفي هذه الأثناء ، استمرت الحكومة الإسرائيلية في استخدام أمنها القومي كشرط مسبق للسلام ، ومن ثم أخفقت في إدراك حقيقية مهمة

مفادها أن الإسرائيليين لن ينعموا بالأمن حتى تتحقق للفلسطينيين آمالهم وتطلعاتهم القومية من خلال حل سياسى يعتبرونه عادلاً ومنصفاً .

وبدلاً من طرح رؤى بديلة لما قد يبدو عليه السلام فى ظل الصيغ الضيقة والمحدودة لهؤلاء المسئولين الذين يتولون مقاليد السلطة فى الوقت الحاضر ، فإنه ينبغى لنا التعامل بقدر أكبر من الجدية مع المواقف المتباينة والمتباعدة لدى الأفراد من الجانبين : الفلسطينيين واليهود الإسرائيليين ، والذين قد باتت حياتهم جزءاً لا يتجزأ من الصراع . ومثل هذه الأصوات والرؤى التى نطرحها غالبًا ما تشير إلى أن الصراع الإسرائيلى – الفلسطينى هو ببساطة أكثر من كونه مجرد نزاع إقليمى حول الأرض بين مجتمعين قوميين ؛ فهو يتضمن أيضاً رؤى وتصورات متباينة بشأن حل الصراع ومستقبل الشرق الأوسط ، والتى قد كانت محور المناظرات والمباحثات السياسية المحتدمة داخل المجتمعين الفلسطينى واليهودى الإسرائيلى .

وأخيراً ، وباعتبارنا من مواطنى الشرق الأوسط وبوصفنا أيضًا من الباحثين المهتمين بحل هذا الصراع ، فإننا نود أن نعرب عن شكوكنا إزاء مبادرات حل الصراع التى تنفذها أطراف ثالثة مثل الولايات المتحدة ، أو مجموعة من الخبراء المتخصصين فى حل الصراعات . وبغض النظر عن قيامها بدور الوسيط المحايد أو المنصف ، فإن هذه الأطراف الخارجية ، والتى قد تكون نواياها طيبة فى بعض الأحيان ، تنزع إلى تهميش أو تميل فى أحيان أخرى إلى تجاهل آمال ومخاوف الأفراد العاديين فى المنطقة بينما تحرص على فرض أطر عملها الخاصة بحل الصراع وكذلك فرض الرؤى والأفكار السلمية التى تراها مناسبة لحل الصراع . وعلى النقيض من ذلك ، فإننا نعتقد أن الفلسطينيين واليهود الإسرائيليين ، ما لم يكن زعماؤهم الحاليون أيضًا ، لديهم المفتاح الذى يؤدى إلى تحقيق حل عادل ودائم للصراع . ومن ثم ، فإن دور الباحثين فى شئون الشرق الوسط وخبراء حل الصراعات أو المجتمع الدولى برمته لا يتمثل فى تحقيق السلام فى الشرق الأوسط ، وإنما يتمثل أكثر فى تفويض ودعم ومساندة هؤلاء الأفراد فى المنطقة والذين قد شاركوا منذ زمن طويل فى عملية البحث عن السلام .

المصادر:

١- نهلة عبده : «العنصرية ، والصهيونية والطبقة العاملة الفلسطينية ١٩٢٠ - ١٩٤٧ - دراسات في الاقتصاد السياسى ٣٧ - العدد ٥٩ - ٩٣ : ٢ - ١٩٩٢ .

٢- إبراهيم أبو لُغد : «الحقوق الفلسطينية بين التأكيد والإنكار» ويلميتى - مطبعة ميديابرس - الطبعة الثانية - ١٩٨٢ .

٣- جانيت أبو لُغد : التحول الديموجرافى فى فلسطين حل ١٣٠ - ١٦٤ فى كتاب إبراهيم أبو لغد «التحول فى فلسطين» - إيڤانستون - مطبعة جامعة نورث ويسترن - ١٩٨٧ .

٤- محمد أبو نمر : «حل الصراع بين العرب واليهود فى إسرائيل - دراسة لستة من نماذج التدخل »- رسالة دكتوراة - مطبعة جامعة جورج ماسون - فير فاكس - فيرجينيا - ١٩٩٣ .

٥- إميل الكالى : «بعد اليهود والعرب : إعادة صنع ثقافة المشرق» مينابوليس - مطبعة جامعة مينيسوتا - ١٩٩٣ .

٦- لميس أندونى : «منظمة التحرير الفلسطينية فى مفترق الطرق» - مجلة الدراسات الفلسطينية ٥٤ - ٦٥ : ٨١ - ١٩٩١ .

٧- نصير أرورى : «عقبة السلام : الولايات المتحدة وإسرائيل والفلسطينيين» - مونروري - ماين - مطبعة كومون كاريج - ١٩٩٥ .

٨- حنان ميخائيل عشراوى : «الاحتلال الآخر : الرد الفلسطينى» - ص١٩١ - ١٩٨ - فى الكتاب فيليس بنيس وميشيل موشابيك «ما وراء العاصفة : قارئ لأزمة الخليج» - بروكلين - مطبعة غصن الزيتون - ١٩٩١ .

٩- ديفيد بارشل : «مقدمة لدراسات السلام» - بلمونت - كاليفورنيا - دار نشر ويدورث - ١٩٩١ .

١٠-موردخاى بارأون «السلام الآن : صورة حركة (بالعبرية)» - تل أبيب - هاكيبوتس هاميوشاد - ١٩٨٥ .

١١-بينيس فيليس : «استرجاع الصور : كيف تسيطر واشنطن على الأمم المتحدة اليوم» - بروكلين - مطبعة غصن الزيتون - ١٩٩٦ .

١٢–بينيس فيليس : وميشيل موشابيك : «ما وراء العاصفة : قارئ لأزمة الخليج» – بروكلين – مطبعة غصن الزيتون – ١٩٩١ .

١٣–ديكس بيرنين : «أصداء الانتفاضة : النتائج الإقليمية للصراع الإسرائيلى – الفلسطينى» – بولدر – كولومبيا – مطبعة ويستفيو – ١٩٩١ .

١٤–هيلينا كوبان : «منظمة التحرير الفلسطينية : الشعب ، السلطة ، والسياسة» – كمبريدج – مطبعة جامعة كمبريدج – ١٩٨٤ .

١٥–يورى دافيس : «المجتمع الصهيونى فى إسرائيل : نتائج المعارضة الداخلية وضرورة التدخل الخارجي» – ص ١٧٦ – ٢٠١ فى كتاب إيفورد وإعجاز «اليهودية أم الصهيونية : ما الفرق بالنسبة للشرق الأوسط؟» لندن – مطبعة زد بوكس – ١٩٨٦

١٦–لورا زيترين أيزيدرج ونيل قبلان : «البحث فى السلام العربى – الإسرائيلى : الأنماط ، والمشكلات ، والاحتمالات» – بلومينجتون وأنديانا بوليس – مطبعة جامعة أنديانا – ١٩٩٨ .

١٧–أيالا إيميث : «أرض ميعاد أخواتنا : النساء ، والسياسة والتعايش الإسرائيلى – الفلسطينى» – آن آربو – مطبعة جامعة ميششيجين – ١٩٩٦ .

١٨–ريتشارد فولك : «مفاهيم وأفكار النظام العالمى وعملية السلام فى الشرق الأوسط» ص ١٨٩ – ١٩٦ فى كتاب إيليز بولدنج : «بناء السلام فى الشرق الأوسط : التحديات التى تواجه الدول والمجتمع المدنى» – بولدر كولومبيا لين ريز – ١٩٨٤ .

١٩–اليزابيث وورنوك فيرنيا ومارى إيفلين هوكينج : «النضال من أجل السلام : الإسرائيليون والفلسطينيون» – أوستن – مطبعة جامعة تكساس – ١٩٩٢ .

٢٠–نورمان فنكشتاين : «صورة وواقع الصراع الإسرائيلى – الفلسطينى» لندن ونيويورك – فيرسو – ١٩٩٥ .

٢١–سمحا فلابان : «مولد إسرائيل : أوهام وحقائق» – نيويورك – بانتيون بوكس – ١٩٨٧ .

٢٢–ديبورا جيرنر : «تطور الانتفاضة الفلسطينية» – المجلة الدولية لتوترات الجماعات ٣٠ – العدد ٢٣٣ – ٢٦٥ – ١٩٩٠ .

– «الفلسطينيون – الإسرائيليون ، والانتفاضة : العام الثالث وما بعده» المجلة الفصلية للدراسات العربية – ١٣ – العدد ٦٠ – ١٩ : ٤ – ٣ –١٩٩١ .

– «أرض واحدة وشعبان : الصراع حول فلسطين» – الطبعة الثانية – بولدر – كولومبيا – مطبعة وستفيو – ١٩٩٤ .

٢٣–سليمان جريزل : «تاريخ اليهود» نيويورك – المكتبة الأمريكية الجديدة – ١٩٦٨,

٢٤–ران جرينشتاين : «تسلسل الصراع : الطبقة ، الهوية ، الدولة في فلسطين / إسرائيل وجنوب أفريقيا» – هانوفر ولندن –مطبعة جامعة ويسليان –١٩٩٥ .

٢٥–نيكولاس جويات : «غياب السلام : فهم الصراع الإسرائيلي الفلسطيني» – لندن ونيويورك – مطبعة زدبوكس –١٩٩٨ .

٢٦–ليزا حجار وجويل بنيين : «فلسطين وإسرائيل : الكتاب الأول» واشنطن دى سى –١٩٩٠ .

٢٧–الحق : «قمع التعليم» – ص – ٤١٩ – ٤٤٨ في كتاب «معاقبة أمة : انتهاكات حقوق الإنسان خلال الانتفاضة الفلسطينية –» رام الله – الضفة الغربية – الحق –١٩٨٨

٢٨–مارك هيلر وساري نسيبه : «لا أبواق ، لا طبول : تسوية الدولتين للصراع الإسرائيلي الفلسطيني» – نيويورك – هيل ووانج – ١٩٩١ .

٢٩–آرثر هيرتسبرج : «الفكرة الصهيونية : التحليل التاريخي القارئ» – نيويورك – مطبعة دبلداي – ١٩٦٢ .

٣٠–يوست هيلترمان : «دور الطبقة العاملة في الانتفاضة» – ص ١٤٣ – ١٥٨ في كتاب جمال نصار وروجر هيكوك : «الانتفاضة : فلسطين في مفترق الطرق» – نيويورك – بريجر – ١٩٩٠ .

– «ما وراء الانتفاضة : الحركات النسائية والعمالية في الأراضي المحتلة» برينستون – مطبعة جامعة برينستون ١٩٩١

٣١-ديليب هيرو : «من درع الصحراء إلى عاصفة الصحراء» - حرب الخليج الثانية - لندن - هاربر كوليتز - ١٩٩٢ .

٣٢-ديفيد هيرست : «البندقية وغصن الزيتون : جذور العنف فى الشرق الأوسط» - الطبعة الثانية - لندن فابر أندفابر - ١٩٨٤ .

٣٣-روبرت هنتر : «الانتفاضة الفلسطينية» - بيركلى - مطبعة جامعة كاليفورنيا - ١٩٩١ .

٣٤-دنيا هورفيتس : «المشى على الخط الأحمر : إسرائيليون يبحثون عن العدل لفلسطين» - فيلادلفيا - نيوسوسايتى - طبعة ١٩٩٢ .

٣٥-إصلاح جاد : «من الصالونات إلى اللجان الشعبية : النساء الفلسطينيات من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٨٩» ص ١٢٥ - ١٤٢ فى كتاب جمال نصار وروجر هيكوك : «الانتفاضة : فلسطين فى مفترق الطرق» - نيويورك - بريجر - ١٩٩٠ .

٣٦-كاميز رويفين : «سياسة الاحتجاج : حركة السلام الإسرائيلية والانتفاضة» - ساسكس - بريطانيا - المطبعة الأكاديمية - ١٩٩٦ .

٣٧-هربرت كيلمان : «تهيئة الظروف للمفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية» مجلة حل الصراعات - ٧٥ -٣٩ : ٢٦ - ١٩٨٢ .

٣٨-وليد خالدى : «من الملاذ إلى الغزو : قراءات فى الصهيونية والمشكلة الفلسطينية حتى عام ١٩٤٨» - بيروت - معهد الدراسات الفلسطينية - ١٩٧١ .

٣٩-باروخ كيمرلينج : «الصهيونية والأرض : الأبعاد الاجتماعية الإقليمية للسياسة الصهيونية» - بيركلى - مطبعة جامعة كاليفورنيا - ١٩٨٣ .

٤٠-باروخ كيمرلينج وجويل ميجدال : «الفلسطينيون : ضياع شعب» - نيويورك - ماكميلان - ١٩٩٣ .

٤١-جان فرانسوا ليجران : «الحركة الإسلامية والانتفاضة» ص ١٧٥ - ١٨٩ فى كتاب جمال نصار وروجر هيكوك «الانتفاضة : فلسطين فى مفترق الطرق» - نيويورك - بريجر - ١٩٩٠ .

٤٢–آن ليشل ، ومارك تيسلر : «إسرائيل ، مصر والفلسطينيون : من كامب ديفيد إلى الانتفاضة » – بلومينتجون وأنديانا بوليس : مطبعة جامعة أنديانا بوليس – ١٩٨٩ .

٤٣–زكارى لوكمان وجويل بنيين : «الانتفاضة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلى» – بوسطن – مطبعة ساوث إند – ١٩٨٩ .

٤٤–إيان لوستيك : «العرب فى الدولة اليهودية : سيطرة إسرائيل على أقلية قومية» – أوستن –مطبعة جامعة تكساس –١٩٨٠ .

– «دول غير مستقرة ، وأراضٍ متنازع عليها : بريطانيا وأيرلندا ، فرنسا والجزائر، إسرائيل والضفة الغربية وغزة» – ايثاكا ولندن مطبعة جامعة كورنيل – ١٩٩٣ .

٤٥–بينى موريس : «ميلاد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ١٩٤٧ – ١٩٤٩ – كمبرلنج – مطبعة جامعة كمبريدج – ١٩٨٨ .

– «عام ١٩٤٨ وما بعده : إسرائيل والفلسطينيون» – أكسفورد – مطبعة جامعة أكسفورد – ١٩٩٠ .

٤٦–رافائيل موسى : «الذات ، ورؤية الذات ، والهوية» – ص ٤٧ – ٥٥ فى كتاب «الديناميكيات السيكولوجية للعلاقات الدولية» المجلد الأول – ليكنجتون – ماساشوسيتس وتورونتو – مطبعة ليكنجتون بوكس – ١٩٩٠ .

٤٧–محمد مصلح : «تاريخ الصراع الإسرائيلى الفلسطينى» – ص ٦٢ – ٧٩ فى كتاب إليزابيث ورنوك فيرنيا ومارى إيفيلين هوكنج «النضال من أجل السلام : الإسرائيليون والفلسطينيون» – أوستن – مطبعة جامعة أوستن – ١٩٩٢ .

٤٨–إيميل نخلة : «الأجندة الفلسطينية للضفة الغربية وغزة» – واشنطن دى سى – أميركان إنتربرايز انستيتوت – ١٩٨٠ .

– «الضفة الغربية وقطاع غزة : بعد ٢٠ عاماً» – ميدل إيست جورنال – ٢٠٩ – ٢٢٦ : ٤٢– ١٩٨٨ .

٤٩– خليل نخلة وإيليا زوريق : «التشريح الاجتماعى للفلسطينيين» – نيويورك – مطبعة سان مارتان – ١٩٨٠ .

٥٠-جمال نصار : «منظمة التحرير الفلسطينية : من الكفاح المسلح إلى إعلان الاستقلال» – نيويورك – بريجر – ١٩٩١ .

٥١-جمال نصار ، وروجر هيكوك : «الانتفاضة : فلسطين فى مفترق الطرق» الضفة الغربية ونيويورك – جامعة بيرزيت وبريجر – ١٩٩١ .

٥٢-جيمس باركس : «تاريخ الشعب اليهودى» – بلتيمور – مطبعة بنجوين بوكس – ١٩٦٤,

٥٣- دون بيريتيس : «الانتفاضة الفلسطينية» – بولدر – كولومبيا – مطبعة ويستفيو – ١٩٩٠,

٥٤-جون كويجلى : «فلسطين وإسرائيل : تحد للعدالة» – دورهام – مطبعة جامعة ديوك – ١٩٩٠ .

٥٥-معين ربانى : «السلطة الفلسطينية : الحكم الإسرائيلى : من الترتيب الانتقالى إلى الترتيب الدائم» – ميدل إيست ريبورت (أكتوبر إلى ديسمبر) ٦ – ٢ – ١٩٩٦ .

٥٦-برنارد رايخ : «إسرائيل : أرض التقاليد والصراع» بولدر – كولومبيا – مطبعة ويستفيو – ١٩٨٥ .

٥٧-إيلى ريكاس : «العرب الإسرائيليون وعرب الضفة الغربية وغزة : الصلة السياسية والتضامن الوطنى» – مجلة الدراسات الآسيوية والأفريقية ٢٣ – الأعداد ١١٩ – ١٥٤ – : ٣ – ٢ – ١٩٨٩ .

٥٨-بيلى روزنيفاسر : «أصوات من أرض الميعاد» : «نشطاء السلام الفلسطينيون والإسرائيليون يتحدثون من قلوبهم» ويليمانتيك – كونيكتيكت – مطبعة كيريستون – ١٩٩٢ .

٥٩-جاى روثمان : «من الصراع إلى التعاون : حل الصراع العرقى والصراع الإقليمى» – نيوبرى بارك – لندن ونيودلهى – مطبعة ساج – ١٩٩٢ .

٦٠-نديم روحانا : «التحول السياسى للفلسطينيين فى إسرائيل : من الإذعان إلى التحدى» – مجلة الدراسات الفلسطينية – ٣٨ – ٥٩ : ٣ – ١٩٨٩ .

٦١-ريتشارد روبنشتاين : «مخططو ثورة : الإرهاب فى العالم الحديث» – نيويورك – باتريك بوكس – ,١٩٨٧

٦٢-إيرام ليون زاكر : «تاريخ اليهود» نيويورك - نويف - ١٩٦٤ .
٦٣-إدوارد سعيد : «مشكلة فلسطين» نيويورك - فيتانج - ١٩٨٠ .
٦٤-إدوارد سعيد ، إبراهيم أبو لُغد ، جانيت أبو لُغد ، محمد حلاج ، إيليا زوريق : «نبذة عن الشعب الفلسطيني» - شيكاغو ونيويورك - الحملة الفلسطينية لحقوق الإنسان - ١٩٩٠ .
٦٥-هارولد سوندرز : «الأسوار الأخرى : سيادة عملية السلام العربية - الإسرائيلية» - واشنطن دى سى - المعهد الأمريكى لأبحاث السياسة العامة - ١٩٨٥ .
٦٦-جيروم سيجال : «خلق الدولة الفلسطينية : استراتيجية للسلام» - شيكاغو - مطبعة لورنس هيل بوكس - ١٩٨٩ .
٦٧-زئيف شيف : «الانتفاضة الفلسطينية : جبهة إسرائيل الثالثة» - نيويورك - سيمون وشوستر - ١٩٩٠ .
٦٨-زئيف شيف ويعارى إيهود : «حرب إسرائيل فى لبنان» - نيويورك - سيمون وشوستر - ١٩٨٤ .
٦٩-إسرائيل شاحاك : «التاريخ اليهودى ؛ الديانة اليهودية : ثقل ثلاثة آلاف سنة» - لندن - مطبعة بلوتو - ١٩٩٥ .
٧٠-أنيتا شابيرا : «الأرض والقوة : اللجوء الصهيونى إلى القوة ١٨٨١ - ١٩٤٨» - نيويورك - مطبعة جامعة أكسفورد - ١٩٩٢ .
٧١-سيمونا شارونى : «الجنس البشرى والصراع الإسرائيلى - الفلسطينى : سياسة حركة المقاومة النائية» - سيراكوز - مطبعة جامعة سيراكوز - ١٩٩٥ .
- «السلام كأزمة هوية» - مجلة السلام ٧ - العدد ٤ :٣ - ١٩٩٥ .
- «حل الصراع وصنع السلام من القاع : أدوار الحركات الاجتماعية ودبلوماسية الشعب» - بحث مقدم إلى الندوة الرابعة للجامعة الدولية للمؤسسات الشعبية للسلام - روفيرتو - إيطاليا - ١٩٩٦ .
٧٢-إيلا شوحاط : «يهود السفارديم فى إسرائيل : الصهيونية من وجهة نظر ضحاياها اليهود» - المجلة الاجتماعية ١٩ - العدد ١٠ - ١٩٨٨ .

٧٣-ميكا صيرفى وكريستوفر سيرف : «قارئ حرب الخليج» - نيويورك - تايمز بوكس / راندوم هاوس - ١٩٩١ .

٧٤-سامى سموحة : «العرب واليهود فى إسرائيل» المجلد الأول «اتجاهات متعارضة ومشتركة فى مجتمع مقسم» - بولدر - كولومبيا - مطبعة ويستفيو - ١٩٨٩ .

- «العرب واليهود فى إسرائيل» المجلد الثانى «التغيير والمجتمع فى إطار التسامح المتبادل» - بولدر - كولومبيا - مطبعة ويستفيو - ١٩٩٢ .

٧٥-فيليبا ستورم : «يشاركن فى المسيرة : الجنس الثانى والثورة الفلسطينية» - نيويورك - مطبعة لورنس هيل بوكس - ١٩٩٢ .

٧٦-ميخائيل سليمان : «السياسة الأمريكية فى فلسطين : من عهد ويلسون إلى كلينتون» - نورمان (٣) - مطبعة أى أى يوجى - ١٩٩٥ .

٧٧-شلوم سويرسكى : «إسرائيل : الأغلبية الشرقية» - لندن - مطبعة زد بوكس - ١٩٨٩ .

٧٨-سالم تمارى : «الفلسطينيون فى الضفة الغربية وقطاع غزة : التشريح الاجتماعى للفلسطينيين» ص ٨٤ - ١١١ فى كتاب خليل نخلة وإيليا زوريق «التشريح الاجتماعى للفلسطينيين» - نيويورك - مطبعة سان مارتن - ١٩٨٠ .

٧٩-ليزا تاركى : «حركة المقاومة الإسلامية فى الضفة الغربية» ص ١٧١ - ١٧٧ فى كتاب زاكارى لوكمان وجويل بنيين «الانتفاضة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلى» - مطبعة ساوث إند وميريب ١٩٨٩ .

٨٠-مارك تيسلر : «تاريخ الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى» - بلومينجتون وأنديانا بوليس - مطبعة جامعة أنديانا - ١٩٩٤ .

٨١-جراهام آشر : «فلسطين فى أزمة : النضال من أجل السلام والاستقلال السياسى بعد أوسلو» - إيست هافن - كونكتيكت - مطبعة بلوتو بالتعاون مع المعهد متعدى القوميات (TNI)، ومشروع معلومات وأبحاث الشرق الأوسط (MERIP) .

أى أمة هذه؟ «ظهور حماس فى الأراضى المحتلة» - مجلة ريس آند كلاس العدد ٣٧ - ٨٠ - ٦٥ : ٢ - ١٩٩٥ .

٨٢-روبرت فيتاليس : «الصراع الإسرائيلى الفلسطينى : خيارات وسيناريوهات السلام» ص ٢٨٥ - ٣١٣ فى كتاب إليزابيث ورنوك فيرنيا وإيفيلين هوكنج «النضال من أجل السلام : الإسرائيليون والفلسطينيون» - أوستن - مطبعة جامعة تكساس - ١٩٩٢ .

٨٣-قاميك فولكان : «نظرة شاملة على المفاهيم السيكولوجية المرتبطة بالعلاقات الدولية بين العرقيات» - ص ٣١ - ٤٦ فى كتاب قاميك فولكان ، وجوليوس ديميتريوس ، وجوزيف مونتفيل : «الديناميكيات السيكولوجية للعلاقات الأولية» المجلد الأول - ليكسنجتون ماساشوسيتس وتورونتو - ليكسنجتون بوكس - ١٩٩٠ .

٨٤-جادى فولفسفيلد : «سياسة الاستفزاز : المشاركة فى احتجاج فى إسرائيل» - البانى - مطبعة سانى - ١٩٨٨ .

٨٥-عادل يحى : «دور مخيمات اللاجئين» - ص ٩١ - ١٠٦ فى كتاب جمال نصار وروجر هيكوك «الانتفاضة : فلسطين فى مفترق الطرق» - نيويورك - بريجر - ١٩٩١ .

٨٦-أفراهام زيلكا : «تاريخ الصراع الإسرائيلى - الفلسطينى» - ص ٧ - ٦١ فى كتاب إليزابيث ورنوك فيرنيا ومارى إيفيلين هوكينج «النضال من أجل السلام : الإسرائيليون والفلسطينيون» - أوستن - مطبعة جامعة تكساس - ١٩٩٢ .

٨٧-ستيف زونيس : «الصهيونية ، ومعاداة السامية ، والإمبريالية» - مجلة السلام . العدد ٦ - ٤٩ - ٤١ - ١٩٩٤ .

٨٨-إيليا زوريق : «الفلسطينيون فى إسرائيل : دراسة فى النزعة الاستعمارية الداخلية» - لندن - رونليدج وكيجان بول - ١٩٧٩ .

- ٧ -

اقتصاديات الشرق الأوسط

إلياس توما

يستعرض هذا الفصل الخبرات والتجارب المتنوعة لدول الشرق الأوسط من أجل اكتساب رؤية ثاقبة فى عمليات التنمية الاقتصادية فى المنطقة . ولقد مرت اقتصادات الشرق الأوسط بمراحل طويلة منذ أن حصلت كل دولة من دوله على استقلالها وتحررت من الاحتلال الأجنبى . وقد نجح البعض من هذه الدول فى تحقيق أهداف التنمية والثروة ، فى حين لا يزال البعض الآخر فقيراً نسبياً ، إلا أن هذه الدول كلها تشترك فى أنها تواجه تحديات مهمة ورئيسية وهى تتجه صوب القرن الحادى والعشرين .

وفى منطقة الشرق الأوسط أربعة وعشرون دولة ذات سيادة كاملة ، إضافة إلى ما يحتمل أن تصبح دولة فى المستقبل ، وهى فلسطين ، والتى لا يزال وضعها السياسى فى مرحلة انتقالية . وتختلف هذه الدول وتتباين من حيث المساحة الجغرافية ، وفى عدد السكان ، والموارد الطبيعية ، ومستويات التنمية الاقتصادية والبشرية ، والأنظمة السياسية والاقتصادية ، والقدرة على الاندماج فى الاقتصاد العالمى . ومن ثم يقسم الاقتصاديون معظم هذه الدول إلى دول متوسطة الدخل ، وذلك على الرغم من أن مدى الدخول بالنسبة لكل فرد يعتبر واسعاً إلى حد كبير . وهكذا ، يمكن للمرء أن يرى تناقضات رئيسية فى كل من الأرصدة المملوكة لبلدان الشرق الأوسط ومستويات التنمية التى نجحت فى تحقيقها .

وهنالك عدة سمات مهمة لهذا التنوع والتباين والتى ربما أمكن تجميعها من البيانات الكمية المتاحة . وأول هذه السمات وجود تنوع واسع فى الموارد الطبيعية والبشرية المتاحة لعملية التعبئة من جانب دول الشرق الأوسط . إذ تتنوع هذه الدول وتتباين إلى حد كبير بالنسبة إلى عدد السكان ، حيث تتراوح ما بين دولة صغيرة جداً

مثل البحرين والتى ربما يقطنها حوالى نصف مليون نسمة ، إلى دول ذات كثافة سكانية عالية مثل مصر ، وتركيا ، وإيران ، حيث يزيد عدد السكان فى كل منها عن ستين مليون نسمة . والحقيقة أن كل هذه الدول تحظى ، رغم ذلك ، بمعدلات نمو سكانى عالية جداً والتى ترجع على الأقل جزئياً إلى الهجرة ، سواء أكانت مؤقتة ، كما هو الحال بالنسبة إلى المغتربين الذين يعملون فى دول الخليج ، أو دائمة ، وكما هو الحال بالنسبة لما تبذله إسرائيل من جهود ضخمة لتجميع اليهود من أنحاء العالم .

وفى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، علق كل من إيان . ر . مانرز ، وباربرا ماكين بارمنتر على خاصية التنوع فى دول الشرق الأوسط فيما يتعلق بالثروات الطبيعية المختلفة من الأراضى والموارد الأخرى . فنجد دولة مثل السودان ، وهى أكبر دول المنطقة ، والتى تبلغ مساحتها أكثر من ٢٣٧ مليون هكتاراً من الأراضى ، تفوق مساحتها أصغر دول المنطقة ، وهى دولة البحرين ، بمقدار يزيد عن ثلاثة آلاف مرة حيث لا تتعدى مساحة البحرين ٦٩ ألف هكتاراً . ومع ذلك ، فإن جميع دول الشرق الأوسط ، فيما عدا لبنان وتركيا ، لديها مساحات هائلة من البيئات القاحلة وتعتبر فقيرة فى الأراضى الصالحة للزراعة . وعلى سبيل المثال ، نجد أن أقل من اثنين فى المائة من المساحة الإجمالية للبحرين والكويت ملائمة للزراعة . ولدى إيران ما نسبته عشرة بالمائة فقط من مساحاتها الإجمالية يعتبر صالحًا للزراعة . وتعتبر تركيا الدولة الوحيدة التى بها نسبة كبيرة من الأراضى الصالحة للزراعة ، والتى تمثل ثلث مساحتها الإجمالية تقريباً .

وتعتبر مصادر المياه فى المنطقة محدودة أيضاً ، فهى إما نادرة أو موزعة بطريقة غير متساوية . ومصادر المياه فى كل مكان من العراق وسوريا تأتى أصلاً من تركيا وتشترك الدول الثلاث فى هذه الموارد المائية ، رغم أنها ليست دائماً على وفاق فيما بينها وتحتاج المياه التى تحصل عليها العراق من نهرى دجلة والفرات إلى معالجة أفضل لتفادى ملوحتها ولاستغلال القدرة الهائلة لهذين النهرين فى توليد الطاقة . وعلاوة على هذا ، فإن بعض أجزاء من العراق عبارة عن مستنقعات تغمرها مياه الفيضانات ، بينما هناك مناطق أخرى تعتبر صحراوية . أما النهر الآخر ، وهو نهر النيل ، فيعتبر المصدر الرئيسى للمياه لكل من مصر والسودان ، وأثيوبيا ، حيث تستخدم هذه المياه فى الأغراض الصناعية وفى الاستهلاك المحلى ، كما يتم

استخدامها فى زراعة القطن، والأرز ، وقصب السكر ، والخضراوات ، ولأغراض صيد الأسماك ، والترفيه ، وتوليد الطاقة . بيد أن نهر النيل يعانى هو الآخر من الاستغلال المفرط والتلوث .

وباستطاعة العديد من دول الشرق الأوسط استغلال المخزونات المعدنية والمصادر الطبيعية الأخرى لديها فى أغراض التنمية الاقتصادية (انظر الجدول ١ : ٧) وبمقدور دول أخرى جذب السائحين الأجانب وما لديهم من عملات صعبة تعتبر هذه الدول فى حاجة ماسة إليها . ولدى إسرائيل ، وفلسطين ، والسعودية أماكن مقدسة والتى تجتذب إليها سنوياً العديد من الحجاج الدينيين ، كما أن لدى مصر ، وسوريا ، وتركيا، والعراق مواقع تاريخية رئيسية ومهمة تعتبر من عناصر الجذب السياحى وتشكل مصدراً اقتصادياً مهماً للدخل القومى . ومع ذلك ، وباستثناء هذه الدول ذات الاحتياجات النفطية الضخمة ، فإن المصدر الذى يعتبر من المصادر الرئيسية والمهمة للثروة بالنسبة لمعظم دول الشرق الأوسط هو ذلك الذى يتجسد فى الثروة البشرية لدى تلك الدول والتى تعتبر رأسمالها الحقيقى .

وتتنوع دول الشرق الأوسط إلى حد كبير أيضًا فى المدى الذى قد استطاعت الوصول إليه فى تطورها الاقتصادى . وكما يشير الجدول رقم ٢ : ٧ ، تتنوع اقتصادات الشرق الأوسط من حيث الحجم لتتراوح من عدة دول ذات ناتج محلى إجمالى(GDP) يقل عن ٥ مليارات دولار سنوياً إلى بلد مثل السعودية يزيد الناتج المحلى الإجمالى فيه عن ٧٠ مليار دولار . وكما يتضح من الجدول رقم ٢ : ٧ ، تعرض هذه الدول أيضاً اختلافات وتباينات هائلة فى نصيب الفرد من الثروة . إذ إن نصيب الفرد الواحد من الناتج المحلى الإجمالى فى دول مثل جزر القمر ، والصومال، والسودان ، وسوريا يقل عن ألف دولار سنوياً ، بينما يعادل نصيب الفرد من الدخل القومى فى دول أخرى مثل البحرين ، والكويت ، وإسرائيل ، ودولة الإمارات ، نظيره فى دول أوروبا الغربية . كما تكشف مؤشرات أخرى للتنمية، مثل نسب التعليم للأشخاص البالغين ، ونسب السكان فى المناطق الحضرية ، عن وجود اختلافات كبيرة بين هذه الدول .

جدول رقم (٧:١) الموارد الطبيعية

الدولة	عدد السكان	المساحة (بالهكتار)	الأرض الصالحة للزراعة (بالهكتار)	الموارد الطبيعية	الصناعات الرئيسية
الجزائر	٢٩٥٣٩٤٠٠	٢٣٨١٧٤	٧٥٢١	نفط ، غاز ، حديد	بترول ، صناعات خفيفة ، غاز طبيعي
البحرين	٥٩٠١٠٠	٦٩	٢	نفط ، غاز ، مصايد أسماك	بترول ، ألومنيوم، إصلاح سفن
جزر القمر	٥٦٩٣٠٠	٢٢٣	٧٨	الزراعة	العطور السياحة
جيبوتي	٣٨٣٠٠٠	٢٣١٨	غير متاحة	لا توجد	أعمال التشييد ، والخدمات الملاحية
مصر	٦٣٥٧٥٠٠٠	٩٩٥٤٥	٢٨٠٠	النفط ، الغاز ، الحديد	المنسوجات ، الصناعات الغذائية ، والكيماويات
إيران	٦٥٧٨٠٠٠٠	١٦٢٢٠٠	١٧٧٥٠	نفط ، غاز ، كبريت	صناعات بترولية ، منسوجات ، كيماويات
العراق	٢١٤٢٢٠٠٠	٤٣٧٣٧	٥٥٠٠	نفط ، غاز ، فوسفات	صناعات بترولية ، بتروكيماويات ، المنسوجات
إسرائيل	٥٤٣٣٢٠٠	٢٠٦٢	٣٥١	نحاس ، فوسفات ، البروميد	صناعات غذائية ـ تقطيع الماس ـ المنسوجات
الأردن	٤٢١٢٢٠٠	٨٨٩٣	٣٢٠	الفوسفات ، البوتاس	الفوسفات ، البترول ، الأسمنت
الكويت	١٩٥٠١٠٠	١٧٨٢	٥	نفط ، مصايد أسماك	البترول ، البتروكيماويات ، محطات تحلية المياه
لبنان	٣٧٧٦٤٠٠	١٠٢٣	١٨٦	الحجر الجيرى	الصناعات الغذائية ، الأسمنت ، البترول

ليبيا	٥٤٤٥٥٠٠	١٧٥٩٥٤	١٨١٥	النفط ، الغاز	الصناعات الغذائية ، البتروكيماويات ، المنسوجات
موريتانيا	٢٣٣٧٠٠٠	١٠٢٥٢٢	٤٨٨	الحديد ، الجبس ، مصايد الأسماك	تعدين الحديد والجبس ، صناعات الأسماك
المغرب	٢٩٧٧٩٠٠٠	٤٤٦٣٠	٨٨٠٦	الفوسفات ، الحديد ، المنجنيز	تعدين الفوسفات ، صناعات معدنية ، صناعات غذائية
عمان	٢١٨٦٠٠٠	٢١٢٤٦	١٦	نفط ، غاز ، فحم	البترول ، مصايد الأسماك ، صهر النحاس
قطر	٥٤٧٠٠٠	١١٠٠	١٣	نفط ، غاز ، مصايد أسماك	البترول ، الغاز ، مصايد الأسماك
السعودية	١٩٤٠٩٠٠٠	٢١٤٩٦٩	٣٧٠٠	هيدروكربونات ، حديد ، ذهب	البترول ، بتروكيماويات ، الأسمنت
الصومال	٩٦٣٩٠٠٠	٦٢٧٣٤	١٠٠٠	اليورانيوم ، الأخشاب ، مصايد الأسماك	تكرير السكر ، تعبئة التونة واللحوم ، المنسوجات
السودان	٣١٠٦٥٠٠٠	٢٣٧٦٠٠	١٢٩٢٠	النفط ، الحديد ، النحاس	المنسوجات ، الأسمنت ، حلج القطن
سوريا	١٥٦٠٩٠٠٠	١٨٣٧٨	٤٤٨٦	النفط ، الغاز ، الفوسفات	البترول ، التعدين ، التصنيع
تونس	٩٠٢٠٠٠٠	١٥٥٣٦	٢٨٤٢	النفط ، الفوسفات ، الحديد	التعدين ، البترول ، زيت الزيتون
تركيا	٦٣٧٠٠٠٠٠	٧٦٩٦٣	٢٤٤٧٤	الفحم ، الكروميت ، النحاس	المنسوجات ، صناعات غذائية ، تعدين

الإمارات	٣٠٥٧٤٠٠	٨٣٦٠	٣٥	النفط ، الغاز ، الأسمنت	البترول ، الصناعات الخفيفة
اليمن	١٧٣٠٠٠٠٠	٥٢٧٩٧	١٤٤٠	النفط ، الغاز ، الذهب	تكرير النفط ، صناعات غذائية ، منسوجات

المصادر : (أ) بيانات من جزر القمر ، وجيبوتي ، وموريتانيا ، والصومال من كتاب رامساى ، ١٩٩٧ ، وبيانات أخرى من كتاب سبنسر ، ١٩٩٨ . (ب) بيانات من منظمة الأغذية والزراعة (فاو) لسنة ١٩٩٩ .

وفى الأعوام الأخيرة ، كان الكثير من النقد قد وجه إلى استخدام الدخل القومى كمعيار للأوضاع الاقتصادية . ولهذا ، فقد تم استحداث مؤشر التنمية البشرية لقياس الإنجاز الذى حققته دولة معينة فى تحسين نوعية الحياة لشعبها . ويضيف مؤشر التنمية البشرية (HDI) الدول ضمن مقياس يبدأ من الصفر إلى رقم واحد ، وذلك باستخدام ثلاثة مؤشرات : متوسط العمر ، ومؤشر التعليم الذى يتضمن نسب التعليم للأشخاص البالغين ومعدلات المسجلين بالمدارس ، ومقياس متوسط دخل الفرد بحيث تعكس القوة الشرائية .

جدول رقم (٢ : ٧) مؤشرات التنمية

الدولة	الناتج المحلى (بمليارات الدولارات)	نصيب الفرد من الناتج المحلى الإجمالى (بالدولار الأمريكى)	النسبة المئوية فى الحضر	نسبة التعليم	نقاط مؤشر التنمية البشرية	ترتيب مؤشر التنمية البشرية
الجزائر	٩٧	٣,٤٨٠	٥٠	٥٧	٠,٧٤٦	٨٢
البحرين	٧	١٢١٠٠	٨٨	٨٤	٠,٨٧٢	٤٣
جزر القمر	١ ذ	٧٠٠	غير متاحة	٤٨	٠,٤١١	١٤١
جيبوتى	١ ذ	١٢٠٠	٧٧	٤٨	٠,٣٢٤	١٦٢
مصر	١٥٢	٢٤٩٠	٤٥	٦٢	٠,٦١٢	١١٢
إيران	٣١٠	٤٧٢٠	٥٨	٧٨	٠,٧٥٨	٧٨
العراق	غير متاح	غير متاح	٧٠	٨٩	٠,٥٣٨	١٢٧
إسرائيل	٧٠	١٣٨٨٠	٩٠	٩٥	٠,٩١٣	٢٢
الأردن	١٧	٤٢٨٠	٧٨	٨٣	٠,٧٢٩	٨٧
الكويت	٣١	١٦٩٠٠	٩٦	٧٤	٠,٨٤٨	٥٤
لبنان	١٦	٤٣٦٠	٨٦	٧٦	٠,٧٩٦	٦٦
ليبيا	٣٣	٦٥١٠	٨٥	٦٠	٠,٨٠٦	٦٤
موريتانيا	٢	١١١٠	٣٩	٣٥	٠,٣٦١	١٤٩

المغرب	٨٨	٣٠٦٠	٤٧	٥٠	٠,٥٥٧	١٢٥
عمان	١٧	١٠٠٢٠	١٢	٤٠	٠,٧٧١	٧١
قطر	١١	٢٨٢٠	٩١	٧٦	٠,٨٤٠	٥٧
السعودية	١٧٣	٩٥١٠	٧٩	٧٩	٠,٧٧٨	٧٠
الصومال	٣	٥٠٠	٢٤	٢٤	٠,٢٢١	١٧٢
السودان	٢٤	٨٧٠	٢٣	٢٧	٠,٣٤٣	١٥٧
سوريا	١٤	٨٥٠٠	٥١	٦٤	٠,٧٤٩	٨١
تونس	٣٧١	٤٢٠٠	٦٠	٥٧	٠,٧٤٤	٨٣
تركيا	١٨٢	٤٩١٠	٦٣	٧٩	٠,٨٨٢	٦٩
الإمارات	٦٣	٢٢٤٨٠	٨٢	٧١	٠,٨٥٥	٤٨
اليمن	٢٣	١٩٥٥	٢٣	٣٨	٠,٣٥٦	١٥١

المصادر : نقاط وترتيب مؤشر HDI من تقرير برنامج UNDP لعام ١٩٩٨ فيما عدا الصومال ، وتقرير UNDP لعام ١٩٩٧ . والبيانات الأخرى عن جزر القمر وموريتانيا والصومال من كتاب رامساى لعام ١٩٩٧ .والبيانات الأخرى من كتاب سبنسر لعام ١٩٩٨ .

ويصنف مؤشر HDI ١٧٤ دولة . وكلما كانت درجة أو رقم الترتيب أقل ، كلما كانت نوعية الحياة فى الدولة صاحبة هذا الترتيب أفضل . فعلى سبيل المثال جاءت الولايات المتحدة فى الترتيب الرابع بعد كندا ، وفرنسا ، ، والنرويج . وبالمقارنة ، جاء ترتيب ثمانية دول من دول الشرق الأوسط دون أفضل مائة دولة . ونلاحظ هنا أن إسرائيل (المرتبة ٢٢) ، والبحرين (المرتبة ٤٣) ، ودولة الإمارات (المرتبة

٤٨) ، جاءت فقط ضمن أفضل خمسين دولة على المستوى العالمى . وبوجه عام تشير ترتيبات مؤشر HDI إلى تحقيق مستوى معيشى معقول لمواطنى دولة ما .

ومع الأخذ فى الاعتبار التنوع الواسع فيما بين دولة الشرق الأوسط ، فلماذا نعامل، إذن هذه الدول كوحدة واحدة ، وكما هو الحال غالبًا فى مجال الأدب ، والشئون العالمية فى هذا الفصل ؟ . وربما كان أكثر الأسباب وضوحاً هنا يكمن فى القصور الذاتى أو الجمود الفكرى : إذ إن هذه المنطقة كانت تعامل لفترة طويلة باعتبارها وحدة فى إطار سياسة أكاديمية خارجية ، وكتابات صحفية . ومع ذلك ، هناك أسباب أكثر وضوحاً للنظر إلى هذه الدول مجتمعة . وبادئ ذى بدء ، وكما ناقش آرثر جولد شميت فى الفصل الثالث ، تشترك هذه الدول فى تجارب تاريخية متعددة ، من بينها (فى معظم الحالات) خضوعها للحكم العثمانى . كما أن السمات والخصائص المشتركة المرتبطة باللغة ، والدين ، والتراث الاستعمارى ، والجوار الجغرافى تعتبر أيضاً مهمة . وعلاوة على ذلك ، وباستثناء تركيا ، فإن هذه الدول تعتبر أنفسها أجزاءً من الشرق الأوسط . ومع هذا ، فإن الوحدة الضمنية للمنطقة تعتبر خادعة نظراً لأن معظم الدول تسلك النهج الذى يحقق مصالحها الخاصة . وحتى الدول الأعضاء فى جامعة الدول العربية نادراً ما تقوم بتنسيق سياساتها بطريقة فعالة (من أجل مناقشة الخبرات الاقتصادية لكل دولة من هذه الدول ، يمكن مراجعة كتب كل من تيبلوك ومورفى، ١٩٩٣ ، لافى وشيرد ، ١٩٩١ ، وشودرى ، ١٩٩٧) .

ويتمثل إطار الفهم الذى أستخدمه هنا لتحليل اقتصادات الشرق الأوسط فى التحليل التخطيطى للتغيير الاقتصادى والسياسى كما يوضحه الشكل ١ : ٧ .

وقد استعرضت معظم نماذج التنمية المعروفة جيداً (مثل نموذج ويلسون ، ١٩٩٥ ، الفصل الثانى) ، ووجدت أنها مفيدة جداً بالنسبة إلى هذا التحليل . والفكرة الأساسية لهذا الفصل هى أن سياسة التنمية تنبثق أو تنشأ من الفلسفة ، أو المبدأ ، الذى يرتكز عليه النظام الاقتصادى . وهذه الفلسفة تؤدى إلى تأسيس مؤسسات تعكس هذا النظام وتحافظ على بقائه ، وبدورها ، فإن هذه المؤسسات تؤدى إلى خلق آليات إدارية تعمل على صياغة وتنفيذ السياسات . وتتولى الإدارة الإشراف على العمال الميدانيين والذين يعملون أيضًا لصالح السياسة المعلنة وإنجاحها . وهكذا ، فإن البناء السلوكى الإيجابى يؤدى إلى خلق سياق تنمية إيجابى : سياسة مكانية إيجابية ، حكومة

مستقرة ويمكن الاعتماد عليها ، بنية تحتية تعمل بكفاءة ، ومستوى معقول للعلم والتكنولوجيا . ومن شأن سياق التنمية الإيجابى أن يؤدى إلى توقعات إيجابية والتى بدورها ، تشجع على الاستثمار ، وعلى تراكم رأس المال ، ورفع نوعية رأس المال البشرى . وتسمح هذه العملية الديناميكية بتغيير الهيكل الاقتصادى ، وزيادة الإنتاج ، وتحسين متوسط دخل الفرد . وعلى النقيض من ذلك ، فإن الفشل فى خلق ظروف إيجابية عند أى مستوى من هذا المشروع يمكن أن يعوق عملية التنمية ويمنع الدولة من تحقيق أهدافها .

وفى ضوء إطار العمل هذا ، فإن هنالك بضع ملاحظات سوف تقترح أسلوب الجدل وطريقة المناقشة فى هذا الفصل . أولى هذه الملاحظات: أن دول الشرق الأوسط دخلت القرن العشرين ولديها هياكل سلوكية غير إيجابية وسياقات تنموية ناقصة . والاستثناء الوحيد من هذه الملاحظة كان يتمثل فى وجود سياق ديموجرافى إيجابى . ولهذا ، كان المرء يجد صعوبة كبيرة فى توقع الحصول عل نتائج ناجحة من استراتيجيات التنمية الاقتصادية التى تتبعها دول الشرق الأوسط . والواقع أن هاتين العمليتين بشأن خلق ظروف وأوضاع مسبقة ، والشروع فى عملية التنمية ، متداخلتان وهما يتسمان بالديناميكية واعتماد كل منها على الآخر وكذلك تداخل بعضها البعض . والملاحظة الثانية هى أن التغييرات الاقتصادية فى القرن العشرين كانت تحدث بصورة متقطعة وغير متصلة بسبب القوى الاقتصادية الإضافية : الهيمنة الأجنبية من جانب قوة معينة أو أخرى ، والحروب الساخنة والباردة ، وثورة أسعار البترول ، والحروب الأهلية والإقليمية .

ونظراً لأهمية الأنماط التاريخية للتنمية من أجل فهم اقتصادات الشرق الأوسط المعاصر ، فقد جرى تنظيم هذا الفصل بتقسيمه إلى مراحل أو فترات فرعية زمنية تفصل فيما بينها علامات يمكن تمييزها وإدراكها : ٩٣٩ - ١٩١٨ (ظروف أولية) ؛ سنوات الحرب العالمية الثانية . ١٩٣٩ - ١٩٤٥ (تغيير البؤرة) ؛ ١٩٤٥ - ١٩٨٢ (سياسة التوسع بعد الحرب والطفرة البترولية) ؛ ومن ١٩٨٢ إلى الوقت الحالى (إعادة تقييم) . وفى ملاحظاتى الختامية ، فإننى أقترح تقديم شرح للاختلافات بين دول الشرق الأوسط بالنسبة إلى أوضاعها وظروفها الحالية والتوقعات للتنمية الاقتصادية فى المستقبل . وفى الفصل الثامن ، يعرض فالنتاين . م . مقدم جوانب إضافية عديدة لاقتصادات الشرق الأوسط مع التحول إلى الألفية الجديدة .

الشكل (١ : ٧)

تحليل تخطيطى للتغييرات الاقتصادية والسياسية

التغير الاقتصادى (التنمية)

متوسط أعلى لدخل الفرد	الإنتاجية الأعلى	التغيير فى الهيكل الاقتصادى

ظروف إيجابية

زيادة رأس المال البشرى	تراكم رأس المال	الاستثمار

توقعات إيجابية

العائدات على التعليم	طاقة استيعابية	عائدات متوقعة

سياق التنمية

العلم والتكنولوجيا	البنية التحتية	السياسة الاجتماعية	الديموجرافيا

الهيكل السلوكى

العمال الميدانيون	الإدارة	المؤسسات	الفلسفة

الظروف الأولية، ١٩١٨ - ١٩٣٩ :

فتحت هزيمة الإمبراطورية العثمانية واستبدالها ببريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا كقوى استعمارية فى الشرق الأوسط النوافذ المطلة على العالم الصناعى المتقدم . وكان لهذا التغيير القدرة على تعزيز التنمية الاقتصادية ، ونقل التكنولوجيا ، ودمج الاقتصادات الإقليمية فى منظومة الاقتصاد العالمى . ومع ذلك ، كانت الظروف والأوضاع الأولية مقيدة نوعاً ما .

كانت الثنائية ، أو المبدأ الثنائى ، أهم ما يميز اقتصادات دول الشرق الأوسط إبّان مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية . ففى إطار الاقتصاد الثنائى ، يتواجد نوعان من الاقتصادات أحدهما متطور والآخر متخلف ، فى آن واحد . وفى القطاع الحديث ، أو الاقتصاد المتقدم ، تكون الأجور مرتفعة نسبياً ، وتصبح المهن ذات المهارة العالية شائعة ، ويتم استخدام التكنولوجيا الحديثة . ومع هذا ، فبالنسبة إلى معظم السكان ، يتم إنجاز العمل بطريقة تقليدية تتسم بعدم الكفاءة ، ويصبح الفقر شاملاً . وما زالت الثنائية الاقتصادية تعمل كحاجز أمام عملية التنمية فى معظم دول الشرق الأوسط إلى اليوم .

وكانت جميع دول الشرق الأوسط متخلفة ، إذ كانت تعتمد تقريباً على الزراعة ، وكانت لديها مستويات متدنية من التكنولوجيا ، والأسواق المجزأة وغير المتكاملة ، وكانت التعاملات فيها تقوم على المقايضة التجارية (أى التجارة من خلال تبادل السلع بدلاً من استخدام النقود) ، كما كانت مستويات دخل الفرد منخفضة وتعانى من ضعف القوى الشرائية. وعلاوة على ذلك ، عانت هذه الدول من ارتفاع معدلات الأمية . وكان العديد منها بلا حدود واضحة ومحددة ، وبها أنظمة سياسية ضعيفة ، ولا توجد بها تنمية اقتصادية حقيقية. وكانت ملكية الأرض تتركز إلى حد كبير فى أيدى حفنة من الأفراد ، ولم يكن هنالك وجود لنظام استئجار الأراضى . وبالضرورة، كانت العلاقات التجارية الخارجية أمراً شائعًا نظراً لأنه ما من دولة من هذه الدول كانت مكتفية ذاتيًا أو لديها القدرة على تحقيق الاكتفاء الذاتى بالنسبة إلى الاحتياجات الأساسية . وبوجه عام ، ظلت الصناعة المحلية ومستويات التكنولوجيا متدنية ، وكانت تكفى بالكاد لإنتاج سلع يمكن أن تتنافس فى السوق الدولية .

وعلى الجانب الإيجابي كانت دول الشرق الأوسط قليلة السكان نسبيًا ، ولديها موارد إيجابية إلى حد كبير بالمقارنة مع معدلات السكان . وكانت بدايات عملية التحضر واضحة . وكان يوجد فى عدد قليل من عواصم هذه الدول تجمعات سكانية كبيرة . وسوف تتضح هذه النقاط كلها من خلال الملامح التالية التى نقدمها هنا للبعض من دول المنطقة .

شمال أفريقيا :

كانت منطقة شمال أفريقيا لا تزال تحت الحكم الاستعمارى قبل الحرب العالمية الثانية . وكان الفرنسيون يحكمون الجزائر ، وتونس ، وأجزاءً من المغرب . وكانت طرابلس (ليبيا) محمية إيطالية . وعلى الرغم من اختلاف المستعمرين ، إلا أن دول شمال أفريقيا استطاعت أن تطور هياكل اقتصادية متشابهة .

وكشفت اقتصادات دول المنطقة عن قدر كبير من الثنائية خلال هذه الفترة ، حيث تولى المغتربون من رعايا الدول الاستعمارية جميع المناصب المهمة تقريباً فى مجال الاقتصاد الحديث المنتج وكانت العلاقات التجارية تتألف أساسًا من الروابط القائمة مع المركز الاستعمارى . وفى الجزائر ، مثلاً ، كانت الغالبية من القوة العاملة العربية تشتغل بالزراعة ، فى حين كانت تتركز القوة العاملة الفرنسية فى قطاعات التصنيع الحضرية والقطاعات التجارية . (وكانت معظم المزارع الكبيرة ومزارع الكروم مملوكة لمزارعين فرنسيين ، والتى كانت مساحة أى مزرعة من ممتلكاتهم أكبر بمرات عدة من المزرعة العربية العادية) .

وكانت الجزائر تعتبر جزءاً لا يتجزأ من فرنسا التى كانت معظم تجارة الجزائر معها . وتضمنت صادرات الجزائر إلى فرنسا الدقيق ، والمواد الغذائية وبعض أنواع الخضراوات ، أما الواردات من فرنسا فكانت تشتمل على الحيوانات الحية ، والمنتجات الحيوانية ، والخضراوات ، والمعادن ، والمنتجات المصنعة الكبيرة والصغيرة ، والفحم ، والسلع القطنية ، والأخشاب ، وبعض مواد البناء والشاى الأخضر ، والصوف ، والأوانى الزجاجية ، ومواد الطلاء وغيرها من الواردات وكان اقتصاد الجزائر يعمل كنظام سوق ، وذلك على الرغم من أن العلاقات مع فرنسا جعلت هذا الاقتصاد مكملاً وتابعاً للاقتصاد الفرنسى . ولم تكن اقتصادات المستعمرات الأخرى فى شمال أفريقيا بهذا القدر نفسه من الاندماج والتكامل مع الدول الاستعمارية كما كان الحال بالنسبة

للجزائر . ومع ذلك ، كان لدى هذه الدول علاقات اقتصادية قائمة أيضاً على التبعية والاعتماد على الدول الاستعمارية .

وقد حصلت جميع دول شمال أفريقيا على مساعدات تنمية فى العشرينيات ؛ إذ تم تشييد بنية تحتية فى مجالات النقل ، والصحة ومشروعات الصرف الصحى ، وتحقق بعض التقدم فى مجال التصنيع ، وأدى استخدام تكنولوجيا الرى إلى زيادة المنتجات الزراعية . وهذه المشروعات التنموية عادت فى معظمها بالمنفعة على القوى الاستعمارية ورعاياها ، ومع ذلك حدث تطور قليل جداً فى الاقتصاد التقليدى الذى عاش وعمله فى ظله المواطنون العرب . واستفاد المغتربون الأجانب أيضاً من السياسة التعليمية . وكان القليل من الطلبة المسجلون فى المؤسسات التعليمية العليا من أصول عربية ، الأمر الذى منعهم من التنافس من أجل الحصول على فرص مجزية فى القطاع الحديث .

وألحق الكساد الاقتصادى العالمى فى أوائل الثلاثينيات أضراراً بالغة باقتصادات دول شمال أفريقيا . وارتفعت معدلات البطالة ، وانخفضت الأجور ، وكان من الصعب الحصول على القروض .وقدمت البنوك القروض بضمان الأرض ، بيد أن الفوائد كلها تقريباً كانت من نصيب المزارعين الأجانب . واعتمد السكان العرب ، والذين لم يكن معظمهم على وعى أو دراية بالتعاملات المصرفية مع البنوك ، على المقرضين من القطاع غير الرسمى ، والذين غالباً ما كانوا يحصلون على نسب فائدة عالية جداً .

وبنهاية هذه الفترة ، كان الهيكل الاقتصادى للمنطقة قد تغير بصعوبة . وكانت التجارة والإنتاج فى الحال نفسه الذى كانت عليه تقريبًا من قبل . وظلت الثنائية سائدة ، وعلى الرغم من التحسن الذى طرأ على الطرق ، والكهرباء ، والإسكان ، إلا أن اقتصادات المنطقة ظلت راكدة . بل إن قطاع الإسكان العربى شهد تحسناً قليلاً بالنسبة إلى الصحة ، وسبل الراحة أو التخطيط ، والتصميم ، وذلك رغم أن هذه الملامح أو السمات كانت واضحة فى قطاع الإسكان الأوروبى ,وعلى الرغم من حدوث بعض التصنيع ، أخفق العديد من المشروعات الصناعية خلال فترة الكساد . وكان القليل من هذه المشروعات والشركات فى أيدى السكان الأصليين للبلاد ، وهى مشروعات لم توفر جزءاً كبيراً من القاعدة اللازمة للتنمية فى حقبة ما بعد الاستعمار.

مصــر :

كان لمصر تجربة مختلفة تماماً عن تجارب جاراتها من الدول الأخرى الواقعة إلى جهة الغرب ، ولكن النتيجة كانت متماثلة ؛ فبحلول عام ١٩٣٩ ، كانت مصر ما تزال دولة متخلفة ، ويعتمد اقتصادها اعتماداً كبيراً على الزراعة ، ويتأثر بشدة بالمصالح الأجنبية . ولم يستعمر مستوطنون أوروبيون مصر ، إذ كانت بريطانيا قوة إمبريالية ولم تكن قوة استعمارية في مصر . وكان تأثير بريطانيا تأثيراً محسوساً في مصر حتى قبل أن تستحوذ على نصيب كبير من أسهم شركة قناة السويس ، بيد أن القناة أعطتها ذريعة لإنـزال القوات البريطانيـة في مصـر في عام ١٨٨٢ لحماية طرق الملاحة إلى الهند .

وكانت مصر تعتمد في ذلك الوقت ، وكما هو الحال الآن ، على النيل ، والقطن، وقناة السويس ، والسياحة كمصادر رئيسية للدخل القومي والنقد الأجنبي . وزاد عدد سكان مصر البالغ ١٢,٩ مليون نسمة في عام ١٩١٨ ليصل إلى ١٦,٣ مليون نسمة في عام ١٩٣٨ (مجلة الإحصائيات التاريخية الدولية ، ١٩٩٨) ، غير أن الشروط والمؤهلات الخاصة بالقوة العاملة قد تغيرت قليلاً . وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى ، أعطت قوات الحملة البريطانية زخماً للاقتصاد المصري من خلال إنفاقها ، وإعطاء انطبـاع زائف عن الرخـاء المتـزايد (ولكن المؤقت) . وفي عـام ١٩٢٠ ، بذلت محـاولات لتأسيس بنك وطني . وتأسست شركة لمصدري القطن «المصريين» . وسيطرت المواد الخام على الصادرات ، في حين هيمنت السلع والمنتجات الغذائية على الواردات . وكانت السمة المميزة في أوائل الثلاثينيات هي زيادة صفقات وتعاملات المقايضة على المستوى الدولي : القطن مقابل الآلات من ألمانيا ومقابل آلات السكك الحديدية من المجر والسويد . (وساد اتجاه مماثل في النصف الثاني من هذا القرن) .

وفي عام ١٩٢٥ ، اكتسبت مصر خبرة جيدة في تخطيط المدن فشيدت بور فؤاد كمدينة حديثة في منطقة قناة السويس . ولسوء الحظ لم يتم تنفيذ هذه التجربة في مدن أخرى . وخرجت صناعات مثل صناعة النسيج ، والأسمنت ، والسكر ، وبناء مصانع الدباغة والجلود ، من رحم فتـرة الكساد في أوائل الثـلاثينيات ، بيد أن الشركات الكبيرة ، مثل شركة بناء السفن ، كانت مملوكة في معظمها لأشخاص

أجانب ، وفى هذا الوقت ، تصدت الحكومة لمنع أو إبطاء عمليات البيع الجبرى للممتلكات الزراعية المرهونة ولحماية الزراعة من المنافسة الأجنبية . وثمة سمة مميزة أخرى تمثلت فى تأسيس صناعات نموذجية من جانب الحكومة : مصنع للسجاد ، مصنع للزجاج ، مصانع للنسج والصباغة . وشهدت نهاية العقد مصاعب ومشكلات اقتصادية متزايدة بالنسبة لمعظم المصريين ، حتى على الرغم من زيادة الإنفاق على وسائل الترف من جانب الأثرياء المصريين وكثرة أسفارهم ورحلاتهم إلى المدن والعواصم الأوروبية ، الأمر الذى أدى إلى استمرار الطبيعة الثنائية للاقتصاد المصرى . وكانت فرص العمل محدودة ، وارتفعت نسبة البطالة بين المتعلمين .

وبحلول عام ١٩٣٧ ، عندما ألغيت الامتيازات التى كانت ممنوحة للقوى الإمبريالية الأوروبية ، استطاعت مصر أن توفر لشعبها المأكل دون الملبس ؛ إذ كانت العائدات من صادرات القطن تستخدم فى سداد قيمة الواردات المصنعة . وعلى أى حال، فإن إلغاء الامتيازات الأجنبية لم يكن معناه وضع حد للنفوذ الأجنبى وتأثيره على البلاد . وكانت القوة غير المتكافئة والمعاهدة الإنجليزية المصرية لعام ١٩٣٦ بديلان قويان لغياب هذه الامتيازات . ووفقاً لهذه المعاهدة ، كان يتعين على مصر تشييد الطرق والثكنات العسكرية لأغراض دفاعية ، حتى على الرغم من أن انخفاض أسعار القطن قد دفع بالاقتصاد إلى الهبوط .

السودان :

كان السودان يخضع للإدارة الإنجليزية – المصرية المشتركة (الحكم المشترك) منذ عام ١٨٩٠ ، وهو ما كان يعنى أن عملية صنع القرارات الاقتصادية كانت كلها تقريبًا فى أيدى الأجانب . وكان عدد سكان السودان فى عام ١٩٣٠ يتراوح ما بين خمسة وستة ملايين نسمة . وكانت الزراعة المصدر الاقتصادى الرئيسى للبلاد ، حيث اعتمدت الزراعة اعتماداً كبيراً على مياه النيل . وكان الصمغ العربى من أهم صادرات السودان الذى كان يوفر ما نسبته ٨٥٪ من إنتاج العالم من الصمغ . واشتملت المحاصيل المهمة الأخرى على الذرة ، أو الدُّخن (وهى حبوب تستخدم أساسًا كمادة خام فى صنع الخبز) ، والنخيل ، والعاج النباتى (الذى تستخدمه الولايات المتحدة فى صنع الأزرار) ، والقطن الخام ، والذى جعله الرى من المحاصيل المهمة التى تجلب النقد الأجنبى للبلاد . وكما كان الحال فى مصر ، فإن

اعتماد السودان على الزراعة جعل اقتصاده عرضة للتقلبات فى إنتاج القطن وأسعاره فى السوق العالمية .

ورغم أن هذه الدولة ذات المساحة الشاسعة كانت متخلفة إلى حد كبير ، إلا أنه كان يوجد بها سوق للسيارات والآلات التى جاء معظمها من بريطانيا والولايات المتحدة. ومما ساعد فى تسهيل التجارة الخارجية تلك التحسينات التى أدخلت فى ميناء بور سودان على البحر الأحمر وتشييد سكك حديدية استراتيجية لخدمة التجارة والقوات المسلحة . وكانت الواردات الأخرى تتضمن الاحتياجات الأساسية ، وعلى الأخص السلع المصنعة مثل المنسوجات ، والملابس ، والأحذية ، والدقيق ، والتبغ ، والبن ، والبيرة ، والوقود ، والأخشاب . وكانت وسائل وطرق الإنتاج تقليدية فى معظمها ، وكان معظم السكان من الأميين ، وبدت الثنائية واضحة فى أنحاء البلاد ، لا سيما بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية وبين المزارعين وملاك الأراضى الغائبين .

الشـرق :

إذا تحركنا باتجاه شرق البحر الأبيض المتوسط ، نجد أنه كانت هنالك تجربة مختلفة فى مجال التنمية فى تلك المنطقة . وكما ناقش جولد شميث بتفصيل أكبر ، فإنه قد جرى تقسيم الأراضى والمقاطعات التابعة للإمبراطورية العثمانية ، بين بريطانيا وفرنسا : إذ كانت فلسطين ، وشرق الأردن ، والعراق من نصيب الحكم البريطانى ، بينما خضعت سوريا ، ولبنان للحكم الفرنسى . وكانت فلسطين والأردن منفصلتان رسميًا ، وبحلول عام ١٩٢٢ ، كانت قد تأسست حدود دولية بين الدولتين لتسهيل إقامة وطن قومى لليهود فى البلاد ، وذلك دون أى انتهاك لحقوق السكان الأصليين ، وكما نص على ذلك وعد بلفور لعام ١٩١٧ .

فلسطين :

وانطلاقًا من هذه النقطة ، يمكن القول بأن التاريخ الاقتصادى لفلسطين كان هو نفسه إلى حد كبير تاريخ التنمية الاقتصادية فى القطاع اليهودى . وجاء المستوطنون اليهود الأوائل من أوروبا ولديهم مؤهلات عالية : التعليم ، والمهارات ، وأيضاً الالتزام الأيديولوجى والإصرار. كما كانوا يحظون بدعم ومساندة الحكومة البريطانية وحكومات دول الانتداب الأخرى وبدعم هائل من يهود العالم والدول الغربية .

وكان عدد سكان فلسطين فى عام ١٩٢٢ حوالى ٧٥٧ ألف نسمة ، وارتفع إلى أكثر من ٨٥٢ ألف نسمة فى عام ١٩٢٦ . ومن هذا العدد الإجمالى للسكان ، كان هناك ٦٢٨ ألفًا من العرب المسلمين ، و١٤٠ ألف من اليهود ، و ٧٦ ألف من العرب المسيحيين ، أما بقية السكان فكانت من العرب الدروز . وكانت هناك قلة من اليهود الذين ولدوا فى فلسطين ، ومعظمهم من سكان المناطق الحضرية ، بيد أن الاستيطان اليهودى الجديد للأرض أصبح نمطاً سائداً ، حتى على الرغم من تزايد المراكز السكانية الحضرية . ولأسباب سياسية واقتصادية ، كان هدف المجتمع اليهودى هو المحافظة على مستوى معيشة للمهاجرين الجدد مماثل لذلك المستوى المعيشى الذى اعتادوا عليه فى أوطانهم الأصلية السابقة . ولتحقيق هذا الهدف ، طور المجتمع اليهودى أساليب زراعية حديثة ، والتى تقدمت بشكل كاف فى الموشاف (المستوطنة التعاونية) والكيبوتس (المستوطنة الجماعية) وإلى الحد الذى جعل هذه الأساليب قادرة على التنافس فى السوق الدولية . وكانت التنمية الصناعية خليطًا من الملكية والإدارة الخاصتين و العامتين أو شبه العامتين ؛ وكانت تتميز أيضاً بقدرتها على المنافسة على المستوى الدولى .

وكانت الحكومة البريطانية هى التى تقوم بتمويل بناء الطرق ، والجسور ، والسكك الحديدية ، والمشروعات الإنشائية الأخرى . وتوسعت الزراعة اليهودية إلى حد كبير سواء من خلال التعلم من خبرات المزارعين العرب الأصليين أو من خلال تطبيق أساليب جديدة جلبها اليهود معهم من أوروبا . واستحدث المزارعون اليهود محاصيل جديدة مثل بذور الزيت ، وفول الصويا ، والألياف مثل الكتان والقنب ، والموز . وأقيمت مصانع جديدة ، وكان معظمها فى القطاع اليهودى ، مثل مصنع إنتاج الحرير فى تل أبيب ، ومصنع إنتاج الثقاب (الكبريت) ، وكذلك مصنع إنتاج الأسمنت فى حيفا . وأقيمت محطات لتوليد الطاقة ، كما أقيمت شبكات للرى ، فى الوقت الذى بدأت فيه عملية واسعة لاستغلال الكيماويات من مياة البحر الميت وللاستفادة من الطاقة من نهر الأردن . وفى أوائل الثلاثينيات ، كان القطاع الصناعى اليهودى متنوعاً وشاملاً ، حيث كان ينتج مجموعة متنوعة من المنتجات تتراوح من الصابون والأسنان الصناعية إلى الأدوية والمستحضرات الطبية . ورغم هذا كله ، ظلت الزراعة المصدر الرئيسى للتوظف والدخل فى البلاد .

وقد انتظم العمال اليهود فى أوائل هذه الفترة فى إطار الاتحاد العام لنقابات العمال، الهستدروت ، وعلى النقيض من ذلك ، كانت عملية تنظيم وتوحيد العمال العرب بطيئة وغير خالصة . وكان التنظيم المشترك للعمال واليهود والعرب موجوداً فقط فى الوظائف الحكومية والشركات العامة . وكان العمال اليهود : أفضل تعليماً ، وأفضل تنظيمًا ، وكانوا يحصلون على أجر يزيد بمقدار ثلاثين أو خمسين مرة عن أجر العمال العرب .

وبنهاية الثلاثينيات ، وعلى الرغم من الصراع السياسى بين العرب واليهود وبين كل منهما وبين حكومة الانتداب ، إلا أن القطاع الاقتصادى اليهودى كان قد توفر وأصبح راسخًا ، لا سيما مع وجود ميناء فى حيفا ، ومع تصريف وتجفيف مياه المستنقعات فى مناطق كثيرة ، وإنشاء مصفاة لتكرار البترول ، والتوسع فى نظام الرى، ازدهرت صناعة الحمضيات لأغراض التصدير . وعلى النقيض ، ومع وجود استثناءات قليلة ، كانت الزراعة العربية ما زالت تعتمد على أساليب تقليدية : وكانت هنالك نظم محدودة للرى وإنتاج المحاصيل بطريقة تقليدية فى ظل أنظمة استئجار الأرض . وفيما عدا المراكز الحضرية ، التى كانت غالبًا مزيجًا من السكان اليهود والعرب ، كانت البنية التحتية فى القطاع العربى سيئة ، حيث لم يكن هناك سوى عدد قليل من الطرق ، ولم تكن هناك كهرباء ، ولا مياه جارية ، وتوافرت تسهيلات محدودة للحصول على القروض ، وللقيام بالتسويق ، أو الحصول على قسط كاف من التعليم . وكانت فلسطين دولة صغيرة ذات اقتصادين منفصلين وغير متكافئين فى الواقع إذ كان الاقتصاد العربى يشبه إلى حد كبير اقتصادات الدول العربية المجاورة ، فى حين كان الاقتصاد اليهودى أقرب ما يكون إلى اقتصادات دول أوروبا ، ولكنه كان يتميز بوجود جرعة كبيرة من الإبداع والابتكار وروح المبادرة (*) .

---

* يقدم المؤلف هذا العرض مفرغا من إطار سياسة الانتداب البريطانى فى فلسطين (١٩٢٠ - ١٩٤٨) التى أتاحت للوكالة اليهودية التسهيلات الإدارية والمالية التى مكنتها من تنمية القطاع الاقتصادى اليهودى ، وحجبت ذلك كله عن الفلسطينيين ، بل ووضعت العقبات فى طريق التنمية الزراعية والصناعية والخدمية (المراجع) .

صورة (١ : ٧) سيدة فلسطينية تعمل على ماكينة الحياكة كوسيلة لكسب الرزق وتأمين الحد الأدنى من الاحتياجات الضرورية لأسرتها .

العراق وسوريا:

خضعت العراق أيضًا للإشراف البريطانى ، على الرغم من أنه توافرت لديها خصائص ومقومات الدولة المستقلة . وفى عام ١٩٢٢ ، وبتوجيه من بريطانيا ، أصبح الأمير فيصل الملك فيصل الأول بموجب الدستور ، وكان يحظى بمساندة ودعم مجلس النواب . وصارت العراق عضواً فى عصبة الأمم فى عام ١٩٣٢ بعدما ضمنت معاهدة التحالف لسنة ١٩٣٠ استمرار النفوذ البريطانى والفوائد التى تجنيها بريطانيا من استغلال النفط وحصل كل من شركة البترول العراقية وشركة تنمية النفط البريطانية على امتيازات نفطية وكشفت قوانين العراق التجارية عن هذا النفوذ ؛ إذ كانت هذه القوانين مزيجاً من بنود ونصوص ترجع إلى فترة القوانين العثمانية التى صدرت قبل الحرب ، وقانون لشركة الهند التجارية (وهى بريطانية أساساً) ، وقانون البراءة البريطانى أو قانون مارك التجارى .

وعرضت حكومة العراق إعفاءات ضريبية وقروض بهدف تنشيط الصناعة ، بيد أن النتائج كانت محدودة . وقام عدد قليل من المصانع بإنتاج المنسوجات القطنية ، والسجائر والقرميد ، والصابون ، والفواكه المعلبة ، ومنتجات الجوت وكانت هذه المصانع صغيرة ، حيث كانت تشبه الأكواخ بالنسبة إلى أسلوب العمل ، والحجم ، والإنتاجية . وكانت الزراعة المصدر الرئيسى لفرص العمل والوظائف ، ولكن ملكيات الأراضى كانت من الأمور التى لم تحسم . وبدأت عملية تسجيل الأراضى فى عام ١٩٣٢ ، غير أن عدم وجود مستندات ووثائق كافية أعطى رؤساء القبائل الأقوياء مزايا كبيرة فيما يتعلق بالاستيلاء على مساحات هائلة من الأرض على حساب الفلاحين والمستأجرين الذين يستغلون الأرض لمصلحة المالك مقابل حصولهم على جزء من المحصول .

وأخذت الحكومة زمام المبادرة لبناء الجسور ، والقنوات وشبكات الرى على ضفاف نهرى الفرات ودجلة . وكان الجيش البريطانى قد شيد من قبل ميناء البصرة أثناء الحرب العالمية الأولى ، كما شيد السكك الحديدية لنقل القوات البريطانية . ومع ذلك ، فإن صيانة هذه المنشآت والمرافق واجهت صعوبات خلال سنوات الكساد ونهاية فترة الانتداب . وكان لدى العراق بعض الطرق الجديدة ، وطرق الملاحة النهرية ، ومطار جوى تم افتتاحه فى عام ١٩٣٣ .

وفيما عدا البترول ، اشتملت الموارد المعروفة للبلاد على الملح ، والفحم منخفض الجودة . ومع هذا ، كانت الزراعة والأرض الصالحة للزراعة متوافرة قياسًا إلى عدد السكان ، والذى وصل فى أوائل الثلاثينيات إلى حوالى ثلاثة ملايين نسمة . وكان معظم القوة العاملة من غير المتعلمين . وكان من الأمور الشائعة آنذاك وجود مستأجرين يستغلون الأرض لمصلحة مالكها مقابل الحصول على جزء من المحصول، ولم يكن الاقتصاد مصدراً أساسيًا للدخل وعلى الرغم من هذا كله ، كان يتم بناء المنازل الحديثة على الطراز الأوروبى ، ولاسيما فى العاصمة بغداد ، إضافة إلى البصرة ، والموصل ، ولكن لم يكن هناك أى وجود لشبكات الصرف الصحى أو المناطق الحضرية .

وكان العراق ينتج الحبوب ، والتمور ، والتبغ . وفى ذلك الوقت ، شهدت أساليب وتكنولوجيا الزراعة تغييرات بطيئة . إذ لم يكن المزارعون قد اعتادوا على استخدام

التسهيلات والقروض التى تقدمها البنوك ، ومن ثم اعتمدوا على المرابين . ولم يكن لدى الحكومة أية خطط من أجل التحول إلى التصنيع ، ولكنها شيدت طرقًا جديدة وقررت فى عام ١٩٢٦ بناء خط السكة الحديد التركى – السورى .

وبعد الحرب العالمية الأولى وخروج العثمانيين من البلاد ، خضعت سوريا ولبنان للانتداب الفرنسى . وتم تقسيم هذه الأراضى ، التى كانت تعرف آنذاك باسم سوريا ، إلى مقاطعات أو أقاليم : بيروت ، ودمشق ، وحلب ، واللاذقية ، وجبل الدروز. وبالإضافة إلى تفجر صراعات عرقية داخلية ، لم يقبل القوميون السوريون أبداً الهيمنة الفرنسية على بلادهم ، ولهذا ، كانت الاضطرابات السياسية أمراً متكرر الحدوث . واستجاب النشاط الاقتصادى لنفقات ومصروفات الجيش الفرنسى ، بيد أن الاقتصاد اعتمد أساساً على الزراعة ، والتجارة ، والسياحة ، وعلى الأخص فى بيروت وحلب . وكان القمح والحبوب الأخرى من المحاصيل الرئيسية فى البلاد . واشتملت الصناعة المحلية على الغزل ، ودباغة الجلود ، والصباغة ، وإنتاج زيت الزيتون ، والصابون ، والحرير ، والتبغ . وكان قد بدأ استخدام الماكينات والآلات . وساهم الفرنسيون فى بناء الطرق وشيدوا خط سكة حديد يمتد إلى دمشق . وكانت الواردات تتألف فى معظمها من المواد الغذائية والسلع الأخرى مثل الملابس ، والبترول ، والوقود ، والسيارات . واشتملت الصادرات الرئيسية على الفواكه المجففة ، والمكسرات، وزيت الزيتون ، والحيوانات الحية ، والتى كانت أصلاً سلعاً يتم تصديرها من تركيا.

ومن بين مواردها ، كانت المنطقة السورية غنية بالذهب ، والنحاس ، والحديد ، والمنجنيز ، والكروم ، والجبس . ومع ذلك ، تزايد الاعتماد على الواردات ، وعلى الأخص المعدات ، والآلات والورق ، والزجاج ، والخزف الصينى ، والعقاقير ، والجوارب ، والبيانو ، والخزانات ، والساعات ، والبيرة . واستوردت البلاد بيض دودة الحرير من فرنسا حيث كان يفقس البيض لدى بلوغه مرحلة النضج ، ثم يعاد تصدير شرانق دودة الحرير إلى فرنسا . وكان اقتصاد سوريا مرتبط بالاقتصاد الفرنسى . ونتيجة لذلك ، عانت سوريا ذات الاقتصاد الزراعى أيضًا من التقلبات ذاتها التى عانتها فرنسا الصناعية .

وحدث تطور مهم وله مغزاه فى هذه الفترة وهو انفصال سوريا ولبنان وتبنى الدولتين دستورين جديدين ، رغم أنهما كانتا لا تزالان تحت الانتداب الفرنسى . وطبقاً لمعاهدة ١٩٣٦ بين فرنسا وكل من سوريا ولبنان ، فسوف تحصل الدولتان على استقلالهما بعد ثلاث سنوات من توقيع هذه المعاهدة . ومع هذا ، فإن اندلاع الحرب العالمية الثانية أدى إلى تأجيل تنفيذ المعاهدة .

وأدى الاهتمام بالصناعة فى سوريا إلى اتباعها سياسة الحمائية ، ومن ثم قامت بتشييد الفنادق فى المدن ، وإنشاء منطقة تجارة حرة فى بيروت ، والتوسع فى شبكة السكك الحديدية لتمتد من شمال مدينة حلب إلى حدود العراق ، وأيضاً التوسع فى بناء الطرق . وبدأ تسيير رحلات جوية إلى مدينة مرسيليا فى غرب فرنسا ، وإلى مدينة سايجون الفيتنامية التى كانت مركزاً استعمارياً فرنسياً ، وإلى المدن الواقعة فى شرق فرنسا . وحصلت شركة خاصة على احتكار إنتاج التبغ .

وتبنت الحكومة أيضاً خططاً خمسية للإنفاق فى المناطق والأقاليم الخاضعة لنظام الانتداب . وكان من بين الصناعات الجديدة إقامة مصانع لإنتاج العطور ، والبطاطين، والجوارب ، والبلاط الأسمنتى وأدخل إنتاج القنب ، وهو نبات تصنع منه ألياف الحبال والخيوط والأكياس ، فى مجال الزراعة . وبدأ استخدام نظم الرى فى مقاطعتى حمص وحلب ، ولكن مشروع الرى فى محافظة حلب لم ينفذ بعد أن باتت نهاية الانتداب وشيكة . كما بدأت مشروعات استصلاح الأراضى وتجفيف المستنقعات. ومع هذا ، فإن هذه المشروعات الصغيرة لم تكن كافية للتأثير إلى حد كبير على الهيكل الاقتصادى للبلاد . وظلت اقتصادات سوريا ولبنان قائمة أساساً على الزراعة ، وكانت متخلفة وموجهة إلى الخدمات . وبات واضحاً أن هناك تعارضاً بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية ، وبين الأغنياء والفقراء ، والمتعلمين وغير المتعلمين ، والتوجه الغربى والتوجه التقليدى .

إيران :

رغم أن إيران ، أو بلاد فارس كما كانت تعرف بهذا الاسم فى ذلك الوقت ، لم تكن خاضعة لأى من القوى الاستعمارية ، إلا أن النفوذ الأجنبى فيها كان واضحاً دائماً. ومع أنها كانت غنية بمواردها الطبيعية ، فإن إيران اعتمدت اعتماداً كبيراً على

العالم الخارجى فى تلبية احتياجاتها الأساسية . واشتملت وارداتها على السكر ، والقطن، والشاى ، والأرز ، والحيوانات ، والسلع المعدنية ، والآلات . وكانت صادراتها تتألف من الزيت الثقيل ، والمنتجات البترولية ، والصوف ، والسجاد ، والصمغ ، والتبغ الخام، وجلود الماشية ، والحرير الخام ، والقطن ، واللآلئ ، والعقاقير، والأرز ، والقمح، والشعير ، والجلود الخام . وظهرت صناعات جديدة قليلة مثل صناعة الجلود، والأحذية، والأزرار .

وكان لدى إيران بنية تحتية مختلفة . إذ اعتاد معظم الناس السفر على ظهور الحيوانات وباستخدام العربات التى تجرها الدواب ، وذلك رغم أنه كان يوجد عدد قليل من الطرق التى تصلح للسفر بالسيارات . وكانت صناعة التعدين تتم من خلال منح امتيازات والتى كان معظمها من نصيب الأجانب ، وكانت القرارات الاقتصادية تتخذ فى ظل توجيهات وإرشادات من مستشار أمريكى مقيم . وجرى تخصيص ما يقرب من ٢٥ ٪ من ميزانية الدولة للإنفاق على الجيش فى منتصف العشرينيات ، كما أن جهود الحكومة لزيادة الأموال من خلال تأمين رأس المال الأجنبى باءت بالفشل . وكان يوجد فى إيران بنكان رئيسيان على الأقل ، الأول هو « بنك ديسكومت دو بيرسى» (الذى كان يديره المستشار الأمريكى) ، والثانى هو «إمبريال بنك أوف بيرزيا » ، وهو المصرف الحكومى آنذاك .

ولجأت الحكومة إلى السخرة لبناء الطرق العسكرية والتجارية . وكان التعليم الفنى محدوداً جداً ، رغم أنه تم إنشاء مدرسة فنية حكومية فى منتصف العشرينيات.

وشهد النصف الثانى من القرن المزيد من المركزية ، وهو ما كان يتم أحياناً من خلال وسائل صارمة . وتم إيجاد احتكارات لإنتاج السكر والشاى بهدف توليد عائدات لاستخدامه فى دعم بناء شبكة سكك حديدية . وقام المجلس (البرلمان) بتأسيس بنك وطنى فى عام ١٩٢٧ ، والذى جمع رأس ماله من خلال بيع المجوهرات والإقطاعيات والأراضى الملكية . وكانت الأنشطة والتعاملات التجارية محدودة نظراً لضعف البنية التحتية وتدنى القوة الشرائية للشعب الإيرانى . وأدى وجود شبكة نقل سيئة إلى حدوث تأخير فى تسليم بضائع إلى جهات عدة مثل جمهوريات الاتحاد

السوفيتى الاشتراكية المجاورة ، الأمر الذى دفع السلطات فى تلك الجمهوريات إلى فرض مقاطعة للبضائع الإيرانية لما يربو على سنتين .

صورة (٢ : ٧) فتاة إيرانية تغزل سجادة فارسية حيث أصبحت السجاجيد الإيرانية أهم صادرات إيران بعد البترول

وشجعت الحكومة التعليم العام . والتحق ما يقرب من نصف مليون شخص بالمدارس الحكومية والخاصة ، فى كافة المراحل التعليمية المختلفة وذلك خلال الفترة بين ١٩٢٦ و ١٩٢٧ . وكان يوجد فى إيران أيضاً مؤسسات تعليمية عليا فى مجالات مثل الطب ، والفنون الجميلة ، وأصول التدريس ، والقانون ، والعلوم السياسية والهندسة، والعلوم العسكرية . ولتشجيع الاستقلال الاقتصادى ، أدخلت إيران فى عام ١٩٢٨ نظام الامتيازات الأجنبية وانتهجت سياسات اقتصادية قومية. ومع ذلك ، كان يتم ترسية معظم عقود بناء السكك الحديدية على شركات أجنبية ، لأن الشركات المحلية كانت تفتقر إلى المهارات والمعدات اللازمة لتنفيذ مشروعات إنشائية وهندسية كبيرة .

وفى عام ١٩٣١ ، تم التوسع فى منح الاحتكارات التجارية والأجنبية ، وطلب من المصدرين بيع معظم ما لديهم من عملات أجنبية إلى الحكومة . وتأسست احتكارات تجارية جديدة للتعامل مع أنواع معينة من الصادرات والواردات ، من بينها أقمشة الحرير وشرانق الحرير . ومع هذا ، ظلت الصناعة متخلفة ، واستمر الاعتماد على العالم الخارجى . وظلت أجزاء السيارات تمثل عنصر التصدير الرئيسى بينما كانت السلع المصنعة من أهم الواردات: المنسوجات ، وأعواد الثقاب ، والمصابيح الكهربائية، والجوارب ، والجلود ، والأوانى الزجاجية ، والصابون ، والفواكه المجففة. وتركز الاهتمام على الزراعة ، على الرغم من عدم وجود شبكات حديثة للرى أو أساليب متقدمة للزراعة .

وتأثرت إيران بشدة بمظاهر الحياة الحديثة التى انعكست بوضوح فى أساليب وأنماط المعيشة فى المجتمع الإيرانى . وفى أواخر الثلاثينيات ، ظهرت فى إيران دور السينما ، والمسارح ، بيد أنه لم يكن هناك إذاعة على الرغم من استخدام أجهزة الراديو اللاسلكية على نطاق واسع . وأخيراً ، وعلى الرغم من انتشار سياسة الحمائية ، أبرمت إيران اتفاقات تجارية ثنائية (فى عام ١٩٣٥ مع سوريا وجمهوريات الاتحاد السوفيتى الاشتراكية ، وفى عام ١٩٣٦ مع ألمانيا والنمسا) ، كما أبرمت اتفاقيات متعددة الأطراف (فى عام ١٩٣٧ مع الأرجنتين والمكسيك وتركيا والعراق وأفغانستان) . ومع نهاية الثلاثينيات ، كان الاقتصاد الإيرانى لا يزال متخلفاً ، وثنائياً ويعتمد إلى حد كبير على المصالح الحكومية ويتأثر بها .

الخليج :

عرفت دول الخليج القليل من التنمية قبل نشوب الحرب العالمية الأولى . وكانت الكويت ، والبحرين ، وعدن مراكز ترانزيت ومحطات لصيد اللؤلؤ ، والأسماك ، وإصلاح السفن . ولم يكن هناك أى صناعة تقريباً . أما السعودية ، التى تعتبر معظم أراضيها صحراء ، فإنها لم تكن قد شرعت بعد فى استغلال مخزوناتها النفطية ، رغم أنه كانت توجد بالفعل علامات ودلائل على وجود ثروة نفطية . وكان أهم مصدر من مصادر الدخل: الأموال التى ينفقها الحجاج المسلمون الذين يفدون إلى مكة من أنحاء العالم لأداء مناسك الحج . وكانت الزراعة من الأنشطة المهمة فى المناطق الساحلية الشرقية والغربية بيد أنها لم تكن كافية فى أى من دول الخليج لتلبية احتياجات سكانها. ولم تكن تقديرات السكان فى منطقة الخليج دقيقة فى تلك الفترة ، ولكن من المرجح أنه كان يعيش فى دول المنطقة أقل من عشرة ملاين نسمة.

تركيا :

رغم أنها لم تخضع لحكم القوى الأجنبية ، إلا أن تركيا قد تأثرت بالنفوذ الأجنبى لفترة طويلة ، إذ تأثرت فى البداية بنظام الامتيازات الأجنبية الذى استمر قروناً طويلة ثم تأثرت بشدة من جراء أعباء الديون الثقيلة التى كانت مستحقة للقوى الغربية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وأخذت محاولة تطوير وتصنيع الاقتصاد شكل مزيج يجمع بين المشروعات العامة والخاصة . وخلال الفترة بين عام ١٩٢٢ وعام

١٩٣٤ ، تعززت التنمية من خلال بنوك استثمارية أسستها الدولة . وبالإضافة إلى البنك الزراعى الذى كان موجوداً من قبل ، أسست الحكومة بنك إيش ، وهو عبارة عن شركة خاصة أنشئت لتنظيم وتمويل المشروعات والشركات التجارية . وكان بنك تركيا للصناعة والتعدين ، وهو بنك حكومى ، يتولى إدارة الشركات الصناعية المملوكة للدولة . ونتيجة لذلك، تأسست عدة مشروعات صناعية جديدة حظيت بدعم ومساندة الدولة . وزاد عدد العمال فى القطاع الصناعى من ١٧ ألف إلى ٦٢ ألف عامل فى الفترة بين ١٩٢٧ و ١٩٣٣ . وشهد الإنتاج من القطن ، والمنسوجات الصوفية ، والسكر، والجلود ، والأسمنت زيادة سريعة . كما توسع الإنتاج الزراعى بشكل كاف إلى الحد الذى أتاح لتركيا إمكانية إطعام نفسها . إذ زاد الإنتاج من الحبوب ، والتبغ ، والخضراوات ، والفواكه بصورة مطردة خلال العشرينيات والثلاثينيات.

وختاماً يمكن القول بأن دول الشرق الأوسط كانت قد شرعت فى تغيير اقتصاداتها خلال هذه المرحلة . وكان استهلاك هذه المنتجات المصنعة أكثر وضوحاً من إنتاجها. وكانت الزراعة القطاع الرئيسى فى كافة دول المنطقة تقريباً . وسادت الثنائية مع وجود نسبة صغيرة فقط من السكان تشارك فى أنشطة إنتاجية مربحة وتتميز بالكفاءة. وفيما عدا فلسطين التى كانت تحت الانتداب البريطانى ، والتى كانت قد بدأت عملية التصنيع بسرعة ، فإن جميع دول المنطقة قد بدأت السير فى طريق التصنيع وإجراء تغييرات هيكلية . بيد أن هذه الصورة تغيرت تماماً مع اندلاع الحرب العالمية الثانية .

سنوات الحرب ، ١٩٣٩ - ١٩٤٥ :

كانت نهاية الحرب إيذاناً ببدء نظام عالمى جديد لدول منطقة الشرق الأوسط . إذ انتهت النزعة الاستعمارية رسمياً على الرغم من أن العديد من الأنظمة قد حلت محلها أنظمة عسكرية وصفت بأنها جمهورية أو استبدلت بأنظمة ملكية مدعومة من القوى الاستعمارية السابقة . وبينما ساد السلام فى الغرب ، شهدت منطقة الشرق الأوسط عدة حروب فى أعوام ١٩٤٨ ، و١٩٥٦ ، و١٩٦٧ ، و١٩٧٣، و١٩٨٠، و١٩٨٢ ، و١٩٩١ ؛ وانقلابات وثورات عسكرية فى مصر ، وسوريا ، وليبيا ، والعراق، وإيران ، والسودان ، وحروب الاستقلال فى الجزائر ، وتونس ، وفلسطين ، وفترات طويلة من الحروب الأهلية فى الجزائر ، والسودان ، واليمن ، والصومال ، ولبنان . وظهرت دول جديدة إلى الوجود ، من بينها دولة إسرائيل ، وجيبوتى ، والصومال ، وجزر القمر .

وبدأ تنفيذ برامج تنمية طموحة فى شتى أرجاء المنطقة فى قطاعات الزراعة ، والصناعة ، والتعليم ، ونقل التكنولوجيا ، والتحديث . وقد أرست هذه البرامج تقليداً قوياً للتدخل الحكومى :

«السياسة العامة فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا يحركها ويوجهها الاعتقاد بأن الدولة هى أكثر العناصر فاعلية لتنشيط التنمية الاقتصادية ... وتبعاً لذلك ، يعتبر التأميم والملكية العامة لوسائل الإنتاج من أبرز سمات هذه السياسة العامة ، كما سعت الدولة فى ظل هذه السياسة العامة لأن تصبح المورد الرئيسى للاستثمار» (أندرسون ومارتينيز ١٧٩ : ١٩٩٨) .

وثمة خاصية أو سمة أخرى تتميز بها تلك الفترة وهى الزيادة فى الاستهلاك ، حتى فى الدول الفقيرة نسبياً والتى تعتمد على القروض والمعونات الخارجية . وأخيراً، أدت ثورة أسعار البترول فى عام ١٩٧٤ إلى وجود قدر من الرخاء والنمو فى كافة الدول ، على الرغم من أن المنافع التى تحققت من وراء الزيادة فى أسعار النفط قد تركزت فى الدول المصدرة للنفط .

وكان للحرب الباردة بين الشرق والغرب تأثيرها على دول المنطقة التى تعرضت لضغوط لحملها على الانحياز إما إلى معسكر الشرق أو إلى معسكر الغرب . وأعلنت

مصر ، ومعها الهند ويوغوسلافيا ، ميلاد حركة جديدة هى حركة عدم الانحياز بهدف إيجاد ضرب من التوازن بين معسكرى القوتين العظمتين والترويج لسياسة الحياد وعدم الانحياز بين دول العالم الثالث . وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، حاولت تركيا أن تظل مستقلة ومحايدة ، بيد أن مجيء الحرب الباردة وإغراءات المساعدات الاقتصادية من الولايات المتحدة غيرت من هذه السياسة . وأدت الوعود بشأن تقديم المساعدات من خلال خطة مارشال ، والعضوية فى منظمة معاهدة حلف الشمال الأطلسى (NATO) لتوفير الحماية من الاتحاد السوفيتى العملاق ، وقوة البنك الدولى (WB) صندوق النقد الدولى (IMF)، أدى كل هذا إلى إعادة توجيه السياسات الاقتصادية لتركيا باتجاه الغرب . وبات هذا التأثير محسوساً بقوة من خلال ما أصبح يعرف بالعقد الديمقراطى (١٩٥٠ - ١٩٦٠) ، وذلك عندما تولت حكومة ديمقراطية السلطة فى البلاد . ومع هذا ظل دور الحكومة فى الاقتصاد مهماً وحيوياً . وبعد عام ١٩٦٠ ، واجهت تركيا سلسلة من الانقلابات العسكرية ، والتى أدت إلى إيجاد دور دائم للمؤسسة العسكرية فى الاقتصاد .

وخلال هذه الفترة ، تباينت دول الشرق الأوسط فى المدى الذى بلغته بالنسبة للتنمية الاقتصادية ، والتصنيع ، والتغيير الهيكلى (توما ١٩٨٧ ، يعرض الفصلان السادس والثامن والكتاب تفاصيل عن هذا الموضوع ، راجع أيضًا كتاب ويلسون ، ١٩٩٥) . وبوجه عام ، ظلت جميع الدول ، فيما عدا إسرائيل ، متخلفة ولم تكن تتمتع بنهضة صناعية تفوق تلك التى كانت لديها فى بداية هذه الفترة .

وظلت الزراعة من القطاعات الحيوية فى معظم اقتصادات دول الشرق الأوسط كمصدر للتوظيف وللدخل لنسبة مئوية كبيرة من السكان الذين أخذت أعدادهم تزيد بصورة مطردة . كما اعتبرت الزراعة بمثابة عامل استقرار داخل الاقتصاد لأنها تمكنت من استيعاب فائض العمالة . ففى أواخر عام ١٩٧٨ ، كان يعمل بالقطاع الزراعى أكثر من ٤٠ ٪ من السكان فى ١٢ دولة بالمنطقة وأكثر من ٥٠ ٪ فى ١١ دولة. وكان هناك ثلاث دول فقط يعمل فى القطاع الزراعى بها أقل من ٢٥ ٪ من القوة العاملة النشطة .

وزاد الإنتاج الزراعى فى جميع دول المنطقة خلال الخمسينيات والستينيات ، فيما عدا الجزائر . وإذا أخذنا الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٦ كمعيار أساسى ، يمكن القول بأن

إسرائيل زادت من إنتاجها الزراعى ثلاث أضعاف بحلول عام ١٩٦٨ . كما ضاعفت كل من لبنان ، وليبيا ، والسودان إنتاجها تقريبًا . وتمكنت إيران والعراق من زيادة إنتاجها الزراعى بأكثر من ٥٠ ٪ ، فى حين زاد الإنتاج فى بقية الدول بنسبة تقل عن ٥٠ ٪ . وشهد الإنتاج الزراعى فى الصومال وموريتانيا زيادة بلغت أكثر من اثنين فى المائة سنوياً خلال الفترة بين ١٩٦٠ و ١٩٧٥ (IBRD ١٩٨٨، منظمة FAO، ١٩٨٧) .

وبعد عام ١٩٦٩ ، تباطأ التقدم فى الإنتاج الزراعى نوعًا ما . وزاد الإنتاج الزراعى فى ليبيا إلى أكثر من الضعف خلال الفترة بين ١٩٦٨ و ١٩٧٨ ، كما توسع الإنتاج فى سوريا ، وتونس ، وإسرائيل بمقدار مرة ونصف فى الفترة نفسها . ومع ذلك، ظل القطاع الزراعى راكداً تقريبًا فى المغرب ، والجمهورية العربية اليمنية ، وإلى حد ما ، فى مصر والعراق .

وحتى فى الدول ذات الإنتاجية الزراعية المتزايدة على نحو مطرد ، كان من المتعذر تلبية الطلبات بشأن النمو السكانى السريع . وكان التغيير فى الإنتاج الزراعى للفرد الواحد سلبيًا فى عدد من الدول . وعلى سبيل المثال ، نجد أنه فى الأردن ، والمغرب ، والعراق ، والجمهورية العربية اليمنية ، انخفض إنتاج الطعام للفرد الواحد بنسبة كبيرة . ومن المرجح أن أكبر هذه الانخفاضات حدثت فى الأردن ، بسبب استيلاء إسرائيل على الضفة الغربية فى حرب الأيام الستة (توما ، ١٩٨٧ ، الجدول رقم ١) .

ورافق الزيادة فى الإنتاج الزراعى خلال الفترة عام ١٩٦١ ونهاية السبعينيات ، التوسع فى المناطق الصالحة للزراعة والمناطق الدائمة لزراعة المحاصيل فى جميع دول المنطقة (و إن يكن بدرجات مختلفة) فيما عدا سوريا . وكان هذا صحيحاً بشكل خاص فى الجزائر ، والمغرب ، وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، والعراق . وعلى الرغم من هذه المكاسب فى إنتاج الأراضى الصالحة للزراعة ، إلا أن الحصة النسبية التى أسهمت بها الزراعة فى إجمالى الناتج المحلى GDP ظلت صغيرة أو تناقصت فى معظم الدول . وكانت إنتاجية الأيدى العاملة فى مجال الزراعة منخفضة نسبيًا ، ولهذا ، فإن نصيب إجمالى الناتج المحلى من الزراعة كان أقل من نسبة السكان المشاركين فى الإنتاج الزراعى . ولإيضاح ذلك ، فإن نسبة ٤٩ ٪ من القوة

العاملة النشطة فى الجزائر كانت تعمل فى الزراعة فى عام ١٩٨١ ، بيد أن إسهاماتهم فى إجمالى الناتج المحلى بلغت ٦ ٪ فقط ، وفى المغرب بلغ إسهام ٥١ ٪ من القوة العاملة النشطة فى القطاع الزراعى ١٤ ٪ فقط من إجمالى الناتج المحلى (توما ١٠٩ ، ١٩٨٧) . وفى تركيا ، عملت نسبة ٦٤,٢ ٪ من القوة العاملة فى الزراعة حيث أسهمت بنسبة ٢٦,٢ ٪ فقط فى إجمالى الناتج المحلى (هال ١٩٨١) . وكانت نسبة المساهمة الأقل واضحة فى جميع الدول باستثناء لبنان ، حيث ساهمت نسبة ٩ ٪ من القوة العاملة بنحو ١٢ ٪ من إجمالى الناتج المحلى (توما ١٠٩ ، ١٩٨٧) .

ويمكن أيضاً ملاحظة التحسن الذى طرأ على الزراعة فى التغييرات فى إنتاجية الفرد الواحد من الأرض الزراعية . وشهدت معظم بلدان الشرق الأوسط زيادات فى الإنتاجية الزراعية خلال الفترة بين ١٩٦٩ و ١٩٧٩ ، ولا سيما فى إنتاج الحبوب ، والجذور ، والدرنات ، والطماطم ، وأوراق التبغ . ومن المثير ملاحظة أن هناك أنماطاً مختلفة بين هذه الدول . وكمثال على ذلك ، شهدت لبنان ، وإسرائيل ، وتركيا فقط زيادات فى الإنتاجية بالنسبة لمعظم المحاصيل ولم يطرأ أى انخفاض فى أى من هذه الدول . وهبطت إنتاجية المحاصيل فى كل من مصر ، والعراق ، والسودان ، وعلى الأخص فى ثلاثة أو أربعة محاصيل . وانخفضت الإنتاجية فى محصول واحد فقط فى سوريا وتونس . ومع هذا ، تباينت وتنوعت التغييرات فى إنتاجية المحاصيل إلى حد كبير من بلد إلى آخر . فقد تمكنت دول الإمارات العربية المتحدة من زيادة إنتاجية الطماطم . وشهد العراق انخفاضاً فى إنتاجية بذور القطن ولكنه زاد من إنتاجية الطماطم . وجاءت أكبر مكاسب لتركيا من إنتاج المحاصيل الصناعية وليس المحاصيل الغذائية . وبوجه عام ، كانت التغييرات فى الإنتاجيات الزراعية متواضعة، وبشكل أكثر تحديداً ، يمكن القول بأنها كانت دون التقديرات المتوقعة وأقل من الإمكانات التى كانت توحى بها أوجه التقدم الأخرى فى المنطقة (توما ، الفصل السادس ، ١٩٨٧) .

وربما كانت عملية التغيير والتنمية تنطوى عل أهمية كبيرة شأنها شأن الآثار الفعلية الناجمة عنها . وكانت هناك محاولات لإدخال سياسات رئيسية فى قطاع الزراعة لتشجيع وتعزيز التنمية والنمو ، والمساواة ، والحرية ، وبقاء النظام ، والاستقرار السياسى . وكان يتعين على صانعى السياسة فى بعض الأحيان مقايضة الكفاءة الاقتصادية واستبدالها بأهداف سياسية اجتماعية .

وأُدخل الإصلاح الزراعى فى جميع دول المنطقة تقريبًا ولكنه كان أكثر انتشاراً فى مصر ، وسوريا ، وإيران ، والعراق ، والجزائر ، وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . ففى هذه الدول ، كان الإصلاح الزراعى يشمل تأجير الأرض واستئجارها وأنماط الإنتاج ، وتنظيم المزارع . وتم تحديد أسقف لملكية الأرض ، حيث كانت تصادر الأراضى الزائدة عن هذه الأسقف ويعاد توزيعها على المستأجرين السابقين ممن لم يكن لديهم أراضٍ وكذلك الأفراد الذين كانت لديهم أراضٍ أقل من الحد الأدنى . وفى العادة ، كان يتم دفع تعويضات عن عمليات مصادرة الأراضى ، وعادة ما كان الملاك الجدد للأراضى يدفعون ثمنها على أقساط طويلة الأجل .

وعلى النقيض من ذلك ، كان الإصطلاح الزراعى فى تونس ، والمغرب ، وليبيا ، يتضمن أساسًا الاستيلاء على الأراضى المملوكة للأجانب وتوزيعها على المزارعين المحليين . وحاولت تونس زراعة هذه الأراضى جماعيًا ولكنها لم تنجح فى ذلك . وركزت السودان والأردن جهودهما على تنفيذ مشروعات محددة مثل إدارة الجزيرة فى السودان وتطوير تمور الشرق فى الأردن . وفى السودان تولت الحكومة إدارة شبكة الرى الخاصة ومشروعات الجرارات الزراعية للتأكد من أن الخدمات تصل إلى المزارعين الذين يحتاجونها . وتركز الإصلاح الزراعى فى تركيا على توزيع الأراضى الحكومية . وعلى التوسع فى نظام الرى ، واستخدام الأسمدة والمخصبات ، وحيازة الجرارات . وفى لبنان ، والسعودية ، والجمهورية اليمنية ، ركزت هذه السياسة على الأراضى واستصلاح أراضٍ جديدة .

وقد صاحب برنامج الإصلاح الزراعى القائم على توزيع الأراضى ، وفى معظم الأحوال ، إنشاء تعاونيات زراعية تنوعت مهامها ووظائفها لتتراوح من توفير القروض وخدمات التسويق إلى الإشراف على الإنتاج والإدارة . وفى معظم الدول التى نفذت الإصلاح الزراعى ، كانت الحكومة تحرص على إقامة مزارع نموذجية حكومية، ووحدات إنتاج على نطاق واسع على النمط الاشتراكى ، أو شركات زراعية ومشروعات زراعية مشتركة ، وكما هو الحال فى إيران والسعودية . ولم تنفذ إسرائيل برنامج الإصلاح الزراعى نظراً لأن الزراعة اليهودية فيها كان يتم التخطيط لها منذ البداية وفقًا للأهداف القومية الصهيونية . وإلى جانب القطاع الزراعى اليهودى الخاص، أسست إسرائيل ما يعرف فى العبرية باسم «الموشاف» ووفقاً لهذا النظام كان المزارعون يقومون بزراعة مزارعهم كل على حده ولكنهم كانوا يتعاونون فى

العمليات الزراعية مثل الزراعة أو التسويق . وكان هناك شكل آخر من أشكال الزراعة هو «الكيبوتس» والذى كان يتم العمل فيه بصورة جماعية باعتباره مزرعة كبيرة ، على أن توزع مكافآت الإنتاج الزراعى وفقاً لاحتياجات الأعضاء . وعلى العكس من ذلك ، كانت الزراعة العربية فى إسرائيل شبيهة بالزراعة فى البلدان المجاورة ولكن بدون إصلاح أو تخطيط . ومع هذا ، وعلى نحو تدريجى ، بدأ المزارعون العرب فى إسرائيل يتبنون طرقًا أكثر تطوراً فى الزراعة ، بيد أن نظام ملكية الأرض أو استئجارها ظل كما هو دون تغيير .

وكانت هناك محاولات ترمى إلى ميكنة أنشطة زراعية معينة ، وزيادة الرى ، زيادة الاستهلاك من المخصبات . وازداد استخدام الجرار الزراعى بدرجة كبيرة فى الكويت ، والجمهورية العربية اليمينية ، وليبيا ، وسلطنة عمان ، وسوريا ، وإيران . وكان لدى تركيا فرصة كبيرة لاستعمال الجرارات كجزء من خطة مارشال ، وذلك على الرغم من افتقارها إلى قطع الغيار والمرافق اللازمة للصيانة . ومع هذا ، فإن توزيع الجرارات بالنسبة إلى كل وحدة من الأرض المزروعة اختلف إلى حد كبير من دولة إلى أخرى . إذ كان لدى إسرائيل جرار زراعى واحد لكل ١٢ هكتاراً من الأرض فى عام ١٩٨٠ ، بينما كان لدى السودان جرار واحد لكل ١,١٢٤ هكتاراً من الأرض (توما ١١٥ : ١٩٨٧) .

وهنالك سمة مهمة كانت تتميز بها الزراعة فى منطقة الشرق الأوسط فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وهى تنفيذ مشروعات للرى وتوليد الطاقة الكهربائية . وكان لهذه المشروعات أهداف متعددة أهمها زيادة الموارد ، وزيادة الإنتاج ، وإظهار نتائج ملموسة للسياسة الحكومية . ومن الأمثلة القليلة لهذه المشروعات السد العالى فى مدينة أسوان فى مصر ، وسد الفرات فى سوريا ، ومشروع النقب فى إسرائيل . وهذه المشروعات وغيرها من المشروعات المماثلة الأخرى ساعدت فى زيادة مساحة الأرض الصالحة للزراعة فى معظم الدول . ففى العراق ، على سبيل المثال ، زادت المساحة المزروعة بمقدار ١٣٠ ألف هكتاراً خلال الفترة بين ١٩٦١ و ١٩٧٧ ؛ وتمكنت إيران من زيادة الأراضى المزروعة بما يربو على المليون هكتاراً ؛ وأضافت المغرب أكثر من ٢٨٠ ألف هكتاراً إلى مساحتها المزروعة فى الفترة نفسها . وحتى برغم ذلك كله ، وباستثناء مصر حيث اعتمدت الزراعة بنسبة ١٠٠ ٪ على الرى،

ظلت الزراعة التى تغذيها وترويها مياه الأمطار أمراً شائعًا فى دول المنطقة (توما ١١٦ : ١٩٨٧) .

وفى كل بقعة فى الشرق الأوسط فيما عدا القطاع اليهودى فى إسرائيل ، ظلت الزراعة تعانى من الازدواجية ، مع وجود شركة كبيرة تظهر قدراً كبيراً من التخلف ، والإنتاجية المتدنية ، والأساليب الزراعية التى تتسم بالفوضى ومحدودية استخدامها ، وكانت هناك شركة أصغر بكثير تتمتع بتكنولوجيا متقدمة مع وجود عمليات واسعة النطاق نسبيًا وإدارة جيدة . وكانت معدلات النمو فى القطاع الزراعى بوجه عام متواضعة كما كانت السياسات الزراعية ناجحة جزئياً .

ورغم أن الاهتمام بالزراعة كان قوياً ، إلا أن التصنيع كان له سحره الخاص . وكانت العقود الثلاثة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية لافتة للنظر ومهمة فى تاريخ التصنيع فى الشرق الأوسط . إذ ارتفعت معدلات الصناعة والتصنيع ، وزادت مساهمة الصناعة فى إجمالى الناتج المحلى ، وأصبحت نسبة مئوية أعلى من القوة العاملة تشارك الآن فى القطاع الصناعى . وبحلول عام ١٩٨٠ ، حقق نصف دول المنطقة نسبًا مئوية أكبر فى إجمالى الناتج المحلى والتى جاء معظمها من الصناعة والتصنيع .

صورة (٤ : ٧) الرى بالتقطير يجعل الزراعة ممكنة حتى فى صحراء سيناء بمصر

وعلى الرغم من زيادة نصيب الصناعة والتصنيع من إجمالى الناتج المحلى خلال الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٨١ ، تنوعت نسب النمو السنوية إلى حد كبير . ففى الجزائر، انخفضت نسبة النمو الصناعى سنوياً من ١١,٦ ٪ فى الستينيات إلى ٧,٦٪ فى السبعينيات . وفى تركيا ، بلغت نسبة النمو السنوى فى الصناعة والتصنيع ٩,٦ ٪ خلال الفترة بين ١٩٧٠ و ١٩٨٠ (توما الفصل السابع ١٩٨٧) . وكما يشير الجدول رقم (٣ : ٧) ، أصبحت الصناعة فى أواخر الثمانينيات عاملاً مهمًا فى الثروة القومية فى عدة بلدان بالشرق الأوسط .

وبات التقدم فى الصناعة واضحًا أيضًا من خلال الزيادات فى استهلاك الطاقة الصناعية ومعدلات التوظيف فى قطاعى الصناعة والتصنيع . وزاد استهلاك الطاقة فى كافة الدول ، وبصورة مفاجئة فى بعضها ، ولاسيما فى الدول الغنية بالنفط . ومع هذا ، كان استهلاك الطاقة قليلاً جداً فى دول أخرى مثل السودان ، والجمهورية العربية اليمنية ، بسبب مستويات التصنيع المنخفضة جداً فيها .

جدول رقم (٣ : ٧) نصيب الزراعة والصناعة من إجمالى الناتج المحلى (بالنسبة المئوية)

الدولة	١٩٥٨		١٩٦٨		١٩٧٨		١٩٨٨	
	الزراعة	الصناعة	الزراعة	الصناعة	الزراعة	الصناعة	الزراعة	الصناعة
الجزائر	٢٥	٢٠	غير متاح	غير متاح	٧	٤٩	٧	٥٢
مصر	٣٣	٢٤	٢٥	٢٤	٢٤	٢٧	١٦	٣١
إيران	٣٢	٣٠	٢٢	٣٤	٩	٤٦	٢١	٢٠
العراق	٢٠	٥٠	١٥	٤٣	٧	٦٧	١٥	٣٩
إسرائيل	١٢	٣٢	٨	٣٤	٤	٢٣	٣	٢٠
الأردن	١٨	١٤	١٥	٢١	٦	٢١	٦	٢٢
لبنان	غير متاح	غير متاح	١١	٢١	٩	٢١	٩	٢١
ليبيا	غير متاح	غير متاح	٤	٦٥	٢	٦٨	٥	٤٩
موريتانيا	غير متاح	غير متاح	غير متاح	غير متاح	٢٥	٢٤	٢١	٢٦
المغرب	٣٥	٢٦	٣٢	٢٩	١٨	٣٣	١٧	٣٣
السعودية	غير متاح	غير متاح	٦	٦٢	١	٧٩	٢	٧٣
الصومال	غير متاح	غير متاح	غير متاح	غير متاح	٥٥	١٠	٦٣	٩
السودان	٥٩	١٢	٣٩	١٥	٣٦	١٤	٢٩	١٥
تونس	غير متاح	غير متاح	١٨	٢١	١٦	٢٧	١٣	٢٨
تركيا	٣٠	٢٨	٢٥	٢٧	١٧	٣٧	٤١	١٤

المصدر : الإحصائيات التاريخية الدولية ، ١٩٩٨.
ملحوظة : N . A المعلومات غير المتاحة .

ويمكن أيضاً استكشاف نمط ومستوى التصنيع بالسؤال عن أى من الدول أنتجت ماذا وما كمية أو حجم ما أنتجته . وقد أظهر مسح أجرى على اثنتى عشر دوله عربية (شافى ١٩٧٨) فى أواخر الستينيات أن الصناعات الرئيسية بها كانت تتمثل فى صناعة المواد الغذائية ، والمنسوجات ، والصناعات الخفيفة مثل أشغال الخشب ، والطباعة ، كما كان يتم إنتاج الآلات والمعادن الأساسية بأعداد كبيرة . أظهر المسح أيضاً وجود أنواع من التخصص والتركيز فى مجالات الإنتاج . وعلى سبيل المثال ، أنتجت مصر ٢٣,٢ ٪ من كافة الآلات المصنعة فى الدول الاثنتى عشرة ؛ كما أنتجت ٧٦,٨ ٪ من جميع المعادن الأساسية ؛ و٣٩,٥ ٪ من جميع المنسوجات ، و٤٣ ٪ من جميع المنتجات الورقية والطباعية . وأنتجت الجزائر ٢٧,٥ ٪ من مجموع الآلات ، و٢٣,٨ ٪ من مجموع المنتجات الخشبية، و١٦,٩ ٪ من الصناعات غير المعدنية . وأنتجت لبنان ٣٤,١ ٪ من جميع الصناعات الخشبية . وأنتجت المغرب ١٦,٣ ٪ من صناعة الآلات ؛ و٢٨ ٪ من صناعات الأغذية ، و٢٤,٣ ٪ من الصناعات الورقية والطباعية ، ومواد النشر . وتخصصت تونس فى المعادن الأساسية ، حيث أنتجت ١٨,٢ ٪ من الإنتاج الإجمالى فى الدول الاثنتى عشرة .

ولم يتغير نمط التخصص داخل كل دولة إلى حد كبير خلال الفترة ما بين الستينيات وأوائل الثمانينيات ، مع بعض الاستثناءات . إذ حدثت تطورات رئيسية بعد عام ١٩٧٥ فى الصناعات النفطية والبتروكيماوية فى الدول المنتجة للبترول ؛ وفى مجال تجميع السيارات فى إيران ومصر ، وتجميع المركبات وتصنيع مكوناتها فى تونس ، وتجميع الشاحنات فى تركيا ، وتجميع الجرارات فى سوريا ، وفى صناعات الأسلحة والمعادن فى إسرائيل . وعلاوة على ذلك واصلت الصناعات الغذائية نموها فى العديد من دول المنطقة . وحازت الصناعة البتروكيماوية على أهمية كافية إلى حد أنها وصفت بأنها المفتاح للتنمية العربية . وفى مصر ، جاء الجهد الرئيسى فى مضمار التصنيع من جانب الجيش ، الذى أثبت كفاءة عالية سواء بالنسبة إلى المنتجات المدنية أو العسكرية ، (ديفر ، ١٩٩٦) .

وقد تركز توزيع المشروعات الصناعية داخل الدول فى مناطق محددة ، سواء بسبب القرب من الموارد الخام مثل مخزونات التربة أو بسبب تطور البنية التحتية فى وحول المدن الكبرى وبالقرب من الساحل . والاستثناءات القليلة من ذلك كانت تتمثل

فى إيران ، والتى كان لديها أكثر الصناعات تنوعاً بين الدول الكبيرة ، وتتبعها مصر والمغرب ، وإسرائيل التى لديها أكثر الصناعات تنوعًا أيضًا على مستوى المنطقة برمتها . وبشكل عام ، فإن نمط التصنيع داخل الدول ، كل على حده ، عكس وعزز الهياكل الاقتصادية الثنائية التى كانت سائدة فى بداية هذه الفترة .

وشجع على تطور الصناعة والتصنيع مجموعة من الأنشطة المرتبطة بالتخطيط والرقابة على الأسواق . وكان معظم دول المنطقة على وعى ودراية بتخلفها النسبى وكانت تتوق إلى التطور بمعدلات سريعة نسبيًا ، وهو الأمر الذى جعل التدخل الحكومى لا غنى عنه . وحددت كافة الحكومات أولويات قصوى للإنتاج الصناعى ، بل وكانت تشارك بشكل مباشر فى النشاط الاقتصادى . وفى معظم بلدان الشرق الأوسط ، وحتى وقت قريب كانت الدولة تمتلك أو تسيطر على معظم الموارد الطبيعية وتحملت المسئولية عن القطاعات الكبيرة فى المنظومة الاقتصادية ، سواء أكانت الدولة تعتبر نفسها اشتراكية أم رأسمالية . وهكذا ، كانت الحكومة والقوى العاملة فى كلتا المجموعتين من دول المنطقة مسئولة نوعاً ما عن سياسة التصنيع .

وهنالك مجموعة ثالثة من الدول التى حرصت على أن تتفادى ، وإلى حد كبير، المشاركة الحكومية فى الاقتصاد وتابعت مسيرة التصنيع من خلال تطبيق سياسات أكثر توجهًا نحو السوق ، مثل البحرين ، وإيران قبل ثورة عام ١٩٧٩ ، والأردن ، ولبنان ، والمغرب ، وتونس ، والجمهورية العربية اليمنية . وتدخلت الحكومة بشكل غير مباشر من خلال فرض الضرائب ، وتقديم الدعم ، وتوفير الحماية . ومن الملاحظ أن المغرب ولبنان حققتا درجة معقولة من التقدم فى مجال الصناعة الخفيفة. وكانت السياسة الحكومية فى هذه الدول تستهدف تسهيل التصنيع عبر تحسين البنية التحتية وزيادة الحوافز من خلال رفع الأجور ، وتوفير المنافع التقليدية ، والاستجابة للشعور القومى . وفى أواخر السبعينيات ، نجد أن بعض الدول الاشتراكية قد تحولت باتجاه اقتصاد السوق . إذ أدخلت مصر سياسة الانفتاح الاقتصادى . بينما شرعت الجزائر فى الانفتاح على القطاع الخاص لمحاربة التخلف الاقتصادى .

وعلى الرغم من الاختلافات القائمة فيما بينها ، إلا أنه كان لدى هذه المجموعات الثلاث من الدول سياسات واجراءات معينة مشتركة . ومثال على ذلك أن كل هذه الدول كانت لديها خطط اقتصادية لها دلالتها ، بدلاً من أن يكون لديها خطط رئيسية

تعكف الحكومة على تنفيذها . وقد حددت تلك الخطط المستويات المتوقعة للإنفاق فى قطاعات رئيسية فى الاقتصاد ، ولكن لم يكن لدى الحكومة أية وسيلة لفرض أو تطبيق هذه الخطط ، كما لم يكن هناك أشخاص لديهم الرغبة فى تبنيها .

وهناك سمة مشتركة أخرى وهى التأكيد بشكل خاص على الصناعات الرئيسية على نطاق واسع . وفى مثل هذه الحالات ، كان يتم توقيع العقود لتأسيس صناعات من جانب مقاولين أجانب تحملوا المسئولية عن كافة أنشطة البناء ، تاركين للقوة العاملة المحلية فرصة محدودة للتعلم واكتساب الخبرة ، وثمة خاصية أخرى أيضاً كانت تتمثل فى تركيز الإنتاج الصناعى والتصنيع فى سلعة خاصة بالاستهلاك فى السوق المحلية ، وبذلك تم تجاهل المعايير والمقاييس الدولية بشأن الجودة والكفاءة . وأخيراً يبدو واضحاً أنه عندما لم تتدخل الحكومة بصورة مباشرة ظلت الصناعة صغيرة ، وفى أغلب الأحوال ، أكثر تقليدية من أى وقت سابق. وختاماً ، أحرزت الصناعة والتصنيع بعض التقدم خلال العقود الثلاثة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، إلا أنهما لم يحققا القدرة على المنافسة فى السوق العالمية . كما أنها ، وباستثناء إسرائيل ، لم يصبحا من القطاعات الرئيسية فى الاقتصادات المتنوعة بالنسبة إلى الإسهام فى إجمالى الناتج المحلى ، وعملية التوظيف الإنتاجى للقوة العاملة ، أو التغييرات فى الأنماط التجارية وكما سنتناول ذلك فى السطور التالية .

ولابد من الإشارة هنا إلى أنه خلال الفترة من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٧٥ ، شهدت منطقة الشرق الأوسط توسعاً سريعاً فى التجارة الدولية . وتنوع اتجاه وحجم هذه التجارة وفقاً لعدة عوامل مثل المنح والهبات ، والتحالفات ، والأيديولوجيات الاقتصادية والسياسية ، والأهداف . وكان لدى الدول المصدرة للنفط بالفعل قوة شرائية ضخمة نسبياً تمكنها من الإنفاق على التجارة ، بينما كان يتعين على دول أخرى الاعتماد على المعونات الاقتصادية ، والقروض ، والتحالفات العسكرية لتمويل العجز التجارى . واستخدمت الحكومات الاشتراكية قدراً ما من التخطيط الذى مكنها من تنظيم كل من حجم وتركيب تجارتها وتفادى العجز أكثر من الحكومات الأخرى . ومع ذلك ، وفى كل الأحوال ، تم التوسع فى التجارة أو تقليصها إلى حد كبير تبعاً للتحالفات العسكرية (أو شبه التحالفات) ، بدلاً من الاعتماد على الظروف الاقتصادية وأحوال السوق .

وعمدت جميع دول الشرق الأوسط إلى زيادة صادراتها خلال الفترة الأخيرة من الستينيات ، وذلك على الرغم من التنوع والتباين فى هذه الزيادات . إذ زادت صادرات السودان بنسبة طفيفة فقط ، بينما زادت ليبيا من صادراتها بنسبة هائلة بسبب الزيادة فى إنتاج النفط وارتفاع أسعار البترول . وسجلت عدة دول أخرى مثل إسرائيل ، والأردن، وتركيا ، ولبنان ، زيادات سنوية فى صادراتها بلغت أكثر من ١٠ ٪ بدون الاستفادة من صادرات النفط ومع هذا لم تتمكن معظم الدول من المحافظة على مراكزها التصديرية خلال السبعينيات ، عندما عانى العديد من هذه الدول من الانخفاض فى صادراته . وشهدت الفترة ذاتها انخفاضات حادة للصادرات فى سبع دول ، والتى كان من بينها خمس من الدول المنتجة والمصدرة للنفط . إذ بدا واضحاً أن الجزائر ، وإيران ، والعراق ، والكويت ، وليبيا قلصت صادراتها عن عمد فى إطار رد الفعل على الحرب الإسرائيلية - العربية فى عام ١٩٧٣ وثورة أسعار النفط . وكانت مصر والسودان بحاجة إلى العملات الأجنبية بيد أنهما لم تتمكنا من الإبقاء على مستوى صادراتهما بسبب التحول إلى الإنتاج لتلبية متطلبات واحتياجات السوق المحلية والهبوط فى الإنتاجية .

ولم تشهد منطقة الشرق الأوسط زيادة إقليمية موحدة فى النمو الاقتصادى يمكن مقارنتها بتلك التى حدثت فى مناطق شرق آسيا ، وجنوب شرق آسيا ، أو أمريكا اللاتينية . وربما كان جزءاً من هذه المشكلة يكمن فى غياب «اقتصاد الصدارة» ، الذى يقود النمو الإقليمى ، وكما فعلت اليابان فى آسيا :

«من المرجح أن تضطلع إسرائيل بهذا الدور ، ولكن على الرغم من أنها أكثر الدول تقدماً داخل المنطقة ، إلا أن اقتصادها صغير . وطاقتها فى مجال الإمداد تعتبر محدودة جداً بالمقارنة مع بلد مثل اليابان ، كما أنها تفتقر إلى القوة الشرائية اللازمة لتحويل ونقل الآثار الهائلة لاقتصادها إلى دول الشرق الأوسط الأخرى» . (ويلسون ١٦ - ١٧ ، ١٩٩٥) .

وعلى الرغم من انخفاض الصادرات فى السبعينيات فى معظم الدول ، واصلت الواردات الزيادة بوجه عام . وخلال السبعينيات ، واجهت إسرائيل ولبنان فقط انخفاضاً فى وارداتهما . ومرة أخرى كانت الحرب عاملاً رئيسياً فى كلتا الدولتين . وأدت الزيادات فى الواردات من جانب الدول غير المصدرة للنفط إلى حدوث عجز

كبير فى الميزان التجارى والذى كان يتعين تحويله من خلال المعونات الأجنبية، والقروض، والاستثمارات الأجنبية . وهيمنت السلع الأساسية ، والوقود بكل أنواعه ، والمعادن ، على الصادرات خلال الفترة بين ١٩٦٠ و ١٩٨٠ . وجاءت بعض الصادرات المصنعة من الأردن فى حين جاءت المنتجات الصناعية من سوريا ، وتونس ، بيد أن كافة الدول الأخرى ، ماعدا إسرائيل ، واصلت تصدير السلع نفسها التى قد اعتادت على تصديرها فى الماضى . وكانت بعض الصادرات الصناعية والتصنيعية فى الغالب منتجات وسلع يعاد تصديرها عبر اقتصادات الترانزيت مثل دولة الإمارات والأردن .

وخلال هذه الفترة ، زادت واردات الآلات نوعًا ما وتناقصت واردات السلع الصناعية . الأخرى فى الجزائر ، ومصر ، وإيران ، والعراق ، والمغرب ، والسودان، وسوريا ، وتونس . ولعبت سياسات الواردات البديلة دوراً رئيسيًا فى هذا الإطار . وعلى النقيض من ذلك ، قللت إسرائيل واردات الآلات ومعدات النقل وزادت من واردات السلع الصناعية الأخرى . كما زادت من استيراد واستهلاك الوقود ، على غرار الدول الصناعية . ومع ذلك ، زادت تركيا من إنتاجها وتجميع الآلات والسلع المصنعة الأخرى وقللت من الواردات من هذه المنتجات خلال الفترة بين عام ١٩٦٢ وعام ١٩٧٨ .

فى الوقت نفسه ، لم يكن تدفق التجارة داخل المنطقة موحداً أو متجانساً . وكان من المألوف رؤية التجارة الإقليمية البينية وقد تركزت داخل المناطق الفرعية : دول الخليج ، دول شمال أفريقيا ، ودول غربى آسيا ، وهكذا . ومع هذا كانت التجارة الإقليمية البينية صغيرة نسبيًا بالمقارنة مع التجارة الإقليمية مع المناطق والدول الأخرى. والأسباب وراء ذلك واضحة ، إذ إن دول الشرق الأوسط عمدت إلى تقليد منتجات كل منها الأخرى وجعلها متطابقة وتنافست على أسواق وسلع صناعية من خارج المنطقة ، وسعت إلى أن تصدر إلى تلك المناطق المواد الخام والمنتجات الرئيسية التى لم يكن عليها الطلب داخل المنطقة . وكانت سمات وخصائص التخلف واضحة فى أسلوب ونمط التجارة فى أوائل الثمانينيات كما كان الحال فى بداية تلك الفترة . وشهدت فترة الازدهار التجارى زيادة فى الاستهلاك ، والتوسع فى البنية التحتية ، وارتفاع قيمة الديون . كما شجعت على التحديث ولكن مع قدر قليل من نقل

التكنولوجيا ، والتوسع فى التجارة ومع الاعتماد على رأس المال الأجنبى ، والتكنولوجيا، والأسواق (روبرتس وفاولر ١٩٩٥) . ولهذا عندما عانت الدول المتقدمة من الركود فى أوساط الثمانينيات ، وعندما هبطت أسعار البترول فى التسعينيات ، بدأت دول الشرق الأوسط تعانى أيضاً . وفى دراسة مكثفة لآثار النفط على اقتصادات دول مجلس التعاون الخليجى يطرح كل من حسين العسكرى ، ووحيد نوشروانى ، ومحمد جابر هذا السؤال :

هل كان النفط نعمة أم نقمة ؟ إذا كانت نسبة نمو القطاع الخاص هى أساس الإجابة ، فإنه يبدو عندئذ أن النفط قد كان نقمة أكثر منه نعمة ، وعلى الأخص بالنسبة إلى الأجيال المستقبلية من المواطنين . ومع هذا ، يمكن اعتبار النفط نعمة لأنه يلبى الموارد المالية اللازمة لدعم التغييرات الجذرية فى السياسة . (العسكرى نوشروانى وجابر ٩٦ : ١٩٩٧).

وأدى الميل إلى تغيير السياسة ومحاولة دمج الاقتصادات القومية فى الاقتصاد العالمى الجديد أدى إلى خلق أعباء جديدة والتى لم تكن هذه الاقتصادات معدة لها إعداداً كافيًا. وكانت آلية مثل هذا الاندماج ، وتحت ضغوط من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى ووزارة الخزانة الأمريكية ، تستهدف إدخال إصلاح هيكلى وخصخصة ، وأصبحت التجارة الأكثر تحرراً ، والأقل حماية ، والتى لا تخضع لعمليات التأميم ، أصبحت شعاراً فى نهاية تلك الفترة ، وذلك على الرغم من أن تلك الدول تمكنت بالكاد من خوض حلبة المنافسة فى السوق العالمية . ولهذا ، تبين أن الامتثال مسألة صعبة ومقلقة ولكنه ما زال يخضع للتجربة والمحاولة (باركلى ١٩٩٢، نيبلوك وميرفى ١٩٩٣ ، الغنيمى ١٩٩٨) .

اقتصادات الشرق الأوسط المعاصرة من ١٩٨٢ حتى الوقت الحاضر :

مع الأخذ فى الاعتبار الأنماط المتنوعة لتطورها التاريخى ، فإنه ليس من قبيل الدهشة أن تتباين وتتنوع الاقتصادات المعاصرة فى منطقة الشرق الأوسط فى إطار توقعاتها وفلسفتها المستقبلية . ورغم أن معظم دول المنطقة تخضع لضغوط قوية من أجل إصلاح هياكلها الاقتصادية ، وخصخصته شركاتها العامة ، وتحرير تجارتها ، إلا أنها مازالت تحتفظ بقدر ما من الاقتصاد المختلط . والشكل السائد أو الغالب من نظام

الاقتصاد المختلط هو ذلك الذى يتداخل ويتفاعل فيه القطاعان العام والخاص ، بيد أن القطاع العام لديه قوة أكثر من القطاع الخاص . ويوجد هذا النمط فى الجزائر ، وتونس، ومصر ، وسوريا ، والعراق ، وموريتانيا ، والصومال ، وجزر القمر ، واليمن ، وتركيا . ويشبه النمط الاقتصادى فى إسرائيل النمط السائد نفسه فى هذه الدول، باستثناء أن القطاع الخاص الإسرائيلى ، وعلى نحو متزايد ، لديه تأثير أقوى وأكبر من القطاع العام . وهناك سمة أو ميزة فريدة أخرى للاقتصاد الإسرائيلى وهى أن المؤسسات الاقتصادية متطورة جداً إلى الحد الذى يسمح لها بالإدارة الاقتصادية من خلال استخدام سياسات نقدية ومالية ، بدلاً من خضوعها للتدخل الحكومى المباشر .

وفيما بين دول الخليج المصدرة للنفط ، يأخذ الاقتصاد المختلط شكل رأسمالية الدولة . وهنا تستحوذ العائلات المالكة على السلطة والثروة النفطية وتقدم العديد من الفوائد والمنافع لرعاياها ، والذين يمارسون شكلاً ما من أشكال رأسمالية السوق . ومع ذلك تشهد تلك الدول بعضاً من مظاهر عملية صنع القرار من خلال المشاركة الشعبية فى السوق . وينطبق الشىء ذاته على ليبيا ، والتى لا توجد بها عائلة مالكة ؛ ومن ثم تذهب عائدات النفط مباشرة إلى خزائن الحكومة فى هذا البلد الذى يوجد به النظام «الاشتراكى العربى» الوحيد فى المنطقة .

ورغم أن الأنظمة الملكية التقليدية مثل الأردن والمغرب تميل نحو نظام سوق منافس ، إلا أن مؤسساتها الاقتصادية مازالت متخلفة إلى الحد الذى لا يسمح للسوق بتوجيه الاقتصاد . ومن ثم ، فإن التدخل الحكومى أو الإدارة من جانب الملك ، من الأمور السائدة والمألوفة . وربما كانت الدول الأقرب إلى استخدام أسلوب السوق الحرة هى لبنان والبحرين . ولقد كانت الفوضى العارمة تخيم على الاقتصاد اللبنانى منذ عام ١٩٧٥ بحيث كان من الصعوبة بمكان تحديد هويته بوضوح ، ولكن بدأت تظهر علامات الآن على أنه بصدد استعادة عافيته . وبالنسبة إلى البحرين ، فإنها تعتمد اعتماداً كبيراً على الأنشطة الاقتصادية من الخارج ، والتى لا تطبق عليها القوانين المحلية ، ولهذا فإنها تتمتع بممارسات السوق الحرة فى مجالسها (إدواردز ١٩٩٦) .

وأخيراً ، نجد ذلك النمط الاقتصادى الذى قد أطلق عليه النظام الاقتصادى الإسلامى ، وهو النظام السائد أساسًا فى إيران ، والسودان ، والسعودية أيضًا التى تدعى أن لديها نظام اقتصادى إسلامى . وتتمثل القواعد الرئيسية فى إطار هذا النظام

الاقتصادى فى أنه لا يجب الحصول على فوائد من القروض وأنه ينبغى أن تأتى جميع أموال الاستثمارات من المسهمين ، سواء بشكل مباشر أو من خلال المصارف . ومع ذلك فإنه مازال يتعين تقييم تأثير المؤسسات الاقتصادية الإسلامية على التنمية الاقتصادية والنمو . وحتى الآن ، فإن أكثر النماذج الاقتصادية فاعلية فى الشرق الأوسط كان نموذج الاقتصاد المختلط ، والذى تركز فيه ثقل التأثير فى القطاع العام (ويلسون ١٩٩٥) .

وفى مختلف أرجاء المنطقة ، هناك مشاركة منخفضة نسبيًا فى العمالة مدفوعة الأجر بوجه عام ومن جانب النساء على وجه خاص . ورغم أن بعض الدول ، ولاسيما دول الخليج مثل الكويت ، وقطر ، أو دولة الإمارات يمكن أن تتباهى بوجود معدلات مشاركة عالية نسبياً ، على الأقل بين العاملين الذكور ، إلا أن معظم الأيدى العاملة فى تلك الدول من الأجانب . والاستثناءات من المشاركة المتدنية للقوة العاملة تنطبق على جزر القمر ، وإسرائيل ، وتركيا ، وموريتانيا . أما المشاركة الفعالة للقوة العاملة النسائية فى الاقتصاد الرسمى داخل الأسر والمنازل ، ورغم أنه يفترض أن تكون مرتفعة ، إلا أنه لم يتم تسجيلها أو تحليلها بشكل كاف ، وهو ما لاحظه بشكل أكثر تفصيلاً فالنتين مقدم فى الفصل الثامن ، وليزا تراكى فى الفصل العاشر . وتعنى عملية ربط أو دمج مشاركة القوة العاملة المنخفضة نسبياً مع النمو السكانى المرتفع أن هذه الاقتصادات تواجه معدلات عالية بالنسبة إلى الاعتماد على العاملين الأجانب كما تعنى أن لديها قدرة منخفضة على توليد المدخرات للاستثمار .

وتعمل نسبة كبيرة من القوة العاملة فى الزراعة وذلك على الرغم من أنه فى العديد من الحالات ، فإن ما يربو على الخمسين فى المائة من القوة العاملة المحتملة فى مجال الخدمات ، أو لا يعملون ، أو لم يتم حصرهم . وقد تغير توزيع القوة العاملة على القطاعات المختلفة خلال الثمانينيات . وعملت نسبة أقل من الأيدى العاملة فى الزراعة بينما عملت نسبة أعلى فى الصناعة فى عام ١٩٩٠ ، وهى نسبة أعلى بالمقارنة مع عام ١٩٨٠ . وعلى النقيض من ذلك ، زاد إسهام الزراعة فى إجمالى الناتج المحلى فى حالات قليلة وانخفض الإسهام فى حالات أخرى . والشىء نفسه كان صحيحاً بالنسبة لإسهام الصناعة والتصنيع فى إجمالى الناتج المحلى ، وهو إسهام ظل منخفضاً نسبيًا ، على الأخص إذا استبعدنا منه إسهامات الصناعات

الاستخراجية مثل صناعة البوتاس ، والنفط ، وكسارات الصخور والمحاجر . ولم تكن الفترة الواقعة بين أوائل الثمانينيات وأواخر التسعينيات جيدة بالنسبة إلى أصحاب الدخول فى الشرق الأوسط .

وقد زاد متوسط دخل الفرد فى عام ١٩٩٤ ، عندما جرى تعديله على أساس القوة الشرائية ، فى ثلاث فقط من الدول التى سبقت الإشارة إليها ، وانخفض فى سبع دول، وظل كما هو فى دولة واحدة . ولا يجب أن يثير هذا دهشتنا ، على أى حال ، لاسيما مع الوضع فى الاعتبار آثار الحروب المختلفة ، والهبوط فى أسعار النفط ، والركود الاقتصادى العام الذى طرأ على مناطق مختلفة من العالم . إذ انخفض معدل النمو لإجمالى الناتج المحلى (GDP) خلال الفترة ما بين ١٩٨٥ و١٩٩٤ فى ثمانى دول ، وفى أربع دول أخرى وصل هذا المعدل إلى أقل من ٠,٥ فى المائة . وكانت مصر ، وإسرائيل ، والكويت ، والمغرب ، وتونس ، وتركيا فقط من الدول التى سجلت معدلات نمو بلغت أكثر من واحد فى المائة . وعلى العكس من ذلك ، تراوحت معدلات النمو السنوى فى الدول الصناعية من ٢ إلى ٤ ٪ ، بينما حققت الدول التى تنمو بسرعة معدلات تراوحت من ٥ إلى ١٠ ٪ . على أساس مستويات الدخل وتوزيعها (راجع كتاب الغنيمى ، ١٩٩٨ الفصلان ٤ و ١١) .

ورغم أن معظم دول الشرق الوسط لا تقدم أية معلومات عن أنواع وأساليب توزيع الدخل فيها ، إلا أن تلك الدول التى توفر مثل هذه المعلومات لا تظهر تبايناً أو تفاوتاً غير عادى بالمقارنة مع معظم الدول الأخرى فى العالم ، بما فيها الولايات المتحدة ، وكما يتم قياس هذه الدول على أساس الأدنى بنسبة ٢٠ ٪ من حيث مستوى الدخل والأعلى بنسبة ٢٠ ٪ أيضًا من حيث مستوى الدخل . وعلى الرغم من ذلك ، توجد اختلافات واضحة داخل المنطقة برمتها . فعلى سبيل المثال ، كان توزيع الدخل فى إسرائيل أكثر مساواة وإلى حد كبير من مثيله فى الأردن . وكانت مصر الأكثر مساواة وتعادلاً من حيث توزيع الدخل فى المنطقة ، وعلى أساس كل من حصص مجموعتى الدخل المشار إليهما أعلاه والفجوة الأصغر القائمة بينهما (إيغين ١٩٩٨) .

وربما يمكن فهم الملمح الاقتصادى للمنطقة بطريقة أكثر وضوحًا من خلال استكشاف التركيبة التجارية والاتجاه التجارى لدولها كل على حدة . وتظهر أحدث المعلومات المتاحة نمطًا تجارياً يعد مألوفًا وسائداً بين الدول المتخلفة . إذ إن معظم

الصادرات لدى هذه الدول صادرات استخراجية ، ومواد خام أو سلع زراعية . والواردات في معظمها سلع مصنعة ، ومواد كيماوية معالجة ، وأجهزة . وفي بعض الحالات ، تعتبر الواردات مواد خام للمعالجة .

ولإيضاح هذه النقطة ، يمكن لنا البحث في حقيقة أن البترول ، والغاز الطبيعي، والمنتجات البترولية تشكل الصادرات الرئيسية للجزائر ، والبحرين ، ومصر ، وإيران، والعراق ، والكويت ، وليبيا ، وعمان ، وقطر ، والسعودية ، وسوريا ، والإمارات . وهنالك مخصص آخر قليل واضح في هذه الدول . فمصر تبيع القطن ، والمنسوجات، وبعض المنتجات الهندسية والمعدنية ، بيد أن هذه كلها لا تمثل سوى نسبة مئوية صغيرة من إجمالي الصادرات . وإيران تصدر السجاد والكافيار . وتصدر سوريا الفواكه ، والخضروات الطازجة ، والمشروبات بالإضافة إلى المنتجات البترولية . ومعظم الدول الأخرى مثل الإمارات تعيد تصدير المنتجات البترولية ، والتي تظهر كصادرات في سجلات التصدير (إدواردز ٦٠٠ : ١٩٩٦ ، ديوان ، يانج ووانج ٥٣ – ٥٦ : ١٩٩٨) .

وتشمل الصادرات الرئيسية الأخرى في المنطقة الفانيلا و Ylang - Ylang من جزر القمر ، والحيوانات الحية من جيبوتي (بما في ذلك الجمال) ، والآلات ، والماس المشغول ، والكيماويات من إسرائيل ، والفوسفات ، والبوتاس ومنتجاتها المشتركة (المخصبات ، من الأردن ، ويبيع لبنان المواد الغذائية ، والمشروبات ، والآلات والأجهزة ، والمنسوجات والمنتجات المعدنية . وتأتي الأسماك والحديد الخام من موريتانيا ، بينما تأتي المواد الغذائية والسلع الاستهلاكية الأخرى من المغرب ، وتأتي المنتجات الزراعية والحيوانات الحية من الصومال ، والقطن ، والصمغ العربي ، وبذور السمسم ، والماشية والخراف من السودان . وتأتي الأقمشة والإكسسوارات من تونس ، وتصدر تركيا المنسوجات ومنتجات الحديد والصلب . وتصدر اليمن الأغذية ، والحيوانات الحية ، والمواد الخام . وتقوم مصر وتركيا بتجميع السيارات ، والشاحنات، والمنتجات الصناعية الأخرى ، بيد أن معظم هذه المنتجات للاستخدام المحلي . ورغم أن تصدير هذه المنتجات الزراعية والمواد الخام قد يكون له الآثار نفسها على عملية التنمية شأن الصادرات الأخرى ، إلا أن قيمة الصادرات تعتبر صغيرة نسبياً لدى مقارنتها باحتياجات البلاد لتمويل الواردات للاستهلاك واستثمار رأس المال .

ويمكن أن تعكس جملة المنتجات التى تستوردها دول المنطقة الصورة الحقيقية وكما أوضحتها الصادرات بكافة أنواعها . إذ تستورد جميع دول المنطقة الآلات ، ومعدات النقل وقطع الغيار ، والأجهزة ، والسلع المصنعة الأخرى . بل إن إسرائيل ، وهى دولة صناعية ، تستورد السلع الرأسمالية ، وعلى الأخص الآلات . وتستورد معظم الدول أيضًا الأغذية الأساسية والسلع الاستهلاكية وكذلك المنتجات الصناعية المصنعة .

وينعكس التخلف في المنطقة أيضاً على الاتجاه الذى تسلكه التجارة . فهناك نسبة كبيرة من التعاملات والتبادلات التجارية تتم مع الدول الصناعية والمتقدمة نظراً لأن ما من دولة من دول المنطقة لديها القدرة الكمية أو النوعية على تلبية الطلب الإقليمى على المنتجات المصنعة . وعلاوة على هذا ، تعتبر التجارة الإقليمية البينية صغيرة بالمقارنة مع التجارة الإجمالية ، وذلك لأن جميع دول المنطقة تنتج سلعاً متشابهة كما أنها تشترك كلها في وجود مستوى منخفض من التصنيع . وحقيقة أن الواردات تتضمن رءوس أموال صناعية واستثمارية قد تكون مضللة أيضًا لأن نسبة كبيرة من هذه الواردات تتكون من الأسلحة والمعدات العسكرية التى لا تسهم سوى بقدر ضئيل فى تعزيز التنمية وزيادة النمو (إدواردز ١٩٩٦) .

خاتمة :

خلال العقود الأربعة الماضية ، كانت الجهود قد بذلت لتطوير اقتصادات الشرق الأوسط والوصول بها إلى مستوى الاقتصادات المتقدمة . ومع ذلك ، كانت عملية التنمية تسير فى طريق غير واضح فى معظم دول المنطقة باستثناء إسرائيل . إذ انعكس التخلف الدائم فى المستويات المنخفضة نسبيًا للتكنولوجيا ، وإنتاجية القوة العاملة، والاعتماد على القروض والمعونات الاقتصادية من الخارج ، وعلى تركيبة تجارية تتسم بالتخلف والاعتماد على الغير.

ولقد استفادت دول المنطقة بدرجات متنوعة من الوكالات الدولية ، مثل الأمم المتحدة ، ومنظمة الأغذية والزراعة والبنك الدولى ، ووكالات دولية أخرى ، والتى كانت مستعدة لتقديم المساعدة عند الحاجة ، وبموجب شروط معينة . وكانت الاتفاقيات الثنائية مع الدول المتقدمة آلية أخرى كانت تؤدى فى الغالب إلى الحصول على قروض ميسرة ، ومنح ، وصفقات تجارية ونقل التكنولوجيا إلى الدول المتخلفة ، وعلى الأخص أثناء الحرب الباردة . وأدت ثورة أسعار النفط فى عام ١٩٧٣ - ١٩٧٤ وعام ١٩٧٩ إلى توليد تدفقات كبيرة من رءوس الأموال إلى داخل المنطقة ، ولاسيما إلى الدول المصدرة للنفط ، بيد أن دولاً أخرى استفادت أيضًا . وأخيرًا ، كانت تكنولوجيات جديدة متاحة عند الطلب وفى معظم الحالات ، وعلى الأقل لأغراض التنمية الاقتصادية .

واستفادت دول الشرق الأوسط من هذه الفرصة . إذ شرعت معظم الدول فى تطبيق شكل ما من أشكال التخطيط الاقتصادى ، وتشجيع الصناعة الخاصة المدعومة من الدولة ، وأقامت شركات عامة ، ونظمت أسواقها ، أو قامت بتحريرها فى بعض الأحيان . كما حاول صانعو السياسة تشجيع نقل التكنولوجيا من خلال الدعم ، والتعليم، والاستثمار الأجنبى ، وسياسات إحلال واستبدال الواردات . وعلاوة على هذا، استطلعت الدول العربية إمكانية إقامة سوق عربية مشتركة . ورغم ذلك استمر التخلف الاقتصادى .

وواجهت جهود التنمية العديد من العقبات ، سواء فى الداخل أم فى الخارج . ومن بين العقبات الخارجية ، التراث الاستعمارى ، والذى أدى إلى ازدواجية اقتصادية

وإلى تخلف معظم اقتصادات دول المنطقة إلى الحد الذى جعل من المستحيل بالنسبة لها أن تلحق بركب الاقتصادات المتقدمة . وكانت حروب الاستقلال ، والحروب الأهلية ، والحروب الإقليمية الداخلية ، عقبة أخرى أعاقت بالفعل جميع الاقتصادات عن استغلال مواردها وضعف الاهتمام بالتنمية الاقتصادية . ورغم أن الحرب الباردة كانت عاملاً مساعداً فى بعض الحالات ، إلا أنها قد أعاقت التنمية نظراً لأن بعض السياسات التى كانت تطبق غالبًا إنما كانت تفرضها قوة أو أكثر من القوى الاستعمارية. وأخيراً، فإن من جانب الوكالات الدولية والضغط بهدف تغيير السياسة ، وإصلاح الهيكل الاقتصادى ، وتحرير الشركات العامة ، وتحرير التجارة ، والسماح للسوق بتوجيه حركة الاقتصاد ، لم تكن كل هذه الضغوط مساعدة كما أنها لم تأت فى الوقت المناسب. وعلى العكس من ذلك ، كانت تؤدى هذه الضغوط غالبًا إلى توقف عملية التنمية وإلى التوجيه الخاطئ للطاقات والموارد بعيداً عن عملية التنمية (شوسودوفسكى ١٩٩٧) .

وعلى أى حال ، كانت العقبات الرئيسية داخلية . ففى المقام الأول ، كانت معظم دول المنطقة فقيرة فى الموارد ، سواء المواد أو الثروة البشرية . وفى المقام الثانى ، بدأت كل دول المنطقة بالفعل مستوى منخفض نسبياً من التنمية ؛ وهكذا كانت تفتقر تماماً إلى الشروط المسبقة لعملية التنمية . بيد أن أكثر العقبات الداخلية خطورة تمثلت فى الأنظمة والهياكل السلوكية والسياقات والأطر التنموية غير الملائمة التى لم تشجع التنمية والتغيير (راجع الشكل رقم ١ : ٧ ، وراجع أيضاً توما الفصل التاسع ١٩٨٧ ، وتوما ١٩٨٨) . وفى جميع الدول ، ما عدا إسرائيل ، لم تكن هذه الهياكل ملائمة لعملية التنمية . وكانت الفلسفة التى سادت فى هذه الدول تفضل تحقيق الأهداف السياسية ، والدينية ، والثقافية وبقاء النظام الحاكم على الأهداف الأخرى المتعلقة بالتنمية الاقتصادية والتصنيع . وكان الإطار المؤسسى متخلفًا وكذلك الآلية الإدارية التى توجه التنمية . وقد تفاقمت هذه العقبات من جراء الظروف التنموية السيئة التى أمكن أن تولد بالكاد قدراً كافياً من التفاؤل أو الآمال العظيمة لاجتذاب الاستثمار ونقل التكنولوجيا . وعلى سبيل المثال ، ساءت الأوضاع والظروف الديموجرافية نظراً لأن النمو الكافى المتزايد كان يتطلب تقسيم الموارد بين المزيد من المواطنين . وظل

استقرار الحكومات والمشاركة الشعبية فى عملية صنع القرار دون الحد الأدنى الضرورى لنجاح التنمية الاقتصادية وخلق النمو الاقتصادى .

كما ظلت البنية التحتية متخلفة . ووفرت وسائل النقل ، الاتصالات ، والمرافق والمنشآت المالية والتسويقية خدمات محدودة تتلائم واحتياجات الاقتصادات النامية . وتسبب هذا غالبًا في تجزئة وتفتيت السوق ، وأدى إلى زيادة تكاليف الإنتاج ، والحد من القوة التنافسية لهذه الاقتصادات فى السوق العالمية . وأخيراً ، أخفقت معظم الدول فى خلق قوة عاملة متعلمة ، ومدربة تدريبًا عاليًا ، ومحترفة والتى يمكن أن تلبى متطلبات التنمية بدون الاعتماد على الخبرات والتكنولوجيات الأجنبية . وهكذا ، كانت عمليات نزيف العقول وتدفقات رءوس الأموال شائعة حينما توفرت الفرص فى أماكن أخرى ، وحينما كان نقل التكنولوجيا فى أدنى مستوياته . وواجهت جهود التنمية عقبات جمة ، وظل التخلف هو القاعدة.

وكان الاستثناء الوحيد من هذا النمط إسرائيل . وأدى الالتزام الإسرائيلى بالتنمية إلى إقامة مؤسسات وإدارات عكست فلسفة التنمية وخصصت الموارد اللازمة لتشجيعها. وبينما ازداد عدد السكان ، وعلى الأخص من جراء الهجرات المستمرة ، أكد الإسرائيليون أيضًا على استمرار تدفق الموارد . وأقاموا نظامًا ديمقراطيًا ، على الأقل للشعب اليهودى ، والذى شجع على المشاركة وضمان الاستقرار السياسى . وشيدوا البنية التحتية بسرعة وإلى الحد الذى يكفى لتسهيل عملية التنمية واندماج الاقتصاد الإسرائيلى فى الاقتصاد العالمى . والأهم من ذلك أن إسرائيل استغلت الثروة البشرية عالية الجودة التى جاءت إليها فى صورة مهاجرين وأكدت أيضًا على خلق ثروة بشرية عالية الجودة فى المؤسسات التعليمية المحلية . وهذه الظروف ، إضافة إلى الهيكل السلوكى الملائم والسياق التنموى المشجع أدت إلى إحراز تقدم فى مضمار التنمية .

وهكذا استطاعت إسرائيل أن تتطور اقتصادياً على الرغم من أنها كانت فى حالة حرب خلال معظم الفترة التى أعقبت تأسيس الدولة . وكان لدى إسرائيل ميزتين فريدتين : إمكانية الوصول إلى رءوس الأموال الضخمة والقوة العاملة ذات التدريب العالى والتى يمكنها الاستفادة من الأساليب العلمية والتكنولوجية لتحقيق التنمية . ومع

هذا ، فإنه كان لدى دول أخرى فى المنطقة ، ومن بينها على سبيل المثال ، العراق ، وإيران ، والدول الأخرى المصدرة للنفط ، رءوس أموال ضخمة تمكنها من تطوير اقتصاداتها . وقد تبنت هذه الدول الأسس التقليدية والنهج التوفيقى كمبادئ تسترشد بها. ولم يكن لدى اقتصاداتها الفرصة لكى تتطور وتصل إلى المستويات التى كانت تنشدها لأنها لم تكن مستعدة لاتخاذ الخطوات الضرورية فى هذا الصدد .

صورة (٥ : ٧) تأثير الشركات متعددة الجنسيات الأمريكية تغلغل فى أنحاء الشرق الأوسط . وهنا أحد مطاعم ماكدونالد الشهيرة فى وسط تل أبيب

ملاحظات :

كتب هذا الفصل بمساعدة من تانيا واتشيك والتى أعرب لها عن الشكر والامتنان لهذه المساعدة .

١- رغم أن إيران وتركيا لم تخضعا لحكم دول أخرى ، إلا أن اقتصاديهما قد تأثرا من خلال الامتيازات التى حصلت عليها تلك القوى ، ومن خلال سلسلة من المعاهدات التى كانت تقضى بمنح حق الإقامة وحقوق اقتصادية للأوروبيين (توما ١٩٨٩) .

٢- الهكتار الواحد يساوى ٢,٤٧ فدان ، والميل المربع يعادل ٢٥٩ هكتاراً .

٣- بقية هذا القسم تستند إلى سلسلة تقارير الإدارة البريطانية للتجارة الخارجية وإلى سلسلة تقارير وزارة التجارة الأمريكية .

٤- تعتمد المعلومات الواردة فى هذا القسم أيضاً على الإحصائيات التاريخية الدولية ١٩٩٨ .

المصادر :

١- روبرت أ . أندرسون ، وألبرت مارتينيز : «دعم تنمية القطاع الخاص فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا» . ص ١٧٨ - ١٩٣ فى كتاب نعمة شفيق «الإمكانات المستقبلية لاقتصاديات دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا» نيويورك - مطبعة سان مارتن - ١٩٩٨ .

٢- حسين العسكرى ، وفاخر نوشروان ، ومحمد جابر : «التنمية الاقتصادية فى دول مجلس التعاون الخليجى : نعمة ونقمة النفط» جرينويتش كونيكتيكت - مطبعة JAI - ١٩٩٧.

٣- هنرى باركى : «سياسة الإصلاح الاقتصادى فى الشرق الأوسط» نيويورك - مطبعة سان مارتن - ١٩٩٢ .

٤- ج . باهرير : «تكوين رأس المال فى إيران : ١٩٦٥ - ١٩٠٠» رسالة دكتوراة - جامعة لندن - ١٩٦٩ .

٥- ديفيد كالهون : «الكتاب السنوى البريطانى : أحداث عام ١٩٩٦» - شيكاغو - الموسوعة البريطانية - ١٩٩٧ .

٦- كيرين عزيز شودورى : «ثمن الثروة» «الاقتصادات والمؤسسات فى الشرق الأوسط» - إيثاكا ولندن مطبعة جامعة كورنيل - ١٩٩٧ .

٧- ميشيل شوسودوفسكى : «عولمةالفقر آثار إصلاحات صندوق النقد والبنك الدوليين» - أتلانتيك هايلاندس ينوجيرسى ولندن - مطبعة زد - ١٩٩٧ .

٨- مايكل . ف . ديفيز : التصنيع العسكرى فى مصر : التنمية ، الدين ، الاعتماد على الغير ص ١٢٧ - ١٤٨ فى كتاب كارين فايفر «بحوث فى اقتصادات الشرق الأوسط» - جرينويتش كونيكتيكت ولندن - مطبعة JAI .

٩- إسحاق ديوان ، شانج بو يانج ، تشى وانج : «الاقتصادات العربية ، جولة مفاوضات أوروجواى والاتحاد الأوروبى ص ٤٧ - ٩٥ فى كتاب نعمة شفيق : «الإمكانات المستقبلية لاقتصادات الشرق الأوسط وشمال أفريقيا : من الازدهار

الاقتصادى إلى الإخفاق والعودة إلى الازدهار، نيويورك – مطبعة سان مارتن – ١٩٩٨ .

١٠–جلسين م . إدوارد : «الكتاب السنوى البريطانى : أحداث عام ١٩٩٥، شيكاغو – الموسوعة البريطانية – ١٩٩٦ .

١١–ويلين فان إيغين : «الفقر فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ص ٢٢٦ – ٢٦١ فى كتاب نعمة شفيق : «الإمكانات المستقبلية لاقتصادات الشرق الأوسط وشمال أفريقيا : من الازدهار الاقتصادى إلى الإخفاق والعودة إلى الازدهار، نيويورك – مطبعة سان مارتن – ١٩٩٨ .

١٢–الفاو «منظمة الأغذية والزراعة» – إحصائيات المحاصيل والماشية فى العالم فى الفترة من ١٩٤٨ إلى ١٩٨٥ – روما – الفاو – ١٩٨٧ .

١٣–رياض الغنيمى : «الغنى والفقر فى الشرق الأوسط» لندن ونيويورك – روتليدج – ١٩٩٨ .

١٤– ويليام هيل : «التنمية السياسية والاقتصادية فى تركيا الحديثة» لندن كروم هيلم – ١٩٨١ .

١٥– البنك الدولى لإعادة الإعمار والتنمية IBRD : «المؤشرات الاجتماعية للتنمية» – واشنطن دى سى – IBRD ١٩٨٨ .

* «مؤشرات التنمية فى العالم» – واشنطن دى سى - IBRD ١٩٩٧.

١٦– الإحصائيات التاريخية الدولية : أفريقيا – آسيا – والأوقيانوس ، ١٧٥٠ إلى ١٩٩٣ – الطبعة الثالثة – لندن مطبعة ماكميلان – ١٩٩٨ .

١٧–شارل عيساوى : «اقتصاد الشرق الأوسط : الركود والانتعاش» برينستون – نيوجيرسى – ماركوس فينز للطباعة والنشر – ١٩٩٥ .

١٨–فيكتور لافى و إليعازر شيرير : «المعونات الأجنبية والتنمية الاقتصادية فى الشرق الأوسط : مصر ، وسوريا ، والأردن» – نيويورك – برايجر – ١٩٩١ .

١٩–ستيفين هيمسلر لونجريج : «العراق من خلال الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٠ : التاريخ السياسى ، والاجتماعى والاقتصادى» – أوكسفورد – مطبعة جامعة أوكسفورد – ١٩٦٨ .

٢٠–ريم نيبلوك وإيما ميرفى : «التحرر السياسى والاقتصادى فى الشرق الأوسط»
لندن ونيويورك – المطبعة الأكاديمية البريطانية – ١٩٩٣ .

٢١–كارين فايفر : «بحوث فى اقتصاد الشرق الأوسط» جرينويتش – كونيكتيكت
ولندن – مطبعة JAI ١٩٩٦ .

* «بحوث فى اقتصاد الشرق الأوسط» – جرينويتش – كونيكتيكت ولندن –
مطبعة JAI ١٩٩٧ .

٢٢– سمير رضوان ، تكوين رأس المال فى الصناعة المصرية والزراعة ١٨٨٢ –
١٩٦٧ – لندن – مطبعة إيثاكا – ١٩٧٤ .

٢٣–ف جيفرس رامساى : «دراسات عالمية : أفريقيا» الطبعة السابعة : جيلفورد –
كونيكتيكت – داشكين ماكجرو هيل – ١٩٩٧ .

٢٤–جو يليم روبرتس ، وديفيد فاولر : «دول قامت على النفط» ريدينج – إنجلترا –
مطبعة جارنيت – ١٩٩٥ .

٢٥–عرفان شافعى : «الصناعة التحويلية فى العالم العربى : الحوافز والأهداف» مجلة
العلوم الاجتماعية (الطبعة العربية) العدد ٦ – ١٩٩٥ .

٢٦–نعمة شفيق : «الإمكانات المستقبلية لاقتصادات الشرق الأوسط وشمال أفريقيا :
من الازدهار الاقتصادى إلى الإخفاق والعودة إلى الازدهار» نيويورك – مطبعة
سان مارتن – ١٩٩٨ .

٢٧–ويليام سبنسر : «دراسات عالمية : الشرق الأوسط» الطبعة السابعة : جيلفورد –
كونيكتيكت – داشكين ماكجرو هيل – ١٩٩٨ .

٢٨–ثورنبرج ، ماكس ويستون ، جراهام سبراى ، وجورج سول : «تركيا : تقسيم
اقتصادى» نيويورك – مطبعة جرينوود ١٩٦٨ .

٢٩–إلياس توما : «التغير السياسى والاقتصادى فى الشرق الأوسط» باولو التو –
كاليفورنيا – مطبعة باسيفيك – ١٩٨٧ .

* «المعوقات المؤسسية فى طريق التنمية : حالة مصر» – مجلة التنمية العالمية – العدد ١٦ – ١١٩٨ – ١١٨٥ – ١٩٨٨ .

* التأثير الاقتصادى للامتيازات الأجنبية : الشرق الأوسط وأوروبا . إعادة تفسير – مجلة التاريخ الاقتصادى الأوروبى – العدد ١٨ – ٦٨٢ – ١٩٨٩ .

٣٠- برنامج الأمم المتحدة الإنمائى (UNDP) : «تقرير التنمية البشرية» نيويورك – مطبعة جامعة أوكسفورد – ١٩٩٧ .

٣١-مارتن ويلمنجتون : «مركز الشرق الأوسط للإمداد» – طبعة لورانس إيفانس – البانى : مطبعة جامعة نيويورك ، ولندن : مطبعة جامعة لندن – ١٩٧١ .

٣٢-رودنى ويلسون : «التنمية الاقتصادية فى الشرق الأوسط» لندن ونيويورك – روتليدج – ١٩٩٥ .

-٨-

النمو السكاني، التحضر، وتحديات البطالة

فالنتاين . م . مقدم

لقد شهدت منطقة الشرق الأوسط معدلات سريعة فى مجال التحضر والنمو السكانى فى غضون عدة عقود ماضية ، ورغم أن هناك تفاوتاً فى مستويات التحضر بين بلدان الشرق الأوسط ، إلا أنه من المتوقع أن يعيش حوالى ٦٠٪ من سكان المنطقة كلها فى مناطق حضرية بحلول نهاية عام ٢٠٠٠ ، أى بزيادة ٢٠٪ عن عام ١٩٦٠ ، وفى الوقت نفسه تعتبر معدلات النمو السكانى فى منطقة الشرق الأوسط ـ شمال أفريقيا (MENA) من بين أعلى معدلات النمو السكانى فى العالم ، وهى تأتى فى الترتيب الثانى فقط بعد معدلات النمو فى منطقة شبه الصحراء الأفريقية ، وذلك على الرغم من أن معدلات الخصوبة كانت تنخفض ، ولا سيما بين الفتيات المتعلمات فى المناطق الحضرية ، ومن المتوقع أن يصل إجمالى عدد السكان فى المنطقة إلى ٥٧٦ مليون نسمة فى عام ٢٠٢٥ ، وهو أكثر من ضعف الحجم الحالى للسكان ، وإذا أخذنا فى الاعتبار وجود مساحات كبيرة من الأراضى القاحلة فى هذه المنطقة ، فإن هذه الأعداد المتزايدة من السكان ستؤدى بدورها الى زيادة الطلب على الماء والأرض الزراعية ، كما أن الخدمات الحضرية ، والتى تعتبر محدودة فى الوقت الحاضر ، ستحتاج الى المزيد من التوسع والتحسن .

والحقيقة أن التحضر السريع والنمو السكانى السريع قد أديا إلى تحول فى تركيبة القوة العاملة . ففى العديد من دول المنطقة ، تحول السكان من سكان تنخرط الأغلبية العظمى منهم فى أنشطة للإنتاج الحضرى والزراعة إلى سكان يشاركون فى أنماط متنوعة من الأنشطة الاقتصادية الصناعية الحضرية وتلك الموجهة إلى الخدمات،

وعلاوة على ذلك ، وبسبب معدلات الخصوبة المرتفعة من قبل ، أصبحت التركيبة العمرية للقوة العاملة موجهة نحو المجموعة التى تقل أعمارها عن ٢٥ عامًا ، وفى الوقت ذاته ، ونظراً لوجود كل من العاملين الاقتصادى والديموجرافى ، فإن أسواق العمل الحضرية لم تستطع استيعاب القوة العاملة المتزايدة . وقد أدى هذا إلى التوسع فى القطاع غير الرسمى الحضرى ، وعدم المساواة فى الدخل ، والفقر فى المناطق الحضرية ، وارتفاع معدلات البطالة التى تعتبر من بين أعلى معدلات البطالة فى العالم ، وبشكل خاص تعتبر معدلات البطالة بين النساء مرتفعة إلى حد كبير .

(صورة (١ : ٨) رام الله فى شمال القدس بالضفة الغربية تعتبر واحدة من أسرع المدن نمواً فى الشرق الأوسط .

ويبحث هذا الفصل فى العمليات المتداخلة للتحضر ، والنمو السكانى وتحديات البطالة والفقر فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، ولتسهيل استعراضنا لكل هذه الموضوعات ، رأينا أن نبحث كل موضوع على حدة حتى على الرغم من الترابط بين تلك الموضوعات ، وعلاوة على ذلك ، وحتى يمكن أن نعكس الاختلافات القائمة فى حجم السكان والقوة العاملة وكذلك فى مستويات الدخل ، فإننا غالباً ما نشير إلى المنطقة على أساس تصنيفها إلى مجموعتين من الدول : الدول الصغيرة الغنية بالنفط والتى تنتمى إلى مجلس التعاون الخليجى (GCC) ، والذى يضم البحرين والكويت وسلطنة عمان وقطر والسعودية ودولة الإمارات والمجموعة الأكبر والأكثر تنوعًا من الدول وهى (الجزائر ومصر وإيران والعراق وإسرائيل والأردن ولبنان وليبيا والمغرب وسوريا وتونس وتركيا واليمن) وإلى الحد الممكن ، فسوف ندرج أيضاً فى هذا التحليل الضفة الغربية وقطاع غزة .

*** التحضر**

شهد سكان المناطق الحضرية فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا نمواً سريعاً منذ عام ١٩٥٠ إذ إن نصيب سكان الحضر من إجمالى السكان قد زاد من ٢٤ ٪ فى ١٩٥٠ إلى ٥٧ ٪ فى ١٩٩٠ (عمران ورودى ٢١ : ١٩٩٣) وحدث أسرع معدلات النمو فى المناطق الحضرية فى الدول المصدرة للبترول حيث تضاعف عدد السكان خلال الفترة بين ١٩٦٠ و١٩٨٠ فى كل من السعودية وعمان وليبيا ودولة الإمارات ، وخلال الفترة من ١٩٥٠ الى ١٩٨٥ فى إيران والعراق (أسعد ٢١ : ١٩٩٥) . ومن بين الدول التى لا توجد بها بالفعل مناطق حضرية كثيرة ، نجد أن أبطأ معدلات للتحضر والتمدن كان فى مصر ، والتى زاد نصيبها فى المناطق الحضرية من ٣٢ ٪ فى ١٩٥٠ الى ٤٤ ٪ فى ١٩٩٠ . وبالنسبة الى إيران وتركيا ومصر والتى لديها أعداد كبيرة من السكان ومساحات هائلة من الأراضى فإن نصيبها من المناطق الريفية مازال يتراوح بين ٤٠ الى ٥٥ ٪ وتشكل الأعداد الهائلة من السكان فى هذه الدول الثلاث نقطة تجمع لمهاجرين من الريف إلى الحضر فى المستقبل . (عمران ورودى ٢٠ : ١٩٩٣) ولدى عمان واليمن (وعلى الأخص اليمن الشمالى) أقل مستويات من المناطق الحضرية فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، بينما نجد أن الكويت وقطر والبحرين تعتبر فى الحقيقة من مجتمعات الدولة المدنية .

ويوضح الجدول رقم (١ : ٨) المستويات المتنوعة والمختلفة للتحضر فى أنحاء المنطقة . ولابد من الإشارة هنا إلى أنه بعد أمريكا اللاتينية والتى تعتبر متمدنة بنسبة ٧١٪ ، فإن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لديها أعلى مستوى من المناطق الحضرية فى العالم النامى كله .

وتعتبر عملية التحضر أو التمدن جانب أساسى فى إطار التغيير الاجتماعى والتنمية الاقتصادية . وهى تتضمن تنفيذ سياسات تؤدى إلى نمو المدن وزيادة الهجرة من الريف الى الحضر . وهذه الزيادة فى الهجرة من الريف إلى الحضر يشجع عليها ويعززها عاملا الدفع والسحب : دفع الضغط السكانى على الموارد الطبيعية والافتقار إلى الفرص الاقتصادية ونمط حياة أفضل فى المدن الكبيرة (عمران ورودى ٢١ : ١٩٩٣) . وفى أغلب الأحوال يتفاقم نمو المدن المستمر وتزداد الهجرة من الريف إلى الحضر من جراء التحيز الحضرى لسياسات الحكومة واستراتيجياتها التنموية ، والتى تؤدى إلى تخلّف المناطق الريفية ، وزيادة الاستثمار فى البنية التحتية الحضرية، وإلى حدوث فجوات فى الدخل بين العاملين فى الريف والحضر

ويمكن أن تلعب الهجرة الدولية دوراً أيضًا فى عملية التحضر أو التمدن ، وعلى سبيل المثال ، وفى حالة إسرائيل ، أسهمت هجرة اليهود من دول أخرى فى نمو تل أبيب والقدس الغربية ، وفى حالة الدول الصغيرة الغنية بالنفط ، أسهمت هجرة الأيدى العاملة من الدول العربية الأخرى فى تسريع معدلات النمو الحضرى ، وعلى الأخص خلال فترة السبعينيات .

جدول رقم (١ : ٨) السكان والمناطق الحضرية فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا

الدولة	السكان بالملايين (١٩٩٦)	نسبة المناطق الحضرية (١٩٩٦)	نسبة المناطق الحضرية (١٩٩٠)	نسبة المناطق الحضرية (١٩٥٠)
الجزائر	٢٩	٥٦	٥١,٧	٢٢
البحرين أ		غير متاحة	٨٣,٠٠	٦٤
جزر القمر أ		غير متاحة	٢٧,٨	٣
جيبوتي		غير متاحة	٨٠,٧	٤١
مصر	٩	٤٥	٤٦,٧	٣٢
قطاع غزة أ		غير متاحة	٩٤,٠	٥٠
إيران	٦٣	٦٠	٥٦,٧	٢٧
العراق	٢١	٧٥	٧١,٣	٣٤
إسرائيل	٦	٩١	٩٢,٠	٦٥
الأردن	٤	٧٢	٦٨,٨	٣٥
الكويت	٢	٩٧	٩٥,٦	٥٩
لبنان	٤	٨٨	٨٣,٧	٢٣
ليبيا	٥	٨٦	٧٠,٢	١٩
موريتانيا	٢	غير متاحة	٤٦,٨	٢
المغرب	٧٢	٥٣	٤٨,٠	٢٦
عمان	٢	٧٧	١١,٠	٢
قطر أ		غير متاحة	٨٩,٥	٦٣
السعودية	١٩	٨٣	٧٧,٣	١٦
سوريا	٥	٥٣	٥٠,٥	٣١
تونس	٩	٦٣	٥٤,٣	٣١
تركيا	٧٣	٧٠	٦١,٤	٢١
الإمارات	٣	٨٤	٧٧,٨	٢٥
جمهورية اليمن	١٦	٦٤	٢٨,٩	٦

المصادر : الأمم المتحدة (١٩٩٣) البنك الدولى (١٩٩٨)

ملاحظات : البحرين ، جيبوتى ، قطر يقل عدد السكان فى هذه الدول عن ٦٠٠ ألف نسمة ، ويبلغ عدد السكان فى جزر القمر ٨٢٠ ألف نسمة ، وفى قطاع غزة ٧٦٤ ألف نسمة

n . a المعلومات غير متاحة

وخلال الفترة ما بين ١٩٥٠ و ١٩٨٠ ، حدث نمو هائل للمدن الكبيرة فى المنطقة، بما فى ذلك طهران ، والقاهرة ، وإسطنبول ، وبغداد ، كنتيجة لكل من معدلات الخصوبة العالية والهجرة من الريف إلى الحضر ، وفى عام ١٩٥٠ ، كان هناك أربع مدن فقط يتجاوز عدد السكان فى كل منها المليون نسمة ، وفى عام ١٩٧٠ ارتفع هذا العدد إلى تسع مدن . (أسعد ٢٢ : ١٩٩٥) ، وبحلول عام ١٩٩٠ ، تجاوز عدد هذه المدن العشرين . وقد شهدت المدن الكبرى مثل طهران ، والقاهرة ، وإسطنبول زيادة فى أعداد السكان خلال الثمانينيات ، بيد أن مدناً أخرى تأتى فى المرتبة الثانية قد شهدت أيضاً نمواً فى السكان مثل الإسكندرية وأصفهان ومشهد أنقرة وأضنة (انظر الجدول رقم ٢ : ٨) ولدى بعض المدن الكبرى ، وعلى الأخص مدينة القاهرة ، كثافات سكانية عالية ، ونقص حاد فى أعداد المساكن والخدمات وناهيك عن عدم وجود قوانين تنظم أعمال البناء والتنمية الحضرية ، والحقيقة أن اقتصادات المدن لا تستطيع استيعاب أعدادها الكبيرة من سكان الحضر ، الأمر الذى يؤدى إلى ظهور البطالة وقلة فرص العمل وزيادة الفقر بين السكان فى المناطق الحضرية . وظهرت مشكلات أخرى تمثلت فى نقص مياه الشرب النظيفة وزيادة الأحياء الفقيرة والمناطق العشوائية وتلوث الهواء وقلة شبكات الصرف الصحى (عمران ورودى ٣٠ : ١٩٩٣) .

● **النمو السكانى :**

وفقًا لنظريات التحولات الديموجرافية وتلك المتعلقة بالأمراض الوبائية ، سوف تنخفض معدلات الخصوبة والوفيات لدى السكان من المستويات العليا إلى المستويات الدنيا كنتيجة لمتغيرات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وعادة ما يسبق الانخفاض فى معدل الوفيات الهبوط فى معدل الخصوبة ، وقد حدث هذا التحول فى المدن الأوروبية خلال القرن التاسع عشر وفى العالم الثامن إبان القرن العشرين ، وفى الوقت الراهن تتباين وتتفاوت مواقع ومراكز بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا على امتداد السلسلة المتوالية للتحول ، ومن ثم تتسم هذه الدول بمستويات متنوعة من حيث معدلات الخصوبة والوفيات .

الجدول رقم (٢ : ٨) الشرق الأوسط وشمال أفريقيا :مدن يزيد عدد سكانها عن مليون نسمة (١٩٩٥)

الدولة	المدينة	عدد السكان (بالملايين)
الجزائر	الجزائر	٣,٧
مصر	القاهرة	٩,٦
	الإسكندرية	٣,٥
إيران	طهران	٧,٧
	أصفهان	١,٩
	شيراز	١,٠
	تبريز	١,٤
العراق	بغداد	٤,٤
إسرائيل	تل أبيب	٢,٢
الأردن	عمان	١,١
الكويت	مدينة الكويت	١,٠
لبنان	بيروت	١,٨
ليبيا	بنغازى	١,٠
	طرابلس	٣,٢
المغرب	الدار البيضاء	٣,٢
	الرباط	١,٥
السعودية	جدة	١,٤
	الرياض	٢,٥
سوريا	حلب	١,٨
	دمشق	٢,٠
تونس	تونس	٢,٠
تركيا	أضنة	١,٠
	أنقرة	٢,٨
	بورصة	١,٠
	إسطنبول	٧,٨
	أزمير	٢,٠

المصدر : الأمم المتحدة (١٩٩٥)

وفى الخمسينيات حدث انفجار سكانى فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، نتيجة للخصوبة العالية ومعدلات الهبوط فى الوفيات ، وذلك على الرغم من أن معدلات المواليد كانت لا تزال مرتفعة للغاية . وفى فترة الستينيات شهدت المنطقة أعلى معدل للخصوبة بين المناطق النامية ولكن منذ حوالى عام ١٩٧٠ ، أخذت معدلات الخصوبة فى الانخفاض بسرعة ولكن معدلات الخصوبة فى مناطق شبه الصحراء الأفريقية قد تجاوزت الآن مثيلاتها فى الشرق الأوسط ، وفى الوقت نفسه فإن معدل المواليد ، الذى ارتفع إلى حوالى مائتين لكل ألف من المواليد الأحياء ، بدأ فى الانخفاض بسرعة فى عام ١٩٦٠ . وبحلول عام ١٩٩٠ كان هذا المعدل قد وصل إلى حوالى سبعين لكل ألف من المواليد الأحياء ، وهو معدل أعلى من مثيله فى دول أمريكا اللاتينية وشرق آسيا (والتى شهد معدل المواليد فيها هبوطًا حاداً ومفاجئًا) وأعلى أيضًا من مثيله فى الدول المتقدمة وإن يكن أقل من معدل المواليد فى دول جنوب آسيا وشبه الصحراء الأفريقية، وهبط المعدل الإجمالى للخصوبة فى دول المنطقة من ٧ أطفال لكل امرأة فى الخمسينيات إلى ٤,٨ طفلاً فى عام ١٩٩٠ ، ومن المتوقع أن ينخفض أكثر ليصل الى ٣,٨ طفلاً فى نهاية عام ٢٠٠٠ . وكما أشار أحد المحللين «كان هذا الاتجاه مماثلاً للاتجاه الذى شهدته أمريكا اللاتينية ، وإن يكن بنسبة أعلى تمامًا» (أسعد ٥ : ١٩٩٥) ويعكس انخفاض معدلات الخصوبة بدورة معدلات الهبوط الحاد فى مصر وتونس وتركيا وهى دول تشترك معاً فى أنه توجد بها حملة فعالة لتنظيم الأسرة وزيادة فى معدلات تعليم وعمل المرأة .

(انظر الجدول رقم ٣ : ٨) .

وفى أعقاب تحليل أجراه عبد الرحمن عمران وفرزانى رودى (١٩٩٣) ولكن مع بعض التعديلات فإنه يمكننا تقسيم دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا إلى أربع مجموعات استناداً إلى الاتجاهات فى معدلات الوفيات والمواليد وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية ، وتتميز المجموعة الأولى بارتفاع وانخفاض الوفيات بين الدول ذات الدخل المتوسط والدول الفقيرة فى إطار وضع اجتماعى اقتصادى يتراوح ما بين المتوسط إلى المنخفض ، والذى يتضمن كلاً من الأردن والعراق وسوريا واليمن والضفة الغربية وقطاع غزة ، وتتميز المجموعة الثانية بانخفاض معدلات المواليد والوفيات بين الدول ذات الدخل المتوسط فى مستوى متوسط للتنمية الاجتماعية

الاقتصادية ، وهى تضم مصر ولبنان وتركيا وإيران والمغرب وتونس . أما المجموعة الثالثة من الدول والمؤلفة من دول مجلس التعاون الخليجى والغنية بالنفط ، فهى تتميز بارتفاع معدلات المواليد فى ظل انخفاض معدلات الوفيات بشكل سريع ، وأخيراً تعتبر إسرائيل الدولة الوحيدة فى المنطقة التى تتبع النهج الأوروبى بالنسبة لانخفاض المواليد والوفيات فى أوساط الطبقات الاجتماعية العليا وفوق المتوسطة .

وقد شهدت إيران وتركيا بعض التقلبات فى إطار عمليات التحول الديموجرافية. إذ بدأت تركيا عملية التحول في وقت مبكر إبان الخمسينيات حيث شهدت ارتفاعًا حاداً فى معدلات المواليد من الأطفال فى أوائل السبعينيات ولكنها ارتفعت خلال الثمانينيات فى أعقاب الثورة الإيرانية ، ويعزى الارتفاع المفاجئ فى معدلات النمو السكانى خلال الثمانينيات إلى السياسات المؤيدة لزيادة المواليد التى تبناها النظام الإسلامى الجديد ، والذى حظر استخدام وسائل منع الحمل وشجع الزواج وتكوين الأسرة (مقدم . الفصل السادس ١٩٩٣) ولكن هذا الارتفاع قد يكون أيضًا كنتيجة للأنماط السلوكية المرتبطة بالخصوبة والمواليد فى المناطق الريفية ، وهى أنماط تراوحت بين البطء والانخفاض خلال السبعينيات ، ومنذ إلغاء السياسة المؤيدة لزيادة المواليد فى أعقاب نتائج التعداد السكانى عام ١٩٨٦ وإدخال حملة موسعة لتنظيم الأسرة بعد ١٩٨٨ ، حدث تغيير ملحوظ من اتجاهات النمو السكانى وارتفاع المواليد والتى كانت سائدة خلال الثمانينيات، وفى أواسط التسعينيات انخفضت معدلات المواليد مرة أخرى .

الجدول رقم (٣ : ٨) الشرق الأوسط وشمال أفريقيا : مؤشرات ديموجرافية أساسية .

الدولة	المعدل السنوى للنمو السكانى % ١٩٨٠-١٩٩٦	١٩٩٦-٢٠١٠	المعدل الإجمالى للخصوبة % ١٩٨٠-١٩٩٦	متوسط الإنجاب للزواج الأول		استخدام وسائل منع الحمل ١٩٨٠-١٩٩٦
الجزائر	١,٣	١,٩	٦,٧	٤,٣	٢١,٠	٥١
البحرين	٤,٠	٤,٣	غير متاحة	٣,٠	٢٥,٥	٥٣
مصر	٢,٣	١,٦	٥,١	٣,٣	٢١,٩	٤٨
إيران	٢,٩	١,٩	٦,١	٣,٨	٢٢,٠	٥٢
العراق	٣,١	٢,٨	٦,٤	٥,٣	٢٢,٣	١٤
إسرائيل	٢,٤	١,٧	٣,٢	٢,٦	٢٤,٠	غير متاحة
الأردن	٤,٣	٢,٦	٦,٨	٤,٤	٢٢,٨	٣٥
الكويت	٣,٣	٢,١	٥,٣	٢,٩	٢٢,٤	٣٥
لبنان	١,٩	١,٤	٤,٠	٢,٧	غير متاحة	غير متاحة
موريتانيا	٦,٧	٣,٧	٦,٣	٥,١	٢٣,١	غير متاحة
المغرب	٢,١	١,٦	٥,٤	٣,٣	٢٢,٣	غير متاحة
عمان	٤,٢	٣,٨	٩,٩	٧,٠	١٩,٢	٩
السعودية	٤,٦	٣,٣	٧,٣	٦,٢	٢١,٧	غير متاحة
سوريا	٣,٢	٢,٣	٧,٤	٤,٠	٢١,٥	٤٠
تونس	٢,٢	١,٤	٥,٢	٢,٨	٢٤,٣	٦٠
تركيا	٢,١	١,٣	٤,٣	٢,٦	٢١,٥	٧٨
الإمارات	٥,٥	١,٩	٥,٤	٣,٥	٢٣,١	غير متاحة
الضفة الغربية وغزة	٤,٠	٣,٥	غير متاحة	غير متاحة	غير متاحة	غير متاحة
اليمن	٣,٨	٣,٣	٧,٩	٧,٢	١٩,١٥	غير متاحة

المصادر : البنك الدولى (١٩٩٨) الأمم المتحدة ١٩٩٥ UNDP(١٩٩٨)
ملاحظات : a المواليد لكل امرأة b سيدات c النسبة المئوية لأعمار المرأة ١٥ – ٤٩
d إشارة إلى الجمهورية العربية اليمنية السابقة (اليمن الشمالى)
n .a المعلومات غير متاحة

وفى بعض الدول تعتبر معدلات المواليد أعلى إلى حد كبير فى المناطق الريفية عنها فى المناطق الحضرية ، وهو ما أكدته نتائج الدراسات الصحية والديموجرافية الأخيرة . وعلى سبيل المثال ، لا تزال معدلات المواليد فى مصر مرتفعة جداً فى المناطق الريفية من مصر العليا (الوجه القبلى) حيث معدلات الوفيات تعتبر أيضاً مرتفعة . وكشفت نتائج دراسية صحية وديموجرافية أجريت عام ١٩٩٢ عن وجود ٢,٩ طفلاً لكل امرأة فى المناطق الحضرية فى مصر ، بالمقارنة مع ٤,٩ طفلاً فى المناطق الريفية ، وتبين من دراسة صحية وديموجرافية أجريت فى الأردن عام ١٩٩٠ أن النساء فى المدن الأكبر كان لديهن ٤,٨ طفلاً فى المتوسط ، وكان لدى النساء فى المناطق الحضرية والمدن الأصغر ٥,٦ طفلاً ، بينما كان لدى النساء فى المناطق الريفية ٦,٩ طفلاً ، وفى اليمن توصلت دراسة أخرى أُجريت فى ١٩٩١ - ٩٩٢ إلى وجود نسبة خصوبة إجمالية ٥,٦ ٪ بين النساء فى المدن ، وذلك مقابل ٨,١ ٪ بين النساء فى الريف (عمران وروودى ١٣ : ١٩٩٣) .

وكما هو الحال بالنسبة لدراسة معدلات المواليد فى العالم والتى أُجريت فى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات ، فقد أكد أحدث بحث من الأبحاث الصحية والديموجرافية أن ثمة علاقة أو ارتباط بين تعليم المرأة والمعدل الإجمالى للمواليد ، فكلما كان المستوى التعليمى أعلى كلما كان عدد الأطفال أصغر ، وفى الأردن مثلاً ، نجد أن المرأة التى لم تحصل على أى قسط من التعليم لديها ٦,٩ طفلاً ، فى حين أن عدد الأطفال لدى النساء الحاصلات على الثانوية العامة أو الشهادة الجامعية بلغ ٤,١ طفلاً لكل امرأة . ورغم ذلك لا تزال الأردن دولة فريدة من نوعها بالنسبة لارتفاع معدلات المواليد إلى حد ما بين النساء اللائى أنهين مرحلة التعليم العالى . وربما يرجع السبب فى هذا إلى المشاركة المنخفضة جداً للمرأة فى سوق العمل .

وفى المغرب وتونس وتركيا انخفضت معدلات المواليد أيضًا بشكل أسرع فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق الريفية ، وهو الأمر الذى يعكس تأثير التحضر وأبعاده وانعكاساته ، ولاسيما تعليم النساء ، وفرص العمل وتأخر سن الزواج ، وتوافر وسائل منع الحمل وحملات تنظيم الأسرة ، مما أثر على تلك الدول . بيد أنه فى تركيا وتونس ، وبدرجة أقل فى المغرب طرأت حالات انخفاض فى معدلات المواليد فى المناطق الريفية أيضًا ، وذلك يعزى جزئيًا إلى توافر وسائل منع الحمل وسهولة

الحصول عليها ، والأمر الذى يوحى بأن هذه الدول قد باتت تسير فى طريق التحول الديموجرافى .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن العقود الطويلة التى شهدت ارتفاعًا فى معدلات المواليد قد ساعدت فى الإبقاء على سكان بلدان الشرق الأوسط فى مرحلة الشباب . إذ إن أكثر من ٤٠ ٪ من سكان المنطقة دون الخامسة عشرة من أعمارهم ، فى حين أن ٤٠ ٪ فقط فوق سن الخامسة والستين . وهذه النسب المئوية تماثل النسب السائدة فى كافة الدول النامية ولكنها تختلف إلى حد كبير عن مثيلاتها فى البلدان الصناعية . وهنالك أيضاً متغيرات فى أنحاء المنطقة . فالنسب المئوية للسكان دون الخامسة عشر تتراوح من ٢٨ ٪ فى قطر إلى أكثر من ٥٠ ٪ فى الضفة الغربية وغزة . وتتراوح نسب السكان فوق سن الخامسة والستين أو أكثر من ٩ ٪ فى إسرائيل إلى ١ ٪ أو أقل فى دول الخليج (عمران وردى ١٥ : ١٩٩٣) وهذه الاختلافات فى هيكل الأعمار مرتبطة بمعدلات المواليد المختلفة فى أرجاء المنطقة .

وتظهر الدول ذات الشرائح السكانية صغيرة السن نسبة تبعية عالية وقاعدة ضريبية صغيرة ، وهو وضع يزيد من تفاقمه تدنى مشاركة النساء فى سوق العمل ، لاسيما فى الوظائف الحديثة والمهن غير الزراعية . وسوف نتناول موضوع مشاركة القوة العاملة فى القسم التالى .

* نمو القوة العاملة وتحديات التوظيف :

على الرغم من تزايد التحضر والتمدن فى الشرق الأوسط وشال أفريقيا ، إلا أن ما يقرب من ثلث إجمالى شعوب المنطقة مازال يعتمد على الزراعة فى المعيشة ، وتتراوح نسبة القوة العاملة فى الزراعة من حوالى ٥٠ ٪ فى تركيا واليمن وسوريا إلى أقل من ٥ ٪ فى إسرائيل وفى دول الخليج الصغيرة . ومع ذلك أدى التحديث الاقتصادى إلى حدوث تغيرات فى توزيع القوة العاملة على القطاعات المختلفة مع وجود نسبة متزايدة من العمال فى قطاع الخدمات أكثر وضوحاً فى الأردن ، حيث انخفض نصيب الزراعة فى عملية التوظيف الإجمالية من ٤٢ ٪ فى الستينيات إلى أقل من ٧ ٪ فى أوائل التسعينيات (شعبان ، أسعد ، والقدس ٧١ : ١٩٩٥) .

وعلى الرغم من أن قطاع الخدمات قد أخذ فى التوسع والازدهار فى شتى أرجاء المنطقة ، لم يحقق قطاع التصنيع أى تقدم ، وذلك بسبب اعتماده إلى حد ما على

صورة (٢ : ٨) أطفال في منطقة عشوائية في أحد أحياء القاهرة

الثروة التى تولدت من صادرات البترول . ومع هذا ، وفى عدد من الدول ، أدت استراتيجية التنمية الاقتصادية فى ذلك الوقت ، والتى تضمنت الحماية وتشجيع القطاع الصناعى ، إلى زيادات فى عمليات التوظيف ، ولاسيما بين الذكور ، فى الصناعة . وفى مختلف أنحاء المنطقة كان التحول الهيكلى للاقتصاد الإقليمى مصحوباً بظهور قوة عاملة من النساء ، ولكنها ظلت تشكل نسب مئوية صغيرة نسبياً من مجموع القوة العاملة فى المنطقة ، ليست دقيقة تماماً ، ورغم أنه كان هناك ميل للتقليل من شأن النشاط الاقتصادى للنساء خارج القطاع الرسمى والحديث ، إى أنه يبدو أن جزءاً كبيراً من النساء فى العديد من الدول مثل تركيا ، وسوريا لا يزال يعمل فى الزراعة .

ويبين الجدول رقم (٤ : ٨) بيانات عن التوزيع القطاعى للقوة العاملة فى دول المنطقة مقسماً ما بين اقتصادات دول الخليج الغنية ولكن الفقيرة فى القوة العاملة والاقتصادات الأخرى الأكثر تنوعاً ، وبالنسبة إلى الاختلافات القائمة بين هذه الدول نجد أنه فى دول خليجية على درجة عالية من التحضر مثل الكويت وقطر والإمارات

تعتبر القوة العاملة الزراعية صغيرة تماماً . إذ إن هناك مشاركة أكبر فى الزراعة فى عمان والسعودية ولكنها مشاركة من جانب الرجال وليس النساء ، وهو الأمر الذى يثير تساؤلات حول ما إذا كان يتم قياس النشاط الزراعى للنساء بطريقة صحيحة أم لا . وفى دول مجلس التعاون الخليجى ، فيما عدا عمان تشارك الأغلبية الهائلة من القوة العاملة النسائية (من المواطنين) فى أعمال مرتبطة بقطاع الخدمات . أما الأعمال الدنيا والأقل أهمية فتؤديها نساء يتم استدعائهن من الخارج . وباستثناء عمان ، تعتبر مشاركة النساء فى القطاع الصناعى أمراً مهملاً .

ومن بين الدول الأكبر غير الأعضاء فى مجلس التعاون الخليجى تشارك أغلبية النساء فى الزراعة فى كل من إيران وتركيا والعراق وسوريا واليمن . ولا تزال تركيا تمثل حالة شاذة من حيث إنها الدولة الأكثر تطوراً فى المنطقة ولكن من المرجح أنه يوجد بها نساء يعملن فى الزراعة . وفى الجزائر ومصر والأردن ولبنان تتركز الأغلبية من القوة العاملة النسائية فى قطاع الخدمات . وفى تونس والمغرب فقط توجد نسبة كبيرة من القوة العاملة النسائية تعمل فى القطاع الصناعى ، وفى جميع دول المنطقة تتوزع القوة العاملة من الرجال بشكل أكثر تعادلاً وتوازناً عبر القطاعات المختلفة ، ومن المحتمل أن تتواجد أيضاً وبنسب أكبر فى الوظائف والمهن الحديثة . وكما سنرى من الجدول (٤ : ٨) فإن نصيب النساء من إجمالى القوة العاملة مدفوعة الأجر يعتبر صغيراً ، حيث يصل إلى أقل من ٢٠ ٪ ، ومن ثم يتضح أن الرجال هم الذين يسيطرون على مجالات العمل مدفوعة الأجر فى دول المنطقة .

الجدول رقم (٤ : ٨) توزيع القوة العاملة على أساس الجنس ونصيب النساء من الوظائف مدفوعة الأجر (بالنسب المئوية) لأعوام ١٩٩٤ - ١٩٩٠

الدولة	الزراعة		الزراعة		الزراعة		نصيب النساء من إجمالي الوظائف
	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	
دول الخليج	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠
البحرين	٠	٣	٤	٣٩	٩٦	٥٨	١٢
الكويت	٠	٢	٢	٣٦	٩٧	٦٢	٢١
عمان	١٢	٤٥	٣٩	٢٥	٤٩	٣٠	غير متاحة
قطر	٠	٣	٠	٣٠	١٠٠	٦٧	١٠
السعودية	١٦	٣٤	٦	٢٠	٧٩	٤٦	غير متاحة
الإمارات	٠	٤	٧	٤٠	٩٣	٥٦	٥
الدول غير الخليجية							
الجزائر	١٠	١٦	٢١	٣٤	٦٩	٥١	١٠
مصر	٨	٤٢	٢٠	٢٥	٧١	٣٣	١٦
إيران	٦٩	٢٢	١٥	٤٠	١٦	٣٨	١٠
العراق	٦٨	١٨	٩	٢٦	٢٣	٥٦	١١
إسرائيل	٤	٤	١٧	٣٧	٧٩	٥٩	٤٣
الأردن	١	١١	٧	٢٧	٩٢	٦٢	٩
لبنان	١٦	٦	٢٢	٣٢	٦٢	٦٢	غير متاحة
ليبيا	٣٢	١٦	١٥	٣٠	٥٤	٥٣	غير متاحة
المغرب	٢٧	٣٥	٤٦	٣٠	٢٨	٣٤	١٨
سوريا	٦٠	١٨	١٤	٣٩	٢٦	٤٣	١٥
تونس	٤٧	٢٥	٤٤	٤٦	١٠	٢٨	١٧
تركيا	٨٤	٢٧	٦	٣٠	١٠	٤٣	١٨
اليمن	٤٥	٥٨	٦	١٤	٤٩	٢٨	٦

المصدر : الأمم المتحدة (١٩٩٥ ط) الجدول ١٢ ملحوظة : n : a المعلومات غير متاحة

وفى ذروة التنمية الاقتصادية التى اعتمدت على البترول فى مختلف دول المنطقة خلال السبعينيات ، بدأت بشكل غير مسبوق من أشكال هجرة العمالة داخل المنطقة وهى الهجرة التى اتسمت بتدفق هائل للفائض من العمالة من دول مثل مصر والأردن والضفة الغربية وتونس واليمن ولبنان إلى دول مجلس التعاون الخليجى الغنية والتى تعانى من العجز الشديد فى القوة العاملة وأيضًا تدفق هذه العمالة إلى ليبيا والعراق ، كما استوردت هذه الدول عمالاً غير عرب ، بما فى ذلك الكوريين والفلبينيين والسريلانكيين واليوغسلاف والذين جذبتهم الأجور المرتفعة التى عرضتها الدول العربية الغنية . وفى عام ١٩٧٥ ، شكلت العمالة الأجنبية نسبة ٤٧ ٪ من مجموع القوة العاملة فى دول الخليج ، وبحلول عام ١٩٩٠ ، كان العمال يمثلون نسبة ٨٦ ٪ من إجمالى القوة العاملة بالبلاد (ESXWA ١٩٩٣) وكانت تحويلات العاملين من الخارج إلى بلادهم تشكل أهمية خاصة ، لاسيما بالنسبة لدول مثل مصر والأردن واليمن ، بل إنها كانت أحد مصادر الدخل القومى لهذه الدول .

وقد كان الأردن فريداً من نوعه بين الدول العربية كبلد مُصدِّر للعمالة ومستورد لها فى نفس الوقت ، إذ صدَّر الأردن العمال المهرة والمهنيين المتعلمين إلى دول الخليج الغنية . ولكنه استورد أيضاً العمال غير المهرة وذوى الأجور المنخفضة للعمل فى قطاعات البناء والخدمات المحلية ، وبعض الخدمات العامة التى لا يعمل بها الأردنيون من قبيل الخدمة فى المطاعم والفنادق وتنظيف المبانى ، وتنظيف الشوارع. ولكن معظم العمالة العربية المستوردة كانت ولا تزال من مصر . وكان معظم الذين يعملون فى المنازل من الفلبينيين . ولعل إحدى النتائج الغريبة التى تمخضت عن ذلك قد تمثلت فى قلة الاستفادة من السكان المتعلمين من النساء الأردنيات واللائى فى ظل غيابهن عن سوق العمل ، كان لديهن ميل أكثر إلى الإنجاب حتى إن الواحدة منهن كان لديها أكثر من أربعة أطفال ، كما رأينا من قبل (انظر أيضاً كتاب مقدم ـ ١٩٩٨) .

وكانت أنماط الهجرة للعمالة من دول شمال أفريقيا وتركيا مختلفة . وإذا كانت وجهتهم المفضلة دول أوروبا ولاسيما ألمانيا بالنسبة للأتراك وفرنسا بالنسبة للجزائريين والمغاربة والتونسيين (رغم أن العمال التونسيين ذهبوا أيضاً إلى ليبيا كما سبقت الإشارة) وعلاوة على ذلك ، بدأت هجرة العمالة فى وقت مبكر ، خلال

الخمسينيات والستينيات وذلك استجابة للبرامج الأوروبية لاستضافة العمالة . وفى السبعينيات شرعت الدول الأوروبية فى تقليص تدفق العمال الضيوف ، وذلك على الرغم من أن عدد الأتراك العاملين فى ألمانيا قد استمر فى الارتفاع خلال الزيادة الطبيعية ، ولم شمل الأسر ، والهجرة غير القانونية .
(عمران ورودى ٣٤ ، ١٩٩٢ ، ١٩٩٣) .

واستمر تدفق المهاجرين التونسيين إلى أوروبا فى الثمانينيات وفى تطور جديد ، بدأت تدفقات الهجرة تشتمل على النساء .

وفى الدول العربية ، أدت عمليات عدم الاستقرار السياسى والاقتصادى إلى الحد من تدفقات القوة العاملة بين دول المنطقة ، وهو ما أثر أساساً على العمال الأردنيين والفلسطينيين واليمنيين الذين كانوا يعملون فى الكويت والسعودية . وكان طرد العمال المغتربين عقاباً لمواقف بلادهم أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١ ، وهو ما كشف النقاب مرة أخرى عن المظهر الكاذب للوحدة العربية . وفى الوقت ذاته كافأت الكويت والسعودية مصر لموقفها المناهض للعراق أثناء الحرب ، وذلك باستبدال العمال اليمنيين والأردنيين والفلسطينيين المطرودين بآخرين من المصريين . ورغم ذلك غادر عدد كبير من العمال المصريين الخليج وعادوا إلى مصر نتيجة لحرب الخليج . وقدرت اللجنة الاقتصادية والاجتماعية بغرب آسيا (ESCWA) عدد العائدين بنحو مليونى شخص وكان معظم هؤلاء العائدين من اليمن (٧٣٢,٠٠٠) ومصر (٧٠٠,٠٠٠) الأردن (٣٠٠,٠٠٠) ومن بينهم فلسطينيون . وكانت عودة هؤلاء العاملين المغتربين تجربة مزدوجة ، ففى بعض الحالات أسهم العائدون فى الطفرة التى شهدها قطاع البناء وفى المشروعات الصغيرة (لاسيما فى الأردن) ولكن فى حالات أخرى ، واجه العائدون مشكلة البطالة والاستيعاب أو التكيف البطىء فى سوق العمل المحلى ، أو الفقر. وكانت مشكلة الفقر حادة بالنسبة للعائدين اليمنيين على نحو خاص ، والذين كان معظمهم من العمال غير المهرة الذين لم يتمكنوا من العثور على عمل فى بلادهم.

- **ارتفاع معدلات البطالة :**

وهكذا ، وبحلول منتصف التسعينيات ، نجد أن عملية التحول الديموجرافى والتى اتسمت بارتفاع الخصوبة ونسب المواليد والهجرة من الريف إلى المدن ، والتغيرات

فى نمط هجرة العمالة بين دول المنطقة ، قد أدى ذلك كله إلى نمو سريع فى القوة العاملة، وفى ظل حالة الركود الاقتصادى التى سادت آنذاك ، أدى هذا بدوره إلى ارتفاع معدلات البطالة ، وعلى الأخص فى المناطق الحضرية .

وتعد مشكلة البطالة صدمة للسكان المتعلمين على نحو خاص ، والذين كانوا يتوقعون الحصول على وظائف مضمونة فى القطاع العام . وخلال الستينيات والسبعينيات ، أدت مشروعات التنمية الاقتصادية التى رعتها الدولة إلى حدوث توسع فى الوظائف المتاحة بالقطاع العام ، وعلى سبيل المثال : تبنت مصر سياسة تقضى بضمان توفير الوظائف فى القطاع العام لخريجى المدارس الثانوية المهنية وخريجى الجامعات . وتبنت المغرب سياسة مماثلة ، وإن كانت وفرت «وظائف مؤقتة للخريجين» ونتيجة لهذه السياسات قامت بعض الدول مثل مصر والأردن والجزائر بتوظيف أكثر من ٥٠٪ من إجمالى القوة العاملة فى القطاع العام ، كما تم توظيف أغلبية القوة العاملة فى دول مجلس التعاون الخليجى فى القطاع العام .

وكنتيجة لحالة الركود التى شهدتها المنطقة منذ منتصف الثمانينيات والخطط والمقترحات الخاصة بتعديل السياسات الأساسية بشأن تقليص فاتورة الأجور فى القطاع العام، لم تعد القطاعات العامة تغرى على العمل فيها ، كما كان الحال سابقًا حين دأبت على دفع أجور مرتفعة للعاملين ، وذلك على الرغم من أن هذه القطاعات لم تشرع بعد فى الاستغناء عن أعداد كبيرة من العاملين (وكما حدث فى دول أمريكا اللاتينية ودول أفريقيا جنوب الصحراء ، حيث جرى تنفيذ التعديلات الأساسية فى مرحلة مبكرة) والحقيقة أنه بسبب المخاوف السياسية والاجتماعية فإن الحكومات قد فضلت استراتيجية تدهور الأجور أو تشجيع التقاعد المبكر بدلاً من اتباع سياسات واضحة بشأن الاستغناء عن العاملين . وبالطبع أدت إعادة الهيكلة الاقتصادية فى القطاع الخاص إلى تسريح العمال فى كل من تونس والمغرب وتركيا ، بيد أنه فى أغلب الأحوال يتألف السكان العاطلون حاليًا من الباحثين عن العمل لأول مرة ، وأغلب الأحوال من خريجى المدارس الثانوية من الإناث والذكور على حد سواء ، والذين يبحثون عن فرص عمل بدافع من الحاجة الاقتصادية .

وقد أدى تقلص الوظائف فى القطاع العام وكذا الهبوط الذى طرأ على الإنفاق الاجتماعى الحكومى ، إلى انخفاض الأجور الفعلية ، ومن ثم انخفاض دخول الأسر

بدرجة كبيرة فى العديد من الدول (كارشيناس ١٩٩٤) ارتفع معدل الأجور الحقيقى فى الأردن بنسبة ٤٥٪ خلال ١٩٧٥ ـ ١٩٨٧ ، ولكن مع حلول عام ١٩٩٠ كان هذا المعدل قد انخفض بنفس النسبة تقريباً (شعبان ، أسعد ، القدس ٧٤ : ١٩٩٥) ، ومع ذلك فإن هذا الهبوط فى معدلات الأجور الحقيقية لم تصاحبه زيادة فى فرص العمل أو فى الطلب على العمالة ، كما لم يصاحبه نقص فى معدلات الوظائف . وهذا يعنى أن المشكلة فى سوق العمل لا تكمن فى الأجور المرتفعة (كما كان الحال فى الماضى) ولكنها ربما تكمن فى الافتقار إلى القدرة على المنافسة والإنتاجية والاستغلال غير الكفء لموارد البشرية ، كما يعنى ذلك تخلف القطاع الخاص فى المنطقة وبعجزه عن استيعاب القوة العاملة المتزايدة .

وباستثناء دول الخليج ، تعتبر معدلات البطالة مرتفعة جداً فى بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وفقاً للمقاييس والمعايير الدولية ، وهى معدلات عالية بشكل خاص بالنسبة للنساء . ومن الصعوبة بمكان وفى أغلب الأحوال قياس البطالة فى الدول النامية . وقد بدأت معظم دول الشرق الأوسط فى وقت قريب فقط فى إعداد حصر للأشخاص الذين إما أخفقوا فى العثور على وظائف للمرة الأولى (وكما هو الحال بالنسبة لخريجى المدارس الثانوية والجامعات) أو الذين فقدوا وظائفهم من جراء إعادة هيكلة الشركات (وهى نسبة أصغر) .

وفى العادة ، تتركز البطالة فى المناطق الحضرية وذلك على الرغم من أن ثمة اتجاه متزايد بين الدول الآن يتمثل فى إدراج المناطق الريفية ضمن عملية الحصر هذه ، وهكذا تعكف بعض الدول الآن على احتساب البطالة على أساس معدلاتها فى المناطق الحضرية أو الريفية ، وأيضاً على أساس النوع سواء الذكور أو الإناث .

وبدأت معدلات البطالة فى المناطق الحضرية فى الزيادة فى الثمانينيات وتراوحت هذه الزيادة ما بين ١٠ إلى ١٨ ٪ فى الجزائر وتونس ومصر والأردن وإيران وتركيا واليمن . ووفقاً لـ(ESCWA) من المرجح أن تصل هذه المعدلات إلى ٣٠٪ فى اليمن والضفة الغربية وغزة ، وكما سبق أن أشرنا فإن البطالة تتحدد على أساس العمر ،

حيث تتألف فى معظمها من الداخلين الجدد إلى سوق العمل فى إطار المجوعات السنية المختلفة التى تتراوح من ١٥ إلى ١٩سنة ومن ٢٠ إلى ٢٤ سنة . ورغم أن البطالة تتفاوت وتتباين أيضاً تبعاً لمستوى التحصيل العلمى أو المرحلة التعليمية إلا أننا نجد أنه فى بعض البلدان يعانى خريجو الكليات والجامعات من ارتفاع معدلات البطالة ، وتتراوح معدلات البطالة بين خريجى المدارس الثانوية بين ١٧ و ٢٩ ٪ فى كل من الجزائر والأردن وتونس . و ٢٣ ٪ فى مصر والمغرب على التوالى ، أما فى أوساط العمال من ذوى التعليم الابتدائى أو ما دونه تتراوح معدلات البطالة بين ١٧ و٢٧ ٪ فى الجزائر والمغرب وتونس (منظمة العمل الدولية ILO، ١٩٩٣) .

وترتفع معدلات البطالة بين النساء لتصل إلى ٢٥ ٪ ، مما يشير إلى زيادة العرض من جانب النساء الباحثات عن العمل ، وذلك على النقيض من النمط الذى كان سائداً من قبل والذى تمثل فى تمسك المرأة بالعمل كربة منزل (Housewife - ization) وفى الجزائر فقط ، تعتبر البطالة بين النساء أقل من البطالة بين الرجال (١٧ ٪ للنساء مقابل ٢١,٧ ٪ للرجال فى عام ١٩٩١) . ومع ذلك وإذا أخذنا فى الاعتبار أن النساء فى الجزائر يمثلن نسبة ١٠ ٪ فقط من حجم سوق العمل فإن معدل البطالة بين النساء هناك يعتبر مرتفعاً على نحو غير متكافئ . وهذا هو الحال فى إيران أيضاً . ويبدو أن المعدلات المرتفعة للبطالة بين النساء نتاج لكل من تفضيل النساء لوظائف القطاع العام ، وهى غير متاحة ، وسياسة التمييز التى يمارسها القطاع الخاص ضد النساء ، وذلك يعزى بوضوح إلى شروط ومتطلبات الحصول على إجازة الولادة ورعاية الأطفال التى ينص عليها قانون العمل . ولهذا يعتبر تأنيث البطالة من السمات البارزة لأسواق العمل فى المدن والمناطق الحضرية فى دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا (انظر الجدول ٥ : ٨)

الجدول (٥ :٨) معدلات البطالة فى دول مختارة على أساس الجنس والسنة

الدولة	السنة	ذكور	إناث	الإجمالى
الجزائر	١٩٩١	٢١,٧	١٧,٠	٢١,١
مصر	١٩٩١	٥,٩	٢١,٣	٩,٦
إيران	١٩٩١	١٠,٠	٢٥,٠	١٧,٥
المغرب	١٩٩١	١٥,١	٢٢,٦	١٧,٠
سوريا	١٩٩١	٥,٢	١٤,٠	٦,٨
تونس أ	١٩٨٩	١٣,٩	٢٠,٩	١٥,٣
تركيا ب	٢٩٩٢	٩,٨	٢٠,٥	١١,٧

المصدر : منظمة العمل الدولية (1994) ILOالجدول ١٩
ملاحظات : أ : الأرقام التونسية من مصادر رسمية (انظر كتاب مقدم الفصل الثالث، ١٩٩٨)
ب : البيانات الخاصة بتركيا مستقاة من تقرير قومى تم إعداده لمؤتمر بكين (انظر كتاب مقدم الفصل الرابع، ١٩٩٨). الأرقام الواردة بالجدول خاصة بالمناطق الحضرية فقط وليست دقيقة.

والسؤال الآن هو : كيف يمكن أن يعيش العاطلون ، وهم هؤلاء الذين يتوقعون وظائف فى القطاع الحكومى ولكنهم لا يعثرون عليها، فى دول حيث لا يتوفر تأمين البطالة أو لا يعتبر متاحاً للداخلين الجدد إلى سوق العمل ؟ ويبدو أن البعض من الباحثين عن الوظائف، ولاسيما الرجال، قد انجذبوا إلى القطاع غير الحكومى الحضرى، والذى شهد نمواً هائلاً فى المنطقة. وقد يشمل القطاع غير الحكومى أو غير الرسمى العديد من العمال، ومن بينهم سائقى سيارات الأجرة، وعمال البناء، والخدم فى المنازل، والأشخاص الذين يعملون فى الأسواق مثل : أسواق بيع الفاكهة والخضروات، والأسواق ... (وهى الأسواق التقليدية فى الشرق الأوسط)، والحلاقين، والخياطين، والخياطات، والعاملين فى أو أصحاب متاجر أو ورش فنية وصناعية صغيرة، والبائعين المتجولين، وعمال الصيانة والإصلاح، وغيرهم. كما يضم هذا القطاع العاملين على أساس القطعة والمقاولة من النساء وذلك من خال تواجدهن فى

منازلهن، وكما هو الحال بالنسبة للنساء فى تركيا، وسوريا، والأردن واللائى يعملن فى الحياكة والتطريز لمصلحة مقاول من الباطن. والحقيقة أن طبيعة وعمل القطاع غير الحكومى قد كانا محور العديد من المناقشات والمناظرات : إذ إنه على الرغم من أن ثمة اتفاق على أن هذا القطاع يعمل على استيعاب قوة العمل وعلى توفير السلع والخدمات بتكلفة منخفضة نسبياً، إلا أنه غير منظم ولا يخضع للسياسة الضريبية، وهو الأمر الذى يؤدى إلى معايير ومقاييس سيئة وغير دقيقة بشأن العمالة والدخل (مثل ثروة العديد من التجار) الذى لا يتم توزيعه. ويسهم القطاع غير الحكومى فى، أو يعد انعكاساً للتفاوت فى مستويات الدخل بالمجتمع.

الفقر وتفاوت الدخول :

يقاس الفقر وتفاوت الدخول بدخل الأسرة والاستهلاك وبمؤشرات جودة الحياة. وثمة اختلاف أيضًا بين «الفقر المطلق» الذى يتسم بالمعاناة من الجوع والعوز والفقر المدقع، و«الفقر النسبى» الذى يقاس حيث تتواجد الأسر ضمن نطاق«خط الفقر». والواقع أنه قد طرأ تحسن كبير وملحوظ بمرور الزمن على المستويات المعيشية فى بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وهو التحسن الذى جرى قياسه من خلال مؤشرات اجتماعية من قبيل متوسط العمر، ومعدلات الوفيات بين الأطفال، ومعدلات الوفيات بين المواليد الجدد، وتوافر مياه الشرب النظيفة، وتوافر مرافق الصرف الصحى، وارتفاع سن الزواج الأول، ومعدلات الخصوبة، ونسبة الأمية، ونسب الالتحاق بالمدرسة، وكذلك معدلات الأجور ودخول الأسر. ومع ذلك كله، مازالت هناك فجوات قائمة بين الجنسين من الذكور والنساء، ومع الأخذ فى الاعتبار مستويات الدخول فى العديد من دول المنطقة، فإنه يبدو على الرغم من أن مستويات الفقر المطلق قد أخذت تتناقص فى بعض أجزاء المنطقة، إلا أن الفقر كان يتزايد فى أجزاء أخرى. ويرجع السبب وراء ذلك أساساً إلى معدلات النمو السكانى العالية، وإن يكن يعزو أيضًا إلى ظهور مجموعات فقر جديدة فى المناطق الحضرية من جراء أزمة الركود الاقتصادى، وارتفاع الأسعار، وتدهور الأجور، والبطالة. وقد بدأ هذا التحول منذ منتصف الثمانينيات، عندما انخفض سعر النفط ومن ثم هبط إجمالى الناتج المحلى (GNP) ، وارتفع الدين الخارجى، وتقلص الإنفاق الحكومى.

ووفقاً لما أعلنه البنك الدولي وكما أشارت ESCWA، فإن عدد الفقراء فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا زاد من ٦٠ مليون شخص فى عام ١٩٨٥ إلى ٧٣ مليون شخص فى عام ١٩٩٠، أو من ٣٠,٦ ٪ إلى ٣٣,١ ٪ من مجموع السكان (البنك الدولي ٥ : ١٩٩٣، الإسكوا ٢ : ١٩٩٣ ، والإسكوا ١٩٩٥). وتكشف تقديرات الفقر التى أعدها البنك الدولى، والتى قد أمكن الحصول عليها من الدراسات الخاصة بالمستويات المعيشية والتى قد أجريت داخل بلدان مختلفة ومتنوعة ، عن تزايد الفقر فى مصر والأردن وظهور مجتمع من الفقراء العاملين فى تونس والمغرب. وطبقاً للإحصائيات الرسمية فإن نسبة ٢٣ ٪ من السكان فى مصر فى عام ١٩٩١، ونسبة ١٨ ٪ من السكان فى الأردن، كانت تعيش تحت خط الفقر. وثمة اعتقادات على نطاق واسع بأن هذه النسبة فى البلدين يمكن أن تصل إلى ٣٠ ٪ (مقدم ١٩٩٨، ١٩٩٧). وفى كلتا الدولتين ، يتركز الفقر فى المناطق الريفية ، حيث نجد أن الفقراء فى الريف هم صغار الملاك والمستأجرين والعمال الذين لا يملكون أراضٍ زراعية ، والرعاة (الإسكوا ٦ : ١٩٩٣) . وفى مصر يتألف مجتمع الفقراء فى المناطق الحضرية والمدن من العاطلين والأسر التى تعولها النساء بعد وفاة الأزواج . وفى جميع دول المنطقة ، ونظراً للاختلافات والفروقات القائمة بين الجنسين فى المستوى التعليمى، والتحصيل الدراسى والوظائف والدخول ، فإن النساء تتعرض لمشكلة الفقر بشكل خاص لا سيما أثناء فترات الأزمات الاقتصادية أو فى حالة الطلاق ، والانفصال بين الزوجين ، أو ترمل الزوج أو الزوجة .

والحقيقة أن الزيادة فى معدلات الفقر وتفاوت الدخول لابد وأن تفهم فى سياق كل من السياسات الاقتصادية الجديدة للتعديل الهيكلى وتحرير التجارة والأسعار ، وأيضاً السياسات القديمة للإنفاق العسكرى المرتفع وعدم فرض ضرائب كافية فيما مضى . إذ إن المخصصات والنفقات العسكرية مازالت مرتفعة جداً فى العديد من دول المنطقة. ففى العراق وسلطنة عمان والسعودية وسوريا واليمن ، تجاوزت النفقات العسكرية فى عام ١٩٩٠ مثيلاتها فى مجالى التعليم والصحة (انظر الجدول رقم ١٩ لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائى لعام ١٩٩٦) . وفى حالة العراق بالطبع أدت الحرب والعقوبات الاقتصادية إلى تفاقم وتدهور الوضع فى أوساط الطبقات الفقيرة وإلى إيجاد مجموعات جديدة تضررت من الفقر . إذ إن تدمير البنية التحتية للعراق خلال

عمليات القصف الجوى للتحالف الدولى بقيادة الولايات المتحدة أثناء الحرب فى يناير عام ١٩٩١ (انظر دريز وجازدار ١٩٩٢) ، ونقص الإمدادات الطبية والغذائية الذى سببه نظام العقوبات الطويل ، وانهيار الخدمات العامة قد أدى ذلك كله إلى حدوث تحول فى دولة كانت تسير يوماً فى درب التمدن والميكنة والرخاء .

وفى لبنان ، كانت العوامل الرئيسية وراء الزيادة الهائلة فى عدد الفقراء تتمثل فى الحرب الأهلية الطويلة والسياسات الاقتصادية الخاطئة ، بما فى ذلك إلغاء الضرائب بالنسبة للشركات الكبيرة المشاركة فى مشروعات إعادة الإعمار فى البلاد وغياب أية ضرائب عقارية . ووفقًا للإسكوا ، يعيش حوالى مليون شخص فى لبنان تحت خط الفقر، وهو رقم يمثل نسبة ٢٨ ٪ من مجموع السكان ، وهناك حوالى ٧٥ ٪ من الفقراء من سكان المناطق الحضرية ، ووصل معدل البطالة فى البلاد إلى ١٥ ٪ فى عام ١٩٩٦ بالمقارنة مع ٨,١ ٪ من القوة العاملة فى ١٩٧٥ ، وقبل أن تبدأ الحرب الأهلية الطويلة هناك . وحدد تقرير الإسكوا غياب الإنفاق الاجتماعى الحكومى و «التوزيع غير العادل للثروة» كعاملين رئيسيين وراء الارتفاع الذى طرأ على حالات سوء التغذية ونقص الرعاية الصحية فى المناطق الفقيرة وتدنى مستوى التعليم والمعايير الصحية (صحيفة ميدل إيست تايمز ١٩ : ١٩٩٦) .

وفى الاقتصادات الكبيرة والمتنوعة نجد أن مستويات التفاوت والتباين (أو مؤشرات الفقر النسبى) واضحة تماماً ، وأنها قد أخذت تتزايد فى تركيا ولبنان وجمهورية إيران الإسلامية ، والواقع أن استمرار الفقر النسبى ولاسيما فى المناطق الريفية يعتبر مشكلة كبيرة فى الدول ذات الدخل المنخفض مثل مصر واليمن والمغرب وربما أيضًا فى قطاع غزة ، وتعكس المؤشرات الاجتماعية عن الصحة ومياه الشرب النظيفة والصرف الصحى جودة الحياة للمواطنين كما تعكس أوجه التباين والتفاوت بين الحضر والريف. وعلى الرغم من أن مشروعات التمدن والحضرية قد أتاحت للسكان فى معظم الدول العديد من الخدمات فى مجالات الصحة ومياه الشرب النظيفة والصرف الصحى ، إلا أن بعض دول المنطقة ومن بينها الجزائر وسوريا واليمن لا تزال تواجه صعوبات فى توفير مثل هذه الخدمات ، وكما أشرنا من قبل فى هذا الفصل . وفى دول أخرى ، هناك أوجه تباين واختلاف مميزة بين الريف والحضر ، وكما يتضح من الجدول ٦ : ٨ (المعدلات المرتفعة لحصول سكان الريف على

الخدمات الصحية والمياه أو خدمات الصرف الصحى والتى توفرها بعض الدول فى الجدول ٦ : ٨ لابد من النظر اليها بقدر من التشكك) . ومن منظور الوصول إلى هذه الخدمات ، فإن من المؤكد أن الحياة الحضرية أفضل وأرقى من الحياة الريفية ، بيد أن زيادة ونقص السكان فى الإنفاق الاجتماعى الحكومى يؤديان إلى تعقيد نوعية وكمية الخدمات فى المناطق الحضرية . ورغم أن الإحصائيات لا تشير إلى هذه الضغوط إلا أنها تتضح بصورة أفضل من خلال الزيارات إلى والإقامات فى قطاعات غير الصفوة فى مدن الشرق الأوسط وشمال أفريقيا حيث نجد أن الازدحام الشديد ووسائل النقل العام المتهالكة وغير الكافية، والشوارع التى تحتاج إلى إصلاح ، والهواء المتلوث ، ومستويات الضوضاء العالية ، وعدم وجود قوانين للبناء ليست سوى بعض المشكلات التى تواجه سكان المناطق الحضرية من ذوى الدخول المنخفضة .

ونختتم هذا الجزء بعرض لمحات عن الفقر والتفاوت فى الدخول فى كل من المغرب وتونس ومصر وفلسطين (الضفة الغربية وقطاع غزة) وهذه اللمحات مستوفاة إلى حد كبير من تقديرات البنك الدولى عن الفقر ، وهى تقديرات ترتكز على مسوح ودراسات قياس مستويات المعيشة أو دراسات الدخول التى تنفذ فى هذه الدول . وثمة مصدر آخر يتمثل فى دراسة حولتها الحكومة النرويجية عن مستويات المعيشة للسكان الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس العربية . وتظهر هذه الملامح أنه بالإضافة إلى العوامل الخارجية مثل الاحتلال والحرب أو الشروط غير العادلة فى مضمار التجارة فإن هناك عوامل داخلية حاسمة تتلخص فى وجود الفقر والاختلافات فى مستويات المعيشة والدخل من جراء سياسات الحكومة والتركيب الطبقى ووضع النساء .

الجدول (٦ : ٨) مؤشرات مستويات التباين بين المناطق الحضرية والريفية في بعض الدول المختارة : نسبة السكان التى يمكنها الحصول على الخدمات ١٩٨٥ - ١٩٩٣ .

الدولة	الصحة		الماء النظيف		الصرف الصحى	
	الحضر	الريف	الحضر	الريف	الحضر	الريف
الجزائر	٩٠	٣٨	٥٠	٢٤	٥٦	٦٧
مصر	١٠٠	٩٩	٩٥	٨٦	٨٠	٢٦
إيران	٩٥	٦٥	١٠٠	٧٥	١٠٠	٣٥
العراق	٩٧	٧٨	٩٣	٤١	٩٦	غير متاحة
الأردن	٩٨	٩٥	١٠٠	٩٧	١٠٠	١٠٠
لبنان	٩٨	٨٥	٩٥	٨٥	٩٤	غير متاحة
المغرب	١٠٠	٥٠	٩٢	١٤	٩٥	٣٨
عمان	١٠٠	٩٤	٩١	٧٧	٧٥	٤٠
السعودية	١٠٠	٨٨	١٠٠	٧٤	١٠٠	٣٠
سوريا	٩٦	٨٤	٩٠	٥٨	٨٤	٨٢
تونس	١٠٠	٨٠	١٠٠	٧٤	١٠٠	٣٠
تركيا	غير متاحة	غير متاحة	٩٥	٦٣	غير متاحة	غير متاحة
الإمارات	١٠٠	١٠٠	١٠٠	٣٠	٩٣	٢٢
اليمن	٨١	٣٢	٦١	٣٠	٨٧	٦٠

المصدر : برنامج الأمم المتحدة الإنمائى (1995) UNDP

ملحوظة : n.aالمعلومات غير متاحة

وقدّر مسح قياس مستويات المعيشة لسنة ١٩٩١ فى المغرب أنه يوجد ٢,٥ مليون فقير، عاش ٧٢,٥٪ منهم فى المناطق الريفية وأكثر من نصفهم عاشوا فى فقر مدقع ، وتوجد أعلى مستويات للفقر بين أصحاب الأجور فى المناطق الريفية ، وأن النساء من أكثر الفئات حرماناً ، وفى المناطق الحضرية نجد أن الفقراء هم أساسًا من أصحاب المهن الحرة ، ويكسب العامل الفقير النموذجى ثلث متوسط أو نصف الأجر الأدنى الذى يحدده القانون . وتحصل النساء الفقيرات على ما يقرب من نصف معدل الأجر للساعة الواحدة والذى يتحصّل عليه الرجال الفقراء ، وخلال الثمانينيات ، وبينما توسعت الصادرات المغربية ، زادت معدلات توظيف النساء ، وعلى الأخص فى أكثر القطاعات تنافساً مثل صناعة الأقمشة والمواد الغذائية والجلود والأحذية . ولكن هذه القطاعات عرضت أجوراً منخفضة جداً ، وتعتبر معدلات البطالة مرتفعة فى المغرب، ولا سيما بين الفقراء من الرجال والنساء ، وهناك حوالى ٣٠٪ من الفقراء فى المناطق الحضرية عاطلون ، وتعانى النساء فى أكثر الأسر فقراً من أعلى معدلات البطالة فى المناطق الحضرية . وفى أواسط التسعينيات ، لم يكن لدى المغرب نظام للضمان الاجتماعى لمعالجة الفقراء أو البطالة .

وعلى الرغم من أن السياسات الاقتصادية الجديدة فى الثمانينيات قد ساعدت فى تحقيق النمو من خلال زيادة الإنتاج والصادرات ، إلا أنها أدت إلى ارتفاع الأسعار ، وتدهور الأجور ، وتخفيض الإنفاق الاجتماعى من جانب الحكومة . وعلاوة على ذلك لم يتم تحويل القدر الكافى من الدخل القومى إلى فئات وبنود الإنفاق العام ، وهى الرعاية الصحية الأساسية والتعليم وخدمات البنية التحتية الضرورية ، والتى من شأنها تحسين معيشة الفقراء (البنك الدولى ١٨٠ : ١٩٩٤) . وفى فترات الثمانينات ، اضطر الآباء الفقراء إلى سحب أطفالهم من المدارس ، ومن ثم طرأ هبوط حاد فى أعداد الأطفال الملتحقين بالمدارس فى مرحلة التعليم الأساسى بعد عام ١٩٨٢ ، ولم ترتفع هذه الأعداد إلا فى عام ١٩٩٠ ، وفى الفترة الأخيرة من منتصف التسعينيات ، ظلت المغرب تعانى من عدم وجود طلاب فى المرحلتين الابتدائية والثانوية ، وأخذت الفجوات القائمة بين الجنسين من الذكور والإناث فى الالتحاق بالمدارس تتسع أكثر فأكثر (انظر أرقام البنك الدولى لعام ١٩٩٨ ، الجدول ١٢ : ٢) .

والنساء الريفيات في المغرب هن إلى حد كبير من عاملات الأسر اللائي لا يتقاضين أجوراً . وعلى النقيض من ذلك ، يميل الرجال إلى العمل كمزارعين مستقلين وعلى نطاق صغير أو في مجال التجارة ، وهناك نسبة ٢٥ ٪ من الرجال يحصلون على أجور . وتنعكس تركيبة العلاقات الاجتماعية الريفية وأبعادها على الجنسين في المغرب في الملاحظة التالية وبينما يندر أن تحصل النساء على أعمال أو مهن حرة لتوفير دخل ثابت فإنهن غالباً ما يشاركن في أعمال أزواجهن خارج مزرعة الأسرة . ولاشك أن ضمان السيطرة على عمل الأسرة ، والنساء والأطفال في أغلب الأحوال ، من شأنها أن تعطي رب الأسرة هامشاً تنافسياً في سوق العمل (البنك الدولي ، ١٩٩٤ ، المجلد الأول ص٤٨) . ومن الواضح أن ما تحتاجه المغرب هو المزيد من الاستثمار الاجتماعي من قبل الحكومة لإيجاد قوة عاملة ماهرة ، ومتعلمة، ويمكن أن تحصل على أجور أفضل ، ولزيادة نسبة التعليم بين النساء وتحقيق الأهداف التعليمية ، وتقليص الفجوات بين المدينة والريف .

وفي تونس ، ورغم أن الفقر ينتشر في المناطق الريفية إلا أن نسبة متزايدة من الأسر الفقيرة تتركز في المدن والمناطق الحضرية . وطبقًا لتقرير استهلاك الأسرة الصادر في عام ١٩٩٠ ، فإن حوالي ٦٠٠ ألف شخص أو ما نسبته ٧ ٪ من مجموع السكان ، لديهم نفقات ومصروفات سنوية تحت خط الفقر ، وهناك نسبة ٧ ٪ أخرى «تقترب من الفقر» . ومعظم الفقراء في المدن من الذين يعملون بالأجر في قطاع البناء والذين نالوا قسطاً بسيطاً من التعليم أو لم يحصلوا على أي قدر من التعليم الرسمي . ويعمل آخرون في وظائف مؤقتة منخفضة الأجر ، وتحتاج إلى عمال غير مهرة ، وعلى الأخص في قطاعات آخذة في التوسع مثل السياحة والمنسوجات (البنك الدولي ١٩٩٥) . ومع ذلك ، هناك أشخاص آخرون بلا عمل . وكما رأينا من قبل في هذا الفصل ، تعتبر معدلات البطالة مرتفعة في تونس ، وكما هو الحال في المغرب ، فإنها مرتفعة على الأخص بين الفقراء والشباب والنساء ، ونظراً للنمو البطيء للقطاع الخاص، هناك أيضاً بطالة مرتفعة بين العمال المهرة .

ومع ذلك ، وعلى النقيض من المغرب ، أظهرت تونس التزامًا حيال الإنفاق الاجتماعي وأخذت تتوسع في برنامج التأمين الاجتماعي . وخفضت الحكومة التونسية النفقات الاجتماعية إلى أقل من مستويات الإنفاق الأخرى خلال فترة تقييد

الإنفاق المالى. وتعطى نظام الضمان الاجتماعى للعاملين بالأجر فى القطاعين العام والخاص ، بما فى ذلك العمال أصحاب المهن الحرة والعاملين بالحكومة . وعلاوة على ذلك ، هناك نوعان من برامج المساعدة الاجتماعية والتى تهدف إلى الحد من مشكلة الفقر : التحويلات المباشرة ، وأموال الدعم للمستهلكين . وبالنسبة لخدمات الرعاية الصحية والتعليم فإنها مجانية ومتاحة للجميع . ومن بين دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، نجد أن تونس هى الدولة الوحيدة التى أسست برامج اجتماعية فعالة لحل مشكلة الفقر ، وزيادة التوظيف وفرص العمل من خلال الأشغال العامة ، وتشجيع العمل بين النساء .

وفى مصر ، تشكل الأسر الفقيرة نسبة تتراوح من ٢٠ إلى ٢٥ ٪ من مجموع السكان ، حيث يتركز معظم هذه الأسر فى الوجه القبلى والذى نجد فيه أن النساء والأطفال أكثر تعرضًا للمخاطر . كما نجد أن الأسر التى تعولها النساء أكثر فقراً من تلك التى يعولها الرجال سواء فى المناطق الريفية أو الحضرية . وتعتبر معدلات العمل بين الأطفال دون سن الثانية عشرة مرتفعة جداً ، وعلى الأخص فى المناطق الريفية، وينتشر مرض فقر الدم (الأنيميا) بنسب عالية بين النساء والأطفال الصغار . والفقراء فى مصر إما من العمال الزراعيين أو المزارعين المعدمينِ أو ممن يملكون مساحات صغيرة من الأراضى . وفى المناطق الحضرية والمدن ، يلاحظ أن طبقة الفقراء تتألف من عمال البناء أو عمال الخدمات وهى طبقة تضم عدداً كبيراً من موظفى الحكومة (البنك الدولى ٣٥ : ١٩٩١) ، وذلك يعزى جزئيًا إلى التدهور المفاجئ فى الأجور الفعلية والتى قد حددتها الحكومة للعاملين بالقطاع العام . وقد شهدت الأجور هبوطاً حاداً ، وعلى نحو خاص ، فى القطاعات التى تهيمن عليها النساء العاملات . ولعل من الأمور التى تثير الاهتمام بشكل كاف أنه على الرغم مما يبدو من أن العمال اللانظاميين (العمال الموسميين) يشكلون أهم مصدر للعمل بالنسبة للفقراء من الذكور فى القطاعات الحضرية والريفية ، إلا أن هذا ليس هو الحال بالنسبة للنساء . إذ إن هناك نسبة أعلى من النساء الفقيرات يعملن فى وظائف ذات أجور ثابتة ، كما أن هناك المزيد من النساء اللائى يعملن فى الخدمات المجتمعية وفى التجارة والخدمات الأخرى وبنسب تفوق الرجال ، وهو الأمر الذى يشير إلى الأجور المنخفضة جداً التى ينبغى أن تقبلها النساء العاملات . وعلاوة على ذلك ، فإن

معدلات البطالة أعلى بصورة مذهلة بين النساء بالمقارنة مع مثيلاتها بين الرجال ، وكما رأينا من قبل . كما أن النساء الفقيرات أقل تعليماً من الرجال الفقراء . ففى حين يميل الفقراء من الرجال إلى التعليم بمعدل يصل إلى ٥,٧٧ عاماً ، يصل هذا المعدل إلى ٣,٠٩ عاماً بين النساء. ويستطيع ما نسبته ٦٣٪ من الرجال الفقراء القراءة والكتابة ، وذلك بالمقارنة مع نسبة ٣٣٪ فقط من النساء . (جو ليفى ، ١٩٩٧) .

وليس من قبيل الدهشة ، ومع الأخذ فى الاعتبار الفجوات القائمة بين الجنسين فى مصر ، أن نجد أن النساء الأرامل وأفراد الأسر التى تعولها النساء يشكلون اثنتين من أكثر المجموعات عرضة للمخاطر الاقتصادية فى مصر .

وحتى الأرامل من النساء الأصغر سناً ليس لديهن إمكانية حقيقية أو قدرة فعلية لعمل أى شيء سوى الحصول على دخول وعائدات من الأعمال غير المنتظمة والموسمية، فى حين لا تستطيع ذلك الأرامل الأكبر سناً . وعلى الرغم من العادة التقليدية المتمثلة فى تقديم الدعم المادى للأرامل من خلال المساعدات المالية من جانب أفراد الأسرة ، وحتى إن كانوا لا يعيشون فى الأسرة نفسها ، فإن هنالك العديد من الأرامل ، فى الواقع، لا يحظين بالدعم الكافى من أفراد أسرهن . ولأن هؤلاء الأرامل من المعدمات ، فإنهن يعتمدن على الصدقات والمساعدات الموسمية من الجيران حتى يستطعن البقاء على قيد الحياة . وتكشف التقارير الميدانية عن المؤسسات الخيرية العاملة فى القاهرة أن الأرامل من كبار السن يمثلن أكبر وأهم شريحة تستفيد من الصدقات والمساعدات التى تقدمها هذه المؤسسات . وتعترف المنظمات غير الحكومية بهن كمجموعة معرضة للفقر وتحتاج إلى مساعدة خاصة . (البنك الدولى ١١ : ١٩٩١) .

وطبقاً للإحصائيات الرسمية ، فإن ١٢٪ من الأسر التى فى القاهرة كان لديها سيدة تعولها فى عام ١٩٨٨ ، وذلك رغم أن هذا الرقم قد يرتفع الآن إلى حوالى ١٨٪. وقد عكفت إيمان بيبرس المتخصصة فى علم الاجتماع ، على دراسة ظاهرة تزايد أعداد الأسر التى تقودها وتعولها النساء . وأشارت فى هذا الصدد إلى أن هذه الفئة ليست قاصرة على النساء الأرامل ، والمطلقات أو اللائى هجرهن أزواجهن ، ولكنها تشمل أيضاً فئة متزايدة جديدة من الزوجات ذات الأزواج «عديمى الفائدة» . (بيبرس ١٣ : ١٩٩٦) ، ومن بينهم الرجال الذين يقضون عقوبات فى السجون ، والذين يعانون من المرض لفترات طويلة ، والمعاقون ، أو العاطلون . وفى دراسة

واحدة عن أحد الأحياء الفقيرة فى القاهرة ، تبين أن النساء مسئولات عن إعالة ٢٩ ٪ من الأسر التى كانت عينة لهذه الدراسة . وكانت الأغلبية من هؤلاء النساء من الأميات وهن إما ترملن أو طلقن . وتبين أيضًا أن هذه الأسر كانت تحصل على نصف الدخل المتاح لدى غيرها من الأسر التى يعولها الرجال ، وأنها تعيش فى وحدات سكنية أشد فقراً ، وأنها تمتلك القليل جداً من الأثاث والسلع الاستهلاكية المعمرة (فرجانى ١٩٩٤) . ولدى مصر نظام غير كافٍ للضمان الاجتماعى ، ويواجه العديد من النساء الفقيرات صعوبات فى التعامل مع الأنظمة البيروقراطية . وهكذا فإنهن غالبًا ما يتحولن إلى الجمعيات والمؤسسات الخيرية ، والتى تتولى منظمات إسلامية إدارة العديد منها .

وبين السكان الفلسطينيين ، يعتبر قطاع غزة الأسوأ فى الأراضى المحتلة كلها ، حيث يرتبط هذا القطاع ارتباطاً وثيقًا بنصيبه المرتفع من اللاجئين المحرومين والمعدمين اقتصادياً . والواقع أن أهم نوع للدخل الأسرى ، وهو عبارة عن العائدات من نشاط القوة العاملة ، يعتبر غير مستقر وغير ثابت من جراء عمليات حظر التجول، والاضطرابات ، والقيود المفروضة على التوظيف فى إسرائيل . بيد أنه حتى بين الفلسطينيين ، والذين يعانون بالفعل من كافة المظالم والمصاعب الشديدة ، يعتبر نصيب النساء من العمل والدخل ضئيلاً للغاية ، ما لم يكن معدوماً . والحقيقة أن التمييز بين الجنسين والقيود الاجتماعية المفروضة على النساء الفلسطينيات تجعلهن أكثر عرضة للفقر على وجه الخصوص . وأحد العوامل وراء ذلك يكمن فى ارتفاع نسبة الخصوبة بين النساء ، وهو ما يجعل هؤلاء النساء مرتبطات بالبيت ويزيد من الضغوط على ميزانية الأسرة . وفى عام ١٩٩٢ ، قدرت دراسة أجراها معهد للعلوم الاجتماعية التطبيقية فى أوسلو بالنرويج إجمالى معدل الخصوبة بنحو ٦,٨٤ مولوداً لكل امرأة . واستند هذا التقدير إلى «دليل غير مؤكد بشأن الاتجاه المتزايد نحو الزواج المبكر منذ اندلاع الانتفاضة والميل العام بين الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة إلى إنجاب المزيد من الأطفال خلال فترة السنوات الخمس الماضية» (هايبرج وآخرون ١٩٩٤ : ٦٥) . وفى غزة ، فإن أكثر من ثلث (٣٧ ٪) من مجموع السكان من النساء تزوجن دون سن السابعة عشرة ، وهو الحد الأدنى للسن القانونية للزواج بالنسبة للنساء . وتقترح البيانات أيضًا أن النساء يشكلن أعلى نسبة للتسرب من التعليم فى المرحلة الأولى . وبين النساء ، يبدو أن الزواج المبكر أحد عوامل التسرب من

المدرسة، غير أنه بالنسبة للرجال والنساء على السواء ، ولاسيما فى الأسر ذات الدخل المنخفض ، تبين أن التكاليف المباشرة وتكاليف فرصة التعليم (أى العمالة المفقودة) كانت السبب الرئيسى الذى حال دون مواصلة التعليم .

وتوصلت دراسة معهد فافو إلى أن نسبة مشاركة النساء فى مجمل القوة العاملة تبلغ ١٤ ٪ فقط ، وأشارت إلى أن معظم النساء الفلسطينيات يعملن فى مجال الإنتاج المنزلى وفى الميدان المحلى بدلاً من العمل فى وظائف مدفوعة الأجر خارج البيت . ومن أمثلة العمل فى المحيط الأسرى والذى تضطلع به ربات المنازل الفلسطينيات العمل بالقطعة أو بالعقد ، والمشاركة فى الأنشطة التجارية العائلية أو فى متاجر صغيرة ، والعمل أيضاً فى ميدان التعليم والتدريب أو المشاركة فى الأعمال مدفوعة الأجر التى لا تحتاج إلى عمال مهرة وهى أعمال محدودة نسبيًا . وتعتبر مشاركة النساء فى سوق العمل منخفضة على نحو خاص فى قطاع غزة وفى مخيمات اللاجئين ، وذلك على الرغم من أن هذه المناطق تتيح إمكانات توظيف ضعيفة جداً للرجال ايضًا . وتحظى كل من النساء المطلقات واللائى انفصلن عن أزواجهن ، وأيضًا النساء المتعلمات والثريات بأعلى نسب للمشاركة فى القوة العاملة . ويقبل العديد من النساء العمل بالقطعة فى منازلهن بدلاً من المشاركة فى سوق العمل الإسرائيلى .

وفى السياق الاجتماعى الذى تشارك من خلاله قلة من النساء فى القوة العاملة ، بات من الأهمية بمكان تقييم الوسائل الأخرى التى يمكن من خلالها للنساء ، كل على حده ، الوصول إلى الموارد الاقتصادية ، ومن ثم تفادى شبح الفقر . وإحدى هذه الوسائل المهر الذى يدفع للعروس عند زواجها . وتبين من دراسة معهد فافو أنه برغم أن الذهب أو المجوهرات تمثل الشكل الرئيسى للملكية العقارية المستقلة للنساء فى الضفة الغربية ، وغزة ، والقدس العربية ، فإن لدى النساء صور أخرى للملكية من قبيل الأرض ، وإن يكن ذلك بدرجة أقل . وقال معظم النساء اللائى شملتهن الدراسة إنه لم يكن لديهن أى شىء لبيعه أو رهنه إذا ما كن بحاجة ماسة إلى المال . وبمرور الوقت ، تتبدد مهور النساء من المجوهرات والحلى وتتلاشى تدريجيًا مع استخدامها فى مشروعات استثمارية محدودة للأسرة ، أو الزواج أو الأطفال (هايبرج وآخرون ٢٩٥ - ٣٠٠ : ١٩٩٤) .

خاتمة :

تناول هذا الفصل الاتجاهات السائدة بالنسبة للنمو السكانى ، والتحضر ، ونمو القوة العاملة ، وارتفاع البطالة ، والفقر . وتنطوى هذه الاتجاهات الاجتماعية والديموجرافية على العديد من المضامين فيما يتعلق برفاهية الأسرة وسعادتها ، والقدرات والإمكانات الفردية ، والاستقرار السياسى . ورغم أن عملية التحضر أو التمدن تنطوى على العديد من الوعود والآمال للأفراد ، بما فى ذلك من سلسلة أوسع من الخيارات ، والأنشطة ، والخدمات إلا أن النمو السكانى غير المكبوح قد خلق ضغوطاً هائلة على الخدمات الحضرية . وفى الأوقات التى تعمد فيها الحكومات إلى تقليص الإنفاق العام ، فإن هذه الضغوط الديموجرافية على الصحة ، والتعليم ، والمرافق العامة والخدمات من المرجح أن تزيد من حالات الحرمان والفقر والتباين فى المستويات المعيشية . وقد أدى الارتفاع فى معدلات الخصوبة والمواليد إلى ظهور نسبة كبيرة من السكان صغار السن الذين يحاولون العثور على عمل بلا جدوى . وفى إطار حرص الحكومات على الحد من الإنفاق ومع ارتفاع معدلات البطالة ، تأخذ نسبة الفقر فى الزيادة بدلاً من الانخفاض . ورغم أن الفقر والتفاوت الاجتماعى من الظواهر الاجتماعية المألوفة التى تعكس التركيبة الطبقية والتوزيع غير العادل للدخل ، والثروة ، والفرص ، فإنه يبدو أن النساء أكثر تعرضاً للأخطار الاجتماعية ، وخاصة الفقر ، وأكثر تعرضاً لعدم المساواة من الرجال .

ولهذا ، فإن دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تواجه عدداً من التحديات الاجتماعية والديموجرافية والتى تتطلب تنسيق العمل والجهد فيما بين الحكومات ، والمنظمات غير الحكومية ، والجماعات المدنية ، والمنظمات الدولية . وتحديد المشكلات والحلول الملائمة لها سوف يتطلب أيضاً منظورات قصيرة ، ومتوسطة ، وطويلة الأجل تنشأ عن الاحتياجات التنموية للمواطنين . وتتضمن هذه الاحتياجات والمتطلبات سياسات وإجراءات لتعزيز فرص وصول النساء إلى التعليم والوظائف كوسيلة لتثبيت النمو السكانى وتقليص معدلات الخصوبة وأيضاً التوسع فى قدرات

النساء ورفع دخل الأسرة، وزيادة الاستثمارات فى البنية الطبيعية والتحتية لتحديث الخدمات الحضرية وكذلك خلق المزيد من الوظائف ، وتفعيل إطار العمل القانونى والتنظيمى لتحسين المعايير البيئية والمهنية وأيضًا تحسين النظام الضريبى ، وبرامج التنمية المحلية التى يشارك فيها خريجو المدارس الثانوية والجامعات ، وذلك كوسيلة للتخفيف من مشكلة البطالة بين الشباب ، والحد من الفقر فى المناطق الحضرية ، وتعزيز التضامن .

ملحوظة :

الدراسات الديموجرافية والصحية (التى أجريت خلال التسعينيات) والدراسات التى أجريت من قبل عن معدلات الخصوبة فى العالم (فى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات) تعتبر دراسات دولية أجرتها الحكومات ولكن تولت تنسيقها أجهزة ووكالات في أماكن أخرى ، والتى تجرى تحليلات وتقييمات على المستويين المحلى والعالمى . وتتولى تنسيق الدراسات الصحية والديموجرافية مؤسسة ماركو إنترناشيونال بولاية ماريلاند الأمريكية ، كما تولى تنسيق الدراسة الخاصة بمعدلات الخصوبة فى العالم المعهد الإحصائى الدولى فى هولندا . وقد استهدفت هذه الدراسة التعرف على الاتجاهات فى مجال زيادة الخصوبة والوسائل المؤدية إليها (استخدام وسائل منع الحمل ، وتعليم الأم ، وصحة الطفل ، وصحة الأم) . كما أنه قد تم تصميم الدراسات الصحية والديموجرافية بهدف جمع بيانات ومعلومات عن الخصوبة، وتنظيم الأسرة، وصحة الطفل والأبوين .

المصادر :

١- رجوى أسعد : «الهيكل الديموجرافى والحضرى فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا مع التركيز على النساء والأطفال» ، مجلة أبحاث ودراسات إقليمية التى يصدرها مجلس السكان - العدد ٤٠ (يناير) .

٢- إيمان بيبرس : «النساء : التوفيق بين الأدوار المتناقضة» - مجلة المجتمع المدنى - العدد ٥٦ (أغسطس) ١٩٩٦ .

٣- جان ديريز ، وهاريس جازدار : «الجوع والفقر فى العراق» - مجلة التنمية العالمية ٢٠ - العدد ٧ - ١٩٩٢ .

٤- إسكوا : «اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب أفريقيا» - إطار عمل مفاهيمى ومنهجى للحد من مشكلة الفقر فى منطقة الإسكوا - نيويورك - الأمم المتحدة (١٩ يناير) - ١٩٩٣ .

* موجز إحصائى لمنطقة الإسكوا ١٩٨٤ - ١٩٩٣ الطبعة رقم ١٥ - نيويورك - الأمم المتحدة - ١٩٩٥ .

* النساء والفقر فى منطقة الإسكوا : مشكلات وهموم سلسلة دراسات عن النساء العربيات والتنمية - العدد ٢٢ نيويورك - الأمم المتحدة - ١٩٩٥ .

٥- نادر فرجانى : «نساء المدن ، والعمل وتخفيف مشكلة الفقر فى مصر» - دراسة رائدة رعاها برنامج الأمم المتحدة الإنمائى / ومنظمة العمل الدولية بالقاهرة : معهد بحوث المشكاة - ١٩٩٤ .

٦- ماريان هايبرج وآخرون : «المجتمع الفلسطينى فى غزة ، والضفة الغربية والقدس العربية : دراسة عن الظروف المعيشية» - أوسلو - معهد فافو للعلوم الاجتماعية التطبيقية - ١٩٩٤ .

٧- منظمة العمل الدولية : «تقرير العمل فى العالم» - جنيف - ١٩٩٣ .

* الكتاب السنوى لإحصائيات العمل - جنيف - منظمة العمل الدولية - ١٩٩٤ .

٨- دين جوليف : «ماذا نعرف عن الفقر فى مصر»؟ - تحليل بيانات دراسة عن الأسرة لسنة ١٩٩٧ - بحث قدم إلى الاجتماع السنوى لاتحاد دراسات الشرق الأوسط - سان فرانسيسكو - ٢٤ - ٢٢ نوفمبر - ١٩٩٧ .

٩- مسعود كارشيناس : «التعديل الهيكلى ، الأجور ، والتوظيف فى الشرق الأوسط» - ورقة عمل عن برنامج التوظيف فى العالم - جنيف - منظمة العمل الدولية - ميدل إيست تايمز - ٩ - ٣ نوفمبر - ١٩٩٦ .

١٠- فالنتين مقدم : «تحديث النساء : الجنس والتغيير الاجتماعى فى الشرق الأوسط» - بولدر - كولومبيا - لين رسيز - ١٩٩٣ .

* «تأنيث الفقر» - ملاحظات على مفهوم واتجاهات جامعة ولاية إيلينوى - برنامج دراسات النساء ، أبحاث موسمية رقم (٣) (أغسطس) - ١٩٩٧ .

* «النساء ، العمل ، والإصلاح الاقتصادى فى الشرق الأوسط ، وشمال أفريقيا» - بولدر - كولومبيا - ١٩٩٨ .

١١- (OECD منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية) - اتجاهات فى الهجرة الدولية - ١٩٩٢ .

١٢- عبد .أ. عمران ، ورودى فرزانى : «لغز مشكلة السكان فى الشرق الأوسط» - نشرة السكان ٤٨ رقم ١ - يوليو - ١٩٩٣ .

١٣- رضوان شعبان ، ورجوى أسعد ، وسليمان القدسى : «تحدى التوظيف فى المنطقة العربية» - مجلة العمل الدولية - ١٣٤ - العدد ٨١ - ٦٥ - ١ - ١٩٩٥ .

١٤- الأمم المتحدة : «الجنس وتوزيع الأعمار بين سكان العالم» - طبعة عام ١٩٩٢ - نيويورك - الأمم المتحدة ١٩٩٣ .

* «توقعات التحضر فى العالم» طبعة عام ١٩٩٢ - نيويورك الأمم المتحدة - ١٩٩٣

* «توقعات التحضر فى العالم» - طبعة عام ١٩٩٤ - نيويورك الأمم المتحدة - ١٩٩٥

* «نساء العالم فى ١٩٩٥ : اتجاهات وإحصائيات» - نيويورك - الأمم المتحدة .

١٥- (UNDP برنامج الأمم المتحدة الإنمائى) : «تقرير التنمية البشرية لسنة ١٩٩٥» - نيويورك - الأمم المتحدة ١٩٩٥ .

* «تقرير التنمية البشرية لسنة ١٩٩٦» - نيويورك - ١٩٩٦ .

* «تقرير التنمية البشرية لسنة ١٩٩٧» – نيويورك – ١٩٩٧ .
* «تقرير التنمية البشرية لسنة ١٩٩٨» – نيويورك – ١٩٩٨ .

١٦- (UNESCO اليونسكو) (منظمة التربية والعلم والثقافة التابعة للأمم المتحدة) – تقرير التربية فى العالم – باريس – اليونيسكو – ١٩٩٥ .

١٧- «البنك الدولى – دى سى : البنك الدولى» .
* «تنفيذ استراتيجية البنك الدولى للحد من الفقر : التقدم والتحديات» – واشنطن دى سى – البنك الدولى – ١٩٩٣
* «المغرب : الفقر ، والتكيف ، والنمو» – المجلدان الأول والثانى – واشنطن دى سى – البنك الدولى – ١٩٩٤ .
* «جمهورية تونس : الحد من الفقر : المحافظة على التقدم مع الإعداد للمستقبل» – واشنطن دى سى – البنك الدولى (أغسطس) – ١٩٩٥ أ .
* «تقرير التنمية فى العالم : العمال فى العالم متكامل» نيويورك – ١٩٩٥ ب .
* «مؤشرات التنمية فى العالم» – واشنطن دى سى – البنك الدولى – ١٩٩٨ .

-٩-

علاقات القرابة ، والطبقات الاجتماعية ، والعرقية

لورى كينج - إيرانى

قال زوجى وهو يأخذ فنجاناً صغيراً من القهوة التركية من حسين ، وهو النادل الذى كان يقوم على خدمتنا ، «هكذا إذن خالد ! أستطيع أن أخمن بأن عدنان روى لك مغامرته في لبنان خلال أول زيارة له إلى هذا البلد فى غضون ١٥ عاماً . من المؤكد أنه استقبل استقبالاً حاراً - إننى لا أعتقد أنه دفع حتى ثمن وجبة واحدة طوال الشهر الذى أمضاه هناك» . وارتسمت ابتسامة عريضة على وجه خالد وهو يستمع إلى ما قاله جورج ورد قائلاً «أوه ! أعتقد أنه كانت هناك على الأقل وجبة واحدة والتى دفع ثمنها حتماً ! وهل أخبرك عدنان بأنه سيعود قريباً إلى بيروت ؟» . وفى هذه اللحظة تحولت الأنظار كلها إلى عدنان لاستيضاح هذا الخبر المفاجئ . ومع وجود صورة لخليج سان فرانسيسكو كخلفية لوجهه المبتسم الذى بدت عليه علامات السعادة ، رجع عدنان إلى الوراء مستنداً إلى مقعده وحاول بلا جدوى أن يمنع ابتسامة عريضة ظهرت على وجهه ، وقال «حسناً، ربما حان الوقت لتسمع هذا الخبر من مصدره الأصلى : إننى سأذهب إلى لبنان الشهر القادم لكى أتزوج» .

رد زوجى وأنا فى صوت واحد «مبروك !» . وسألته «من العروس المحظوظة ؟» ثم سألت نفسى عما حدث لصديقة عدنان الأمريكية ، ليزا ، وهى فتاة بدأت عملها لتوها كمصممة للرسوم البيانية على الإنترنت . ورد «تقصدين ليلى كرم . إنها شقيقة زوج ابنة عمى ريما . وقد التقيت بها خلال نزهة عائلية فى جبال الشوف (منطقة جبلية فى جنوب - وسط لبنان) ، بالقرب من القرية حيث اعتادت أسرتها العيش هناك قبل نشوب الحرب والمذابح التى وقعت فى عام ١٩٨٣ ، وبعدئذٍ ذهبت لرؤيتها مع بعض بنات عمى الأخريات بعد ذلك بفترة قصيرة . وهى فتاة لطيفة وبارعة حقًا وبلغت الآن السادسة والعشرين من عمرها ، كما أنها طاهية ماهرة !

وخلال الأسبوع الأخير الذى قضيته فى بيروت ، اصطحبنى عمر وسيم إلى منزل أبيها . وهناك تقدمت رسميًا للزواج منها ، وبعد أن فرغنا من الحديث عن تفاصيل تأثيث بيت الزوجية والاتفاق على المهر ، احتفلنا بالخطبة فأقمنا وليمة عشاء كبيرة والتى تحملت أنا نفقاتها ، وهو أمر معتاد ويتوافق مع التقاليد الاجتماعية فى مثل هذه المناسبات . وسوف نتزوج فى نهاية أكتوبر حيث نعقد القران فى كنيسة أسرتى ، وهى الكاتدرائية (الكاثوليكية اليونانية) التى تقع أعلى مدينة جونيه. وبالطبع سوف تتسلمان دعوة رسمية من أسرة ليلى . وهى أسرة مسيحية مارونية ، مثل أسرة والدتى . وآمل أن يكون هناك أساس جيد حتى تبدأ ليلى ووالدتى فى إقامة علاقة طيبة بينهما ، لأنه بعد انقضاء شهر العسل ، سوف أُحضر ليلى إلى هنا للعيش معى ومع والدتى فى منزل اشتريته لتوى بالقرب من منطقة بالو ألتو .

وسأل جورج «هل ستعمل ليلى هنا؟» فرد عدنان «أولاً سوف يتعين عليها تعلم الإنجليزية ، إذ إنها تعلمت فى مدارس فرنسية . وقد تساعدنى أنا وخالد خارج المكتب، حيث إنها حاصلة على درجة البكالوريوس فى المحاسبة ، بيد أننى أعتقد أننا سوف نركز اهتمامنا على البدء فى تكوين أسرة فى المستقبل القريب» .

« يبدو أن الفتى فى عجلة من أمره !» هذا ما قاله خالد وهو يغمز إلىّ وإلى جورج بعينيه وقبل أن يقول مازحاً «هاى عدنان كنت أفكر لتوى فى مشكلة محتملة : ليلى مارونية ، فهل تعرف أننى أفضل أصدقائك وشريكك فى العمل ، مسلم فلسطينى من القدس ؟ . وربما أنها لن تسعد بذلك» . واستنكر عدنان سؤاله رافضاً إياه وهو يبتسم ويرفع يده مجيباً انظر ! طالما أنك لست من الدروز ، أعتقد أنها لن تعبأ بذلك .

وبعد أن أحضر لنا النادل قطعاً من البقلاوة ، التفتُ إلى عدنان وقلت «إننى سعيدة فعلاً من أجلك ، ولكن يجب أن أعترف بأن هذه مفاجأة كبيرة . عفواً لتطفلى ، ولكن ماذا حدث لليزا ؟» . أخذ عدنان نفساً عميقاً ، ووضع طبق الحلوى الفارغ بجانبه ، وأشعل سيجارة «أناس كثيرون فوجئوا بهذا الخبر، وسألنى العديد منهم السؤال ذاته . والقصة كلها تبدو معقدة ؟» ، وأظن أنها بدأت كلها فى شهر أبريل من هذا العام . فذات صباح ، استيقظت من نومى وتذكرت أن عشرين عاماً مرت منذ أن قتل والدى على يد قناص فى بيروت خلال العام الثانى من الحرب الأهلية. وعندئذ أدركت أننى فى

نفس السن الذى كان قد بلغه أبى عند مقتله آنذاك وهو السادسة والثلاثين . وعندما كان فى نفس سنى ، كان متزوجاً بالفعل منذ ١٦ عاماً ، أى فى سن العشرين ، وكان لديه ابناً فى الخامسة عشرة وابنتين صغيرتين . وذلك كله جعلنى أدرك كم انقضى الزمن سريعاً ، وبدأت أتسائل عن الهدف من وجودى فى الحياة. حسناً ، فأنا أحمل درجة الماجستير فى برمجة الكمبيوتر ، وأشكر الله أن لدى عملاً ناجحاً ، ولكن إذا ما عرفت أننى سأموت غداً ، فسوف أندم ندماً كبيراً على أننى لم أرزق بعد بأية ذرية .

«وفى وقت متأخر من ذاك اليوم ، استمعت إلى نشرة الأخبار فى الإذاعة وعرفت أن الطائرات الإسرائيلية قد قصفت بيروت لأول مرة منذ ١٤ عاماً . وفى ذلك المساء، كنت وليزا فى حفل عشاء ، وكنت فى حالة نفسية سيئة لتذكرى وفاة أبى ولسماع أنباء الهجوم على بيروت . ولاحظ ضيوفى أننى لم أكن سعيداً كعادتى . وعندما حاولت أن أشرح لهم أن سبب تعاستى هو ما سمعته من نشرة الأخبار عن الغارات الجوية الإسرائيلية على بيروت ، كان واضحاً أنهم لم يعيروا بالاً لذلك ولم يبدوا أى تعاطف معى . والأسوأ من ذلك أن إحدى زميلات ليزا ، والتى تبين لى فيما بعد أنها كانت تظن أننى مكسيكى ، قالت حسناً ، ذلك هو الشرق الأوسط . فماذا تتوقع غير ذلك؟ إن كل هؤلاء الأشخاص هناك ليسوا سوى مجموعة من القبائل المتناحرة .

وبعد أن انصرف الضيوف من حفل العشاء ،؟ أخذت أنا وليزا ننظف المكان ونعيد ترتيبه فأخبرتها أن ما قالته زميلتها عنى ضايقنى فعلاً . ولكنها قالت إننى أعانى من حساسية مفرطة . وأبلغتها أيضاً بأن الوقت قد حان لكى نتزوج وننجب أطفالاً ، لأن اسم العائلة وخطها سوف ينقرضان إذا لم أخلدهما . فوالدى توفى كما ماتا ابنا عمه أثناء الحرب ، وأنا الابن الوحيد لأبى وكل أشقاء أبى لديهم بنات فقط . وبعدما شرحت موقفى على هذا النحو ، نظرت إلىّ ليزا كما لو كنت مجنوناً ، فقالت آمل أن تجد مرشحة أخرى إلى جانبى كى تنجب لك أطفالاً ، لأننى لا أنوى التضحية بعملى من أجل إنجاب الأطفال وتربيتهم ، سواء الآن أم فى المستقبل ! «والحقيقة أن هذا الحوار كان بداية النهاية لعلاقتنا . وبعد أسبوعين ، وعندما توقفت المعارك فى لبنان ، اتصلت بأعمامى فى بيروت وأبلغتهم أنه من المتوقع أن أقوم بزيارة طويلة فى يوليو» .

وفى هذه اللحظة ، فإن خالد ، الذى كان يبدى تعاطفه مع عدنان وهو يستمع إلى حديثه ، نظر إلىّ وقال «رغم أننى لا أعرف ما هو شعور المهاجرين الآخرين إلى الولايات المتحدة ، ولكن إذا كنت من المهاجرين العرب فى الولايات المتحدة ، فمن المؤكد أنك لا تستطيع أن تنسى موطنك الأصلى . ففى كل يوم يمر ، فإن ما تسمعه فى نشرات الأخبار ، أو ما يطرحه الآخرون من أسئلة عن اللغة التى تتكلمها ، أو ما تسمعه من ملاحظات وتعليقات فى محطات التليفزيون أو فى الأفلام السينمائية عن تصوير العرب على أنهم إرهابيون ، كل ذلك سوف يذكرك دائما بهويتك وبحقيقة نشأتك وأصلك . إذ أنا وعدنان كنا مواطنين أمريكيين لما يزيد عن عشر سنوات ، وهذه دولة عظيمة قد أتاحت لنا فرصًا عديدة والتى ندين لها بالفضل والعرفان بالجميل ، ولكن قلبه كان دائمًا فى بيروت ، بينما كان قلبى فى القدس . إذ لا يمكنك أبدًا أن تنسى وطنك وشعبك وأرضك فأفراح شعبك هى أفراحك ، وحين يتألمون ويعانون ، فإنك تتألم وتعانى مثلهم . وفى أى وقت تستطيع أن تفعل شيئًا لهم سواء هنا أم عند عودتك إلى أرض الوطن ، فإنك لا تتردد . وقد أدرك عدنان الآن هذا الأمر ، ومثلما أدركته أنا خلال الانتفاضة . ولابد أن تستمع هنا أيضًا إلى قصة النادل، حسين ، وكيف كان شعوره أثناء حرب الخليج . وهو شيعى من جنوب العراق، ورغم ذلك فإنه يضمر الكراهية لصدام حسين ، ولقد استشاط غضبًا وهو يرى الولايات المتحدة وحلفائها يهاجمون العراق بوحشية ، وعندئذ شعر وكأن تراث بلاده كله وتاريخها وحضارتها هى التى تعرضت لهذا الهجوم . وذات مرة ، تعرض حسين للضرب على أيدى بعض مراهقين أمريكيين بدءوا شجارًا معه داخل حفلة أثناء الحرب . ومنذ ذلك العام الذى شهد هذا الحادث ، والشاب المسكين يعانى من أزمة هوية حقيقية » .

وأخذت لحظات من الصمت تغلف المائدة التى كنا نجلس عليها بينما راح عدنان يطيل النظر إلى فنجان القهوة أمامه . وفى هذه الأثناء ، قطع خالد لحظات السكون هذه وهو يقول لنا مبتهجًا ، حسنًا ! الآن سوف نخبركم كيف أننا ، وبمساعدة أسرة ليلى فى سوريا وأقاربى فى إسرائيل ، سنغزو سوق ألعاب الكمبيوتر فى الشرق الأوسط الجديد . وراح عدنان ينظر إلى جورج ، الذى كان يرفع حاجبيه فى دهشة وفضول وقال عدنان إذا استطاعوا التوصل إلى اتفاقية للسلام فى الشرق الأوسط فى أى وقت،

فسوف أبدأ أنا وخالد فى تشغيل شبكات الكمبيوتر فوراً . إن بعض أبناء خاله من المواطنين الفلسطينيين الذين يعيشون فى مدينة الناصرة ، وأحدهم يعمل مبرمجاً للكمبيوتر وهو يفكر فى افتتاح متجر لبيع مستلزمات الكمبيوتر ومركز للتدريب . ووالدة ليلى أرمينية ، ويعيش معظم أفراد عائلتها فى سوريا ، وعلى الأخص فى حلب ودمشق ، حيث يدير هؤلاء عدداً من المكتبات ، ومما سمعته أن النشاط التجارى هناك قد شهد تباطؤاً خلال العامين الماضيين . لذا فأى شيء يمكن أن يكون منطقياً وطبيعياً أكثر من تأسيس شبكة تسويق وتوزيع إقليمية بالمشاركة مع ابن خال خالد فى الناصرة وابن خال ليلى فى سوريا؟ . وإذا ما سارت الأمور سيراً حسناً ، سيكون بوسعنا جمع ثروة طائلة ، وأضاف خالد وعندئذ سنربح الملايين من خلال بيع شركتنا إلى واحدة من الشركات متعددة الجنسيات العملاقة التى تتوق إلى أن يكون لها موطئ قدم فى الشرق الأوسط بعد توقيع معاهدة للسلام فى المنطقة . وإذا حالفنا الحظ، يمكن لكلينا التقاعد قبل بلوغ الخمسين ، والعودة إلى القدس ، وبيروت ، وبناء منازل جميلة ، وتربية أطفالنا فى بيئة ثقافية بها مثل وقيم أسرية أقوى من تلك التى نجدها هنا فى المجتمع الأمريكى .

وقال جورج وهو يبتسم «إن شاء الله !» . ورد عدنان وخالد معًا «إن شاء الله!» ، والحقيقة أنه على الرغم من أن هذا الحوار بين الأصدقاء كان يجرى فى الولايات المتحدة ، أى بمسافة تبعد بمقدار نصف العالم عن الشرق الأوسط ، إلا أنه ينطوى على بعض الأفكار المرتبطة بالحقائق الاجتماعية ، والثقافية ، والسياسية ، والاقتصادية السائدة ، وهى حقائق ترتبط بدورها بمنطقة مهمة ولكنها مضطربة فى هذا الجزء من العالم المعاصر . وتظهر قصة عدنان وتعليقات خالد الدور الحاسم لذى تلعبه علاقات القرابة والنسب والزواج فى مجتمعات الشرق الأوسط كما تسلط الضوء على الديناميكيات السياسية والسيكولوجية للمسألة العرقية فى المنطقة . وتلقى مشاريعهما التجارية المستقبلية الضوء أيضًا على الأنماط الاقتصادية والتجارية والهياكل الطبقية الاجتماعية التى يتميز بها الشرق الأوسط ، وتشير ملاحظة خالد عن مصالح الشركات متعددة الجنسيات إلى المدى الذى ترتبط عنده منطقة الشرق الأوسط بشدة ، أو ربما يحدث ذلك قريباً ، بالأسواق العالمية المعقدة والمتشابكة والتى يمكن أن يكون تأثيرها العميق على النمط أو المنهج الذى سوف يسلكه سكان هذه

المنطقة فى حياتهم فى غضون القرن القادم ، سواء أكانوا من العرب ، أو الأتراك ، أو الإيرانيين ، أو اليهود.

ويستخدم هذا الفصل منظوراً أنثربولوجياً لعلاقات القرابة ، والروابط العرقية ، والطبقات الاجتماعية فى الشرق الأوسط المعاصر وذلك لبيان وإيضاح العلاقات بين هذه الجوانب الثلاثة للواقع الاجتماعى وأيضاً ارتباطاتها بالمؤسسات والاتجاهات الأخرى . وسنبحث كيفية استخدام الأفراد والجماعات لعلاقات القرابة والهوية العرقية للوصول إلى شبكات العلاقات والروابط الفرعية ووسائل المساعدة ، وليس ذلك فقط ، ولكن أيضاً باعتبار مثل هذا الأمر مهماً لصياغة مفهوم أو معنى محدد فى مواجهة التغيرات السريعة والمتلاحقة ، والقيم الثقافية والحضارية المتعارضة ، والشكوك التى ظلت بمثابة السمة الغالبة طوال القرن التاسع عشر . ورغم أن الضغوط الاقتصادية وانعدام الاستقرار السياسى ليسا من المؤكد أنهما فريدان من نوعهما بالنسبة للشرق الأوسط ، فإنه يمكن القول بأن الاستراتيجيات التى اختارتها شعوب هذه المنطقة للاستجابة للتحديات المعاصرة تعتمد على خليط خاص ومزيج محدد من التجارب التاريخية ، والتقاليد الثقافية ، والقيم الدينية ، ونماذج للتنظيم الاجتماعى والاقتصادى، والتى تميز كلها الشرق الأوسط عن غيره من الأنظمة الاجتماعية الثقافية الأوروبية ، والآسيوية ، أو الأفريقية .

التحديات الدائمة واستراتيجيات التكيف : السياق البيئى والتاريخى :

ثمة حقيقة مفادها أن شعوب الشرق الأوسط اعتادت العيش فى بيئات قاسية وغير مستقرة سواء أكانت هذه البيئات طبيعية ، أم اقتصادية ، أم سياسية . إذ إن مجتمعات الشرق الأوسط ، التى تقطن منطقة بيئية تتسم بوجود أراضٍ قاحلة جدباء ، وأودية منحدرة ، وجبال وعرة ، وأنهار قليلة ، وأمطار نادرة ، وتربة زراعية فقيرة ، لم يكن لديها ، تقليدياً ، من خيار سوى أن تجمع وتربط مجموعة متنوعة من سبل العيش الصعبة ، من قبيل الحياة البدوية التى تعتمد على الرعى ، والزراعة على نطاق محدود ، والتجارة ، وصيد الأسماك ، وذلك كمصادر للعيش وكسب الرزق . كما أن الجماعات التى تقطن فى هذه المنطقة القاحلة استطاعت أن تطور أنماطاً ثقافية متميزة ومؤسسات اجتماعية سياسية استخدمتها فى التقليل من الصعوبات الناجمة عن

ظروفها وأوضاعها البيئية ومضامين بعض أساليبها المتبعة في مضمار الإنتاج الاقتصادى . وحتى يومنا هذا ، مازالت شعوب الشرق الأوسط معروفة جيداً بارتباطها الشديد وبولائها للأسرة ، وتمسكها بواجبات الضيافة ، والتوسط في الصراعات والمنازعات ، وبالانتماء إلى جماعات فعالة ومرنة قائمة على علاقات القرابة وروابط النسب ، مثل القبيلة والعشيرة ، واللتان حتى وقت قريب ، كانتا تؤديان معظم المهام الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية للمجتمعات في ظل غياب حكومات مركزية تابعة للدولة .

وعلى الرغم من أن الإمبراطوريات مترامية الأطراف والكونفيدراليات القبلية الشاسعة في الشرق الأوسط قد تلاشت وحلت محلها الدول - الأمم ذات الحدود الواضحة في أوائل هذا القرن ، وحتى برغم أن الأغلبية الهائلة من الشعوب والمجتمعات البدوية قد شهدت تحولات اجتماعية جذرية من خلال استيطانها القرى والمدن حيث ، وبفضل أساليب الرى الحديثة ، يمكنها العيش والحصول على مصدر الرزق كمزارعين ، وعمال مهرة ، أو حرفيين ، إلا أن الحياة اليومية في الشرق الأوسط الحديث مازالت تموج بالصعوبات والعقبات العديدة التي تعد خطيرة بالنسبة إلى البعض . والواقع أن الشرق الأوسط المعاصر منطقة غنية بالتراث الحضارى والإمكانات البشرية الهائلة . وهى أيضًا منطقة تموج بالتقلبات والاضطرابات السياسية، والتفاوت في المستويات الاقتصادية ، وقابلية التعرض للأفكار البيئية . وعلى الرغم من حقيقة أن الأنظمة البيروقراطية الحكومية لمعظم دول المنطقة تعتبر أنظمة محصنة جيداً ومدعومة بقوة من الحكومات ، فإن القليل فقط منها قد نجح في توزيع الموارد توزيعاً عادلاً ، وتحقيق العدالة بصورة متكافئة ، وحماية وتقدم مصالح الأغلبية من السكان ، ومن ثم كسب التأييد الجماهيرى والمشاركة الشعبية من خلال وسائل مشروعة . وفي هذا الإطار ، فإن معظم دول الشرق الأوسط تعمد إلى خدمة المصالح الأساسية للنخبة المحدودة بدلاً من خدمة الجماهير وتحقيق المصلحة العامة (شرابى ، ۱۹۹۰ ، طيبى ۱۹۹۰ ، بركات ۱۹۹۳ ، مكية ، ۱۹۹۳) .

والحقيقة أن الأغلبية الكاسحة من سكان المنطقة لا تشارك في عمليات صنع القرارات السياسية والاقتصادية والتي من المؤكد أنها تؤثر إلى حد كبير على حياتهم

وحياة أطفالهم . ومن ثم ، فإن دول الشرق الأوسط عادة ما تحكم سكانها بدلاً من أن تسوسهم وتتولى إدارة شئونهم ، بل إنها تلجأ إلى أساليب التحايل والمناورة ، والحظوة لتحقيق السيطرة والإذعان . وتبعاً لذلك ، فإن شعوب الشرق الأوسط تعلمت أن تضع ثقتها فى هؤلاء الأشخاص الذين تعرفهم جيداً والذين يشاركونها المصالح ، والأهداف ، والخصائص والسمات نفسها ، ومن هؤلاء أقاربهم ، وجيرانهم، وأصدقائهم ، وأعضاء جماعاتهم العرقية ، والدينية ، واللغوية . وليس ثمة شك فى أن نموذج الدولة الوطنية فى الشرق الأوسط ، وهو نظام اجتماعى سياسى جديد فرض عليها من الخارج ، لا يزال عاجزاً عن أن ينال النوع أو الدرجة نفسهامن التأييد ، والولاء ، والشرعية والتى حظيت بهما دائماً النماذج الاجتماعية التى كانت قائمة على علاقات القرابة وروابط النسب . وحتى بعد انقضاء نصف قرن على ظهور الدولة الوطنية فى المنطقة ، فإن علاقات القرابة وروابط النسب هذه (أو العلاقات القائمة على نمط القرابة) ، تسهم فى امتداد الحياة الشخصية ، والاقتصادية، والسياسية للأفراد إلى نطاق لا يمكن تصوره تقريبًا بالنسبة لأى شخص قد نشأ فى أوروبا الغربية أو أمريكا الشمالية .

وعلى سبيل المثال ، فإن تفاعلات الأفراد مع أجهزة الدولة والأنظمة البيروقراطية الحكومية تتم أساساً من خلال علاقات العميل – صاحب العمل والقائمة على روابط القرابة الحقيقية أو الزائفة . والعضوية فى أحزاب سياسية ، أو انتماءات عرقية وطائفية (كانينجهام وسارابار ١٩٩٣) . فى معظم مجتمعات الشرق الأوسط ، نجد أن معظم الخدمات الحكومية متاحة فقط لهؤلاء الأشخاص من ذوى الاتصالات والعلاقات الشخصية (أو ما يطلق عليهم أصحاب الواسطة فى اللغة العربية ، أو أصحاب البروتكتزيا باللغة العبرية) . والواقع أن المواطنة ، وهى إحدى تصنيفات أو فئات الهوية والتى تستقى أهميتها من صلة أو علاقة كل فرد بالدولة الوطنية ، الواقع أن صفة المواطنة هذه لها وزنٌ أو ثقل وجدانى ، وأخلاقى ، وقانونى ، وسياسى فى الشرق الأوسط أقل بكثير مما تعنيه تصنيفات وفئات أخرى للهوية مثل الهوية العرقية، أو الدينية ، أو هريات القرابة .

والواقع أن فهم الأسباب الكامنة وراء تشبث مواطني الدول الوطنية في الشرق الأوسط ، وعلى نحو دائم ومستمر ، بالمؤسسات الاجتماعية والسياسية التي سبقت ظهور الدولة ، مثل الأسرة ، والنسب ، والقبيلة ، أو الطائفة ، وأصل العائلة ، (أي القرابة ، والانتماءات العرقية ، والدينية) سوف يساعدنا في فهم أسباب الاضطرابات فيما بين الدول والعداوات الداخلية التي تنفجر داخلها أو فيما بينها ، وذلك بطريقة أكثر موضوعية من تلك التي اتبعها ضيف عدنان على العشاء . إن اكتشاف الكيفية التي تتعامل من خلالها شعوب الشرق الأوسط مع أواصر القرابة ، والانتماءات العرقية ، وعلاقات العميل – صاحب العمل من شأنه أن يمنحنا تقديراً جديداً للوسائل الفعالة والخلاّقة التي قد طورها الأفراد والجماعات من أجل البقاء على قيد الحياة والاستمرار في ظل بيئة اجتماعية اقتصادية تنطوي على تحديات في الوقت الذي تعد فيه العدة لمجابهة ظروف طارئة في المستقبل . وحتى يمكن أن نحلل العلاقة المتداخلة أو التفاعلية لأواصر القرابة ، وروابط العرقية ، وتشكيل الطبقات الاجتماعية في إطار الشرق الأوسط المعاصر ، دعونا أولاً نستعرض بعض وجهات النظر والآراء الأنثربولوجية الرئيسية حول هذه الفئات الثلاث ، والتي تؤثر تأثيراً عميقًا على الأنشطة اليومية وعلى خيارات شعوب الشرق الأوسط .

علاقات القرابة :

من النظرة الأولى ، يبدو واضحًا أن علاقات القرابة ظاهرة تحدث بصورة طبيعية، وليست ظاهرة ثقافية . فقبل كل شيء يجب الإشارة هنا إلى أن كل فرد حي لديه (أقارب) بالمصاهرة والنسب ، تربطهم به صلات الدم وربما الزواج أيضًا . والفطرة السليمة تخبرنا بأن العلاقات البيولوجية سمة أساسية تشترك فيها البشرية جمعاء ، بل إن «أطفال الأنابيب» لهم آباء وأمهات بيولوجيون ، وبغض النظر عما إذا كانوا قد التقوا بهم في أي وقت أم لا . ولذا يعكف علماء الأنثربولوجيا دائمًا على دراسة وبحث الافتراضات السهلة التي تؤكد على الفطرة السليمة وبدلاً من تقييم الظواهر الإنسانية وفقًا لخصائصها وسماتها الظاهرية الواضحة ، يركز علماء الأنثربولوجيا في أبحاثهم على الكائنات البشرية وسلوكياتها ، سواء من حيث الشكل أو المضمون ، أي من كل زاوية ممكنة وفي كل سياق ذي صلة بذلك ، في محاولة لفهم كلية وشمولية التجربة الإنسانية وسلوكيات البشر . وهدف هؤلاء من وراء ذلك هو

شرح وإيضاح المفاهيم الرئيسية ، والاتجاهات والمواقف ، والقيم والمثل التى تؤثر خيارات الأفراد وتفاعلاتهم . وهذه المعانى ليست مرئية ، إذ ينبغى إدراكها وفهمها من خلال مراقبة ورصد السلوك الإنسانى بمرور الوقت . فبينما يستخدم علم الجينات الوراثية الحمض النووى (DNA) لتحديد علاقات القرابة وروابط النسب ، نجد أن علم الأنثربولوجيا يهتم أساسًا ، وفى آن واحد ، بالأبعاد البيولوجية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والأخلاقية ، والسياسية لعلاقات القرابة . والحقيقة أن أحد التعريفات الأنثربولوجية لمفهوم القرابة والنسب هو العلاقات البيولوجية ، التى يتم تعريفها ثقافياً (كيسنج ١٩٧٥) . وهكذا فإن عالم الأنثربولوجيا الذى يتحقق من نظام القرابة لمجتمع بعينه سيكون أقل اهتماماً باكتشاف الروابط والصلات الجينية الحقيقية بين الأفراد من اهتمامه بالتأكد من كيف يتصور أفراد هذا المجتمع روابط القرابة وما هو المدى الذى تشكل عنده هذه المفاهيم الثقافية التفاعل الاجتماعى الحقيقى بين الأفراد الذين يعتبرون أنفسهم أقرباء وأنساب .

ورغم أن عملية التناسل الجنسى وظاهرة التوالد من القضايا الإنسانية الكونية ، فإن بعض المجتمعات الإنسانية فقط هى التى تفسر وتقدر قيمة الروابط والعلاقات البيولوجية بطريقة دقيقة وصحيحة . وفى المجتمعات التى تتميز بوجود أنظمة قرابة ونسب ثنائية ، مثل دول : أمريكا الشمالية ، فإن الأفراد يدركون ويقدرون قيمة روابطهم بأقاربهم سواء من جانب الأم أو من جانب الأب على أساس متكافئ . وفى مجتمعات أخرى تصنف على أنها مجتمعات ذات أنظمة أمومية (والتى يرجع فيها إلى الأم فى النسب والوراثة) فإننا نجد أنه يتم الاعتراف فقط بأقارب الفرد من الأم فى الشئون الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية .

وفى أى مجتمع من مجتمعات أمريكا الشمالية ، يعتبر الأفراد أن الأطفال من إخوة وأخوات أمهم (أبناء وبنات الخالة أو العمة) يحتلون نفس المكانة الاجتماعية التى يحظى بها الأطفال من إخوة وأخوات أبيهم (أى أبناء وبنات الخال أو العم) . وهناك مجموعة من المثل والقيم الثقافية توجه التفاعلات التى تحدث بين أبناء وبنات الخال والخالة أو العم والعمة فى مجتمعات أمريكا الشمالية (شنايدر ١٩٦٨) . وأبناء وبنات الخال أو الخالة وكذا أبناء وبنات العم أو العمة هم هؤلاء الأشخاص الذين تستمتع برؤيتهم ، وتشعر بأن هناك شيئًا ما يربطك بهم أقوى من الصداقة وإن يكن هذا

الارتباط ليس معقداً أو ملحاً مثل ذلك الارتباط القائم بين الإخوة والأخوات . وهناك عدد قليل جداً من الأشخاص فى أمريكا الشمالية ممن يميلون إلى الزواج من ابن أو ابنة الخال أو الخالة أو العم أو العمة . وفى الحقيقة ، فإن مثل هذا الزواج يعتبر غير قانونى فى بعض الولايات الأمريكية .

وفى دول منطقة الشرق الأوسط ، على أى حال ، يتزوج الأشخاص من أبناء وبنات الخال أو الخالة أو العم أو العمة ، وفى بعض المناطق الريفية ، مازال يعتبر الارتباط بين الرجل وابنة عمه هو الخيار المفضل للزواج (مورفى وكاسدان ١٩٥٩ ، أبو لغد ١٩٨٦) . ويعتبر من أبناء وبنات الخال أو الخالة أو العم أو العمة فئات مختلفة على نحو متميز فى مجتمعات الشرق الأوسط . إذ إن الفرد فى هذه المجتمعات يتصرف بطريقة مختلفة تجاه ابنة خاله أو ابنة عمه ، كما أن نمط علاقته مع ابن خاله أو ابن عمه من المحتمل أن يكون رسمياً نوعاً ما ، ومتحفظاً فى حين أن علاقته مع ابن خالته أو عمته تتسم عادة بالعاطفة المتبادلة والمزاج .

ولقد لاحظ علماء الأنثربولوجيا الذين يعكفون على دراسة مجتمعات شرق أوسطية تفصل بينها مساحات جغرافية كبيرة مثل المغرب وإيران ، وجود خصائص وسمات أساسية لعلاقات القرابة فى المنطقة . إذ إن أنظمة القرابة وروابط النسب فى الشرق الأوسط ممتدة ، وتتبع النظام الأبوى ، وهرمية فى ترتيبها ، وتلتزم بالزواج من الأقارب أو الزواج اللحمى(باتاى ، ١٩٧١ ، جيرتس ، ١٩٧٩ ، بركات ، ١٩٦٣) . وتلعب الأسرة الممتدة والواسعة دوراً اقتصادياً ، وسياسيًا ، واجتماعيًا حاسمًا فى مجتمعات الشرق الأوسط . إذ إنه داخل هذه الأسرة ، تكون السلطة والاحترام من نصيب الرجال وأعضاء الأسرة الكبار من الجنسين ، والذين يتمتعون بقدر أكبر من النفوذ ، والهيبة ولديهم حقوق أكبر من تلك التى تتمتع بها النساء والأطفال من الجنسين داخل الأسرة ذاتها وذلك بالنظر إلى المكانة العليا التى يتبوأها هؤلاء الكبار فى منظومة الترتيب الهرمى للأسرة . والواقع أن الأسرة فى مجتمعات الشرق الأوسط ليست هيكلاً قائمًا على المساواة بين أفرادها . فالأدوار التى يضطلع بها الرجال والنساء تعتبر مكملة لبعضها البعض ، وهى أدوار تكميلية وليست متساوية . والرجال هم صناع القرار الرئيسيون ، وذلك على الرغم من أن النساء يمارسن سلطاتهن ونفوذهن بقدر أكبر داخل الأسرة من وراء الكواليس (أبو لغد ، ١٩٨٦ ، جيرتس

١٩٧٩ ، موندر ، ١٩٩٥ ، بيثت ، ١٩٩١ ، صايغ ، ١٩٩٤ ، سنجرمان ، ١٩٩٥) . وتقليدياً ، كانت مسئولية الرجل ، ومازالت ، تتمثل فى القيادة ، والحماية ، وتوفير المال لأسرته. أما الدور الرئيسى للمرأة فقد كان يتمثل ، ولايزال أيضاً ، فى توفير الراحة للبيت ، والإشراف على كافة شئون البيت ، والإنجاب وإعداد الطعام للأطفال .

والحقيقة أن الأدوار التى يضطلع بها الرجال والنساء فى الشرق الأوسط ، وكما هو الحال فى بقية مناطق العالم ، تشهد تغييرات سريعة نتيجة لارتفاع معدلات التعليم ، والتمدن أو التحضر السريع ، والعلاقات الاقتصادية الجديدة ، وتوظيف النساء . ورغم ذلك كله ، مازال الرجال والنساء فى المجتمعات الشرق أوسطية يعطون قيمة أكبر وأعلى ليس لإنجازاتهم الشخصية ، وإنما لانتماءاتهم الأسرية بوجه عام ولأدوارهم كوالدين لأسر جديدة بشكل خاص . وبعبارة أخرى ، فإن أدوار الرجال والنساء كآباء وأمهات أكثر أهمية وأكبر فى قيمتها من أى دور آخر يمكنهم القيام به . ولا يعتبر الشبان فى معظم مجتمعات الشرق الأوسط يافعين وبلغوا مرحلة النضج إلا بعد أن يكونوا قد تزوجوا وصاروا آباء وأمهات . وعادة ما يسأل الغربيون الذين يزورون الشرق الأوسط عن حالتهم الاجتماعية ، كما أن النساء اللائى لم يتزوجن بعد أو اللائى تزوجن ولكن لم ينجبن ويصبحن أمهات بعد سن الخامسة والعشرين ، سوف يجدن أنهن مضطرات فى أحيان كثيرة إلى شرح السبب أو تقديم تفسير لبقائهن دون زواج أو لعدم إنجابهن أطفالاً إلى مضيفيهم المهتمين بمثل هذه الأمور من الشرق أوسطيين . (فيرنيا ، ١٩٦٩ ، سنجرمان ، ١٩٩٥) .

وثمة سمة أو خاصية ثقافية تتميز بها غالباً أنظمة القرابة الشرق أوسطية وهى ممارسة زواج الأقارب (الزواج اللحمى) ، أو الزواج بين الرجال والنساء الذين ينتمون إلى الجماعة أو الأسرة أو القبلية نفسها . وكما سبقت الإشارة ، فإن الشكل المفضل للزواج فى المجتمعات الشرق أوسطية هو ذلك الذى يتم بين رجل وابنة عمه، وهو ما سنشير إليه اختصاراً هنا بالحروف الإنجليزية الثلاثة FBD . ونظراً لأن أنظمة القرابة فى الشرق الأوسط أنظمة أبوية بالدرجة الأولى ، أى أنها تقوم على روابط القرابة من ناحية الأب وكذا على تتبع واقتفاء أثر النسب أو الأصل للأقارب من جهة الأب ، فإن الرجل وابنة عمه (FBD) يعتبران دائماً أعضاء من درجة القرابة الأبوية نفسها. وفى إطار علم المصطلحات الأنثربولوجية ، فإن أبناء أو بنات العم ضمن هذه

الفئة الاجتماعية ، وفى سياق علاقاتهم ببعضهم البعض ، يعرفون بأنهم أبناء أو بنات عم متوازون . إذ إن بنات خال الرجل لا ينتمون إلى نفس درجة القرابة من ناحية الأب ، أو القرابة الأبوية ، ويشير علماء الأنثربولوجيا إلى هذه الفئة من أبناء وبنات العم على أنهم أبناء وبنات عم متوازون .

ويمكن أن تتم زيجات بين كلتا الفئتين من أبناء وبنات العم فى مجتمعات الشرق الأوسط ، ولقد ذكر العديد من الباحثين أن زواج الأقارب (الزواج اللحمى) يشير أكثر إلى أفضلية أيديولوجية أكثر مما يشير إلى ممارسة فعلية . فعلى سبيل المثال ، اكتشف عالم الأنثربولوجيا اللبنانى فؤاد خورى ، لدى إجراء بحث بين السكان المسلمين فى بيروت فى أواخر الستينيات ، أن نسبة ١١ ٪ فقط من حالات الزواج التى شملتها عينة البحث كانت تتم بين الأقارب (FBD) (خورى ، ١٩٧٠) . وأشار البحث الذى أجريته بين المواطنين الفلسطينيين فى مدينة الناصرة فى عام ١٩٩٢ إلى أن أقل من ٥ ٪ من أفراد العينة التى شملت ٣٤١ أسرة كانوا من الأزواج والزوجات الذين كانوا فى الأصل أبناء وبنات عم متوازون .

ومع الأخذ فى الاعتبار انتشار هجرة الأيدى العاملة وعملية التمدن والتحضر التى تتزايد بسرعة فى المنطقة ، فإنه يمكن القول بأن العائلات الكبيرة المؤلفة من الأجداد، والآباء ، والإخوة ، والأخوات ، وأبناء وبنات العم ، والخالات ، والأخوال الذين يعيشون تحت سقف واحد تعتبر أقل شيوعًا الآن . وفى المدن الرئيسية فى الشرق الأوسط ، حيث يعيش أغلبية السكان ، اكتشف علماء الأنثربولوجيا أن الروابط بين أعضاء الحى الواحد ، أو الطائفة ، أو الجماعة العرقية ، والطبقة الاجتماعية يشكلون الأغلبية الكاسحة فى حالات الزواج . ومن ثم ، فإن شكلاً ما من أشكال زواج الأقارب الاجتماعى الثقافى ، ما لم يكن العائلى ، مازال مستمراً فى الشرق الأوسط المعاصر لأن الأسر تفضل أن يتزوج أبناؤهم وبناتهم من أفراد يفضل أن تكون خلفياتهم الاجتماعية وروابطهم وأنسابهم العائلية معروفة لدى هذه الأسر (الأخرس ، ١٩٧٦ ، سنجرمان ، ١٩٩٥) . وكمثال ، فإن أسرة خطيبة عدنان قد وافقت فى الحال على عرضه بالزواج من ابنتهم ، وذلك على الرغم من قصر فترة التعارف بين عدنان وليلى. ومثل هذه الموافقة ما كان يمكن أن تتم لو كان عدنان عضواً فى عائلة ليلى .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن أنماط زواج الأقارب ، والتى تمارسها بضع ثقافات خارج الشرق الأوسط ، لا تنبع من المعتقدات الثقافية الغربية والدخيلة ، أو من عقلية أو طريقة تفكير خاصة ، أو من الالتزام المطلق بتقاليد قديمة ، وإنما ينبع من الرغبة فى توثيق وتعزيز تضامن الجماعة . ويعتبر زواج الأقارب بمثابة استراتيجية للاحتفاظ بولاء الأفراد والتزامهم ، وأيضاً بثرواتهم (سواء فى شكل ثروة العروس ، أو ممتلكات وعقارات إنتاجية ، أو أشياء موروثة) ، داخل محيط الأسرة ، ومثل هذه الرغبات والاستراتيجيات تعتبر مؤشرات لتجربة تاريخية طويلة للندرة الاقتصادية ، والظروف البيئية ، القاسية ، والشكوك السياسية ، والمنافسة الحادة على الموارد المحدودة فى هذه المنطقة الشاسعة شبه القاحلة . والواقع أن التفاعل فيما بين هذه العوامل البيئية ، والسياسية ، والاقتصادية قد أفرز ، فى أوقات معينة ، مناخاً من عدم القدرة على التنبؤ وانعدام الثقة فى مجتمعات الشرق الأوسط (شنايدر ، ١٩٧١ ، ميكر، ١٩٧٩) .

ومن خلال فحص ودراسة الطبيعة الأبوية لأنظمة القرابة وروابط النسب فى مجتمعات الشرق الأوسط ، فإنه لابد لنا وأن ننظر إلى ما وراء ميدان المخاوف المحلية للأسرة بشأن استخدامات محطات الطاقة النووية إلى المجال العام الذى يغطى الاهتمامات السياسية والاقتصادية للمجتمع بأسره ، والتى تتأثر إلى حد كبير بالبيئات الطبيعية والإنسانية . وكما ذكر أحد علماء الأنثربولوجيا ، فإن علاقات القرابة هى النموذج السائد والمهيمن فى تكوين الجماعات الأكبر التى تعد أساسية ومحورية بالنسبة للحياة الاجتماعية والسياسية فى المجتمعات الصناعية . وتوفر علاقات القرابة الحلول للتحديات البيئية والتنظيمية فى المكان والزمان الملائمين (كيسنج ٨ : ١٩٧٥).

ولاشك أن اختيار النظام الأبوى كنموذج اجتماعى سياسى للتنظيم الأسرى فى مجتمعات الشرق الأوسط لم يكن اختياراً اعتباطياً ، وذلك لأن :

«الجماعات أحادية الأصل أو السلالة» (سواء أكانت جماعات أموية أم أبوية) كانت بمثابة نقطة تحول حاسمة فى التطور الذى شهدته المجتمعات القبلية . إذ وفرت تلك الجماعات حلولاً بشأن القدرة على التكيف فى الأوساط البيئية المختلفة لمشكلة

المحافظة على النظام السياسى وتحديد الحقوق الخاصة بالأرض والموارد الأخرى عبر الأجيال المتعاقبة (كيسنج ٢٤ : ١٩٧٥) .

وقد أدت الحقائق البيئية فى الشرق الأوسط إلى ظهور ثلاث أنماط أو أشكال رئيسية للعيش والحصول على مورد الرزق ، وهى : المجتمع البدوى ، والقرية ، والمدينة أو الحضر . ورغم أن مجتمعات البدو ، والمزارعين ، والتجار الذين يسكنون المدن ، والحرفيين كانت مختلفة ومتميزة تاريخياً عن بعضها الآخر ، إلا أنها كانت تعتمد على بعضها البعض من الناحية الاقتصادية . وكانت حياة تلك المجتمعات دائماً متصلة ومرتبطة ببعضها ، كما كانت مصالحها متضاربة ومتعارضة فى أغلب الأحوال (ابن خلدون ، ١٩٦٧ ، نيلسون ، ١٩٧٣) .

وفى ظل غياب إدارة حكومية مركزية قوية وفعالة ، يصبح من اليسير على القبائل المتجولة والمسلحة تسليحًا جيداً ، أى الائتلافات القائمة على النظام الأبوى والتى تدعى أصلها أو نسبها يرجع إلى جو أكبر مشترك أن تجتاح المستوطنات الزراعية الضعيفة وهى تمتطى صهوات إبلها الرهيبة لتستولى على محاصيل هذه المستوطنات، وماشيتها وما تملكه من موارد الثروة الأخرى باستخدام العنف والقوة . وقد تحول البعض من هذه القبائل البدوية إلى اتحادات قوية قادرة على استخراج أموال الجزية أو الإتاوة (أموال تدفع مقابل توفير الحماية للجماعات الضعيفة) من سكان القرى المقيمين والذين يعيشون فى منطقة واسعة جداً . وفى بعض الأحوال ، قام بعض الصفوة من سكان المدن والمناطق الحضرية بتشكيل تحالفات مع زعماء الاتحادات القبلية البدوية فى محاولة للحصول على أقصى قدر ممكن من الموارد الاقتصادية من الأرض والسكان فى المناطق الريفية ، ومن ثم تئول إليهم السيطرة على المقومات السياسية لمنطقة بأكملها (خورى وكوستنر ١٩٩٠ ، بركات ١٩٩٣) .

والحقيقة أن نمط حياة البداوة القائم على الرعى قد أخذ يتلاشى وبات نادراً على نحو متزايد كأسلوب للعيش قابل للتطبيق وذلك عقب ظهور الدول الوطنية التى أصبح لديها حدود جغرافية مغلقة وفى أعقاب التمدن المفاجئ والسريع وأيضاً فى أعقاب وصول سكان دول المنطقة إلى مستوى الطبقة العمالية (البروليتاريا) . ومع ذلك ، فإن الشعوب البدوية وتقاليدها قد تركت بصمة عميقة على ثقافة الشرق الأوسط ، ومجتمعاته ، وسياساته . ويفترض أحد علماء الأنثربولوجيا أن الشكل المميز لحياة

البداوة الرعوية والذى تطور فى هذه المنطقة شبه القاحلة يفسر فى الحقيقة التوجهات الثقافية المماثلة بصورة مذهلة والتى أمكن التعرف عليها فى مختلف أرجاء الشرق الأوسط على امتداد مساحته الشاسعة :

« فى منطقة الشرق الأدنى فى الوقت الحاضر ، ثمة تشابه لافت للنظر بين تقاليد العديد من الأشخاص فى أنحاء المنطقة . وتفسير مثل هذه الظاهرة بين أشخاص لم يكونوا متحدين سياسيًا أبدًا بطريقة مهمة ولم يكونوا قط جزءًا من نظام اقتصادى محكم وشديد التنظيم إنما يشير إلى أنه كانت هنالك قوة تعمل فى كل هذه المنطقة القاحلة ، بل وفى تلك المنطقة وحدها . وهكذا ، فإن انتشار الإسلام غالبًا ما يعرض على أنه التفسير المنطقى الوحيد لمثل هذا التجانس والتماثل بين سكان هذه المنطقة . بيد أن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو : هل يمكن أن يصبح الإسلام بحد ذاته متأصلاً وضاربًا بجذوره العميقة بين هذه الجموع المتباينة من السكان فى مثل هذه المنطقة الشاسعة ، ما لم يكن استجابة لتجربة حياتية شارك فيها كل هؤلاء السكان ؟

إنه مما لا شك فيه أن ظروف البيئة والمنطقة القاحلة هذه قد أدت إلى نشأة جماعات مستقلة صغيرة تعتمد فى حياتها على الرعى والتى كانت موزعة عبر الصحراء والسهول الخالية من الأشجار . وكانت الثروة المحلية لدى تلك الجماعات أكثر عرضة للأخطار نظرًا لأن استراتيجية التنظيم كانت مبعثرة كما أن الجماعات الصغيرة المستقلة فى إطار التحالفات السياسية الحمائية كانت أقل فاعلية . وهذا الوضع تعكسه جيدًا الشكل المتنافر الذى اتخذته التحالفات السياسية (ميكر ١٩٧٩ : ٧) .

إن الجماعات ذات النشأة أو السلالة الأبوية والتى وجدت فى كل مجتمع من مجتمعات الشرق الأوسط ، سواء المجتمعات العربية ، أو التركية ، أو الفارسية ، كانت لها أصولها منذ آلاف السنين كاستجابة للتكيف مع الظروف البيئية والسياسية المتداخلة فى المنطقة (شنايدر ١٩٧١ ، ميكر ١٩٧٩) . وتعتبر حياة البداوة الرعوية وسيلة شاقة للعيش ، فهى تتطلب وتحبط أيضًا العلاقات الاجتماعية المتداخلة والقائمة على التعاون . وتتطلب حياة البداوة الرعوية التنسيق الحذر والشديد للأنشطة المختلفة من جانب أناس مختلفين . وإذا لم تتم تلبية احتياجات قطعان الماشية ، فإن هذه

القطعان والمجتمع البشرى الذى يعتمد عليها فى حياته ومورد رزقه يمكن أن يختفيا ويتلاشيا بسهولة . وهكذا يكون لدى أعضاء المجتمع البدوى الرغبة فى السعى من أجل تحقيق المنطقة المشتركة ويبدون استعدادهم فى التضحية بأنفسهم إذا ما تطلب الموقف إظهار الشجاعة والسلوك السخى الذى ينم عن الشهامة . بيد أنه بظروفهما البيئية ، ينبغى أن يكون الأشخاص أنانيين وحذرين فى بعض الأحيان حتى يمكنهم البقاء على قيد الحياة . والواقع أن هذه الحقيقة تضع أعباء ثقيلة على العلاقات فيما بين الأشخاص ، لأنه سوف يتعين على كل فرد عندئذ أن يفكر أولاً فى مصالحه واهتماماته الخاصة الفورية واحتياجاته الضرورية وأن يقاوم الدعاوى والمطالب غير المناسبة بشأن طلب المساعدة من الأقارب والأصدقاء (شنايدر ، ٥ : ١٩٧١) . وبين البدو الرعاة ، قد تكون الحاجة إلى الماء أهم من روابط وصلات الدم .

ومن الواضح أن البيئة الطبيعية التى يعيش فى كنفها البدو الرعاة بيئة قاسية وغير مستقرة . كما أن البيئة الاجتماعية تنطوى على تهديد نظراً لأنها بيئة تنافسية إلى حد كبير . وهكذا فإنه من الملح بالنسبة إلى جميع الأشخاص من البدو أن :

«يؤسسوا حلولاً تنظيمية للمشكلة البيئية الملحة بشأن تنظيم وصول الآدميين والحيوانات إلى الموارد الطبيعية ... ولا يمكن للجماعات المهاجرة تأسيس حقوق تتعلق بحيازة الأرض على أساس دائم ، أو بإقامة سور حولها لحمايتها من عمليات الاقتحام أو التوغل . ولهذا ، نجد أن شن الغارات على الأراضى وسرقة الحيوانات من الأمور المألوفة والمعتادة . وتخضع عملية تحديد الحدود وترسيمها للتدخل البشرى المستمر ، كما أن تحديد هوية الجماعة يعتبر إشكالية أخرى : فمن الصعب المحافظة على الحدود الاجتماعية ، ناهيك عن أن الولاءات الداخلية مشكوك فيها ... والأفراد والجماعات معرضون معاً للخطر واستغلال الآخرين لهم» (شنايدر ، ٢٤ : ١٩٧١) .

واشتمل الحل التنظيمى الذى توصلت إليه شعوب الشرق الأوسط للتحديات التى واجهتها من جراء بيئتها الصعبة والقاسية على تبنى عبارة اصطلاحية اجتماعية ، وسياسية ، وأخلاقية لعلاقة الدم الأبوية : الأبوة ويمكن أن يرجع أعضاء النظام الأبوى روابط الدم لديهم إلى أفراد آخرين أو جماعات أخرى من أجل الحصول على الدعم المتبادل ، والدفاع ، والمساعدة ، والحماية ، والحصول أيضًا على نضالهم المستمر من أجل التحايل على العيش فى ظل بيئة قاسية . كما ساعدت المبادئ

الأبوية فى تسهيل التوزيع المتكافئ والعادل للثروة فى حالات الميراث ، ومن ثم الحد من احتمال نشوب النزاع والصراع المدمر بين الورثة الباقين على قيد الحياة ، والذى كان تعاونهم أمراً ملحاً وضرورياً لبقائهم وبقاء أسرهم .

واعتماداً على الحاجة أو المهمة أو العمل المتاح ، فإن باستطاعة الأفراد من البدو استخدام مصطلح العلاقات الأبوية لحشد جماعات تتراوح من نسيب أو قريب الشخص المباشر (الإخوة ، الأب ، الجد ، الأبناء ، الأخوال والأعمام ، أبناء وبنات الخال أو العم) إلى اتحاد قبلى ضخم يضم الآلاف من الأفراد الذين يمثلون العديد من العلاقات الأبوية المختلفة والتى تمتد وتتشابك عبر جد أعلى مؤسس (أو «قيمى») لعدد كبير من السكان البدو وحيواناتهم التى تعيش فى المكان نفسه لأية فترة زمنية طويلة ، فإن الروابط الأبوية فى مجتمعات الشرق الأوسط لم تتطور لتأخذ شكل الجماعات ذات الأصل أو السلالة الأحادية المستديمة ، والمستقرة والتى يمكن أن نجدها فى مناطق بيئية أكثر اعتدالاً وخصوبة . وبدلاً من أن تصبح شركات ، تحولت جماعات القرابة والنسب فى الشرق الأوسط إلى ائتلافات يمكن أن تتشكل وتنهار ، بسرعة وبصورة متكررة ، وذلك وفقاً للسياق ذى الصلة والمصالح السائدة . ويطلق علماء الأنثربولوجيا على هذه العملية اسم «التجزؤ» ، وكما أن العديد من علماء الاجتماع يصفون مجتمعات الشرق الأوسط بأنها مجتمعات مجزأة أو مقسمة بسبب انتشار العديد من العناصر والمكونات المتشابهة ولكن المتعارضة (أى الأسرات ، والأنساب ، والطوائف ، والجماعات العرقية) والتى يمكن تلتئم لتتعاون أو تنقسم لتتناحر فى صراع لا ينتهى من أجل السيطرة على موارد نادرة وقيمة .

وعلى أى حال ، فإن صلة القرابة أو النسب كمصطلح يعبر عن الهوية والتنظيم الاجتماعى ولا يقل عن كونه أساساً للانتماء ، والحماية ، والعمل الجماعى ، تعتبر مهمة فى الشرق الأوسط اليوم مثلما كانت قبل مئات السنين . إذ إن هوية المرء كعضو ينتمى إلى جماعة قرابة أو نسب تخول له الحصول على الحقوق والخدمات الضرورية، كما تنطوى على تقديم تضحيات كبيرة من أجل الجماعة . وعلى الرغم من تأسيس الدول – الأمم فى حقبة ما بعد الاستعمار ، إلا أن الهوية الأساسية لشعوب الشرق الأوسط لم تكن مدنية ، أو دينية ، أو حتى عرقية ، وإنما كانت ، ولا تزال ، هوية أسرية وعائلية . وعلى سبيل المثال ، نجد أن المملكة العربية السعودية أسرة

ممتدة كبيرة يفضل أعضاؤها الزواج من الأقارب ، أو بالأحرى ، من داخل الأسرة المالكة ذاتها . أما سوريا والعراق فالحكم فيهما يدار من خلال تحالفات وائتلافات أبوية ترتبط فيما بينها بعلاقات وثيقة للغاية لكل من أشقاء وأبناء عم الرئيس الراحل حافظ الأسد (يتولى ابنه بشار الأسد الحكم فى الوقت الحاضر) والرئيس صدام حسين على التوالى. والحقيقة أنه يشار إلى الحكومة العراقية فى الدوائر والأوساط الدبلوماسية «النظام التكريتى» ، وذلك نسبة إلى قرية سنية مسلمة فى شمال وسط العراق والتى ينتمى إليها صدام حسين وأسرته . وهنا ، نجدر الإشارة إلى أن كلاً من الأسد وصدام أعضاء فى جماعات أقلية دينية فى بلديهما . فالمسلمون السنة يمثلون الأغلبية فى سوريا ، حيث تستحوذ الطائفة العلوية ، التى ينتمى إليها الأسد ، على كافة المناصب المهمة فى قمة السلطة . وفى العراق ، فقد عاشت أغلبية السكان من الشيعة تحت حكم صدام حسين ، وهو سنى ، لما يقرب من عقدين . والواقع أن قصة اعتلاء هذين الزعيمين سدة الحكم واحتفاظهما بالسلطة فى بلديهما على الرغم من أن الطائفة كل منهما تمثل الأقلية ، تحتاج إلى مجلدات للحديث بالتفصيل عن قوة وسطوة الروابط السرية فى إطار مجتمعات وسياسات الشرق الأوسط .

وباعتباره استراتيجية من أجل البقاء ، فمن المؤكد أن نظام القرابة الأبوى قد أثبت مرونته وفاعليته مع مرور العديد من القرون فى ظل ظروف اجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية متنوعة ومتباينة شهدتها منطقة الشرق الوسط . وما بدأ كاستجابة للتكيف مع القيود والحدود البيئية والاجتماعية صار تدريجيًا مؤسسة لها قيمتها وأهميتها تجسد منظومة ثقافية ثرية من الآمال ، والطموحات ، والمواقف ، والقيم ، والمعتقدات ، والسلوكيات . وتعتبر نظم القرابة المميزة جزءاً من التراث الحضارى للمنطقة . إذ إن علاقات القرابة وروابط النسب جزء لا يتجزأ من النسيج الاجتماعى لشعوب المنطقة ، وهى علاقات وروابط تتغلغل فى كافة جوانب الحياة تقريبًا فى مجتمعات الشرق الأوسط وفى معظم المؤسسات والهياكل الاجتماعية فيه ، بما فى ذلك المؤسسات الدينية ، والثقافية ، والاجتماعية . ويتكهن مايكل ميكر بأن التوافق الثقافى الذى نجده الآن فى المناطق القاحلة لا يعكس تقاليد أشخاص تبنوا أساليب وممارسات العنف . وعلى النقيض من ذلك ، فإنه يعكس الرد الأخلاقى على التهديد الذى يمثله وضع سياسى مضطرب . (١٩ : ١٩٧٩) . وعلى الرغم من التمدن والتحضر ،

والتحديث، والهجرة ، فإن معيار الحكم على الأفراد مازال يتمثل فى كيفية أدائهم لواجباتهم الأسرية. إذ إن هوية الفرد ، وقراراته وسمعته الاجتماعية تتأثر بشدة بالجماعة التى ينتمى إليها . فعدنان ، مثلاً ، يتخذ قرار الزواج ليس بدافع الحب ، وإنما بدافع الرغبة فى تحمل عبء مسئولياته تجاه أسرته ، وذلك لأنه الرجل الوحيد الذى بقى على قيد الحياة فى أسرته والقادر على مواصلة حمل لقب الأبوة ، وتحمل اتخاذ القرار ، وهو ما اعتبرته صديقته الأمريكية أمراً غريباً .

والآن دعونا ننتقل إلى الحديث عن استراتيجية أخرى للتكيف فى مجتمعات الشرق الأوسط ، والتى شأنها شأن ، علاقات القرابة ، تركز على تحديد هوية الفرد وانتمائه إلى شبكات مكثفة وممتدة . ومن خلال هذه العلاقات والروابط ، يمكن للفرد، من الجنسين أن يقيم حدوداً أخلاقية لها أهميتها ومغزاها فى الوقت الذى يحقق فيه رغبته فى الوصول إلى السلطة ، والحماية ، والموارد فى إطار بيئة سياسية واجتماعية اقتصادية تتميز بالتنافس القوى.

العرقية :

لعله من اليسير الافتراض بأن الاختلافات العرقية هى فى الأصل اختلافات تتعلق بالسلالة أو الجنس أو العرق ، ومن ثم استنتاج أن الجماعات العرقية تتحدد ، بدرجة كبيرة ، من خلال معايير ومقاييس بيولوجية مثل الشعر ، والبشرة ، ولون العينين ، والطول ، والتكوين الجسمانى ، بل وتتحد أكثر من خلال خصائص أخرى مثل اللغة ، والأنماط الثقافية ، والعقيدة الدينية ومع ذلك ، يلاحظ الباحثون الذين يعكفون على دراسة ظاهرة العرقية والروابط العرقية أنها ظاهرة استراتيجية أكثر من كونها ظاهرة جينية (كوهين ، ١٩٧٨ ، رويس ، ١٩٨٢ ، أندرسون ، ١٩٩٣) . فالهوية العرقية ، سواء أكانت تشير إلى معيار غير موضوعى (وعى الفرد وشعوره إزاء عضويته فى فئة أو جماعة عرقية معينة) ، أم كانت تشير إلى معيار موضوعى (تصنيف الآخرين للفرد على أساس خصائص أو سمات طبيعية أو ثقافية) ، لا يمكن أن نجدها فى مجتمع متجانس ، والذى يشترك فيه الفرد فى الطبقة الثقافية نفسها ، و كذلك الدينية، الخلفية اللغوية . ومن ثم ، فإن العرقية والهوية العرقية ظاهرتان متعارضتان . إذ إنهما يظهران فقط فى مجتمعات تتألف من أنواع مختلفة من الأشخاص من ذوى الخلفيات

المتنوعة والواسعة . والعرقية تعتبر نتاجاً أو محصلة لمجتمعات متعددة تتسم بالتباين الثقافي والاقتصادى واللغوى و الدينى . وبسبب الهجرة من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية ، وتأثير الاتصالات المتطورة ووسائل النقل المتقدمة ، يتحقق الاتصال المفاجئ بين الأفراد والجماعات الذين ينتمون إلى مجموعة متنوعة من الخلفيات الثقافية ، واللغوية ، والاجتماعية والاقتصادية ، والدينية .

وفى مدن الشرق الأوسط التى تشهد نمواً سريعاً ، يتفاعل العديد من الجماعات العرقية وتتنافس فيما بينها فى سياق اجتماعى سياسى غريب ، فى أغلب الأحيان ، والذى يتسم بالندرة الاقتصادية والتنمية غير المتكافئة . وهكذا ، فإن الاعتراف بوجود الاختلافات العرقية يتضمن أيضاً الاعتراف بوجود خلافات سياسية واقتصادية . ومن ثم ، فإن الوعى بأن هنالك خلافات اقتصادية نسبية ومطلقة يمكن أن يفضى بسهولة إلى نشوب صراع ، وتنافس ، ومعارضة منظمة على امتداد الخطوط العرقية . وهنا ، يشير عالم الأنثربولوجيا ، رونالد كوهين إلى أن العرقية تعد إحدى النتائج العديدة لتفاعل الجماعة والذى تكمن فيه خلافات حول السلطة بين جماعات الأغلبية والأقلية. ومن هذا المنظور ، تعتبر العرقية أحد جوانب الطبقية وهى ليست مشكلة فى حد ذاتها (٣٨٦ ، ١٩٧٨) .

ومما لاشك فيه أن عملية تصنيف الأفراد أو الجماعات وفقاً لهويتهم أو عضويتهم العرقية تعتبر سمة بارزة لمعظم المجتمعات المعقدة المعاصرة . ولعل أحد التحديات المنهجية والتحليلية الهائلة التى تواجه علماء الاجتماع والأنثربولوجيا الذين يجرون أبحاثهم ودراساتهم على مجتمعات العالم النامى غير الغربى ، لعله يكمن فى تحديد خطوط التقسيم (إن كان هناك أية خطوط) والتى تفصل بين الجماعات العرقية، وجماعات القرابة والنسب ، والطبقات الاجتماعية الاقتصادية (بركات ١٩٩٣) . وتمثل العرقية فى الشرق الأوسط العديد من التحديات التعريفية والمنهجية للباحثين لأن الجماعات العرقية غالباً ما تتصرف وكأنها تجمعات قبلية تقوم علاقاتها على أساس القرابة والنسب ، ولاسيما بالطريقة التى تحشد وتعبئ من خلالها أعضاءها بتشجيعهم على تبنى هوية مشتركة . وفى الوقت ذاته ، يبدو أن الاختلافات العرقية تتوافق بشكل وثيق مع الاختلافات الاجتماعية والاقتصادية .

وعلى سبيل المثال ، وداخل المجتمع الإسرائيلى ، نجد أن اليهود الأشكيناز الغربيين، وبرغم أنهم يمثلون قلة عددية ، إلا أنهم الطبقة المهيمنة بالنسبة إلى الثروة والسيطرة على أجهزة صنع القرار فى الدولة ، وذلك بالمقارنة مع اليهود السفارديم الذين يعتبرون الأكثر عدداً والذين يأتون من الدول العربية والذين لطالما لقيت توجهاتهم ومواقفهم وممارساتهم الثقافية الازدراء والاحتقار من جانب اليهود الأشكيناز. وقبيل اندلاع معارك الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ - ١٩٩٠) ، كان سماسرة الأسواق الأثرياء ، وأصحاب المصانع ، والبنوك ، والشركات فى لبنان من الموارنة المسيحيين ، بينما كان يقطن المجتمعات الزراعية الأفقر ، والأقل قوة فى لبنان السكان المسلمين الشيعة .

وبطبيعة الحال ، هنالك استثناءات لهذه العلاقات والروابط بين الطبقات ، والعرقيات ، والقرابات . والبحث الدءوب والدقيق وحده هو الذى يمكنه أن يحلل ويفسر تلك العلاقات المتداخلة الديناميكية بين الأفراد فى إطار القرابة ، والطبقة ، والعرقية فى الشرق الأوسط المعاصر . ويعتبر معظم علماء الاجتماع أن التنظيمات والأنشطة السياسية العرقية ظواهر أساسية فى العالم الحديث . بل إن بعض الباحثين يتوقعون أن تقوى وتتعزز الهويات الثقافية والعرقية بدرجة أكبر مع احتدام المنافسة والصراع فى أنحاء العالم حول الموارد والسلع (هنجتون ١٩٩٦) . ولا شك أن مثل هذه التوقعات والتنبؤات الحديثة بشأن الاضطرابات المدنية وأشكال العنف السياسى تتناقض بشدة مع التوقعات التى توصل إليها الجيل السابق من الأكاديميين وصناع السياسة والذين ، فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، أعربوا عن ثقتهم فى أن تبنى العالم كله لثقافة متقدمة ونظام اجتماعى حديث ليبرالى ، علمانى ، يعتمدان على التطور التكنولوجى ، من شأنه أن يعمل على تسهيل التوافق والتجانس والتناغم بين الشعوب المختلفة داخل أو فيما بين حدود الدول . وكان من بين النتائج التى استخلصها هؤلاء المراقبون المتفائلون من معادلاتهم الاجتماعية التنافر الثقافى ، والعزلة ، والحرمان الاقتصادى النسبى والمطلق ، والتوزيع غير العادل للموارد ، والاختلافات فى أنواع وكميات السلطة المتاحة للجماعات العرقية المتنوعة فى أى مجتمع بعينه . والواقع أن الاختلافات فى الممارسات الثقافية ، والمعتقدات الدينية ، أو الخصائص والسمات اللغوية ليست هى المسئولة عن الصدام الذى يحدث بين أعضاء

المجتمعات العرقية المتعارفة . وبدلاً من ذلك نجد أن غياب المساواة ، وليس العرقية ، هو الأساس أو السبب وراء ظهور الطبقية . الاجتماعية ومن ثم ، اندلاع الصراع (كوهين ، ٤٠٠ : ١٩٧٨) .

ولو أن المؤسسات القائمة على القرابة والنسب فى الشرق الوسط ، مثل النظام الأبوى والقبلية ، كانت استجابات التكيف الرئيسية للتحديات البيئية والمشكلات الاجتماعية الاقتصادية الناجمة عن التنافس الحاد على الموارد النادرة فى بيئة طبيعية قاسية ، فإنه يمكن اعتبار الجماعة العرقية عندئذ بمثابة استراتيجية البقاء الرئيسية للفرد المهمش سياسيًا فى البيئات الاجتماعية والاقتصادية القاسية فى الشرق الأوسط المعاصر. ونظراً لشعوره بالحيرة والتمزق من جراء أشكال المعاناة والهموم المألوفة والتى اعتاد أن يعيشها فى محيط القرية ، والبيت ، والأسرة كنتيجة للفقر أو الحرب ، والسعى جاهداً لتأمين حياة مستقرة هادئة فى مدن مزدحمة ، فقيرة ، تعوزها الخدمات الجيدة ، والتى يجب أو توفرها له الحكومة المعنية ، فإن الفرد العادى فى مجتمعات الشرق الأوسط المعاصر قد ينتابه ذلك الشعور بالضياع ، والوحدة ، والغربة، والعجز. ولو أن الفرد لم يعثر على قريب أو شخص آخر فى محيطه الاجتماعى يقدم له النصح والتوجيه ، والعون المتبادل ، والدعم والمساندة ، فإن مثل هذا الفرد الذى لا جذور أو أصول له من المحتمل أن يلجأ إلى أفراد أو جماعات أخرى يمكن أن يشعر بأنهم يشاركونه نفس الخصائص ، والقيم ، والتوجهات والأهداف ، أو بعبارة أخرى ، الجماعة العرقية الدينية التى تؤدى بعضاً من المهام والوظائف نفسها التى تضطلع بها القبيلة ، ولكنها لا تستند تماماً إلى علاقات الدم أو ترتبط بوضوح بروابط العضوية والانتماء كما هو الحال بالنسبة إلى القبيلة . ولا ريب أن أية جماعة عرقية أو طائفة دينية منظمة تعمل على خدمة مصالح وتلبية الاحتياجات الاقتصادية، والاجتماعية ، والسياسية لأعضائها وذلك على نحو أفضل بكثير مما يفعله أى جهازٍ حكومى فى بلدان الشرق الأوسط . ولعل هذا هو السبب الأساسى وراء ظهور ونمو ما يسمى المنظمات الإسلامية الأصولية فى مراكز حضرية كبيرة مثل القاهرة ، والجزائر، وإسطنبول ، والخرطوم . إذ إن هذه المدن الرئيسية تكتظ بالملايين من الشبان غير المهرة وغير المتزوجين والذين تخلوا عن نمط حياتهم الزراعية فى الريف وهاجروا إلى المدينة والأمل يحدوهم فى أن يجدوا بها حياة أفضل .

وفى بداية القرن العشرين ، كان سكان المدن يمثلون أقل من عشرة بالمائة من مجموع السكان فى الشرق الأوسط . وكما وصف مقدم فى الفصل الثامن ، فإن عملية التمدن أو التحضر قد شهدت زيادة مفاجئة فى العقود الماضية ، وتتوقع أحدث الدراسات التى أعدتها الأمم المتحدة أن يصل عدد السكان فى المناطق الحضرية إلى حوالى ٨٠٪ من إجمالى السكان فى الشرق الأوسط فى غضون العقد القادم . وهكذا ، فإن الاتجاه الراهن بشأن الاعتماد على الأسرة وعلى العلاقات العرقية الدينية من أجل البقاء فى مدن الشرق الأوسط من المحتمل أن يستمر . ويصف كوهين كيف يمكن أن تكون الجماعة العرقية المرجعية المؤثرة والتى توفر الطمأنينة والراحة ذات أهمية قصوى لأمثال هؤلاء من الشباب ، فيقول :

مجموعة من الصور تعبر عن التنوع العرقى فى الشرق الأوسط

إذا كان الشعور بالعزلة والاغتراب هو أحد جوانب القصور فى المجتمع الحديث، فإن العرقية عندئذ هى الترياق الذى يتغلب على هذا الشعور .. إذ توفر العرقية نوعاً من الارتباط الجوهرى متعدد الأوجه بفئة من أناس آخرين . وفى المجتمع المتعدد العرقيات والذى تتنافس فيه مجموعة كبيرة من الجماعات ، العرقية وغير العرقية ، على الفوز بالمكافآت النادرة ، يؤدى التأكيد على حقوق الإنسان الفردية حتماً إلى معاملة غير متساوية .. ومن المقدر أن يحصل الأفراد على مزيد من المكافآت بسبب هوياتهم فى إطار الجماعة . ويكون باستطاعة الجماعات العرقية المنظمة النضال من أجل الحقوق المتساوية (٤٠١ – ٤٠٢ : ١٩٧٨) .

وبعبارة أخرى ، يمكن القول بأن الجماعة العرقية ليست وحدة عنصرية أو وحدة ثقافية وإنما وحدة سياسية . فالجماعات العرقية جماعات مصالح : إذ إنها تقوم على خدمة الاحتياجات المختلفة والمتنوعة لأعضائها فى الوقت الذى تتنافس فيه مع جماعات المصالح الأخرى على الموارد المحدودة التى تسعى للحصول عليها فى إطار الدولة الحديثة . والحقيقة أن الجماعة التى يمكنها حشد وتعبئة أكبر عدد من المؤيدين والأنصار ، وتقديم أكبر عدد من الناخبين أثناء الانتخابات ، وإقامة أقوى الروابط مع الجماعات القوية داخل أو خارج المجتمع ، وابتكار أقوى الحجج وأكثرها إقناعاً لعرض حقوقها فى الحصول على الموارد ، والمناصب السياسية ، أو الإصلاح الاقتصادى ، الحقيقة أن مثل هذه الجماعة هى التى ستحصل على نصيب الأسد من الخدمات المتاحة ، والمناصب الحكومية والحماية ، والثروة التى يمكن استخراجها من الدولة . ولاشك أنه فى الشرق الأوسط ، يمكن حتى للجماعة المنظمة تنظيماً جيداً أو الجماعة العرقية الطموحة أن تسيطر سيطرة كاملة على جهاز الدولة كله ، ومثلما فعل العلويون فى سوريا والسنيون فى العراق فى أوائل السبعينيات .

السياق التاريخى للعرقية :

فى الشرق الأوسط ، تسبق الجماعات العرقية والطوائف والفئات العرقية الدينية المعترف بها رسمياً نشأة الدول – الأمم فى المنطقة . وقبيل ظهور نظام الدولة – الأمة فى الشرق الأوسط وحتى قبل العهد الاستعمارى ، عاش معظم شعوب المنطقة (فيما عدا تلك التى تعيش فى المغرب وإيران) تحت الحكم العثمانى فى إطار

إمبراطورية اجتماعية سياسية مترامية الأطراف . وكانت الشئون اليومية فى مجالى الإدارة والحكم الأساسى فى أيدى أناس من صفوة المجتمع السياسى المحلى والذين كانت تختارهم القيادة العثمانية ، وأيضاً رجال الدين . وباعتباره إمبراطورية شاسعة وتتوزع مناطقه على مساحات هائلة ، لم يكن النظام العثمانى منظمًا وفقًا لمبادئ وأسس عرقية وقومية بل كان منظمًا وفقًا لفروقات واختلافات دينية . إذ لم يكن الأفراد الذين عاشوا فى كنف الإمبراطورية العثمانية يعرفون أو يحددون هوياتهم على أنهم عثمانيون ، وأتراك ، وعرب ، أو أكراد ، وإنما كمسلمين ، ومسيحيين ، ويهود ، أو دروز . وفى إطار هذا النوع من التنظيم ، كان المسلمون يشكلون الأغلبية ، سـ. بالنسبة إلى أعدادهم المطلقة أو بالنسبة إلى المزايا والمناصب ، والفرص التى يحصلون عليها. وكانت الإمبراطورية العثمانية تعترف رسمياً بالمسيحيين واليهود كأقليات دينية .

وباعتبارهم «أهل الكتاب» أو بوصفهم «أهل الذمة» (وهو وصف يعنى حرفياً هؤلاء الذين هم على ذمة جماعة المسلمين الأكثر عدداً والأقوى) ، فإنه كان من المفترض أن يحظى المسيحيون واليهود بالحماية من أى اضطهاد أو أذى قد يلحق بهم على أيدى الأغلبية من المسلمين ، وذلك فى مقابل قبولهم وضع التابعين ، ودفعهم ضريبة خاصة (الجزية) ، والامتناع عن أداء شعائرهم الدينية فى الأماكن العامة وبطريقة علنية من قبيل تنظيم الاحتفالات أو إقامة المراسم أو الطقوس الدينية . وطالما أعلنت المجتمعات غير المسلمة فروض الولاء والطاعة للحكام العثمانيين وامتثلت للقوانين العثمانية ودفعت الجزية ، فإنه كان من المفروض تركهم يعيشون حياتهم فى هدوء وسلام جنبًا إلى جنب مع المجتمعات المسلمة . وكان أهل الذمة يخضعون لقوانين المحاكم الإسلامية فى القضايا الجنائية وبعض المنازعات العقارية ، ولكنهم كانوا يمتثلون للأحكام والقوانين الدينية الخاصة بمجتمعاتهم ولاسيما فيما يتعلق بأية قضايا أو مشكلات لها علاقة بالشئون العائلية والدينية . وباعتبارهم من غير المسلمين ، لم يكن المسيحيون ، والدروز ، واليهود خاضعين لأحكام الشريعة الإسلامية فى الأمور الشخصية مثل الزواج ، والطلاق ، والميراث ، وغيرها من المشكلات الأسرية . وبدلاً من ذلك ، سعت الطوائف والجماعات المسيحية والدرزية واليهودية للحصول على الوساطة ، والنصح ، والتوجيه ، والأحكام من مؤسساتها الدينية ، والتى كان يتمتع

زعماؤها بسلطة إصدار قرارات وأحكام قضائية ملزمة في مجال قوانين الأسرة ، وأيضاً سلطة التمثيل القانوني لمجتمعاتهم الدينية في التعاملات الرسمية مع السلطات العثمانية . وكان هذا النظام القائم على وجود حكم ذاتي لطائفة غير مسلمة ومعترف بها قانونياً يعرف باسم نظام المِلّة .

هذا العرض التاريخي الموجز يشير إلى أن الشرق الأوسط كان دائمًا متغايراً ومتبايناً من الناحية الثقافية . ولابد من القول هنا بأن الاختلافات الثقافية والدينية الواضحة بين الجماعات العرقية المختلفة في المنطقة ليست ظاهرة جديدة أو حديثة . إذ إن الخصائص البيئية لمنطقة الشرق الأوسط ، مقترنة بانتشار الجبال الوعرة ، والأودية العميقة ، والمناطق الصحراوية الشاسعة قد أدت إلى أن تعيش الجماعات المختلفة في تجمعات صغيرة مترابطة ووثيقة إلا أنها كانت منفصلة عن بعضها الأخرى وتفصل بينها مساحات كبيرة . وحتى ظهور تكنولوجيا الاتصالات المتقدمة وتشييد الطرق الممهدة ، والسكك الحديدية ، لم يكن من السهل الوصول تقريبًا إلى بعض مناطق الشرق الأوسط . ونظراً لأنها كانت قائمة بصورة مستقلة بعضها عن الأخرى لعقود عديدة فإنه كان من الطبيعي أن تتطور الاختلافات اللغوية ، والثقافية ، والدينية الملحوظة فيما بين التجمعات السكانية المتناثرة في الشرق الأوسط . وخلال العهد العثماني ، صارت المناطق الجبلية الوعرة في الشرق الأوسط ملاذاً آمناً تلجأ إليه مجموعة متنوعة من الطوائف الدينية المسيحية والإسلامية هرباً من الاضطهاد الذي كانت تمارسه السلطات الدينية الأرثوذوكية . ومع استقرارهم في قمم هذه المناطق الجبلية أمكن للأفراد من الجماعات الأقلية مثل الموارنة ، والدروز ، والشيعة ، والعلويين ممارسة طقوسهم الدينية بعيداً عن تدخل السلطات سواء المسيحية أو المسلمة.

وكانت مدن الشرق الأوسط متباينة ومتغايرة دائماً من الناحيتين الدينية والثقافية . ومن ثم نجد أن الطبيعة القائمة على مثل هذا التباين للمناطق الحضرية في الشرق الأوسط منقوشة في العديد من الأبراج ، والجدران ، والأسوار ، والبوابات التي كانت تميز الأحياء المختلفة للمستوطنات الحضرية التقليدية ، مثل «الحي المسلم» و «الحي الأرمني» و «الحي اليهودي» و «الحي الأرثوذكسي» وغيرها من الأحياء الأخرى التي

نجدها فى مدن قديمة كالقدس ، والقاهرة ، ودمشق ، وإسطنبول ، وبغداد . وهذا التباين بين الجماعات العرقية والدينية المختلفة فى مدن الشرق الأوسط كان يوازيه تقسيم أو تباين آخر للقوى العاملة فى هذه المدن والمجتمعات . وكان المسيحيون ، والمسلمون ، واليهود يشغلون فئات مهنية مختلفة فى إطار الهيكل الاقتصادى والاجتماعى العثمانى . وهذا التقسيم للقوة العاملة فى المدينة كان يتم عادة على أساس وسائل المعيشة ، والتكامل ، والاندماج بدلاً من التنافس والصراع . وكان المسلمون يشغلون مناصب فى المحاكم الشرعية والمدارس ، وأيضًا فى الجيش وفى الإدارة الحكومية المحلية ، بينما كان يعمل غير المسلمين أساسًا كأطباء ، وتجار ، ومستشارين، وحرفيين ، وأخصائيين قانونيين ودينيين لمواطنيهم من الجماعات الطائفية التى ينتمون إليها . وهذا التقسيم العثمانى للقوى العاملة مسجل اليوم فى أسماء العديد من الأسر المسيحية من لبنان ، وفلسطين ، وسوريا ، والتى تحدد أنواع المهن والحرف التى كان يؤديها أجدادهم الأوائل فى المجتمع العثمانى : صبّاغ ، وحكيم ، وخبّاز، وبنّاء ، وصايغ ، وحايك ، ونجار ، وخورى ، وشماس .

وهكذا يمكن القول بأن مثل هذا التباين الثقافى والدينى لمنطقة الشرق الأوسط لم ينشأ عن عملية التمدن السريعة أو عن تأسيس المدن – الأمم فى هذا القرن ، كما لم يكن نتاجاً فرعياً للحقبة الاستعمارية (وذلك على الرغم من أن القوى الاستعمارية استخدمت أساليب قائمة على مبدأ فرق تسد لإحكام قبضتها وتعزيز سيطرتها على الأنظمة السياسية المحلية) . ولقد عاشت الجماعات العرقية والدينية المختلفة فى الشرق الأوسط جنباً إلى جنب لقرون طويلة ، وهو تعايش كان تتخلله صراعات أحياناً ولكنه شهد توافقًا وانسجامًا فى أغلب الأحيان . بيد أن الشىء الجديد فى التركيبة العرقية والدينية للشرق الأوسط المعاصر هو إطار العمل الاجتماعى ، والسياسى ، والاقتصادى الذى تعيش فى كنفه وتعمل فى ظله جماعات مختلفة . ولا ريب أن العمليات التاريخية الحديثة نسبيًا ، والتى أدت إلى اندماج المنطقة فى منظومة الاقتصاد العالمى وتأسيس الدول – الوطنية ، قد أدت إلى تغيير ميزان القوة التقليدى ونظام التعايش الذى كان سائداً إبّان العهد العثمانى . ورغم أن الإمبراطورية العثمانية كانت بالكاد نموذجاً للكفاءة الاقتصادية أو العدالة الاجتماعية ، إلا أنها شجعت ، مع

ذلك ، على ظهور شكل من أشكال التعايش والتعاون قابل للحياة والاستمرار نسبياً فيما بين الجماعات العرقية والدينية المختلفة فى المنطقة .

ولكى نفهم كيف صارت المجتمعات العرقية والدينية المختلفة فى الشرق الأوسط متورطة فى صراعات مازالت مستمرة حتى يومنا هذا ، فإنه ينبغى علينا الآن فحص ودراسة العمليات التاريخية لتكوين الطبقات الاجتماعية ، والتى زادت من حدة المنافسة ومن ثم فجّرت الصراعات بين المجتمعات العرقية المختلفة فى المنطقة .

الطبقات الاجتماعية :

على النقيض من الفئتين المستخدمتين فى الدلالة على الهوية ، وهما «القرابة» و«العرقية» ، فإن الطبقات الاجتماعية لا ترتكز على معايير وأسس بيولوجية أو ثقافية، وإنما على اختلافات اقتصادية وسياسية . وكما هو الحال بالنسبة للجماعات العرقية ، تعتبر الطبقات الاجتماعية ظاهرة متعارضة إذ إن الطبقة الاجتماعية لا يمكنها التواجد إلا فى إطار علاقاتها بطبقات اجتماعية أخرى ، وذلك لأن فكرة الطبقة فى حد ذاتها تتضمن ترتيباً هرمياً من جماعات يقوم على أساس من الاختلافات فى الثروة ، والقوة، والسيطرة على الموارد . والمجتمع الذى يشارك كافة أفراده فى موارده بالتساوى ، ويمتلكون الثروة بصورة مشتركة ، ويشاركون مشاركة كاملة فى عملية صنع القرار ، ولديهم حقوقاً وواجبات متساوية تجاه كل منهم الآخر ، هذا المجتمع يطلق عليه اسم المجتمع اللاطبقى . إذ إن معايير الاختلاف والتباين لأى هيكل أو نظام طبقى اجتماعى تقوم على عدم المساواة فى امتلاك الثروة أو توزيعها والاختلاف فى سبل الوصول إلى الموارد المتاحة ووسائل الإنتاج الاقتصادى . وهكذا ، تشتمل الفروقات والاختلافات الطبقية على علاقات الهيمنة والتبعية بين الجماعات المتنافسة المختلفة ، والتى تحاول كل منها باستمرار أن تحسن من مكانتها النسبية أو تحاول أن تحظى بمكانة ذات مزايا نسبية ، وتناضل من أجل الاحتفاظ بها .

ووفقاً لما ذكره المؤرخ الاجتماعى فيليب خورى ، فإن الهيكل الطبقى الاجتماعى فى الشرق الأوسط كان بسيطاً ومستقراً نسبياً حتى منتصف القرن التاسع عشر . وقبل ١٥٠ عاماً فقط ، بدأت منطقة الشرق الأوسط تندمج فى النظام العالمى الرأسمالى . وتبعاً لذلك ، أخذت تظهر تدريجياً طبقات اجتماعية جديدة كنتيجة لتغير أساليب

الإنتاج الاقتصادى وبروز أشكال جديدة للملكية والسيطرة على الموارد (خورى، ١٩٨٣) . ولعل أهم التغييرات الاقتصادية التى شهدها القرن التاسع عشر هو حلول أشكال جديدة لملكية الأرض . ففى أعقاب سلسلة من الهزائم العسكرية والاقتصادية التى منيت بها على أيدى القوى الأوروبية الصاعدة ، قررت الحكومة العثمانية إدخال عدد من الإصلاحات الإدارية فى محاولة لتحسين وتقوية النظام العثمانى من خلال تقليد المجتمعات الأوروبية .

ومن أهم هذه الإصلاحات قوانين الأرض الجديدة والتى شجعت الملكية الخاصة للعقار الإنتاجى ، بدلاً من الملكية المشتركة أو الجماعية . وقد استفادت طبقات الصفوة فى المجتمع من المسلمين وغير المسلمين ، والذين كانوا من أهل الحظوة لدى الحكام العثمانيين ، من هذه الإصلاحات من خلال السيطرة على الأراضى التى كانت مملوكة لجماعات وطوائف عرقية سابقة حيث قام هؤلاء بزراعة محاصيل نقدية فى هذه الأراضى مثل التبغ بدلاً من زراعة المحاصيل التى تعتبر مورداً للرزق . وقد خدم هذا النظام الزراعى مصالح الأسواق الدولية ، وليس مصالح السكان المحليين . وفى الوقت ذاته ، فإن التجار فى مدن مثل بيروت ، ودمشق ، واللاذقية شرعوا فى تحقيق أرباح هائلة كوسطاء وسماسرة يتولون الإشراف على المبادلات التجارية التى تتم بين منتجى السلع الأوروبيين والمستهلكين من الأثرياء الجدد فى الشرق الأوسط والذين أقبلوا على شراء الأثاث الفاخر ، والملابس ، والأجهزة المنزلية ، والأدوية . وهذا التحول من الأسواق المحلية إلى الأسواق الأجنبية بالنسبة للسلع الاستهلاكية قد كان له تأثيره المدمر على الحرفيين والصناع المحليين ، والذين أصبحوا ، جنباً إلى جنب مع الفلاحين وصغار المزارعين الذين طردوا من الأراضى الزراعية من جراء تطبيق نظام الملكية الخاصة للأراضى ، نواة لطبقة اجتماعية جديدة تشكلت وظهرت فى المدن ، وهى طبقة البوليتاريا الحضرية . ومن ثم تميزت هذه الفترة بظهور هيكل أو نظام طبقى هرمى إلى حد كبير كان يتسم بالهيمنة الاقتصادية والسياسية من جانب حفنة من الأسر ذات الثراء الفاحش التى تملك الأرض على الأغلبية من السكان الفقراء.

ورغم أن الأسواق وأساليب الإنتاج قد تغيرت بصورة دراماتيكية منذ أواسط القرن التاسع عشر ، إلا أن الهيكل الطبقى الاقتصادى والاجتماعى فى الشرق الأوسط مازال

هرميًا على نحو عميق . وعلى الرغم من ظهور طبقة من الأثرياء فى الوقت الحاضر، يطلق عليها شيوخ البترول العربى من واسعى الثراء ، إلا أن الأغلبية الهائلة من شعوب المنطقة تعيش عند أو تحت خط الفقر ، فى الوقت الذى توجد فيه قلة من الأشخاص الذين يملكون أو يسيطرون على ثروة ضخمة تأتى من صناعة النفط ، وأنشطتها الفرعية ، والعادات الاستهلاكية للنخبة المنتجة للنفط والنشاط الاقتصادى فى المنطقة برمتها استهلاكى أكثر منه إنتاجى ، كما أن هنالك تبادلات محدودة للسلع والخدمات بين دولها ، الأمر الذى يؤدى إلى تكامل اقتصادى إقليمى ضعيف وإلى زيادة الاعتماد على السلع والخدمات الغربية (البنك الدولى ، ١٩٩٦) .

إن الدراسة الدقيقة لاقتصادات المنطقة سرعان ما تكشف النقاب عن غياب الصناعة والتصنيع فى معظم دولها ، وذلك باستثناء الصناعات المرتبطة بالنفط فى منطقة الخليج ، والصناعات العسكرية وصناعات الكمبيوتر فى إسرائيل ، مجموعة متنوعة من الأنشطة الصناعية فى تركيا . وبوجه عام ، فإن دول المنطقة دول مستهلكة أكثر منها دول منتجة . والزراعة متخلفة فى لبنان وسوريا ، وهما دولتان تستطيعان ، من الناحية الفنية ، إنتاج كميات كبيرة من السلع الزراعية ولأنه يتم استيراد معظم المواد الغذائية من الخارج ، فإنها تعتبر غالية الثمن بحيث لا تقدر الأسرة المتوسطة على شرائها يوميا (البنك الدولى ، ١٩٩٦) .

وتبدو استثمارات العائدات النفطية داخل المنطقة محدودة . إذ تفضل الدول الغنية المنتجة للنفط استثمار أموالها فى أوروبا وأمريكا الشمالية (مقدسى ، ١٩٩١) ، ومن ثم فإنه يوجد قدر قليل من التنوع فى الأنشطة الاقتصادية أو التوسع فى قواعد الإنتاج فى المنطقة ، ناهيك عن أن العائد التجارى من السياحة قد كان محدوداً نظراً لنشوب سلسلة من الحروب واستمرار التوترات السياسية . وقد أدى الاعتماد المطلق على العائدات النفطية إلى زيادة قابلية تعرض المنطقة للمخاطر الاقتصادية فى ضوء المتغيرات والتطورات الخارجية . والحقيقة أن دول الشرق الأوسط تعتمد إلى حد كبير على القرارات الاقتصادية والسياسية التى تنشأ من خارج المنطقة . ولذا ، «فإن سلطتها الذاتية الاقتصادية ، أو بالأحرى ، قدرتها على التطور بصورة مستقلة / أو اتخاذ خطوات سياسية دون أن تضع فى الاعتبار التطورات وردود الفعل فى مناطق أخرى،

تعتبر مقيدة بدرجة كبيرة ... وبالطبع فإن هذه التبعية الاقتصادية تنطوى على تبعية سياسية» (مقدسى ، ١٣٣ : ١٩٩١) .

وكنتيجة للأداء السيئ لقطاع النفط منذ منتصف الثمانينيات ، فإن الدول فى شتى أرجاء المنطقة قد تأثرت بالانخفاض الذى طرأ على أسعار النفط وذلك فى صورة هبوط التحويلات المالية التى يبعث بها المغتربون العاملون فى الخليج من رعايا دول المنطقة مثل سوريا ، ولبنان ، ومصر ، والأردن . وحتى قبل الانخفاض فى أسعار النفط ، كان الفقر ظاهرة واضحة فى معظم دول المنطقة . ففى عام ١٩٨٠ ، كان ما يقرب من ٤٤ ٪ من السكان فى المغرب ومصر يعيشون تحت خط الفقر (بركات ١٩٩٣) . ولكن الموقف قد تحسن كثيراً منذ ذلك الحين . ففى غضون العقدين الماضيين ، شهد العالم العربى :

«هبوطاً تدريجيًا ، أو ربما ، ما يشبه زوال الإنتاج الذى يضمن مورداً للرزق ، وتحولات مهنية جماعية من الأنشطة الزراعية إلى الأنشطة الخدمية ، وتدفقًا هائلاً للفائض من العمالة الريفية إلى المجتمعات الحضرية فى المدن (بينما شهد فى الوقت نفسه) ظهور برجوازية عربية جديدة ، وهى طبقة من المقاولين ، والوسطاء والسماسرة ، ووكلاء الشركات الأجنبية ، والذين باتوا يشاركون فى أعمال غير إنتاجية (فرسون وزكريا ٧٣ : ١٩٩٥) .

وفى المساحة الطبقية التى تفصل ما بين الطبقة العليا (التى تستحوذ على ثروات هائلة) والطبقة الدنيا (التى ينتمى إليها الملايين من الفقراء والمعدمين من الفلاحين السابقين والذين يتدفقون الآن بأعداد ضخمة على المناطق الحضرية المزدحمة فى المنطقة) ، فإننا نجد القطاع المنتج الوحيد فى المجتمع الشرق أوسطى ، وهو عبارة عن طبقة متوسطة صغيرة نسبيًا تتألف أساسًا من الشركات التجارية الصغيرة ، والتجار الذين لديهم أعمالهم الحرة ، والأفراد الذين يعملون فى إصلاح الأشياء أو الأجهزة التالفة ، والحرفيين ، والمدرسين ، والبعض الآخر يعملون فى الإدارات والمصالح الحكومية . ولقد اكتشف أفراد هذه الطبقة الاجتماعية الضعيفة والمعرضة دوماً للمخاطر أن عملية البقاء داخل الطبقة المتوسطة هذه تتطلب جهداً منسقاً ومضنياً من كافة أفراد الأسرة الواحدة . وهكذا ، فإن الجماعة القائمة على نظام القرابة الأبوى والتى ظهرت كآلية تكيف استراتيجى على ظروف الصحراء القاسية منذ زمن طويل

قد باتت مرة أخرى الوحدة الإنتاجية الأساسية بين الطبقات المتوسطة الحضرية فى الشرق الأوسط . وكما يقول فرسون ، فإن :

الدخل من الريع ، والدخل من المشروعات الصغيرة ، والدخل من الأجور ومن الأعمال الأخرى قد برزت باعتبارها مصادر رئيسية لعدد متزايد من الأسر ذات الدخول المتعددة ... ومعظم هذه الأنشطة الاقتصادية الصغيرة تعتبر تقليدية بالنسبة إلى نمط أو أسلوب التنظيم وبالنسبة إلى العلاقات الاجتماعية فى محيط العمل .

القرابة ، العرقية ، والطبقة : فى سياق الاستراتيجيات أم القيود ؟

ليس ثمة شك فى أن الأفراد فى منطقة الشرق الأوسط الذين تأثروا سلباً من جراء التحولات الاجتماعية والسياسية وإعادة الهيكلة الاقتصادية على المستويات المحلية ، والإقليمية ، والدولية ، ولاسيما فى حقبة ما بعد الحرب الباردة ، لاشك أنهم قد تحولوا إلى أسرهم الأصلية والممتدة طلبًا للدعم والمساعدة المتبادلة . وهكذا ، نجد أنهم قد حرصوا على إحياء والتأكيد على الهياكل والأنظمة الأسرية التقليدية، وشبكات العلاقات الخاصة بالقرابة ، والانتماءات إلى الجماعات العرقية الدينية ، وعلاقات المحسوبية حتى وهم يتابعون أحدث التطورات فى مجال التكنولوجيا الحديثة ، مثل الهواتف الخلوية (المحمولة) والإنترنت . وتبعًا لذلك ، يمكن القول بأن الشرق الأوسط المعاصر عالم يتسم بالتناقضات المروعة والتجاوزات والمقارنات المثيرة للسخرية .

وهنا يشير حليم بركات إلى أنه من الصعوبة بمكان بالنسبة للمراقبين تفسير التطورات الاجتماعية الاقتصادية نظراً لأن «النظام الاقتصادى العربى المعاصر أشبه بكوكتيل أو خليط غريب من أساليب وأنماط الإنتاج المختلفة ، والتى تعمل كلها فى وقت واحد ، وهو ما يجعل هذا النظام الاقتصادى وفى الوقت نفسه نظامًا شبه إقطاعى، وشبه اشتراكى ، وشبه رأسمالى» (٧٧ : ١٩٩٣) . والحقيقة أن وجود المؤسسات والشركات متعددة الجنسيات وأيضاً تلك القائمة على النظم الأبوية والعائلية، وكذلك وجود البيروقراطيات المرشدة والأصولية الدينية ، والقبائل والدول الوطنية الحديثة ، والممارسات التقليدية والاتجاهات العالمية ، والتى يشير إليها العالم السياسى بسّام طيبى على أنها التزامن غير المتزامن ، أى الذى لا يحدث فى وقت واحد ،

(١٢٧ : ١٩٩٠) ، الحقيقة أن وجود كل هذه الكيانات مجتمعة يوضح إلى أى مدى قد أخفقت الدولة الوطنية فى الشرق الأوسط المعاصر ، وذلك فى الوقت الذى يكشف فيه أيضًا إلى أى حد استطاعت شعوب المنطقة تعويض هذا الإخفاق من خلال التكيف وإحياء أنماط ووسائل تقليدية اجتماعية ثقافية من أجل البقاء .

وعلى النقيض من الدولة الإمبريالية والدول ذات السلالات الحاكمة والتى كانت من الأمور المألوفة فى تاريخ الشرق الأوسط ، فإنه يتم تعريف النمط الجديد الذى فرض من الخارج للدولة الوطنية بأنه نمط سياسى قومى وليس طائفى أو محلى . والمفهوم الواضح الذى يرتكز عليه هذا النمط السياسى هو السيادة ، والتى لا تفترض مسبقًا فقط قدرة السلطة المركزية أن تفرض نفسها على أراضى الدولة كلها ، ولكن تتطلب أيضاً مواطنة راسخة وهوية وانتماءً وطنين . وبدرجات متفاوتة ، تفتقر جميع بلدان الشرق الأوسط إلى هذه البنية الأساسية ... ففى معظم دول الشرق الأوسط تعتبر السيادة اسمية . إذ إن الصراعات القبلية العرقية والطائفية التى فجرتها القوى الاستعمارية لم تنته مع نيل دول المنطقة استقلالها . وقد أخفقت الدول الوطنية التى تأسست حديثاً فى التغلب على المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التى أفرزتها عملية التنمية السريعة لأنها لا تستطيع أن توفر المؤسسات الملائمة التى تعمل على حل تلك المشكلات أو التخفيف من حدتها . ونظراً لأن الدولة الأمة الاسمية لم تواجه التحدى ، لجأ المجتمع إلى روابطه وعلاقاته فى مرحلة ما قبل ظهور القومية كحل لمشكلاته ؛ ومن ثم تمكن من المحافظة على إطار العمل الخاص بالعلاقة بين صاحب العمل والزبون (الطيبى : ١٤٧ – ١٤٩ : ١٩٩٠) .

وربما لا نبالغ إذا جادلنا بأن الشبكات المكثفة للعلاقات المتداخلة بين صاحب العمل والزبون والقائمة على القرابة والعرقية التى تربط هؤلاء الذين فى الحكم بأولئك الذين هم خارجه إنما تشكل «مادة الغراء» أو الرابطة الحقيقة التى توحد الدول الوطنية فى الشرق الأوسط وتجمعها معاً . فبدلاً من أن يكون سبب بقائها واستمراريتها هو ذلك الإحساس المشترك بالهوية وبالمشاركة فى المصالح والأهداف والغايات ، فإن الدولة الوطنية فى الشرق الأوسط تحيا وتستمر فى البقاء بسبب الاستثمار الكبير من جانب المواطنين للوقت ، والطاقة ، والموارد ، والمال ، فى إقامة والمحافظة على علاقات لا حصر لها مع المسئولين فى الجهاز البيروقراطى الحكومى . ورغم أن العلاقة بين

صاحب العمل والزبون «تلعب دوراً مهماً فى تسهيل توزيع السلع والخدمات بين السكان وفى حشد التأييد الشعبى وراء الزعماء» (خورى و كوستنر ١٨ : ١٩٩٠) ، إلا أن عملية المناصرة أو الحماية تعتبر غير متناسقة وغير متماثلة : إذ إن إطالة أمد هذه العلاقات يعمل أيضاً على إدامة وتعزيز هياكل وأنظمة السلطة غير المتساوية فى المجتمعات الطبقية فى الشرق الأوسط المعاصر . وتضمن العلاقة بين التابع والمتبوع «بقاء الأشخاص فى مواقعهم» : فالأثرياء والأقوياء يحتفظون بمراكزهم ومناصبهم التى توفر لهم الهيمنة ، والتى تتيح لهم ميزة أن يصبحوا حتى أكثر ثراءً وأشد قوة ، بينما يظل الأشخاص الأقل ثراءً على حالهم فى موقف التبعية والاعتماد على هؤلاء الأثرياء والأقوياء ، بل يظلون عاجزين لا حول ولا قوة لهم إزاء عمليات صنع القرار وحيال القوى الأكبر التى تشكل حياتهم .

وعلى الرغم من أن اللجوء إلى هويات أساسية وعلاقات تقليدية من أجل البقاء فى عالم يضج بالتحديات يمكن تفسيره بأنه أمر منطقى واستراتيجى ، إلا أنه ينطوى أيضاً على تكاليف ونتائج يمكن أن تكون لها عواقب سلبية على الأفراد والجماعات فى المنطقة . ذلك أن الاعتماد على الأقارب بدلاً من الدولة ، والانتماء إلى جماعات عرقية دينية محدودة بدلاً من تشكيل تحالفات وإئتلافات واسعة ، والمشاركة فى مبادلات السلع والخدمات القائمة على العلاقة بين التابع والمتبوع . والتى تتسبب فى ظهور حالات من التباين وانعدام المساواة الاجتماعية الاقتصادية فى الوقت الذى تترسخ وتتوطد فيه الأشكال القديمة الهيمنة السياسية ، كل هذا يعوق عملية التكامل الاقتصادى ، والثقافى ، والسياسى على المستويين المحلى والإقليمى ويعرقل عمليات التنمية ، وتحقيق أهداف العدالة الاجتماعية ، وتنفيذ الإصلاحات الديمقراطية . ويحدد فرسون المدى الذى يمكن عنده للعلاج الشعبى للمشكلات فى دول المنطقة أن يعمل فقط على احتدام التحديات التى تواجه مجتمعات الشرق الأوسط:

«أصبحت روح المجتمع الأبوى ونظام الحماية والمناصرة متداخلة ومتفاعلة مع العلاقات الاجتماعية الرأسمالية الجديدة لإنتاج **هيكل اجتماعى جديد** والذى يظهر نفسه فى سلوك وقيم المجتمع العربى المعاصر . ويؤدى الهيكل الطبقى المفتت والمجزأ والمتغاير الناشئ عن ذلك إلى ظهور آراء ووجهات وتصرفات اجتماعية مجزأة ومتغايرة . ومن ثم ، يكون هنالك احتمال أقل فى أن يشارك هذا الهيكل أو البناء

الحضرى المجزأ فى عمل اجتماعى سياسى يرتكز على القرابة ، والجوار ، والروابط العرقية ، والمنظمات الدينية، (٢٢٩ – ١٩٨٨) .

إن العودة إلى الأسرة ، والعشيرة ، أو الطائفة الدينية طريقة قَيِّمة للتغلب على مجموعة من التحديات اليومية ، بيد أنه من خلال اللجوء إلى هذه الطريقة قد تخسر شعوب المنطقة رؤيتها للمصالح والأهداف المشتركة التى يمكن أن توحدهم على أساس الانتماء والتنظيم اللذين يعتبران أوسع نطاقاً وأكثر شمولاً وربما أكثر فاعلية من الأسس الطبقية المحددة التى توفرها الهويات الأساسية لروابط الدم والعقيدة . وهكذا ، فإن شعوب الشرق الأوسط قد تظل غير واعدة بالفرص المتاحة للتعاون والتنسيق على نطاق واسع لتحسين بعض الظروف الصعبة لحياتها ، ولاسيما فى مجالات مثل المحافظة على البيئة والتكامل الاقتصادى. ويمكن القول أيضاً بأن المجتمع الكبير الذى تقطعت أوصاله وتحول إلى جماعات منفصلة ومجزأة ومؤلفة من الأقارب والأنساب والأفراد المشاركين فى اعتناق ديانة واحدة ، هذا المجتمع المفتت يسهل على الحكومات الاستبدادية السيطرة عليه ، واستغلاله ، وإخضاعه والتلاعب بمقدراته. إذ إنه ، وكما أثبتت القوى الاستعمارية ، من الأيسر والأسهل كثيراً أن تحكم أمة أو شعباً مقسماً .

والواقع أن تأسيس الهويات الدينية والعرقية للأغراض القانونية والإدارية ، وهو ما نراه بوضوح شديد فى دول مثل لبنان وإسرائيل ، يعتبر سلاحاً ذا حدين . فعلى الرغم من أن الاعتراف الرسمى بالتراث الثقافى والقوانين الدينية قد يوفر الأجوبة على الاحتياجات السيكولوجية للأفراد والمشكلات التنظيمية الاجتماعية ، إلا أنه يمكن أن يوقع الأفراد أيضاً فى شرك فئات وتصنيفات للهوية غير المرنة وليست من اختيارهم أو صنعهم ، ومن ثم يحَدِّ من خياراتهم الخاصة وفرصهم بينما يحول دون تطور إحساس أكثر شمولاً بالهوية والولاء القومى . ولعل أصدق مثال على انتصار الجماعة العرقية على كل من المواطن الفرد والدولة متعددة الطوائف والأعراق هو لبنان ، تلك الدولة التى تتألف من سبع عشرة جماعة عرقية معترف بها رسمياً ، والتى تحدد العضوية فيها حقوق وواجبات المواطن اللبنانى فى إطار الدولة . ويقول سمير خلف عالم الاجتماع اللبنانى أن مأساة لبنان تكمن فى حقيقة أن :

«العوامل ذاتها التى تفسر الكثير من القدرة على الحياة ، وسعة الحيلة والتكامل بين اللبنانيين هى نفسها العوامل المسئولة عن تآكل الروابط المدنية والولاءات القومية ...... وباختصار ، فإن العوامل التى تلعب دوراً مساعداً على المستوى المحلى المحدود، قد لا تلعب هذا الدور على المستوى القومى الأشمل والأعم . وهذا ينطبق فى الحقيقة على المأزق اللبنانى» . (١٤ : ١٩٨٦) .

وكما يتضح لنا مما قاله زياد رحبانى عن مأساة الحرب الأهلية اللبنانية والتى سمحت موسيقاها الآسرة وحكاياتها الساخرة للبنانيين بالنظر إلى أنفسهم بعيون متميزة ولكن رحيمة وشغوفة : يا زمان الطائفية ، الطائفية ، الطائفية ! خلى إيديك على الهوية ، شد عليها قد ما فيك !

وتشير كلمات هذه الأغنية إلى كل من تراجع وقت الحرب وانحساره فى الهويات الأساسية وإلى الممارسة المرعبة لعمليات الاغتيال السياسى التى كان يرتكبها رجال الميليشيا والذين دأبوا على قتل المدنيين على أساس طوائفهم وانتماءاتهم الدينية ، المسجلة فى بطاقة الهوية لدى كل لبنانى .

وثمة خطر آخر تمثله التوجهات الراهنة للإنكفاء على الذات وما ينشأ عنها من تقسيم وتفتيت اجتماعى وسياسى لمجتمعات الشرق الأوسط ، وهو أن الأفراد والجماعات فى هذه المنطقة لن يكونوا مستعدين للتعامل مع التحديات متعددة الجوانب التى تشكلها وسائل الإعلام وعولمة السوق . إذ إن الشرق الأوسط ، المهمش اقتصادياً بالفعل والذى يعتمد على النظام الاقتصادى العالمى ، قد يكون معرضاً حتى لخطر المزيد من التهميش من خلال إعادة الهيكلة العالمية لمنظومة العلاقات الاقتصادية والسياسية . ولكى تضمن النجاح فى الأسواق العالمية الجديدة ، فإنه يجب على دول منطقة الشرق الأوسط أن تندمج فيما بينها وتتكامل فى إطار عمل اقتصادى إقليمى ، وذلك بدلاً من أن يزداد ارتباطها أكثر فأكثر بالغرب وأسواقه . وفى مستهل القصة التى رويناها ، كان من الواضح أن عدنان وخالد يتطلعان إلى تحقيق تكامل اقتصادى إقليمى كشرط لنجاحهما الشخصى المنشود ولسعادتهما الأسرية . بيد أنه طالما أن فقدان الثقة ، والشك ، والندرة ، والفقر ، والصراعات الإقليمية تقود شعوب الشرق الأوسط وتدفعهم أكثر للجوء إلى الملاذ التقليدى لعلاقات القرابة والنسب ، والعرقية ، والطائفية ، فإنه من غير المرجح أن تحقق شعوب المنطقة التكامل القومى

والإقليمى أو أن تصل إلى مستويات التعاون والتنسيق المطلوبة لمواجهة العديد من تحدياتها الاقتصادية ، والبيئية ، والسياسية المتداخلة .

إن مشكلات الشرق الأوسط المعاصر ليست مشكلات ثقافية تتمحور حول رجعية أو مرونة ممارسات تقليدية وفئات أو تصنيفات أساسية للهوية فى عالم حديث. وبدلاً من ذلك ، تتركز المشكلات السياسية والاقتصادية للمنطقة على ، ليس فقط جوانب الضعف وأوجه القصور الكافية فى نظام فرضته الدولة الوطنية ، ولكنها تتركز أيضاً على العداوات الإقليمية المتأصلة فى المظالم التاريخية والسياسات قصيرة النظر التى بدأتها القوى الغربية من الحقبة الاستعمارية وحتى يومنا هذا . ولذا ، فإن الشرق الأوسط ، وإن يكن منطقة لا تكتسب فيها المواطنة وما يقترن من حقوق وواجبات أهمية كبيرة ، إلا أنه منطقة تعتبر فيها العضوية أيضاً فى جماعات تقوم على روابط القرابة والنسب هى الضمان الرئيسى للفرد للتمتع بالأمن والوصول إلى الموارد ، ومن ثم كانت الضرورة إلى آليات تتمثل فى وجود جماعات قوية لصيانة الفرد وحمايته . ولهذا ، فإنه لابد من النظر إلى القبلية العربية ليس على أنها توجه ثقافى ، وإنما كاستجابة للتكيف قديمة جداً وكرد على انعدام الأمن ، إذ إن تلاحم الجماعة أو تماسكها مهم للبقاء فى ظل القمع الذى تمارسه الدولة وهو مهم أيضاً للبقاء فى ظل غياب الدولة . (صايغ ٢٦٧ : ١٩٨١) .

خاتمة :

في هذا الفصل ، الذى بدأ بحوار مثير بين ثلاثة أصدقاء : أمريكى ، ولبنانى ، وفلسطينى فى مطعم عربى فى ولاية كاليفورنيا ، وانتهى بملاحظة حول عيوب ومساوئ الدولة الوطنية فى الشرق الأوسط ، حاولنا تحليل وتفسير علاقات القرابة ، والعرقية ، والطبقات الاجتماعية فى منطقة الشرق الأوسط من خلال إظهار كيفية ارتباط هذه الظواهر الاجتماعية الثقافية بالحقائق البيئية ، والاقتصادية ، والسيكولوجية، والإدارية ، والسياسية ، وكيفية تفاعل مثل هذه الظواهر مع بعضها البعض ، بل وكيفية تشكيل وصياغة كل منها للأخرى . ولقد عرفنا كيف أن السلوكيات الاجتماعية ، والثقافية ، والسياسية فى بلدان الشرق الأوسط قد تأثرت تاريخياً ، وإلى حد كبير ، بحدود وقيود البيئة الطبيعية القاسية والتى كانت فيها القدرة الاقتصادية والمنافسة السياسية الشديدة من الثوابت المستمرة والأساسية ، فى حين أن العلاقات المستديمة القائمة على الثقة المتبادلة والتشكيلات الاجتماعية السياسية الدائمة والتى ترتكز على قاعدة واسعة لم تكن ثابتة ومستمرة . وعلاوة على ذلك ، لاحظنا أن المنطقة قد شهدت تغييرات سياسية واقتصادية سريعة فى القرن التاسع عشر ، وهو ما أدى بدوره إلى تحول دائم فى الهيكل الطبقى التقليدى وإلى ظهور حالات من التباين وعدم المساواة اقتصادياً واجتماعياً والتى تفاقمت وازدادت سوءاً من جراء السياسات الاستعمارية ودمج المنطقة فى منظومة الاقتصاد الرأسمالى العالمى المتنافس. وقد ظلت هذه التباينات وحالات التفاوت بلا حل حتى اليوم .

ولأنها لم تحصل على المساعدة الكافية من الدول الوطنية فى المنطقة ، تحولت شعوب الشرق الأوسط إلى فئات هويتها الأساسية وإلى هياكلها التنظيمية التقليدية فى محاولة للعيش ، ولإضفاء معنى على حياتها ، فى خضم عالم يضج بالتحديات . ورغم أن هذه الشعوب قد نجحت فى محاولاتها هذه ، إلا أن هذا النجاح كلفها الشيء الكثير وكانت له عواقبه الوخيمة . وفى المدى الطويل ، يمكن أن يكون للجوء إلى روابط القرابة والنسب ، والعرقية ، والمحسوبيات آثاره السلبية على مجتمعات قد

تضطر قريباً إلى توفيق وموائمة طبيعتها المجزأة والمقسمة مع ضغوط سياسية واقتصادية متزايدة تدفع باتجاه التكامل ، والتنسيق ، والتعاون فى اقتصاد العولمة .

ومع هذا ، مازالت هناك مساحة كبيرة للتفاؤل . إذ إن الدارسين الذين أتينا على ذكر أسمائهم فى هذا الفصل ، ونعنى بذلك عدنان وخالد على وجه التحديد وما دار بينهما من حوار شيق وممتع ، قدموا الدليل على أنه بين شعوب الشرق الأوسط أشخاص موهوبون ونابغون لديهم تراث ثقافى يتسم بالمرونة والثراء إلى حد كبير ، وهو تراث قادر على التكيف لخدمة هذه الشعوب فى كافة المجالات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية .

المصادر :

١ – ليلى أبو لُغد : «مشاعر مكبوتة» – مطبعة جامعة كاليفورنيا – ١٩٨٦ .

* «أنثربولوجيا الشرق» – ص ٨١ – ١٣١ فى طبعة هشام شرابى «النظرية ، والسياسة، والعالم العربى» – لندن – روتليدج – ١٩٩٠ .

٢ – محمد سفوح الأخرس «بنية الأسرة العربية» – دمشق – وزارة الثقافة – ١٩٧٦ .

٣ – بينيدكت أندرسون : «مجتمعات متصورة» لندن – فيرسو – ١٩٩٣ .

٤ – حليم بركات : «العالم العربى : المجتمع ، والثقافة ، والدولة» بيركلى – مطبعة جامعة كاليفورنيا – ١٩٩٣ .

٥ – س . أ . يوسورث : «مفهوم الدهماء فى صدر الإسلام» – ص ٣٧ – ٥٤ فى طبعة بنجامين برودى وبرنارد لويس «المسيحيون واليهود فى الإمبراطورية العثمانية» – المجلد الثانى – «الأراضى الناطقة بالعربية» – نيويورك هولمز آند ماير – ١٩٨٢.

٦ – رونالد كوهين : «العرقية : المشكلة والبؤرة فى علم الأنثربولوجيا» – المجلة السنوية للأنثربولوجيا ٣٧٩ – ٤٠٣ : ٧ – ١٩٧٨ .

٧ – روبرت . ب . كانيجهام ويسين . ك . سرايره : «الوساطة : القوة الخفية فى المجتمع الشرق أوسطى» – ويستبورت – كونيكتيكت – براجر – ١٩٩٣ .

٨ – سامح . ك . فرسون : «الهيكل الطبقى والتغيير اجتماعى فى العالم العربى» – ص ٢٣٨ – ٢٢١ فى طبعة هشام شرابى «العقد العربى القادم : مستقبليات متغيرة» – بولدر – كولومبيا – مطبعة ويستفيو – ١٩٨٨ .

٩ – سامح . ك . فرسون وكرستينا زكريا : «الطبقات الاجتماعية ، التغيير الاقتصادى» والتحرر السياسى فى العالم العربى» – ص ٢٦١ – ٢٨٢ فى طبعات ريكس برينين ، وبهجت قرنى ، وبول نويل : التحرر السياسى والعملية الديموقراطية فى العالم العربى – المجلد الأول : «جوانب نظرية» – بولدر كولومبيا – لين ريز – ١٩٩٥ .

١٠– اليزابيث وارنوك فيرنيا : «ضيوف الشيخ» – نيويورك – دبلداى – ١٩٦٩ .

١١- كليفورد جيرتس : «تفسير الحضارات» - نيويورك - مطبعة باسيك بوكس - ١٩٧٣ .

١٢- كليفورد جريتس ، وهيلدرد جريتس ، ولورنس روزن : «موارد الرزق والنظام الطبقى فى المجتمع المغربى» - نيويورك - مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٧٩ .

١٣- هيلدرد جريتس : «معنى الروابط الأسرية» ص ٣١٥ - ٣٩١ فى طبعات كليفورد جريتس ، وهيلدرد جريتس ، ولورنس روزن : «موارد الرزق والنظام الطبقى فى المجتمع المغربى» - مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٧٩ .

١٤- إيليا حريق : «الثورة العرقية والتكامل السياسى فى الشرق الأوسط» - المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط - ٣٢٣ - ٣٠٣ - ٣ - ١٩٧٢ .

١٥- صمويل هنتنجتون : «صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمى» - سيمون وشوستر - ١٩٩٦ .

١٦- ابن خلدون : «المقدمة فى التاريخ» ترانز - فرانز - روزنتال - برنستون : سلسلة بولينجين - مطبعة جامعة برنستون - ١٩٦٧ .

١٧- كمال كريات : «الملل والجنسية : جذور التناقضات فى الأمة والدولة فى عهد ما بعد الحكم العثمانى» - ص ١٤١ - ١٧٠ فى طبعات بنجامين برودى وبرنارد لويس «المسيحيون واليهود فى الإمبراطورية العثمانية» - المجلد الثانى - «الأراضى الناطقة بالعربية» - نيويورك - دار هولمز وماير - ١٩٨٢ .

١٨- روجر كيسنج : «جماعات القرابة والنظام الاجتماعى» نيويورك - هولت - رينهارت آند ونستون - ١٩٧٥ .

١٩- سمير خلف : «المأزق اللبنانى» - نيويورك - مطبعة جامعة كولومبيا - ١٩٨٦ .

٢٠- فيليب خورى : «وجهاء المدن والقومية العربية : سياسة دمشق ١٨٦٠ -١٩٢٠» - كمبريدج - مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٨٣ .

٢١- فيليب خورى وجوزيف كوستنر : «القبائل وتشكيل الدولة فى الشرق الأوسط» - بيركلى مطبعة جامعة كاليفورنيا - ١٩٩٠ .

٢٢- فؤاد خورى : «إعادة النظر فى زواج الأقارب : ممارسة شرق أوسطية تلغى آثار الزواج على قوة العلاقات الأسرية» - مان - ٥٩٦ - ٦١٨ : ٥ - ١٩٧٠ .

٢٣- سمير مقدسى : «العالم العربى والاقتصاد العالمى : استعراض شامل» - ص ١٤٦ - ١٢٣ فى كتاب هالة أصفانديارى وأ . ل . أودفيتش : «الأبعاد الاقتصادية لتاريخ الشرق الأوسط : سلسلة مقالات كتبت تكريماً لذكرى رحيل تشارلز عيسوى» - برينستون - نيوجيرسى - مطبعة داروين - ١٩٩١ .

٢٤- كنعان مكيه : «القسووة والصمت : الحرب ، الاستبداد ، والانتفاضة فى العالم العربى» - نيويورك - و . و . نورتون - ١٩٩٣ .

٢٥- مايكل ميكر : «الأدب والعنف فى شمال الجزيرة العربية» - كمبريدج - ١٩٧٩ .

٢٦- ماثا موندى : «الحكومة المحلية : علاقة القرابة والنسب ، الجماعة والسياسة فى شمال اليمن» - لندن - أ . ب تاورس - ١٩٩٥ .

٢٧- روبرت مورفى وليونارد كاسدان : «نظام زواج الأقارب» - مجلة أميركان أنثربولوجيست ١٧ - ٢٩ - ٦١ - ١٩٥٩ .

٢٨- سينثيا نيلسون : «الصحراء والقبائل المتفرقة : البدو فى المجتمع الأكبر» بركلى - معهد الدراسات الدولية - جامعة كاليفورنيا - ١٩٧٣ .

٢٩- رافائيل باتاى : «المجتمع ، الثقافة ، والتغيير فى الشرق الأوسط» - فيلادلفيا - مطبعة جامعة بنسلفانيا - ١٩٧١ .

٣٠- جولى . م . بيتيت : «الجنس البشرى فى أزمة : النساء وحركة المقاومة الفلسطينية» - نيويورك - مطبعة جامعة كولومبيا - ١٩٩١ .

٣١- أنايا بترسون رويسل : «العرقية : ! استراتيجيات التنوع» بلومينجتون - مطبعة جامعة أنديانا - ١٩٨٢ .

٣٢- روز مارى صايغ : «أدوار ومهام النساء العربيات : عملية تقييم» - المجلة الفصلية للدراسات العربية - ٣ - ٢٥٨ - ٢٧٤- ١٩٨١ .

* «العديد من الأعداء : التجربة الفلسطينية فى لبنان» لندن - دار زد للنشر - ١٩٩٤.

٣٣- ديفيد شنايدر : «علاقة القرابة والنسب الأمريكية : التفسير الثقافي» - أنجلوود - كليفس - نيوجيرسي - برنتيس هول - ١٩٦٨ .

٣٤- جان شنايدر : «عن الحذر والعذارى : الشرف ، والعار ، والوصول إلى الموارد في المجتمعات الشرق أوسطية» - مجلة الدراسات العرقية - ١ - ١٠ -٢٤ - ١٩٧١

٣٥- هشام شرابي : «النظرية ، السياسة ، والعالم العربي : ردود انتقادية» - نيويورك - روتليدج - ١٩٩٠ .

٣٦- ديان سنجرمان : «طرق المشاركة : الأسرة ، والساسة ، والعلاقات في الضواحي الحضرية بالقاهرة» - برينستون - مطبعة جامعة برينستون - ١٩٩٠ .

٣٧- بسام طيبي : «التزامن اللامتزامن : القبائل القديمة والدول الوطنية المفروضة في الشرق الأوسط الحديث» ص ١٢٧ - ١٥٢ في كتاب فيليب س خوري وجوزيف كوستنر : «القبائل وتشكيل الدولة في الشرق الأوسط» - بركلي - مطبعة جامعة كاليفورنيا - ١٩٩٠ .

٣٨- البنك الدولي : «الشرق الأوسط وشمال أفريقيا» - واشنطن دي سي - البنك الدولي - ١٩٩٦ .

-١٠-
دور المرأة

ليزا تراكي

إن طريقة دراسة المرأة فى منطقة الشرق الأوسط المعاصر صعبة وتتسم بالتحدى. فقد تركت عقود من دراسة المستشرقين والكتابة العامة والصحفية علاماتها وآثارها التى يتعذر محوها على تمثيل المرأة فى منطقة الشرق الأوسط . ولاشك أن وجود افتراضات مسبقة وأفكار مكونة سلفاً وآراء مقولبة فيما يتعلق بالمرأة فى الشرق الأوسط وإطلاق أحكام عامة عن المرأة فى منطقة متنوعة داخلياً مثل منطقة الشرق الأوسط مازال يهيمن على الجدل الدائر حالياً . وبالتالى فإن الباحثين وغيرهم الذين يحاولون إجراء دراسة موضوعية للمرأة فى الشرق الأوسط لديهم تراث ثقافى كبير يتصارعون معه ، وليس مفاجئاً أن توجه طاقة الكثير من الباحثين اليوم إلى تحدى الأفكار المكونة سلفاً والآراء المقبولة المتعلقة بالمرأة فى الشرق الوسط .

وتكمن الصعوبة المتزايدة لمعوقات فهم حقيقة معيشة المرأة فى الشرق الأوسط فى مستوى الثقافة . و ما قد يوصف بأنه أحد دعاة الثقافة المنحازين يمثل تحدياً كبيراً للمهتمين بالدراسة الموضوعية لحياة المرأة فى الشرق الأوسط . واقترب دعاة الثقافة من قضايا مثل مشاركة المرأة فى القوة العاملة ووضعها داخل الأسرة وأنماط زواجها وسلوكها الجنسى ومستواها التعليمى ومشاركتها السياسية من داخل الإطار العريض لنظام من القيم الإسلامية الثابتة والأساسية فى الشرق الأوسط الذى يفترض أنه يحكم قبضته ليس على الأمور المتعلقة بالمعتقدات والمواقف فحسب ، بل على الممارسات وفى سلوك الحياة اليومية .

ويقوم هذا الفصل على أساس الفرضية التى تقول إن تعددية القوى والعوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية شكّل ، مثلما هو الحال فى كافة

المجتمعات، قوانين المرأة فى الشرق الأوسط وخبراتها ومستوى معيشتها . كما نؤكد على حقيقة أن المفهوم التاريخى للقيم الإسلامية كمحددات للممارسة لا ترتقى بفهمها للعمليات التاريخية المعقدة ، ومن ثم فإن استخدام المفهوم «الوحدوى» للمرأة فى الشرق الأوسط سيحجب التنوع الغنى فى حياة المرأة فى جميع أنحاء الشرق الأوسط . ويغطى هذا الكتاب الاختلافات الإقليمية المهمة القائمة فى هذا المجال الرحب . وبالإضافة إلى هذا ، فإن فرص حياة المرأة وتجاربها ووضعها داخل المناطق والبلدان يتشعب ويشكله عدد من العوامل المهمة أبرزها الطبقة ومحل الإقامة (إن كان فى الحضر أو الريف) ، كما أن للعرق ووضع اللجوء وعدم اللجوء والانتماء الدينى آثار مهمة . وإن الصفات التى تتعلق بالمرأة كفرد مثل السن والوضع الاجتماعى وعدد الأطفال تقرر أيضاً الوضع التمييزى للمرأة وصلاحياتها ومدى توافر الفرص أمامها داخل الأسرة وعلاقاتها بالأقارب والمجتمعات وحتى وضعها فى القوة العاملة .

الدولة الوطنية الحديثة :

نبدأ نقاشنا لحقائق حياة المرأة بفحص العلاقة بين المرأة والدولة فى الشرق الأوسط الحديث . وتؤكد الدراسة التى أجريت مؤخراً على أهمية فهم العلاقة بين وضع المرأة وحقوقها ووضعها داخل المجتمع ومشروعات بناء الدولة فى المنطقة (كانديوتى ١٩٩١ ، سى ، موجادام ١٩٩٣ ، ١٩٩٥ ، وجوزيف ١٩٩١ ، ومولنيو ١٩٩١) . سواء تبنت الدول استراتيجيات إيجابية تؤثر على التغييرات فى وضع المرأة أو اختارت عدم تغيير ما يعتقد بأنه الوضع الراهن ، له آثار مهمة على المجتمع عموماً والمرأة بالأخص. وكان يتعين على الدولة فيما بعد جلاء الاستعمار فى الشرق الأوسط مواجهة اختيارات ليس على المستويات الاقتصادية والسياسية – الاستراتيجية فحسب بل أيضاً فيما يتعلق بنوع المجتمع الذى تتصوره لمواطنيها من النساء والرجال على حد سواء .

وكما تمت مناقشة الأمر فى فصلى ٣ ، ٤ ، فقد صاحب ظهور الدولة الوطنية الحديثة فى الشرق الأوسط فى القرن العشرين فى معظم الأمثلة برنامجاً مستحدثاً حاولت الصفوة فى الدولة من خلاله تحويل أو تعديل العلاقات الأساسية فى المجتمع ، بما فيها العلاقات بين الجنسين . فقد تم نشر أنواع مختلفة من الإجراءات القانونية –

الإدارية وسياسات اجتماعية وأيديولوجيا وطنية حديثة لإضعاف قبضة الولاءات والانتماءات الأساسية ، ولبناء تكوين المواطن بالمعنى الحديث ، وتنفيذ برامج للتنمية الاجتماعية والاقتصادية .

وربما يكون التعليم أحد المجالات التى حققت فيها كافة دول الشرق الأوسط تقريباً نجاحات ملحوظة نتيجة السياسة المباشرة للدولة . فبالرغم من أن الإصلاحات التى جرت فى المجالات المتعلقة بالوضع الشخصى للمرأة وحقوقها السياسية متقطعة ، إلا أن الاتجاه نحو زيادة المستويات التعليمية لكل من المرأة والرجل أصبح شاملاً تقريباً. ويعتبر أحد معايير هذا النجاح هو أن الدول العربية حققت بعضاً من أعظم المكاسب التى تحققت فى مجال تعليم المرأة فى العالم . فقد زاد معدل القراءة والكتابة لدى المرأة إلى أكثر من الضعف خلال العشرين عاماً الممتدة من عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٩٠ . كما ضاعفت هذه الدول من عدد الفتيات الملحقات بالمدارس الابتدائية والثانوية من ٣٢٪ فى عام ١٩٧٠ إلى ٦٠٪ فى عام ١٩٩٢ (برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ١٩٩٥ : ٢٩) .

وعلى عكس ذلك ، أصبحت إصلاحات القوانين والسياسات المتعلقة بحقوق المرأة داخل الأسرة موضوع نقاش وجدل كبير فى الشرق الأوسط . ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى أن قانون الأسرة ترسخ بشكل تاريخى فى الشريعة الإسلامية ، وأن معظم الصفوة فى الدولة (فيما عدا تركيا) أصبحوا مترددين فى إدخال تغيرات مهمة تتحدى السلاسل الهرمية السائدة للجنسين والتقسيم الجنسى للعمل الذى تعتبره هذه القوانين أمراً مسلماً به .

وكانت تركيا أول دولة فى الشرق الأوسط تدخل إصلاحات قانونية وإدارية تهدف إلى تطوير الاقتصاد وتغيير العلاقات الاجتماعية السائدة . فقد كان وضع القانون المدنى فى عام ١٩٢٦ محل القانون الإسلامى وتحرير المرأة فى بداية الثلاثينيات إجرائين اتخذتهما الجمهورية الجديدة تحت قيادة مصطفى كمال أتاتورك (أبو الأتراك) لتغيير العلاقات بين الجنسين . وأصبحت المرأة مواطناً فى الجمهورية وحظرت القوانين الجديدة تعدد الزوجات ومنحت المطلقة المزيد من الحقوق . وقد شجع الأيديولوجيون القوميون وكُتَّاب المرأة النشطاء على وضع أيديولوجيا قومية

حـديثـة تؤكـد على المسـاواة بين المرأة والرجل . وينظر بعض البـاحـثين إلى هذه الأيديولوجيا على أنها جـزء من ترسانة الجمـهورية العلمـانية الجديدة ضد الخلافة كمؤسسة ودليل على أن تركيا كانت دولة ديمقراطية بخلاف الحكم الديكتاتورى فى ألمانيا وإيطاليا التى كانت متحالفة معهما (كاندويوتى ١٩٨٩ : ١٢٧) .

وخلال العقود التالية ، واصلت تركيا مسارها كدولة حديثة وعلمانية ووسعت الحريات المدنية والاجتماعية فى دستورى عام ١٩٦١ و ١٩٨٢ . بيد أنه بالرغم من أن القانون المدنى أكثر تقدماً من القوانين المدنية فى الدول المجاورة ، إلا أنه مازال يمنح امتيازات للرجال فى مجال الوصاية على الطفل وتقرير محل الإقامة والحرية الشخصية (١٩٩٦ : ٢٩) . ويشار دائماً إلى تركيا على أنها الدولة الإسلامية فى الشرق الأوسط التى حققت أكبر مستويات من «التحديث» و «التغريب» غير أنه إذا تم قياس التقدم بالمؤشرات الأساسية ، سنجد أن موقف القيادة هذا غير مضمون . فمازالت أمية الفتيات مرتفعة (فقد كانت نسبة الأميات ٢٨ ٪ فى عام ١٩٩٥ مقارنة ب ٨ ٪ فقط لدى الرجال) وتعكس وجود فجوة كبيرة بين مناطق الريف والحضر . كما نجد أن معدلات المشاركة فى القوة العاملة وأرقام الالتحاق بالمدرسة معتدلة (آرات ١٩٩٦ : ٣٠ ، برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ١٩٩٨ : ١٣٢) .

إن قضية إسرائيل فريدة فى الشرق الأوسط وتقدم بعض التناقضات . واتخذت الصفوة السياسية العلمانية لفترة ما بعد الدولة مباشرة موقفاً مؤيداً لبناء دولة وطنية حديثة وفقاً للمبادئ الديمقراطية والعلمانية التى يقولون إنها شكلت الأساس للمجتمع ونظام الحكم الجديدين . فبالإضافة إلى كونهم مهيمنين ثقافياً وسياسياً فى الدولة الجديدة ، فلم يرهقهم الثقل الشديد للمؤسسات التقليدية المحصنة (مثل مؤسسة دينية مؤثرة) ولم يكونوا مضطرين إلى مواجهة المجموعات التقليدية والمحافظة برغبة شديدة فى الحفاظ على الوضع الراهن . بيد أن فحص القوانين التى تؤثر على المرأة تكشف أن كافة الفرص لم تستغل بعد . ويهدف قانون الحقوق المتساوية للمرأة لعام ١٩٥١ ، بالرغم من أنه يلغى التمييز الصارخ ضد المرأة المتجمد فى القانون العثمانى، إلى حماية حقوق المرأة والزوجات ، وليس كمواطنة ، وبهذا لم يرد فى القانون نطاق كامل يتعلق بالحقوق خارج نطاق الأسرة مثل التوظيف (بيركوفيتش ١٩٩٦ : ٢٠ - ٢١) .

وفى مجال الوضع الأسرى ، تتفق إسرائيل مع جيرانها فى المنطقة . فإنها لم تتبن قوانين علمانية وتمارس المؤسسة الدينية تأثيراً ملحوظاً . فعلى سبيل المثال لا يمكن عقد الزيجات وفسخها إلا فى المحاكم الدينية . وغير مسموح للمرأة بأن تصبح قاضية فى محاكم الدولة الربانية الأرثوذكسية وعند إصدار الأحكام فإن شهادتها غير مقبولة وخاصة إذا كان هناك شهود رجال (يوفال - دافيس ١٩٨٩ : ١٠٥) .

ويعتبر الجيش مؤسسة أخرى لا تتمتع فيها المرأة بفرص متساوية مع الرجل . فقد تم تدريب ما لا يقل عن ٧٠٪ من النساء فى الجيش لشغل أدوار المرأة التقليدية، وعلاوة على هذا ، فإنه بالرغم من قانون التجنيد الإلزامى ، إلا أن ٦٥٪ فقط من الإسرائيليات اليهوديات يخدمن فى الجيش . والباقى إما يؤثرون عدم الدخول بناءً على أساسات دينية أو يدرجن ضمن فئات مختلفة للمرأة المعفاة من الخدمة العسكرية. (شارونى ١٩٩٥ : ٤٥ - ٤٧ ، وانظر أيضًا يوفال - دافيس ١٩٨٢ ، سويرسكى وسافير ١٩٩١) .

وكانت إيران تحت قيادة رضا شاه من بين أوائل الدول فى الشرق الأوسط التى تضع برنامجاً مستحدثاً بما فيه تحرير المرأة . بيد أنه بخلاف الجمهورية التركية ، التى كانت علمانية بشكل صريح ، كانت الدولة الإيرانية فى العقود الأولى من هذا القرن يقظة بصورة أكبر بالنسبة للمؤسسات الدينية المؤثرة ، ومن ثم كانت خطى التغييرات وطبيعتها أكثر اعتدالاً . وتم إدخال الإصلاحات والتطويرات الرئيسية التى تؤثر على المرأة فى الستينيات . وتحررت المرأة فى عام ١٩٦٢ وتحققت مكاسب مهمة فى تعليم المرأة خلال الستينيات والسبعينيات . وفى عام ١٩٦٧ ، منح قانون حماية الأسرة الجديد المرأة حقوقًا موسعة داخل إطار الزواج والأسرة . بيد أنه فى السنوات الأولى من تأسيس الجمهورية الإسلامية ، تم إلغاء عدد من هذه الإصلاحات ووضع أيديولوجيا تؤكد على ارتباط المرأة بالمنزل والتشجيع عليها .

ويثير الوضع فى إيران الأسئلة عن بعض الافتراضات السائدة عن العلاقة بين الإسلام ووضع المرأة فبالرغم من أن إيران المعاصرة إسلامية إلا أنها أعادت التفكير فى بعض السياسات فيما بعد الثورة فيما يتعلق بحقوق المرأة داخل الأسرة والنطاق العام . فعلى سبيل المثال ، نجد أنه بالرغم من إلغاء قانون حماية الأسرة لعام ١٩٦٧عقب الثورة ووضع القانون الذى يرجع إلى الثلاثينيات محله ، إلا أن الحكومة

استجابت فى النهاية إلى ثورة الناشطات الإسلاميات وعدلت القانون لمنح المرأة مزيداً من الحقوق . فعلى سبيل المثال نجد أنه بموجب القانون الذى تم تمريره فى عام ١٩٩٢ ، يتم منح المطلقة نصف الثروة التى تم جمعها خلال الزواج وكذا أجراً عن الأعمال المنزلية التى تمت خلال الزواج (هودفار ١٩٩٥ : ١٢٤) .

وتعتبر سياسة السكان فيما بعد الثورة مثالاً آخر . فعقب تفكيك مراكز تنظيم الأسرة بعد الثورة ، أعادت الدولة النظر بشكل فاعل ، وذلك فى غضون سنوات قليلة ، فى سياسة ما قبل الولادة التى تنتهجها . وفى عام ١٩٨٩ ، صدقت الدولة على سياسة جديدة للحد من النسل وبدأت حملة وطنية لإقناع السكان بقبول تنظيم الأسرة وممارسته (هودفار ١٩٩٥ : ١٠٨ – ١٠٩) . تقدم السياسات الخاصة بالتعليم مزيداً من التوضيح . فعقب وضع حد أقصى بشكل أولى للمتقدمات للالتحاق بالجامعة على نطاق واسع فى المجالين العلمي والمهنى ، تم إلغاء معظم الحصص فى عام ١٩٨٩ (مقدم ١٩٩٣ : ١٨٧) .

وبدأت معظم الدول العربية وضع برامجها الاجتماعية وتنفيذها خلال الجزء الثانى من هذا القرن فى أعقاب تحقيق الاستقلال الوطنى وعقب تنشئة صفوة جديدة بالدولة. ومثلما هو الحال فى تركيا وإيران ، أدخلت صفوة الدولة إصلاحات على قانون الأسرة وشجعت على تعليم المرأة وفى بعض الحالات سعت إلى زيادة وجود المرأة فى الإدارات الحكومية للدولة والقوة العاملة . وتعتبر مصر والعراق وتونس وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (١٩٦٧ – ١٩٨٧) رائدة فى هذا المجال حيث أدخلت الأخيرة الإصلاحات الأبعد مدى . وتشمل الاستثناءات فى هذا المجال السعودية وبعض دول الخليج التى تسير فيها خطى الإصلاحات بطيئة جداً .

ومن الدول الثلاث فى اتحاد المغرب العربى التى ظهرت كدول مستقلة عقب الحكم الاستعمارى (تونس والجزائر والمغرب) ، كانت تونس الرائدة فى إدخال تغييرات مهمة . فيعتبر قانون الأحوال الشخصية لعام ١٩٥٦ الذى تم تعديله فى عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٦ وعام ١٩٨١ الأكثر تقدمًا فى العالم العربى لأنه حظر تعدد الزوجات ومنح حقوق موسعة للمطلقة ، ويوفر قانون العمل الذى تم سنه فى عام ١٩٦٦ بعض الحماية للأمهات العاملات (جلال ١٩٩٥ : ٦٣ – ٦٤) . ولكن الإصلاح فى الجزائر جاء بعد وقت لاحق لذلك وكان أكثر اعتدالاً . وبالرغم من أن

الدولة ألغت كافة القوانين الاستعمارية المتعلقة بأمور الأسرة فى عام ١٩٧٥ ، إلا أنه لم يتم فى النهاية سن قانون جديد للأسرة ، عقب ثورة جديدة قامت بها المرأة الجزائرية ، حتى حلول عام ١٩٨٤ . وقد تم سن هذا القانون ، شأنه شأن القوانين فى كافة الدول العربية، داخل إطار الشريعة ولم يقدم سوى إصلاحات محدودة فيما يتعلق بالزواج والطلاق والوصاية (لازيج ١٩٩٤ : ١٥٠ - ١٥٧ ، حجاب ١٩٨٨ : ٢٦ - ٢٩).

وربما كانت المغرب أبطأ دولة فى اتحاد المغرب العربى استجابة للضغوط لإحداث تغيير فى أمور قانون الأسرة . وقد تم سن قانون جديد فى عام ١٩٥٧ - ١٩٥٨ ومنح المرأة بعض الحقوق فى مسألة الطلاق ولكنها لم تكن بعيدة المدى وظلت حقًا دون تغير خلال أكثر من أربعة عقود (مير - حسينى ، ١٩٩١) .

أما البحث الذى أجرى مؤخراً حول دمج المرأة داخل الدولة الوطنية فى الشرق الأوسط من خلال الإصلاحات على مستوى الدولة يدرك حدود السياسات والقوانين التى ترعاها الدولة لأحداث تغييرات مهمة فى العلاقات الاجتماعية عموماً والعلاقات بين الجنسين بالأخص . وقد يقال إنه بالرغم من تبنى سياسات تدخل المرأة سوق العمل وتزيد من تعليم المرأة فى عدة دول ، إلا أنه مازالت هناك فجوات كبيرة بين الرجل والمرأة من حيث المشاركة فى القوة العاملة والالتحاق بالتعليم والحصول على الموارد والفرص . وهذا يقودنا إلى القضية المهمة للأسلوب المقارن الذى تؤثر به سياسات وإصلاحات الدولة على المرأة . وإذا نظرنا فى تعليم المرأة وتوظيفها ، سنجد أن ارتفاع مستويات تعليم المرأة يصحبه عموماً زيادة فى مشاركة المرأة فى القوة العاملة غير الزراعية ، وفى المقام الأول فى قطاع الخدمات . ونظراً لتركز وعظم وظائف الخدمات فى مناطق الريف فإن زيادة مشاركة المرأة فى مثل هذا العمل يشير إلى أن المكاسب التعليمية التى حصلت عليها المرأة أصبحت أكبر فى مناطق الريف وأعدت المرأة للانضمام إلى الوظائف الشاغرة المتعلقة بالاقتصاد الزراعى . وتؤكد هذه الملاحظات حقيقة أن العقود الأخيرة شهدت توسعاً هائلاً فى مراكز الحضر وتمييزاً متزايداً بين المدينة والريف . ومن خلال تعزيز وجود طبقة متوسطة فى الحضر فى جميع أنحاء الشرق الأوسط ، أصبحت زيادة رؤية المرأة فى النظام التعليمى والقوة العاملة والنطاق العام عموماً مكوناً مهمًا . وأن هؤلاء النساء هن المستفيدات الرئيسيات من سياسات الدولة فى التعليم والعمل وغيرها من الخدمات

العامة ، الأمر الذى يشير إلى حقيقة أن المرأة من الطبقة الوسطى (والطبقة العليا) فى الحضر تأثرت بسياسات الدولة بشكل أكثر إيجابية . وتعيش المرأة المهمشة فى مشروع تحديث الدولة ، وخاصة المرأة الريفية والحضرية الفقيرة ، حقائق مختلفة ولم تتمكن من الاستفادة من إصلاحات الدولة على نطاق واسع .

النشاط الاقتصادى :

وكما أشار فالنتين م . مقدم فى الفصل الثامن ، فإن قياس النشاط الاقتصادى للسكان فى الشرق الأوسط مثلما هو الحال فى الكثير من دول العالم الثالث الأخرى ، مملوء بالصعوبات. وإن النشاط الاقتصادى للمرأة محير بشكل خاص وهناك اعتراف على نطاق واسع بأن أرقام القوة العاملة الوطنية وغيرها من الإحصاءات لا تمثل الحجم الحقيقى لدور المرأة فى الاقتصاد . وأن أسباب وجود هذا الوضع كثيرة . أولاً ، أن العمل المنزلى الذى تقوم به المرأة ولا تتقاضى عنه أجراً غير مسجل ولم يتم قياسه، وأن العمل الجاد ولساعات طويلة الذى تقضيه المرأة فى تربية الأطفال وفى إدارة المنزل لم ينعكس فى الإحصاءات الوطنية . ثانيًا ، أنه لم يتم أيضًا تسجيل الإسهامات التى تقدمها المرأة لاقتصاد الأسرة فى شكل توفير عناصر الاستخدام المنزلى . ويرجع هذا إلى التحيز فى نظم جمع البيانات وأيضًا ملاحظات المستطلعة آراءهم فى استطلاعات الرأى الوطنية المتعلقة بالنشاط الاقتصادى . (فعلى سبيل المثال، من غير المحتمل أن تنظر امرأة تطهى الطعام وتحيك الملابس لأسرتها كعمل اقتصادى لنفسها أو ينظر إليها أحد أفراد الأسرة الذكور على أنها نشطة اقتصادياً) . ثالثاً والأهم هو أن النشاط الاقتصادى للمرأة فى القطاع غير الرسمى لا يقاس إلى حد كبير فى إحصاءات القوى العاملة المعيارية . ويعتبر هذا القطاع مكوناً مهمًا للاقتصاد فى منطقة الشرق الأوسط ويضم عدداً كبيراً من الأنشطة تقوم المرأة بالكثير منها سواء داخل إطار الأسرة أو فى الشوارع ومقار العمل فى المجال العام .

وبسبب عدم كفاية البيانات حول النشاط الاقتصادى فى الشرق الأوسط ، فإنه من الصعوبة بمكان الحصول على فهم دقيق لحجم مشاركة المرأة فى الاقتصادات الوطنية للمنطقة . وبالرغم من أن الدراسات صغيرة النطاق لأنشطة القطاع غير الرسمى للمرأة فى الكثير من الدول قد أثرت معرفتنا بالاستراتيجيات المختلفة التى تنشرها

الأسر والمرأة فى داخلها للتعامل مع المحن الاقتصادية ، إلا أننا مازلنا نعتبر الإحصاءات الرسمية للقوة العاملة مع كل ما يعتريها من ضعف - هى فقط المؤشرات بين القوميات للنشاط الاقتصادى للمرأة التى يمكن الاعتماد عليها بصورة أكبر .

وبالرغم من أن مشاركة المرأة فى القوة العاملة الرسمية فى الشرق الأوسط مازالت صغيرة مقارنة بمشاركتها فى مناطق أخرى من العالم ، إلا أنها أصبحت متزايدة بشكل مطرد منذ الستينيات (مقدم ١٩٩٣ : ٣١) .

إن عوامل مثل التوسع الهائل لبيروقراطية الدولة والخدمات ذات الصلة (وخاصة فى التعليم والصحة والخدمات الاجتماعية) ، والتنمية الاقتصادية ، وانخفاض مستويات الخصوبة وارتفاع سن الزواج الأول ، والتمدن السريع ، وارتفاع مستويات تعليم المرأة ، وهجرة القوة العاملة من الذكور من البلدان الفقيرة إلى بلدان الخليج الغنية بالبترول لعبت جميعًا دوراً فى التشجيع على زيادة معدلات توظيف المرأة . ولكن كيف اجتمعت كل هذه الأبعاد فى ظل وضع قومى معين متنوع ، كما أن النتائج من حيث مستويات المشاركة أصبحت أيضاً مختلفة جداً . وتتدرج حصة المرأة من القوة العاملة فى الشرق الأوسط فى عام ١٩٩٥ من أقل من ١٥ ٪ فى عمان وقطر والسعودية والإمارات العربية المتحدة إلى أكثر من ٣٠٪ فى إسرائيل والكويت والمغرب وتونس وتركيا (برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ، ١٩٩٨ : ١٦٤ - ١٦٥) .

وبالنسبة لتوزيع القوة العاملة النسائية عن طريق شغل الوظائف ، وجد أن أعلى نسبة مئوية موجودة فى قطاع الخدمات العامة وهو نموذج نجده فى جميع أنحاء العالم حيث لا توجد نسب مئوية مرتفعة فى الزراعة سوى فى مصر (٤٠ ٪) والمغرب (٣٢,٥ ٪) وسوريا (٤٤ ٪) وتركيا (٧٢ ٪) . بيد أنه كما أشار مقدم ، فإنه فى بعض البلدان لا يتم حساب المرأة فى مجال الزراعة كجزء من القوى العاملة ، الأمر الذى يوضح انخفاض الأرقام فى هذا القطاع من النشاط الاقتصادى (مقدم ١٩٩٣ : ٤٥ ، ٥٠ - ٥١) . وفى المغرب وتونس فقط ، وجدنا عدداً أكبر من النساء فى الصناعة عنه فى الخدمات (مقدم ١٩٩٣ : ٤٥) . وعلاوة على هذا ، تميل القوى العاملة النسائية إلى التركز بين من تتراوح أعمارهم بين ١٥ إلى ٢٩ فيما عدا تركيا وإسرائيل وبصورة أقل فى تونس والكويت وقطر .

فبماذا تخبرنا هذه الأرقام عن المرأة العاملة فى الشرق الأوسط ؟ . أولاً ، يعزز التركز العالى للمرأة فى الخدمات العامة (فى مهن مثل التدريس والتمريض) القولبة المهنية التى سميت بها مهن معينة بأنها مهن المرأة . وثانيًا ، من المرجح أن يتم توظيف المرأة من الأسرة الغنية رسميًا ، وخاصة فى دول الخليج (مقدم ١٩٩٣ : ٥١) وتشمل الشروط الأخرى ذات الصلة الانسجام بين بعض المهن (وخاصة التدريس) ودور الإنجاب الذى تقوم به المرأة كأم ومربية وحقيقة أن معظم النساء فى هذه المهن يعملن فى القطاع العام حيث تكون حقوق المرأة العاملة (مثل إجازة رعاية الطفل مدفوعة الأجر) مكفولة بصورة أفضل ، عموماً ، من القطاع الخاص .

ويعتبر تركز الشابات فى القوى العاملة الرسمية انعكاساً آخر للعلاقة العضوية بين الأنشطة الإنجابية والإنتاجية للمرأة . ونستطيع الافتراض بأن معظم النساء فى هذه المجموعة العمرية إما غير متزوجات أو متزوجات حديثًا ولديهن عدد قليل من الأطفال ومن ثم يتمتعن بحرية أكبر فى العمل خارج المنزل . وعلاوة على هذا ، فإنه استناداً إلى البيانات التعليمية للمنطقة ، تتمتع هؤلاء النساء بأعلى معدلات من الإنجاز التعليمى. وأن التوظيف فى القوة العاملة غير الزراعية الرسمية فى الشرق الأوسط مرتبط بشكل إيجابى بالتعليم (مقدم ١٩٩٣ : ١٨) .

أما المحدد المهم لمشاركة القوة العاملة للمرأة هو درجة الاستثمار العام فى المرأة العاملة مع الأطفال ، سواء فى تقديم خدمات رعاية الطفل وفى سن قوانين العمل التى تحمى حقوق المرأة هذه وتعزيزها . وهناك ثلاث خصائص ديموجرافية للمنطقة ذات صلة فى هذا الصدد : أولاً : أن النسبة الجوهرية من النساء تقع فى المجموعة العمرية الإنجابية ، ثانيًا : أن الغالبية العظمى من النساء متزوجات ، ثالثًا : أن معدلات الخصوبة مرتفعة (زوريق وسعدية ١٩٩٥ : ٣٨) . وتنطبق هذه الخصائص ، التى تستشهد بها هدى زوريق وفادية سعدية فيما يتعلق بالعالم العربى ، على إيران وتركيا أيضاً ، بيد أن هذه الناحية الديموجرافية مختلفة فى إسرائيل .

ويكمن تأثير هذه الخصائص الديموجرافية فى أن بعض المعوقات التى تقف أمام مشاركة المرأة فى القوة العاملة يمكن أن تضعف من خلال زيادة الاستثمارات العامة والخاصة فى مرافق رعاية الطفل من أجل المرأة العاملة والأكثر أهمية من خلال سن وتطبيق قوانين عمل تقف فى صالح المرأة العاملة التى لديها أطفال . وطالما أن

المهام الإنتاجية للمرأة لا تنال تأييداً من الناحية الاجتماعية وتعتبر أعباءً خاصة ، لن يتم تشجيع الكثير من النساء على الانضمام إلى القوة العاملة مدفوعة الأجر . وهناك عامل آخر يعوق توظيف المرأة ألا وهو التكلفة المرتفعة نسبيًا لمرافق رعاية الطفل (سواء العامة أو الخاصة) مقارنة بالأجور المنخفضة التى تتقاضاها المرأة فى السوق ، وهذا جعل خيار عمل المرأة خارج المنزل أمراً لا يجذب المرأة وأسرتها . ويقع الاعتبار الآخر الذى يؤثر على مشاركة القوة العاملة الرسمية للمرأة على مستوى الأسرة . واقترح سيتنى شامى (١٩٩٠) أن ينظر إلى عمل المرأة على أنه جزء من الاستراتيجيات التى تنشرها الأسر للتكيف مع ظروف طبقتها . وفيما يتعلق بوجهة النظر هذه ، تنشر الأسر ذات الموارد المالية المعتدلة مخاطر اقتصادية وذلك بتنويع عمل أفراد الأسرة : فالرجال والفتيان يدخلون فى الأنشطة التى تدر ربحاً كبيراً بسبب ارتفاع مستوياتهم التعليمية ، فى حين تميل المرأة إلى دخول القطاع غير الرسمى أو تصبح الدعامة الأساسية لزراعة المحاصيل التى تكفى أسرتها . ومن ثم فإن المرأة تؤدى أنشطة تتعلق ببقاء الأسرة بينما يدخل الرجل مجالات الاقتصاد المؤدية إلى رفع المستوى الاجتماعى للأسرة . وفى الحالات التى يبدو أنه يتاح للمرأة فرصة رفع المستوى الاجتماعى للأسرة فإنها تشارك فى القوة العالمة الرسمية وتصبح مصدراً اقتصادياً للأسرة (شامى ١٩٩٠ : ١٥ – ١٦) .

واتضح أن هناك عدداً من العوامل اجتمعت لتحديد وتقرير مدى النشاط الاقتصادى للمرأة وطبيعته فى الشرق الأوسط . وأن الافتقار إلى التأييد العام لعمل المرأة والعوامل الديموجرافية مثل العوامل المذكورة سالفًا والقضايا التى لها علاقة بهيكل سوق العمل والأسرة ضرورية لتفسير انخفاض مشاركة المرأة فى القوة العاملة .

إن وجهة النظر واسعة الانتشار التى تقول بأن المواقف المحافظة المستقاة من وجهة نظر عالمية إسلامية يمثل العقبة الرئيسية أمام عمل المرأة فى المجال العام ، وبالرغم من أنه سيكون من غير الصواب استبعاد صلة المواقف المحافظة – سواء المستقاة من الروح الدينية أم لا – إلا أن الشىء المقبول بصورة أكبر هو افتراض أن هناك مجموعة العوامل التى لها علاقة بهيكل الاقتصاد والنظام التعليمى والخصائص السكانية وسياسات الدولة تؤثر بشكلٍ متساوٍ ، إن لم يكن أكثر من ذلك ، فى تقرير حجم المرأة فى القوة العاملة وتوزيعها . وأنه لصحيح أن الأسس المنطقية والمبررات

الخاصة باستبعاد المرأة من العمل تمثل دائماً جزءاً من العبارات الاصطلاحية الشعبية وردت فى المصطلحات الدينية ، بيد أنه من الأهمية بمكان إدراك مدى تجاهلها أو إهمالها فِي الشرق الأوسط . فإن أى شخص على دراية بحياة الحضر فى الشرق الأوسط سيصدم بأعداد النساء اللاتى تقمن بنوع ما من العمل خارج المنزل سواء كن رئيسات عمل (معلمات) فى شوارع القاهرة أو بائعات للخضراوات فى أسواق القدس العربية أو جيوش الفتيات الخارجة من ورش عمل الحياكة فى نهاية عمل أى يوم فى إسطنبول .

الأسرة وصلة الدم :

ركزت المناقشة السابقة على بعض سمات مجتمع الشرق الأوسط ليس فقط فيما يتعلق بالنشاط الاقتصادى للمرأة ولكن فيما يتعلق أيضاً بالديناميكيات داخل المجتمع . وإننا نفحص الآن بعض السمات الرئيسية للعلاقات الأسرية بين الجنسين . وقد يكون مفيداً أن نبدأ فحصنا للأسرة داخل مفهوم المجتمع الأبوى الذى يشير بعبارة أشمل إلى نظام يمنح امتيازات للرجال والمسنين ويبرر هذا الامتياز من حيث القرابة (جوزيف ١٩٩٤ : ٢) . ويجد الأنثربولوجى دينز كانديوتى أوضح أمثلة على المجتمع الأبوى الكلاسيكى فى شمال أفريقيا والشرق الأوسط الإسلامى وجنوب شرق آسيا . وفى ظل هذا النظام ، تتزوج الفتيات وهن صغار السن لتصبحن جزءاً من أسر يرأسها آباء أزواجهن ويطعن فيها كافة الرجال والسيدات الأكبر سناً ، وخاصة حمواتهن . وعادة لا ترث المرأة شيئًا من والدها بالرغم من أن ما لديهم من موارد وتحكم فى المهر والممتلكات قد يكون متنوعاً (كانديوتى ١٩١ بى : ٣١ - ٣٢) .

و لاشك أن التحولات الاجتماعية التى اجتاحت المشاهد التى سادت فيها اعتراضات فى السنوات الأخيرة المجتمع الأبوى الذى يمثل تسلسلاً هرميًا للجنس والسن على أساس أن الأسرة وحدة إنتاجية . وتعتبر فرص العمل المريحة خارج الأسرة (ومعظمها للرجال ولكن أيضًا لقطاع متزايد من المرأة فى الحضر) وتفكك الأسرة الممتدة وارتفاع سن الزواج لكل من المرأة والرجل وارتفاع مستويات التعليم والهجرة من الريف إلى الحضر من بين العوامل الأخرى التى بدأت فى القضاء على بعض أساسات هذا لنظام . إن الأسر التى تقودها المرأة بسبب الطلاق أو وفاة الزوج

والأسر التى يتغيب فيها الرجل لفترات طويلة من أجل العمل أو الأوضاع التى تتقاضى فيها المرأة أجوراً خارج الأسرة تمثل جميعاً مشكلات للمجتمع الأبوى . كما أن الاستقلال الاقتصادى للأبناء وانفصالهم عن الأسرة التى نشأوا فيها بعد الزواج يعترض التسلسلات الهرمية للجنس والسن فى حالة الأبناء فى مواجهة آبائهم وفى حالة زوجات الأبناء فى علاقاتهن بحمواتهن .

بيد أنه من المهم الإشارة إلى أن هناك بعض الظروف التى يمكن أن تخفف من انهيار المجتمع الأبوى وفى بعض الأحيان قد تدعمه . ودعونا نضرب مثالاً لاستمرار العائلات المكونة من أكثر من أسرة من الناحية الفعلية بالرغم من تكوين الأبناء المتزوجين لأسر صغيرة . وبالرغم من هذا الترتيب ، الذى يعتبر تكيف لغياب الأمن الاجتماعى وغيرها من المساعدات التى تقدمها الدولة للمسنين ، قد يمنح الأبناء سلطة على آبائهم ، إلا أنه قد يعزز موقف الأبناء الكبار العاملين أمام شقيقاتهم وأشقائهم الذين مازالوا فى المنزل وهذا يبقى على التسلسل الهرمى للجنس والسن بشكل آخر . وبالطريقة نفسها نجد أنه بالرغم من أن زوجات الأبناء قد يتحررن من السيطرة المباشرة واليومية لحمواتهن، إلا أنهن قد يعتمدن عليهن إذا خرجن إلى العمل . وفى غياب المرافق العامة الملائمة ، عادة ما تعتمد المرأة على حماتها فى رعاية الأطفال وقد يتعين عليها تحمل الأعباء – والتدخل فى تربية أطفالها – التى ستأتى نتيجة لهذا الترتيب .

وقد تطرقت المناقشة السابقة إلى قضية وضع المرأة داخل الأسرة وعن هذا نتحدث الآن . وبالمشاركة فى القوة العاملة ، هناك عدد من العوامل التى تساعد فى تقرير وضع المرأة – وخاصة سلطتها – داخل الأسرة . ويعتبر السن والوضع الاجتماعى من بين العوامل المهمة التى تحدد وضع المرأة ، فأى زوجة شابة تكون دون شك فى وضع غير جيد مقارنة بأى زوجة أكبر سناً وخاصة الحماة ، وأن المرأة غير المتزوجة لديها عموماً صلاحيات أقل من المرأة المتزوجة . بيد أن المرأة غير المتزوجة التى تحصل على موارد مالية من دخل من ممتلكات أو وظيفة قد تتمتع بسلطة ملحوظة على أفراد الأسرة ، بمن فيهم والديها وأشقائها الصغار . أما المطلقة ، إذا لم تمتلك موارد كافية ، تعتبر من الأفراد الأكثر ضعفاً وقد تعتمد كلياً تقريباً على والديها وأشقائها من الناحية المالية حتى لو لم يعيشوا معها فى الأسرة نفسها .

ويعتبر عدد الأطفال – وخاصة الذكور – الذين تنجبهم امرأة عاملا آخر يحدد وضعها فى الأسرة . وعادة ما يتم التركيز على هذه الصفة فى حياة الأسرة بالشرق الأوسط فى تقارير المنطقة ويحتاج إلى تفسير . فبدلاً من فهم أن تفضيل الذكور قيمة ثقافية خالدة مستقاة من تقدير بدائى للذرية من الذكور من جانب السكان الشرق أوسطيين، سيكون الأمر مفيداً بصورة أكبر إذا نظر له على أنه ضرورى لبقاء النظام غير الرسمى للأمن الاجتماعى فى مجتمعات الشرق الأوسط .

وفى معظم المجتمعات فى الشرق الأوسط ، لا يسهم الأطفال الذكور فقط بالعمل أو الدخل فى رفاهية الأسرة ، بل إنهم مصدر أمان عند التقدم فى السن بالنسبة لآبائهم وأى شقيقات غير متزوجات فى غياب المعاشات التى تدعمها الدولة وغيرها من التعويضات لكبر السن أو التقاعد . وبالنسبة للمرأة التى من المحتمل أن تصبح أرملة قبل الرجل فإن وجود الأبناء ليس مصدراً لوضع اجتماعى – بالرغم من أن هذا وارد فى العبارات الإصلاحية الثقافية – بقدر ما هو أحد أشكال الأمن الذى لا يوجد له بدائل حقيقية حتى الآن فى القطاع العام .

وهناك عامل مهم آخر للوضع الاجتماعى وهو الحصول على موارد اقتصادية أو السيطرة عليها . فعادة ما يشير الأدب فى الشرق الأوسط إلى أن المرأة ، بالرغم من أن لها الحق بالقانون فى الحصول على حصة من ممتلكات والدها وإن كان غير مساوٍ لحصة أشقائها ، محرومة بشكل روتينى من الحق فى أن ترث هذه الممتلكات.

وبالرغم من أنه صحيح دون شك أن المرأة فى الشرق الأوسط مازالت محرومة من أن ترث بهذا الشكل – عادة ما يكون هذا «بموافقتها» – إلا أنه من الأهمية بمكان فهم المنطق الاجتماعى والثقافى وراء ما يبدو انتهاكاً صارخاً للحقوق الأساسية .

إن الأساس المادى للمجتمع ، كما نوقش الأمر من قبل ، هو العائلة المكونة من عدة أسر . (كانديوتى ١٩٩١ بى : ٣١) . وينظر داخلها إلى الرجال الأكبر سناً على أنهم يتحملون مسئولية الرعاية الاقتصادية لجميع أفراد الأسرة بمن فيهن النساء اللاتى تزوجن من رجال العائلة وأصبحن داخلها . وتصبح البنات اللاتى يتزوجن عضوات فى عائلات أزواجهن ويصبحن جزءاً من مسئولياتهم . بيد أن المرأة المتزوجة تحافظ على علاقة خاصة مع أشقائها بناءً على الدعم الذى بإمكانهم تقديمه

عندما تواجه مشكلات زوجية ، أو محن مالية أو فى حالات شديدة مثل الطلاق أو ترك بيت الزوجية . ومن الواضح أن هذا النظام يعتبر افتراض اعتماد المرأة على الرجال سواء كان هؤلاء الرجال أزواج أو أشقاء . ويعتبر إنكار حق المرأة فى الميراث تأكيداً لهذه الحقيقة ويقوم على أساس الاعتماد المعترف به على نطاق واسع بأن الرجال يحتاجون إلى الممتلكات التى يحصلون عليها من خلال الإرث من أجل الوفاء بالتزامات الأسرة التى من غير المتوقع أن تتحملها المرأة .

إن المجتمع الأبوى شأنه شأن أى نظام يتآكل بسبب التحولات الاجتماعية التى أشير إليها من قبل ، كما بدأت التحديات تواجه نظام الإرث . فالمرأة العاملة التى تسهم بدخلها فى رفاهية الأسرة أو المرأة غير المتزوجة التى تنفق على نفسها هى حقائق يتعين على هذا النظام التعامل معها بصورة متزايدة . بيد أنه حتى داخل التقسيم الجنسى للعمل الذى يفترضه نظام الإرث ، فلا يكون الحال عادة ألا يتم منح كل النساء ميراثهن أو حقهن فى المطالبة به .

وقد تشير نتائج الأبحاث الواردة من فلسطين إلى نماذج أعرض . فعلى سبيل المثال أوضح عالم الأنثربولوجيا أنليس مورس أن العوامل المهمة التى تقرر ما إذا كانت المرأة الفلسطينية فى منطقة نابلس تحصل على حصتها فى الميراث أو تطالب به هو الوضع الاجتماعى والطبقة الاجتماعية وبالوضع فى الأسرة . وتبدى البنات اللاتى لا أشقاء لهن وأمهاتهن الأرامل أكبر الاهتمام بالمطالبة بحصصهن . كما أن البنات من الأسر الثرية يكن دائماً فى موقف أفضل لإرث بعض من ممتلكات الأسرة. وفى حالة الأغلبية التى تكون فيها المرأة متزوجة ومن أسرة ذات موارد مالية متواضعة وليس لديها أشقاء ، يكون الوضع مختلفاً . وهنا تحجم الشقيقات عن المطالبة بحصصهن لصالح أشقائهن فى إطار استراتيجية تعظيم : فاعتماد المرأة بشكل أساسى على أقاربها من أجل أمنها الاجتماعى الاقتصادى ، يبرر تخليها عن الميراث من أجل التأكيد على التزامات أقاربها تجاهها (مورس ١٩٩٦ : ٦٩ – ٨٤) .

وتظهر المناقشة السابقة أنه فى داخل هيكل الأسرة الأبوى ، لا يعادل إنكار حق المرأة فى الميراث إنكار كافة حقوقها فى موارد الأسرة . غير أنه ، كما أشار مورس يتعين إدراك أن اعتماد المرأة على الرجل ، وهو أساس هذا النظام كما نوقش الأمر من قبل ، قد يصبح متزعزعاً بشكل متزايد ، ولأن العلاقة الزوجية (بين الزوج والزوجة)

أصبحت أكثر أهمية (مورس : ١٩٩٦ : ٨٣) ولأن الأسرة الكبيرة أصبحت أكثر انقساماً فإن المرأة ستشترك فى الموارد بدون «الحماية» التى يكفلها نظام الإرث لهن وأن ضعفهن قد يزداد .

القيم والأعراف :

إن الفكرة القائلة بأن الأعراف والقيم التقليدية المحيطة بالمرأة والأسرة تملى الممارسات الحالية وتحد من حرية وفرص المرأة أصبحت جزءاً من الفهم البديهى للعلاقات بين الجنسين فى الشرق الأوسط . وإن الكثير من الأعمال البحثية والعامة التى قام بها الغربيون والشرق أوسطيون على حد سواء أرجعت انخفاض مشاركة المرأة فى القوة العاملة أو انخفاض إنجازاتها العلمية إلى التمسك بالمفاهيم التقليدية من احترام الأسرة وسلوكها الحسن تجاه المرأة .

ومن المفيد الإشارة إلى أن هناك سمتين لتفسيرات الممارسات الاجتماعية والسلوك الاجتماعى التى تشير إلى التقليد . أولاً ، نجد أن هذه التفسيرات تتعامل على وجه الحصر لا القصر مع المجتمعات غير الغربية . ويبدو أن الافتراض هو أن المجتمعات غير الغربية وخاصة مجتمعات الشرق الأوسط الإسلامى مازالت تحت قبضة نظم القيم التقليدية الثابتة . وأن البداية الإلزامية لأى فحص للواقع الحالى للمرأة من خلال مناقشة للسياق التقليدى تعتبر نموذجاً بارزاً لهذا الأسلوب . فسيكون من الغريب جداً رؤية مناقشة لحياة المرأة فى فرنسا أو السويد أو أمريكا الشمالية موضوعة فى الإطار نفسه ، مما يدل على أننا لا نأمل فى فهم واقعهم الحالى قبل عرض السياق التقليدى للعلاقات بين الجنسين أولاً . ثانياً ، تظهر الإشارة إلى الأعراف والقيم التقليدية عندما تصبح الأمور المتعلقة بالعلاقات بين الجنسين والأدوار والكيانات محل نقاش .

كيف يمكننا فهم الممارسات الاجتماعية والأنماط السلوكية التى تظهر فى مواجهة هذا وتمليها القيم والأعراف التقليدية ؟ ولبحث هذه المساءلة ، يتعين علينا أولاً إدراك أن الأعراف والقيم هى تركيبات تاريخية أولاً وقبل أى شىء لا «يسلمها» جيل إلى جيل فى أى مجتمع بدون أن تمر بإعادة تعريف وإعادة تشكيل . وأن عملية التحول هذه مشروطة بتغير الواقع الاجتماعى وتعكس الصراع بين المجموعات الاجتماعية المختلفة والشعب ككل سعياً لتحقيق مصالحهم الخاصة والمشتركة .

والمثال الرئيسى على هذا هو «ميثاق الشرف» الخالد بصورة مسلم بها الذى يعتقد أنه ينظم سلوك المرأة فى مجتمعات الشرق الأوسط الإسلامية . ويكشف فحص للممارسات والقيم الاجتماعية فى هذه المجتمعات أن معنى الشرف تغير بشكل ملحوظ خلال العقود الماضية فأصبح به ما يمثل انتهاكاً لقانون الشرف . فالممارسات والسلوك الذى كان ينظر له على أنه انتهاك خطير لميثاق الشرف منذ عقود لا تلقى ردود الفعل نفسها اليوم . ويعتبر الفصل بين الرجل والمرأة ، الذى ينظر له عادة على أنه دعامة لنظام الشرف ، مثال على ممارسة تزعزعت بشكل جدى إذا لم تكن قد انتهت من خلال التحولات الاجتماعية الرئيسية الحادثة فى المنطقة . فبالرغم من أنه مازال خاضعاً للنقاش بين القوى الاجتماعية المتنافسة ، إلا أن مئات الآلاف من النساء فى الشرق الأوسط اليوم يعملن ويدرسن فى مؤسسات مختلطة بدون نقد أو خزى اجتماعى. حتى إن الإسلاميين قاموا عن اهتمام بإعادة ترجمة مواثيق الشرف التى من المفترض أنها ثابتة مثل المواثيق التى تحظر الإختلاط بين الرجال والنساء وذلك بتعديلها وفقًا لمقتضيات الحياة الحديثة كما هو الحال فى مشاركة المرأة فى القوة العاملة أو الدراسة فى الجامعات . وأن هذا التكيف مع المجتمع الحديث من جانب الإسلاميين يعتبر العرف أكثر من كونه الاستثناء اليوم ، وذلك كما حاولنا أن نثبت فى المناقشة الخاصة بإيران فيما سبق .

وكما أشرنا من قبل ، وكما هو الحال فى أى مجتمع ، فإن القوى الاجتماعية والسياسية المتنافسة وكذا الأفراد يناقشون على الدوام تعريف الشرق وحدوده . ويمكن النظر إلى التنوع الكبير فى رداء المرأة فى الشرق الأوسط اليوم على أنه انعكاس لهذا الصراع الصامت . وأن أعداداً كبيرة من السيدات فى الحضر تتبنى أنماط أو درجات مختلفة من الزى الإسلامى ، وهناك أعداد متساوية ترتدى ملابس عصرية وفقًا للموضة العالمية . ويتسم كل هؤلاء النساء بالانتباه إلى السبل المناسبة وغير المناسبة لارتداء الملابس بيد أنهن يحددن باختياراتهن القواعد المختلفة للبساطة واللياقة . وبهذا تشهد تحديداً يومياً تقريباً للمعايير والأعراف الجديدة التى تتفاوض بها المرأة باستمرار وتمد بها حدود مواثيق الشرف التى يفترض أنها ثابتة .

وعلينا أن نضع فى الاعتبار احتمال أن تكون بعض القيم والأعراف مقصورة على مجموعة أو طبقة ولا يمكن تعميمها على مستوى المجتمعات كلها ، ناهيك المنطقة.

وتعتبر الطريقة التى تحدث بها عملية التعميم فى حد ذاتها موضوع للبحث حيث ظهرت مجموعة من العوامل تدل على أن القيم والأعراف شيء شامل . فعلى سبيل المثال – وعلى عكس الانطباع الذى تعطيه الآراء الغربية المنتشرة – فإن عزل المرأة فى المناخ الأسرى ليس هو السائد لغالبية السيدات فى مجتمعات الشرق لأوسط ، سواء فى مناطق الريف أو الحضر . وأن أحد المتطلبات الرئيسية للعزل هى التحرر من العمل فى الحقل أو الحى أو الأماكن العامة الأخرى ، وهذا ليس خيار الكثير من النساء حتى إذا نظر إليه على أنه الأفضل .

وقد أظهر البحث التاريخى الذى أجرته جوديث تكر فى مصر وفلسطين ، على سبيل المثال ، أنه فى القرن ال ١٩ فى القاهرة ونابلس ، يختلف الالتزام بميثاق الحياء وفقاً للطبقة : فبين الطبقة العليا تعتبر مبادئ احترام المرأة مهمة ويقتصر تحرك المرأة على جناح الحريم ، بيد أنه بالنسبة للفقراء ، تعتبر المرأة جزءاً كبيراً من حياة العمل العام الذى يتغاضى عن ما يتعلق بفكرة عزل المرأة (تكر ، ١٩٩٣ : ٢٠٥) . ويمكن أن تتحمل المجتمعات الزراعية عزل المرأة بدرجة أقل . فقد أظهر البحث الرائد الذى أجراه ريتشارد أنطون فى قرية أردنية فى الستينيات أن عمل الفلاحة مهم جداً فى بقاء زراعة الحبوب الجافة فى القرية . وهذا يستلزم وجود المرأة فى الخارج إلى جانب رجال أسرتها وكذا الرجال غير ذوى القربى . ومن ثم فإن النظام الزراعى والتقسيم الجنسى للعمل الذى تلعب فيه المرأة دوراً مهماً فى مجال الزراعة يعدان من بين العوامل الرئيسية التى تقوض الالتزام بميثاق الحياء حتى ولو كان يعتبر هدفاً أعلى فى المناقشات المحلية (أنطون ١٩٦٨ : ٦٨١ – ٦٨٢) .

السياسة :

ترجع المشاركة المنظمة للمرأة فى الشرق الأوسط فى العملية السياسية إلى السنوات الأولى من القرن العشرين و هى مشاركة مرتبطة من البداية بتيارين متشابكين رئيسيين منتشرين فى المنطقة وهما مسيرة التحديث والإصلاح الاجتماعى والنضال القومى من أجل الاستقلال عن الهيمنة الاستعمارية .

وأصبحت مسألة المرأة مكوناً مهماً لأيديولوجيات التيارات الإصلاحية والقومية فى جميع أنحاء الشرق الأوسط .

وارتبطت التحركات الأولى المنظمة للمرأة ببرامج الداعين إلى المساواة بين المرأة والرجل فى تركيا وإيران ومصر فى العقد الأول من القرن العشرين . وضم برنامجها مطالب للتعليم وفرص العمل ولإصلاح الأمور التى تحكم التشريع مثل الزواج والطلاق والوصاية على الطفل والميراث (جراهام - برادن ١٩٩٣ : ٢) . وقد تم تأسيس المنظمات النسائية الأولى فى تركيا وإيران فى العقد الأول من القرن العشرين (كانديوتى ١٩٩١ آية : ٢٩ عقارى ١٩٨٩ : ٦٦) يليها التوسع السريع لمنظمات المرأة فى جميع أنحاء الشرق الأوسط . ومن المهم الإشارة إلى أن من قمن بتأسيس المنظمات النسائية الأولى وعلى نطاق أوسع عضواتها جئن من الطبقات العليا والمتوسطة وهن دائماً زوجات وبنات وشقيقات رجال بارزين فى الحياة العامة . كما تقوم الكثير من هؤلاء النساء بأعمال خيرية فى مجتمعاتهن ، وهو مسعى يتفق مع وضعهن وامتيازاتهن وجزء من نموذج موجود فى جميع أنحاء العالم . وبالرغم من نقاط الاشتراك هذه ، إلا أن مشاركة المرأة فى السياسة فى الشرق الأوسط لا تقتصر على الفاعلية داخل إطار المنظمات النسائية التى تثير القضايا النسائية . فهناك تنوع غنى فى أشكال وأنماط مشاركة المرأة ، وعن هذا نتحدث الآن.

ويمكن تحديد أشكال وأنماط مختلفة من مشاركة المرأة فى السياسة فى الشرق الأوسط. الأول هو مشاركة المرأة كمحاربة وعضو مساند فى معارك التحرير الوطنية أو الحركات الثورية وخاصة فى حرب التحرير الجزائرية ، والمقاومة الفلسطينية والثورة الإيرانية . أما الشكل الثانى للنشاط السياسى للمرأة هو تشكيل المرأة «لأذرع» أو أفرع الأحزاب والجبهات السياسية . والشكل الثالث هو أن المرأة تشارك كعضو فى الأحزاب والتشكيلات السياسية . والشكل الرابع هو أن المرأة أصبحت نشطة أيضاً فى المنظمات النسائية التى تشكلها أو ترعاها الأحزاب الحاكمة والدول مثل الاتحادات النسائية فى الكثير من الدول العربية وإيران . والشكل الخامس للنشاط السياسى للمرأة يكمن داخل المنظمات المستقلة (ولكن ليس بالضرورة السياسية منها) التى تتنوع برامجها بشكل كبير من حيث طبيعة ومضمون نشاطها فى قضايا المرأة . وبالرغم من أن المنظمات تلك ، فى شكل مجتمعات خيرية وما يشبهها ، الموجودة فى الشرق الأوسط منذ عقود ، إلا أننا نركز على المنظمات الجديدة الأكثر وعيًا بالمرأة والتى تأسست فى الثمانينيات والتسعينيات . وفى النهاية ، فإن الشكل السادس لمشاركة المرأة

فى السياسة يأتى فى العملية الانتخابية كناخبات ومرشحات ومسئولات عن مناصب فى الحكومات .

بيد أنه يتعين التعامل مع دراسة أشكال مشاركة المرأة فى السياسة بحذر حيث إن الفئات غير مقصورة على جماعة بعينها وقد يكون هناك تشابك ملحوظ بينها . فعلى سبيل المثال شاركت الكثير مَن الفلسطينيات فى أنشطة عسكرية وشبه عسكرية داخل إطار المقاومة الفلسطينية في السبعينيات ، بينما كن عضوات فى الأحزاب السياسية ومنتميات للمنظمات النسائية لهذه الأحزاب .

التحرير الوطنى والحركات الثورية :

إن الحالات الموثقة تماماً لمشاركة المرأة فى حركات التحرير والثورات الشعبية هى الحالات الخاصة بالجزائر وإيران وفلسطين . وبالرغم من وجود الكثير من أوجه التشابه بين هذه الحالات وحالات أخرى . إلا أنه من الصعب تعميم دور المرأة ووضعها في هذه الحركات . وقد جرت الحركات فى الجزائر وإيران على أراض وطنية ، بيد أن الحركات فى الجزائر كانت نضالاً ملحاً ، فى حين أن الثورة فى إيران – ومشاركة المرأة فيها – لم تكن ذات طبيعة مسلحة . تتعين الإشارة إلى ، كما يشير حميد شهيديان (١٩٩٧) ، أن المرأة الإيرانية نشطة فى منظمات العصابات المسلحة – فى المقام الأول منظمة المجاهدين الشعبية الإيرانية ومنظمة جماعات الفداء الشعبية فى ظل حكم شاه فى السبعينيات وأيضًا عقب الثورة وحتى فى منتصف الثمانينيات .

وفى فلسطين ، كان مركز معظم أنشطة العصابات المسلحة خارج فلسطين فى السبعينيات ، فى حين أنه فى داخل الأراضى المحتلة ، تم سحق النضال العسكرى ولم يكن له قاعدة جماهيرية شعبية كما هو الحال فى الجزائر . وعلاوة على هذا ، حظى نضال الفلسطينيين خلال انتفاضة أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات بتأييد جماهيرى ولكنه لم يكن عسكرياً . وإن الشيء المشترك فى كل من هذه النماذج هو أن المرأة من كافة الطبقات الاجتماعية سواء كانت من الريف أو الحضر شاركت فى هذه الحركات بالرغم من أن الميزان ليس دائمًا فى صالح المرأة ذات الموارد المالية البسيطة . وبالإضافة إلى ذلك ، لم يكن للمرأة مواقف عسكرية فى صنع القرار أو فى

خطط المواجهة الأمامية فى أى من هذه الحركات الثورية . وكانت معظم المهام المخولة للمرأة ذات طبيعة تقديم الدعم . حتى فى الجزائر حيث لعبت المرأة دوراً مهمًا وحيوياً فى حرب التحرير ، بما فيها الجناح المسلح لجبهة التحرير الوطنى ، شملت أعمال التدمير شبه العسكرية لأهداف مدنية ، (٦٥,١ ٪) بالكاد من النساء اللاتى انضممن إلى الحركة (لازرق ١٩٩٤ : ١٢٤) .

منظمات «الجبهة» النسائية :

إن تشكيل الأحزاب والحركات لمنظمات أو أفرع جبهة نسائية من أجل حشد المرأة لقضية وطنية أكبر يعتبر نموذجًا مشهوراً فى الشرق الأوسط . فالعلاقة بين الحزب الشيوعى السودانى والاتحاد النسائى السودانى تعتبر نموذجًا على ذلك ، وفى القضية الفلسطينية تعتبر المنظمات النسائية المنتمية إلى الأحزاب والجبهات السياسية المختلفة فى الأراضى المحتلة والشتات نموذجًا آخر . ويأتى من إيران نموذج آخر للمنظمات النسائية المنتمية لحركات سياسية قبل الثورة وخلالها .

وعموماً فإن المنظمات النسائية التابعة لأحزاب سياسية كانت أقل استقلالاً ، وهذا يعنى فى غالبية الحالات أنه تم إخضاع اهتمامات المرأة لاهتمامات وطنية أكبر ولم يتم تركيز طاقات المرأة بشكل أساسى على تمثيل مصالح المرأة والنضال من أجلها . بيد أن هذا الوضع غير مفاجئ وخاصة فى حالة الأحزاب التى تشترك فى حركات شعبية من أجل الاستقلال مثل القضية الفلسطينية .

الأحزاب السياسية :

لا توجد أبحاث كثيرة حول مشاركة المرأة فى الأحزاب السياسية . بيد أن التشابه العام بين الأحزاب السياسية الكبرى فى المنطقة يظهر أن المرأة لم تحقق مناصب قيادية سواء فى الأحزاب الحاكمة أو المعارضة فى جميع أنحاء الشرق الأوسط. والاستثناءات الوحيدة هى إسرائيل وتركيا حيث قادت جولدا مائير فى بداية السبعينيات وتانسو تشيلر فى التسعينيات الأحزاب السياسية ورأستا حكومتى دولتيهما . ومن ثم أصبحت الأحزاب السياسية معاقل حقيقية للرجال ومقصورة عليهم فى الشرق الأوسط حيث يوجد اختلاف بسيط بين الأحزاب الليبرالية أو اليسارية والأحزاب

اليمنية الأكثر تحفظاً . إن أحد العوامل التى تمثل قلة المعلومات حول مشاركة المرأة والرجل فى الأحزاب السياسية هى أن العملية الديمقراطية التى تتنافس فيها الأحزاب المتناحرة للفوز فى الدوائر الانتخابية ليست هى القاعدة فى الكثير من دول الشرق الأوسط . ومن ثم فإن الأحزاب السياسية مقيدة تماماً من خيث الحجم حيث تم سلبها سبب وجودها وهو تمثيل مصالح الدوائر الانتخابية فى تسابق سياسى للوصول إلى السلطة .

«تشكيل» المنظمات النسائية :

قال الكثيرون من المطالبين بحقوق المرأة إن المنظمات النسائية فى الشرق الأوسط لم تتشكل بشكل تلقائى وإن الأحزاب السياسية بل الأكثر أهمية وهى الدولة هى التى تملى عليها جدول أعمالها ونشاطها . وإن استعراض المنظمات النسائية الرئيسية فى مختلف البلدان فى الشرق الأوسط يؤيد هذه الملاحظة . ومن الناحية التاريخية ، أظهرنا كيف انبثقت المنظمات النسائية الأولى عن حركات القوميين والإصلاحيين فى بداية القرن العشرين ونصت على مطالب وأهداف تتفق مع جداول أعمال تحديث العناصر داخل هذه الحركات .

وفى العقود التى أعقبت تأسيس المنظمات النسائية الأولى نجد استثناءات قليلة حيث قامت الدولة بترويض طاقات التنظيم النسائية وفى بعض الحالات شاركت هذه الطاقات فى مشروع بناء الدولة . ففى العراق ، على سبيل المثال ، شكل حزب البعث الحاكم الاتحاد العام للمرأة العراقية فى عام ١٩٦٨ كجناح نسائى للحزب بهدف إشراك المرأة فى الدولة وكجزء من مسيرتها نحو إعادة إشراك المرأة فى الشئون الاجتماعية وتعبئتها . وتقوم الدولة بتمويل الاتحاد ويتقلد أعضاء الحزب مناصب قيادية (جوزيف، ١٩٩١ : ١٨٢) . وتعتبر إيران حالة أخرى لدولة مركزية تحاول احتواء الطاقات التنظيمية للمرأة والسيطرة عليها . وفى الستينيات ، بدأت الدولة تحت قيادة محمد رضا شاه تدعيم سيطرتها على منظمات المرأة ، مما وضع نهاية لتأسيس المنظمة النسائية المؤثرة فى إيران ذات الصلاحيات والموارد المهمة المتاحة لديها (نجم عبادى ١٩٩١ : ٦٠ – ٦١) . وتعتبر الجزائر نموذجاً آخر . فعقب الاستقلال ،

شكلت جبهة التحرير الوطنية الحاكمة الاتحاد الوطنى للمرأة الجزائرية ليمثل المرأة الجزائرية .

وقد منح عقد الأمم المتحدة للمرأة الذى بدأ فى عام ١٩٧٥ حملة إقامة منظمات نسائية وطنية دفعة كبيرة . وطلب من الحكومات بعد ذلك إرسال مندوبين إلى المؤتمرات العالمية المتعاقبة الخاصة بالمرأة والعدد المتزايد من المؤتمرات الدولية والإقليمية التى تم تنظيمها لبحث قضايا المرأة . ومن ثم ، نالت مسألة كيفية تمثيل البلاد وتقدمها فى تحقيق حقوق المرأة أهمية كبيرة .

وقد مثلت الاتحادات النسائية فى الكثير من بلدان الشرق الأوسط بلادها على المستوى الرسمى حيث تسيطر الدولة على هذه الاتحادات . ولكن كانت هناك منتديات للمنظمات غير الحكومية فى المؤتمرات العالمية وأتاحت فرصة للمرأة فى المنظمات المستقلة لتعرب عن مخاوفها التى تضاربت من آن لآخر مع الخط الرسمى الذى مثلته الوفود الرسمية .

المنظمات النسائية المستقلة :

شهدت الثمانينيات والتسعينيات ظهور جهاز جديد ومتنوع لمنظمات نسائية مستقلة وشبه مستقلة فى الشرق الأوسط . بالرغم من أن الكثيرات ليس لديهن توجهات سياسية بالمعنى التقليدى للكلمة ومعظمهن لديه دائرة انتخابية ذات قاعدة شعبية ، إلا أنه قد ينظر إليهن جميعا على أنهن يشتركن فى السياسات المتعلقة بالمرأة بطريقة أو بأخرى. ويعتبر نمو هذه المنظمات (وخاصة فى مصر وتونس والمغرب والأردن وفلسطين ولبنان) جزءاً من تنمية أوسع على مستوى المجتمع المدنى فى الشرق الأوسط يمثلها انتشار المنظمات غير الحكومية بمختلف الأشكال . وتعتبر جماعات حقوق الإنسان ومعاهد السياسات التنموية والاجتماعية ومراكز الأبحاث وخدمات المساعدات القانونية مجرد بعض نماذج على هذا .

ويمكن تمييز المنظمات النسائية الجديدة عن منظمات الجبهة النسائية المسيسة بصورة أكبر والاتحادات النسائية التى تسيطر عليها الدولة والمنظمات الخيرية التقليدية بطبيعة عضويتها وبرنامجها الاجتماعى والسياسى ونطاق اتصالاتها داخل المنطقة وخارجها . وتحاول هذه المنظمات ، التى أسستها وتعمل بها أساساً مهنيات من الطبقة

الوسطى (مثل المحاميات والطبيبات والأكاديميات) صياغة برنامج نسائى حول قضايا مثل الإصلاح السياسى والقانونى والسياسات الاجتماعية والصحة الإنجابية وسياسة السكان والعنف الأسرى وغيرها من القضايا التى تخص المرأة . وتتمتع العضوات فى هذه المنظمات بإدراك عال فى المنتديات الدولية والإقليمية التى تعقد لبحث هذه القضايا. ومن ثم تتنافس هذه المنظمات مع الاتحادات النسائية الرسمية فى بلادها للفت الانتباه على الساحة الوطنية والدولية وحققت نجاحًا نظراً لمعرفتها الوطيدة بالقضايا العالمية للمرأة ومهاراتها المهنية الملحوظة .

بيد أن التأثير الاجتماعى لهذه المنظمات مازال محدوداً لأنها لا تستمد طاقتها من المجتمع وتقبع بعيدة بصورة كبيرة عن جماهير المرأة فى مجتمعاتها .

المرأة فى العملية الانتخابية وفى الحكومة :

البيانات الدقيقة حول مشاركة المرأة فى العملية الانتخابية تبدو متفاوتة . ونحن نعلم أن مشاركة المرأة فى الانتخابات الوطنية والمحلية فى معظم الدول تتدرج من معتدلة إلى جوهرية (فيما عدا بالتأكيد الدول التى لا تجرى فيها عمليات انتخابية أو التى لم يتم فيها تحرير المرأة) .

بيد أن تمثيل المرأة فى هياكل الدولة والبرلمانات فى المقام الأول والحكومات محدود جداً . فهناك ١٤ امرأة بين أعضاء الكنيست الإسرائيلى لعام ١٩٩٩ البالغ عددهم ١٢٠ عضواً . ومن بين البرلمانات فى الدول العربية ، توجد أعلى نسبة لتمثيل المرأة فى البرلمان فى العراق (١٠,٨ ٪) ، ثم السودان (٨,٢ ٪) ، ثم سوريا (٨ ٪) ، ثم الجزائر (٧ ٪) وأخيراً تونس (٦,٧ ٪) . وفى إيران ولبنان والأردن ، نجد أن نسبة تمثيل المرأة تصل إلى ٣ ٪ ، ولكن الأعداد مازالت أكثر انخفاضًا فى مصر (٢,٢ ٪) وتركيا (١,٨ ٪) (برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ١٩٩٥ : ٦٠ – ٦٢ ، برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ١٩٩٦ : ١٤١ – ١٤٢) .

و الحقيقة أن وجود المرأة على المستويات الوزارية وشبه الوزارية أقل أهمية . وتظهر أرقام عام ١٩٩٥ أنه لا توجد امرأة على المستوى الوزارى فى دول الخليج والسعودية وليبيا والسودان والمغرب والعراق ولبنان والجزائر وإيران ، وفى الدول

الأخرى نجد أن إسرائيل تتمتع بأعلى نسبة وهى ١٣٪ يليها سوريا ٦,٨٪ والأردن ٣,٢٪ . ولكن الوضع على المستوى شبه الوزارى أفضل قليلاً حيث تظهر عدد من الدول ، بما فيها بعض دول الخليج ، تمثيلاً للمرأة إلى حدٍ ما (برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ١٩٩٦ : ١٥٦–١٥٧) . بيد أنه يتعين استعراض هذه الأرقام فى سياق . ففى الولايات المتحدة ، يصل تمثيل المرأة إلى ١٠,٤٪ فقط وفى اليابان ، تحتل المرأة ٧٪ فقط من المقاعد البرلمانية . ويأتى هذا فى تباين حاد مع الرائدتين العالميتين فى هذا المجال وهما النرويج (٣٩,٤ فى المائة) وفنلندا (٣٣,٥٪) (برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ١٩٩٥: ٦٠ – ٦٢، برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ١٩٩٦ : ١٤١ – ١٤٢) .

نشاط المرأة المسلمة :

إن أنشطة المناصرين للمرأة فى الشرق الأوسط تربطها علاقة صعبة بالإسلام منذ بداية هذا القرن . ولا يمكن تجنب الارتباط بالإسلام فى المجتمعات حيث تقوم الكثير من القوانين التى تؤثر على الوضع الشخصى للمرأة على أساس الشريعة وحيث يحرص صفوة الدولة على عدم إثارة عداء المؤسسة الدينية أو تبنى مواقف قد تؤذى ما يعتقد بأنها حساسيات دينية سائدة . ومن البداية سعى المناصرون للمرأة – وكذا مؤسسات الدولة – إلى إثبات أن الإسلام لا يعارض تعليم المرأة وتحريرها ومشاركتها فى المجال العام والعمل خارج المنزل . بيد أنه بالرغم من أنه قد يتم الاستشهاد بالإسلام لتبرير تحرير المرأة ، إلا أن معظم المناصرين للمرأة أصبحوا علمانيين فى مساعيهم وأساليب حياتهم ومعتقداتهم السياسية . ويمثل نمو القوى الإسلامية فى جميع أنحاء الشرق الأوسط تحدياً للمناصرة العلمانية للمرأة والأهم من ذلك أنه أدى إلى ظهور ما قد يسمى بالتيارات الإسلامية للمناصرين للمرأة . وحصلت هذه التيارات على موافقة الدولة فى إيران والسودان وبعض دول الخليج ، وظهرت هذه التيارات فى سائر أنحاء الشرق الأوسط كقوى اجتماعية وأيديولوجية مهمة على الساحة السياسية لتنافس المناصرة العلمانية للمرأة من أجل نيل تعاطف المرأة وتأييدها.

وتمثل المرأة الإسلامية بالفعل تحدياً للمناصرين العلمانيين للمرأة . وحيث إن الناشطات الإسلاميات عمومًا متعلمات ومهنيات ولسن ظلاميات لا يستطيع

المناصرون العلمانيون للمرأة تجنبهن باعتبارهن تقليديات وانعزاليات . وعلاوة على هذا ، فإنهن فى جميع أنحاء الشرق الأوسط ، ابتداء من إيران وحتى الكويت يكتسبن مزيداً من الرؤية ويدخلن الساحة السياسية العامة . وبالرغم من أن المرأة الإسلامية لم تتخذ علناً الهيكل الإسلامى للمرأة المسلمة المثالية أو التقسيم الجنسى السائد للعمل ، إلا أنها ، بأسلوب حياتها الخاص ومساعيها المهنية والسياسية ، تحيد بطرق كثيرة عن المثالية . والآن فى بداية القرن الحادى والعشرين يتم تقديم نموذج جديد للشابات : النموذج لامرأة «مسلمة» متعلمة ومهنية .

وفى إيران ، أصبح دور المرأة المسلمة الذى يتمثل فى تحدى سياسات الدولة فيما بعد الثورة التى قيدت حقوق المرأة ، فريداً وجديراً بالانتباه إليه . وعقب الثورة ، شجعت الدولة على تطوير حركة نسائية إسلامية لمواجهة تهديد المناصرة العلمانية للمرأة . بيد أن المرأة المسلمة بدأت تعرب عن نقدها لبعض سياسات إخفاء الطابع السياسى مثل قواعد الزى الإسلامى ، الأمر الذى أدى فى أواخر الثمانينيات إلى ظهور معارضة من المناصرين الإسلاميين للمرأة . فقد قام المناصرون الإسلاميون للمرأة بحملات للقضايا المتعلقة بالحقوق داخل الأسرة وقواعد الزى والتوظيف والمشاركة السياسية والتعليم (بايدار ١٩٩٦ : ٥٩ - ٦٢) .

خاتمة :

حاول هذا الفصل التركيز على تنوع وضع المرأة وحقائقها فى الشرق الأوسط ، بينما أكد على نقاط التشابه العريضة فى الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تزاول المرأة فى ظلها حياتها . وكما رأينا ، فإن مشروعات بناء الدولة لها آثار مهمة على وضع المرأة فى المجتمع وعلى الحقوق التى حرمت منها أو تتمتع بها .

كما شاهدنا أيضاً أن المرأة فى الشرق الأوسط أصبحت نشطة على الساحة السياسية وهو دور لا يتفق مع التمثيلات البديهية للمرأة مثل الموضوعات السياسية السلبية التى تحصرها داخل نطاق الأسرة . إن المشاركة الكبيرة للمرأة الإيرانية فى الثورة على سبيل المثال تعيد إلى الذهن تلك المفاهيم عن المرأة فى الشرق الأوسط بأنها خارج نطاق السياسة .

وعلاوة على هذا ، حاولنا إثبات أن حياة المرأة فى الشرق الأوسط وفي أماكن أخرى من العالم شكلتها العديد من التأثيرات والعوامل . وتوضح العوامل المالية الملموسة المتعلقة بالحقائق الاجتماعية الاقتصادية وسياسات الدولة ، الممارسات الاجتماعية والمؤسسات بصورة تفوق المعتقدات التقليدية . وبالرغم من أن المعتقدات هذه مهمة فى المخطط الشامل للأشياء ، إلا أنها متغيرة ومرنة وديناميكية .

ملاحظات :

١- الأبحــاث التى أجــرتهــا المؤلفــة (تراكى ، ١٩٩٦) فى الأردن تؤيد هذه الاستنتاجات حول تكيف وتعايش الإسلاميين مع متطلبات الحياة فى مجتمع سريع التغير . وللمزيد من المناقشات والتحليل بشأن اهتمام الإسلاميين الأردنيين وغيرهم بسلوك المرأة فى المجتمع الحديث ، يرجى الرجوع إلى كتاب تراكى (١٩٩٥) .

٢- من المصادر المفيدة لدراسة مشاركة النساء فى الحركات الثورية كتب بينيت (١٩٩١) ، وصايغ (١٩٩٣) ، وجاد (١٩٩٠) عن دور المرأة فى المجتمع الفلسطينى ، وكتاب لازريج (١٩٩٤) عن دور المرأة فى المجتمع الجزائرى ، وكتاب نشأت (١٩٨٣) ، وفردوس (١٩٨٣) ، وشهيديان (١٩٩٧) عن دور المرأة فى إيران .

٣- لمزيد من المناقشات حول هذه النظرية ، انظر كتاب هال (١٩٩٦ - الصفحات ١٥١ - ١٨٣) .

٤- كتاب المقدم (١٩٩٤) يحتوى على سلسلة من المقالات القيمة عن دور النساء والحركات الإسلامية فى السودان ، وتونس ، والجزائر ، ومصر ، وتركيا ، وإيران.

٥- من المهم هنا التحذير من النظر إلى النساء فى إيران باعتبارهن يشكلن جماعة ضخمة مستقلة ومنفردة . انظر كتاب مغيثى (١٩٩٦) والذى يتضمن مناقشة حول التفرقة بين النخبة من النساء «المحافظات» و «الإصلاحيات» . وتحتل النساء المحافظات ، واللاتى يؤيدن ويدافعن عن نظام الحكم الدينى ، مناصب عامة بارزة فى الأجهزة الحكومية ، ويرتبطن كلهن تقريباً بعلاقات مصاهرة وزواج برجال أقوياء وذوى نفوذ يمثلون صفوة المجتمع الإيرانى . أما النساء الإصلاحيات فيمثلن شريحة اجتماعية كبيرة يتزايد شعورهن بالسخط وعدم الارتياح إزاء النظام القانونى والسياسات الحكومية فى مجالات التعليم والتوظيف، وذلك برغم ما يبدو من أنهن ينتمين إلى الطبقة الاجتماعية نفسها والخلفية الاجتماعية التى تنتمى إليها المجموعة النسائية المحافظة .

المصادر :

١- جانيت عفاري : «أصول ونشأة الحركة النسائية في إيران في أوائل القرن العشرين» - مجلة تاريخ المرأة - العدد ١ - الصفحات ٢ - ٦٥ - ٨٧ - ١٩٨٩ .

٢- ريتشارد أنطون : حول بساطة حياة النساء في القرى المسلمة العربية : دراسة عن التكيف مع التقاليد - تقرير الشرق الأوسط - ١٩٨ (يناير - مارس) ٣١ - ٢٨ - ١٩٩٦.

٣- نيتزا بيركوفيتش : «النساء وقانون الحقوق المتساوية للنساء في إسرائيل» - تقرير الشرق الأوسط - ١٩٨ (يناير - مارس) ١٩- ٢١ - ١٩٩٦ .

٤- يسيم آرات : «نوع الجنس والمواطنة في تركيا» - تقرير الشرق الأوسط ١٩٨ - (يناير - مارس) ٢٨ - ٣١ - ١٩٩٦ .

٥- سلمى جلال : «النساء والتنمية في دول المغرب» - الصفحات ٧٠ - ٤٩ في كتاب نبيل خوري وفالنتاين المقدم «نوع الجنس والتنمية في العالم العربي» - لندن وطوكيو - دار زد للنشر ، مطبعة جامعة الأمم المتحدة - ١٩٩٥ .

٦- سارة جراهام براون : «النساء والسياسة في الشرق الأوسط» - واشنطون دى سى - دار MERIP للنشر ٢ - ١٩٩٣ .

٧- سوندرا هال : «سياسة نوع الجنس في السودان : الإسلام ، والاشتراكية والدولة» - بولدر - كولومبيا -- مطبعة وستفيو - ١٩٩٦ .

٨- نادية حجاب : «قوة المرأة : المناظرات العربية حول النساء في أماكن العمل» - كمبريدج ونيويورك - مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٨٨ .

٩- هوما هودفار : «السياسة السكانية والمساواة بين الجنسين في إيران ما بعد الثورة» - الصفحات ١٠٥ - ١٣٥ في كتاب كارلا . م . أوبرماير «الأسرة ، نوع الجنس ، والسكان في الشرق الأوسط» - القاهرة - مطبعة الجامعة الأمريكية - ١٩٩٥ .

١٠- صلاح جاد : «من الصالونات إلى اللجان الشعبية : النساء الفلسطينيات ١٩١٩ - ١٩٨٩» - الصفحات ١٢٥ - ١٤٢ من كتاب جمال نصار وروجر هيكوك «الانتفاضة : فلسطين في مفترق الطرق» - نيويورك - بريجر - ١٩٩٠ .

١١- سعاد جوزيف : «استراتيجيات النخبة لبناء الدولة : النساء ، الأسرة ، الدين ، والدولة فى العراق ولبنان» - الصفحات ١٧٦ - ٢٠٠ فى كتاب ديتز كانديوتى «النساء ، الإسلام ، الدولة» - لندن : ماكميلان - ١٩٩١ .
* «نوع الجنس والأسرة فى العالم العربى» - واشنطون دى سى - دار MERIP للنشر رقم ٤ - ١٩٩٤ .

١٢- ديتز كانديوتى : «النساء والدولة التركية : لاعبات سياسيات أم مجرد رموز فى المجتمع ؟» - الصفحات ١٢٦ - ١٤٩ فى كتاب نيرا يوفال ديفيس ، وفلويا أنثياس «المرأة - الأمة - الدولة» - لندن ماكميلان - ١٩٨٩ .
* «نهاية إمبراطورية : الإسلام ، القومية ، والنساء فى تركيا» - الصفحات ٢٢ - ٤٧ فى كتاب ديتز كانديوتى «النساء ، الإسلام ، الدولة» - لندن : ماكميلان - ١٩٩١ .
* «الإسلام والنظام الأبوى : منظور مقارن» - الصفحات ٢٣ - ٤٢ فى كتاب نيكى كيدى وبيث بارون «نساء فى تاريخ الشرق الأوسط : الحدود المتغيرة فى الجنس والنوع» - نيوهافن ولندن - مطبعة جامعة يال - ١٩٩١ .
* «النساء ، الإسلام ، الدولة» - تقرير الشرق الأوسط ١٧٣ (نوفمبر- ديسمبر) - ٩ - ١٤ - ١٩٩١ ج .

١٣- مارينا لازريج : «بلاغة الصمت: تساؤلات حول المرأة الجزائرية» - نيويورك ولندن - روتليدج - ١٩٩٤ .

١٤- زبيبه مير حسينى : «التناقض بين القانون والممارسة لدى الأسرة المغربية : النظام الأبوى ونظام الأمومة» - دراسات مغربية ، ٣٩ - ٥٢ : ١ - ١٩٩١ .

١٥- فالنتين المقدم : «تطوير النساء : نوع الجنس والتغيير الاجتماعى فى الشرق الأوسط» - بولدر - كولومبيا - لين رينر - ١٩٩٣ .
* «سياسة الهوية والنساء» - بولدر - كولومبيا - مطبعة وستفيو - ١٩٩٤ .
* «الاقتصاد السياسى لتوظيف النساء فى المنطقة العربية» - الصفحات ٦ - ٣٤ فى كتاب نبيل خورى وفالنتاين المقدم «نوع الجنس والتنمية فى العالم العربى» - لندن وطوكيو - دار زد للنشر ، مطبعة جامعة الأمم المتحدة - ١٩٩٥ .

١٦- هايدى مغيثى : «الحياة العامة والمقاومة النسائية» - الصفحات ٢٥١ - ٢٧٠ فى كتاب سعيد رحينماع وسوهراب بهداد «إيران بعد الثورة : أزمة دولة إسلامية» - نيويورك آى . بى تاوروس - ١٩٩٦ .

١٧- ماكسين مولينو : «القانون ، الدولة ، والسياسات الاشتراكية بشأن النساء : دراسة حالة عن جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ١٩٦٧ - ١٩٩٠» - الصفحات ٢٣٧ - ٢٧١ فى كتاب ديتز كانديوتى «النساء ، الإسلام ، الدولة» - لندن : ماكميلان - ١٩٩١

١٨- أنيليس مورس : «العلاقات بين الجنسين والميراث : الفرد ، السلطة ، والملكية فى فلسطين» - الصفحات ٦٩ - ٨٤ فى كتاب ديتز كانديوتى «دراسة نوع الجنس فى الشرق الأوسط : احتمالات ناشئة» - لندن - آى . بى تاوروس - ١٩٩٦ .

١٩- عفصانى نجم عبادى : «مخاطر النزعة العصرية والأخلاقيات : النساء ، الدولة، والأيديولوجيا فى إيران المعاصرة» الصفحات ٤٨ - ٧٦ فى كتاب ديتز كانديوتى «النساء ، الإسلام ، الدولة» - لندن : ماكميلان - ١٩٩١ .

٢٠- جيتى نشأت : «النساء والثورة فى إيران» - بولدر - كولومبيا - مطبعة وستفيو - ١٩٨٣ .

٢١- بارفين بيدار : «الحركة النسائية الإسلامية فى إيران» - الصفحات ٥١ - ٦٧ فى كتاب ديتز كانديوتى «دراسة نوع الجنس فى الشرق الأوسط : احتمالات ناشئة» - لندن - آى . بى تاوروس - ١٩٩٦ .

٢٢- جولى بيثيث : «نوع الجنس فى أزمة : النساء وحركات المقاومة الفلسطينية» نيويورك - مطبعة جامعة كولومبيا - ١٩٩١ .

٢٣- روز مارى صايغ : «النساء الفلسطينيات والسياسة فى لبنان» - الصفحات ١٧٥ - ١٩٢ فى كتاب توكر جوديث «النساء العربيات : الحدود القديمة ، الحدود الجديدة» بلومنجتون وإنديانا بولس : مطبعة جامعة إنديانا - ١٩٩٣ .

٢٤- حميد شاهيديان : «النساء والسياسة السرية فى إيران : ١٩٧٠ - ١٩٨٥» دراسات نسائية - العدد ٢٣ - ١٩٩٧ .

٢٥- ستيني شامي : «مقدمة» - الصفحات ١١ - ٢١ في كتاب ستيني شامي ، ولوسين تاميتيان ، وسهير أ . مرسى ، وزينب ب . البكرى ، والواثق م . قمير «النساء في المجتمع العربي : أنماط العمل وعلاقات الجنسين في مصر ، والأردن، والسودان» ، برميدينس زباريس : بيرج - اليونيسكو - ١٩٩٠ .

٢٦- سيمونا شاروني : «النساء والصراع العربي الفلسطيني : سياسة المقاومة النسائية» سيراكيوز - مطبعة جامعة سيراكيوز - ١٩٩٥ .

٢٧- باربرة سويرسكى ومارلين سافير : «الدعوة إلى المساواة : النساء في إسرائيل» - نيويورك - مطبعة كلية المعلمين - ١٩٩١ .

٢٨- ليزا تراكي : «الإسلام هو الحل : الإسلاميون الأردنيون ومأزق المرأة العصرية» - مجلة علم الاجتماع البريطانية العدد ٤٦ - ١٩٩٥ .

* «الإسلاميون الأردنيون وبرنامج المرأة : بين الخطابة والممارسة» - مجلة الدراسات الشرق أوسطية - العدد ٣٢ - ١٩٩٦ .

٢٩- جوديث تكر : «الأسرة العربية في التاريخ : الآخرية ودراسة الأسرة» - الصفحات ١٩٥ - ٢٠٧ في كتاب جوديث تكر «المرأة العربية : الحدود القديمة ، الحدود الجديدة» بلومنجتون وإنديانا بولس : مطبعة جامعة إنديانا - ١٩٩٣ .

٣٠- «برنامج الأمم المتحدة الإنمائي» (UNDP) : «تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٥» نيويورك وأكسفورد - مطبعة جامعة أكسفورد .

* «تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٦» نيويورك وأكسفورد - مطبعة جامعة أكسفورد .

* «تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٧» نيويورك وأكسفورد - مطبعة جامعة أكسفورد .

* «تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٨» نيويورك وأكسفورد - مطبعة جامعة أكسفورد .

٣١- نيرا ديفيس يوفال : « الرجال والنساء في إسرائيل : انقسامات وراء تشينج للنشر - ١٩٨٢ .

* «التناسل القومى و السياق الديموجرافى في إسرائيل» – الصفحات ٩٢ – ١٠٩ فى كتاب نيرا يوفال ديفيس ، وفلويا إنثياس «المرأة – الأمة – الدولة» – لندن – ماكميلان – ١٩٨٩ .

٣٢– هدى زريق وفادية سعادة : «النساء كقوى حشد للموارد البشرية فى الدول العربية» – الصفحات ٣٥ – ٤٨ فى كتاب نبيل خورى وفالنتاين المقدم «نوع الجنس والتنمية فى العالم العربى» – لندن وطوكيو – دار زد للنشر ، مطبعة جامعة الأمم المتحدة – ١٩٩٥ .

-١١-

الدين والسياسة فى الشرق الأوسط

جون ل . أسبوسيتو . ومحمد أ . مقتدر خان

تعتبر منطقة الشرق الأوسط ، وكما أوضحت الفصول السابقة مراراً ، من المناطق الاجتماعية السياسية التى يحتدم ويتعاظم حولها التنافس . وبالرغم من الجهود المضنية التى يبذلها العديد من السياسيين وأعضاء الصفوة فى المجتمعات الشرق أوسطية ، إلا أن الحداثة قد أخفقت فى ترسيخ أقدامها وتوطيد هيمنتها تماماً فى شتى أرجاء المنطقة (جيلنر ، ١٩٩٢ ، انظر أيضاً محلاتى ، ١٩٩٦) . ولقد فشلت العلمانية، والفردية ، والديمقراطية ، والعقلانية الاقتصادية ، ومؤسسات الحداثة الرئيسية مثل الدولة الوطنية فى كسب قدر كبير من الانتشار أو الرواج هناك وكما فعلت فى أمريكا الشمالية ، وشرق آسيا ، وأوروبا . ومازالت المنطقة تمثل مزيجاً أو مجموعة متنوعة من مقومات الحداثة (الدول الوطنية الاصطناعية ، والفاشستية وحكم الفرد ، والعلمانية) ، والتقاليد العتيقة والبالية ، والتى تنعكس فى الممارسات والمؤسسات الثقافية والدينية (ماركوس ، ١٩٨٩) .

ويحظى الدين والسياسة بمكانة خاصة فى تاريخ وسياسة الشرق الأوسط . إذ إن منطقة الشرق الأوسط ، وهى مهد الأديان السماوية الثلاثة فى العالم ، تحتل موقعاً استراتيجياً مهماً يربط بين الغرب والشرق ويطل على طرق التجارة الحيوية براً وبحراً. وفى الوقت الحاضر نجد أن الانبعاث العالمى للتيار الدينى ، بما له من تأثير على السياسة ، غالباً ما يكشف عن نفسه ، وإلى حد كبير ، فى منطقة الشرق الأوسط.

وليس ثمة شك فى أن الدين والأشكال التقليدية للحكم لم تكن أبداً مقبولة أو تحظى بالمصداقية فى الشرق الأوسط مثلما كان الحال فى أوروبا ، ولكنها كانت مهمشة فقط. ففى أوروبا ، كانت تجارب عصر النهضة ، وحركة التنوير ، والإصلاح البروتستانتى

نتاجاً طبيعياً لتفاعلات حركات قومية وهو ما أدى إلى تسريع إضفاء الصبغة العلمانية على السياسة فى الغرب . وحظيت العلمانية ، والتى تعنى فصل الدين عن السياسة ، بالقبول باعتبارها العرف أو القانون السائد فى عملية التطور السياسى من جانب العديد من الحكومات ، وصناع السياسة ، والخبراء ، ووسائل الإعلام .

وعلى النقيض من ذلك ، تغلغلت القيم العلمانية وتسربت إلى الشرق الأوسط من خلال الحركة الاستعمارية الأوروبية . ومع هذا ، استمرت التقاليد والدين فى لعب دور رئيسى فى المجتمع وفى ميدان السياسة . ولم يكن هناك حركة سياسية أو فكرية جماعية يمكن القول بأنها سعت بوضوح إلى جعل الشرق الأوسط علمانياً . وحاولت الحكومات العلمانية الأوروبية فرض مؤسسات سياسية علمانية على الشرق الأوسط ، وكرد على هذه المحاولة ، اندلعت بعض حروب الاستقلال فى إطار إعلان الجهاد المقدس ضد العلمانية الأوروبية ، كما حدث فى الجزائر والسودان (لويس ١٩٩٣) .

وبعد إسدال الستار على الحرب العالمية الثانية ، وحين صارت معظم دول الشرق الأوسط مستقلة ، كان الدين والتقاليد مهمشين فى إطار التكوين العام للدولة . وتحدد هذا النمط فى العشرينيات ، عندما أصبحت تركيا علمانية فى ظل حكم مصطفى كمال (الذى أطلق عليه فيما بعد لقب أتاتورك أو «أبو الأتراك») . وبعدئذ وفى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، عمدت دول عدة أخرى ، مثل تونس ، ومصر ، وإيران، وسوريا ، والعراق ، ورغم اعترافها بالإسلام كدين رسمى للدولة ، إلى الحد من مكانة الدين الإسلامى وتقليص دوره فى المضمار السياسى وفى المجتمع . ورغم هذا ، تأسست المملكة العربية السعودية كدولة إسلامية معلنة ذاتياً ، كما أن باكستان ، التى اعتمدت فى قيامها على القومية الإسلامية ، أطلقت على نفسها اسم جمهورية باكستان الإسلامية . وفى الوقت ذاته ، (١٩٤٨) ، تأسست دولة إسرائيل الحديثة كدولة يهودية

وإلى حد ما ، يمكن القول بأن الشرق الأوسط يوجد على الخطوط الحدودية بين الحداثة والتقليد ، وبين الدين والسياسة ، وبين الشرق والغرب ، والحكم الذاتى والتبعية، والاستقلال والإمبريالية ، والأصالة والمحاكاة الشديدة للغرب . ففى هذه المنطقة القديمة والحديثة أيضًا والتى يطلق عليها اسم الشرق الأوسط تعانق الدين والسياسة ورقصا رقصة التانجو معاً . ويتناول هذا الفصل حقيقة هذه العلاقة الرائعة

عبر المكان والزمان وعبر الأديان ، ويستعرض عملية التفاعل بين الدين والسياسة فى الشرق الأوسط منذ نشأتها فى أصولها التاريخية وحتى انبعاثها المعاصر . وكما أن القوة والمعرفة تتداخلان وتتفاعلان فى العالم الحديث ، ففى الشرق الأوسط يبدو أن عرى العلاقة بين القوة والدين لا تنفصم أيضاً .

الدور التاريخى للدين فى الشرق الأوسط :

يعتبر تاريخ الشرق الأوسط ، ومن عدة جوانب ، تاريخ التوحيد ، والإيمان بوجود إله واحد فى هذا الكون . ولقد شهدت المنطقة الأديان السماوية الثلاثة : اليهودية، ثم المسيحية ، فالإسلام . وانتشر الإسلام فى مختلف أرجاء الشرق الأوسط القديم ، من الناحية الثقافية ، ليشمل شمال أفريقيا ، وإيران ، وتركيا ، وباكستان ، ومناطق آسيا الوسطى مثل أوزبكستان ، تركمانستان ، وطاجيكستان . وفى الوقت الحاضر يشكل المسلمون الأغلبية بين سكان الشرق الأوسط . ويتركز اليهود فى إسرائيل ، مع وجود أقليات يهودية فى إيران ، وتونس ، وسوريا ، والمغرب ، ومصر. أما أهم الأقليات المسيحية فى العالم العربى فتوجد فى لبنان ، وسوريا ، ومصر ، والعراق .

اليهودية :

ظهرت الديانة اليهودية قبل أربعة آلاف سنة ، ومن ثم تعتبر أقدم الديانات السماوية الثلاثة . وترجع أصول المجتمع اليهودى إلى النبى موسى ، والذى ، وفقاً لما جاء فى التعاليم العبرية ، أنقذ الشعب اليهودى من العبودية فى مصر وجاء به إلى الأرض المقدسة ليؤسس مملكة الله (حوالى ١٤٥٠ إلى ١٢٥٠ قبل الميلاد) . إذ إن التوراة ، التى تشتمل على الكتب الخمسة الأولى للتوراة العبرية ، قد أُنزلت على موسى هادياً ومرشداً للشعب اليهودى . ويستمد الشعب اليهودى تعاليمه من قوانينه الدينية من التوراة والتلمود (وهى الكتاب الثانوى الذى يحوى تفسيراً للتوراة والشريعة اليهودية) . ولقد دأب اليهود على الاعتقاد بأنهم «شعب الله المختار» سيؤسس فى النهاية مملكة الله على الأرض ، وهو الاعتقاد الذى شكّل الوعى أو الشعور الذاتى القومى لليهود فى العصر الحديث . ويمثل اليهود مجتمعاً عرقياً دينياً يقوم على تقدير وحماية هويته الطائفية (كافيندش ١٣٣ – ١٧٠ : ١٩٨٠) .

وكما كان الحال فى الصراعات التوراتية المبكرة ، وعندما تداخلت الهوية الدينية اليهودية والتطلعات والآمال السياسية مع الحرب والسلام ، نجد أيضًا أن الدين والسياسة فى أواخر القرنين التاسع عشر والعشرين قد اندمجا وتفاعلا ليفرزا شكلاً فريداً للصهيونية – القومية ، وهو شكل يتسم غالباً بأنه علمانى ودينى فى آنٍ واحد . وهذا الامتزاج أو التزاوج بين الدين والسياسة قد ظهر بوضوح أخيراً فى قيام دولة إسرائيل . فبالنسبة للإسرائيليين الذين ينتمون إلى اليمين الدينى ، فإن الطبيعة اليهودية لدولة إسرائيل تشير أساسًا وفى المقام الأول إلى إيمانها بالدين ، فى حين أنه بالنسبة إلى هؤلاء الذين ينتمون إلى اليسار الدينى ، تعتبر الطبيعية اليهودية للدولة بمثابة الأداة التى تعمل على تماسك المجتمع اليهودى . وفى أى من الحالتين ، تعتبر اليهودية مصدراً للصهيونية . والحقيقة أن فهم هذه المعتقدات لا يمكن أن ينفصل عن أى فهم معاصر لسياسة المنطقة أو نظامها الاجتماعى .

ومن المنظور التاريخى ، نجد أن الديانات السماوية الثلاث : اليهودية ، والمسيحية، والإسلام ، قد استخدمت الدين لتبرير وإضفاء الشرعية على عمليات التوسع والحروب. وعلى الرغم من أن هناك مؤلفات كثيرة قد كتبت ، ولا تزال تكتب، عن أهمية ومغزى الحروب المقدسة للإسلام (الجهاد) وللمسيحية (الحملات الصليبية) ، إلا أن الحرب المقدسة فى الديانة اليهودية قد حظيت بأهمية أقل . ومع ذلك ، فقد أثّرت الحرب المقدسة على الشئون السياسية فى الماضى والحاضر . والحقيقة أن فكرة الحرب المقدسة ترجع إلى وقت مبكر فى التاريخ اليهودى والمعتقدات اليهودية . وكما هو الحال بالنسبة إلى المسيحية والإسلام ، ربط اليهود الحرب المقدسة بالتوجيه الإلهى والتعاليم المقدسة . وهكذا ، وكما ورد فى التوراة اليهودية ، فإنه حينما كان يقاتل اليهود أعداء صهيون ، كان الله يهوه يقاتل إلى جانبهم (أسبوسيتو ١٩٩٨) . وفى القرنين الأولين من الألفية الثانية قبل الميلاد ، شن اليهود حروباً ضد الكنعانيين الذين كانوا يعيشون على الأرض التى اعتقد اليهود أن الله قد وهبها لهم ، فراحوا يستولون تدريجيًا على أجزاء كبيرة من هذه الأرض لتأسيس مملكة إسرائيل الأولى . وهذه الحروب المقدسة الأولى ، تعتبر من وجهة نظر العديد من معتنقى الديانة اليهودية، مرتبطة بحروب عامى ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ واستيلاء الصهاينة على الأراضى من الدول العربية لإقامة دولة إسرائيل الجديدة (أرمسترونج ٧ – ١٢ : ١٩٩١) .

وبعد تشتيتهم من القدس ويهودا ، ظل اليهود يحتفظون بهويتهم من خلال الاستمرار فى اعتقادهم بأنهم شعب الله المختار وبالتمسك بالقوانين الدينية والطقوس والشعائر اليهودية . لما يربو على الألفى سنة، عاش الشعب اليهود فى الشتات (الدِّيسبورا) ، أى اليهود المشتتون فى أنحاء العالم بعد الأسر البابلى والعيش فى المنفى بعد طردهم من أرض إسرائيل ، وناهيك عن تعرض اليهود للاضطهاد فى الغرب المسيحى . على النقيض من ذلك ، وإبّان العصر الإسلامى وفى أجزاء أخرى من العالم الإسلامى ، كان اليهود يتمتعون بقدر كبير من التسامح وعاشوا فى ازدهار ورخاء كمجتمع دينى وأيضًا ككيان ثقافى (كافيندش ١٦٥ : ١٩٨٠) . وفى أواخر القرن التاسع عشر ، أرغمت موجة جديدة من أعمال العنف والتمييز ضد اليهود فى أنحاء أوروبا بعض زعماء اليهود على البحث مرة أخرى عن حل قومى لمشكلة الشعب اليهودى . ومن ثم ، فإن أحد النشطاء اليهود ويدعى تيودور هرتزل (١٨٦٠ – ١٩٠٤) جدد الدعوة لتأسيس دولة يهودية ، وهو الأمر الذى أعطى الحركة الصهيونية قوة دفع كبيرة فى سعيها لتحقيق الطموحات والتطلعات القومية بشأن قيام عالم يهودى (كليفلاند ٢٢٣ – ٢٢٥ : ١٩٩٤) .

وهكذا عقد أول مؤتمر صهيونى فى عام ١٨٩٧ . وبعد هذا المؤتمر مباشرة ، سيطرت فكرة إقامة دولة يهودية على خيال اليهود فى كل من أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية على السواء . وشهدت نهاية الحرب العالمية الأولى هزيمة الإمبراطورية العثمانية وتقطيع أوصالها على يد بريطانيا وفرنسا ، وهما الدولتان اللتان وضعتا معظم مناطق فلسطين تحت السيطرة البريطانية . واستطاع زعماء الحركة الصهيونية إقناع البريطانيين بإصدار وعد بلفور ، والذى أدى إلى هجرة مئات الآلاف من اليهود إلى أراضى فلسطين . وفى سنة ١٩٤٧ ، أصدرت الأمم المتحدة قرارًا يقضى بتقسيم وقيام دولة إسرائيل . وخلال الفترة الممتدة من ذلك التاريخ وحتى ١٥ مايو من سنة ١٩٤٨، وعندما كان من المقرر انتهاء الانتداب البريطانى على فلسطين ، اندلعت الحرب بين العرب والصهاينة مما أدى إلى طرد أعداد كبيرة من الفلسطينيين وإجبارهم على العيش فى المنفى فى الوقت الذى أعلن فيه استقلال إسرائيل فى ١٥ مايو من السنة ذاتها .

والحقيقة أن تأسيس دولة إسرائيل كان بمثابة نقطة تحول أو مرحلة فاصلة فى سياسة الشرق الأوسط الحديث . إذ لم تكن إسرائيل تذكرة فقط بأن الهوية الدينية يمكن أن تصوغ وتحرك دولة وطنية حديثة وإنما تذكرة أيضاً بأنها تشكل تحدياً للدول الإسلامية التى كانت تهيمن على المنطقة . ولذا ، يمكن القول بأن الصراعات بين إسرائيل وجاراتها ، وكذلك الصراعات مع العرب الفلسطينيين الذين شردوا من ديارهم من جراء هذه الصراعات ، سوف تسيطر على الجزء الأكبر من سياسة المنطقة خلال الفترة الباقية من القرن العشرين .

المسيحية :

الديانة المسيحية هى أكبر ديانة فى العالم حيث يعتنقها أكثر من مليار ونصف المليار شخص . ويمكن إرجاع أصول المسيحية إلى تعاليم عيسى الناصرى ، نسبة إلى بلدة الناصرة بفلسطين . وعيسى الذى ولد فى مدينة بيت لحم قد صلبه الرومان فى مدينة القدس وأعلن أتباعه أنه المسيح ابن الله منذ حادثة صلبه وانتشرت المسيحية فى بادئ الأمر فى شتى أرجاء منطقة البحر الأبيض المتوسط ثم اجتذبت فيما بعد أتباعًا من مختلف أنحاء القارة الأوربية . وقد كان للمسيحية تأثيرها على التطور الاجتماعى والسياسى فى الغرب ، وأيضًا تأثيرها ، وإن يكن بدرجة أقل ، على بقية مناطق العالم.

وقد أدى طرد اليهود من مدينة القدس فى سنة ٧٠ ميلادية إلى وضع المدينة فى أيدى الرومان . وحتى على الرغم مما ورد فى المخطوطات المسيحية من ضرورة فصل الكنيسة عن الدولة ، أو بالأحرى الفصل بين الدين والدولة ، ورغم أنه جاء صراحة فى هذه المخطوطات عبارة تقول أعط ما لقيصر لقيصر وأعط ما لله لله (مرقص ١٢ - ١٧ ، الإنجيل ، نسخة الملك جيمس) ، إلا أنه كان ينظر إلى المسيحية باعتبارها تهديداً لوحدة الإمبريالية الرومانية . وعلى مدى أكثر من ٣٠٠ سنة ، ظل المسيحيون يعانون من الاضطهاد والقهر على أيدى السلطات الرومانية . ومع هذا ، زاد أتباع هذه الديانة وكثرت أعدادهم بسرعة وخلال مائة عام (٣١٣ ميلادية) ، أعلن الإمبراطور قنسطنطين الأول المسيحية ديانة رسمية . وفى سنة ٣٨٠ ميلادية ، ومن خلال المرسوم الذى أصدره الإمبراطور ثيودوسيوس الأول ، أصبحت المسيحية

الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية نفسها، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة فى تاريخ المسيحية وهى المرحلة التى عكست الالتقاء بين الدين والسياسة. ومنذ ذلك الحين وحتى ظهور الإسلام ، ازدهرت المسيحية فيما نعرفه الآن بالشرق الأوسط المعاصر .

ومع بداية الفتوحات الإسلامية للشرق الأوسط على أيدى الجيوش الإسلامية فى القرن السابع ، تحول اهتمام المسيحية إلى أوروبا . وبحلول القرن الثانى عشر ، وفى حكم البابا الثالث (الذى تولى البابوية خلال الفترة من ١١٩٨ إلى ١٢١٦) ، وصلت المسيحية إلى أوج قوتها السياسية ، حيث باتت تشارك بفاعلية فى شئون الحكم والسياسة من خلال سيطرة المقر البابوى على الموارد ومساحات شاسعة من الأراضى، وما يشبه الاحتكار التام للتعليم ، وتأثيرها على تعيين الأفراد فى المناصب السياسية العليا . وفى هذا العصر الذهبى للحكم البابوى ، كانت أوروبا أقرب ما تكون إلى الإمبراطورية المسيحية . وكانت هذه الفترة ذاتها هى التى شهدت تنافس وصراع الحكام البابويين ، والملوك ، والأباطرة حول السيادة على الأرض والشعب ، وهو الصراع الذى عجل فى النهاية بالإصلاح الدينى (١٥٠٠ - ١٦٥٠) .

الحملات الصليبية :

أدى النفوذ المتزايد للكنيسة فى شئون السياسة الأوروبية إلى شن الحملات الصليبية. ففى عام ١٠٩٦ ، واستجابة لنداءات ودعوات البابا إربان الثانى ، شرعت جيوش مسيحية من أوروبا فى خوض سلسلة من الحروب المقدسة ضد المسلمين لاستعادة السيطرة على الأرض المقدسة وتأسيس مملكة الله فى القدس مرة أخرى .

وسرعان ما حققت الحملات الصليبية نجاحات ، ولكنها منيت بالفشل سواء بالنسبة لاستعادة الأرض المقدسة بصورة دائمة أو بالنسبة إلى طرد المسلمين منها . واستمرت قوة الإسلام بلا توقف حتى القرن الخامس عشر . ومع ذلك ، تظل الحملات الصليبية حدثاً تاريخياً فى مضمار السياسة المسيحية فى الشرق الأوسط . إذ إنها كانت بداية للتأثير المسيحى الخارجى على شئون السياسة فى تلك المنطقة .

وفى عام ١٠٩٩ ، استولى الصليبيون على مدينة القدس وأسسوا مملكة مسيحية فى الأرض المقدسة . ووافق الصليبيون على شروط الاستسلام التى عرضها المسلمون بيد أنهم غدروا بهم وراحوا يقتلون المسلمين الناجين فى مذبحة جماعية مروعة راح

ضحيتها النساء والأطفال . كما أن الصليبيين انتهكوا حرمة المقدسات الإسلامية ، ومن بينها قبة الصخرة ، والتى تحولت إلى كنيسة ، بل إنهم جعلوا من المسجد الأقصى مقراً للحكم المسيحى بعدما أطلقوا عليه اسم معبد سليمان بدلاً من المسجد الأقصى .

بيد أن السيطرة المسيحية على مدينة القدس لم تدم طويلاً . ففى عام ١١٨٧ استطاع القائد المسلم صلاح الدين الأيوبى استرداد المدينة ، إلا أنه ، وعلى العكس مما فعله الصليبيون ، أصدر عفواً عاماً عن جميع المدنيين المسيحيين وتعامل معهم بقدر كبير من التسامح إلى حد أن قواته لم تمس أياً من كنائسهم ومقدساتهم بسوء . وحاولت الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ريتشارد قلب الأسد ، ملك إنجلترا ، استرجاع السيطرة على القدس بيد أنها أخفقت حتى فى الوصول إلى أسوار المدينة . وفى عام ١٢٩١ ، استولت القوات الإسلامية على آخر معاقل الصليبيين فى عكا ليسدل الستار على النفوذ السياسى للمسيحية .

والحقيقة أنه فى الوقت الذى توسعت فيه الحملات الصليبية ، إلا أنها أدت إلى تقوية العالم الإسلامى . فالجيوش الإسلامية لم تلحق الهزيمة بالقوات الصليبية فقط ، بل إن الصليبيين أنفسهم أسهموا فعلياً فى إضعاف النفوذ المسيحى فى المنطقة . وفى عام ١٢٠٤ ، استولى الصليبيون على مدينة القسطنطينية ، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية المسيحية (الأرثوذكية اليونانية) ، الأمر الذى أدى إلى المزيد من إضعاف هذا الموقع المهم للنفوذ المسيحى فى المنطقة . وفى عام ١٤٥٣ ، سقطت القسطنطينية فى أيدى الجيوش الإسلامية وأعيد تسميتها لتصبح مدينة إسطنبول . ولا شك أن ذكريات الحملات الصليبية ، الحقيقية والأسطورية على حد سواء ، ستظل تؤثر على العلاقات بين الإسلام والمسيحية ، وعلى العلاقات بين العالم الإسلامى والغرب ، وذلك على مدى القرون القادمة .

النزعة الاستعمارية الأوروبية :

منذ القرن الثامن عشر ، فرضت بريطانيا ثم فرنسا فالولايات المتحدة هيمنتها السياسية على منطقة الشرق الأوسط . وأعاد البريطانيون ، وإلى حد أقل الفرنسيون ، تنظيم الشرق الأوسط ليتحول إلى عدد من الشعوب والممالك . وجنباً إلى جنب مع

الولايات المتحدة ، قام هؤلاء أيضاً بدعم ومساندة قيام دولة يهودية فى عام ١٩٤٨ . وبالإضافة إلى هذا ، ظلت المسيحية قوة لها مصالح معينة فى الشرق الأوسط ، من بينها إسرائيل ، والقدس ، وبقاء ورفاهية الأقليات المسيحية .

ويعتقد العديد من الباحثين أن الاستعمار الأوروبى للمنطقة قد حرّكته فى المقام الأول دوافع علمانية ترتبط بالكبرياء القومى والتجارة أكثر مما ترتبط بأية دوافع دينية . ومع هذا ، استفادت الإرساليات المسيحية من مناصرة وحماية القوى الإمبريالية الأوروبية فى إطار جهودها الرامية إلى نشر المسيحية الأوروبية . وكان التعاون بين الصليب والتاج ثمرة ونتاج التجربة الاستعمارية التى حدت بالعديد من المسلمين أن ينظروا إلى الغزاة الاستعماريين باعتبارهم استمراراً للحملات الصليبية ضد الإسلام . لم يكن من قبيل الصدفة خوض العديد من حروب الاستقلال ضد الحكم الاستعمارى باسم الدين (أسبوسيتو ١٩٩٩) .

وقد دأبت الإرساليات المسيحية على مرافقة الجنود والبيروقراطيين الأوروبيين. وهذه العلاقة الخاصة بين مسئولى الحكومة والإرساليات المسيحية قد أشاد بها المارشال الفرنسى توماس روبير بوجو ووصفها بأنها بمثابة «علاقة وطيدة» وعلق على ذلك بقوله إن رجال الدين المسيحى «مكسب كبير لنا لأنهم نجحوا فى استمالة قلوب السكان العرب الذين غزوناهم بقوة السلاح» . إذ قامت هذه الإرساليات بفتح المدارس ، والمستشفيات ، ودور الطباعة والنشر . وسعت هذه الإرساليات ليس فقط إلى استئصال الديانة المحلية لتحل محلها المسيحية بل أيضاً إلى تغيير الفهم التاريخى لدى العرب وأفكارهم عن أنفسهم ، وثقافتهم ، ولغتهم (أسبوسيتو ١٩٩٩) .

والواقع أنه تم تفسير هذه النجاحات الأوروبية على أنها نتيجة حتمية لتفوق المسيحية ، فى حين اعتبرت هزائم المسلمين نتيجة لحالة التردى والتدهور التى آل إليها المسلمون بسبب حكم القوى الاستعمارية . ومع الاستيلاء على الجامع الكبير فى الجزائر وتحويله إلى كاتدرائية سان فيليب ، أصبح العلم الفرنسى والصليب على مئذنة هذا الجامع يرمزان إلى تلك العلاقة الوثيقة بين التاج والصليب فى ظل العهد الاستعمارى . وهكذا فى الأجل القصير ، استطاعت المسيحية أن تحقق الكثير من المكاسب السياسية والاقتصادية بفضل الغزوات الاستعمارية .

وفى بعض الأحيان ، يعمد المؤرخون المعاصرون وعلماء الاجتماع إلى التقليل من أهمية الدور الذى لعبته الإرساليات المسيحية وأنشطتها فى المستعمرات السابقة . بيد أنه فى أذهان وعقول المسلمين ، كان التهديد الذى شكلته المسيحية خطراً . وهكذا كان الخوف من ضياع عقيدتهم ، علاوة على الشك الذى كان له ما يبرره إزاء دوافع ونوايا الأوروبيين ، هو الذى أدى إلى أن يتبنى المسلمون سياسة الانسحاب وعدم التعاون مع الجهود الأوروبية فى مجالات التنمية والتحديث .

الإسلام :

فى أوائل القرن السابع ، أعلن محمد بن عبد الله من مدينة مكة المكرمة (٥٧٠ - ٦٣٢ ميلادية) أنه النبى المرسل من الله (٦١٠ ميلادية) وراح ينشر دعوته ويوحد صفوف القبائل المختلفة فى الجزيرة العربية تحت راية الإسلام . وقال الرسول الجديد «إن الله بعثه ليكون خاتماً لمن سبقوه من الرسل من أمثال إبراهيم ، وموسى ، وعيسى، مؤكداً على أن رسالته هى الرسالة نفسها التى دعا إليها بقية الأنبياء ، وهى أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله» . والحقيقة أن بساطة الرسالة التى جاء بها النبى محمد والحماس الذى أبداه أتباعه للدين الجديد قد جعلا من الإسلام قوة رئيسية فى المنطقة وفى أنحاء العالم .

وفى غضون ٧٥ عامًا من إعلان محمد أنه نبى الله المرسل إلى العالمين ، استطاع المسلمون بسط سيطرتهم لتمتد من الجزيرة العربية إلى المغرب . وحتى أوائل عام ٦٣٧ ميلادية كانت الأرض المقدسة كلها ، بما فيها القدس ، خاضعة للمسلمين وليس هذا فحسب ، بل إن العديد من اليهود والمسيحيين الذين عاشوا فى ظل الحكم الإسلامى اعتنقوا فى النهاية الدين الجديد ونعموا بالأمن والأمان والرخاء والازدهار فى بيئة خيّمت عليها أجواء التسامح والمساواة ، وفى مجتمع لم يعان فيه أتباع الديانات الأخرى من الاضطهاد أو القهر ومثلما كان الحال فى أوروبا .

وانتشر الإسلام إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية وسرعان ما صارت معظم مناطق الشرق الأوسط إسلامية وأيضاً عربية . (وكانت إيران استثناءاً رئيسياً من ذلك حيث اعتنق سكانها الإسلام ، ولكنها ظلت تحتفظ بثقافتها ولغتها الفارسية) . وكان

لظهور الإسلام آثاره الثقافية والسياسية العميقة على منطقة الشرق الأوسط بأسرها ، حيث أعطى شعوب ومجتمعات المنطقة المختلفة تراثاً مشتركاً . وبحلول القرن السادس عشر ، أصبح الإسلام يتألف من ثلاث إمبراطوريات عظمى : العثمانية ، و الصفوية فى إيران ، والمنغولية فى شبه القارة الهندية .

وفى القرون الأولى لانتشار الإسلام ، قام المسلمون بتأسيس مراكز كبرى وصفها المؤرخون بأنها كانت مراكزاً للإشعاع الثقافى والنهضة العلمية . إذ نجح المسلمون فى اقتناء واستعادة الكتب والمراجع والمؤلفات القديمة التى فقدت فى أوج عصور الحضارتين اليونانية والرومانية (ليندهوم ، ١٩٩٦) . وهكذا ازدهرت علوم ، وفنون، ومعارف لا حصر لها مثل الشعر ، والأدب ، والعمارة ، والطب ، والرياضيات ، والكيمياء ، والفلسفة وساهمت فى الإثراء الثقافى للمنطقة خلال الفترة من القرن السابع وحتى القرن الخامس عشر . علاوة على ذلك ، ساعد تأسيس الجامعات فى نشر الإسلام وجلب علوم المجتمعات الأخرى إلى العالم الإسلامى . ونتيجة لهذا كله ، أخذ نسيج ثرى من الشعوب ، والثقافات ، والمعارف يتشكل تحت مظلة الإسلام . وإلى حد كبير ، يمكن القول بأن الحضارة الإسلامية والقوة السياسية للشرق الأوسط قد بلغتا ذروتها فى الفترة نفسها . ففى أعقاب القرون التالية ، أدى انهيار وتفتت الإمبراطوريات الإسلامية إلى الاضمحلال التدريجى لقوة وثقافة المنطقة .

الإسلام والحياة العامة :

بالنسبة إلى العديد من المسلمين ، يعتبر الإسلام أسلوب حياة متكامل يوفر الأسس والإرشادات والتعاليم الضرورية للحياة الخاصة والعامة للفرد وللجماعة على السواء ، وللدولة وللمجتمع أيضًا . (حميد الله ، ١٩٧٩ ، زبيدة ، ١٩٩٣ ، العوا ، ١٩٨٠ ، أسبوسيتو ، ١٩٩١) . وكما جاء فى تعاليم الإسلام ، فإن الغرض الحقيقى من القوانين الإسلامية (الشريعة) هو تحقيق السلام والعدل ، ومنع الشر ونشر الخير . والهدف من السياسة فى الإسلام هو توجيه الحكومات وحثها على توفير الحكم الأخلاقى على أساس من التشاور (الشورى) مع مواطنيها . ورغم أن الإسلام لم يتطرق إلى شكل محدد للحكومة ، إلا أنه كان واضحًا تمامًا بشأن الغرض من الحكم وأخلاقياته (عثمان، ١٩٩٤ ، أحمد ، ١٩٨٦ ، آدمز ، ١٩٨٣ ، الترابى ، ١٩٨٣) . ويرى العديد

من المسلمين أن هذه الخاصية تجعل التعاليم القرآنية متصلة بالسياسة والمجتمع فى كل زمان ومكان . وهكذا ، نجد أن السياسة والسلطة قد كانتا دائمًا من الدعامات الأساسية للإسلام ، وذلك على النقيض من المسيحية فى قرونها الأولى . ورغم أن تأثير النزعة الاستعمارية الأوروبية وكذا تأثير فهم طبيعة الدين فى فترة ما بعد عصر التنوير قد جعلا الإسلام محصوراً فى الشئون الخاصة ، إلا أن الأبعاد السياسية المستمرة للإسلام باتت ملحوظة ويمكن رؤيتها فى مجموعة متنوعة من الأحداث (هاينز ، ١٩٩٤) .

وقبل فترة زمنية طويلة من دخول جمهورية إيران الإسلامية معترك السياسة ، كانت المملكة العربية السعودية قد تأسست على أيدى آل سعود كدولة إسلامية (أسبوسيتو ، ٩٦ – ١٥٧ : ١٩٩٨) . والواقع أن نظام الخلافة فى الهند ، وإقامة دولة باكستان الإسلامية ، واستخدام الرمزية الإسلامية التى صاحبت حركات النضال من أجل الحرية والاستقلال عن الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية (ليبيا ، والجزائر ، والمغرب ، والسودان ، وباكستان) ، تعتبر كلها دلائل ومؤشرات على الدور البارز الذى لعبه الإسلام فى التعبئة العامة وحشد الجماهير فى أوقات الأزمات السياسية . وبالمثل ، فإن استخدام القوات المسلحة المصرية شعار «الله أكبر» عندما قامت حرب عام ١٩٧٣ ضد القوات الإسرائيلية ، ثم استخدام الشعار ذاته من جانب الزعيم العراقى صدام حسين (فى حرب الخليج عام ١٩٩٠ ، وعندما بات واضحًا أن قوات التحالف الدولى بقيادة الولايات المتحدة ستشن هجومها على العراق) ، إنما يؤكدان على أهمية الدين فى شئون السياسة العامة فى الشرق الأوسط .

ولا شك أن هذا الاندماج أو التلاحم بين الدين والسياسة يعد سمة متميزة للانبعاث المعاصر للإسلام . إذ يعتقد النشطاء الإسلاميون أنه بمجرد أن يسترد الإسلام مكانته الصحيحة ، فى العالم وفى شتى مناحى الحياة الإنسانية ، سوف يتمكن بدوره من استعادة موقعه الذى يليق به فى مضمار السياسة الدولية .

(صورة ٣ : ١١) المسجد الأموى فى دمشق

القدس : التقارب بين السلطة والرمزية الدينية :

الصراع الحالى حول السيادة على القدس يرمز فى حقيقته إلى التقارب الروحى والطبيعى ، والدينى والسياسى فى الشرق الأوسط . إذ إنه من الناحيتين التاريخية والدينية ، يطالب كل من اليهود ، والمسلمين ، والمسيحيين بحقهم فى السيادة على هذه المدينة «المقدسة» . فبالنسبة إلى اليهود ، تعتبر القدس «جبل الرب» . وتؤكد مجموعة الشرائع اليهودية غير المكتوبة التى جمعت فى القرن الثانى بعد الميلاد والمعروفة اختصاراً لدى اليهود باسم (المشنا) أن الوجود المقدس قد ظل مجسداً فى الحائط الغربى (حائط المبكى) . (بيرجر ٩١ - ١١٨ - ١٩٩٦) . وقد أصبحت القدس رمزاً ومصدراً الديانة اليهودية وأيضاً الهوية القومية .

وفى عام ٧٠ ميلادية ، دمر الرومان الهيكل الثانى فى القدس وطردوا سكانها اليهود . ومن ثم ، عاش اليهود فى الشتات فى شتى أنحاء العالم ، ورغم أن أعداداً كبيرة من اليهود استطاعت أن تنصهر وتندمج مع سكان الدول الأخرى خلال فترة الشتات (الدياسبورا) ، إلا أنهم ظلوا محتفظين بعقيدتهم وهويتهم اليهودية . وفى كل

عام ، اعتاد اليهود فى أرجاء العالم أن يختتموا احتفالات عيد الفصح بأمنية ورغبة أكيدة تقول «العام القادم فى القدس» . والحقيقة أن الفكرة الدينية المتمثلة فى تجمع اليهود من منفاهم فى نهاية المطاف فى وطن واحد قد أثّرت على مواقف الغربيين، واليهود ، وكذلك المسيحيين تجاه القدس . ولذا نجد أن التأكيد المتكرر من جانب الزعماء الإسرائيليين على أن القدس الموحدة هى العاصمة المركزية لإسرائيل إنما يعد انعكاساً لهذا الاعتقاد التوراتى الذى يترجم إلى رؤية سياسية . وهكذا ، وعلى مدى ألفى سنة ، ظل اليهود يتبنون فكرة العودة لاستعادة القدس .

وبالنسبة إلى المسيحيين ، تعتبر مدينة القدس المكان الذى نشأت فيه ديانتهم المسيحية فى مراحلها التاريخية الأولى ، حيث راح المسيح ينشر دعوته ورسالته ، وحيث تم صلبه ، ومات ودفن هناك . وفى القدس أيضًا ، ووفقًا للديانة المسيحية ، حدثت معجزة بعث المسيح من قبره ورفعه إلى السماء . وهذه الأهمية الدينية لمدينة القدس تحولت إلى أهمية سياسية عندما قام البابا إربان الثانى باستدعاء الحملة الصليبية الأولى لاسترداد القدس وتأسيس مملكة مسيحية هناك (رونكيمان ١٩٩٢) .

كان الاهتمام السياسى المسيحى بمدينة القدس بادياً إلى حد كبير أثناء الانتداب البريطانى على فلسطين كما برز هذا الاهتمام من خلال الدعم الأمريكى المستمر لإسرائيل . وفى الوقت ذاته ، فإن الجماعات والمؤسسات المسيحية قد حافظت على اهتمامها الشديد بوضع القدس . والأهم من هذا وذاك ، أن القدس وفلسطين مازالتا موطن المسيحيين العرب ، الذين عاشوا هناك قروناً من الزمان . وللقدس أهمية خاصة أيضًا لدى العديد من المسيحيين ممن يؤدون مناسك الحج إلى الكنائس المسيحية والمقدسات فى هذه المدينة .

وتعتبر مدينة القدس واحدة من أهم ثلاثة أماكن مقدسة فى الإسلام . فهى أول مدينة اتخذها المسلمون قبلة لهم فى صلواتهم (وهى القبلة التى تغيرت فيما بعد وتحولت إلى مكة المكرمة) ، وهى تكتسب أهمية خاصة لدى المسلمين نظراً لأنها المكان الذى شهد رحلة الإسراء والمعراج التى قام بها النبى محمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . ووفقًا لمعتقدات المسلمين وإيمانهم بالحياة الآخرة والبعث والحساب ، تعتبر القدس هى المكان الذى تبدأ منه نهاية الزمن (سدرة المنتهى) .

وفى الوقت الحاضر ، فإن ضياع السيطرة على مدينة القدس إنما يشير إلى هزيمة المسلمين الأخيرة فى إطار ما يعتبره الكثيرون حملات صليبية لا نهاية لها والتى يشنها المسيحيون ضد الإسلام . ومن ثم ، فإنهم يعتقدون بأن فشلهم فى استعادة السيادة على القدس ، يشير إلى انهيار الحضارة الإسلامية مثلما يشير إلى فشل الفلسطينيين فى تحقيق تطلعاتهم وأمانيهم بتحرير أرضهم من الاحتلال الإسرائيلى .

والحقيقة أن مدينة القدس قد صارت أيضاً رمزاً للإمبريالية الغربية بالنسبة إلى العديد من المسلمين الذين يعتبرون أن سياسة التوسع الإسرائيلى المستمر بمثابة مؤامرة غربية تهدف إلى السيطرة على أراضيهم والقضاء على الإسلام . وهم يخشون من أنه فى ظل الحكم الإسرائيلى لفلسطين عامة ، ولمدينة القدس على نحو خاص ، فإن بيت المقدس ، أو ثالث الحرمين ، سيؤول إلى دمار فى نهاية المطاف . والحقيقة أن الزعماء الدينيين اليهود وبعض الجماعات الدينية اليهودية قد أعلنت عن خطط لإعادة بناء هيكل سليمان على الموقع نفسه فى المدينة . (سبرينذاك ٣ – ٧ : ١٩٩١، راجع أيضاً كتب ميرجوى وسيمونوت ، ١٩٨٧ ، ولوستيك ١٩٨٨ ، وفريدمان ١٩٩٠) .

والحقيقة أن عمليات الاستيطان المستمر لليهود فى القدس الشرقية العربية والإجلاء الإجبارى للفلسطينيين ، مسيحيون ومسلمون على السواء ، قد أدت إلى تعزيز مخاوف المسلمين . فالمسلمون يعتبرون أنفسهم ورثة اليهودية والمسيحية . وبالنسبة إليهم ، فإن الإسلام يحمل الرسالة ذاتها التى جاءت بها من قبل الديانتان اليهودية والمسيحية . وهم يؤمنون بأن الإسلام استمرار واستكمال للدين الذى جاء به النبى إبراهيم وأن القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية التى أنزلها الله من قبل على موسى وعيسى . وفى إطار هذا المعنى نفسه ، يؤمن المسلمون بأنهم الورثة الحقيقيون للأرض المقدسة، وهى حقيقة جسدها فتح الخليفة عمر بن الخطاب ، ثانى الخلفاء الراشدين الأربعة لمدينة القدس فى عام ٦٣٧ للميلاد .

ويعكس الصراع حول السيطرة على مدينة القدس التداخل بين الدين والسياسة فى الشرق الأوسط . ففى هذه المدينة تتلاقى وتتداخل الشئون الدنيوية ، والروحية ، والسياسية والثقافية والإقليمية وغيرها . والقدس مدينة حديثة وتقليدية على حد سواء . فهى حديثة من حيث مكانتها ووضعها كمكان مقدس يجسد الآمال والطموحات

القومية لدى اليهود والفلسطينيين ، وهى تقليدية بالنظر إلى أهميتها المقدسة لدى الديانات السماوية الثلاثة . وبالنسبة إلى الكثيرين ، فإنه لا يمكن التوصل إلى حل سياسى لمشكلة القدس بدون حل دينى (فريدلاند وهينمت ، ١٩٩٥ ، أسبوسيتو ، ١٩٨٨ : ٩٩ - ١٥٧) . وفى إسرائيل ، حيث تجمع الصهيونية ما بين الدين والقومية، فإنه لا يمكن التمييز بن التقليدى والحديث ، ولا يمكن التمييز أيضاً بين ما هو دينى وما هو سياسى (ليبمان ١٩٩٠ ، ليبمان ودون - يحى ١٩٨٣) . وهكذا ، ترمز القدس إلى أهمية الدين فى سياسة الشرق الأوسط .

الدور العصرى للدين فى سياسة الشرق الأوسط :

مازال الدين يلعب دوراً مهماً وأساسيًا فى سياسة الشرق الأوسط المعاصر . ففى لبنان ، ومصر ، والسودان ، تواجه الأقليات المسيحية مشكلات تتعلق بوضعها ودورها داخل المجتمعات ذات الأغلبية من المسلمين . وفى السياق نفسه نجد أن الأصولية اليهودية تعمل على تغيير المعادلات السياسية فى إسرائيل وتؤثر على مسار واتجاه عملية السلام العربى - الإسرائيلى . وبالنسبة إلى اتساع نطاق التأثير السياسى نجد أن الحركات الإسلامية قد احتلت دائمًا المقدمة على خشبة المسرح السياسى فى المحاولات الرامية لتحويل المشهد الطبيعى الدينى والسياسى للشرق الأوسط .

المسيحية والسياسة المعاصرة :

يشكل المسيحيون فى الشرق الأوسط مجموعة متنوعة تتوزع وتنتشر على نطاق واسع عبر العالم الإسلامى (كراج ١٩٩١) . وبسبب وضع هؤلاء المسيحيين كأقلية فى دول المنطقة ، فقد دأب المسيحيون على التعايش مع مبدأ اقتسام السلطة إما من خلال نظام الحصة للتمثيل النسبى (لبنان) أو من خلال تطبيق العلمانية (السودان) وذلك لأنه فى المجتمعات العلمانية أو القائمة على التعددية ، يستطيع المسيحيون فقط المشاركة فى السلطة . وقد تمكن المسيحيون من إثبات وجودهم على الساحة السياسية فى بلد مثل مصر ، حيث يعتبر الأقباط المصريون غالبًا هم المعيار لقياس التسامح والتعددية فى المجتمع المصرى . إذ إن مشكلة المسيحيين فى مصر قد كانت فى أغلب الأحوال مرادفة لوضع الأقليات الدينية فى عهد الإسلام (حداد ١٩٩٥) . ويشكّل الأقباط فى مصر ، والذين يسبق وجودهم هناك دخول الإسلام إليها ، نسبة

تصل إلى حوالى ١٠ ٪ من مجموع السكان . وقد صَعَّدَ الأقباط المصريون من مخاوفهم إزاء حرية إقامة وممارسة شعائرهم الدينية وحمايتهم من المتطرفين الدينيين مثل الجماعة الإسلامية التى دأبت على استهداف الأقباط ومصالحهم التجارية .

وفى لبنان ، وحتى عهد قريب كانت الهيمنة المسيحية إحدى سمات النظام السياسى . أما اليوم ، فإن الصراع يحتدم بين المسيحيين والمسلمين لإعادة تحديد موقفهم من الناحيتين السياسية والاجتماعية الاقتصادية . ويحظى المسيحيون اللبنانيون بأهميتهم من حيث عددهم ، وهم ناشطون سياسياً ويقتسمون مقاليد الحكم ويشاركون فى السلطة مع المسلمين من الفئتين السنية والشيعية . ويعتبر لبنان مجتمعاً تعددياً ومتعدد العرقيات والأديان قد عانى من أهوال وويلات الحرب الأهلية لما يقرب من عشرين عاماً . وفى الوقت الحاضر ، يلاحظ أن ميل الجماعات الدينية والزعماء السياسيين إلى أن يكون لديهم ميليشياتهم المسلحة قد عززه وشجعه تلك التصرفات والأعمال التى تقوم بها كل من سوريا وإسرائيل ، واللتان قد احتلتا أجزاءً من لبنان من أجل بسط نفوذهما ومصالحهما هناك . والحقيقة أن مصطلح لبننة قد بات مساوياً لمصطلح البلقنة كشىء يرمز إلى انتشار العنف ، والانقسام السياسى ، والصراعات حول الهوية ، والفوضى (صليبى ١٩٨١ ، أنتيليس ١٩٨١) .

وفى السودان ، أدت السياسات الرامية إلى تطبيق الشرعية الإسلامية والتعريب، والتى اتبعتها الحكومة السودانية الأصولية ، إلى قيام تحالف غير مستقر (ومنقسم على نفسه داخلياً) فيما بين المسيحيين ، والمسلمين المعتدلين ، وأتباع الديانات التقليدية . وقد اختارت هذه الفصائل والطوائف طريق المقاومة السياسية والحرب الأهلية منذ إعلان الرئيس السودانى فى ذلك الوقت ، وهو الرئيس جعفر نميرى ، فرض الشريعة الإسلامية فى البلاد فى عام ١٩٨٣ (فول ١٩٩١) . وفى السودان ، وأيضاً فى لبنان ، تعتبر السياسة المسيحية أحد المظاهر الآنية التى تتجلى وتتبدى من خلالها الانقسامات الطائفية ، والعرقية ، والأيديولوجية.

ويحدث التدخل المسيحى فى سياسة الشرق الأوسط اليوم على مستويين : الأول يتمثل فى جماعات الضغط (اللوبى) المسيحية الداخلية فى الغرب والتى تمارس ضغوطها على الحكومات لأخذ الاعتبارات الدينية فى الحسبان فى إطار سياساتها الخارجية . (شبيجل ١٩٨٢ - ١٩٨٣ ، هاينز ١٩٩٤ ، توماس ١٩٩٥) . والثانى

يكمن في أن لاعبين دوليين مثل مجلس الكنائس العالمي والفاتيكان لديهما اتصالاتهما وتأثيرهما وعلى نحو مباشر ، على الحكومات الأجنبية ودوائرها المعنية من أجل تحقيق المصالح المسيحية . وتتضمن الاهتمامات المعاصرة للسياسة المسيحية في الشرق الأوسط (١) حماية مصالح الأقليات المسيحية في الدول الإسلامية ، و (٢) التخفيف من حدة نزعة التطرف الصهيونية والإسرائيلية في الأرض المقدسة ، و (٣) والتبشير ونشر الدعوة والهداية حيثما أمكن وأينما أمكن (بيرجر ١٩٩٦ - ١١٣) .

الأصولية اليهودية في إسرائيل :

الحقيقة أن اليهودية ، شأنها شأن الإسلام ، لديها تقليد ديني - سياسي . فكما أن القانون الإسلامي (الشريعة) كان له وقاره وهيبته في إطار التقاليد الإسلامية ، كذلك قد كان القانون اليهودي (halakah) على درجة كبيرة من الأهمية في ممارسة العقيدة اليهودية (سيفان ١٩٩٠) . واليوم تعتبر السياسة اليهودية مزيجاً متشابكاً ومعقداً من العرقية ، والقومية ، والطائفية الدينية .

وفي إسرائيل ، يمكن للمرء ملاحظة وجود كل من القومية اليهودية والطائفية اليهودية. كانت الصهيونية هي الأيديولوجية السائدة والتي لها الغلبة في إسرائيل ، وهي شكل من أشكال الاشتراكية والذي قد وفّر هوية قومية مشتركة لليهود الدينيين والعلمانيين على السواء ممن ينتمون إلى خلفيات عرقية متنوعة ومتباينة مثل يهود أفريقيا ، والشرق الأوسط ، وروسيا ، وأوروبا الشرقية وأوروبا الغربية ، وفلسطين ، وأمريكا الشمالية وهي أيديولوجية تحركها مخاوف وجودية تتعلق بإقامة مجتمع ديني، ألا وهو إسرائيل ، والذي يمكنه أن يضمن بقاء ومستقبل الشعب اليهودي (فوجل ١٩٨٦) .

وفي السنوات الأخيرة ، كان هناك نمو متزايد في الراديكالية اليهودية والحركات الأصولية اليهودية (سبرينزاك ١٩٩١) . وقد حدث نوع من الاندماج والأنصار بين الدين والسياسة في إطار المفهوم الخاص بإقامة دولة يهودية - صهيونية، ناهيك عن الأيديولوجية العلمانية والاشتراكية لهذه الدولة . ولا شك أن الانبعاث المعاصر لليهودية المفرطة في أوساط اليمين اليهودي يتجاوز حدود وآفاق الاندماج الذي كان قائماً من قبل بين الدين والسياسة . والواقع أن الخوف من أن تتبدد المكاسب المتعلقة

بالأراضى والتى حققتها إسرائيل فى حرب عام ١٩٦٧ مع العرب ، والشعور بالسخط المتنامى إزاء الفشل فى إيجاد إطار مؤسسى وأكثر تكاملاً للهوية الدينية اليهودية ، الواقع أنهما يمثلان معًا اثنين من القوى المحركة التى تقف وراء الانبعاث المعاصر لليمين اليهودى . ولاشك أن عملية التوفيق بين المعتقدات الدينية لهذا التيار اليمينى المتطرف وتفسيراته السياسية تعتبر اليوم بمثابة قوة مهمة فى التأثير على الأزمة الشرق أوسطية (ر . فريدمان ١٩٩٢ ، م . فريدمان ١٩٩٢ ، هرتسبرج ١٩٩٢ ، دامان ١٩٩٥) .

إن المعانى المختلفة للمعتقدات المتنوعة ، والمتناقضة فى بعض الأحيان ، والمتضمنة فى الأصولية اليهودية توفر دليلاً مهمًا يقودنا إلى فهم المناخ السياسى المتغير فى إسرائيل . فعلى الرغم من احتمال تفجُّر الخلافات فيما بين الأصوليين اليهود حول أمور وموضوعات مهمة ، إلا أن هناك اتفاقًا بين الجميع على حق الشعب اليهودى فى إقامة وطن قومى له . وهذه الخلافات والانقسامات فى المجتمع اليهودى قد حددها إيان لوستيك فى كتابه (١٩٨٨ – ١٧) باعتبارها تقسم اليهود إلى ثلاث مجموعات : الصهاينة العلمانيين ، واليهود الأرثوذكسى (المتطرفين) ، والأصوليين اليهود .

وكما ناقشنا هذا الأمر من قبل ، فإن الصهاينة التقليديين هم أساسًا من اليهود العلمانيين الذين يربطون مستقبل الهوية اليهودية بوجود دولة قومية يهودية مستقلة وقوية . وتعتبر هوية هؤلاء اليهودية مصدرًا للقومية اليهودية ، والتى جرى تعزيزها لتوليد قوة دفع سياسية ضرورية من أجل خلق دولة يهودية ومؤازرتها (لوستيك ١٩٨٨) . ومن الناحية التاريخية ، فإن هؤلاء الأفراد قد مالوا إلى الانضمام لحزب العمل فى إسرائيل .

صورة (٤ : ١١) شاب يهودى أرثوذكسى يؤدى الصلاة عند حائط المبكى فى القدس

ويشكل اليهود الهاريديم (Haridim) ، وهى كلمة عبرية تعنى حرفياً «المتقون» أو هؤلاء الذين يخشون الله ، يشكِّلون اليهود الأرثوذكس . وهم لا ينخرطون فى العمل السياسى بشكل فعَّال من أجل تحقيق تغيير سريع وشامل فى إسرائيل . ينصبُّ اهتمامهم الأساسى على أداء الشعائر الدينية ، وعلى تنفيذ العديد من الأحكام والقواعد والتعاليم التفصيلية التى تشكل فى مجموعها الشريعة اليهودية (الحلقة) . ويعيش هؤلاء اليهود ، الذين يرتدون ملابس مميزة فى أحياء سكنية معزولة ، وهم إما يعزلون أنفسهم عن الصهيونية أو يعارضونها . ومع ذلك ، فإن تأييدهم القوى للأحزاب الدينية اليمينية، ومواجهاتهم المتكررة مع اليهود الأكثر علمانية بسبب قضايا تتعلق بأداء شعائرهم الدينية العامة ، والدعم المالى الذى يحصلون عليه من الولايات المتحدة ، كل هذا يجعلهم قوة هائلة وأساسية يمكنها أن تضفى الطابع الراديكالى والعلمانى على السياسة الإسرائيلية (رفتسكى ١٩٩٣ ، انظر أيضاً لوستيك ١٩٨٨ ، وسبرينزاك ١٩٩١) .

وتتمثل الأصولية اليهودية بصورة مصغرة فى حركة جوش إيمونيم (كتلة المؤمنين) . وتعتقد كتلة جوش إيمونيم أن اليهود متفردون ومميزون ومختلفون لأنهم شعب الله المختار والذى اصطفاه وخصه الله بقيادة البشرية فى إطار عملية الإعتاق الدينى . وهم لا يعتبرون إسرائيل دولة وطنية عادية . فإسرائيل بالنسبة لهم هى الدولة اختصها الله بأن تكون شعبه المختار وفقًا لما جاء فى التوراة (سيلبرشتاين ١٩٩٣) .

وهكذا ، فإنهم يعتقدون بأن اليهود بحاجة إلى امتلاك أرض إسرائيل ، وبدون ندم وعدم ثقة بالذات وكما فعلوا قبل ما يربو على ألفى عام ، من خلال الحروب المقدسة ضد الكنعانيين . والحقيقة أن العديد من الزعماء البارزين فى جوش إيمونيم يشيرون إلى الفلسطينيين اليوم على أنهم الكنعانيون . وهم يؤمنون بضرورة تدمير القومية الفلسطينية والقضاء عليها كما ينظرون إلى العرب باعتبارهم أحد مظاهر الشر فى الوقت الحاضر والذين لابد من غزوهم وقهرهم لتنفيذ مشيئة الله وتأكيد السيادة اليهودية على إسرائيل (لوستيك ١٩٨٨) .

وبالنسبة إلى جوش إيمونيم ، فإن الالتزام بتحقيق الأهداف التوراتية السياسية والأهداف المرتبطة بحيازة الأراضى يعتبر معياراً للإيمان أعظم من سعى اليهود الهاريديم لبلوغ الكمال فى أداء شعائرهم . ويرتبط أتباع جوش إيمونيم بعلاقات رمزية قوية مع حزب الليكود فى إسرائيل . وكل من هذين الحزبين يعزز الآمال والطموحات السياسية لبعضها البعض ويعملان على تقوية كل منها الآخر (رفتسكى ١٩٩٣) .

ومن أوائل الثمانينيات ، أشارت سلسلة من الأحداث إلى وجود وتنامى اليمين اليهودى. وفى ٢٧ أبريل عام ١٩٨٤ ، تم اكتشاف مؤامرة لتفجير حافلة كانت تقل ركاباً من السكان العرب . وتبع هذا اكتشاف خطة لتدمير قبة الصخرة باستخدام ٢٨ قنبلة من القنابل فائقة الدقة . وفى كلتا الحالتين ، كان الإرهابيون الذين دبروا هاتين المؤامرتين من الأعضاء فى جوش إيمونيم . وقد أعقب هذه الأحداث انتخاب الحاخام الراحل مير كاهانا فى الكنيست ، والذى كان مؤسس وزعيم حركة كاخ (هكذا) اليهودية الأصولية التى تتسم بالعدوانية والعنف ، والذى كان من أشد المؤيدين لطرد جميع العرب بالقوة من أرض «إسرائيل الكبرى» . (سبرينزاك ١٩٩١ – ٣ – ٧) . وفى عام ١٩٩٥ ، أدى حادث اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق ، إسحاق

رابين ، على يد متطرف يهودى يمينى ، والذى استند إلى الشريعة اليهودية فى تبرير جريمته ، إلى إصابة الإسرائيليين والمجتمع الدولى بالصدمة والذهول .

ويعتبر اليمين اليهودى ، فى الأساس ، قوة محلية داخل إسرائيل . ومع هذا ، فإن معارضته لأية مصالحة مع الفلسطينيين أو مع العرب جعلته لاعباً إقليمياً فى سياسة الشرق الأوسط . وهكذا ، فإن عدم رغبة اليمين الدينى فى تأييد المفاوضات حول وضع مدينة القدس قد ثبت أنها عقبة رئيسية فى طريق التوصل إلى حل سلمى للصراع العربى – الإسرائيلى . إذ يرى اليمين الدينى أن إعادة التفاوض على ما يعتقد أنه تفويض دينى هى بمثابة مقايضة الدين بالسياسة . ولذا ، يرى هذا اليمين اليهودى أن الدين هو الذى يجب أن يفرض ويملى إرادته على السياسة وليس العكس .

انبعاث الإسلام السياسى :

ليس ثمة شك فى أن الانبعاث المعاصر للإسلام وتأثيره على السياسة الإقليمية والعالمية قد ألقى بظلاله عامة على السياسة الدينية المسيحية واليهودية فى منطقة الشرق الأوسط . إذ إنه قد أحدث تحولاً فى الشخصية الأساسية لدولتين بارزتين ، هما إيران والسودان ، كما أثّر بدرجة كبيرة على العديد من البلدان الأخرى . إذ إن الإسلام السياسى قد شكل تحدياً خطيراً للمسار العلمانى الذى تسلكه تركيا منذ ٧٠ عاماً (خان ١٩٩٦) . وفى ديسمبر عام ١٩٩١ وفى يناير عام ١٩٩٢ ، كانت جبهة الإنقاذ الإسلامية (FIS) على وشك الفوز فى الانتخابات البرلمانية التى أجريت بالجزائر لولا تدخل القوة العسكرية العلمانية فى اللحظة الأخيرة . كما أن الحركات القومية الإسلامية مثل حماس وحزب الله ، ومِن خلال استخدام صواريخ الكاتيوشا واللجوء إلى التفجيرات الانتحارية ، قد عرّضتْ الأمن الإسرائيلى للخطر فى كل من لبنان وفلسطين. وقد شهدت دول مثل مصر ، والسعودية ، وتونس ، والبحرين ، والأردن انبعاث حركات إسلامية ، بل وفى بعض الأوقات ، شهدت تحدى هذه الحركات لشرعية أنظمتها السياسية (أسبوسيتو ١٩٩٩ ، أيوبى ١٩٩١ ، كيبيل ١٩٨٥ ، أبو عمر ١٩٩٤) .

والحقيقة أن انبعاث الإسلام السياسى جاء رداً على جملة من الأزمات التى شهدها الشرق الأوسط . وبسبب أزمة الهوية ، باتت المجتمعات الإسلامية أسيرة بين

الولاءات التقليدية ، والقومية العلمانية ، والتيارات الإسلامية الحديثة باتجاه القومية الإسلامية (أسبوسيتو ١٩٩٩ ، شويرى ١٩٩٠ ، حسين ١٩٩٥) . وفى خضم أزمة التحديث ، أدت المحاولات المكثفة من القمة إلى القاعدة والرامية إلى التحديث ، إلى تحقيق الحضرنة والتمدن ، ولكنها حققت قدراً محدوداً من التنمية الاقتصادية ، الأمر الذى أدى بدوره إلى تأثير طبقة كبيرة ومتعلمة من المناطق الحضرية بمشكلة البطالة المتفاقمة ، ومن ثم اتساع الفجوة بين الأثرياء والفقراء ، وانتشار الفساد . وهكذا حدثت أزمة تغيير لأنه ، وعلى الرغم من أن التحرر من نير الاستعمار الغربى كان ناجحاً ، ورغم أنه أفرز تغييراً فى الأنظمة الحاكمة ، إلا أنه كان تغييراً محدوداً للغاية (رحنماع ١٩٩٤ ، سيد أحمد واحتشامى ١٩٩٦) . وسرعان ما وجد الناس أنفسهم تحت الحكم الفاشستى أو العسكرى ، وذلك فى دول حيث عمدت النخب الحاكمة إلى مساواة التحديث بالتغريب . ورفض المنتقدون النخب المتغربة العلمانية باعتبارها «نتاج التعامل مع الغرب» . وأخيراً ، نشأت أزمة السلطة والتى فجّرها الصراع مع إسرائيل . إذ إن الفشل فى استعادة الأراضى التى احتلتها إسرائيل واستمرار سياستها التوسعية ، بما فى ذلك سيطرتها على القدس ، قد أكدت للكثيرين عجز المسلمين عن حماية أراضيهم ومقدساتهم ودينهم من الهجمات المتكررة من جانب الغرب الإمبريالى (أسبوسيتو ١٩٨٣ – ١٩٩٥ – ١١ – ٢٤) .

وهكذا ، فإن الانبعاث الإسلامى الحالى يعتبر استجابة شعبية واسعة النطاق لأزمات متعددة . وهو نضال من أجل إثبات الموثوقية الثقافية وحق تقرير المصير الذاتى (أيوبى ١٩٩١ ٢١٤ – ٢٢٠ ، أسبوسيتو ١٩٩٨ ، هاينز ١٩٩٤ ٦٦ – ٩٤) وقد وصف البعض هذا الانبعاث الإسلامى بأنه بمثابة مجتمع مدنى يحاول رد الصاع صاعين إلى حكومات ديكتاتورية وفاشستية صارت عاجزة وغير فعالة (سيفان ١٩٩٠ ، فوللر ١٩٩٥) . وفى العديد من الأماكن ، تلعب الحركات الإسلامية دوراً يماثل دور الدولة من حيث قيامها بتوفير خدمات الرعاية الصحية ، والتعليم ، والمساعدة الاقتصادية . ويرى البعض أن الحركات الإسلامية المعتدلة ليست مجرد مؤسسة للمجتمع المدنى ولكنها تعبير صادق عن نبض الجماهير الغفيرة ورغبتها فى إضفاء الطابع الديمقراطى على الحكومات الإسلامية . ويخشى البعض فى الغرب ، وكذلك فى العالم الإسلامى ، من أن يعمل إضفاء الصبغة الديمقراطية ، أو التحول إلى

الديمقراطية ، على تسهيل الأسلمة فى الشرق الأوسط ، وهو الأمر الذى يؤدى إلى تدمير أنظمة الحكم ، ويهدد الوصول إلى مصادر البترول ، وتقويض عملية السلام العربي - الإسرائيلي (بايبس ١٩٩٥ - ٧ ، ميلر ١٩٩٣ ، وانظر أيضاً إلى رودمان ١٩٩٤) .

والواقع أن الحركات والمنظمات الإسلامية ، المعتدلة والمتطرفة على السواء ، قد صارت من اللاعبين الرئيسيين والعناصر الأساسية فى عملية التغيير . إذ إنها قد نجحت فى تأسيس تنظيمات سياسية واجتماعية حديثة وباتت تتضمن وسائل حديثة لبث رسائلها عبر أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية ومن خلال أجهزة الفاكس وشبكات الإنترنت . وتعمل أغلبية هذه المنظمات والحركات داخل المجتمع المدنى كنشطاء اجتماعيين وسياسيين . وهناك بعض المنظمات ، مثل جماعة الإخوان المسلمين فى مصر والأردن ، والجماعة الإسلامية فى باكستان ، وحزب الرفاة فى تركيا ، وحزب النهضة فى تونس ، تحرص على تفادى العنف والمشاركة العملية الانتخابية . وتقوم هذه الجماعات ببناء المدارس ، والمستشفيات ، والبنوك ، وتقدم خدمات اجتماعية وقانونية زهيدة ، وهى تعتبر أيضاً رائدة فى السياسة ولديها هيئات واتحادات مهنية للأطباء ، والمحامين ، والمهندسين ، والمدرسين .

فى الوقت ذاته ، تسعى أقلية من المتطرفين إلى الإطاحة بالأنظمة الحاكمة وفرض أفكارهم ومعتقداتهم الإسلامية . إذ إن الجماعة الإسلامية فى مصر ، والجماعة المسلحة فى الجزائر ، ومنظمات الجهاد الإسلامي فى العديد من الدول قد قامت بأعمال عنف وإرهاب هددت بتقويض استقرار وأمن العديد من أنظمة الحكم ، بل امتدت أنشطتها إلى دول أوروبية (حوادث التفجير فى باريس) والولايات المتحدة (تفجير مركز التجارة العالمى) .

وتهدف هذه الحركات والجماعات والمنظمات الإسلامية إلى تحرير المجتمعات الإسلامية من الهيمنة الاستعمارية (الأوروبية ، والسوفيتية ، والأمريكية) وكذلك تحريرها من الإمبريالية الثقافية (أسبوسيتو ١٩٩٩) . ويسعى البعض منها إلى إحياء القيم الإسلامية من أجل تأسيس دول إسلامية كخطوة أولى نحو تحقيق الهدف الأسمى المتمثل فى إقامة الأمة الإسلامية العالمية . (أبو ربيع ١٩٩٤) . ولم يعارض الإسلام السياسى التحديث ، ولكنه يعارض التغريب والعلمانية فى المجتمعات الإسلامية . وهو

يتبنى التكنولوجيا الحديثة والعلوم الحديثة ، ولكنه يرفض القيم الثقافية والعلمانية والتيارات العسكرية القادمة من الغرب . والإسلاميون لا يرون أن ثمة ضرورة أو حاجة للربط بين التقدم العلمي والتكنولوجي والتنمية الاقتصادية من ناحية ، والتحديث العلماني من ناحية أخرى (قول ١٩٩٤ ، أسبوسيتو ١٩٩٨) . ومن ثم فإنهم يعتقدون أن الدافع الحقيقي والأساسي وراء اهتمام الغرب بالشرق الأوسط يكمن في استغلال الموارد الطبيعية والثروة النفطية لدى العالم الإسلامي . وهم يرون أن التهديد من الغرب ينطوي على فرض الهيمنة السياسية والاختراق الثقافي (أبو ربيع ١٩٩٦ ، أسبوسيتو ١٩٩٩) .

صورة (٥ : ١١) مسيرة نسائية في العاصمة الجزائرية احتجاجًا على سياسات المتشددين الإسلاميين

والشيء المؤكد هو أنه ليس من المرجح أن يضعف دور الإسلام أو تخبو جذوته فى سياسة الشرق الأوسط المعاصر فى المستقبل القريب . فالإسلام يكتسب ، يوماً بعد يوم، المزيد من القوة عبر مختلف المراحل الاجتماعية والاقتصادية فى العديد من المجتمعات الإسلامية . والعديد من الحكومات فى الشرق الأوسط تواجه مشكلات معقدة وشائكة من بينها شرعية وجودها فى السلطة ، واتباع النهج الاستبدادى الفاشستى ، وتدهور اقتصادات دول المنطقة ، والتوزيع غير العادل للثروة ، والفساد ، وانتهاكات حقوق الإنسان . وعلى الرغم من أن الجميع تقريباً يشعرون بتأثير رياح التغيير ، إلا أن حفنة قليلة فقط هى التى استفادت من عملية التحديث . ويبدى العديد من الشباب من الجيل الأصغر شعوراً بالامتعاض والاستياء إزاء النظم القائمة وإخفاقها فى الوفاء بوعودها وعجزها عن تلبية احتياجات الجماهير ، بل إن الشباب فى هذه المجتمعات يركز انتقاداته على اعتماد تلك النظم سياسياً ، واقتصادياً ، وثقافياً على الغرب . وهكذا، فإن النخب العلمانية ، وهى أقلية غالباً ما يلقى عليها اللوم لمسئوليتها عن الإخفاقات التى منيت بها مجتمعاتها ، وتواجه الآن تحدياً متزايداً يتمثل فى ظهور نخبة بديلة ، أكثر تعليماً ، ولديها توجهات إسلامية أكثر ، وتجنح بدرجة أكبر إلى انتقاد الإخفاقات وحالات الفشل والتجاوزات الناجمة عن عملية التحديث .

فهم دور الدين فى سياسة الشرق الأوسط :

الحقيقة أن دراسة الدين قد أضحت مهمة مرة أخرى فى أواخر القرن العشرين ، ولاسيما مع إسدال الستار على الحرب الباردة . وخلال فترة الحرب الباردة (١٩٤٥ – ١٩٨٩) ، نجد أن دراسة المجتمعات النامية من جانب معظم علماء الاجتماع والخبراء الآخرين قد انطلقت من فرضية أوروبية مفادها أنه عاجلاً أم آجلاً فإن الشرق الأوسط ، شأنه شأن بقية العالم الثالث سوف يصبح مماثلاً ومشابهاً للغرب فى توجهه نحو المستقبل اعتماداً على التحديث والعلمانية . وهذا قد حال دون إجراء دراسة منظمة للدين وقوته أو فاعليته السياسية (أبيلباى ١٩٩٤ : الفصل الأول) .

وقد تركت دراسة الدين والسياسة لعلماء الاجتماع ولمؤرخى الأديان (مقتدر ١٩٨٥ ، فول ١٩٩٤) . وقد تكشّف فشل التحليل السياسى فى التعامل الجاد مع الدين عندما تفجرت الثورة الإيرانية على مسرح السياسة العالمية فى عام ١٩٧٩ (أسبوسيتو

١٩٩٠) . فمنذ ذلك الحين ، وفّر الانبعاث الدينى للإسلام فى الشرق الأوسط قوة الدفع الضرورية للعلماء السياسيين لدراسة السطوة والتأثير المعاصرين للدين فى المجال السياسى (أيوبى ١٩٩١ ، زبيدة ١٩٩٣ ، بورجات وداول ١٩٩٣ ، فوللر وليسر ١٩٩٥ ، أسبوسيتو ١٩٩٨ ، سيفان ١٩٨٥ ، مونسون ١٩٨٨ ، شويرى ١٩٩٠) .

وليس ثمة شك فى أن الانبعاث العالمى للدين قد قضى على توقعات معظم الخبراء الذين كانوا قد افترضوا أن بقية دول العالم سوف تحاكى وتقلد التجربة الغربية فى مضمار التطور السياسى (توماس ١٩٩٥ - ٢٨٩) . وما من أحد من بين هؤلاء الخبراء والمحللين قد توقع القوة التى سيدخل الدين من خلالها مرة أخرى إلى عالم السياسة . وقد عبر عالم الاجتماع ، ويليام سواتوس ، عن مشاعر المجتمع الأكاديمى إزاء هذه النقطة على النحو التالى:

ليس ثمة سلاح فى الترسانة النظرية للدراسات العلمية الاجتماعية للدين أو العلوم السياسية يمكنه مهاجمة مشكلة الانبعاث الدينى فى انحاء العالم أو التصدى لها . فالنظريتان الأساسيتان عن «التحديث» - التنمية أو الاستغلال - تنطلقان كلتاهما من الافتراض بأن «الآراء والأحكام الدينية» تعوق حركة التقدم وأنها بدأت تتلاشى فى شتى أرجاء العالم (سواتوس ١٩٨٩) .

والواقع أن الباحثين هم الذين قد سمحوا لتحيزهم إلى العلمانية بأن يضعف من مناهجهم عندما تعلق الأمر بدراسة الدين ، ومن ثم تحولت النظرية إلى عقيدة . وقد أشار جيفرى هادين ، فى خطابه الرئاسى الذى ألقاه عام ١٩٨٦ أمام جمعية الدراسات الاجتماعية الجنوبية ، إلى أن «العلمانية ، فى شكلها ومضمونها» تشكل «عقيدة أو مبدأ أكثر منها نظرية» ، تستند إلى افتراضات مسبقة والتى تمثل «أيديولوجية مسلّم بها» للعلوم الاجتماعية «بدلاً من كونها مجموعة من الافتراضات المترابطة فيما بينها» . وذهب فى جداله إلى أبعد من ذلك فقال إنه بمرور الزمن «صارت فكرة النزعة العلمانية فكرة مقدسة» ، أو بعبارة أخرى ، أصبحت نظاماً للعقيدة ، أو معتقداً ، يقوم على الإيمان (سواتوس ١٩٨٩ - ١٤٦) .

وفى اتهام قوى موجه إلى علماء الاجتماع بسبب «كراهيتهم الفطرية وبغضهم الغريزى للدين» ، يجادل فريد فون دير مهدن (١٩٨٦ - ١٣ - ١٩) بأن هؤلاء

الباحثين ليسوا متحيزين ضد الدين فحسب ولكنهم يناصبونه العداء أيضاً . كما يشير إلى أن الاستنتاجات النظرية عن العلاقات بين التقاليد والدين من جهة ، والتحديث من جهة أخرى ، وعلى الأخص فى العالم الثالث ، غالبًا ما كان يتم التوصل إليها دون أية تجربة أولية فى التعامل مع المناطق ، والأديان ، أو التقاليد .

وقد كان لهذا الإيمان الأعمى بالعلمانية تأثيران سلبيان على دراسة الدين والسياسة. التأثير الأول هو أن الدين قد استبعد أو أدرج ضمن فئة «الثقافة» التى لم تكن تبلورت بعد ، وذلك جنباً إلى جنب مع العرقية ، والتقليدية ، والقبلية ، ومن ثم لم يتم التعامل مع الدين بصورة جادة إلا بعد اندلاع الثورة الإسلامية فى إيران كما سبق أن أشرنا . والثانى أن هذه الأيديولوجية قد أدت إلى إزالة صفة الشرعية من قبل عن أفكار مثل الدولة الإسلامية أو الحكم الإسلامى وذلك لأن الأفكار تتحدى الإيمان السائد بالعلمانية . وقد خلص بعض الباحثين فى مجال العلاقات الدولية ، والذين واجهوا أزمة مماثلة تتعلق بفشل نظرياتهم فى توقع الحرب الباردة ، إلى ما يلى :

«من المفترض أن تحرر النظرية الباحثين من تحيزاتهم السياسية ، والثقافية . بيد أن النظرية الاجتماعية تعكس حتماً هذه التحيزات . وهى لا تقدم خدمة عندما تضفى جواً من الشرعية العلمية على معتقدات وافتراضات سياسية ذاتية» . (ليبو وريسى – كابين ١٩٩٥ : ٥)

وهكذا ، فإن الإيمان بالعلمانية ، أو ما قد أطلق عليه البعض «الأصولية العلمانية» ، كضرورة للتطور ، قد حال دون تقدير العديد من المحللين للدور المهم الذى يضطلع به الدين فى سياسة الشرق الأوسط .

خاتمة :

لقد أصبح الدين مرة أخرى موضوعاً رئيسياً فى دراسة السياسة الدولية ، ولاسيما فى إطار سياسة الشرق الأوسط . وبدلاً من أن يتراجع دوره ويأخذ فى الانحسار ، فإن الدين قد عاد ليحتل الصدارة على المسرح العالمي . فالتاريخ لا يتقدم وفقاً للسيناريو الذى تصورته عملية التحديث للمنطقة . ورغم أن هذه المنطقة تشهد تطوراً سياسياً واقتصادياً ، إلا أن التطور لا يتوافق مع الخطوط التى قد تنبأت بها العلوم الاجتماعية الغربية . وتوحى العلاقة التاريخية الطويلة والارتباط الوثيق بين الدين والسلطة والأوضاع الراهنة فى الشرق الأوسط بأن العلمانية على النمط الغربى ستظل تواجه تحدياً من جانب الانبعاث الدينى المعاصر .

ولاشك أن القراءة غير المتأنية لتاريخ ما بعد الحقبة الاستعمارية قد خلقت انطباعاً زائفاً بأن منطقة الشرق الأوسط تتجه صوب العلمانية . ومما يؤكد عدم صحة ذلك أنه فى غضون السنوات الأخيرة ، قد جرى الإعلان عن قيام جمهوريات إسلامية جديدة فى إيران ، السودان ، وأفغانستان . وفى المغرب ، وكما هو الحال فى السعودية، يرتكز نظام الحكم الملكى على شرعية قوية نظراً لارتباطه الوثيق بالإسلام . وفى الأردن ، لم يغب أبداً عن ذهن العاهل الأردنى الراحل الملك حسين التذكير دوماً بان نسبه ترجع أصوله إلى النبى محمد. ولا تزال لدى الزعماء المسلمين حساسية مفرطة لقوة الدين ، كما أن حركات المعارضة تعمد أيضاً إلى اللجوء للإسلام لإضفاء صبغة من الشرعية والتأييد الشعبى عليها .

وبالمثل نجد أن وجود إسرائيل نفسها وهويتها ما يزالان مرتبطين بالديانة اليهودية. ومن ثم ، يحرص العديد من معتنقى هذه الديانة على أن يتضمن برنامجهم السياسى قضايا وموضوعات وأماكن تعتبر مقدسة لديهم . وسواء أرادوا الدفاع عن الوضع الراهن أو إدانته ، فإن السياسيين فى منطقة الشرق الأوسط ، اليهود والمسلمين على حد سواء ، يسترشدون بمبادئ وقيم دينية . والواقع أن الاختلاف بين دور الدين فى السياسة المعاصرة ، وفى السياسة فى حقبة ما بعد الاستعمار ، وفى السياسة فى العصر العلمانى ما بعد الحقبة الاستعمارية ، كان اختلافاً فى الدرجة وليس فى النوع.

وفى القرن الحادى والعشرين ، سيظل الدين بمثابة القوة الموجهة ، أو بالأحرى، قوة الدفع الرئيسية فى ميدان السياسة العالمية . فالدين يضطلع بالعديد من المهام السياسية ، تماماً كما تخدم السياسة العديد من المهام الدينية فى منطقة الشرق الأوسط: موطن الأديان والرسالات السماوية الثلاث . فالدين مصدر للهوية وللأهمية أيضًا ، حيث يوفر رموزاً للمصداقية والمغزى والمعنى للوجود الاجتماعى والسياسى . والدين يعتبر أيضًا الأساس الذى تقوم عليه الدول والمصدر الذى لا غنى عنه للمجتمع المدنى. ولا شك أن الاسترشاد بالدين وأحكامه وتعاليمه يضفى شرعية على الأنظمة والنظم ، وهو يوفر الطاقة الحيوية والثورية اللازمة لتحدى شرعية الدول ، والأنظمة ، والنظم . وتمثل مدينة القدس المكان الذى تتلاقى فيه جميع الديانات السماوية الثلاث حيث قد تعايشت هذه الديانات معاًفى الماضى ولا تزال هذه المدينة محور صراع حول السيادة عليها يدور بين الديانات الثلاث . وهذا التحدى الذى يواجه السياسة الدينية فى الشرق الأوسط خلال الأعوام القادمة ، وكما هو الحال بالنسبة لمشكلة القدس ، سوف يعمل على تطوير أسلوب تعددى للوجود القائم على الاعتراف بالمبادئ، والقيم ، والمصالح المشتركة فى ظل خلافات سياسية ودينية .

ملاحظات :

١- لوصف حى وتفصيلى لمذبحة القدس يرجى الرجوع إلى كتاب روتسيمان (١٩٩٢ - ١٨٨) ، وكتاب ماير (١٩٨٨) .

٢- التقاليد الإسلامية تشير إلى اليهود والمسيحيين باعتبارهم «أهل الكتاب» وتعترف بالأصول المشتركة للتوراة ، والإنجيل ، والقرآن .

٣- من الملاحظ أن جهوداً تبشيرية هائلة قد بذلت فى مجتمعات عربية قد كانت تعتنق المسيحية لقرون طويلة ولكنها اتبعت مذاهب قديمة للدين المسيحى لم تكن مفهومة تماماً لدى الكنائس الغربية فى القرن التاسع عشر .

٤- يعنى مصطلح «المتقون» فى الدين الإسلامى المؤمنين الذين يخشون الله .

٥- فى شهر مارس من عام ١٩٩٤ ، وفى أعقاب المذبحة التى وقعت فى مدينة الخليل والتى قتل فيها ٢٩ من المصلين المسلمين على يد متطرف يهودى من حركة كاخ المتشددة ، فرضت الحكومة حظراً على أنشطة حركة كاخ وحركة أخرى يطلق عليها «كاهانا» ، وذلك بموجب قوانين مكافحة الإرهاب .

المصادر :

١- زياد أبو عمر : «الأصولية الإسلامية فى الضفة الغربية وغزة : جماعة الإخوان المسلمون وحركة الجهاد الإسلامى» - بلومنجتون - مطبعة جامعة إنديانا - ١٩٩٤ .

٢- إبراهيم أبو ربيع : «الانبعاث الإسلامى : التحديات ، الاتجاهات ، والاحتمالات المستقبلية» - تامبا - مؤسسة الدراس ات الإسلامية والعالمية - طبعة عام ١٩٩٤ .
* «الأصول الفكرية للانبعاث الإسلامى فى العالم العربى الحديث» - نيويورك - مطبعة جامعة نيويورك - ١٩٩٦ .

٣- تشارلز آدامز : «المودودى والدولة الإسلامية» - الصفحات من ٩٩ - ١٣٣ فى كتاب جون أسبوسيتو «أصوات الانبعاث الإسلامى» - أكسفورد - ١٩٨٣ .

٤- ممتاز أحمد : «سياسة الدولة والإسلام» - إنديانا بوليس دار المطبوعات الأمريكية - ١٩٨٦ .

٥- سكوت أبيليباى : «الانبعاث المفاجئ للدين . فى الأصوليات الدينية والصراع العالمى» - نيويورك - اتحاد السياسة الخارجية - أرمسترونج - كارين ١٩٩١ .
الحرب المقدسة : «الحملات الصليبية وتأثيرها على عالم اليوم» - نيويورك دبلداى - ١٩٩٤ .

٦- محمد العوا : «حول النظام السياسى للدولة الإسلامية» - إنديانا - دار المطبوعات الأمريكية - ١٩٨٠ .

٧- نزيه أيوبى : «الإسلام السياسى : الدين والسياسة فى العالم العربى» - لندن - رولنيدج - ١٩٩١ .

٨- مارشال بيرجر : «الدين والسياسة فى القدس» - مجلة الشئون الدولية العدد ٥٠ ١١٨ - ١ : ٩١ - ١٩٩٦ .

٩- فرانسوا بورجات ، ووليام داول : «الحركة الإسلامية فى شمال أفريقيا» - أوستن - جامعة تكساس - ١٩٩٣ .

١٠- ريتشارد كافيندش : «الديانات السماوية العظمى» - نيويورك - مطبعة أركو - ١٩٨٠ .

١١- يوسف شويعرى : «الأصولية الإسلامية» - بوسطن - توين - ١٩٩٠ .

١٢- ويليام كليفلاند : «تاريخ الشرق الأوسط الحديث» - بولدر - كولومبيا - مطبعة وستفيو - ١٩٩٤ .

١٣- كينيت كراج : «المسيحيون العرب : تاريخ فى الشرق الأوسط» - لويز فيل كنتاكى - مطبعة جون نوكس - ١٩٩١ .

١٤- بيتر دامان : «الأصولية اليهودية فى إسرائيل : مضامين للصراع فى الشرق الأوسط» القدس - المركز الإسرائيلى / الفلسطينى للأبحاث والمعلومات - ١٩٩٥ .

١٥- جون أنتليس : «الصراع العرقى وعودة ظهور القومية المسيحية الراديكالية فى لبنان» - الصفحات ٢٢٧- ٢٤٦ فى كتاب مايكل كورتيس : «الدين والسياسة فى الشرق الأوسط» بولدر - كولومبيا - مطبعة وستفيو - ١٩٨١ .

١٦- جون أسبوسيتو : «أصوات الانبعاث الإسلامى» - أكسفورد - مطبعة جامعة أكسفورد - ١٩٨٣ .

* طبعة ١٩٩٠ : «الثورة الإسلامية : تأثيرها العالمى» - ميامى - مطبعة جامعة فلوريدا الدولية .

* طبعة ١٩٩١ : «الإسلام : الصراط المستقيم» - الطبعة الثانية - نيويورك - مطبعة جامعة أكسفورد .

* طبعة ١٩٩٨ : «الإسلام والسياسة» - الطبعة الرابعة - سيراكيوز - مطبعة جامعة سيراكيوز .

* «التهديد الإسلامى بين الخيال والحقيقة» الطبعة الثالثة - نيويورك - مطبعة جامعة أكسفورد .

١٧- جون أسبوسيتو ، وجون فول : «الإسلام والديمقراطية» - لندن - مطبعة جامعة أكسفورد - ١٩٩٦ .

١٨- روجر فريدلاند ، وريتشارد هنيت : «سياسة الزمان والمكان فى القدس : المصلحة ، والرمز ، والقوة» - ١٩٩٥ - الصفحات ٣٧٣ - ٤٢٤ فى كتب سابرينا راميت ودونالد تريد جولد «المجال الدينى فى عالم السياسة» - بوسطن - مطبعة الجامعة الأمريكية .

١٩- مناحيم فريدمان : «المتشددون اليهود : المحافظون فى مواجهة الإصلاحيين» - ١٩٩٢ صفحات ١٥٩ - ١٧٦ فى كتاب كبلان لورنس : «الأصولية من المنظور المقارن» - أمهيرست - مطبعة جامعة ماساشوسيتس .

٢٠- روبرت فريدمان : «مدعى النبوة : الحاخام مير كاهانا من مخبر فى مكتب التحقيقات الفيدرالى إلى عضو فى الكنيست» - شيكاغو - مطبعة لورنس هيل - ١٩٩١

* «المتعصبون الصهاينة : داخل حركة الاستيطان فى الضفة الغربية» نيويورك - مطبعة راندوم هاوس - ١٩٩٢ .

٢١- جراهام فولر : «هل أخفق الإسلام السياسى ؟» - رؤية داخل الشرق الأوسط (يناير - فبراير) ٨ - ١١ - ١٩٩٥ .

٢٢- جراهام فولر ، وإيان ليسر : «معنى الحصار : علم السياسة الطبيعية للإسلام والغرب» - بولدر - كولومبيا - مطبعة وستفيو - ١٩٩٥ .

٢٣- أرنست جيلز : «ما بعد التحديث ، والعقل ، والدين» - لندن : رولتيدج - ١٩٩٢ .

٢٤- إيفون حداد : «المسيحيون فى دولة إسلامية : المناظرات المصرية الأخيرة» - ١٩٩٥ - الصفحات ٣٨١ - ٣٩٨ فى كتاب إيفون حداد ووديع حداد المواجهات المسيحية الإسلامية - ميامى - مطبعة جامعة فلوريدا .

٢٥- محمد حميد الله : «مقدمة إلى الإسلام» - لندن - دار نشر MWH - ١٩٧٩ .

٢٦-جينوى هاينز : «الدين فى سياسة العالم الثالث» - بولدر - كولومبيا - لين ريز - ١٩٩٤ .

٢٧- آرثر هرتسبرج : «الأصولية اليهودية» - ١٩٩٢ - الصفحات ١٥٢ - ١٥٩ فى كتاب لورنس كبلان : «الأصولية من المنظور المقارن» - أمهرست - مطبعة جامعة ماساشوسيتس.

٢٨- صمويل هنتنجتون : «النظام السياسى فى مجتمعات متغيرة» - نيوهافن مطبعة جامعة يال - ١٩٦٨ .

٢٩- مير زهير حسين : «السياسة الإسلامية العالمية» - نيويورك - دار نشر هاربر كولينز كوليدج - ١٩٩٥ .

٣٠- جيليس كيبيل : التطرف الإسلامى فى مصر : النبى والفرعون لوس أنجلس - مطبعة كاليفورنيا - ١٩٨٥ .

٣١- محمد خان المقتدر : «تركيا تعود» - الرسالة (أغسطس) - ١٥ - ١٧ - ١٩٩٦.

٣٢- هارولد لامب : «الحملات الصليبية» - نيويورك - مكتبة إنترناشيونال كوليكتورز - ١٩٣٠ .

٣٣- ريتشارد نيد ليبو ، وتوماس ريس كابين : «نظرية العلاقات الدولية ونهاية الحرب الباردة» - نيويورك - مطبعة جامعة كولومبيا - ١٩٩٥ .

٣٤- بيرنارد لويس : «ظهور تركيا الحديثة» - لندن - مطبعة جامعة أكسفورد - ١٩٦٨ .

* «الإسلام والغرب» - نيويورك - مطبعة جامعة نيويورك ١٩٩٣ .

٣٥- تشارلز ليبمان : «الديانة اليهودية والقومية الإسرائيلية المعاصرة» - ١٩٩٠ - الصفحات ٧٧ - ٩٤ فى كتاب إيمانويل سيفان ومناحيم فريدمان : «الراديكالية الدينية والسياسة فى الشرق الأوسط» - نيويورك - مطبعة جامعة نيويورك .

٣٦- تشارلز ليبمان وإليعازر دون يحى : «الدين المدنى فى إسرائيل» - لوس انجلس - مطبعة كاليفورنيا - ١٩٨٣ .

٣٧- تشارلز ليندهولم : «الشرق الأوسط الإسلامى : أنثربولوجيا تاريخية» - أكسفورد - مطبعة بلاكويل - ١٩٩٦ .

٣٨- غيان لوستيك : «من أجل الأرض والرب : الأصولية اليهودية فى إسرائيل» نيويورك - مجلس العلاقات الخارجية - ١٩٨٨ .

٣٩- محمد محلاتى : «الشرق الأوسط : البحث عن التوازن بين المثالية والواقعية» - مجلة الشئون الدولية العدد ٥٠ - ١٩٩٦ .

٤٠- إبراهام ماركوس : «الشرق الأوسط عشية التحديث» - نيويورك - كولومبيا - وطبعة جامعة كولومبيا - ١٩٨٩ .

٤١- إتش . أي ماير : «الحملات الصليبية» - نيويورك - مطبعة جامعة أكسفورد - ١٩٨٨.

٤٢- رافائيل ميرجوري ، فيليب سيمونوت : «آيات الله في إسرائيل : مير كاهانا واليمين المتطرف في إسرائيل» - لندن - دار الساقي للنشر - ١٩٨٧ .

٤٣- جوديث ميلر : «تحدى الاسلام الراديكالي» - مجلة الشئون الخارجية العدد ٧٢ - ١٩٧٤ .

٤٤- جيل مينولت : «الإسلام والسياسة الجماعية : العلماء الهنود وحركة الخلافة» - ١٩٧٤ - الصفحات ١٦٨ - ١٨٢ في كتاب دونالد أ . سميث «الدين والتحديث السياسي» رنيوهافن - مطبعة جامعة يال .

٤٥- روى متحدى : «رداء النبي : الدين والسياسة في إيران» - دار بانثيون للنشر - ١٩٨٥.

٤٦- هنرى مونسون : «الإسلام والثورة في الشرق الأوسط» نيوهافن مطبعة جامعة يال - ١٩٨٨ .

٤٧- فتحى عثمان : «الشريعة في المجتمع المعاصر : ديناميكيات التغيير في القانون الإسلامي» - لوس أنجلس - دار م . في إنترناشيونال للنشر - ١٩٩٤ .

٤٨- دانيال بايبس : «ليس هناك معتدلون : التعامل مع الإسلام الأصولي» - مجلة ناشيونال إنترست ٤١ - ٥٧ - ١٩٩٥ .

٤٩- على رحنماع : «رواد الإحياء الإسلامي» لندن - دار زد للنشر - ١٩٩٤ .

٥٠- أفيزير رفتسكي : «الماسونية ، الصهيونية ، والراديكالية الدينية اليهودية» - شيكاغو - مطبعة جامعة شيكاغو - ١٩٩٣ .

٥١- بيتر رودمان : «الإسلام الأصولي بين الاختيار والمواجهة» - مجلة الشرق الأوسط الفصلية العدد ١ - ٦١ - ٦٤ - ١٩٩٤ .

٥٢- سيفين رونسيمان : «الحملة الصليبية الأولى» - طبعة مختصرة - نيويورك - مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٩٢ .

٥٣- كمال صليبى : «الهوية اللبنانية» - ١٩٨١ - الصفحات ٢١٧ - ٢٢٦ فى كتاب مايكل كورتيس : «الدين والسياسة فى الشرق الأوسط» - بولدر - كولومبيا - مطبعة وستفيو .

٥٤- عماد الدين شاهين : «فى ظلال الإمام» - ميدل إيست إنسايت - ٤٠ - ٤٥ : ١١ - ١٩٩٥ .

٥٥- سلام سيد أحمد ، و أ . احتشامى : «الأصولية الإسلامية» - بولدر - كولومبيا - مطبعة وستفيو - ١٩٩٦ .

٥٦- لورنس سيلبر شتاين : «الأصولية اليهودية من منظور مقارن : الدين ، الأيديولوجيا ، وأزمة التحديث» - نيويورك - مطبعة نيويورك - ١٩٩٣ .

٥٧- إيمانويل سيفان : «الإسلام الراديكالى : لاهوتية العصور الوسطى والسياسة الحديثة» - نيوهافن - مطبعة جامعة يال - ١٩٨٥ .

* «مقدمة» ١٩٩٠ - الصفحات ١ - ٩ فى كتاب إيمانويل سيفان ومناحيم فريدمان «الراديكالية الدينية والسياسة فى الشرق الأوسط» - نيويورك - مطبعة جامعة نيويورك .

* «الانبعاث الإسلامى : عودة المجتمع المدنى» - ١٩٩٠ - الصفحات ٩٦ - ١٠٨ فى كتاب لورنس كبلان «الأصولية من منظور مقارن» - أمهرست - مطبعة جامعة ماساشوسيتس .

٥٨- ستيفين شبيجيل : «المكونات الدينية للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط» - مجلة الشئون الدولية - العدد ٣٦ - ١٩٨٢ - ١٩٨٣ .

٥٩- إيهود سبرينزاك : «صعود اليمين الإسرائيلى المتطرف» - نيويورك - مطبعة جامعة أكسفورد - ١٩٩١ .

٦٠- ويليام سواتوس : «فقدان الإيمان» بديانة «العلمانية : الانبعاث الدينى العالمى وتعريف الدين» - ١٩٨٩ - الصفحات ١٤٧ - ١٥٤ فى كتاب ويليام سواتوس : «السياسة الدينية من منظور مقارن وعالمى» - نيويورك - مطبعة جرينوود .

* «مملكة الله وعالم الإنسان : مشكلة السياسة الدينية» – ١٩٨٩ – الصفحات ١ – ١٠ في كتاب ويليام سواتوس : «السياسة الدينية من منظور مقارن وعالمي» – نيويورك – مطبعة جرينوود .

٦١– سكوت توماس : «الانبعاث العالمي للدين ودراسة السياسة العالمية» – الألفية : مجلة الدراسات الدولية – العدد ٢٤ ، ٢٨٩ – ٢٩٩ – ١٩٩٥ .

٦٢– حسن الترابي : «الدولة الإسلامية» – ١٩٨٣ ، الصفحات ٢٤١ – ٢٥١ في كتاب جون أسبوسيتو «أصوات الانبعاث الإسلامي» – أكسفورد – مطبعة جامعة أكسفورد .

٦٣– جراهام آشر : «صورة الحرب» – ميدل إيست إنترناشيونال ٥٣٥ ، ٣ – ٥ – ١٩٩٦ .

٦٤– مانفريد فوجل : «الدولة كتعبير ضروري عن العقيدة اليهودية» – ١٩٨٦ – الصفحات ١١ – ٢٠ في كتاب نيجيل بيجر وجاميس سكوت وويليام شفايكر «مدن الله : الإيمان ، السياسة ، والتعددية في الديانة اليهودية ، والمسيحية والإسلام» – وستبورت – كوينكتيكت – مطبعة جرينوود .

٦٥– جون فول : «السودان : الدولة والمجتمع في أزمة» – بلومينجتون – إنديانا – مطبعة جامعة إنديانا – ١٩٩١ .

* «الإسلام : الاستمرارية والتغيير في العالم الحديث» – سيراكيوز – مطبعة جامعة سيراكيوز – ١٩٩٤ .

٦٦– فريد فون دير مهدين : «الدين والتحديث في جنوب شرق آسيا» – سيراكيوز – مطبعة جامعة سيراكيوز – ١٩٨٦ .

٦٧– سامي زبيدة : «الإسلام ، الشعب ، الدولة : الأفكار والحركات السياسية في الشرق الأوسط» – لندن – آي . بي تاوروس – ١٩٩٣ .

-١٢-

الأدب فى الشرق الأوسط

ميريام كوك

فى هذا الفصل ، نناقش ظهور الأدب فى منطقة الشرق الأوسط كشكل جديد من أشكال الفن . وبادئ ذى بدء ، يمكن القول بأن النزعة العصرية الأوروبية قد اجتاحت دول الشرق الأوسط بقوة . وأصبح كل شىء كان مقبولاً فيما مضى باعتباره شيئاً معيارياً أو قياسيًا ، أصبح مثار شك ، كما أن الوظيفة التى يجب أن يضطلع بها فى حياة الفرد والمجتمع قد تغيرت . ولم يعد مستودع المعرفة كلها والأدب متشعبًا ، وتتفرع منه أنواع مختلفة وأشكال متنوعة للدراما ، والقصة القصيرة ، والرواية ، وتصور أو مفهوم جديد تماماً للشعر .

وليس ثمة شك فى أنه من المستحيل فهم دور الأدب فى الشرق الأوسط بدون أن نلقى نظرة سريعة فى البداية على تاريخ هذا الأدب ، وقبل كل شىء ، تطوره خلال النصف الأول من القرن العشرين . وعلى الرغم من أن الحركات الأدبية فى الشرق الأوسط قد باتت مواقع متميزة للتسجيل والمشاركة والتفاعل مع التوازنات والصراعات الاجتماعية السياسية ، إلا أن مثل هذا الأمر لم يكن حالة دائمة . وفى فترات العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث ، يلاحظ أن الحركات الأدبية فى الشرق الأوسط قد كانت حكراً على الأفراد الذين يمثلون النخبة فى المجتمع ، حيث وفرت لهم أطراً أدبية يستطيعون من خلالها التوسع فى ممارسة تقليد مألوف بالفعل وعرض مهاراتهم وقدراتهم ومعرفتهم الواسعة . كما أن الأدب الشعبى مثل قصة ألف ليلة وليلة اعتمد على ما هو معروف لدى الناس من قبل . أما أدوار الخيال والتعليقات والأحداث الاجتماعية ، فقد جرى التقليل من أهميتها وشأنها بوجه عام فى السياق الشرق أوسطى .

النزعة الاستعمارية الأوروبية والمخاوف التى تثيرها :

الحقيقة أن وصول البعثات والحملات الاستعمارية الفرنسية والبريطانية إلى منطقة الشرق الأوسط فى أواخر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وما جلبته معها من مؤسسات تكنولوجية ، وثقافية ، وفكرية ، قد فرض نظرة جديدة على المجتمع والثقافة . وأدى الاتصال مع التيارات التى تمثل النزعة العصرية الأوروبية إلى التأثير بطريقة سلبية على الثقافات الإسلامية . ومن ثم ، فإن المصريين ، على نحو خاص ، ولأنهم كانوا من أوائل شعوب المنطقة التى تمر بتجربة النزعة الاستعمارية الفرنسية ، قد أصبحوا مهتمين بالتعلم من الثقافات والعلوم الغربية .

وفى ظل الفترات التى تولى فيها العثمانيون الحكم ، من أمثال محمد على باشا وابنه إبراهيم باشا ، سافرت مجموعات من الطلاب فى بعثات دراسية إلى دول أوروبا الغربية ، ولاسيما إلى فرنسا ، لدراسة النصوص والمعارف العلمية وترجمتها إلى اللغة العربية . ونظراً لضخامة هذه المهمة ، اضطرت هذه البعثات العلمية إلى البقاء فى أوروبا لشهور طويلة . وعندما لم يكن يسمح لهؤلاء الباحثين بالاطلاع على أمهات الكتب فى المكتبات والأرشيفات فى فرنسا ، تحولوا إلى المسارح لمشاهدة مسرحيات كتبها مؤلفون فرنسيون معروفون من أمثال جان بابتيست موليير أو انهمكوا فى قراءة الروايات والقصص الأدبية داخل غرفهم ، وعلى الأخص تلك التى كتبها مؤلفون مثل جى دو موباسان أو القصص المترجمة إلى الفرنسية للكاتب الروسى أنطون تشيكوف . بيد أن الشكل الأدبى الذى كان الأكثر حداثة والأكثر إثارة للاهتمام هو الرواية ، وهكذا عاد هؤلاء الرجال إلى بلادهم وهم يحملون معهم ترجمات لروائع الأدب الأوروبى ، وعلى الأخص الأدب الفرنسي ، وترجمات لأعمال أدبية شهيرة لكتّاب من أمثال أونوريه دو بلزاك ، وجوستاف فلوبير ، وليو تولوستوى ، وإيفان تورجنيف ، وغيرهم .

وفهم بعض هؤلاء المفكرين أن كتابة الأدب ووظيفته فى الشرق الأوسط كان لابد لهما من التغيير لمواكبة واستيعاب الحقائق الجديدة فى حياتهم . ومع ذلك ، فإنهم كانوا يعرفون أن هؤلاء الذين لم يألفوا أو يعتادوا صنوف وأشكال الأدب الجديدة كالقصة القصيرة ، والرواية ، والمسرحية ، والشعر الحديث ، قد يعمدون إلى مقاومة

إدخـال هذه الأشكال الأدبيـة وإدمـاجـهـا فى المنظومـة الأدبيـة . والواقع أن التـركـيـز الواضح من جـانب كـتـاب الأدب القـصـصى الأوروبيين على مـوضـوعـات التـسليـة والترفيه على حـساب التعليم التقليدى ، وتركيـزهم فى رواياتهم أيضًا على عملية الاتصال للرسائل الاجتمـاعيـة السياسية ذات الاهتـمام المشتـرك لدى الناس ، دون التركيز بقدر أكبر على مسألة البراعة الأدبية والحرفية والامتياز ، كل هذا قد قوبل فى الحقيقة من جانب البعض بالشك والارتياب اللذين كانا واضحين أيضاً إزاء إدخال أى شىء جـديد فى أى مكان . وكـمـا هو الحـال بالنسـبـة إلى المدافـعين الرجـعـيين عن الشريعة والقانون الكنسى الغربى ، والذين أعلنوا فى الثمانينيات نهاية الحضارة كما نعرفها إذا ما حلت حركات أدبية ثانوية وهامشيـة محل البعض من الأعمال الأدبية العريقة التى صمدت مع مرور الوقت والتى كتبها أشخاص غربيون راحلون ، فإن النخب المحـافظة فى المنطقة قـد حـذرت من انهيـار الحضـارة ، بل ومن انقـراضـهـا وزوالها . وتَخَوَّف البعض من أن الأدبيات الكلاسيكية العظيمة لدى العرب ، والفرس، والأتراك قد لا تقوى على الصمود والبقاء أمام غزو الأدبيات المبتذلة والتافهة التى أفرزها العالم الحديث . وهكذا وجد ممارسو الأعمال الأدبية أنهم سوف يخسرون حتماً مـخزونهم من المعارف الكلاسيكية إذا لم يحرصوا ، وبشكل مستمر ، على تنقيته من الشوائب العالقة بداخله والعمل على غربلته وتجديده كما اكتشف هؤلاء أنهم سوف يخسرون قدرتهم الكلامية ورشاقتهم الأدبية إذا ما تحولوا من الوصف البليغ للأحداث العظيمة فى التاريخ إلى الأشياء المبتذلة والتافهة فى العالم من حولهم . ورأى آخرون أن الحوار بين تقاليدهم الثقافية والتقاليد الأوروبية هو السبيل الذى يمكن من خلاله إعادة تصوير الهوية الوطنية وصياغتها داخل نزعة عصرية مشتركة .

وسـواء كانوا منفـتـحين أم منغلقين علـى العـالم الخـارجـى ، فإن المفكرين قـد باتوا مشاركين بالفعل فى مسألة اللغة باعتبارها مسالة محورية وأساسية لعملية التحديث . وقد تساءل هؤلاء وأبدوا شكوكهم ، أولاً وقبل كل شىء ، عن الحد الفاصل بين اللغات ذات الثقافة العالية واللغات العامـيـة ، أو بالأحرى ، الاخـتـلاف القـائم بين اللغات الفصحى والدارجة ، وكذلك مسألة استيراد الكلمات الأجنبية . وفى إيران ، يشرح المؤرخ مـحـمـد توكلى تارغى ذلك بقوله: إن الهـدف كان يتـمثل فى الإنفصـال عن الماضى الإسـلامى وحـماية مـصـدر قومى «مـحض» وهو يشـير هنا إلى أن الكلمـات

العربية التى قد كانت جزءاً من اللغة على مدى ٥٠٠ عام قد جرى تعديلها وتطويرها، وتمت صياغة واستحداث مفردات ومصطلحات فارسية «موثوق بها» ، كما أن المفردات والتعبيرات الجديدة والصناعة المعجمية كانت بمثابة محاولات تهدف إلى «إيقاظ الوعى القومى من جديد» . فى الوقت نفسه ، كانت المحاولة الرامية إلى اختراع ماض مثالى معاصرة لعملية إعادة صياغة اللغة ، والتى قد تحققت فى إطار علاقة حوارية مع العرب ، والأوروبيين ، والهنود فى إيران ، وغيرهم . وأُعيد تشكيل اللغة الفارسية باعتبارها العنصر الأساسى للهوية القومية الإيرانية (توكلى تارغى ١٩٩٠- ٧٧- ٨٦) .

والحقيقة أن عملية إصلاح اللغة «لم تكن نتيجة ثانوية للثورات الدستورية فى إيران والإمبراطورية العثمانية ، بل كانت مقدمة لها . واعتبر المحافظون المتزمتون اللغة كعنصر أساسى للهوية القومية» (توكلى تارغى ، ١٩٩٠ – ٩١) . إذ إنه لا يمكن إعادة صياغة التاريخ بدون حدوث تحول جذرى للغة وقواعدها النحوية .

وفى حالة اللغتين التركية والعربية ، كان الموقف اللغوى أكثر تطرفًا بسبب بعد المسافة بين اللغات الفصحى والعامية . والحقيقة أنه فى كلتا الحالتين ، كانت قد ظهر نوع من ثنائية اللغة ، أو بعبارة أخرى ، التحدث بهاتين اللغتين . وكانت اللغة المكتوبة لدى الأتراك مختلفة عن اللغة المنطوقة ، أو لغة الحديث ، إلى حد أنه كان يطلق عليها اسم مختلف ألا وهو اللغة «التركية العثمانية» . ومن ثم ، فإن هذه اللغة التركية العثمانية ، التى استخدمت فى النصوص والمخطوطات العربية وكانت تزخر بالعديد من المفردات الفارسية والعربية ، ربما بنسبة ٧٥٪ ، كان يتعين تعلمها باعتبارها لغة متفردة وتتميز تمامًا بما لديها من قواعد نحوية خاصة بها (هلمان ١٩٨٢ : ٣٦) ولعل ما ينطوى على ضرب من التناقض الظاهرى ، أن شعر المتصوف يونس عمرى (١٣٢١) ، والذى كتبه هذا الشاعر قبل استيراد الأتراك لأى من المعاجم الأجنبية (وكنتيجة ، إلى حد ما ، لاعتناقهم الإسلام) أكثر قبولاً لدى الأتراك الذين تعلموا فى المدارس فى عهد ما بعد أتاتورك من الأدب الذى تعلموه من أجدادهم . فمما لاشك فيه أن حملة التغريب التى قادها كمال أتاتورك فى العشرينيات، والتى استهدفت اجتثاث العناصر الإسلامية واستئصال شأفة المكونات الإسلامية فى

اللغة لا شك أن هذه الحملة قد وضعت حداً للوضع الثنائي لاستخدام اللغة والذى ظل سائداً فى تركيا لقرون من الزمن .

وبالنظر إلى أن العالم العربى يشهد ثورة ثقافية يمكن مقارنتها بغيرها ، لاسيما فى ميدان اللغة ، فإن الاختلاف الجوهرى بين اللغتين : العربية الفصحى والعربية العامية مازال قائمًا إلى يومنا هذا . ولاشك أن السبب الجوهرى فى المحافظة على اللغة العربية : المكتوبة أو المنطوقة ، طوال قرون من الزمن ، يكمن فى أنها اللغة التى نزل بها القرآن الكريم ، والذى لا يزال يحظى بمكانته كواسطة أدبية بليغة للتعبير . وكان المفكرون العرب المحافظون يخشون من أن استعمال التعبيرات العامية فى الأدب ، ولاسيما أنه لم يكن هناك إجماع حول الطريقة التى يجب استخدامها لتقنين اللغة ، قد ينذر باضمحلال وزوال لغة الكتابة ، وهو الأمر الذى من المحتمل أن يؤدى إلى إسدال الستار على الأدب العربى برمته ، وذلك لأن هذه اللغات واللهجات العامية المبتذلة والرديئة ستؤدى فى نهاية المطاف إلى خلق ما يشبه برج بابل والذى تتنافس وتتصارع فيه أشكال شتى من الأدب المحلى التى لا يمكن فهمها لإيجاد موطئ قدم لها على المسرح الكبير لما كان ذات يوم تقليداً أدبياً موحداً وعظيماً .

وعلى الرغم من تلك المخاوف ، فإن بعض المفكرين ، ولاسيما هؤلاء الذين قد سافروا إلى أوروبا مع بعثات علمية ، حولوا اهتمامهم إلى كبار الكُتّاب الفرنسيين ، والإنجليز ، والروس فى ذلك العصر . والحقيقة أن اللغة الفرنسية قد أصبحت اللغة المشتركة فى العديد من بلدان الشرق الأوسط ، حتى فى دولٍ مثل تركيا لم تكن قد عرفت تجربة إرسال البعثات العلمية إلى الخارج . والواقع أن كتّاباً معروفين من أمثال فلوبير وموباسان ، وتشارلز ديكنز وبير بيشى شيلى ، وأيضًا تشيكوف وتولوستوى ، وبالنسبة إلى أعمالهم المترجمة إلى الفرنسية ، قدموا نماذج عن كيفية تحول هموم ومخاوف العالم الحديث إلى أعمال أدبية ذات قيمة كبيرة . وخلال الفترات الأولى ، قام هؤلاء المفكرون العصريون بترجمة الأدب الأوروبى فى القرن التاسع عشر إلى لغاتهم. وبحلول الثمانينيات ، برغم ذلك ، كان بعض هؤلاء المفكرين قد تمرسوا على هذا النوع الجديد من الكتابة . فعلى سبيل المثال ، كتب جرجى زيدان ، اللبنانى – السورى ، (١٨٦١ – ١٩١٤) . سلسلة من الروايات التاريخية ، بل وكتب حتى مجموعة من السير الذاتية القصيرة . وعلى الرغم من الرفض العام آنذاك لفكرة كتابة

السيرة الذاتية لحياة شخص ما ، إلا أن زيدان نشر قصصاً تعليمية إبّان فترة شهدت ثورات رئيسية ، وبعد أن كان قد تعلم من تجارب وخبرات الآخرين .

الثورة الثقافية فى بداية القرن العشرين :

وفّرت مصر فى بداية القرن العشرين السياق الإقليمى اللازم لعملية التجريب والإثارة الأدبية . إذ أمكن للمفكرين الشرق أوسطيين الذين لم يذهبوا إلى باريس الانتقال إلى القاهرة للمشاركة فى إثارة الابتكارات والتجديدات الثقافية والتحولات التى شهدتها الحركة الثقافية . ومن ثم ، جمعت الصالونات الثقافية الرجال ، وحتى النساء فى بعض الأحيان ، لمناقشة الاتجاهات الجديدة فى السياسة والأدب . وفى وقت كانت فيه معظم النساء من الطبقتين الوسطى والعليا لا يبرحن بيوتهن ، فإن هذه الاجتماعات واللقاءات التى ضمت النخبة من المفكرين والمثقفين كانت تقريباً الأماكن الوحيدة التى يمكن أن تظهر فيها النساء جنباً إلى جنب مع الرجال . وهذه المدارس الأدبية التى ظهرت فى مصر ، مثل مدرسة الديوان ، والمدرسة الجديدة ، ومدرسة أبوللو (والتى لم تكن تضم فى عضويتها النساء) ، وقد شجعت على إنتاج أنواع جديدة من الكتابة الأدبية والتى غالبًا ما كانت تنشر فى الجرائد والصحف التى تصدرها هذه المدارس الأدبية . ولا شك أن المناقشات والمناظرات التى كانت تجريها تلك المدارس قد أفرزت مساحة جديدة جذبت اهتمام الجمهور والعامة من الناس . إذ إن المناقشات التى دارت حول الهوية الوطنية والأدوار التى من المتوقع أن يضطلع بها الرجال والنساء فى البلاد مستقبلاً أضحت موضوعات تهم كل شخص وليس فقط جماعة معينة من الباحثين ، وعلى الأخص الباحثين الدينيين . وفى إطار هذه العملية ، برزت مفاهيم وأفكار جديدة للنقد الأدبى .

والحقيقة أن إصرار النقاد الجدد على مركزية ومحورية الخيال فى الأعمال الأدبية وعلى الحاجة إلى أن تتفاعل هذه الأعمال مع المجتمع من أجل تغييره ، ترك آثاره على جيل جديد من النقاد والكتّاب . وأدت الفكرة التى تقول بأنه لا يجب أن يكون النقد وصفياً أو تقييمياً وإنما يجب أن يكون استقصائياً ، أدت إلى ظهور كتابات نقدية راديكالية . ونشر كتّاب من أمثال طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) ، وهو الأديب المصرى الذى ذاع صيته ولقب بعميد الأدب العربى والذى ألف العشرات من الكتب

من بينها الروايات ، والأعمال الفلسفية ، وسيرته الذاتية بعنوان «الأيام» (١٩٢٩) ، نشر أيضًا فى عام ١٩٢٦ كتابه «فى الشعر الجاهلى» والذى يثير تساؤلات وشكوك حول التأريخ لبعض هذه الأنواع من الشعر . وقد أثار هذا الكتاب جلبة وضجة فى الأوساط الأدبية نظراً لأن هذا النوع من الشعر ، والذى جرى نظمه وكتابته قبل ميلاد النبى محمد ، قد اعتبر نموذجاً للتعبير الأدبى ، بل إنه ظل عالقًا فى الذهن ، مع لغة القرآن الكريم ، باعتباره أفضل لغة عربية فصحى كان يتحدث بها النبى . وأدى ظهور أدوات نقدية أدبية جديدة إلى فتح الأبواب أمام أساليب جديدة للتعامل مع النصوص والكتابات القديمة ، والتى أدت ، قبل كل شىء ، إلى حدوث ثورة فى مجال الإنتاج الأدبى .

وفى الوقت ذاته الذى شهدت فيه مصر هذا النشاط الأدبى ، تفجرت ثورتان فى كل من تركيا وإيران . فقد أعلن الشبان الأتراك والإيرانيون ، الذين تربوا ونشأوا على قيم مثل التنوير ، تمردهم ضد الحكم الاستبدادى والمنغمس فى ذاته من جانب آخر حكام الإمبراطوريتين العثمانية والقاجارية . وخلال الفترة ما بين ١٩١٩ و ١٩٢٢ ، شن مصطفى كمال (١٨٨١ – ١٩٣٨) ، والمعروف أيضًا باسم أتاتورك ، حرب الاستقلال ضد البريطانيين ، والفرنسيين ، والإيطاليين ، واليونانيين . وأعقب طرد هؤلاء الأجانب ، الثورات التى استمرت إلى ما بعد تأسيس الجمهورية التركية فى عام ١٩٢٣ . ولدى توليه مهام القيادة الوطنية ، ألغى أتاتورك نظام الخلافة الإسلامية العثمانى فى عام ١٩٢٤ ، ثم شرع فى تنفيذ برنامجه العلمانى . وهكذا أصدر قانوناً يسمح بارتداء الملابس التى تساير أحدث التقاليع الأوروبية وحظر ارتداء الملابس الإسلامية مثل الحجاب . بيد أن الشىء الذى ترك جرحاً عميقًا فى نفوس الأدباء التقليديين هو قيام أتاتورك فى عام ١٩٢٨ باستبدال الكتابة العثمانية التى تعتمد على اللغة العربية بالحروف الأبجدية اللاتينية . ويعتبر يعقوب قدرى كسرا عثمان أوغلو (١٨٨٩ ، ١٩٧٤) أفضل كاتب استطاع أن يصور الحالة النفسية والمزاجية التى سادت الأوساط الأدبية آنذاك ، وهى الحالة التى يصفها طلعت علمان بأنها كانت تتميز «بتفكك المجتمع العثمانى ، وانتشار العداوات السياسية الضارية ، وتدهور السلوكيات والأخلاقيات بين الطوائف والجماعات الدينية ، وأيضاً ظهور الصراعات بين المفكرين والمثقفين فى مناطق الحضر والمدن الفلاحين الذين يعانون من الفقر

المدقع» (هلمان ١٩٨٢ : ٢٩) . وكان كسرا عثمان أوغلو يعتبر نفسه ممثلاً للثورة الثقافية الجديدة التى كان يتعين أن تتفجر لتشمل مختلف أرجاء البلاد . ويروى كتابه بعنوان «الدخيل» قصة نموذجية عن حالة الانسلاخ الفكرى و الانفصام الفكرى والعقلى التى آل إليها مسئول فى إحدى حكومات دول الشرق الأوسط لدى لقائه مع السكان الريفيين والذى أرسلته حكومته للاجتماع معهم للوقوف على مطالبهم واحتياجاتهم . بيد أنه في هذه الحالة ، يضيف كسرا عثمان أوغلو بعداً جديداً إلى مشاعر الرفض وخيبة الأمل من جانب سكان الريف . إذ إنه يضيف فشل المفكرين والمثقفين بالمدن فى نقل المعنى والإحساس بالثورة وبالنزعة القومية التركية الجديدة إلى المزارعين فى المناطق الريفية .

وفى عام ١٩٠٥ ، اجتاحت إيران ثورة دستورية . إذ دخل القوميون فى مجابهة عنيفة مع البريطانيين وملاك الأراضى من الإقطاعيين المحليين ، مطالبين بوضع دستور يوفر لهم مناخاً من الديمقراطية والعدالة ، على أن يتفقوا فى النهاية على حل وسط . وكانت تلك الفترة زاخرة بأنواع جديدة من الكتابة ، والتى كان يشار إلى معظمها بأنها كتابات تقدمية ,وهذه الكتابات الليبرالية والاشتراكية فى أغلب الأحيان كانت تصور الاضطرابات والتوترات التى شهدتها تلك الفترة . بل إنها كانت بمثابة رد فعل ضد النثر الأرجوانى المنمق والحافل بالمحسنات البديعية والجمالية وأيضاً رد فعل مضاد لعدم ارتباط الكتاب الكاجاريين بالواقع الاجتماعى . وبعد الانقلاب العسكرى الذى قام به فى عام ١٩٢١ ، أصبح رضا شاه العاهل المطلق لإيران . ومن ثم ، فرض رقابة صارمة وسيطرة مركزية ، بيد أنه أعطى أيضاً قدراً من اهتمامه بوضع النساء فى المجتمع الإيرانى وفى عام ١٩٣٦ ، وربما استجابة للحظر الذى فرضه أتاتورك على ارتداء الحجاب ، أصدر شاه إيران مرسوماً بعدم ارتداء الحجاب . وبينما رأى البعض هذا الإجراء خطوة إيجابية للنساء يمكن أن تكون عوناً لهن ، إلا أن البعض الآخر اعتبروه بمثابة شكل جديد من أشكال العنف التى تمارس ضد المرأة باسم التقدم . ذلك أن إكراه المرأة التى ترفض الكشف عن وجهها أو شعر رأسها ، على أن تصبح متبرجة إنما يرقى إلى الطلب إليها بالكشف عن عوراتها علناً وعلى الملأ . وقد حرص العديد من الكتاب على معالجة هذا الموضوع والكتابة عنه .

إن مثل هذا التشريع الذى يحظر ارتداء الحجاب لابد من النظر إليه على خلفية المناظرات والمناقشات التى دارت فى أواخر القرن التاسع عشر فى مختلف أنحاء الشرق الأوسط حول قضية المساواة بين الجنسين سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . وقد كشفت البحوث الأخيرة التى أجراها باحثون مهتمون بهذه القضية ، سواء فى الشرق الأوسط أو فى مناطق أخرى ، النقاب عن أن النساء أنفسهن كن أول من أثرن قضية غياب دور المرأة فى عملية صنع القرار على المستويين المحلى والقومى . ومع ذلك ، فإن هذه القضية لم تستحوذ على الاهتمام الكافى من الجنسين فى المجتمعات الشرق أوسطية إلا بعد أن صارت المشكلة النسائية الشغل الشاغل للرجال .

وفى عام ١٨٩٩ ، نشر المصلح الاجتماعى المصرى قاسم أمين (١٨٦٥ – ١٩٠٨) كتابه الذى أثار جدلاً واسعاً آنذاك تحرير المرأة ، والذى دعا فيه إلى تعليم النساء ، باعتبارهن أمهات الجيل القادم ، كما دعا إلى عدم ارتدائهن الحجاب وإلى منحهن قدراً أكبر من المشاركة فى الحياة العامة . وإلى جانب غيره من المصلحين العصريين الذين برزوا فى تلك الفترة والذين أكدوا على زواج الرفقة والأسر النووية فى عالم حيث يتمتع كافة الأفراد بالحق فى حرية التعبير والمساواة ، فإن قاسم أمين قد جذب الاهتمام إلى حقيقة مفادها أنه عندما لا يشارك نصف المجتمع ، أى النساء ، فى أنشطة النصف الآخر ، والذى يمثله الرجال ، فإن الجميع سوف يعانون . ولاشك أن هذا التأكيد على دور المرأة باعتبارها المقياس لتقدم المجتمع يبدو وكأنه يعكس إشارة جيمس ستيوارت ميل فى عام ١٨١٧ إلى وحشية المجتمع الهندى والتى تظهرها حقيقة أن النساء كن فى حالة من العبودية المطلقة . وباعتباره موظفاً فى شركة الهند الشرقية ، أحس ميل بأنه قادر على التعبير عن هذه الأفكار والآراء . ولم يتلاشى الأصل الغربى الاستعمارى لهذه الأفكار لدى النخبة الأكثر محافظة من أهل الفكر فى الشرق الأوسط .

والحقيقة أن كتاب أمين عن تحرير المرأة لم يكن له صداه وتأثيره فى مصر فقط ، بل أيضًا فى شتى أرجاء دول الشرق الأوسط . ففى عام ١٩٠٠ ، ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية . بيد أن نشر هذا الكتاب فى إيران لم يطلق العنان لذلك النوع من المناظرات والمناقشات حول حقوق وأدوار المرأة كما حدث فى مصر ، وذلك لأن كتاب أمين سقط على أرض مراحة (نجم عبادى ١٩٩٨ ، ١٠٠ – ١٠٤) . وفى

عام ١٩٢١ ، نشر الكاتب محمد على جمال زاده (١٨٩٢) أول مجموعة قصصية له بعنوان «كان ياما كان» . وهذه المجموعة القصصية اكتسبت شهرتها من مقدمتها والتى تشرح الوظيفة الجديدة للأدب وتصفه بأنه مرآة للزمن ، كما تكتسب أهميتها من أوصافها التى تنطوى على انتقادات لاذعة للباحثين الشيعة وكذلك تصويرها المؤيد لحياة الرجال والنساء العاديين (داراجاحى ١٩٨٤ : ١٠٤ - ١٢٣) وفى العام التالى ، نشر مرتضى مشفق كاظمى مجموعته القصصية المؤلفة من مجلدين بعنوان «طهران المرعبة» التى تتناول قضية المرأة من خلال وصف الممارسات والانتهاكات التى تتعرض لها فى حياتها اليومية .

ومن المحتمل ألا يكون أتاتورك قد تأثر بصورة مباشرة بالمناقشات التى جرت حول «المسألة النسائية» ، ولكن انبهاره الشديد بالغرب ، حيث بدأ المدافعون عن قضية المساواة بين الجنسين فى جذب الاهتمام ، قد جعلته من أشد المدافعين عن حقوق المرأة. وبعد أن تولى مقاليد السلطة ، منح أتاتورك النساء حق التصويت فى الانتخابات وعين بعضهن نائبات فى البرلمان . وكان من بين النساء اللاتى حظين بتأييد أتاتورك ومساندته سيدة تدعى هاليدى أديب أديفار (١٨٨٤ - ١٩٦٤) ، وهى ثورية ظهرت قبل حرب الاستقلال وهى تلقى خطاباً حماسياً أمام جمهور غفير من الرجال وهى ترتدى الحجاب ، وهى صحفية ، وناشطة نسائية ، وناقدة أدبية ، وروائية ، تصف سيرتها الذاتية التى صدرت فى عام ١٩٢٦ مغامراتها مع القوميين ، والتى تضمنت تجاربها وخبراتها فى التخفى فى ملابس الرجال حتى تتمكن من القتال فى صفوف الجيش مع الأتراك الشبان . وأفضل أعمالها الأدبية رواية «البهلوان وابنته» ، وهى الرواية التى صدرت أولاً باللغة الإنجليزية فى عام ١٩٣٥ ، ثم باللغة التركية فى عام ١٩٣٦ .

وخلال الفترة نفسها ، بدأت تنشط الحركة الصهيونية الأوروبية فى الوقت الذى هاجر فيه اليهود من أوروبا ليستقروا فى أرض فلسطين . وكانت الصهيونية فى ذلك الوقت أيديولوجيا اشتراكية تدين فى ظهورها إلى الشيوعية الروسية أكثر مما كانت تدين فى نشأتها إلى اليهودية . وهكذا ، فقد كان لابد وأن تتوجه أنظار الحركة الصهيونية إلى سكان فلسطين مثلما فعلت من قبل بعثات تبشيرية والتى أرسلها الفرنسيون والبريطانيون إلى منطقة الشرق الأوسط منذ القرن الثامن عشر .

والواقع أن هذه التطورات المثيرة التى شهدتها المنطقة كانت سببًا فى ظهور حركات إصلاحية وليدة استلهمت تعاليم ومبادئ الإسلام والتى أخذت تنتشر فى الشرق الأوسط . وحذر أعضاء هذه الحركات من تقليد الغرب ومحاكاته بلا تفكير وحثوا على التمسك بالفضائل والقيم وأهداب الإسلام ونشر تعاليمه فى وقت سعت فيه الدول إلى أن تصبح جزءاً من العالم الحديث.

القصة القصيرة كرائد أدبى :

بادئ ذى بدء ، يمكن القول بأن القصة القصيرة قد وفَّرت أولاً ، وفى مرحلة لاحقة ، الأُطر التى يمكن للمفكرين من خلالها معالجة مشكلات عصرهم . والقصة القصيرة ، والتى تردد أن لديها سوابق شرق أوسطية فى الأدب الفولكلورى ، أو الأدب الشعبى ، مثل قصة «ألف ليلة وليلة» ، قد تطورت بسرعة كأحد فروع الأدب المحلى. وكانت القصة القصيرة تلبى احتياجات الكتّاب الذين كانت لديهم رسائل اجتماعية سياسية ملحة وعاجلة أرادوا نقلها بطريقة واضحة ومقنعة . وهكذا فإن القصة القصيرة، التى تميزت بالسرعة فى كتابتها وقراءتها ، أصبحت بمثابة أداة مهمة للمفكرين المشاركين فى أنشطة المجتمع وذلك لمساعدتهم فى عملية الاتصال بالأشخاص الذين هم خارج دائرتهم المباشرة من الأصدقاء والزملاء .

القصص المصرية :

ظهرت القصة القصيرة العربية أول ما ظهرت فى مصر ، ولهذا يمكن اعتبار تاريخها هناك مثاليًا . وقام محامون من أمثال يحى حقى (١٩٠٥ - ١٩٩١) ، وتوفيق الحكيم (١٨٩٨ - ١٩٨٧) ، والأخير يحظى بشهرة كبيرة ككاتب درامى ، بتحويل قضاياهما القانونية إلى قصص درامية صارت جزءاً من مناقشات عامة حول النزعة العنصرية . وتعتبر رواية يحى حقى ، التى تحمل عنوان «الدرس الأول» ، والتى صدرت فى عام ١٩٢٦ ، مثالاً قوياً للنقد الطبيعى للجديد والذى غالبًا ما كان يرمز إليه القطار . فمع الاستعداد لأولى أيام الدراسة ، أخذ ابن ناظر محطة قطارات السكك الحديدية ، والذى كانت المحطة التى يعمل بها توجد فى منطقة ريفية نائية ، يراقب حارس المحطة النوبى ، وهو رجل على قدر كبير من الروحانية والتدين ومعه صديقه الوحيد ، وهما ينزلان من على رصيف المحطة ليسحقا تحت عجلات القطار.

بيد أن هذه المأساة لم تؤد إلى وقف برنامج العمل اليومى . حيث يذهب الابن إلى مدرسته ، ويجلس إلى مقعده الجديد ، ويحاول إنجاز أول واجب كلف به المدرس تلاميذه ، ألا وهو كتابة مقال عن مزايا وفوائد القطار . وبعد انقضاء ٢٧ عاماً على هذه الرواية ، عاد حقى إلى الحديث عن موضوع التخريب والدمار فى قطاع السكك الحديدية فى معرض اتهامه لثورة الضباط الأحرار عام ١٩٥٢ ، ومن خلال رواية بعنوان «صباح الخير» والتى تسلط الضوء على حفنة قليلة من القرويين وتصف حياتهم قبل دخول القطار إليها وما صاحب ذلك من تجربة تخللتها صور من المعاناة والآلام بعد بناء محطة القطار فى قريتهم .

فى الوقت ذاته ، حوّل المهندسون والأطباء خبراتهم وتجاربهم المهنية إلى قصص أدبية . ومسألة ما إذا كان هؤلاء قد شعروا بتعاطف حقيقى أم لا تعتبر أقل حسماً من حقيقة أنهم جعلوا حياة الفقراء من سكان المدن والريف شيئاً متاحاً ، بل وفى بعض الأحيان ، شيئاً مهماً لقرائهم ممن ينتمون إلى الطبقة الوسطى . إذ كتب المهندس محمود طاهر لاشين (١٨٩٤ - ١٩٥٤) عدة قصص عن زياراته المهنية إلى المكاتب والمصالح الحكومية والمقاهى ، ومنها رواية صدرت له فى عام ١٩٢٩ بعنوان «حديث القرية» ، والتى وصفت بأنها تمثل مرحلة النضج للقصة القصيرة العربية (حافظ ١٩٩٢ : ٢٧٤) ، وفى هذه القصة يجد مفكر حضرى نفسه فى مواجهة مع حقائق الواقع الذى تعيشه القرية المسالمة التى تحيا فى زمن الرومانسية . وهذه ليست بالمدينة الفاضلة (اليوتوبيا) ، وإنما هى ، فى الحقيقة ، مكان للمشاعر والتقاليد البدائية البسيطة .

وهنالك كاتب معروف آخر هو محمود تيمور (١٨٩٤ - ١٩٧٣) وهو ينتمى إلى أسرة أدباء من الطبقة العليا ، والذى استهوته حياة البسطاء من أفراد الطبقات الفقيرة ، بل وتناولت رواياته معاناتهم وما يتعرضون له من صنوف الظلم وأشكال الغبن . وحتى يتمكن من الكتابة عن هؤلاء بطريقة تبدو مقنعة وواقعية ، فقد اضطر إلى تعلم لغاتهم ومفرداتهم . ولذا ، فإنه يعد واحداً من الرواد الأوائل فى الاستخدام الأدبى للغة العامية . وصدرت له روايات تتناول الإساءة إلى النساء على أيدى الرجال. ووصف فى رواياته فتيات صغيرات تزوجن من رجال أكبر سناً من آبائهن ونساء اضطررن إلى ممارسة الدعارة للإنفاق على أسرهن وإبقائها على قيد الحياة . وهكذا ، فإن

محمود تيمور ، الذى اعتبر واحداً من أشهر كتاب القصة القصيرة فى عصره ، قد حرص على إطلاع قرائه على الحياة الشاقة والمريرة التى تحياها النساء وكيف أن مأساة هذه الحياة لم تكن قاصرة على الفرد ، وإنما كانت تعكس أبعاداً ومضامين للمجتمع بأسره .

غير أن يوسف إدريس يعد من أكثر كتاب القصة القصيرة تنوعاً وتعقيداً (١٩٢٧ – ١٩٩١) . وقد عمل طبيباً فى مستهل حياته المهنية ، وظل يمارس مهنة الطب لسنوات ثم تحول بعدها إلى كتابة القصة الأدبية . وشأنه شأن زملائه من الكتاب والأدباء المحترفين ، استطاع يوسف إدريس أن يستثمر خبراته وتجاربه فى مجال الطب ويوظفها فى عمله الإبداعى . ومثلهم أيضاً ، ركز اهتمامه على الأوضاع التى تعيشها النساء وكيف أنها تؤثر على كل فرد فى المجتمع . وتتناول أولى مجموعاته القصصية «أرخص الليالى» (١٩٥٤) ليس فقط العادات والتقاليد ، وإنما أيضاً الأمراض التى يعانيها الفلاحون فى الريف . ويجسد عنوان هذه القصة تقريباً مشكلة تنظيم الأسرة . فهى تروى حكاية القروى الذى يعود إلى منزله فى إحدى الليالى بعدما راح يبحث بلا جدوى عن وسيلة للترفيه والتسلية ، فتكون ثمرة قضاء هذه الليلة فى بيته إنجاب طفل آخر يضاف إلى أسرته الكبيرة . وفى روايته «حثالة المدينة» ، يتحول إدريس إلى مجتمع المدينة ليقدم لقرائه صورة مختلفة عن رجل فى منتصف العمر من الطبقة المتوسطة اعتاد اغتصاب خادمته ، ثم اتهمها بسرقة ساعته ، وبعدما عثر عليها، تركت البيت وخرجت إلى الشوارع لتمارس البغاء . ورغم أن الخط القصصى فى هذه الرواية ليس جديداً ، إلا أن ما يعد مختلفاً ومثيراً هو عملية السرد للنهاية المدمرة المحتومة . وفى العديد من مجموعاته القصصية ، وكما هو الحال فى رواياته ومسرحياته ، يعمد إدريس إلى سبر أغوار حياة مواطنيه ، ويسلط الضوء على تلك العناصر التى تدفع الأشخاص إلى تدمير بعضهم البعض .

القصص الإيرانية :

فى نهاية القرن التاسع عشر ، بدأ الموسوعى على أكبر ديخودا نشاطه فى مجال كتابة القصة القصيرة بإصدار سلسلة من المقالات النقدية . ومع ذلك ، يمكن القول بأن جمال زاده هو الذى حول هذه المقالات الصحفية إلى عمل أدبى محلى . وقد

رجع الناقد حشمت مؤيد إلى مقدمة «كان ياما كان» التى صدرت عام ١٩٢١ ، باعتبارها «بياناً عملياً لكتابة النثر الفارسى الحديث» (مؤيد ١٩٩١ : ٣١) . وقد وفّرت القصص التى تضمنتها هذه المجموعة للمفكرين الإيرانيين نموذجاً لكيفية دمج هذا النوع الجديد من الكتابة الأدبية فى ذخيرة أدب قومى محلى .

وأول إيرانى ينجح فى كتابة قصة قصيرة مطورة بشكل كامل ومكتوبة بلغة مفهومة كان صادق هدايت (١٩٠٣ - ١٩٥١) . ولأنه كان ينتمى إلى أسرة إيرانية من طبقة النبلاء ، فقد تلقى صادق هدايت تعليمه فى باريس ، حيث شارك بنشاط فى المذهب السيريالى ، وهو مذهب فرنسى حديث فى مجال الفن والأدب . وقد وصف أول عمل أدبى له ماضى إيران العظيم ، بينما نجد أن آخر كتاباته ، والتى تأثرت بالكتّاب الأوروبيين وعلى الأخص فرانز كافكا ، كانت تعكس حالة اليأس التى انتابته فى أواخر حياته . ومن ثم ، أقدم على الانتحار فى عام ١٩٥١ . وكتب هدايت الروايات ، والمقالات النقدية ، والمسرحيات ولكنة كتب أيضاً ، وهو الأهم من هذا كله، القصص القصيرة التى صورت ، وبتعاطف شديد ، حياة الطبقات المحرومة والمعدمة فى المدن الإيرانية . استخدم أيضاً التعبيرات العامية فى قصصه وكتاباته ، بيد أن هدفه كان سياسياً أكثر منه أدبياً . إذ إنه كانت هناك حاجة ماسة لمشاركة الأدب فى المعركة ضد التقاليد البالية والعتيقة ، ولاسيما العادات الدينية فى الوقت الذى ناضلت فيه الأمة لتصبح جزءاً من العالم الحديث . وإبّان الثلاثينيات والأربعينيات ، أصدر هدايت ثلاث مجموعات قصصية ، من بينها «الكلب الضال» (١٩٤٢) . فمن خلال عيون الكلب ، بطل الرواية ، يحكى هدايت قصة الرفض والعزلة والإبعاد داخل المجتمع الإيرانى . ولاشك أن استخدام حيوان كبطل رواية يرجع إلى تقليد قوى يرتبط بخرافات الحيوانات

والحقيقة أن صادق شوباك (١٩١٦ - ١٩٩٨) ، وهو صديق أصغر لهدايت معروف برواياته العديدة ، والناقد الاجتماعى جلال الأحمد (١٩٢٣ - ١٩٦٩) ، قد واصلا النهج الأدبى نفسه الذى بدأه هدايت . إذ كان شوباك هو أول من حاول ، وبطريقة فنية ، استخدام اللغة العامية فى الكتابة الرسمية . ففى رواية عرض الدمية (١٩٤٥) ، حاول جاهداً استخدام إيقاع اللغة المنطوقة وليس فقط استخدام مفردات

عامية متنافرة من أجل التأثير السياسى . وشأن الآخرين ، فقد التزم بالوصف الدقيق لشخصيات رواياته وكان يحدوه الأمل فى تغيير وضع المرأة .

وقد ركز الأحمد ، وهو ابن رجل دين شيعى مسلم ، على أعمال القمع والاضطهاد السياسى ، وفى المراحل المبكرة لحياته المهنية ككاتب ، ركز على النفاق الدينى . وتصف روايته ، التى صدرت ضمن مجموعته الأولى ، بعنوان تبادل الزيارات (١٩٤٦) ، رحلة الحج إلى مقبرة لأحد القديسين فى العراق . ومع هذا فإنه قد أبدى اهتمامًا وثيقًا بفكرة التسمم الغربى، وهو عنوان الكتاب الذى ألفه فى عام ١٩٦٢ ، والذى استخدم كشعار ضد الشاه فى الستينيات . وبالنسبة إلى الأحمد ، وكما هو الحال بالنسبة إلى الكثيرين من معاصريه ، فإن الخطر الأكبر كان يكمن فى التبعية الثقافية ، والاقتصادية ، والسياسية لدول مثل إيران للغرب . وكما يقول توكلى تارجى فى مقابلة أجريت معه ، «تصور الأحمد نزعة عصرية بديلة تكمن فى الإسلام . وأصبح هذا العمل مهمًا لآية الله خومينى وغيره من رجال الدين الإيرانيين الذين كانوا ينظرون إلى الإسلام باعتباره الأساس للاستقلال الثقافى الإيرانى» (توكلى تارجى، ١٩٩٩) . ويمكن اعتبار هذا الكتاب تحذيراً مبكراً من النزعة المحافظة المتنامية والنزعة المناوئة للغرب والتى أدت إلى اندلاع الثورة الإسلامية فى عام ١٩٧٨ .

وخلال الستينيات ظهر العديد من كتاب القصة القصيرة الجدد ، ومن أكثرهم شهرة حسين غلام سعدى (١٩٣٥ – ١٩٨٥) . ونظراً لأنه تلقى تدريبًا عمليًا كطبيب نفسانى ومارس مهنته فى طهران ، فقد استفاد من تجاربه وخبراته هذه فى مجال الطب النفسى وطبقها على مجلداته الثلاثين ، والتى اشتملت على القصص ، والمسرحيات ، والمقالات ، وأعمال الأنثربولوجيا الوصفية . ومثل الأحمد ، فإنه كان يميل إلى النقد الحاد لنزعة التغريب فى المجتمع الإيرانى . ومع هذا ، فإنه بمجرد أن تولت حكومة إسلامية السلطة ، لم يتردد فى انتقادها فى رواياته . وقد جرى عرض مسرحيته عطيل فى بلاد العجائب ، والتى كتبها عام ١٩٨٤ ، فى باريس ، حيث واجه سعدى مخاطر أقل من جراء تصويره الساخر التهكمى لنظام القهر والاضطهاد والذى تمارسه الحكومة عندما أمرت النساء بتغطية أجسادهن .

ومما لاشك فيه أن الثورة الإسلامية قد أفرزت جيلاً جديداً من الكُتّاب ، من بينهم العديد من النساء ويمتدح نقاد من أمثال مؤيد هؤلاء الكُتّاب ، سواء دعوا إلى الإطاحة

بالنظام الملكى أم لا ، وأشاد بهم بسبب موقفهم الشجاع ضد فساد بدا أنه أشبه بالوباء المزمن والذى استشرى لقرون طويلة . ومع ذلك ، فإنه بالنسبة إلى البعض، أصبحت المعركة ضد الفساد بالغة الصعوبة خلال الثمانينيات ، فما كان من الكثيرين من هؤلاء الكتّاب إلا أن اختاروا حياة المنفى .

عميد كتاب القصة القصيرة فى تركيا :

يعتبر سيد فايق عزيز لمباسيانايك (١٩٠٦ - ١٩٥٤) بمثابة عميد كتاب القصة القصيرة فى تركيا فى المراحل الأولى لبداية ظهور هذا النوع من الأدب ومثل نظرائه من الكتاب فى بقية بلدان الشرق الأوسط ، أبدى لمباسيانايك اهتمامه الشديد بمظاهر الحياة اليومية فى كل من المدن وخارجها . وكان عزيز نيسين (١٩١٥ - ١٩٩٥) من أشهر كتاب القصة القصيرة وأكثرهم شعبية فى تركيا ، وأيضاً فى إيران ، حيث ترجم العديد من أعماله الأدبية إلى اللغة الفارسية . ومن ثم ، فقد أُطلق عليه نصر الدين خوجه القرن العشرين ، وهو بطل روايات وقصص الأدب الشعبى (الفولكلور) الذى كان يتمتع بقدر عال من الذكاء والبلاغة . وقد ألف عزيز نيسين العشرات من الكتب ، من بينها رواية بعنوان «الفيل حمدى والمجانين الهاربين» . وتتميز قصصه ورواياته بالذكاء الحاد والإيجاز الشديد . ففى رواياته التى تحمل عنوان «منزل على الحدود» ، والتى تروى حكاية مستأجر وستة لصوص يسطون على منزله ، وما انتهت إليه هذه القصة من نجاحه فى إقناعهم بالتعاون معه على محاربة الظلم ، نجد أن المؤلف يحمل بشدة على الجهاز الحكومى الفاسد . ويصف نيسين بدقة المحاولات المضنية التى يقوم بها بطل تم إبعاده لإيجاد الحماية وتحقيق العدل من خلال مؤسسات أنشئت بهدف حماية الناس ولكنها ترفض أن تصبح مسئولة .

والحقيقة أن النشاط الأدبى الذى مارسه نيسين لمصلحة ترجمة ونشر رواية سلمان رشدى المثيرة للجدل « آيات شيطانية» قد كلفه حياته . وهو واحد من عدد قليل من كتاب الشرق الأوسط استطاع أن يحيا حياة كريمة وسخية من كتاباته . إذ إن الكثيرين غيره قد اضطروا للاعتماد على دخلهم من مهن وأعمال أخرى مثل الصحافة حتى يتمكنوا من مواصلة الكتابة . وبعد وفاته ، أسست أسرته مؤسسة نيسين، والتى ينحصر نشاطها فى دعم النشاط الأدبى ، وإضافة المشروعات الاجتماعية .

القصص النسائية :

اختار العديد من الكاتبات النسائية القصة القصيرة كإطار للتعبير الأدبى . وفى أوائل عام ١٩٢٩ ، كانت الكاتبة المصرية سهير القلماوى قد نشرت مجموعة من القصص القصيرة بعنوان «حكايات الجدة» . والحقيقة أن الاستخدام البلاغى لكلمة «الجدة» أصبح أمراً مألوفاً وله شعبيته الواسعة لأن النساء كن يبحثن عن نماذج للقوة النسائية والاستقرار فى ماضٍ كان يتسم بالنظام الأبوى وسطوة الأب . ومن ثم فقد حرصت الكاتبة فى روايتها على إظهار طاعة الوالدين للجدة ومدى ما تتحلى به من خصال حميدة مثل التقوى والصلاح والثقة . وربما كان ذلك علامة على الإيمان الأعمى والخرافة أو محاولة لاقتفاء أثر الزمن عندما كان هناك شعور بالأمن والسلامة من قوى خارجية تهدد المعتقدات لدى المرء . وقد حذا العديد من النساء حذو سهير القلماوى ، وزعمن أن هذا النوع من الأدب القصصى ملائم تمامًا لحياة الأم وربة البيت، حيث فرص التركيز على حبكة مطولة تعتبر محدودة .

وهناك ثلاثة من أبرز الكاتبات السوريات . الأولى هى أُلفة أديبى (١٩١٧) التى لم تبدأ إصدار قصصها حتى أوائل الخمسينيات ، بيد أنها وصفت أيضاً المشكلات التى تواجه النساء فى مجتمع محافظ يقف على حافة التغيير . والكاتبة الثانية هى غادة السمان (١٩٤٠) التى كتبت مجموعة من القصص بعنوان «عيونك قدرى» (١٩٦١) والتى استكشفت فيها الإمكانيات والفرص المتاحة للنساء فى ظل عالم يهيمن عليه الرجال . أما الكاتبة الثالثة ، وهى كوليت خورى (١٩٣٧) ، فهى تجنح إلى الرومانسية أكثر ، ولكنها أقل ثورية ، وقد نشرت روايتها التى تحمل عنوان «أيام معه» فى عام ١٩٥٩ ، والتى تصف فيها كيف تمردت بطلتها على نزعة الرجال إلى التقليل من شأن المرأة والنظر إليها باعتبارها أمًا فقط ، ومن ثم فإنها تؤكد على كرامتها وقيمتها فى المجتمع .

ولاشك أن من أشهر ، بل وأسوأ القصص القصيرة النسائية سمعة فى العالم العربى، هى قصة «سفينة فضاء الرقة تسافر إلى القمر» (١٩٦٤) ، من تأليف الكاتبة ليلى بعلبكى (١٩٣٦) . وهذه القصة ، التى تبدأ أحداثها فى الصباح الباكر من أحد الأيام تصف حياة رجل وامرأة وتكشف النقاب عن علاقة الحب القوية بينهما والصراع الذى يحتدم بينهما حول رغبتهما فى إنجاب طفل . وقد عقدت إحدى المحاكم جلسة

خاصة لتقييم ما إذا كانت هذه القصة تدعو إلى الإباحية الجنسية وتحث عليها أم لا . وفى نهاية المحاكمة ، برأت هيئة المحكمة ساحة بعلبكى ، إلا أن موجة الجدال والخلاف التى أثارتها تلك القصة قد دخلت فى تاريخ أدب القرن العشرين فى الشرق الأوسط . والواقع أنه من الملاحظ فى معظم هذه الكتابات النسائية أن البطلة تلقى الهزيمة دائماً فى نضالها ضد النظام الأبوى وسطوة الرجل وهيمنته على المجتمع . ومسألة ما إذا كانت تستسلم وترضخ له أو تتخلى عنه فى النهاية ، فإن قرارها النهائى لا يحقق ذلك النوع من الشعور بالرضا أو الارتياح فى كلتا الحالتين . فالمرأة بمفردها لا يمكن أن تتحدى كل هؤلاء الذين تقيم معهم علاقات وروابط إنسانية فى وقت لا يبدو فيه المجتمع مستعداً بعد لقبولها ودمجها فى نسيجه العام .

وفى عام ١٩٧٤ ، ومع ظهور رواية «النار المطفأة» ، أصبحت سيمين دانشوار (١٩٢١) أول سيدة إيرانية تصدر مجموعة من القصص القصيرة . وقد أشاد بها فرزانى ميلانى لدورها فى إيجاد نساء لا يعتبرن ببساطة من ضحايا استبداد وتعسف النظام الأبوى فى المجتمع ، وإنما كائنات بشرية تضطلع بدور نشط وفعال وتناضل لإعطاء معنى لحياتها . وفى أعمال أدبية لاحقة مثل القصص التى كتبتها شهرنوش بارسيبو (١٩٤٦) وجولى تراكى (١٩٣٩) ، أدرك ميلانى مدى تركيز دانشوار على مشاعر اليأس وخيبة الأمل الكافية فى معظم العلاقات التى تربط بين أفراد الطبقات الوسطى فى المجتمعات الانتقالية ، حيث تدخل النزعة الفردية فى صراعات مع القيم التقليدية (ميلانى ، ١٩٩٢ : ١٩٩) .

وقد كتبت النساء قصصاً تبين كيف أن مسئولياتهن المنزلية تقيد من اهتماماتهن وتحول دون عملية الابتكار والإبداع المستمرة . كما كتب هؤلاء النساء عن الحروب . إذ كتبت إميلى نصر الله (١٩٣٨) العديد من الروايات عن الآثار المدمرة للحرب الأهلية اللبنانية ، ولاسيما ما تركته من آثار سلبية على حياة النساء . إذ تصف مجموعاتها القصصية الثلاث عن هذه الحرب لحظات من الرعب والخسارة التى لم تستطع أن تصفها قصص أخرى على نحو كامل . وفى العراق ، وأثناء الحرب مع إيران فى الفترة من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨ ، نشرت كل من عليا طالب وديسى العامر كتابات جزئية تنتقد النظام الاستبدادى وذلك ضمن سلسلة محكمة وبليغة من الحكايات الساخرة .

الروايات الفرانكفونية فى شمال أفريقيا :

فى دول شمال أفريقيا التى استعمرها الفرنسيون فى القرن التاسع عشر (الجزائر فى ١٨٣٠ وتونس فى ١٨٨١) ، ظهرت أول محاولة لكتابة رواية نسائية فى بداية هذا القرن باللغة الفرنسية . وفى تونس ، كان مفكرون يهود من أمثال جاك فيكتور ليفى أول من استخدم الرواية فى التأريخ الزمنى لأحداث حياتهم اليومية . ووصفوا مجتمعًا متعدد الثقافات والذى عاش فى كنفه العرب ، والبربر ، والإيطاليون ، والمالطيون ، والأفارقة ، والمسلمون ، واليهود معًا فى يسر وسهولة حتى وصول المستعمرين . وعندئذ فقط ، بدأت تطفو على السطح الخلافات العرقية والدينية . ومن ثم ، تناول الروائيون فى قصصهم فكرة العالمين : عالم المدينة (المدينة العربية القديمة) ، والعالم الجديد ، أو (المدينة الجديدة) والتى استوعبت الفرنسيين والمعابر الحدودية القائمة بينهم . وأصبح الحمّام (الحمام التركى) بمثابة موقع أو مكان رمزى للأصالة المحلية ، وفى الوقت ذاته ، للفصل العنصرى .

وفى عام ١٩٥٣ ، أى قبل ثلاث سنوات من حصول تونس على استقلالها ، نشر الكاتب ألبرت ميمى (١٩٢٠) روايته التى كانت أقرب ما تكون إلى السيرة الذاتية. وتوفر دراسته الكلاسيكية عن العلاقات الإستعمارية بعنوان «عامود الملح» ، والتى كتبها قبل عامين من إصدار روايته «المستعمِر والمستعمَر» ، توفر دراسة حالة عن الآثار اللاإنسانية للرغبة الإستعمارية سواء بالنسبة لموضوع أو هدف الهيمنة . فالمستعمِر يريد أن ينسى االمستعمَر هويته وكيانه وأن يصبح مثله . ولذا ، فإنه يسعى لتأكيد تلك الرغبة وتعزيزها حتى يقترب من تحقيقها . وهكذا تصف هذه الرواية كيف أن بطلها ، يدعى بينيلوش ، وهو ابن يتمتع بالذكاء العالى ، وينتمى لأسرة من الطبقة العاملة والذى حصل على موافقة بالدراسة فى المدرسة الثانوية ، عاش ممزقًا فى داخله وقد باتت مشاعره تتأرجح ما بين هواياته المتعددة والمتداخلة ، وكيف كانت تعتمل فى أعماقه مشاعر الكراهية لشخصه تارة ولهويته التى أرادها له المستعمر تارة أخرى . وهكذا ، فإنه يمكن إدراج هذه الرواية ضمن أدب النقد الذاتى ، فهى تعبر عن الرفض الشديد للذات . فالعلاقات المتناقضة والمتضاربة إلى حد كبير التى عاشها بطل الرواية مع والده تسبق فى الحقيقة الأفكار ذاتها التى تناولتها روايات

الستينيات والسبعينات لكُتّاب مغاربة من أمثال ادريس شرابي وطاهر بن جلون ، وهي كانت الروايات التي كانت ترتكز على فكرة سطوة الأب داخل الأسرة ، وباعتباره رمزاً للنظام الأبوي فيما مضى ، والحاجة إلى وضع نهاية له .

وخلال الثمانينيات ، كتب بن جلون رواية من جزئين بعنوان «طفل الرمل والليلة المقدسة» ، والتي حاز بها على جائزة الجونكور ، وهي جائزة أدبية فرنسية شهيرة تمنح فقط للكتّاب الفرنسيين من فرنسا . وهي تروي قصة رفض أب لحقيقة أن طفله الثامن كان بنتاً . إذ لابد له من إنجاب ولد ، وسيكون له مثل هذا الولد . ولذا ، غير اسم الطفلة من فاطمة إلى أحمد ، ولاشك أن هذه الرواية الحديثة التي تتناول نوع الجنس أو قضية الذكور والإناث في مجتمع إسلامي قائم على النظام الأبوي قد أثارت فضيحة في المغرب . إذ إن بن جلون قد أتهم بالانقياد لرغبة الفرنسيين في تناول موضوعات تدعو للفساد والانحلال الأخلاقي . بل إن البعض رفض جائزة الجونكور باعتبارها مكافأة على الخيانة الثقافية لبن جلون .

وفي الجزائر ومصر ، كانت النساء رائدات الرواية الفرانكفونية . ففي الأربعينيات، كتبت آسيا دبيش عن تجارب نساء الطبقة الوسطى ومعاناتهن بسبب الازدواجية الثقافية : إذ إنهن تعلمن بهدف توقع فرص أفضل بشأن عملية الاختيار في الحب والحياة ، بيد أن حقائق الواقع الذي كن يعشنه قد كانت تتحول غالباً إلى شيء مغاير ومختلف تماماً . وقد عكفت الكاتبة الفرانكفونية اللبنانية – المصرية أندريه شديد على استكشاف المشكلة ذاتها بعد عامين على نجاح ثورة الضباط الأحرار . فكتابها الذي يحمل عنوان «من نوم عميق» (١٩٥٤) قد لقي إشادة وترحيب شديدين لما تضمنه من وصف دقيق لمصير المرأة في بنية ريفية يقطنها الأقباط حيث كانت أية محاولة ، ومهما كانت بسيطة ، لتحسين المصير المظلم للمرأة ، تقابل بالصدمة وبالرفض الشديد . إذ إن قتل سامية ، بطلة الرواية ، لزواجها الأحمق يعكس مذهب الواقعية الفعلية وكما جسدته هذه المرأة في سياق أحداث القصة .

الرواية العربية :

تطورت الرواية العربية في مرحلة لاحقة على التطور الذي شهدته الرواية الفرانكفونية . وكانت هذه الرواية تتسم بأنها صورة من أدب الملاحم الطويلة الذي

يتلائم ويتوافق مع الأغراض والأهداف التى كان ينشدها المصلحون الثقافيون والاجتماعيون الأوائل فى ميدان كتابة الرواية العربية . وبدت الرواية ، وهى نوع من القصص الطويلة ، شكلاً أدبياً غير مألوف ، والتى قد جرى تطويرها لتلبى احتياجات واهتمامات الطبقة البورجوازية الأوروبية فى القرنين الثامن والتاسع عشر . وعلاوة على ذلك ، كان النشر مشكلة بحد ذاته . إذ كانت المطابع الصغيرة ودور النشر مخصصة أساسًا للصحف والجرائد ، التى قد باتت من أهم المنافذ الفعالة والمؤثرة للأعمال الأدبية . وحتى يومنا هذا . لا يزال بعض الكتاب ينشرون رواياتهم وسيرهم الذاتية على نحو متسلسل من خلال هذه المطبوعات التى تحرص على استكتاب مثل هؤلاء الكتاب المبدعين كما لو كانوا يعملون صحفيين لديها .

وفى مصر ، كان الأديب المعروف نجيب محفوظ ، (١٩١١) الحائز على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٨ ، أول من أدخل هذا النوع من كتابة الرواية ، أو القصة الطويلة . فبعد أن صدرت له بعض القصص القصيرة فى الثلاثينيات ، استطاع أن يدرك بفطنته وخبرته الأدبية مدى الحاجة إلى وجود شكل أدبى أطول يمكن من خلاله إظهار التناقضات الكامنة فى المجتمع المعاصر . ومن ثم ، يمكن القول بأن الروايات التى كتبها خلال الفترة الأربعينيات وحتى اليوم تعتبر نافذة يطل منها المرء على تطور الأوضاع الاجتماعية والسياسية فى مصر.

وفى الأربعينيات ، أصدر نجيب محفوظ روايتين تدوران حول أحداث من المفترض أنها قد وقعت فى زمن الفراعنة ، حيث تركزان على نجاح المصريين القدماء فى طرد الغزاة الأجانب . وتبدو الطبيعة المجازية لهذه الأعمال الأدبية شفافة. وكانت هذه الفترة تتميز بأنها فترة البحث عن الذات فى مصر ، عندما كان يستعاض عن الإخفاق المحلى فى التعامل بفاعلية فى السياق الدولى بالرجوع إلى الأمجاد القديمة والعودة إلى عظمة الماضى . ولاشك أن هذه العودة إلى ماض يسبق تاريخه وصول العرب إلى شبه جزيرة سيناء قد أصبح بمثابة مرآة لها انعكاساتها فى بلدان الشرق الأوسط الأخرى والتى دخل مفكروها فى مجابهة قوية مع أزمة الهوية . ففى تركيا ، مثلاً ، وبعد وفاة أتاتورك مباشرة فى عام ١٩٣٨ ، وبينما كان خليفته يحاول ترسيخ أقدامه فى السلطة فى ظل مناخ من الشكوك والقهر المتزايد ، كتب الروائى كمال طاهر (١٩١٠ - ١٩٧٣) قصته الشهيرة «الدولة الأم» التى تتناول تاريخ

الإمبراطورية العثمانية فى القرنين الثالث والرابع عشر عندما كانت فى أوج قوتها وذروة مجدها .

والحقيقة أنه إلى جانب كاتب القصة القصيرة التركى صباح الدين على (١٩٠٧-١٩٤٨) والروائى التركى أورخان كمال (١٩١٤ - ١٩٧٠) ، يعتبر محفوظ رائد الواقعية الاجتماعية فى الشرق الأوسط . إذ إن روايته «زقاق المِدق» (١٩٤٧) ، وهى أولى رواياته التى ترجمت إلى الإنجليزية ، تعكس هموم كُتّاب الشرق الأوسط الآخرين . وتدور أحداث هذه الرواية فى القاهرة إبّان الحرب العالمية الثانية ، وحيث أخذ نجم السيادة البريطانية على العالم فى الأفول بسرعة . وقد أتبع محفوظ روايته هذه بكتابة ثلاثيته الشهيرة ، التى يطلق عليها ثلاثية نجيب محفوظ ، وهى تضم روايات «قصر الشوق» و «بين القصرين» و «السُّكرية» (١٩٥٦ - ١٩٥٧) ، والتى يزعم كثيرون أنها كانت وراء فوزه بجائزة نوبل . وعلى الرغم من أنه كتب هذه الثلاثية أثناء ثورة الضباط الأحرار فى عام ١٩٥٢ ، إلا أنه لم ينشرها إلا بعد ذلك بسنوات عدة . وأبطال هذه القصص هم أفراد أسرة رجل يدعى السيد عبد الجواد ، وهى أسرة من الطبقة المتوسطة العليا ، وهى تصف الأحداث الرئيسية التى شهدها المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن العشرين . وتعكس حياة الأجيال الثلاثة فى هذه الروايات والأزمات التى عاشها المصريون بداية من الحرب العالمية الأولى وحتى الاستقلال . بيد أن التاريخ ، وللمرة الثانية ، يوفر قناعاً يخفى وراءه المخاوف والهموم الراهنة . إذ يجذب محفوظ القارئ إلى داخل أحد البيوت التقليدية فى القاهرة القديمة ، وحيث يتفاعل الرجال والنساء معاً بطريقة غير ملحوظة وغير مرئية لمن هم خارج البيت . ويواصل القارئ متابعة الأحداث حتى يأتى إلى تلك اللحظة الحاسمة التى تعلن فيها الزوجة المغلوبة على أمرها والتى دأبت على الطاعة العمياء لزوجها (سى السيد) ، تمردها وترفع راية العصيان فى وجهه . وإزاء هذا التصرف، فإنه لابد وأن يكون هناك عقاب ، ولكن سبق السيف العذل . إذ إن أطفالها ، الذين قد رأوا بأعينهم هذا المسلك الجرىء من جانب أمهم ، قد باتوا مشاركين فى المناظرات والمناقشات السياسية . ورغم أن توجهاتهم المختلفة وانتماءاتهم المتباينة ، لاسيما إلى تيار الإخوان المسلمين باعتباره معارضاً للتيار الشيوعى ، كانت تسفر غالبًا عن

حدوث صدامات وخلافات داخل الأسرة ، إلا أن روابطهم الأسرية كانت تتغلب فى النهاية على تلك الخلافات والتوترات .

وفى عام ١٩٥٩ ، نشر محفوظ رواية «أولاد حارتنا» ، والتى تحكى قصة أبو الأنبياء إبراهيم وما جاء به من تعاليم وأحكام دين جديد كما تتحدث الرواية عن أتباعه ومن آمنوا بهذا الدين الجديد وذلك من خلال تناولها لحياة كل فرد من أفراد أسرة الجبلاوى . بيد أن السلطات فى العديد من الدول الإسلامية قد حظرت تداول الرواية لما تضمنته ، فى الحقيقة ، من تصوير سلبى ومعالجة خاطئة ومغلوطة لحياة النبى إبراهيم. ويحمل محفوظ فى روايته هذه بشدة على جميع الأنبياء والرسل الذين دعوا إلى عبادة التوحيد والإيمان بالله الواحد ، وبسبب هذه الرواية التى أثارت جدلاً وأسعًا ، تعرض محفوظ لهجوم عنيف فى عام ١٩٩٤ من جانب الأصوليين المسلمين. وقد واصل محفوظ هذا التوجه الوجودى فى كتاباته وأعماله الأدبية حتى فترة الستينيات ، حيث راح يصف ويصور شخصيات رواياته وهى تبحث عن معنى لحياتها.

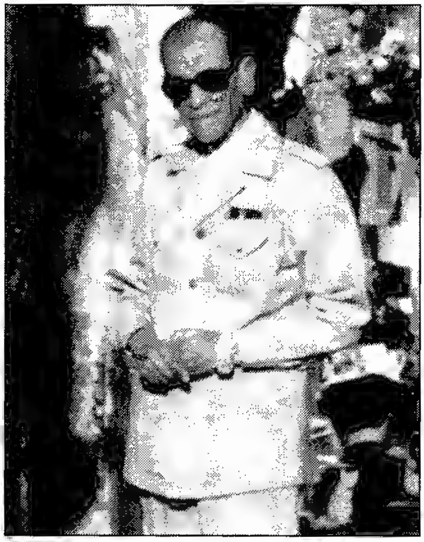

صورة (١ : ١٢) الأديب المصرى نجيب محفوظ الحائزة على جائزة نوبل فى الأدب

والحقيقة أن حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧ قد تسببت فى أزمة فكرية فى العالم العربى ، وهى الأزمة التى تفاعل معها محفوظ بقوة ، سواء بالنسبة إلى المضمون أو الشكل . وأبدى العديد من القراء والنقاد أسفهم إزاء ضياع خط السرد القصصى الطولى فى رواياته ، وذلك بعدما باتت كتاباته فى السبعينيات مقسمة ما بين الجرس الموسيقى المتقطع والسيريالية التى تمتلئ بالغموض والارتباك والتشوش . وفى الثمانينيات ، غير محفوظ من أسلوبه وموضوعاته فى الكتابة مرة أخرى . وفى هذه المرة تحول إلى الأدب الكلاسيكى الإغريقى الرومانى وأخذ يكتب نسخاً حديثة

لهذه الكلاسيكيات . ومن ثم ، كان له نصيبه من الإنتاج الأدبى الغزير لرواية «ألف ليلة وليلة» ، وأيضًا أدب الرحلات حيث كتب رواية على غرار كتاب «رحلة ابن بطوطة» والذى ظهر فى القرن الرابع ، فألف رواية بعنوان «رحلة ابن بطوطة» (١٩٨٣) .

وقد وفَّرت هذه الرواية للكثيرين الإطار الملائم لاحتواء الانعكاسات والآثار المرتبطة بالحنين إلى الماضى فى عالم ولى وانقضى . وتروى قصة «بقايا ذاكرة» للكاتب السورى حنا مينا (١٩٢٤) حكاية قرية صغيرة قبل أن تجتاحها القيم الأجنبية . وتشبه هذه القرية بتلك التى تركتها منى فى رواية «طيور سبتمبر» (١٩٩٢) والتى ألفتها الكاتبة اللبنانية إميلى نصر الله . وشأنها شأن العديد من الأبطال الشرق أوسطيون، تجد نفسها فى مواجهة تحدى النزعة العصرية ، وبعبارة أخرى تكتشف منى أن قريتها الصغيرة هذه لا يمكن أن تضمن لها مستقبلاً دائمًا . ولهذا ، تغادر منى قريتها إلى بيروت وأصبحت لا تعرف من هى الآن بعدما انسلخت عن جذورها فى وطنها .

وخلافًا لمعظم الروائيين العرب الذين يركِّزون فى سرد أحداث قصصهم على المدينة أو القرية ، نجد أن الكاتب السعودى عبد الرحمن منيف (١٩٣٣) ، والذى يعيش الآن فى منفاه فى سوريا ، قد ركَّز على الصحراء فى رواياته وكتاباته . وقد صدرت رائعته الأدبية «مدن الملح» فى خمسة أجزاء ، وذلك طوال فترة الثمانينيات . وبعد أن كان قد بدأ حياته المهنية كخبير اقتصادى فى صناعة النفط ، أصبح على دراية بمدى تأثير النفط على اقتصادات وحياة الأفراد الذين يعيشون فى الدول الغنية بالنفط . وتتقصَّى هذه الخماسية أثر عملية التحول الذى طرأ على البيئة وكذلك التحول فى وعى ووجدان وضمير السكان فى هذه الدول ، ومعظمهم من البدو ، بعد اكتشاف الذهب الأسود . ويلاحظ القارئ تلك النزعة الوحشية المتنامية لدى السكان البدو وهم يدركون أنه فى هذا العالم الجديد الجسور القائم على التنافس والربح ، هناك الشىء الكثير الذى يمكنهم اكتسابه والحصول عليه من وراء إقامة شركات ومشروعات فردية بدلاً من الاعتماد على التضامن والتعاون القبلى . وأدى نشر هذا الكتاب إلى استياء الحكومة السعودية التى جردته من الجنسية وحقوق المواطنة .

الرواية الإيرانية :

ظهرت الرواية الإيرانية قبل الرواية العربية ، وتردد أن رواية «مذكرات مسافر» لإبراهيم بك التى تقع فى ثلاثة أجزاء والتى كتبت فى الثمانينيات ، هى أول رواية تصدر فى إيران . والواقع أن الكُتّاب الإيرانيين ، وبقدر أكبر من نظرائهم من الكتاب العرب ، مالوا إلى العمل فى القصة القصيرة والرواية على حد سواء . وكان هذا ينطبق إلى حد كبير على كُتّاب من أمثال هدايت ، وشوباك ، والأحمد ، ودانشوار .

ومن أفضل الروايات التى كتبها هدايت وأكثرها شهرة رواية «البومة العمياء» ، التى ألفها فى عام ١٩٣٠ ، ولكنها لم تنشر إلا فى عام ١٩٣٧ فى الهند ، ونشرت عام ١٩٤١ فى إيران بعد تنازل رضا شاه عن العرش وبعد إلغاء نظام الرقابة . وتتميز هذه الرواية بأنها تبحث فى أعماق الذات الإنسانية وسبر أغوارها حتى إن هدايت وصفها بأنها «انعكاس لظلى» . وهو يصف زوج يتعذب بسبب علاقته مع زوجته التى تعرض نفسها طواعية وعن طيب خاطر على العديد من عشاقها ولكنها تتمنع تماماً عن معاشرته جنسياً . ومن ثم ، يتحول إلى إدمان الأفيون ، وارتكاب جرائم القتل ليصاب فى النهاية بالجنون . وكانت حالة اليأس التى وصفتها الرواية تنذر بإقدام هدايت على الانتحار فى عام ١٩٥١ .

وكتب شوباك عدة روايات قد لقيت قدراً كبيراً من الاستحسان والإشادة لتركيزها على التفاصيل الدقيقة . ففى عام ١٩٦٣ ، نشر أولى رواياته بعنوان «تونجسير» والتى قوبلت بإعجاب شديد . وهى تتناول قصته رجل يعيش فى الجبال ويحاول أن يثأر من هؤلاء الذين يسعون لسلب ماله بالاحتيال عليه . وفى الوقت نفسه تقريباً ، كان كل من الأحمد وزوجته دانشوار يعملان بجد ونشاط على الساحة الأدبية ، حيث ناضل المفكرون اليساريون لمقاومة محاولات الشاه لتنظيم وانتقاء ما يريده من الإنتاج الثقافى ، ولاسيما الأعمال والكتابات الأدبية . وتنتقد الرواية التى كتبها الأحمد بعنوان «ناظر المدرسة» (١٩٥٨) ، أى بعد انقضاء خمس سنوات على نهاية حكومة مصدق ، تنتقد نظام التعليم الحالى فى إيران . ونظراً لأن هذه الرواية كتبت فى وقت كان فيه الالتزام أهم من الفن ، فإن نشرها كان بمثابة حدث أدبى – سياسى . أما روايته «كليدار» والتى نشرها محمود دولت عبادى فى عام (١٩٤٠) ، فكانت أكثر

رواياته تأثيراً على الإطلاق . وتحكى هذه الرواية التى تقع فى عشرة أجزاء ، قصة الشعب الإيرانى .

وكما كان عليه الحال بالنسبة للقصة القصيرة ، كانت دانشوار أول سيدة إيرانية تكتب رواية . إذ إن وقائع وأحداث قصتها الشهيرة «قداس فارس» (١٩٦٩) تجرى فى مدينة شيراز التى كان يحتلها البريطانيون ، وذلك فى نهاية الحرب العالمية الثانية تقريباً . وتتناول رواياتها الصراعات والخلافات التى تفجرت بين الجيران والأقارب ، وكيف ثار زعماء القبائل ضد الحكومة ، بينما كان يحاول زارى المحافظة على الاستقرار والنظام داخل بيته . وهى تبدو مختلفة تماماً هنا عن امرأة تتصدى للكتابة ، وذلك رغم الخطر الذى فرضته السلطات على الأصوات الأوروبية النسائية وعلى الرغم من نضالها المستميت للتمسك باستقلالها الذاتى والمحافظة على قوتها وقدرتها على الصمود والمقاومة إلا أن ذلك كله كان يكلفها الكثير من المعاناة والآلام وتلقى العلاج فى مستشفى للأمراض النفسية . وكما يمكن أن نقرأ فى الكتابات والأعمال الأدبية النسائية فى كل مكان ، فإن ما أصاب دانشوار من الجنون لم يكن اضطراباً إكلينيكياً بل كان يمثل تمرد امرأة وعصيانها على ما يحدث فى محيطها الاجتماعى من خطايا وآثام . وقد ترجمت هذه الرواية ، التى كانت من أكثر الروايات مبيعاً ، إلى عدة لغات (ميلانى ، ١٩٩٢ - ١٨٣ - ٦١) .

الرواية التركية :

هناك روائيان فى تركيا استطاعا أن يحققا شهرة عالمية : ياسر كمال (١٩٢٢) وأورخان باموك (١٩٤٨) . فكمال ، الذى ظل لعقود من الزمان مرشحاً للفوز بجائزة نوبل فى الأدب ، كانت له فى مضمار « رواية القرية» . ومن أشهر أعماله الأدبية ، رباعيته التى تحمل عنوان «محمد ، صقرى» والتى ترجمت إلى ثلاثين لغة أجنبية تقريباً . وهى تدور حول المقاومة التى منيت بالفشل فى النهاية من جانب الفلاحين ضد سادتهم من أصحاب الأراضى . وقد وصف طلعت سيد هلمان هذه الرواية بأنها واحدة من أفضل الإنجازات فى تاريخ الأدب التركى (هلمان ، ١٩٨٢ : ٣٠) .

وكان أول عمل أدبى من إنتاج أورخان باموك ملحمة بطولة أسرته بعنوان «جودت بك وأبناؤه» (١٩٧٩) . وفيما يشبه ثلاثية نجيب محفوظ إلى حد كبير ، تناولت هذه

الرواية مصائر وأقدار ثلاثة أجيال متعاقبة . ولم تحظ الرواية الأولى من ثلاثية باموك بشعبية كبيرة . وفى الحقيقة ، فإن باموك لم يصبح كاتباً مشهوراً إلا فى التسعينيات عندما أصدر روايته المثيرة للجدال بعنوان «الكتاب الأسود» (١٩٩٠) . وهى من نوع الروايات البوليسية التى تحكى قصة غالب ، وهو محام فى استنبول ، والذى تختفى زوجته رويا وصهره جلال فى أحد الأيام . ولكن غالب يحرص على كتمان سر اختفائها بينما يحاول حل لغز هذا الاختفاء المفاجئ . أما جلال ، الذى كان يعمل صحفياً ، فإن مقالاته المتعددة ، والساخرة عن التاريخ الإسلامى ، والأدب الإسلامى ، والتصوف وتداخلها وتفاعلها مع تفاصيل الحياة اليومية ، قد اكسبته قاعدة عريضة من القراء . ومع أن غالب كان يشعر بالغيرة من نجاح جلال وشعبيته إلا أنه كان يغار أكثر من قدرته وبراعته فى الكتابة . وبينما يواصل غالب محاولاته لحل لغز اختفاء رويا وجلال ، قفزت إلى ذهنه فجأة فكرة محاكاة جلال وتقليده فى كل ما كان يفعله فى حياته . ومن ثم ، ينتقل غالب إلى شقة هذا الصحفى والتى باتت مهجورة ، ويرتدى ملابسه ، ويقرأ مذكراته وكتاباته الشخصية ، ويرد على مكالمات هاتفه ، ويتجاذب أطراف الحديث مع قرائه المعجبين به . بل إنه يأخذ فى تقليد أسلوب جلال فى الكتابة ويشرع فى نشر مقالات موقعة باسمه . وبسبب افتتان غالب بعملية التنكر هذه فى شخصية جلال ، فقد دفع الأخير حياته ثمناً لذلك . والحقيقة أن النقاد ، فى تركيا أولاً وفى الخارج بعد ذلك ، وبعدما ترجم الكتاب إلى عدة لغات ، كانوا منقسمين فى النهاية بشأن ردود فعلهم إزاءه . فالبعض قد أشاد بهذه الرواية باعتبارها تتناول فكرة استثنائية غريبة تنطوى على تعذيب الآخر ، بينما رفضها البعض الآخر. وفى عام ١٩٩٧ ، نشر الناقد نوكيت إيسين الطبعة الثانية من مقالات التركية والدولة التى كانت قد ظهرت فى الكتاب . وعندما كان الكتاب التالى لباموك «حياة جديدة» بصدد نشره فى عام ١٩٩٥ ، كان هنالك الكثير من الإثارة والتشويق والترقب لدى القراء إلى حد أنه مع نهاية أول يوم من طرحه للبيع قد نفدت أعداد هذه الطبعة كلها من كتابه واضطرت دار النشر إلى إعادة طبعه عدة مرات .

الرواية الإسرائيلية :

على النقيض من كافة صور وأشكال الأدب الأخرى فى الشرق الأوسط ، وبما لديها من تاريخ طويل يمتد إلى قرون عدة ، فإن تاريخ الأدب الإسرائيلى يرجع إلى

خمسين عامًا فقط . إذ إن أول رواية إسرائيلية كتبها موشى شامير ، وهى «تحت الشمس» ، قد صدرت بعد سنتين من تأسيس دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ . وهى تعد، فى الحقيقة ، عملاً سياسياً إلى حد كبير الهدف منه جذب الاهتمام إلى إسرائيل الجديد (صابرا) ، وهو مصطلح عبرى يشير إلى هؤلاء الذين ولدوا فى أرض إسرائيل . ومع أن هؤلاء اليهود الصابرا منخرطون ومندمجون تمامًا فى تاريخ الدولة الجديدة وبيئتها، إلا أنه من الممكن وقوعهم فريسة لجيران لا يشعرون بالمودة نحوهم (يوركين، ١٩٨٤ : ٤٢ – ٤٧) . ومن أكثر الروائيين الإسرائيليين شهرة والذى ترجمت الكثير من أعماله إلى لغات أخرى عاموس عوزى (١٩٣٩) . وبعد أن بدأ عمله فى مجال الكتابة بمجموعة من القصص القصيرة ، تحول عوزى إلى الرواية . وقد وصفت أعماله الأدبية بأنها مثقلة بالتهديد . ولعل هذا الوصف ينطبق بشكل خاص على أفضل رواياته وأكثرها شهرة ، وهى بعنوان «صديقى ميشيل» (١٩٦٨) . فبطلة هذه الرواية تستبد بها الهواجس دائماً بسبب خوفها الظاهرى ورغبتها فى الوقت ذاته فى مصادقة التوأمين العربيين اللذين قد عرفتهما منذ أن كانت طفلة . ويركز عوزى فى أعماله الأدبية على الرمزية ، ولاسيما الحدود ، سواء أكانت حقيقية أم وهمية . وربما كان هذا الأمر له مغزاه فى دولة مثل إسرائيل والتى كانت ، ومنذ البداية ، تشعر بعدم اليقين والخوف من حدودها الجغرافية . وقد عمد عوزى إلى أن تدور أحداث العديد من كتاباته فى محيط الكيبوتسات ، أو المجتمعات التى عاش فى كنفها العديد من الاشتراكيين الإسرائيليين (يودكين ، ١٩٨٤) .

وفى فترة ما بعد حرب عام ١٩٦٧ على نحو خاص ، أصبح بعض الفلسطينيين الذين يعيشون داخل إسرائيل يميلون إلى الكتابة بالعبرية . إذ كتب أنطون شماس (١٩٤١) رواية بعنوان أرابيسك ، وهى رواية من نوع السير الذاتية والتى قد أشاد بها البعض باعتبارها إحدى روائع الأدب القصصى العبرى . ومع ذلك ، وعلى الرغم من ثناء النقاد عليها ، إلا أن هذه الرواية لم تقبل كجزء من الأدب العبرى . وقد وصف شماس هذا العمل الأدبى بأنه يمثل تحدياً لما زعم من أنه يمكن اندماج الفلسطينيين فى دولة إسرائيل كمواطنين إسرائيليين . وبغض النظر عن محاولات الفلسطينيين للاندماج فى المجتمع الإسرائيلى والعمل على استيعابه ، وبغض النظر

عن قدرتهم على تحدث العبرية بطلاقة ، إلا أنهم لم يستطيعوا أبداً أن يصبحوا مواطنين إسرائيليين بكل ما تعنيه هذه الكلمة .

الدراما : تطعيم الجديد بالقديم :

كما هو الحال بالنسبة إلى أشكال الأدب القصصي الوافدة من أوروبا ، سعى المفكرون والمثقفون فى الشرق الأوسط للعثور على أعمال أدبية مماثلة تلائم المسرح . وقد أدخل بعض العرب المقامة ، وهو فن من فنون الغناء الشعبى فى القرن العاشر والذى كان يروى حكاية شخص وضيع ولكنه فصيح والذى ينجح دائمًا فى خداع الجميع ، ولاسيما رجل ثرى من أصحاب الممتلكات والعقارات . وتحول آخرون إلى نوع من الفن المسرحي يعرف باسم خيال الظل والذى كانت له أصوله فى فن الأرجواز التركى فى القرن الرابع عشر . وشأنه شأن فن المقامة ، يعتبر خيال الظل من الفنون المسرحية التى تعتمد على الكوميديا والتى تدور حول مغامرات قراجوز غير متعلم ولكنه أنيق . وعلى الرغم من أن هذا القراجوز يتعامل مع الآخرين فى الحياة اليومية ويناضل للدفاع عن المقهورين والمضطهدين ، إلا أن طيشه الكامن بداخله وسماته الشخصية التى لا تتغير ومؤامراته كانت تتعارض دائمًا مع النوايا والاتجاهات الجادة لكُتّاب الفن المسرحى الأوائل فى الشرق الأوسط . ووفقًا لما ذكره هلمان ، فإن فنون الأداء الشعبية الأخرى فى تركيا تتضمن مسرحيات الفلاحين ، والمهرجانات المسرحية ، والمواكب الاحتفالية ، والشعائر الدينية ، والمعارك الوهمية ، والمهرجانات .. وأيضًا ما يطلق عليه باللغة التركية أورتايونو ، وهو فن من فنون الكوميديا المسرحية . (هلمان ١٩٧٦ : ١٤) .

وشأن الرواية والقصة القصيرة ، فإن الدراما المسرحية ، كما يتم تعريبها حالياً ، قد أُدخلت إلى الشرق الأوسط من خلال الترجمات والأعمال المترجمة . إذ إن مسرحيات رئيسية من تأليف كُتّاب مثل ويليام شكسبير ، وموليير ، وتشيكوف قد جرى ترجمتها لتمثيلها على خشبة المسرح العربى . وقد وجد الشرق أوسطيون ضالتهم المنشودة فى مثل هذه الأعمال الأدبية والمسرحية المترجمة ، ولاسيما أعمال الكاتب الروسى تشيكوف لما كانت تتسم به من معالجة لذكريات الماضى والخوف من مستقبل مجهول ، وهو ما كان يروق لمفكرى الشرق الأوسط الذين كانت تشغلهم المحن

والأزمات التى تمر بها مجتمعاتهم . وكان المسرح يروق لقطاع عريض من الجمهور لأنه لم يكن يعتمد على معرفة القراءة والكتابة ، ومن ثم أصبح للفن المسرحى شعبيته. وقد وفر هذا الفن إطاراً أمكن للكتّاب من خلاله تقديم أعمالٍ مسرحية مكتوبة باللغات العامية ، وهو الأمر الذى كان محظوراً فيما مضى على كتّاب النثر والشعر الذين كانوا يخشون أن يؤدى لجوئهم إلى الأسلوب العامى إلى أن تفقد لغاتهم نقاءها وصفاءها. وبمرور الوقت ، تبين أن الاستخدام الناجح للغات العامية أو الدارجة فى الحوارات والأحاديث بين الأشخاص الأميين ، والذى كان يستعاض عنه غالبًا باللغة الفصحى الراقية فى أوساط المتعلمين ، قد وفر نماذج لكتّاب الروايات والقصص المسرحية .

وفى عام ١٨٧٣ ، كتب الروائى التركى نامق كمال رواية مسرحية بعنوان «أرض الأجداد» ، والتى قوبلت باستحسان وحماس شديد من الجمهور ومنعت حكومة السلطان عبد العزيز عرضها . ويقول هلمان إن هذه المسرحية تعتبر بداية «للأهمية السياسية للأدب فى الحياة التركية» . وقد رأى أتاتورك فى الدراما جانبًا مهمًا فى عملية التغريب والتي استغلها جيداً من خلال تأسيس مسرح مدينة إستنبول فى عام ١٩٢٧ . وقد خاض كتّاب آخرون من أمثال ياسر كمال ، وناظم حكمت ران ، وأورخان كمال، وعزيز نيسين مجال الكتاب المسرحية ، إلا أنهم لم يحققوا نجاحًا كبيراً فى أغلب الأحيان . وكانت الكتابات الدرامية فى الستينيات من ذلك النوع الذى يطلق عليه «دراما القرية» والتى كانت تعد أول خطوة لها أهميتها بعيداً عن النفوذ الغربى (هلمان ١٩٧٦) .

بيد أن أهم كتاب الدراما وأكثرهم شهرة على الإطلاق فى العالم العربى هو الكاتب المسرحى المصرى توفيق الحكيم ، والذى كتب أولى رواياته فى مطلع العشرينيات . وعلى النقيض من معظم معاصريه من الكتّاب، لم يكن الحكيم من أنصار أو مؤيدى الحركة الأدبية النسائية التى ازدهرت آنذاك . وبينما كتب آخرون عن أشكال الظلم التى كانت تتعرض لها النساء ، انتقد الحكيم «المرأة الجديدة» التى تسببت فى ظهور فوضى أخلاقية . وبعد أن أمضى ثلاث سنوات فى دراسة القانون فى باريس ، عاد توفيق الحكيم إلى مصر فى عام ١٩٢٨ . وفى هذه الفترة ، تحول إلى كتابة الروايات المسرحية الفلسفية ، كما أن معاملته للنساء تغيرت وباتت تتسم بالرقة واللطف، وهو ما

بدا واضحاً فى روايته «شهرزاد» (١٩٣٤) . وربما يعزى هذا التغير فى نظرته للمرأة إلى تجاربه فى التعامل مع النساء الفرنسيات فى باريس ، وهى التجارب التى كتب عنها فى سيرته الذاتية .

وفى عام ١٩٦٠ ، انضم الحكيم إلى كُتّاب آخرين كانوا ينتقدون نظام الحكم الجديد الذى جاءت به إلى السلطة ثورة الضباط الأحرار ، وذلك عندما نشر روايته «محنة السلطان» . والسلطان فى هذه الرواية عبد ، وقد مات سيده ، وهو السلطان السابق ، قبل أن يعتقه ويحرره من الرق . ومن ثم ، كان لابد له من الحصول على حريته ، وهو ما يمكنه أن يحققه فقط إذا اشتراه سيده الجديد على أن يحرره بعد ذلك. وفى المزاد الذى أقيم لهذا الغرض ، اشترته سيدة كانت قد سمعت عن أساليبه الديكتاتورية ولكنها سرعان ما تكتشف أنه رجل رقيق يتسم بدماثة الخلق . وقد حررته هذه السيدة بمجرد أن تأكدت أنه قد عرف معنى الحرية الحقيقية . وفى عام ١٩٦٤ ، نشر الكاتب يوسف إدريس رواية «الفرافير» وهى رواية اعتمدت على فكرة القراجوز واعتمدت كذلك على الرقصات التى يؤديها الدراويش . وقد أراد أن يثبت من كتابته لهذه الرواية أن الدراما لم تكن جديدة على الأدب العربى وأن الأشكال التقليدية يمكن أن تنطوى على المضمون الجديد الذى تحركه دوافع وبواعث سياسية .

وفى أواخر الستينيات ، تحول الطلبة فى مختلف أنحاء العالم العربى إلى المسرح كمكان يمكن من خلاله عرض مطالبهم الاجتماعية والسياسية . ففى سوريا ، أسس مجموعة من الطلبة شركة مسرح الشوكة التى قامت بإنتاج وعرض مسرحيات تتسم بالجرأة. وهكذا ، أتاحت الكوميديا والكنايات والروايات الأدبية المختلفة الفرصة للممثلين لنقل رسائلهم السياسة والتى كانت تعتبر بمثابة تحريض على الفتنة فى أماكن أخرى . وقد سمح مسئولو الحكومة والجهات الرقابية باستمرارية هذه الممارسة الخطيرة ، وهم يدركون أن الناس بحاجة إلى متنفس لمشاعر الغضب والإحباط لديهم تجاه نظام الحكم القمعى . وجنباً إلى جنب مع الأشكال الأخرى للإنتاج الأدبى ولكن على نحو أكثر وضوحاً ورؤية ، ساعد المسرح أيضاً فى إظهار واجهة ديمقراطية دولة حزب البعث الحاكم .

وقد واصل الكُتّاب الذين تعلموا فى مسرح الشوكة الكتابة عن ذلك الحد الذى يفصل ما بين الانشقاق والشهادة . وبعض هؤلاء الكُتّاب مثل سعد الله ونوس (١٩٤١-

- ١٩٩٧) ، وممدوح عدوان (١٩٤١) ، قد فَضَّلوا مواصلة الكتابة فى مجال المسرح . وقد صدرت أول رواية كتبها ونوس ، وهى بعنوان «حفلة مسائية للخامس من يونيو» ، بعد عام واحد فقط من حرب الأيام الستة فى عام ١٩٦٧ ، وهى الرواية التى وصفت بأنها أقوى رد فعل أدبى على الهزيمة المريرة التى منى بها العرب فى حربهم مع إسرائيل . ولأنه لم يكن يخشى المواجهة السياسية المفتوحة ، فإن ونوس قد حرص على توجيه الانتقاد الشديد إلى النظام البعثى الحالى . وفى عام ١٩٧٧ ، فى بادئ الأمر، ومع صدور روايته «الملك هو الملك» ، ثم بعد ذلك بنحو ١٥ عامًا ، ومع صدور روايته «منمنمات تاريخية» استطاع ونوس إماطة اللثام عن أساليب القهر التى يمارسها الحكم الديكتاتورى . وفى «منمنمات تاريخية» ، استخدم العلاقة بين الطاغية المنغولى تيمور لينك الذى حكم فى القرن الرابع عشر ، والمؤرخ الشمال أفريقى ابن خلدون لانتقاد المفكرين بسبب تورطهم مع نظام فاسد . أما رواية «الغول» التى كتبها عدوان (١٩٩٦) ، فإنها تركز على قسوة ووحشية آخر الحكام العثمانيين فى سوريا . إذ إن الكوابيس التى كان يراها فى منامه هى الكوابيس ذاتها التى تؤرق أيًا من الحكام الديكتاتوريين.

وهناك آخرون ممن تخرجوا من مسرح الشوكة مثل دريد لحّام قد انتقلوا من المسرح إلى التليفزيون أو السينما . ولعله من قبيل التناقض الظاهرى ، أن صناعة السينما قد أصبحت الأكثر راديكالية من بين كافة مجالات الإنتاج الثقافى الأخرى . فعلى الرغم من أن السيطرة عليها تعتبر حكرًا على وزارة الثقافة ، إلا أنها تعتمد على انتقاد الحكومة بشدة . فما الموقف السياسى والمصير النهائى لصناع السينما من أمثال محمد ملص ، والذين يقفون فى الخندق نفسه مع الحكومة ولكن أفلامهم ، وفى مناسبات نادرة عند عرضها ، تترك مشاهديها وهم يحبسون أنفاسهم خوفًا من هذه الجرأة الانتقادية ؟ . وهذا ما أسميه بالانتقاد المفوض ، وذلك لأنه يجعل الحكومة وكأنها تبدو متفتحة العقل وديمقراطية حينما ترغب فى أن تكون كذلك .

الشعر وتأثره بالحياة فى الصحراء :

من بين كافة فنون وأنواع الأدب ، ظل الشعر أكثرها وأشدها مقاومة للتغيير . إذ إن التأكيد الجديد على التعبير الشخصى والأسلوب الحر كان بمثابة ضرب من البدع أو

من قبيل الهرطقة . وفى شتى أرجاء الشرق الأوسط ، يمكن القول بأن الشعر كان ولا يزال من أشهر فنون الأدب وأكثرها إعجاباً وقبولاً لدى شعوب المنطقة . وفى فترة ما قبل ظهور الإسلام ، والتى تعرف باسم العصر الجاهلى ، كانت هنالك علاقة وثيقة بين الشعر والسياسة ، وكان من المتوقع دائمًا أن يكون زعماء القبائل من أبرع الشعراء. وفى العصر الإسلامى ، واصل الحكام المسلمون تقديرهم لفنون الشعر وأجزلوا العطاء للشعراء الذين كانوا يتبارون فى نظم القصائد التى تكيل المديح لهؤلاء الحكام وتثنى عليهم . وسواء أكان شعراً غنائياً وملحناً أو كان مكتوباً بالعربية ، أو التركية ، أو الفارسية ، فإن الشعر الكلاسيكى ظل محتفظاً بعناصره ومكوناته التى ترجع نشأتها وأصولها إلى حياة البادية والعيش فى الصحراء . وكانت هناك عبارات مجازية مألوفة (الاستخدامات البلاغية للكلمات) ، وصور ، وأوزان وبحور ، وأشكال . ومن ثم ، فإنه كان من الضرورى توخى الحذر وتحرى الدقة والعناية عند إدخال أية تغييرات فى هذا البناء الشعرى خشية النظر إلى أية محاولة للتجديد باعتبارها دليلاً على العجز وانعدام الكفاءة . ولأنه أكثر اعتماداً على الصيغ والعبارات الوصفية من الأدب النثرى، لم يسمح الشعر الكلاسيكى بالتعبير عن وجدان الفرد ومشاعره .

والحقيقة أن المحاولة الأولى لجعل الشعر أكثر استجابة للمشكلات والقضايا والهموم المعاصرة بدأت بداية متواضعة فى منتصف القرن التاسع عشر . وهكذا ، استطاع شعراء ينتمون إلى المدرسة الكلاسيكية الجديدة فى الشعر من أمثال الكاتب والشاعر التركى يحى كمال البياتى (١٨٨٤ – ١٩٥٨) ، والمدرسة الأرستقراطية المصرية من أمثال محمود سامى البارودى (١٨٣٩ - ١٩٠٤) ، وأحمد شوقى (١٨٦٨ – ١٩٣٢) استطاعوا إعطاء حياة جديدة للموضوعات الشعرية والأفكار الرئيسية واللغة الشعرية ، مع إدخال تعديل طفيف فى المضمون . وبوجه عام ، من الممكن القول بأن هؤلاء الشعراء كانوا محافظين رسميين (سوميخ ، ١٩٩٢) . أما المحاولة الأولى الجادة والمهمة للإصلاح الشعرى فقد قام بها شعراء مثل الكاتب التركى أحمد هاشم (١٨٨٥ – ١٩٣٣) ، والشاعر السورى خليل مطران (١٨٧٢ – ١٩٤٩) ، والشاعر التونسى أبو القاسم الشابى (١٩٠٩ – ١٩٣٤) . والشاعر الإيرانى نعمه يوشينج (١٩٥٩ – ١٨٩٥) والذين كانوا قد تأثروا بالكتّاب والشعراء الفرنسيين والإنجليز ممن ينتمون إلى المدرستين الرمزية والرومانسية من أمثال شارل بيير بودلير ، والفرنسى

مـارى ، ولويس دويرا لامـارتين ، ووليـام ورذورث ، وبيـرسى بيـشى شيـلى. وأدت تجارب هؤلاء الشعراء فى مـجال استـخدام الأوزان والبحـور والصور واللغة إلى حدوث تحول فى فنون الشعر بالشرق الأوسط .

وخلاصة القول ، كانت هناك ثورة شعرية يجرى الإعداد لها . وفى تركيا ، كان الشاعر الماركسى ناظم حكمت ران (١٩٠٢ - ١٩٦٣) أول من تم الاعتراف بشعره الحر . ويحكى هلمان كيف أنه فى عام ١٩٢١ ، حث أتاتورك هذا الشاعر ، الذى كان مشهوراً بالفعل على «كتابة قصائد شعرية ذات غرض» (هلمان ، ١٩٨٢ : ٢٥) . وفعل ناظم ذلك ، إلا أنه كان عليه أن يدفع ثمناً مقابل «طاعته» هذه . إذ إن انتقاداته وإداناته الصريحة للمساوئ الاجتماعية والسياسية ، وكذلك دعواته الشعرية من أجل الثورة ، قد أكسبه شعبية واسعة إلى حد أنه تعين عليه تحمل المسئولية عما نسب إليه من تهمة التحريض وإثارة الاضطراب السياسى فى البلاد . وخلال أواخر الثلاثينيات، أى قبل وفاة أتاتورك مباشرة ، تم إيداعه السجن بتهمة أخرى تتعلق بالتآمر للإطاحة بنظام الحكم ، وجرى فرض حظر على كتاباته . وبعد الإفراج عنه من سجنه ، هرب إلى موسكو ، حيث دفن مع كبار الكتّاب الروس من أمثال فيودور دوستوفسكى . وهو يعتبر من أكثر الشعراء الأتراك الذين ترجمت أشعارهم إلى عدة لغات أجنبية . وقصيدتاه «بعض النصائح إلى هؤلاء الذين سيقضون وقتاً فى السجن» و «اليقظة» كتبها لهؤلاء الأشخاص الذين اضطروا إلى أن يمروا بتجربة المعاناة نفسها التى عاشها هو نفسه ، ولكنهم لم يكونوا أقوياء وصامدين مثله :

لستم بالضعفاء الذين لا يتحملون قضاء عشر سنوات أو خمسة عشرة سنة خلف قضبان السجون وأسوارها العالية ، بل أنتم الأقوياء الذين يمكنهم الصمود لفترة أطول فى ظلمات وغياهب السجون طالما أن الجوهرة فى الجانب الأيسر من صدوركم لم تفقد بريقها أو يخبو وميضها .

وفى العالم العربى وفى إيران ، كانت النساء هن اللائى نجحن فيما كان الشعراء من الرجال يحاولون تحقيقه . ففى العراق ، نجحت الشاعرة نازك الملائكة (١٩٢٣) أخيراً فى إدخال الشعر الحر إلى الشعر العربى الحديث . وفى عام ١٩٤٩ ، نشرت مقتطفات مختارة من قصائدها للشعر الحر فى ديوان بعنوان «شظايا ورماد» . ورغم أن

آخرين قبلها مروا بهذه التجربة الشعرية الجديدة ، إلا أنهم لم يحققوا نجاحاً كبيراً ، فقد اتهمهم النقاد بالعجز والافتقار إلى البراعة بدلاً من الترحيب بالتجديد والابتكار . وقد مهدت أعمالها الطريق للآخرين مثل الشاعر السورى أدونيس والذى رشح لجائزة نوبل (على أحمد سعيد) (١٩٣٠) ، والشاعر العراقى بدر شاكر السياب (١٩٢٦ – ١٩٦٤) . وقد حقق هذان الشاعران شهرة واسعة من خلال تبنيهما لموضوعات أسطورية وخرافية تدور حول قضية البعث ، ولاسيما فيما يتعلق بمحنة الشعب الفلسطينى . وفى عام ١٩٦٨ ، نشر أدونيس أروع أعماله الأدبية «المسرح والمرايا» ، وهو العمل الذى يقدم من خلاله معجماً شعرياً جديداً ، وإيقاعاً وبناءً ، وإدراكاً حسياً . ويتميز هذا العمل بأنه فلسفى إلى حد كبير ، حيث يزخر بالرموز ، والاستعارات ، والعبارات المجازية ، والأوهام الخرافية . ويقول أدونيس إن الشعر يجب أن يخاطب العقل ، وليس المشاعر والعواطف وحدها ، ولأن هذا الشعر الجديد أشبه بالسلاح السياسى ، فإنه لابد من معالجته بمهارة عالية .

وليس ثمة شك فى أن الطبيعة السياسية للشعر العربى وكذا الطبيعة القمعية للعديد من الأنظمة الحاكمة التى يعمل فى كنفها الشعراء قد أرغما البعض منهم على كتابة أشعارهم بصورة غير مباشرة ، أو بطريقة ملتوية ، أو باستخدام أسماء مستعارة . أما النساء العربيات من الأديبات والشاعرات ، ولاسيما فى الدول الأكثر محافظة والأشد تمسكاً بالتقاليد الاجتماعية مثل دول الخليج العربية ، فقد لجأن فى أغلب الأحيان إلى اختيار الرمزية التجريدية للإفصاح والتعبير عن مشاعر وعواطف تعتبر من المحرمات والأمور المحظورة لدى حكومات هذه الدول . وفى البداية ، فرضت الرقابة على هذا النوع الجديد من الشعر الذى كتبته النساء مثل الشاعرة الكويتية الأميرة سعاد مبارك الصباح ، حتى عندما لم يكن هذا الشعر مفهوماً تماماً لأنه قد كتب بأقلام نسائية . وفى أواخر التسعينيات ، على أى حال ، بدأ هذا النوع الجديد من الشعر النسائى يجتذب جمهوره من القراء على المستوى العالمى . ففى شهر مارس عام ١٩٩٧ ، وفى أماكن مترامية الأطراف تمتد من دولة الإمارات العربية المتحدة مروراً بفيتنام وانتهاءً بولاية كارولينا الشمالية فى الولايات المتحدة ، نشرت الصحف قصة صدور ديوان شعرى بعنوان «مقتطفات من الأشعار النسائية فى دولة الإمارات» .

وفى إيران ، تمردت شاعرتان هما فوروج فاروخزاد (١٩٣٥ - ١٩٦٧) ، وسيمين بهبانى (١٩٢٧) ، على الأشكال التقليدية والموضوعات الشعرية الجامدة . ومن ثم ، صدرت أول مجموعة شعرية لبهبانى بعنوان «الحبل المقطوع» فى أوائل عام ١٩٥١ . وفى حين أخذت نزعة التمرد من جانب بهبانى شكل التقليدية الجديدة (ميلانى ، ١٩٩٢) ، نجد أن أسلوب فاروخزاد قد ركز على رفض هذا الشكل الجديد . وفى عام ١٩٥٥ ، أصدرت هذه الشاعرة ما اعتبره البعض آنذاك قصائد شعرية تتسم بالجرأة والصراحة والتى جمعتها فى ديوان تحت عنوان «الأسيرة» . بيد أن أشهر أعمالها ذلك الديوان الذى يحمل عنوان «ميلاد آخر» ، والذى صدر فى عام ١٩٦٤ . ومثلما فعلت نازك الملائكة ، كسرت فاروخزاد الشكل الشعرى التقليدى وهى تصف حياة القمع التى تعيشها المرأة فى الشرق الأوسط .

الاستقلال وحركات النضال فى حقبة ما بعد الاستعمار :

كما تبين من الفصول السابقة ، شهد النصف الثانى من القرن العشرين موجات من العنف فى شتى أنحاء الشرق الأوسط . إذ كانت هناك حركات نضال من أجل التحرر تبعتها ثورات اشتراكية والتى أعقبها أحداث من الفوضى وانهيار القانون والنظام وانتشار مشاعر الكآبة والإحباط . وبعد الاستقلال ، أراد الكثيرون إعادة بناء دولهم وصياغة هوية محلية «حقيقية» . والواقع أن الصراع والعنف أصبحا ، على ما يبدو ، مكوناً أساسياً فى تاريخ الشرق الأوسط إلى الحد الذى لا يمكن تجاهله فى سياق المنظومة الأدبية لبلدان المنطقة .

وقد أولى الكُتّاب اهتمامهم بلعب دور فى المجتمعات الجديدة التى ظهرت مع الاستقلال عن الحكم الاستعمارى . وباعتبارهم «ضمير الشعب» ، فقد شرع هؤلاء الكتاب فى «الترويج للأفكار والمعتقدات الثورية» . ففى عام ١٩٤٦ ، تولت الجمعية السوفيتية الإيرانية رعاية أول مؤتمر للكتّاب الإيرانيين ، والذى أُعلن خلاله عن مركزية وأهمية الأيديولوجيا بالنسبة إلى الأدب . وبعد مرور سبع سنوات على عقد هذا المؤتمر ، نشرت مجلة «الآداب» التى تصدر شهرياً فى لبنان أول مقال والذى جاء فيه أنه لابد أن تكون الدوافع السياسية هى المحرك الأساسى لكافة أشكال الكتابة . وهكذا ، انقضى ذلك الزمن الذى رفع شعار الفن من أجل الفن ليحل محله الشعار الثورى فى كافة الأنشطة الإبداعية .

دفع الثمن :

ظهر التأكيد على الالتزام السياسى فى الأدب فى وقت كانت تشهد فيه منطقة الشرق الأوسط مخاض الثورات وحروب التحرير . وكان يتعين على الأدب الاضطلاع بدوره والتدخل فى معترك السياسة ، والعمل على تأهيل القيم الاجتماعية وانتقاد حالة التردى والانحطاط . ومع أن حروب التحرر من الحكم الاستعمارى كانت جيدة بوضوح لا لبس فيه ، إلا أنه لم يكن من السهل فى الوقت ذاته الحكم على بعض الصراعات والقول إذا ما كانت جيدة أم سيئة . وكان هذا هو الحال تماماً بالنسبة إلى ثورة الضباط الأحرار المصرين فى عام ١٩٥٢ . إذ إن هذه الثورة كانت تعد تطوراً إيجابياً من حيث قدرتها على استعادة الحكم لمصر والمصريين وبعد فترة طويلة من الحكم الاستعمارى يعود تاريخها إلى آلاف السنين ، أى منذ عصر الفراعنة . ولكن سرعان ما شعر آخرون بمساوئ وسلبيات الطبيعة الاستبدادية لنظام الحكم الجديد .

وكما سبقت الإشارة ، انتقدت الرواية التى كتبها الأديب المعاصر يحى حقى فى عام ١٩٥٤ بعنوان «صباح الخير» وبوضوح ؛ جمال عبد الناصر ونظامه الجديد . كما أصدر محام آخر ، هو عبد الرحمن الشرقاوى (١٩٢٠ - ١٩٨٧) ، وفى السنة نفسها، رواية «الأرض» ، وهى الرواية التى حولها المخرج السينمائى الشهير يوسف شاهين إلى فيلم بعنوان «الأرض» . وتعالج هذه الرواية تأثير الثورة على حياة الفلاحين وتظهر الآثار والنتائج السلبية لهيكل السلطة المركزية الذى أقامه الضباط الأحرار . ومرة أخرى ، نجد أن الحبكة الرئيسية فى تلك الرواية تدور حول إدخال أحد رموز التحديث والانتقال إلى الحياة العصرية ، والذى تجسد فى هذه الحالة فى تشييد طريق جديد يمتد إلى قرية صغيرة كانت قد نجحت فى أن تنأى بنفسها عن مظاهر الفساد فى حياة المدينة وأن تصبح بمعزل عن التلوث الأخلاقى الذى كان يخيم على المدن . ولاشك أنه كان من الصعوبة بمكان أن يقبل الكثيرون حقيقة مفادها أن الثورة، التى جسدت آمال وطموحات المصريين ، قد جلبت معها أيضاً البؤس والشقاء للناس . وكان المفكرون والمثقفون هم الأكثر قلقاً وانزعاجاً من جراء هذه الحقيقة . وكانت هناك تكهنات بأن السبب الذى حدا بنجيب محفوظ إلى عدم نشر «الثلاثية» التى كان قد كتبها فى أوائل الخمسينيات إلا بعد عدة سنوات ، كان يكمن فى الخوف

من أن يؤدى ما تضمنته هذه الثلاثية من انتقادات للثورة ولنظام الحكم الجديد إلى مساءلته وتعرضه للعقاب .

ويرى الكثيرون أنه لم يكن هناك مبرر أو داع لهذا التأخير فى نشر «الثلاثية»، وأنه كان يتعين على نجيب محفوظ عدم الخوف من العواقب ومواجهة المخاطر مهما كانت . وفى الشرق الأوسط ، يمكن القول بأن لدى الكتّاب التزام أخلاقى استقر فى الوجدان والضمير ، وهو أمر لا يمكن تصوره تقريباً فى الغرب . فمن المتوقع دائماً أن يدافع هؤلاء الكتّاب عن معتقداتهم ومبادئهم وأن يقودوا الرأى العام . ورغم أن جرأتهم هذه قد تكلفهم الشىء الكثير وربما دفعوا ثمناً غالياً لشجاعتهم ، من قبل الزج بهم فى السجون والمعتقلات ، إلا أنهم يؤمنون بأن مثل هذه التضحيات جزء من رسالتهم . ذلك أن سجن الضمير عادة ما يكون أشد وطأة لدى هؤلاء الكتّاب الذين يعتبرون أن إيداعهم السجون وسام شرف على صدورهم . ولذلك ، فإن الكثيرين من سجناء الضمير فى الشرق الأوسط ، ولاسيما الشيوعيين ، كتبوا عن معاناتهم داخل السجون .

وفى إيران ، نجد أن الكاتب بزرك علوى (١٩٠٨) ، والذى أصبح عضواً فى حزب توده الماركسى ، قد أودع السجن فى عام ١٩٣٧ . وخلال السنوات الأربع التى أمضاها داخل السجن ، ألف كتابين : «أوراق من داخل السجن» و «٥٣ رجلاً» . وهذان الكتابان عن تجاربه ومعاناته فى السجن يكشفان النقاب عن المشاعر الحقيقية لدى السجناء ومدى قوة الإرادة والعزيمة لديهم أيضاً ويقول علوى عن تلك الفترة «ارتفعت روحى المعنوية داخل السجن وأصبحت مؤهلاً بصورة أفضل لمواصلة النضال» . وعلى النهج نفسه ، ألف الكاتب المصرى شريف حتاتة (١٩٢٣) رواية بعنوان «عين لها جفن من حديد» (١٩٨٢) ، والتى يحكى فيها تجربة ١٣ عاماً قضاها خلف قضبان السجن فى ظل الاحتلال البريطانى وفى عهد جمال عبد الناصر . كما سجلت زوجته الكاتبة نوال السعدوى (١٩٣١) تجربة الشهور التى أمضتها فى السجن فى كتاب بعنوان «ذكريات من سجن النساء» (١٩٨٣) . وكما ذكرنا آنفاً ، فقد كتب الشاعر الأول فى تركيا ناظم حكمت ران عدة مؤلفات عن سنواته داخل السجن . وحقيقة أن هؤلاء المفكرين قد مروا بمثل هذه التجارب وعاشوا كافة صنوف وأشكال المعاناة داخل السجن ثم سجلوها بعد ذلك فى سلسلة من الكتب والروايات التى تتناول تفاصيل

تجاربهم القاسية ، تمنحهم سلطة معنوية يفتقر إليها غيرهم من الكتاب والمفكرين الذين ربما تكون أعمالهم وكتاباتهم جيدة .

حرب الاستقلال فى الجزائر (١٩٥٤ - ١٩٦٢) :

حصلت تونس والمغرب على استقلالهما من الفرنسيين في عام ١٩٥٦ ، ولكن الجزائريين ، الذين كانوا قد بدءوا حربهم ضد الاستعمار فى عام ١٩٥٤ ، لم ينجحوا فى نيل استقلالهم فى نهاية المطاف إلا فى عام ١٩٦٢ . وقد أفرزت حرب الاستقلال فى الجزائر مكتبات تزخر بالروايات والقصص القصيرة ، والشعر ، بل إنها مازالت حتى يومنا هذا مصدر إلهام ثقافى للمنتجين بمن فيهم صناع الأفلام السينمائية . وحتى وقت قريب ، حققت رواية «يوسف وأسطورة النائم السابع» (١٩٩٥) العديد من الجوائز فى مهرجانات الأفلام العربية . وتحكى هذه الرواية قصة جندى أسير فى الحرب والذى تمكن من الهرب من أجل العثور على رفاقه . ولكنه يكتشف أنهم ماتوا تحت أنقاض أحد الكهوف الجبلية مع كلبهم ، وذلك على غرار ما حدث فى قصة أهل الكهف التى وردت فى القرآن الكريم . وبعد أن يقوم بدفنهم الواحد تلو الآخر ، يقتل هو نفسه على أيدى مجموعة من الخونة . وما تريد أن تؤكد عليه قصة الفيلم هو أن موضوع خيانة الثورة الجزائرية قد بات أمراً شائعاً فى الوقت الذى أخذ فيه المفكرون يشاهدون بلادهم وهى تنزلق إلى دوامة من العنف ، والتطرف الدينى ، والانعزالية .

بيد أنه فى الخمسينيات وأوائل الستينيات ، تعززت الآمال . إذ إن كل فرد ، وحتى النساء ، كان من المتوقع أن يكتب عن الحرب . ولكن النساء ، مثل آسيا جبار (١٩٣٦) ، والتى كتبت رواية «العطش» فى عام ١٩٥٧ عن تعطش النساء إلى الاستقلال ، قد تعرضت للانتقاد من قبل المؤسسة الأدبية التى يهيمن عليها الرجال وذلك بسبب انشغالها بالمشكلات الفردية والأمور الشخصية فى وقت كانت فيه الأمة بأسرها بحاجة ماسة إلى تضافر مواطنيها ووحدتهم بقدر الإمكان . ومن ثم ، حرصت جبار على أن تركز رواياتها التى أصدرتها فيما بعد على الثورة ومعالجة قضاياها وعمدت إلى التقليل من شأن الأزمات والمشكلات ومظاهر الإحباط فى حياة النساء . وعلى الرغم من أنها غادرت البلاد خلال الأيام الأولى من حركة التحرر ، إلا أنها أصدرت روايتين عن مشاركة النساء فى الحرب ، وهما «أطفال العالم الجديد»

(١٩٦٢) و «مزاح ساذج» (١٩٦٧) . ومع هذا ، فإن وصفها لعملية حشد وتعبئة النساء لم يشر إلى أى تغيير فى إدراكهن أو وعيهن بما يجب أن تكون عليه حقوقهن وأدوارهن فى مجتمع ما بعد الحرب .

وعلى العكس من ذلك ، نجد أن الكُتّاب من الرجال كانوا يكتبون بشيء من الخوف والرهبة عن تزايد سلطة ونفوذ النساء فى مجتمع أخذ يخرج عن نطاق السيطرة . ومن أفضل وأشهر الروايات التى ظهرت عن الحرب رواية «النجمة» (١٩٥٦) التى ألفها كاتب ياسين (١٩٢٩ - ١٩٩٦) . وقد دأب النقاد على وصف هذه الرواية بأنها من قبيل الجمال الغامض . وقد جادلت فى مناسبات وأماكن عدة بأن هذه الرواية تتناول، فى الحقيقة ، مخاوف الرجال المتزايدة وهو يرقبون ظهور المرأة الجزائرية الجديدة التى ولدت من رحم الحرب (كوك ، ١٩٩٧ : الفصل الثالث) . وهذا الموضوع نفسه تتناوله الرواية التجريدية التى كتبها محمد ديب بعنوان «من يتذكر البحر» (١٩٦٢) ، حيث يفقد الراوى عقله بينما يفقد السيطرة على زوجته ، والتى كانت قد انخرطت فى حركة المقاومة ضد الاحتلال . وبالنسبة إلى هؤلاء الكُتّاب مثل مالك حداد والذى رحل عن الجزائر أثناء الحرب ، فإن الخوف من المرأة المقاتلة أخذ يتزايد . ومن ثم ، لم يكن من قبيل المفاجأة أنه عندما وضعت الحرب أوزارها ، بدأت النساء فى العودة إلى بيوتهن .

ولاشك أن قصة تجريد النساء من سلطاتهن فى أعقاب الحرب باتت معروفة جيداً، وفى الحقيقة ، فإن النساء العربيات فى أماكن أخرى غالبًا ما يشرن إلى هذه القصة على أنها «الدرس الجزائرى» . إذ إن ذلك الدرس قد علّم الآخرين أنه ينبغى السماح للمجتمع بنسيان إسهامات النساء وما قدمته من إنجازات فى أوقات الأزمات وأوقات الشدة . وفى الثمانينيات ، شرعت جبار فى إصدار «رباعيتها» ، والتى وصفتها بأنها بمثابة سيرة ذاتية . وكل جزء من هذه الرباعية يقدم مراجعة عميقة للتاريخ الاستعمارى الجزائرى من خلال عيون النساء . وفى الجزء الثانى ، بعنوان «فنتازية : موكب جزائرى» (١٩٨٥) ، نلاحظ أنها تربط قصص نساء حركة المقاومة المجهولات فى القرن التاسع عشر ، واللواتى حذفت أسمائهن من السجلات التاريخية، بقصص وحكايات لنساء باقيات على قيد الحياة واللواتى كن ناشطات ولكن فرضت قيود على نشاطهن خلال الحرب ، كما تربط هذه الأحداث بروايتها .

وتشكل رباعية الكاتبة جبار جزءاً من حركة نقد قومية من جانب النساء الثوريات، واللواتى قد أدركن ، وربما فى وقت متأخر جداً ، أخطار الصمت والسكوت. وهن يزعمن أن حرب التحرير الجزائرية لم تكن ثورة بالمعنى الحقيقى للكلمة ، وذلك لأن نتائجها لم تغير الظروف المادية والاجتماعية لحوالى نصف سكان الجزائر . وطالما أن التمييز ضد النساء مستمر ، فإنه لا يمكن اعتبار خروج الفرنسيين من البلاد نجاحاً قومياً . وربما يمكن النظر إلى الهجمات الأخيرة التى شنها الإسلاميون المتشددون ضد المفكرين والمثقفين ، ولاسيما النساء ، فى العاصمة الجزائرية ، على أنها الخطوة التالية فى شن حرب لم يتم التوصل إلى حل لها فى أوائل الستينيات .

المشكلة الفلسطينية :

بعد رحيل القوات البريطانية مباشرة عن فلسطين ، شرع الفلسطينيون فى النضال من أجل استعادة استقلالهم .. ورغم أن معظم المفكرين الفلسطينيين غادروا أرض فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، إلا أن قلة منهم ، مثل الشاعر محمود درويش (١٩٤٢) ، آثروا البقاء خلف ما بات يعرف باسم الخط الأخضر . ومع أن أسرة درويش رحلت عن فلسطين ضمن الفوج الأول الذى ترك البلاد ، إلا أنها عادت إليها مرة أخرى . وكانت الأسرة كلها قد عادت بعد انقضاء فترة تسجيل الفلسطينيين ، ولذا كتابات هذا الشاعر تدور حول الافتقار إلى أوراق الهوية . وهكذا ، نجد أن قصيدته المعروفة «بطاقة هوية» (١٩٦٥) جاءت تجسيداً للواقع الفلسطينى ، وهى تعبر عن المأساة التى يعيشها الفلسطينيون .

وبعد عام ١٩٦٧ ، بدأ الفلسطينيون الذين وجدوا أنفسهم تحت حكم الاحتلال الإسرائيلى فى قطاع غزة والضفة الغربية ، يفهمون السبب فى أن هؤلاء الفلسطينيين الذين بقوا فى ديارهم داخل الحدود الإسرائيلية فى عام ١٩٤٨ . لم يكونوا بالضرورة بمثابة شركاء فى جريمة احتلال فلسطين ، ولكن يمكن اعتبارهم بدلاً من ذلك فلسطينيين وطنيين . وقد صارت أهمية البقاء فى الأراضى الفلسطينية ، ومهما كانت النتائج ، من الفضائل القومية . وكان إميل حبيبى (١٩٢١ - ١٩٩٦) من الشخصيات الرئيسية التى مارست مهنة الكتابة من داخل إسرائيل . وكان هذا الكاتب مؤسس الحزب الشيوعى الإسرائيلى ثنائى القومية والحائز على جائزة القدس فى

الأدب التى منحتها له منظمة التحرير الفلسطينية ومؤسسة جائزة القدس . وفى عام ١٩٧٤ ، نشر كتاباً بعنوان «الحياة السرية لسعيد ، الفلسطينى الذى أصبح مواطناً إسرائيليًا» ، ويتناول الكتاب قصة حياة فلسطينى سيئ الحظ يصادف الكثير من الصعوبات فى حياته وعلاقاته مع الناس داخل المجتمع الإسرائيلى .

وبعد مرور عامين ، ومن مدينة نابلس داخل الأراضى المحتلة ، نشرت سحر خليفة الروئية الأولى من بين رواياتها الثلاث عن تجربة الاحتلال للقوات الإسرائيلية. وبداية من رواية «أشواك برية» (١٩٧٦) وحتى رواية «باب الساحة» (١٩٩٠) ، ترسم سحر خليفة صورة دقيقة لحركة المقاومة الفلسطينية وإمكانات نجاحها . وتظهر بطلات رواياتها كيف أن بعض الأساليب والطرق التى تلجأ إليها النساء فى المقاومة والقتال ضد القوات الإسرائيلية تعتبر أكثر فاعلية من تلك التى يتبعها الرجال . فالأمهات اللائى يعطين أبنائهن وبناتهن حجارة لرشق الجنود الإسرائيليين بها استطعن قلب قواعد الحرب رأسًا على عقب . فهل هؤلاء النساء وأبنائهن وبناتهن مدنيون أم مقاتلون ؟ وهل يمكن أن يتعرضوا لإطلاق النار عليهم ؟ أو هل ينبغى التسامح معهم عندما تخطئ حجارتهم أهدافها ؟ . إن هذا الالتباس قد زال فى المرحلة اللاحقة ، وذلك عندما تحولت أعمال المقاومة الفردية للنساء إلى استراتيجية موحدة للعمل الثورى . وأطلق على عملية عسكرة حركات المقاومة المحلية اسم (الانتفاضة) . ومما لا شك فيه أن تحول حركات المقاومة الفردية الفلسطينية إلى حركة واحدة قد أدى إلى إضعاف الإسرائيليين (كوك ، ١٩٩٧ : الفصل الرابع) .

الحرب فى لبنان (١٩٧٥ - ١٩٩٢) :

حتى قبل اندلاع الحرب الأهلية فى لبنان فى ربيع عام ١٩٧٥ ، كان البعض يستشعر أن نشوبها بات أمراً حتمياً . ومرة أخرى ، كان هذا صحيحًا قبل الغزو الإسرائيلى للبنان فى يونيو عام ١٩٨٢ ، كتب كل من السمان وإيتل عدنان (١٩٢٥) أعمالاً أدبية كانت تزخر بالخوف من الحدس أو التوقع ففى كتاب «بيروت ٧٥» (١٩٧٤) ، وهو من تأليف السمان ، نجد أن هناك توقعات بتفجُر الحرب الأهلية بينما تستعرض الرواية سلسلة من الكوابيس . وبعد ذلك بنحو خمس سنوات ، وفى خضم الحرب ، عادت السمان إلى استخدام صيغة الكابوس . ففى روايتها بعنوان «كوابيس

بيروت» (١٩٧٩) ، تنقل القارئ إلى مشاهد الرعب والهلع فى معركة الفنادق ، والتى خاضتها الفصائل المتناحرة ضد بعضها البعض على مدى أسابيع فى خريف عام ١٩٧٦ . والبطلة فى هذه الرواية ، شأن مؤلفتها ، كانت قد حوصرت وتقطعت بها السبل داخل الفيلا التى تقيم بها والتى تقع بين فندق هوليداى إن وفنادق سان جورج ، ومن ثم تحاول أن تجمع معاً خيوط المئات من الذكريات الأليمة التى عاشتها خلال تلك الأيام الدامية . ولاشك أن الكثيرين قد قرأوا رواية «نبوءة عربية» التى كتبتها عدنان فى عام ١٩٨٠ ، وهى تتناول سلسلة من الأحاسيس والهواجس الداخلية التى سبقت الغزو الإسرائيلى للبنان فى عام ١٩٨٢ . والشعر المتقاطع الذى يتداخل مع الرموز والشخصيات نجده مبعثراً ومتناثراً فى كل صفحة مثل الشظايا المتطايرة من قنبلة انفجرت بقوة ، أو مثل الدم المتدفق من الجرح .

ومثلما حدث فى إيران بعد الثورة الإسلامية ، نجد أن حالة الفوضى التى سادت أرجاء لبنان قد أفرزت نهضة أدبية شاركت فيها النساء بنصيب كبير (لويس ويازرنقار ، ١٩٩٦) . وقد ظهرت مدرسة أدبية نسائية فى بيروت خلال الحرب الأهلية ، والتى أصدرت مؤلفات كثيرة تناولت أهوال هذه الحرب وويلاتها وما طرأ على المجتمع اللبنانى من تحولات جوهرية فى ذلك الوقت (كوك ، ١٩٨٨) . بيد أنه أثناء الحرب الأهلية ، قامت النساء المنتميات إلى هذه المدرسة بالعديد من الأنشطة . وأظهر هؤلاء الكاتبات من النساء كيف أن الرجال هم المسئولون عن خلق الأوضاع المروعة التى هددت البلاد فى مرحلة ما بعد الاستقلال ، وهو الاستقلال الذى كان هشًا . وفى روايتها التى تحمل عنوان «حكاية زهرة» (١٩٨٠) ، تحاول الكاتبة حنان الشيخ رصد ومتابعة التطور الذى طرأ على وعى المرأة والتى كانت تتهم دومًا بعدم القدرة على التكيف مع المجتمع . وبينما احتدمت الحرب ، أخذت تبحث عن دور لنفسها ، راحت تقاتل وتناضل بقوة لكى تفعل شيئًا من شأنه أن ينهى على الأقل جزءاً من حالة الجنون التى أصابتها .

الحرب الإيرانية – العراقية :

فى الوقت الذى بلغت فيه الحرب فى لبنان ذروتها ، نجد أنه فى أقصى الشرق استطاعت الثورة الإسلامية فى إيران الإطاحة بالشاه من عرش الطاووس . وحاول

صدام حسين ، الزعيم الجديد فى العراق ، الاستفادة مما كان قد افترض ، وعلى نحو خاطئ ، بأنه حالة من الفوضى التامة التى اجتاحت الجارة إيران . وقد استمرت الحرب التى شنها صدام فى أواخر عام ١٩٨٠ ثمانى سنوات دامية . وشأن العديد من الزعماء، أقام صدام علاقات وثيقة مع النخبة من المفكرين فى بلاده . وكان بحاجة إليهم ، ولهذا كان يخشاهم . وطوال سنوات الحرب ، أملى إرادته وفرض سيطرته على الكتّاب والفنانين الذين لم يختاروا الوقوف إلى جانبه فى تمجيد هذه الحرب وأجبرهم على مغادرة العراق . وأقامت وزارة الثقافة العراقية ندوات ونظمت مهرجانات كان الهدف منها خدمة أغراض الحرب . وصدرت الأوامر المشددة فى هذا الشأن إلى العديد من الكتّاب والمفكرين والتى امتثل لها البعض بينما رفض البعض الآخر الإذعان لها . وفى ظل النظام الصارم للرقابة ، نجح بعض الكتّاب حتى فى تأكيد وإيضاح انتقادهم للحرب التى كانوا قد أيدوها ومدحوها من قبل بعدما أغدقت عليهم الأموال والامتيازات . ومن خلال استخدام أسماء مستعارة واللجوء إلى الأسلوب التجريدى ، نشر هؤلاء الكتّاب مؤلفات وكتب تناولت التجارب المروعة والمريرة التى عاناها الشعب العراقى (كوك ، ١٩٩٧) . ولعله مما يدعو إلى السخرية أن الحكومة الإيرانية كانت تفعل هذه الأشياء ذاتها التى لجأ إليها عدوها ، حيث أخذت ترعى نشر كتب وقصص وروايات وسير ذاتية تدور حول تمجيد الحرب والثناء عليها.

حرب الخليج :

أدى الغزو العراقى للكويت فى الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ ، وحرب تحرير الكويت التى شاركت فيها عدة دول غربية وعربية بقيادة الرئيس الأمريكى جورج بوش الأب ضد العراق فى ١٧ يناير من عام ١٩٩١ ، إلى إصدار العديد من الصحف، والروايات ، والقصص القصيرة العراقية والتى عرفت طريقها ببطء إلى المطبعة . وفى روايتها بعنوان «حواجز سوداء» (١٩٩٤) ، جمعت ليلى العثمان ، وهى من أكثر الكاتبات فى الكويت ، الحرب التى استمرت ثمانية شهور . والأسلوب المستخدم فى هذه الرواية من النوع الغامض ، والذى يعكس الحالة المزاجية والنفسية للكويتيين وللعراقيين على حد سواء . ومن المرجح أن المعدمين والمحرومين والأميين والدهماء الذين أشاعوا الفوضى داخل قصور الأفراد الكويتيين الأثرياء لدى اجتياحهم لهذه القصور ، من المرجح أنهم لم يعرفوا السبب الذى يكمن وراء أعمال النهب والسلب

التى قاموا بها ، ولكن الشىء المؤكد الذى كانوا يعرفونه هو أنهم لم يرغبوا فى العودة إلى بلادهم .

وداخل العراق ، كتب الكثيرون عن الممارسات الوحشية التى ارتكبتها قوات التحالف الدولى ، وعلى الأخص الطيارين الأمريكيين ، والذين ، على ما يبدو ، كانوا يعتبرون أهدافهم العراقية التى كانوا يقصفونها لا تعدو أن تكون مجرد شخصيات كرتونية فى لعبة الفيديوجيم المعروفة باسم «نينتدو» ، وليست أهدافًا لأفراد من الآدميين . وقد واصلت وزارة الثقافة إصدار سلسلة من القصص عن الحرب . ونشرت الشاعرة العراقية المعروفة دنيا ميخائيل قصيدتها التى تحمل عنوان «موجة من خارج البحر» (١٩٩٥) . وبعيداً عن تمجيد هذه الحرب ، وهو أمر قد كان متوقعاً من وراء نص شعرى كهذا صدر بموافقة من الحكومة ، فإن هذه القصيدة تصور عمليات الإبعاد والنفى فى ظل حكم الإرهاب المستمر .

الهجرة والمنفى :

ليس ثمة شك فى أن هناك العديد من الأسباب التى تدفع الإنسان إلى الرحيل عن بلده الذى ولد فيه . ومن بين هذه الأسباب أسباب اختيارية وطوعية تتعلق ، مثلاً ، بالتعليم وفرص العمل فى الخارج . أما الأسباب الأخرى المرتبطة بالتعرض لعمليات الاضطهاد أو القهر السياسى أو العنف فإنها غير طوعية . ومن ثم ، فإن سفر شاب إلى أوروبا ، وهو يحمل فى رأسه الكثير من الآمال والأحلام ، واشتغاله فى أحد الأعمال هناك لفترة من الوقت ، ربما تمتد إلى سنوات ، ثم عودته اليائسة إلى وطنه الأم وما يشعر به من جَراء صدمة العودة هذه ، كل ذلك قد أوحى للعديد من كتّاب الشرق الأوسط ، خلال النصف الأول من القرن العشرين ، بأفكار وموضوعات مثيرة لرواياتهم وكتاباتهم . وكتب الأديب يحى حقى النص الرمزى لهذا النوع من الرحلات ففى روايته «قنديل أم هاشم» (١٩٤٦) ، يتابع الكاتب رحلة إسماعيل من القاهرة إلى لندن ثم عودته إلى القاهرة بعد سبع سنوات من التدريب كطبيب عيون . ويجد هذا الشاب ، الساذج والبسيط ، الذى تعرف على مظاهر الحياة الغربية من خلال سيدة إسكتلندية ، أن وطنه الأم غارق فى البداية والتخلف عن ركب التطور . ومن ثم ، يرفض أساليبه ويبدأ فى إدخال أساليب الطب الغربى والقيم الغربية ويطبقها

على مرضاه المصريين . ولكنه يمر بعد ذلك بتجربة دينية تقوده إلى فهم حقيقة مؤداها أنه لابد أن يعمل على حل التوتر القائم بين أساليب الطب التقليدية والغربية . وقد أشاد النقاد بهذه القصة باعتبارها نموذجاً إسلامياً يبين كيف يصبح المرء عالماً على الطراز أو النمط الغربى وفى الوقت ذاته يمكن المحافظة على قيمه ومثله الأصلية وأن يظل مسلماً تقياً .

وبعد مرور عشرين عاماً ، تناول الأديب السودانى الطيب صالح (١٩٢٩) هذا الموضوع ، ولكن بدون الزاوية الدينية ، وذلك من خلال روايته «موسم الهجرة إلى الشمال» (١٩٦٦) . وهذه الرواية تعكس التحرك الاستعمارى فى القرن التاسع عشر من المدينة إلى المستعمرة إذ يذهب مصطفى سعيد شمالاً (إلى إنجلترا) لتلقى العلم ولكن أيضاً من أجل الثأر . وفى أحيان كثيرة ، كانت قصة سعيد تقارن بقصة عطيل. كما أنها قد وصفت بأنها الرد على الرواية التى كتبها جوزيف كونراد بعنوان « قلب الظلام» ، وبأنها جاءت أيضاً لترد على وصف فرانتس فانون للعقم والخصى لدى الرجل الأسود وهو يواجه امرأة بيضاء (فانون ، ١٩٦٧) . وأثناء دراسته فى لندن ، أقام سعيد علاقات غرامية مع ثلاث سيدات إنجليزيات . وفى كل مرة تنتهى علاقته بكل واحدةٍ من هؤلاء السيدات بوفاتها ، ففى حين أقدمت الأولى والثانية على الانتحار، قتلت الثالثة . ويلقى مصطفى سعيد نفسه حتفه بسبب علاقته مع فتاة قروية جميلة . ومن ثم ، يمكن القول بأن الرواية تعكس فى مضمونها الفكرة التى ناقشها ميمى بشأن الآثار المدمرة بصورة تبادلية للنزعة الاستعمارية على كل من المستعمرين والمستعمرون .

وقد اختار العديد من مفكرى الشرق الأوسط الرحيل عن أوطانهم بعدما شعروا أنه لم يعد باستطاعتهم العيش هناك . وفى أحيان تكون الأسباب والدوافع اقتصادية ، وفى أحيان أخرى تكون سياسية . وعلى مدى ما يربو على قرن من الزمان ، ترك اللبنانيون والمصريون بلادهم متوجهين إلى بلدان أوروبا ، وأمريكا ، وتبعهم حتى وقت قريب جداً ، الأتراك الذين رحلوا إلى ألمانيا بحثاً عن الرخاء الذى لم يكن متاحاً لديهم ، على ما يبدو ، فى أوطانهم بالشرق الأوسط . فى الوقت ذاته ، فإن المواطنين الذين كانوا ضحايا أنظمة الحكم القمعية ، مثل النظام البعثى فى كل مكان من العراق وسوريا والجمهورية الإسلامية فى إيران ، قد لاذوا أيضاً بالفرار من دولهم بحثاً عن

ملاذ آمن حيث يمكنهم التنفس والتحدث فى ظل مناخ من الحرية والأمان . وهكذا تجمع العديد من مفكرى ومثقفى بلدان الشرق الأوسط إما فى لندن أو باريس وهناك أسسوا دور النشر وأصدروا الصحف والمجلات وغيرها من المطبوعات .

وقد عكفت إميلى نصر الله على دراسة وبحث مسألة هجرة مفكرى الشرق الأوسط هذه من منظور لبنانى وذلك من خلال قصتها التى تحمل عنوان «طيور سبتمبر» (١٩٦٢) وهى تحكى عن قرية صغيرة بدأت تفقد حيويتها ونشاطها تدريجياً مع رحيل خيرة شبابها عنها إلى العاصمة وإلى دول الغرب ، فى الوقت الذى كانت تنتظر فيه عودة هذه الطيور المهاجرة إليها يوماً ما للاستفادة من خبراتهم والأموال التى جمعوها فى غربتهم . وقد أرغمتها الحرب فى لبنان هى وآخرين معها على فهم حقيقة أن العودة إلى أرض الوطن كانت ضرباً من المستحيل . وقد حولت الحرب حالة الغموض والارتباك وتجربة النفى والإبعاد التى عاناها هؤلاء الذين ظلوا فى بلادهم إلى غضب عارم ، مما حدا بنصر الله لتوجيه الانتقاد إلى الطيور المهاجرة . فهى ترى أنه ما كان يجب عليهم الرحيل عن وطنهم ، لا أثناء الحرب ولا قبلها . ومن منظور هذه الحرب المدمرة ، فإن مسالة الهجرة كانت ترقى إلى خيانة الوطن والانسلاخ عن الهوية القومية للأمة .

وذهبت نصر الله إلى أبعد من ذلك فى أواخر تلك الحقبة التاريخية حين كشفت النقاب عن حقيقة مفادها أن الهجرة لم تكن سيئة بالنسبة إلى هؤلاء الذين بقوا فى وطنهم بل أيضاً بالنسبة لمن رحلوا عن هذا الوطن وتخلوا عنه وقت الشدة . وهى تؤكد أن الكثيرين ممن تركوا ديارهم بحثاً عن المال والشهرة قد أخفقوا وآل مصيرهم إلى الفشل. والحقيقة أنهم لم يعودوا لأنهم شعروا بالخجل من أنفسهم لعجزهم عن تحقيق أحلامهم . وطوال الحرب التى دامت ١٧ عاماً فى لبنان ، ظلت نصر الله فى بيروت ولم تبرحها ، وكانت تغادرها لفترات قصيرة فقط عندما كانت الأوضاع فيها تسوء وتتدهور إلى درجة خطيرة . وفى عام ١٩٩٤ ، نشرت إميلى نصر الله رواية «جمرات نائمة» وهى الرواية التى قد تناولت أيضاً قضية الهجرة . وتقول إميلى إن هؤلاء الأشخاص الذين رحلوا عن الوطن . لا يجب أن يعودوا إليه لأنهم إذا عادوا ، فإنهم يقضّون مضاجع أناس أبرياء مسالمين ويفسدون حياتهم الهانئة الهادئة من خلال نزوعهم إلى سرد قصص وحكايات من الماضى تثير الآلام والأوجاع .

وهذه فى الحقيقة مشكلات صعبة ، لأنه على الرغم من أن الهجرة عملية اختيارية وتتم بمحض إرادة المرء نفسه ورغم أن المنفى قد يفرض عليه ولا اختيار فيه، إلا أن هناك أوقات يكون فيها الوضع فى موطن الفرد مؤلماً وسيئاً للغاية إلى حد لا يمكن احتماله . فكيف يمكن للمرء أن يرسم خطاً فاصلاً بين ما يمكن وما لا يمكن احتماله ؟ . فبعد الاجتياح الإسرائيلى للبنان ، لوحظ أن بعض الكتّاب الذين كانوا قد عقدوا العزم على البقاء فى ديارهم والتصدى لمحاولات طردهم منها ، بدأوا بعد ذلك فى الانتقال إلى أماكن أخرى . فعلى سبيل المثال ، استقرت الكاتبة غادة السمان فى باريس حيث تواصل كتاباتها الآن عن تجربة العيش فى بلد غير عربى ولكن مع الاحتفاظ بالأحلام العربية .

وقد أدت الاضطرابات السياسية المختلفة فى الشرق الأوسط إلى أن يترك العديد من الكتّاب أوطانهم دون أن يراودهم أى أمل فى العودة . وقد سبق أن تطرقنا إلى مناقشة موقف الفلسطينيين الذين اختاروا البقاء فى وطنهم . ومع هذا ، كان هناك كثيرون ممن اختاروا الرحيل أو أرغموا عليه . وعاش كثيرون من هؤلاء ، ومازالوا يعيشون كلاجئين فى مخيمات أقيمت حول الحدود الإسرائيلية أو فى البلدان المجاورة، وهم ينتظرون على أمل انتهاء المنفى والعودة إلى ديارهم التى تركوها .

والحقيقة أن القرن العشرين قد أصبح قرن الهجرة الجماعية ، ولذا فإن قصة الشخص المشرد قد باتت تجسيداً حيًا لمحنة العولمة : فمن المستحيل أن يعيش المرء فى وطنه ، ومن المستحيل كذلك يحيا خارجه . والكاتب غسان كنفانى (١٩٣٦ - ١٩٧٢) ، واحد من هؤلاء اللاجئين الذين نزحوا إلى بيروت . وتعد روايته «رجال تحت الشمس» والتى كتبها عام ١٩٦٣ ، رؤية خيالية لزماننا المعاصر حيث يستكشف من خلالها النتائج المحتملة إذا ما اختار المرء الرحيل عن وطنه والبحث عن ملاذ آمن له فى دولة عربية . وتدور هذه الرواية حول ثلاثة رجال عهدوا إلى مرشد فلسطينى إرشادهم وتوجيههم فى جولة رافقهم خلالها عبر الصحراء التى تفصل بين العراق والكويت . وهكذا وعدهم هذا المرشد باصطحابهم فى شاحنة للقيام بهذه الجولة مقابل حصوله على مبلغ من المال . وعندما أوشك هؤلاء على الانتهاء من جولتهم ، توقف السائق الفلسطينى عند نقطة حدودية . ويصاب الرجال الثلاثة بالاختناق الشديد فى شمس الصحراء الحارقة بعدما ظلوا مختبئين مؤقتًا داخل صهريج مياه

فارغ فى الشاحنة . وتحكى هذه الرواية قصة جميع المضيفين اللاجئين والذين سرعان ما يميلون ويضيقون ذرعًا بضيوفهم الذين يقضون لديهم فترات طويلة وينتهى بهم الحال إلى الإساءة إليهم على هذا النحو .

وقد كتب جبرا إبراهيم جبرا (١٩١٩ - ١٩٥٩) ، والذى ترك فلسطين إلى العراق وعاش متنقلاً فيما بعد فى شتى أرجاء المنطقة ، عدة روايات والتى تدور كلها حول حياة الفلسطينيين المشردين . وربما كان أهم أعماله على الإطلاق رواية «البحث عن وليد مسعود» (١٩٧٨) ، والتى يحاول الكاتب من خلالها التقريب بين هؤلاء الذين قد اختاروا الكتابة عن مواقفهم وأوضاعهم وهؤلاء الذين قرروا النضال من أجل تغييرها . ومن ثم ، يسعى هؤلاء جميعاً لبحث : أفضل السبل للدفاع عن قضيتهم .

وبعد اندلاع الثورة الإسلامية فى إيران ، ثم خلال الحرب مع العراق (١٩٨٠ - ١٩٨٨) ، فر العديد من الإيرانيين من بلادهم . وهم مبعثرون الآن فى أنحاء أوروبا وأمريكا الشمالية ، حيث يكتب بعضهم الآن بلغات أوطانهم الجديدة ، وإن كان كثيرون منهم مازال يكتب بالفارسية . ومن بين هؤلاء الذين يكتبون بالفارسية مهشر أمير شاهى (١٩٣٧) ، والتى كتبت رواية «فى الوطن» (١٩٨٦) ، وأيضاً روايتها الأخيرة بعنوان «بعيداً عن الوطن» (١٩٩٨) . ومن بينهم جولى تراكى ، التى ، تعيش فى باريس . وفى عام ١٩٩٢ ، نشرت تراكى رواياتها «ذكريات مبعثرة» وهى مجموعة من القصص عن آلام المنفى . وعلى غرار ما فعلت نصر الله ، تكشف تراكى فى هذه الرواية حقائق ووقائع مؤلمة عن حياة هؤلاء الذين رحلوا عن بلادهم وهاجروا إلى الخارج وكتب أنهم لا يقدرون حتى على توفير المأوى لأقاربهم . وتحرص تراكى على تذكير القارئ بأن المنفى يعنى ترك الوطن الطبيعى ، أو بالأحرى الوطن الأم ، حيث الخصوصية والاستقلالية والحكم الذاتى ، ولكنه يعنى أيضًا الإذلال والمهانة لأنه يفرض على المرء الاعتماد على الآخرين . أما الكاتبة شهرنوش باريسبور ، وهى من أكثر الكتابات شهرة ، والتى حظرت حكومة الجمهورية الإسلامية روايتها «نساء بلا رجال» (١٩٨٩) ، فهى تعيش الآن فى كاليفورنيا حيث كتبت رواية «حفل شاى فى حضور الذئب» (١٩٩٣) . وهذه المجموعة من القصص القصيرة تعالج الإحساس بالخسارة الفادحة واستنكار وإدانة الترحال الدائم الذى يعد سمة لتجربة المنفى .

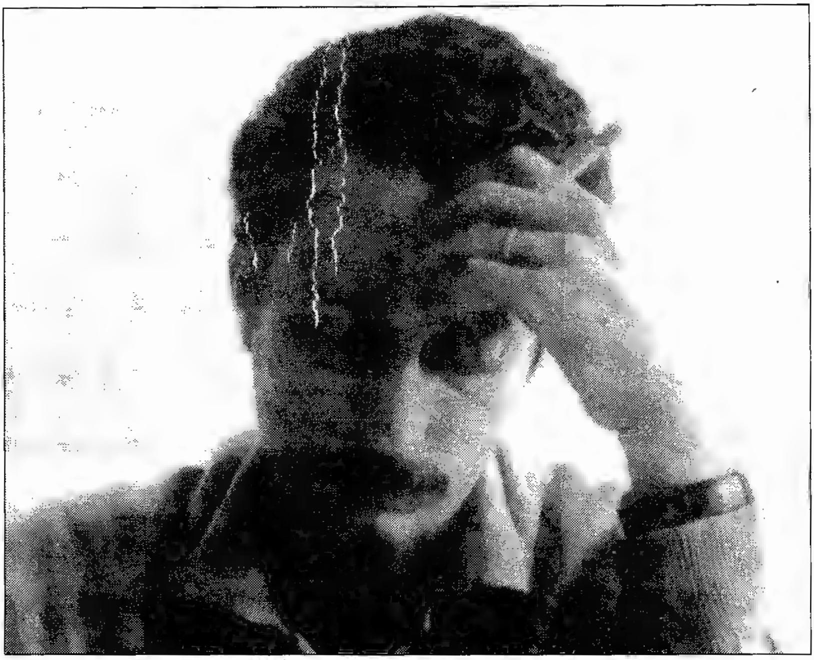

صورة (٣ : ١٢) الكاتب الفلسطيني غسان كنفاني الذى قُتل فى انفجار سيارة ملغومة فى بيروت عام ١٩٧٢

وهؤلاء الكُتّاب الذين يكتبون فى منفاهم غالبًا ما يشعرون بأن المسافة التى تفصلهم عن أوطانهم أبعد بكثير من تلك الأميال التى تقاس بها هذه المسافة . وشأنهم شأن الجزائريين الذين رحلوا عن بلادهم أثناء حرب الاستقلال ، فإنهم يشعرون بأنه يجب عليهم القتال جنباً إلى جنب مع هؤلاء المفكرين الذين اختاروا البقاء مهما كان الثمن . ومع ذلك ، وفى ظل عالم باتت حدوده مفتوحة على نحو متزايد ، وحيث أصبحت الهجرة جزءاً ضرورياً فى حياة العديد من الأشخاص ، بدأ نوع جديد من القومية الثقافية يظهر بوضوح والذى يسمح لهؤلاء الذين يعيشون بعيداً عن الوطن الذى شهد مولدهم بالاحتفاظ بأواصر وعلاقات وروابط الهوية الحقيقية . وهكذا ، نجد أن المؤسسات الأدبية واتحادات الكُتّاب بدأت تعترف الآن ، وإن يكن بشكل بطىء ، بأعضائها من الكُتّاب الذين يعيشون فى دول أخرى بعيداً عن أوطانهم . ويعتبر

الكاتب التركى حبيب بكتاس (١٩٥١) مثالاً جيداً على ذلك . فمنذ عام ١٩٧٢ وهو يعيش ويكتب فى ألمانيا . وفى عام ١٩٩٧ ، فازت روايته بعنوان «رائحة الظل» بالجائزة السنوية الأدبية التى تمنحها مؤسسة «انقلاب كتابيفى برس» . وكانت هذه هى المرة الأولى التى تمنح فيها مثل هذه الجائزة الأدبية إلى كاتب تركى غير مقيم فى بلاده . وقد برر بكتاس تمسكه بهويته التركية وقوميته قائلاً إنه على الرغم من إقامته خارج تركيا ، إلا أنه يعيش ويحيا فى غربته باللغة التركية . وهذا التمسك باللغة القومية للوطن الأم استراتيجية يحرص على تبنيها العديد من الكُتّاب فى المنفى.

الدولة الإسلامية :

ليس ثمة شك فى أن بوادر ومقدمات الثورة الإسلامية فى إيران كانت واضحة للعيان قبل أن تتفجر هذه الثورة . فقد أخذت تتردد بالفعل على ألسنة الإيرانيين أسماء كُتّاب معروفين من أمثال الأحمد ودانشوار ، واللذان بدا أن كتاباتهما فى أواخر الستينيات كانت تدعو إلى إصلاح مجتمع أصبح غارقًا ومنغمساً إلى حد كبير فى مظاهر الحياة الغربية . وهناك نبرة إسلامية صريحة فى الأعمال الأدبية لهذين الكاتبين . وقبل سنتين من اندلاع الثورة الإسلامية ، كتبت باريسبور روايتها «حرارة السنة صفر» . وفى هذه الرواية ، تنبأت الكاتبة بما يخبئه النظام الجديد فى جعبته للنساء ووضعهن فى المجتمع الجديد ، وذلك من خلال التركيز على وصف بطلة الرواية وما أصيبت به من اختناق شديد من جراء حرارة الصيف وما عانته أيضاً من متاعب بسبب الحظر الذى فرضته السلطات على ظهور النساء فى الأماكن العامة والاختلاط بين الجنسين .

وفى الأيام الأولى على قيام الثورة ، انشغلت الحكومة الإسلامية فى إيران ، وعلى نحو يشبه إلى حد كبير ما كانت تفعله الحكومة السابقة فى عهد الشاه ، بمسألة الإنتاج الفكرى والثقافى . إذ إنها حرصت على فرض رقابة صارمة على أية مطبوعات أو مؤلفات أو أعمال أدبية تعتبر أنها تتعارض والمصالح الإسلامية للثورة . ومن ثم ، يمكن القول بأن قضية الكاتب سلمان رشدى قد دخلت سجلات التاريخ العالمى. وأذعن بعض الكتاب لإرادة الحكومة فراحوا يكتبون عن فضائل الثورة الإسلامية

ويشيدون بإنجازاتها . أما البعض الآخر ، ومعظمهم من النساء ، فأخذوا يحتجون على القيود الجديدة التى فرضتها الثورة ، ومن أبرز هؤلاء الكاتبة أ ز رحمانى التى كتبت رواية بعنوان «صعود قصير» والتى تصور لحظة تحدى مشوبة بالتوتر الشديد بين أحد الحرس الثورى الإسلامى وتلك السيدة التى راح يعنفها ويوبخها بشدة لأنها كشفت عن خصلة فى شعرها . وقد أشار ميلانى إلى أنه فى فترة السنتين القصيرتين التى تمتد بين ١٩٨٣ ، عندما فرضت الحكومة على النساء ارتداء الحجاب ، وعام ١٩٨٥ «صدر حوالى ١٢٦ كتاباً بأقلام نسائية أو بأقلام الرجال عن المرأة فى إيران» . وقد أرغمت هذه القيود النساء على التعبير عن آرائهن بجرأة (ميلانى ، ١٩٩٢) .

وكما استعرضنا فى الفصول السابقة ، فإن دعوة المسلمين إلى إقامة دولة إسلامية لم تقتصر على إيران وحدها . فبعد إلغاء نظام الخلافة الإسلامية العثمانية فى عام ١٩٢٤ وتحول تركيا فى مرحلة لاحقة إلى النظام العلمانى ، انتابت مشاعر الغضب والتوتر المسلمين فى أماكن أخرى من الشرق الأوسط . وكان هذا صحيحًا ، على الأخص ، فى مصر ، حيث تأسس أول اتحاد رسمى للثوريين فى عام ١٩٢٩ . وتم تشكيل جماعات واتحادات مماثلة أخرى ، ولا يزال العديد منها فعالاً ونشطًا حتى يومنا هذا فى العديد من دول الشرق الأوسط. وأصبح الظهور المتزايد لهذه الجماعات والاتحادات فى الحياة العامة أحد الموضوعات الرئيسية فى عالم الأدب اعتباراً من السبعينيات فصاعداً . وفى عام ١٩٧٧ ، وخلال فترة أمضاها فى منفاه فى ألمانيا ، نشر الكاتب المصرى «عبد الحكيم قاسم» (١٩٣٥ - ١٩٩٠) رواية تتناول قصة تحول صانع مظلات قبطى فقير إلى الإسلام واعتناقه الدين الإسلامى . وتستعرض هذه الرواية ، والتى تحمل عنوان «المهدى» ، العداوات الجديدة التى نشأت بين المسيحيين والمسلمين ، والذين اعتادوا على العيش معًا فى سلام ووئام . كما تكشف الرواية عن الفجوة العميقة القائمة بين الشبان المسلمين وغيرهم من المسلمين المتشددين فى المناطق الريفية فى مصر .

والحقيقة أن الإسلاميين قد لعبوا أدواراً متناقضة فى تاريخ دولهم وسياساتها . ففى مصر ، على سبيل المثال ، ساعدوا فى وصول زعماء مثل جمال عبد الناصر إلى سدة الحكم ، إلا أنهم قد سعوا أيضًا إلى الإطاحة بمثل هؤلاء الزعماء . وخلال منتصف الستينيات ، أمر ناصر باعتقال العديد من الزعماء المسلمين . والسنوات التى أمضاها

هؤلاء فى غياهب السجون والمعتقلات قد أفرزت العديد من التراجم والسير الذاتية ، والتى ربما كان أهمها وأكثرها إثارة السيرة الذاتية لزينب الغزالى (١٩١٢) . ومنذ عام ١٩٣٥ ، ظلت هذه السيدة تتولى رئاسة اتحاد السيدات المسلمات ، وكانت على صلة وثيقة آنذاك بجماعة الإخوان المسلمين . وفى عام ١٩٦٥ ، تم اعتقالها وأودعت السجن الحربى مع زملائها من الرجال . وقد استلهمت من تجربة السجن هذه والتى استمرت عاماً كاملاً فكرة كتابها «أيام من حياتى» (١٩٧٧) . ويتناول هذا الكتاب تفاصيل مثيرة عن أشكال التعذيب والممارسات المروعة داخل السجن وما تعرضت له الكاتبة نفسها وألوان التعذيب الجسدى والنفسى . وهذه السيرة الذاتية للكاتبة يمكن قراءتها أيضًا باعتبارها نموذجًا للنساء الشابات اللائى يبحثن عن الهداية والتوجيه طوال مسيرة حياتهن بينما يحاولن الربط بين أدوارهن ، وكما حددها لهن الدين ، كإماء وعابدات لله وأدوارهن كزوجات وكأمهات .

وفى عام ١٩٨١ ، اغتالت مجموعة من الإسلاميين الرئيس المصرى أنور السادات، والذى اتهموه بالخيانة بسبب توقيعه معاهدة صلح مع إسرائيل فى إطار اتفاقيات كامب ديفيد . ومع ذلك ، فإن الجماعات الإسلامية لم تجعل أهدافها مقصورة على الزعماء السياسيين . وكما رأينا فى الجزائر فى التسعينيات ، أخذ الإسلاميون يركزون اهتمامهم بصورة متزايدة على المفكرين والمثقفين المهتمين بالعلمانية وبإفساد أخلاقيات الناس . وفى عام ١٩٩٢ ، اغتال أصوليون مصريون الكاتب العلمانى فرج فودة بسبب انتقاداته الدائمة لمسلكهم ولعل ما أثار غضبهم وانزعاجهم أكثر من انتقاده لنهجهم هو نشره كتاباً بعنوان «قبل السقوط» فى عام ١٩٩٢ . وفى صيف ذلك العام ، نشر الإسلاميون كتاباً يتضمن وقائع محاكمة للكاتبة العلمانية نوال السعداوى والذى يحمل عنوان «نوال السعداوى فى منصة الشهود» . والواقع أن هذا الكتاب ، الذى ظهرت على غلافه صورة لهذه الكاتبة ذات الشعر الأبيض وهى تقف خلف قضبان السجن ، قد جرى توزيعه على نطاق واسع إلى درجة أنه كان يمكن العثور على نسخ منه لدى باعة الكتب على الأرصفة فى شوارع القاهرة ، لا سيما وأن ثمنه كان زهيداً ولا يتعدى بضعة قروش . وفى السياق ذاته ، فإنه لابد من الإشارة هنا إلى أن أصداء وردود الفعل الناجمة عن فتوى الإمام الراحل آية الله خومينى فى إيران فى ١٤ فبراير ١٩٨٩ بإهدار دم الكاتب سلمان رشدى

لنشره روايته المثيرة للجدل «آيات شيطانية» ، كانت قوية بحيث لم يكن من الممكن تجاهلها . وهكذا نجد أن الرقابة الأخلاقية على الأدب والإنتاج الفكرى قد تصاعدت لتصل إلى معاقبة الكُتَّاب بالموت. بيد أن الكاتبة نوال السعداوى لم تكترث بمثل هذه التهديدات بالموت والتى اعتادت أن تتلقاها بين الحين والآخر من الحكومات أو الجماعات الإسلامية . وعندما أرسلت الحكومة ، والتى قامت باعتقالها لبضعة أشهر أثناء حكم السادات ، حرسًا لحراسة شقتها ، أدركت أنه كان يتعين عليها مغادرة البلاد. ومن ثم ، ذهبت إلى جامعة ديوك فى ولاية كارولينا الشمالية بالولايات المتحدة حيث أمضت معظم سنواتها الأربع هناك فى كتابة سيرتها الذاتية .

صورة (٤ : ١٢) المشاركون فى تشييع جنازة الكاتب فرج فودة الذى اغتيل فى عام ١٩٩٢.

وصدر الحكم بتوقيع عقوبة الإعدام على نوال السعداوى بسبب نشر كتابين لها . الأول بعنوان «سقوط الإمام» (١٩٨٧) ، والذى يتناول قصة اغتيال أعلى سلطة فى الأرض ، وذلك فى إشارة ضمنية إلى اغتيال السادات ، كما يروى تفاصيل ملاحقة وإعدام الشخص الذى قام باغتياله، والثانى بعنوان «براءة الشيطان» (١٩٩٢)، وهو قصة تدور أحداثها فى مستشفى للأمراض النفسية حيث يتخيل أحد المرضى نفسه فى صورة الله ، بينما يتصور الآخر نفسه فى شكل إبليس ، وهى كلمة عربية تعنى الشيطان .

وخلافاً للأعمال السابقة لنوال السعداوى ، والتى لعبت فيها النساء دور الضحية، فإن أحدث روايتين صدرتا مؤخراً للكتابة تستكشفان الطرق والأساليب التى تقاوم النساء من خلالها ، اللائى نشأن وتربين فى ظل ديانات تؤمن بوحدانية الله الخالق ، واستبدادية وتعسف المجتمع .

الترجمة والاعتراف الدولى بأدب الشرق الأوسط :

وختاماً ، من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن الأدب فى الشرق الأوسط يدخل الآن الاتجاه الرئيسى السائد فى حركة الأدب العالمي . حيث كان عقد الثمانينيات عقد الترجمة والاعتراف الدولى بالأدب فى الشرق الأوسط . ففى عام ١٩٨٨ ، أصبح نجيب محفوظ ثانى كاتب شرق أوسطى يفوز بجائزة نوبل فى الأدب ، حيث سبقه إليها الكاتب الإسرائيلى شمويل يوسف أجنون (١٨٨٨ - ١٩٧٠) فى عام ١٩٦٦ . وفى عام ١٩٨٩ ، حصل الكاتب المغربى طاهر بن جلون على جائزة الجونكورت ، وهو أول عربى يفوز بهذه الجائزة الفرنسية الرفيعة . وفى عام ١٩٩٧ ، نال الكاتب التركى كمال جائزة تومينو الأدبية التى تعتبر أرفع وأهم جائزة أدبية فى إيطاليا .

فى الوقت ذاته ، ترجمت روايات وأعمال أدبية عربية ، وعبرية ، وفارسية ، وتركية إلى لغات أوروبية . وفيما مضى ، كانت عملية الترجمة تتسم بإضفاء الطابع الشخصى عليها ؛ فقد ظهرت أعمال عشوائية كانت تتوافق والأذواق الفردية للمترجمين الذين قاموا بترجمتها . وبحلول أواسط الثمانينيات ، برغم ذلك ، أصبحت عملية الترجمة أكثر موضوعية وتنظيماً ، وعلى الأخص بالنسبة إلى الأعمال العربية. وفى عام ١٩٨١ ، قامت الشاعرة والناقدة الأدبية الفلسطينية سلمى خضراء الجيوشى بتأسيس مشروعها الخاص بالترجمة من اللغة العربية (PROTA) فى الولايات المتحدة. وفى البداية ، وجدت هذه الترجمات ، التى صدرت فى إطار هذا المشروع ، طريقها إلى دور نشر هامشية تنشر أعمالاً لكتّاب من الجنوب وفى أواخر الثمانينيات ، على أى حال ، فإن دور النشر الرئيسية الأوروبية ، والأمريكية ، وحتى اليابانية ، ومن بينها بعض الدور الجامعية التى أولت اهتمامها للأعمال الأدبية الشرق أوسطية باعتبارها كتباً مدرسية محتملة ، بدأت فى تبنى هذه الأعمال الأدبية ، بل وتبنت أيضاً مؤلفات وأعمال مؤلفين وكتّاب شرق أوسطيين .

ولا شك أن النمو الذى شهدته صناعة الترجمة ينطوى على أهمية بالغة بالنسبة إلى قراء أصبحت لديهم الآن القدرة على الوصول إلى التركيبة الثقافية والفكرية لأشخاص كانوا قد عرفوهم فيما سبق من خلال حكايات وقصص الباحثين والمسافرين فقط . وعلاوة على ذلك تعتبر صناعة الترجمة على قدر كبير من الأهمية بالنسبة إلى الكتّاب ، ولاسيما هؤلاء الذين سبق لهم أن نالوا نصيباً من الشهرة والتقدير

لأعمالهم فى الخارج . إذ إنهم يكتبون وهم على وعى تام بأن أعمالهم سوف تترجم إلى لغات أجنبية، وأن ما يقولونه عن ثقافتهم يصل إلى نطاق أوسع يتجاوز حدود قاعدتهم العريضة من القراء المحليين الذين كانوا يستهدفونهم فى الأصل . وهكذا ، فإن الكتابة على هذا النحو كانت تنطوى على عواقب لابد من توقعها ووضعها فى الحسبان . وينبغى أن تصبح عملية النقد الذاتى كما وصفه الناقد الأولى المغربى عبد الكبير خطيبى بأنه «نقد مزدوج» . وهذا النقد المزدوج يعمل على تغيير الطريقة التى يفكر ويكتب بها الناس ، وهذا النمط المتغير للكتابة يفرز بدوره أذواقًا جديدة ويخلق أسواقًا جديدة . وهكذا ، فإن كتّاب الشرق الأوسط الذين يتطلعون بأنظارهم إلى القرن الحادى والعشرين يرون أن عملهم بات جزءاً من مشروع عالمى سوف يضطلعون فى إطاره بدور مرئى بصورة متزايدة .

ملاحظات :

أود أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى جوفين جوزيلدير لما قدمه من معلومات ، ونصائح قيمة ، وحوارات مثيرة حول الأدب التركى . كما أوجه الشكر الحار إلى محمد توكلى طارغى لقراءته الدقيقة والمتأنية للنسخة قبل الأخيرة لهذا الفصل ولاقتراحاته الرائعة.

١- يشير ميمى إلى أنه خلال الفترة بين ١٩٤٧ و ١٩٨٦ ، نشرت الكاتبات الجزائريات ٣٧ رواية وقصة قصيرة (ميمى ، ١٩٨٧ : ٦) .

٢- نشرت الكاتبة المصرية نوال السعداوى سيرتها الذاتية ، لأول مرة ، والتى تحمل عنوان «أوراق .. حياتى» فى عام ١٩٩٥ ، فى مجلة المصور المصرية التى توزع فى شتى أرجاء العالم العربى .

المصادر :

١- ساجدة علوى : «كتابات علوى من داخل السجن (الأربعينيات)» صفحات ٢٧٤ - ٢٩١ فى كتاب توماس . م . ريكس «الجوانب النقدية فى الأدب الفارسى المعاصر» - واشنطون دى سى - مطبعة القارات الثلاث - ١٩٨٤ .

٢- مصطفى بدوى : «الأدب العربى الحديث» - كمبريدج - مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٩٢ .

٣- ميريام كوك : «الأصوات الأخرى للحرب : الكاتبات اللبنانيات وآرائهن حول الحرب الأهلية» - كمبريدج - مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٨٨ .

* «النساء وقصة الحرب» - بيركلى - مطبعة جامعة كاليفورنيا - ١٩٩٧ .

٤- هايدى دارجهى : «تشكيل القصة القصيرة الفارسية الحديثة» - الصفحات ١٠٤ - ١٢٣ فى كتاب توماس . م . ريكس «الجوانب النقدية فى الأدب الفارسى المعاصر» - واشنطون دى سى - مطبعة القارات الثلاث - ١٩٨٤ .

٥- فرانتس فانون : «البشرة السوداء والأقنعة البيضاء» - نيويورك - مطبعة جروف - ١٩٦٧ .

٦- صبرى حافظ : «القصة القصيرة العربية الحديثة» - الصفحات ٢٧٠ - ٣٢٨ فى كتاب مصطفى بدوى : «الأدب العربى الحديث» - كمبريدج - مطبعة جامعة كمبريدج - ١٩٩٢ .

٧- طلعت سيد هلمان : «الدراما التركية الحديثة : مقتطفات من مسرحيات أدبية مترجمة» - مينابوليس - المكتبة الإسلامية - ١٩٨٢ .

٨- مايكل هلمان : «التراث الأدبى للأحمدى» - ١٩٨٤ - الصفحات ٣٣١ - ٣٤٢ فى كتاب توماس . م . ريكس «الجوانب النقدية فى الأدب الفارسى المعاصر» - واشنطون دى سى - مطبعة القارات الثلاث .

٩- سلمى خضراء الجيوشى : «الشعر الحديث فى الأدب العربى» ١٩٩٢ - الصفحات ١٣٢ - ١٧٩ فى كتاب مصطفى بدوى : «الأدب العربى الحديث» - كمبريدج - مطبعة جامعة كمبريدج .

١٠- فرانكلين لويس ويازدنفار فارزين : «في صوتهن الواحد : مجموعة قصص لكاتبات إيرانيات منذ ثورة ١٩٧٩» - كوستاميسا - كاليفورنيا - مازدا - ١٩٩٦.

١١- ألبرت ميمي : «المدخل إلى القصة القصيرة في المغرب» - باريس ناثان - ١٩٨٧ .

١٢- فارزاني ميلاني : «الحجاب والكلمات : الأصوات الجديدة للكاتبات الإيرانيات» - سيراكيوز - مطبعة جامعة سيراكيوز - ١٩٩٢ .

١٣- حشمت مؤيد : «قصص من إيران : مقتطفات أدبية من شيكاغو ١٩٩٢ - ١٩٩١» - واشنطون دى سى - ماج ١٩٩١ .

١٤- عفصاني نجم عبادي : «خلق ربة بيت متعلمة في إيران» - ١٩٩٨ - الصفحات ٩١ - ١٢٥ من كتاب ليلى أبو لغد «إعادة صنع النساء : الحركة النسائية والنزعة العصرية في الشرق الأوسط» - برينستون - مطبعة جامعة برينستون - ١٩٩٨.

١٥- توماس ريكس : «الجوانب النقدية في الأدب الفارسي المعاصر» - واشنطون دى سى - مطبعة القارات الثلاث - ١٩٨٤ .

١٦- ساسون سومينج : «الشعراء العرب الكلاسيكيون الجدد» - ١٩٩٢ - الصفحات ٣٦ - ٨١ في كتاب مصطفى بدوي : «الأدب العربي الحديث» - كمبريدج - مطبعة جامعة كمبريدج .

١٧- محمد توكلى طارغي : «إعادة تشكيل إيران : اللغة والثقافة في الثورة الدستورية» - مجلة الدراسات الإيرانية ٢٣ - ٧٧ - ١٩٩٠ .

* «مقابلة أجراها المؤلف» ساوث بيند ، إنديانا - فبراير - ١٩٩٩ .

١٨- ليون يودكين : «١٩٤٨ وما بعده : جوانب من الأدب الإسرائيلي» - مانشستر - مطبعة جامعة مانشستر - ١٩٩٩ .

-١٣-
اتجاهات واحتمالات

ديبورا .ج. جيرنر

كما تبين لنا من الفصول السابقة ، يعتبر الشرق الأوسط منطقة متنوعة تزخر بجوانب القوة والإنجازات المهمة ، مثلما تزخر أيضاً بالتحديات المعقدة والصعبة . وليس ثمة شك أن تاريخ هذه المنطقة الطويل كمفترق طرق للعديد من الجماعات العرقية واللغوية، ووجود مخزونات ضخمة من البترول تحت رمالها الصحراوية ، وأهمية أرضها بالنسبة إلى الديانات السماوية الثلاث ، والأشكال المختلفة للهيكل السياسى فى المنطقة ، والعلاقات المتشابكة والمعقدة فى إطار السياسة الخارجية لمنطقة الشرق الأوسط فيما بين دولها وبين هذه المنطقة وبقية المجتمع الدولى ، لا شك أن هذا كله من بين العوامل التى تجعل الشرق الأوسط ذا جاذبية وسحر لا نهاية لهما بالنسبة إلى الطلبة والباحثين فى مختلف مجالات العلم .

والحقيقة أن الكثير مما ناقشناه فى هذا الكتاب يرجع إلى حقبة زمنية ماضية حيث ركز بحثنا على اقتفاء تلك البصمة الواضحة التى تركتها منطقة الشرق الأوسط على العالم وكذلك البصمة التى تركها العالم على ما يربو على العشرين من دول المنطقة . وفى هذا الفصل الأخير ، نستشرف معاً آفاق المستقبل ونبحث عدة تحديات خطيرة تواجه إسرائيل ، وإيران ، وتركيا ، والعالم العربى فى القرن الحادى والعشرين وما بعده . ومن بين أبرز هذه التحديات والمشكلات ؛ تلك التى تتعلق بدور الثقافة والدين فى تشكيل المجتمع ، والحاجة الماسة إلى التنمية الاقتصادية ، والتراث الذى خلفته الحقبة الاستعمارية الأوروبية ، والحاجة إلى المسئولية المتزايدة لدى الحكومات الشرق أوسطية .

فهم الشرق الأوسط المعاصر :

فى تقديمهما للطبيعة الجغرافية لمنطقة الشرق الأوسط فى الفصل الثانى ، يعرض العالمان الجغرافيان إيان .ر. مانرز وباربرا ماكين الوصف التالى :

«الطرق التى ترتبط من خلالها المياه بالسياسة ، والاقتصاد ، والدين ، والطرق التى تتشكل من خلالها المدن اعتماداً على (الاتصالات التجارية العالمية ، والتجارب الاستعمارية ، وهجرة الأيدى العاملة ، وتدفقات رأس المال) ، والممارسات المحلية ، والطرق التى من خلالها تتحرك الأجناس البشرية ، والمياه ، والبضائع ، والأموال ، والأفكار عبر الحدود السياسية ... ، والطرق التى من خلالها يمكن أن يكون الماضى حاضراً فى عقول وأذهان الناس وفى التفسيرات الصحيحة وغير الصحيحة لحكايات وقصص الأماكن» .

ويتضح من مناقشاتها أن هناك عدداً لا حصر له من الخرائط الذهنية المختلفة للشرق الأوسط ، والتى لا تتحدد معالمها من خلال الحدود الجغرافية للدول فقط ، بل أيضًا من خلال التاريخ ، والتفاعلات الاقتصادية ، والأنماط الثقافية ، والموارد الطبيعية، ناهيك عن عوامل ومقومات أخرى كلها مهمة إذا ما أردنا فهم هذه المنطقة ومعرفة طبيعتها .

وعلى النقيض من الوصف الغنى الذى قد عرضه مؤلفو هذا الكتاب ، نجد أن العديد من الأوروبيين والأمريكيين مازالوا ينظرون إلى الشرق الأوسط على أنه «الشرق الدخيل» ، والذى أشار إليه الكاتب إدوارد سعيد فى كتابه الذى صدر عام ١٩٧٩ بعنوان «الاستشراق» حيث يقول الكاتب إن منطقة الشرق الأوسط تعتبر متخلفة ثقافياً وغير متقدمة إذا ما قورنت بأوروبا ، ولا سيما وأن هذه المنطقة مازال يوجد فى العديد من دولها مؤسسات سياسية فوضوية وغير ديمقراطية والتى تعد فى مرتبة أدنى بكثير من مثيلاتها «فى الغرب» ، كما أنها تتميز بأن الديانة الإسلامية هى المهيمنة لدى دولها وشعوبها ، وبوجود مجتمعات مسيحية ويهودية تعتبر مختلفة تماماً عن غيرها من المجتمعات من المجتمعات المسيحية واليهودية فى أوروبا . والواقع أن هذا الموقف الذى تبناه الكاتب إزاء الشرق الأوسط موقف ينم عن التحيز الواضح للغرب وثقافته . فليس بالضرورة أن يصبح الشرق الأوسط نسخة من الولايات المتحدة أو أوروبا أو كندا .

وبمجرد أن نتوقف عن تحليلنا للشرق الأوسط بالنسبة إلى ما لا ينبغى أن يكون عليه والنظر إليه ، بدلاً من ذلك ، على أساس ما هو عليه بالفعل ، فسوف ندرك حقيقة أن هذه المنطقة المهمة والاستراتيجية من العالم تزخر بالأراضى القديمة والمقدسات الدينية ، وتحفل بالإنجازات العظيمة وأيضًا بالصعوبات والتحديات الخطيرة ، ومن هذه الجوانب تعتبر منطقة الشرق الأوسط متميزة عن غيرها من مناطق العالم . وهى أيضًا منطقة غنية بتراثها الثقافى ، وهو الجانب الذى تطرقت إليه بالتفصيل ميريام كوك فى الفصل السابق الذى تناول النهضة الأدبية فى دول المنطقة ، ولاسيما الأدب العربى ، والتركى ، والفارسى ، والعربى . وفى الفصل نفسه، تبين كوك الطرق التى لا تعد ولا تحصى والتى من خلالها «قد صارت آداب الشرق الأوسط مجالات متميزة تستحق التسجيل وترتبط بالعديد من التوترات والصراعات الاجتماعية والسياسية» ، وعلى الأخص تلك التى ترتبط بالاستقلال وحركات النضال بعد الحقبة الاستعمارية .

وبسبب تورطها الاستعمارى فى الشرق الأوسط وقربها الجغرافى منه ، نلاحظ أن نظرة أوروبا إلى أدب الشرق الأوسط ، وفنونه ، وفلسفته كان لها تأثير كبير على الإدراك الذاتى لدى أوساط النخبة فى الشرق الأوسط . فحتى وقت قريب نسبياً ، نجد أن معظم المفكرين والمثقفين فى الشرق الأوسط ، ومعظم أبناء الزعماء السياسيين، قد تلقوا تعليمهم فى أوروبا أو أمريكا الشمالية . وحتى داخل المنطقة ذاتها ، فإن المؤسسات ذات التوجه الغربى مثل الجامعة الأمريكية فى القاهرة والجامعة الأمريكية فى بيروت قد تعلم بها عدد كبير نسبياً من المسئولين الحكوميين . وبالنسبة إلى الأفراد الذين لم يكونوا جزءاً من هذه الطبقة المتميزة ، كان تعليمهم تقليدياً إلى حد كبير حيث ركز على التعليم القرآنى .

وفى العقود الأخيرة من القرن العشرين ، بدأ هذا الوضع يتغير بدرجة كبيرة . حيث تم إدخال أنظمة الاتصال الحديثة فى معظم القرى النائية ، واشتملت عملية تحديث الحكومات على برامج شاملة لمحو الأمية ، كما أن الجامعات فى دول الشرق الأوسط بدأت فى الازدهار اعتماداً على توفر عائدات ضخمة من تصدير البترول ، مما ساعد بدوره على أن يلتحق بها العديد من الطلبة من الطبقات العاملة أو المتوسطة. وبينما صارت أشياء مثل أجهزة الراديو الصغيرة (الترانزستور) ، وأجهزة

الكاسيت ، ومسجلات الفيديو كاسيت وماكينات تصوير المستندات أكثر انتشاراً ، أمكن للثقافات المختلفة فى الشرق الأوسط البدء فى تحديد هويتها اعتماداً على أنفسها وبدون وساطة أو تدخل من جانب مترجمين أوروبيين .

بيد أنه مع بداية الألفية الجديدة ، لا يزال من غير الواضح بالضبط ما الذى يمكن أن تكشفه هذه الرحلة الثقافية الطويلة . فعلى سبيل المثال ، وبغض النظر عن الأنماط أو القوالب الثقافية السائدة ، هل يمثل الشرق الأوسط ثقافة واحدة متميزة ؟ . الواقع أن هذا يبدو من الصعب الإجابة عليه ، حتى داخل العالم العربى (ناهيك عن المنطقة بأسرها) ، وذلك خلافاً لما يبدو من الوهلة الأولى .

والحقيقة أن هناك فى الشرق الأوسط منطقة محورية حيث توجد هوية ثقافية سائدة ومشتركة ، وهى منطقة تتزامن مع مراكز القوة العربية والمسلمة الكلاسيكية : القاهرة ، دمشق ، بغداد . وليس من قبيل المفاجأة أو الدهشة أن الحركتين السياسيتين العربيتين الرئيسيتين قد خرجتا من رحم هذه المنطقة المحورية . والواقع أن المنطقة مازالت تمارس تأثيرها العميق على الثقافة العربية برمتها ، وذلك على الرغم من أنه فى فترة التسعينيات جاء هذا التأثير بصورة أكثر وضوحًا من خلال المسلسلات التليفزيونية التى تعرضها استديوهات التليفزيون فى القاهرة وكذلك من خلال الموسيقى والفنون الشعبية ، وهو تأثير يفوق فى قوته ومداه تأثير كتابات المفكرين أو حتى خطب الزعماء السياسيين البارزين . وبالإضافة إلى ذلك ، وكما أشارت لورى كنج إيرانى فى الفصل التاسع ، فإن «تراث الشعوب البدوية العربية وتقاليدها قد ترك بصمة عميقة وواضحة على ثقافة الشرق الأوسط ، ومجتمعاته ، وسياساته» وعبر طرق وأساليب يمكن أن تتعدى حدود الدول .

وعلى الرغم من هذا ، يبدو من الصعب الاقتراح بأن منطقة الشرق الأوسط كلها جزء من منظومة ثقافية واحدة . وينطبق تعليق ليزا تراكى فى الفصل العاشر فيما يتعلق بمسألة «تعددية القوى الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والثقافية ، وكذلك العوامل التى قد أسهمت فى تشكيل الأوضاع ، والخبرات ، والظروف المعيشية للنساء الشرق أوسطيات» ينطبق هذا التعليق على الرجال فى الشرق الأوسط . وعلى سبيل المثال ، وبالرغم من أنها تشترك مع المنطقة العربية المحورية فى اللغة العربية والديانة الإسلامية ، إلا أن منطقة الخليج تعتبر متميزة . ومن ثم ، نجد أن الدول التى

نشأت فى ظل حكم أسرة آل سعود والمذهب الأصولى للحركة الوهابية ليست لديها سوى قواسم مشتركة قليلة نسبياً مع شعوب شرقى حوض البحر المتوسط الأخرى التى تعتبر أكثر تمدناً وتحضراً .

وعبر منطقة الخليج كلها ، تعتبر إيران الشيعية نموذجاً مستقلاً من الناحية الثقافية، وكما اعتادت أن تكون كذلك طوال ثلاثة آلاف عام ، ولذا يمكن اعتبارها منطقياً دولة واقعة فى أقصى جنوب آسيا الوسطى الإسلامية أكثر من كونها دولة تقع على الحدود الشرقية «الشرق الأوسط» . وإلى الغرب والجنوب من مصر ، تبدو الهوية العربية لدول المغرب مثار شكوك . فعلى الرغم من أن شعوب منطقة المغرب تتحدث اللغة العربية وتعتنق الدين الإسلامى ، إلا أن هذه المنطقة تتعرض لضغوط ثقافية متباينة : من أوروبا الغربية ، ومن البربرية الأصلية ، ومن أفريقيا جنوب الصحراء ، والتى كان تأثيرها عميقًا ، وعلى الأخص الدول الحدودية مثل جزر القمر ، وجيبوتى ، وموريتانيا، والصومال ، والسودان . وكدولة أمة قامت أساساً على سواعد المهاجرين من أوروبا فى القرن العشرين ، تعتبر إسرائيل حالة ثقافية شاذة داخل منطقة المشرق .

أخيراً ، تواجه تركيا موقفًا صعبًا على نحو خاص . فمنذ نهاية الإمبراطورية العثمانية ، وعندما تبنت الجمهورية التركية الجديدة العديد من المؤسسات السياسية والاقتصادية الأوروبية ، حاولت تركيا بلا جدوى أن تنال القبول والاعتراف بها كدولة تنتمى إلى أوروبا . بل إن عضوية تركيا فى منظمة حلف شمال الأطلسى (NATO) لم تكن كافية لإقناع أوروبا بتغيير موقفها المتردد والنظر إلى تركيا باعتبارها شريكاً متساوياً . ولاشك أن التراث العثمانى يعمل على تعقيد علاقات تركيا مع الدول العربية، والتى يبدى العديد منها تردداً إزاء منح تركيا وضعًا مؤثراً فى المنطقة . ويخلق «الموقف الكردى» ، الذى ناقشته مارى آن تيترول فى الفصل الخامس ، صعوبات إضافية مع الجارتين العراق وإيران . ومع انهيار القوة الشيوعية فى منطقة البلقان وآسيا الوسطى ، فإن لدى تركيا الآن الفرصة لتوفير زعامة اقتصادية للدول الأضعف التى كانت ذات يوم جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ، وكما فعلت اليابان فى إطار تفاعلاتها الاقتصادية مع مناطق كانت يوماً ما خاضعة لها عسكرياً . ومع هذا، فإنه مما لاشك فيه أن مثل هذه الاستراتيجية ستؤدى حتى إلى إبعاد تركيا أكثر عن العالم العربى .

وترتبط قضية الثقافة بمأزق رئيس فى المنطقة ، ألا وهو: ما الدور الذى يجب أن يلعبه الدين ، والأيديولوجيا ، و«الأخلاقيات الثقافية» فى تحديد السياسات السياسية والاجتماعية ؟ وما العلاقة الملائمة بين الزعماء الحكوميين والشخصيات الدينية ؟ وما أشكال القيادة السياسية المتاحة للنساء ؟ . وفى العديد من الدول ، تبدو الإجابة على هذه الأسئلة واضحة ؛ فالإسلام ، والسياسة ، والمجتمع قد أصبحوا مرة أخرى مرتبطين ببعضهم البعض وباتوا يهيمنون الآن تقريباً على كافة المناقشات والحوارات المتعلقة بمثل هذه القيم الثقافية الأساسية .

ويشرح جون أسبوسيتو ومحمد مقتدر خان فى الفصل الحادى عشر أن هذا الانبعاث الإسلامى واسع النطاق يعد «استجابة لأزمات متعددة .. فى إطار نضال مستمر من أجل الموثوقية الثقافية وتقرير المصير» . ومن ثم ، لا يمكن تجاهل حقيقة أن هذا الانبعاث الإسلامى ظاهرة مصاحبة لتلك الأزمات ، وكما اعتقد كثيرون بعد اندلاع الثورة الإسلامية مباشرة فى إيران ، ولا يمكن أيضاً اعتباره ببساطة جزءاً من «صراع الحضارات» ، كما يقول بعض المعلقين (هنتنجتون ، ١٩٩٣) . وبينما يعد الانبعاث الإسلامى استجابة واسعة داخل الشرق الأوسط لقضايا الأخلاق والحكم ، فإنه من المهم أن نتذكر هنا أن المؤمنين من المسيحيين واليهود قد حددوا أيضًا ، ومن منظور دينى ، أجوبة على هذه التساؤلات والمخاوف السياسية الجوهرية .

التنمية الاقتصادية :

المهمة الثانية الحاسمة التى تواجه دول منطقة الشرق الأوسط هى التنمية الاقتصادية . إذ إن هنالك تناقضات صارخة ما بين الفقر والثراء مازالت موجودة فى المنطقة . فمثلاً ، تعتبر موريتانيا واحدة من أفقر الدول فى العالم ، بينما تعتبر الكويت إحدى أغنى دول العالم . وتعيش الأغلبية العظمى من سكان الشرق الأوسط فى دول مثل مصر ، وتركيا ، وإيران والتى لديها مستويات للتنمية تماثل تلك التى توجد فى الكثير من دول آسيا وأمريكا اللاتينية . وتسعى هذه الدول جاهدة لإقامة بنية تحتية صناعية أساسية (الطرق ، الجسور ، والمطارات ، شبكات الاتصالات والكهرباء) فى الوقت الذى تحاول فيه أن تحتل موقعاً مناسبًا فى إطار نظام عالمى قد أصبح ، على الأقل بالنسبة إلى أغنى دول العالم ، يتجاوز الحقبة الصناعية .

وكما هو الحال فى معظم العالم النامى ، فإن مثل هذه الجهود غالبًا ما تتعقد وتواجه عقبات من جرّاء الديون المتراكمة من مشروعات منيت بالفشل السابق ، ووجود مؤسسات حكومية عفا عليها الزمن ومازالت غارقة فى البيروقراطية ، وتوترات اجتماعية ناجمة عن عدم القدرة على التكيف مع مجتمع مازال يقف فى منتصف الطريق بين المزرعة والمصنع ، وبين القرية القديمة و «القرية الكونية» . كما أن المواريث السياسية والاقتصادية التى خلفتها الحقبة الاستعمارية فى الشرق الأوسط قد أعاقت أيضًا عملية خلق برامج صناعية مستقلة عن أية مساعدات خارجية ، ومتحررة من قيود الاقتراض من الخارج ، أو التدخل من جانب منظمات دولية ، وهو نمط يعتبر من السمات المميزة تاريخيًا ، للدول المستعمَرة فى شتى أرجاء العالم .

وبالإضافة إلى ذلك ، وكما أشار كل من الاقتصادى إلياس توما وعالمة الاجتماع فالنتين المقدم فى الفصلين السابع والثامن ، فإن عقبات محلية مثل عملية التمدن الناشئة والمشكلات البيئية ، والنمو السكانى السريع بالنسبة إلى الموارد المتاحة ، وارتفاع معدلات البطالة ، والقيود المفروضة على الفرص الاقتصادية للنساء قد أسهمت أيضًا فى إيجاد حالة الركود الاقتصادى وجعلت التنمية الاقتصادية فى بلدان المنطقة ضربًا من الوهم . وأخيرًا ، ومنذ الاستقلال ، توقفت عملية التنمية الاقتصادية لدى العديد من بلدان الشرق الأوسط بسبب الحروب الأهلية الداخلية (كما حدث فى الجزائر، ولبنان ، والصومال ، والسودان ، وتركيا) ، أو بسبب نشوب حروب دولية (حرب تحرير الكويت) ، أو نتيجة لهذين السببين كليهما (مصر ، إيران ، العراق ، إسرائيل ، سوريا) .

ونتيجة لكل هذه الأسباب ، كانت عملية التنمية الاقتصادية فى معظم دول المنطقة تتقدم وتتواصل على طريقة خطوتان إلى الأمام وخطوة إلى الوراء ، وذلك بدلاً من أن تظهر إما التوسع الاستثنائى الذى حققته «النمور الآسيوية» أو النمو الذى يكاد يكون معدومًا والذى نجده فى أجزاء من أفريقيا . وهنالك علامات ومؤشرات قليلة على أن هذا الوضع سوف يتغير ، إلا أن معالجة هذه المشكلات والعقبات التى تعترض عملية التنمية برمتها تعتبر المفتاح لتحسين المستويات المعيشية لشعوب الشرق الأوسط. ومن الضرورى أيضًا التقليل من مشاعر الإحباط التى تنتاب الآن العديد من الشباب فى دول المنطقة عندما يعقدون مقارنة بين ظروفهم وأوضاعهم المعيشية بما يرونه من

مظاهر وصور الحياة فى مدن وعواصم أخرى مثل لندن وباريس ولوس أنجلس وذلك من خلال المسلسلات أو الأفلام التى يشاهدونها على شاشات التليفزيون أو السينما بين الحين والآخر . وبدون أن يطرأ تحسن على الظروف المعيشية والأوضاع الاقتصادية ، فإن من المرجح أن يستمر التأييد للأصولية الدينية.

وهناك خاصية تتميز بها بعض اقتصادات دول الشرق الأوسط والتى تجعلها مختلفة عن معظم الدول الأخرى ، ألا وهى دول استخراج البترول . ومن الجزائر وحتى اليمن كان للبترول الفضل الأكبر فى تنفيذ العديد من مشروعات التنمية وتغطية تكاليفها الباهظة . صحيح أنه خلال السبعينيات وأوائل الثمانينيات كانت الثروة البترولية سمة مميزة رئيسية للمنطقة . ولكن بحلول نهاية التسعينيات طرأ انخفاض حاد على أسعار البترول حيث هبطت إلى مستويات لا يمكن مقارنتها ، بشكل أو بآخر ، بالمستويات التى بلغتها الأسعار خلال فترة السبعينيات ومن ثم ، فإن عودة أسعار البترول إلى مستويات أقل بكثير من تلك التى وصلت إليها فيما مضى قد أرغم الدول التى تعتمد اقتصاداتها على النفط على تخفيض نفقاتها العامة ، وربما كان ذلك فى مصلحة تلك الدول ، فقد ألغيت الكثير من المشروعات غير الضرورية والتى تكلفت أموالاً طائلة كما تم تقليص العديد من البرامج الخاصة بشراء الأسلحة . وفى الوقت نفسه ، فإن الدول التى لا توجد بها احتياطيات نفطية كبيرة ، مثل مصر ، وتركيا ، والمغرب ، قد استفادت من الهبوط الذى طرأ على تكاليف الطاقة .

وعلاوة على ذلك ، ترك «عقد البترول» والذى بدأ من عام ١٩٧٣ حتى عام ١٩٨٣ تأثيرين إيجابيين . الأول أنه أدى إلى تأسيس طبقة مهنية كبيرة من المهندسين، والمصرفيين ، والأطباء ، والمدرسين . (ولعل ما يدعو للسخرية أنه نظراً لوجود أعداد ضخمة من المقربين الذين يعملون فى الدول الغنية بالبترول ، فإن معظم هؤلاء المهنيين جاءوا من دول ليست غنية بالبترول ، ولاسيما مصر ، والأردن ، وفلسطين) . والثانى أنه حتى بعد الأخذ بعين الاعتبار المشروعات الفاشلة غير الملائمة ، والإقبال الشديد على اقتناء الأشياء التافهة وعديمة القيمة ، والجشع والفساد، نجد أن العائدات النفطية غطت التكاليف الباهظة لمشروعات البنية التحتية الضخمة فى الكثير من بلدان المنطقة . والواقع أنه كان يجب أن يؤدى هذان التأثيران أو العاملان إلى تسهيل وتسريع النمو الاقتصادى وعملية التنمية بدرجة أكبر .

وليس من الواضح بعد ماهية الدور الذى يمكن أن يلعبه بترول الشرق الأوسط فى المستقبل . فعلى مدى عقد كامل ، كان المحللون قد دأبوا على التنبؤ بأن ظهور ثقافة استهلاكية صناعية فى آسيا من شأنه أن يعمل على زيادة الطلب على البترول ويدفع بأسعاره إلى مستويات مرتفعة جديدة ، ومن ثم تزويد الاقتصادات القائمة على البترول مرة أخرى (سواء فى الشرق الأوسط أم فى أماكن أخرى) بالقوة الاقتصادية التى توفرت لديها خلال فترة السبعينيات . بيد أنه حتى الآن لم تتحقق مثل هذه الزيادة فى الطلب على البترول . بل على النقيض من ذلك ، شهدت أسعار البترول هبوطاً حاداً فى أواخر التسعينيات كرد فعل لحالة الركود الاقتصادى فى آسيا . وحتى إذا زاد الطلب على البترول ، فإن أية ارتفاعات حادة فى الأسعار قد تصبح محدودة ومقيدة بفعل توفر إمدادات جديدة من مناطق مختلفة فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق .

الصراعات العرقية القومية :

ثمة مجموعة ثالثة من المشكلات ترتبط أيضًا بالتراث التاريخى للحقبة الاستعمارية ، وهى تتمثل فى الصراعات العرقية ، والدينية ، والإقليمية التى تحدث فى الوقت الذى تستجيب فيه الشعوب الشرق الأوسط لمواقف نشأت منذ ما يقرب من مائة عام وتتصدى لمحاولة سيطرة متزايدة على مقدراتها وحياتها السياسية (هومفريس ١٩٩٩ : ٢٦١) . وفى الفصل الثالث من هذا الكتاب ، يعكف المؤرخ آرثر جولد شميت على تحليل التفاعل فيما بين الكيانات السياسية الأجنبية والوطنية والذى أدى بدوره إلى قيام ونشأة دول قلما تعكس حدودها عملية توزيع الجنسيات والقوميات فى دول المنطقة . وقد كانت النتائج معقدة ومشكوك فيها على مدى عقود طويلة .

وليس ثمة شك فى أن الظروف الراهنة التى يعيشها الأكراد تعتبر مثالاً رئيسياً لكل من هذا الافتقار إلى التوافق والترابط بين الحدود الجغرافية للدول والجماعات القومية وذلك الدور الذى لعبته القوى الخارجية فى المنطقة . وأدى الاهتمام البريطانى بالموارد البترولية فى كردستان إلى تقسيم الأمة الكردية حتى باتت موزعة ما بين إيران ، والعراق ، وتركيا ، وسوريا ، بدلاً من أن تتوحد فى إطار دولة كردية مستقلة . كما أن الصراع المستمر بين الفلسطينيين واليهود الإسرائيليين حول فلسطين التى

كانت خاضعة ذات يوم للانتداب البريطانى يعد مثالاً آخر لهذه الظاهرة . وفى الفصل السادس ، يقدم اثنان من الباحثين الناشئين فى مجال دراسات السلام ، وهما سيمونا شارونى ومحمد أبو نمر ، يقدمان إطار عمل لفهم طبيعة هذا الصراع الذى طال أمده ويبحثان معاً فى إمكانات حله استناداً إلى شروط عادلة ومقبولة . ولعله مما يدعو للأسف أن هذين الصراعين وغيرهما من الصراعات العرقية القومية الأخرى فى الشرق الأوسط ظلت قائمة منذ إسدال الستار على الحرب العامية الأولى .

المسئولية السياسية :

المهمة الأخيرة التى تواجه الشرق الأوسط هى ضرورة تطوير أنظمة سياسية تحظى بمساندة وتأييد شعوب المنطقة وتعتبر مسئولة أمامها ، وهى أنظمة تمارس الحكومات من خلالها الحكم على تلك الشعوب . وهنا لابد من الإشارة إلى أن موجة التحولات إلى حكم أكثر ديمقراطية والتى اجتاحت الكثير من دول العالم فى الثمانينيات والتسعينيات لم تتجاوز المنطقة تماماً ، بيد أننا لم نشهد إصلاحات واسعة النطاق مثل تلك التى قد تحققت فى أجزاء من أفريقيا وأمريكا اللاتينية . وما لم يكن الشرق الأوسط نموذجياً فى تطوره السياسى ، فسوف نتوقع رؤية ضغوط ديمقراطية تلعب دوراً بارزاً فى المستقبل القريب .

وهناك عدة أبعاد مهمة للتحدى المتعلق بالمسئولية السياسية المتزايدة . أولاً ، وشأن الحكومات فى المناطق الأخرى ، لابد أن تجد دول الشرق الأوسط طريقة لتلبية المطالب المتزايدة للطبقات الوسطى والمهنية من أجل الحصول على قدر أكبر من النفوذ والسيطرة على الموارد المادية والرمزية . وأحد المطالب المحتملة لدى هذه الجماعات والطبقات يتمثل فى ضرورة إجراء تقليص كبير فى النفقات العسكرية . فالإنفاق العسكرى واحد من الأهداف الجذابة ، لاسيما وأن المخصصات العسكرية تعتبر ضخمة كما أن هناك شعوراً سائداً بأنه من الأفضل إنفاق هذه الأموال فى مشروعات وبرامج اجتماعية واقتصادية يمكن أن تعمل على تحسين الظروف والأوضاع المعيشية داخل المجتمع . وعلاوة على ذلك ، ونظراً لأنه غالبًا ما يتخصص الإنفاق العسكرى على هيئة بند اسمه «الأمن القومى» ، فإنه يصبح عرضة لعمليات واسعة من الإهدار والتبديد والفساد ، وهى أمور لا يلقى أى منها القبول لدى

أفراد الطبقات المتوسطة والمهنية الجديدة . وأخيراً ، فإنه مع انهيار الخطر الشيوعى الذى كان يمثله الاتحاد السوفيتى السابق ، والاعتدال الذى طرأ على السياسات الخارجية الإيرانية ، وعملية السلام المستمرة بين العرب وإسرائيل ، لا يبدو أن هناك أخطاراً أو تهديدات بعينها تلوح فى الأفق .

وفى الوقت ذاته ، وكما يشير العالمان السياسيان ديبورا جيرنر وفيليب شروت فى الفصل الرابع ، لا يزال الجيش يشكل قوة عسكرية هائلة فى سياسة الشرق الأوسط. إذ إن العديد من الحكومات قد استخدمت المؤسسات العسكرية لديها فى تحييد الخصوم والمعارضين المحتملين وفى ضمان ولاء الأقليات العرقية . وكما يميل الجيش إلى توثيق علاقاته مع أجهزة الأمن الداخلية ، وهو الأمر الذى يجعله يتمتع بقدر أكبر من القوة والفاعلية فى حالات عدم الاستقرار (كما أظهرت الجزائر فى التسعينيات) . أضف إلى ذلك أن العلاقة الوثيقة التى تربط المؤسسة العسكرية بنظام الحكم الذى بات راسخاً ، وكما هو الحال فى الأردن ، وليبيا ، والعراق ودول أخرى ، تحول دون ظهور أية محاولات تستهدف الحد من نفوذ الجيش وتأثيره .

والحقيقة أن منطقة الشرق الأوسط تشهد حالياً عملية تحول هائلة فى الوقت الذى بدأت فيه قيادات شابة تتولى زمام الحكم فى العديد من دول المنطقة خلفًا لزعماء تقدم بهم العمر والذين يمثلون جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية . وينطوى هذا الأمر أيضًا على مضامين وأبعاد مهمة بالنسبة إلى ما يمكن أن تئول إليه المشكلات المرتبطة بالزعامة والمسئولية السياسية . وفى بعض الأمثلة ، ولاسيما أنظمة الحكم للعائلات المالكة التى تعاقبت على المنطقة ، فإن عمليات التحول هذه قد تكون روتينية ، فى حين أن أنظمة الحكم الملكى الجديدة أظهرت اهتمامًا أكبر ، بل قدراً أكبر من الحماس بإدخال إصلاحات سياسية وعلى نحو يفوق الاستعداد الذى أبدته الأنظمة السابقة . وعلى النقيض من ذلك ، فإن عملية استبدال زعماء شخصيين ممن لا يزالون على قمة الحكم فى بلادهم منذ عقود طويلة ، ومن بينهم الزعيم الليبى معمر القذافى ، والزعيم الفلسطينى ياسر عرفات ، من المرجح أن تكون عملية غير مرتبة وتتسم بالفوضى ، وبغض النظر عن وجود مؤسسات رسمية من المفترض أن تضطلع بدورها فى معالجة مثل هذه المواقف . وعلى أى حال ، فإن مشكلة الفجوة العميقة القائمة بين الأجيال قد تحل نفسها بسهولة نسبياً فى تلك الدول التى قد أضفت

طابعاً بيروقراطياً قوياً على الهياكل والمؤسسات الحكومية ، وكما حدث فى مصر ، وتونس ، وهى مشكلة يمكن أن تكون أقل حدة وصعوبة فى دول برلمانية مثل تركيا . ومع هذا ، فمن المثير الإشارة هنا إلى أن التغير بين الأجيال قد كان له تأثيره الجوهرى حتى فى أكثر الدول استقراراً من الناحية السياسية بالمنطقة مثل إسرائيل كما، بصورة أو بأخرى ، نجد أن شخصية الأحزاب السياسية فى هذه الدولة قد تغيرت بشكل عميق . ففى غضون العقد الماضى ، تحولت إسرائيل من نظام على النمط الأوروبى لحزبين رئيسيين يتمحور الخلاف بينهما حول الأيديولوجيا ، إلى وضع يسيطر من خلاله حزبا الليكود والعمل على أقل من نصف عدد المقاعد فى الكنيست (البرلمان) فى حين تستحوذ الأحزاب الصغيرة الأخرى على بقية المقاعد استناداً إلى تركيباتها العرقية .

وثمة جانب ثالث من جوانب المسئولية السياسية قد سبقت الإشارة إليه ، وهو حاجة الحكومات فى المنطقة إلى تحديد أفضل السبل التى يمكنها أن تتعامل من خلالها مع وجود الإسلام السياسى الذى أضحى واقعاً حقيقياً . وبالنسبة إلى النخب العلمانية التى تواجه تحدياً إسلامياً قوياً ، تتراوح الخيارات ما بين التزام جانب الحياد ، والمجابهة ، والتعاون ، ومحاولة التغلب على هذا التحدى . وأحد المتغيرات المجهولة هنا هو ما إذا كان الإسلام يروق لمجموعة سكانية بعينها بعيداً عن تأثير هذا الدين على عواطفهم ومشاعرهم أو ما إذا كانت شعبيته الكاسحة تعتمد أساساً على مكانته الحالية كأكثر المصادر فعالية وقوة فى التصدى للدولة ومعارضتها . (مع افتراض أنه قد تم اجتثاث جذور البدائل الأخرى) .

ويعتقد العديد من المحللين أن إيران تمثل السيناريو الأخير : إذ إن ما عرضه الخومينى كان الطريقة التى تساعد فى التخلص من حكم الشاه . وعلى العكس من ذلك، نجد أنه كان لدى تركيا الفرص السانحة لإقامة معارضة علمانية (وعسكرية) ، وذلك على الرغم من أن حركة إسلامية تقليدية قد نشأت هناك . وفى هذه الحالة ، فإن القوى الدافعة ربما تكون مماثلة لتلك التى تحرك الأصولية المسيحية فى الولايات المتحدة ، أو الأحزاب السياسية اليهودية الأرثوذكسية المتطرفة فى إسرائيل ، ألا وهى الرغبة أو الاستعداد لدى الحركة الإسلامية فى أن تدافع ، وبالنيابة عن الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة ، عن تنفيذ برامج إصلاحية اجتماعية لا تتحمس لها

الأحزاب السياسية التى رسخت أقدامها فى السلطة . ولسوء الحظ ، فإنه لا تركيا ولا إيران يمكن أن تخبرنا بالضرورة بما يحدث فى الدول العربية . وتوحى حالات كل من سوريا فى أوائل الثمانينيات ، والجزائر (وبشكل أكثر اعتادلاً ، مصر) فى الوقت الحاضر ، توحى بأن الصدام بين الدولة والمسجد يمكن أن تكون له عواقبه الاجتماعية وأنه من المحتمل أن يفضى إلى العنف .

فى الوقت نفسه ، من المهم ألا يغيب عن الأذهان أن ظهور حركات الإصلاح التى تسلك نهج الدين تعتبر رداً مشتركاً على الاتجاه نحو التحديث والنزعة العصرية ، وهى خاصية ليست حكراً على الإسلام ولا ينفرد بها الشرق الأوسط . إذ إن الأصولية الهندوسية تعتبر بالمثل قوة فعالة فى الهند المعاصرة . وبينما استطاعت الحركات الدينية ، وفى بعض الأحيان ، أن تحدث تحولاً كاملاً فى مجتمعاتها ، ومن أبرزه هذه الحركات ، مثلاً ، حركة الإصلاح البروتستانتى فى أوروبا والتى تعد نموذجًا مألوفاً لنجاحها فى إدخال سلسلة من التغييرات ثم أخفقت بعدها ولم يعد لها أى وجود. وظهرت موجات سياسية إسلامية سابقة فى الشرق الأوسط عقب هذه العملية الثورية، ومن الممكن إلى حد كبير أن تؤدى الفترة الحالية إلى تكرار هذا النمط التاريخى .

خاتمة :

مع بداية القرن الحادى والعشرين ، نلاحظ أن الشرق الأوسط يتأرجح ما بين العصرية والتقليدية ، والعلمانية والانبعاث الدينى ، والنمو الاقتصادى والركود ، والسلام والحرب . ومن ثم ، فإن هناك مهام وتحديات جسام تواجه شعوب وحكومات المنطقة : إذ لن يكون من السهل التحرر من قيود التراث الاستعمارى ، ومعالجة الصراعات المحلية والدولية المستمرة منذ أمد طويل ، ومواصلة نهج التنمية السياسية والاقتصادية ، وإعادة خلق هوية (أو هويات) يمكنها توحيد الشعوب ولم شملها بدلاً من تفريقهم وتقسيمهم إلى جماعات صغيرة . ولحسن الحظ أن شعوب الشرق الأوسط من العرب ، والفرس ، والأتراك . وغيرهم لديها مجالات متنوعة من المهارات ، والآمال والتطلعات ، والموارد التى من شأنها أن تساعدهم فى هذا الصدد .

ملاحظات :

١- فى أحدث كتاب أصدره ، يقدم المؤرخ .ر. ستيفين همفريس وصفًا بارعاً ودقيقاً لواحـد من أقـوى القـوالب الفكرية التى ترسـخت فى عـقـول البـعض بالولايات المتحدة :

ما من مخلوق فى الموسوعة الرمزية السياسية الأمريكية أكثر احتمالاً وقدرة على البقاء والصمود من الشرق الأوسط . ويأخذ هذا المخلوق : أشكالاً مـختلفة وصوراً متنوعة ، مثل صورة الديكتاتور فى زيه الكاكى ، أو الإرهابى ذى اللحية والذى تغطى رأسه الكوفـية المعروفة عند العرب ، أو رجل الدين الأصولى الذى تبدو على وجهه علامات الصرامة بلحيته المميزة وعيناه المتوهجتان ، الذى يرتدى العمامة والعباءة . بيد أن هذا المخلوق واحد برغم اختلاف صوره هذه .

ومن المؤكد أن لدى الشرق الأوسط نصيبه الكامل من البلاغة المفرطة والمزاعم المنافـية للعقل ، على الرغم من أن البعض قد يقول الشىء نفسه عن الولايات المتحدة .

٢- هناك عدد صغير من دول المنطقة ، وهى إسرائيل ، والبحرين ، ودولة الإمارات العربية المتحدة ، قد شرعت فى تنفيذ سياسات تهدف إلى أن تتبوأ هذه الدول مكانتها فى ظل اقتصاد عالمى يعتمد على الكومبيوتر . ولكن هذه الدول لديها أعداد صغيرة من السكان ، وهى أقرب إلى سنغافورة أو جزر البهاما منها إلى تايوان أو المكسيك .

٣- شهدت إسرائيل تغييراً مؤسسياً فى طريقة انتخاب رئيس وزرائها ، وهو التغيير الذى تزامن مع ضعف سيطرة الأحزاب الرئيسية داخل الكنيست . ومع ذلك ، فإن تضاؤل نفوذ وسلطة حزبى العمل والليكود لم يكن ناجماً ، وبصورة متعمدة ، عن تعديل القوانين الانتخابية والتى لعبت السياسة الوليدة دوراً فى تمريرها .

المصادر :

١- نزيه أيوب : «تجاوز حدود الدولة العربية : السياسة والمجتمع فى الشرق الأوسط» - لندن . أ . ب توريس - ١٩٩٥ .

٢- عبده بعكلينى ، وجوليانى دينو ، وروبرت سبرينجبورج : «السياسة التشريعية فى العالم العربى : انبعاث المؤسسات الديمقراطية» - بولدر - كولومبيا - لين ريز - ١٩٩٩ .

٣- ويليام كليفلاند : «تاريخ الشرق الأوسط الحديث» - بولدر - كولومبيا - مطبعة ويستفيو - ١٩٩٤ .

٤- . ر. ستيفن همفريس : «بين الذاكرة والرغبة : الشرق الأوسط فى عصر مضطرب» - بيركلى - مطبعة جامعة كاليفورنيا - ١٩٩٩ .

٥- صمويل هنتنجتون : «صدام الحضارات» - مجلة الشئون الخارجية ٢٢ - ٤٩ - ٧٢ - ١٩٩٣ .

٦- آن ليش ودان بتشيرجى : «أصول وتطور الصراع العربى - الإسرائيلى» - ويستبورت - كونيكتيكت - مطبعة جرينوود - ١٩٩٨ .

٧- شيلبى مالات : «الشرق الأوسط فى القرن ال ٢١ : دراسات حول الصراع العربى الإسرائيلى ، أزمة الخليج والإسلام السياسى» - ريدنج - بريطانيا - دار إيثاكا / جانب للنشر - ١٩٩٦ .

٨- روث روديد : «النساء فى الإسلام والشرق الأوسط» - ريدر لندن - أ - ب توريس - ١٩٩٩ .

٩- إدوارد سعيد : «الاستشراق» - نيويورك - فينتاج - ١٩٧٩ .

ملحق (١)

اختصارات

AHC:	اللجنة العليا العربية لفلسطين
AMU:	اتحاد المغرب العربى
ARAMCO:	شركة البترول الأمريكية العربية
C . I . A:	وكالة المخابرات المركزية الأمريكية
C M R N:	اللجنة العسكرية للإصلاح الوطنى
D FLP:	الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين
DHS:	الدراسات الصحية والديموجرافية
DNA:	حمض د ن أ النووى
ESCWA:	اللجنة الاقتصادية لغرب آسيا
F BD:	ابنة العم
FIS:	جبهة الإنقاذ الإسلامية
FLN:	جبهة التحرير الوطنى
GAP:	مشروع الأناضول
GCC	مجلس التعاون الخليجى
GDP:	إجمالى الناتج المحلى
GNP:	إجمالى الناتج القومى
ha:	هكتارات
HDI	مؤشر التنمية البشرية
ILO:	منظمة العمل الدولية
IMF:	صندوق النقد الدولى
IPC:	شركة البترول العراقية
KDP:	الحزب الديمقراطى الكردستانى

MENA:	الشرق الأوسط – شمال أفريقيا
MTI:	حركة الاتجاه الإسلامى
NATO:	منظمة حلف شمال الأطلنطى
NDB:	الحزب الديمقراطى القومى
NGO:	منظمة غير حكومية
OAPEC:	منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول
OECD:	منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية
OPEC:	منظمة الأقطار المنتجة للبترول (أوبك)
PCP	الحزب الشيوعى الفلسطينى
PDR Yemen:	جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية
PFLD:	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
PKK:	حزب العمال الكردستانى
PLO:	منظمة التحرير الفلسطينية
PNA:	السلطة الوطنية الفلسطينية
PROTA:	مشروع الترجمة من العربية
PUK:	الاتحاد الوطنى الكردستانى
SAVAK:	جهاز المخابرات الإيرانى (فى عهد الشاه)
UAE:	دولة الإمارات العربية المتحدة
UAR:	الجمهورية العربية المتحدة
UN:	الأمم المتحدة
UNDP:	برنامج الأمم المتحدة الإنمائى
UNESCO:	منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو)
USFP:	الاتحاد الاشتراكى للقوى الشعبية
USSR:	اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، الاتحاد السوفيتى

ملحق (٢)

حقائق سياسية أساسية

هذا الملحق للحقائق السياسية الأساسية عن منطقة الشرق الأوسط قام بجمعه وتصنيفه كل من ديفيد ولسون وديبورا . ج . جيرنر استناداً إلى معلومات مستقاة من مصادر متنوعة . إذ إنه من الصعب فى أغلب الأحيان الحصول على بيانات دقيقة عن الشرق الأوسط ، لاسيما فى ظل وجود روايات وتواريخ متباينة ومتضاربة وهو ما يعد أمراً شائعاً . وعلى الرغم من أننا استخدمنا ثلاثة مصادر مختلفة على الأقل لتأكيد وتوثيق كل حقيقة من هذه الحقائق ، إلا أن القراء قد يجدون تناقضات فى مصادر أخرى .

ويعتبر مؤشر التنمية البشرية لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائى (HDI) ، معياراً مركباً يرتكز على متوسط العمر المتوقع ، ومعرفة القراءة والكتابة بين الكبار ، ونسبة الطلبة الملتحقين بالمدارس الابتدائية ، والثانوية ، ومتوسط دخل الفرد المعدل فى كل دولة . ويمكن أن تتراوح النسب أو النقاط المسجلة من صفر إلى ١ مع وجود أعداد أعلى تعكس قدراً أكبر من التنمية بالنسبة لطول العمر ، والمعرفة ، ومستوى معيشى مقبول .

جمهورية الجزائر الشعبية الديمقراطية :

العاصمة : مدينة الجزائر

تاريخ الاستقلال عن فرنسا : ٣ يوليو ١٩٦٢ .

عدد السكان : ٣٠ مليون و ٤٨٠,٧٩٣ نسمة (حسب تقديرات عام ١٩٩٨) .

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI : 0.746

الرؤساء الذين تولوا الحكم منذ الاستقلال :

١– الرئيس أحمد بن بيلا ، من يونيو ١٩٦٢ حتى ١٩٦٥ .

٢– الرئيس هوارى بو مدين ، من يونيو ١٩٦٥ حتى ديسمبر ١٩٧٨ .

٣– الرئيس الشاذلى بن جديد ، من فبراير ١٩٧٩ حتى ١٩٩٢ .

٤- مجلس الدولة العالى الخماسى برئاسة محمد بوضياف والذى تولى مهام رئيس الدولة حتى يناير ١٩٩٤ .

٥- الرئيس الأمين زروال ، تم تعيينه رئيساً فى ٣٠ يناير ١٩٩٤ .

٦- الرئيس الأمين زروال ، ١٩ نوفمبر ١٩٩٥ حتى ٢٥ أبريل ١٩٩٩ .

٧- الرئيس عبد العزيز بو تفليقة ، انتخب فى ١٥ أبريل ١٩٩٩ بعد انسحاب جميع المرشحين الستة الآخرين الذين اتهموا الحكومة بتزوير نتائج انتخابات الرئاسة .

مملكة البحرين :

العاصمة : مدينة المنامة

تاريخ الاستقلال عن بريطانيا العظمى : ١٥ أغسطس ١٩٧١ .

عدد السكان : ٦١٦ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨) .

حكام البحرين منذ الاستقلال :

١- الأمير عيسى بن سلمان آل خليفة ٦ مارس ١٩٦١ حتى ١٩٩٩ .

٢- الملك حمد بن عيسى آل خليفة : ٢٠٠٠ .

جمهورية جزر القمر الإسلامية الاتحادية :

العاصمة : مدينة مورونى

تاريخ الاستقلال عن فرنسا : ٦ يوليو ١٩٧٥

عدد السكان : ٥٤٦ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨) .

الرؤساء الذين تولوا الحكم منذ الاستقلال :

١- الرئيس أحمد بن عبد الله ، من يوليو ١٩٧٥ حتى أغسطس ١٩٧٥ .

٢- انقلاب بقيادة على صويلح فى أغسطس ١٩٧٥ والذى أصبح بعده رئيسًا للبلاد فى الفترة منذ ١٩٧٦ حتى ١٩٧٨ (تم اغتياله) .

٣- الرئيس أحمد عبد الله : تم تنصيبه فى انقلاب قام به مرتزقة بقيادة روبرت دينارد ، خلال الفترة من ٢٧ نوفمبر ١٩٧٨ حتى ١٩٨٩ (تم اغتياله) .

٤- الرئيس روبرت دينارد : فى الفترة من ٢٧ نوفمبر ١٩٨٩ حتى ١٥ ديسمبر ١٩٨٩ (أطاحت به الحكومة الفرنسية) .

٥- سيد جوهر ، من ١٦ ديسمبر ١٩٨٩ حتى مارس ١٩٩٦ .

٦- الرئيس محمد تقى عبد الكريم ، من مارس ١٩٩٦ حتى ٣٠ أبريل ١٩٩٩.

٧- انقلاب بقيادة الكولونيل غصومانى عزالى ، ٣٠ أبريل ١٩٩٩ .

جمهورية جيبوتى :

العاصمة : جيبوتى

تاريخ الاستقلال عن فرنسا : ٢٦ يونيو ١٩٧٧

عدد السكان : ٤٤١ ألف نسمة (حسب تقدير ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.324

حكام جيبوتى منذ الاستقلال :

١- الرئيس حسن جوليد أبتيدون ، ٢٤ يونيو ١٩٧٧ وأعيد انتخابه فى يوليو ١٩٨١ ، وأبريل ١٩٨٧ ، ومايو ١٩٩٣ .

٢- الرئيس إسماعيل عمر جويلى ، انتخب فى أبريل ١٩٩٩ .

جمهورية مصر العربية

العاصمة : القاهرة

تاريخ الاستقلال عن بريطانيا العظمى : ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .

عدد السكان : ٦٦ مليون و ٥٠ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨) .

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.612

حكام مصر منذ الاستقلال :

١- الملك فؤاد الأول من ١٩١٧ حتى ١٩٣٦ .

٢- الملك فاروق من ١٩٣٦ حتى ١٩٥٢ (أطاح به جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر فى انقلاب عسكرى) (*).

---

* الصحيح أن الذى أطاح به تنظيم «الضباط الأحرار» بقيادة جمال عبد الناصر وولى ابنه فؤاد الثانى الملك تحت الوصاية حتى ١٩٥٣ . (المراجعة اللغوية) .

٣- الرئيس محمد نجيب ، من يونيو ١٩٥٣ حتى نوفمبر ١٩٥٤

٤- تعيين جمال عبد الناصر رئيسًا للوزراء فى الفترة من ١٩٥٤ حتى ١٩٥٦ ، ورئيساً للجمهورية من ١٩٥٦ حتى ١٩٧٠ .

٥- الرئيس أنور السادات ، من أكتوبر ١٩٧٠ حتى ١٩٨١ (تم اغتياله فى عرض عسكرى عام ١٩٨١) .

٦- الرئيس حسنى مبارك ، من ١٤ أكتوبر ١٩٨١ ، أعيد انتخابه فى أعوام ١٩٨٧ ، ١٩٩٣ ، ١٩٩٩ .

جمهورية إيران الإسلامية :

العاصمة : طهران

تاريخ الاستقلال : لم تستعمر

عدد السكان : ٦٨ مليون و ٩٦٠ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.758

حكام إيران منذ القرن العشرين :

١- أسرة قاجار : مظفر الدين من ١٨٩٦ حتى ١٩٠٧ ، ومحمد على ، من ١٩٠٧ حتى ١٩٠٩ ، وأحمد من ١٩٠٩ حتى ١٩٢٤ .

٢- أسرة بهلوى : رضا شاه ، من ١٩٢٥ حتى ١٩٤١ ، محمد رضا شاه ، من ١٩٤١ حتى ١٩٧٩ .

٣- زعماء دينيون : آية الله روح الله خومينى ، من ١٩٧٩ حتى ١٩٨٩ ، حجة الإسلام سيد على خامينى ، ١٩٨٩ .

٤- الرؤساء : مهدى بازراجان ، من ١٩٧٩ حتى ١٩٨٠ ، أبو الحسن بنى صدر ، من ١٩٨٠ حتى ١٩٨١ ، محمد على رجائى ١٩٨١ ، سيد على خامينى ، من أكتوبر ١٩٨١ حتى يوليو ١٩٨٩ ، حجة الإسلام على أكبرهاشمى رفسنجانى ، من يوليو ١٩٨٩ حتى ١٩٩٧ ، محمد خاتمى ، ١٩٩٧ .

جمهورية العراق :

العاصمة : بغداد

تاريخ الاستقلال عن بريطانيا العظمى : ١٣ أكتوبر ١٩٣٢

عدد السكان : ٢١ مليون و ٧٢٢ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.538

حكام العراق منذ الاستقلال :

١– الملك فيصل الأول ، من ١٩٢١ حتى ١٩٣٣

٢– الملك غازى بن فيصل ، من ١٩٣٣ حتى ١٩٣٩

٣– الملك فيصل الثانى ، من ١٤ يوليو ١٩٣٩ حتى ١٩٥٨ (أطيح به فى انقلاب عسكرى)

٤– الفريق عبد الكريم قاسم ، من ١٤ يوليو ١٩٥٨ إلى فبراير ١٩٦٣ (تمت الإطاحة به)

٥– المجلس الوطنى للقيادة الثورية برئاسة رئيس الوزراء أحمد حسن البكر والرئيس عبد السلام عارف ، من فبراير ١٩٦٣ حتى ١٨ نوفمبر ١٩٦٣ (تمت الإطاحة به)

٦– الرئيس عبد السلام عارف ، من نوفمبر ١٩٦٣ حتى أبريل ١٩٦٦ (مات فى حادث)

٧– الرئيس عبد الرحمن عارف ، من أبريل ١٩٦٦ حتى ١٧ يوليو ١٩٦٨ (أطيح به)

٨– مجلس قيادة الثورة برئاسة أحمد حسن البكر ، من ١٧ يوليو ١٩٦٨ حتى ١٦ يوليو ١٩٧٩ .

٩– الرئيس صدام حسين ، من ١٦ يوليو ١٩٧٩ .

دولة إسرائيل

العاصمة : تل أبيب

تاريخ قيام الدولة : ١٥ مايو ١٩٤٨

عدد السكان : ٥ ملايين و ٦٤٤ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)
النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.913

رؤساء الوزراء منذ ١٩٤٨ :

١- ديفيد بن جوريون ، ١٩٤٨ - ١٩٥٣
٢- موشى شاريت ، ١٩٥٣ - ١٩٥٥
٣- ديفيد بن جوريون ، ١٩٥٣ - ١٩٥٥
٤- ليفى أشكول ، ١٩٦٣ - ١٩٦٩
٥- يجال آلون (قائم بأعمال رئيس الوزراء) ١٩٦٩
٦- جولدا مائير ، ١٩٦٩ - ١٩٧٤
٧- إسحاق رابين ، ١٩٧٤ - ١٩٧٧
٨- شيمون بيريز ، (قائم بأعمال رئيس الوزراء) ١٩٧٧
٩- مناحيم بيجين ، ١٩٧٧ - ١٩٨٣
١٠- إسحاق شامير ، ١٩٨٣ - ١٩٨٤
١١- شيمون بيريز ، ١٩٨٤ - ١٩٨٦
١٢- إسحاق شامير ، ١٩٨٦ - ١٩٩٢
١٣- إسحاق رابين ، ١٩٩٢ - ١٩٩٥ (اغتاله يهودى متطرف)
١٤- شيمون بيريز ، ١٩٩٥ - ١٩٩٦
١٥- بنيامين نتنياهو ، ١٩٩٦ - ١٩٩٩
١٦- إيهود باراك ، مايو ١٩٩٩ - ٢٠٠١
١٧- أرييل شارون ٢٠٠١

المملكة الهاشمية الأردنية :

العاصمة : عمان

تاريخ الاستقلال عن بريطانيا العظمى : ٢٥ مايو ١٩٤٦

عدد السكان : ٤ ملايين و ٤٣٥ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.729

حكام الأردن منذ الاستقلال :

١- الأمير عبد الله (أصبح ملكًا فيما بعد) ، من يوليو ١٩٢١ حتى ١٩٥١ (تم اغتياله) .

٢- الملك طلال ، ١٩٥١ - ١٩٥٣ (تم اختطافه)

٣- الملك حسين الأول ، ٧ فبراير ١٩٥٣ حتى ١٩٩٩

٤- الملك عبد الله الثانى ، ٧ فبراير ١٩٩٩

دولة الكويت :

العاصمة : مدينة الكويت

تاريخ الاستقلال عن بريطانيا العظمى : ١٩ يونيو ١٩٦١

عدد السكان : مليون و ٩١٣ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.848

حكام الكويت منذ الاستقلال :

١- الشيخ عبد الله الثالث الصباح ، ١٩٥٠ - ١٩٦٥

٢- الشيخ صباح السالم الصباح ، ١٩٦٥ - ١٩٧٧

٣- الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح ، ٣١ ديسمبر ١٩٧٧

جمهورية لبنان :

العاصمة : بيروت

تاريخ الاستقلال عن فرنسا : ٢٢ نوفمبر ١٩٤٣

عدد السكان : ٣ ملايين و ٥٠٦ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة في مؤشر HDI 0.796

رؤساء لبنان منذ الاستقلال :

١- الرئيس بشارة الخوري ، ١٩٤٣ - ١٩٥٢ (رئيسا الوزراء : رياض الصلح ، وسامي الصلح)

٢- الرئيس كميل شمعون ، ١٩٥٢ - ١٩٥٨ (رؤساء الوزراء ، عبد الله اليافي ، سامي الصلح ، رشيد كرامي)

٣- الرئيس فؤاد شهاب ، ١٩٥٨ - ١٩٦٤ (رئيس الوزراء : رشيد كرامي)

٤- الرئيس شارل الحلو ، ١٩٦٤ - ١٩٧٠ (رئيس الوزراء : رشيد كرامي)

٥- الرئيس سليمان فرنجية ، ١٩٧٠ - ١٩٧٦ (رؤساء الوزراء : رشيد أنيس الصلح ، رشيد كرامي ، صائب سلام)

٦- الرئيس إلياس سركيس ، ١٩٧٦ - ١٩٨٢ (رئيس الوزراء : سليم الحص)

٧- الرئيس بشير الجميل ، ١٩٨٢ (تم اغتياله)

٨- الرئيس أمين الجميل ، ١٩٨٢ - ١٩٨٨ (رؤساء الوزراء : شفيق الوزان ، رشيد كرامي ، سليم الحص)

٩- قائد الجيش العماد ميشيل عون ، ١٩٨٨ - ١٩٩٠ (رئيس الوزراء سليم الحص)

١٠- الرئيس إلياس الهراوي ، ١٩٩٠ - ١٩٩٨ (رؤساء الوزراء : سليم الحص ، عمر كرامي ، رفيق الحريري)

١١- الرئيس إميل لحود ، ١٩٩٨ (رئيسا الوزراء : سليم الحص ، رفيق الحريري)

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية (جمهورية) :

العاصمة : طرابلس

تاريخ الاستقلال عن إيطاليا : ٢٤ ديسمبر ١٩٥١

عدد السكان : ٥ ملايين و ٦٩١ ألف (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.806

حكام ليبيا منذ الاستقلال :

١- الملك إدريس ، ١٩٥١ - ١٩٦٩

٢- العقيد معمر القذافى ، زعيم الثورة الليبية ، سبتمبر ١٩٦٩

جمهورية موريتانيا الإسلامية :

العاصمة : نواكشوط

تاريخ الاستقلال عن فرنسا : ٢٨ نوفمبر ١٩٦٠

عدد السكان : مليونان و ٥١١ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.361

حكام موريتانيا منذ الاستقلال :

١- الرئيس مختار ولد دادا ، ١٠ يوليو ١٩٦١ - ١٩٧٨ (أطيح به فى انقلاب عسكرى)

٢- المقدم مصطفى ولد محمد سالك ، ١٠ يوليو ١٩٧٨ - يونيو ١٩٧٩

٣- المقدم محمد محمود ولد لولى ، يونيو ١٩٧٩ - ٤ يناير ١٩٨٠ (تمت الإطاحة به)

٤- المقدم محمد خونا ولد عيد الله ، ٤ يناير ١٩٨٠ - ديسمبر ١٩٨٤ (تمت الإطاحة به)

٥- العقيد معاوية ولد سيدى أحمد طايع ، ديسمبر ١٩٨٤ ، تم انتخابه رئيساً للبلاد فى أول انتخابات قائمة على التعددية الحزبية فى ٢٤ يناير ١٩٩٢ .

مملكة المغرب :

العاصمة : الرباط

تاريخ الاستقلال عن فرنسا : ٢ مارس ١٩٥٦

عدد السكان : ٢٧ مليوناً و ٦٤٥ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.557

ملوك المغرب منذ الاستقلال :

١- الملك محمد الخامس ، ٢ مارس ١٩٥٦ - ١٩٦١

٢- الملك الحسن الثانى ، ٣ مارس ١٩٦١ - ٢٣ يوليو ١٩٩٩

٣- الملك محمد السادس ، ٢٣ يوليو ١٩٩٩

سلطنة عمان :

العاصمة : مسقط

تاريخ الاستقلال : لم تخضع أبداً للاستعمار البريطانى ، بل كان للبريطانيين نفوذهم القوى فى عمان .

عدد السكان : ٢مليون نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.771

سلاطين عمان فى القرن العشرين :

١- السلطان فيصل بن تركى آل سعيد ، ١٨٨٨ - ١٩١٣

٢- السلطان تامر بن فيصل آل سعيد ، ١٩١٣ - ١٩٣٢

٣- السلطان سعيد بن تامر آل سعيد ، ١٩٣٢ - ١٩٧٠

٤- السلطان قابوس بن سعيد آل سعيد ، ١٩٧٠

الأراضى الفلسطينية : الضفة الغربية وقطاع غزة :

العاصمة : يدور حولها التنافس بين الإسرائيليين والفلسطينيين

تاريخ الاستقلال : حصلت السلطة الوطنية الفلسطينية من إسرائيل على الحق فى السيطرة على معظم مناطق قطاع غزة وأريحا فى مايو عام ١٩٩٤ . وقد أدت الاتفاقيات اللاحقة إلى زيادة مساحة الأرض التى تخضع لسيطرة الفلسطينيين أو الإدارة المشتركة للجانبين .

عدد السكان :

قطاع غزة : مليون و ٢٠,٨١٣ نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

الضفة الغربية : مليون و ٨٦٩,٨١٨ نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI (غير متاحة)

الحكام منذ توقيع اتفاقية غزة – أريحا :

١- ياسر عرفات ، انتخب رئيساً فى يناير ١٩٩٦ .

دولة قطر :

العاصمة : الدوحة

تاريخ الاستقلال عن بريطانيا العظمى : ٣ سبتمبر ١٩٧١
عدد السكان : ٦٩٧ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)
النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.84

الحكام منذ الاستقلال :
١- الأمير أحمد بن على ، ١٩٧١ – ١٩٧٢
٢- الأمير خليفة بن حمد آل ثانى ، من ٢٧ يونيو ١٩٧٢ حتى ١٩٩٥
٣- الأمير حمد بن خليفة آل ثانى ، ٢٧ يونيو ١٩٩٥

المملكة العربية السعودية :

العاصمة : الرياض
تاريخ إعلان توحيد المملكة : سبتمبر ١٩٣٢
عدد السكان : ٢٠ مليون و ٨٨ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)
النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.778
الحكام منذ الاستقلال :
١- الملك عبد العزيز بن سعود ، من ١٩٣٢ حتى ١٩٥٣
٢- الملك سعود ، من ١٩٥٣ حتى ١٩٦٤

٣- الملك فيصل ، من ١٩٦٤ حتى ١٩٧٥ (*)

٤- الملك خالد ، من ١٩٧٥ حتى ١٩٨٢

٥- الملك فهد ، ١٩٨٢

جمهورية الصومال الديمقراطية :

العاصمة : مقديشيو
تاريخ الاستقلال عن إيطاليا وبريطانيا العظمى : ١ يوليو ١٩٦٠
عدد السكان : ٦ ملايين و ٨٤٢ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)
النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.200

الحكام منذ الاستقلال :

١- الرئيس عبد الله عثمان ، من ١٩٦٠ حتى ١٩٦٧

٢- الرئيس عبد الرشيد على شيرماركس ، من ١٩٦٧ حتى ١٩٦٩ (تم اغتياله)

٣- اللواء محمد سياد برى : من ٢٧ يناير ١٩٦٩ حتى ١٩٩١

٤- لم يتم تشكيل حكومة فى ١٩٩١

جمهورية السودان الديمقراطية :

العاصمة : الخرطوم
تاريخ الاستقلال عن بريطانيا العظمى : ١ يناير ١٩٥٦

عدد السكان : ٣٣ مليون و ٥٥١ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.343

الحكام منذ الاستقلال :

١- رئيس الوزراء إسماعيل الأزهرى ، ١٩٥٦

٢- رئيس الوزراء عبد الله خليل ، ١٩٥٦ - ١٩٥٨

---

* (المراجعة اللغوية) .

٣- رئيس الوزراء إبراهيم عبود ، ١٩٥٨ - ١٩٦٤

٤- رئيس الوزراء سر الختم الخليفة ، ١٩٦٤ - ١٩٦٥

٥- رئيس الوزراء محمد أحمد محجوب ، ١٩٦٥ - ١٩٦٦

٦- رئيس الوزراء سيد صادق المهدى ، ١٩٦٦ - ١٩٦٧

٧- رئيس الوزراء محمد أحمد محجوب ، ١٩٦٧ - ١٩٦٩

٨- الرئيس محمد جعفر نميرى ، من مايو ١٩٦٩ إلى أبريل ١٩٨٥ (تمت الإطاحة به)

٩- الفريق أول عبد الرحمن سوار الذهب ، رئيس المجلس العسكرى المؤقت ، من ٦ أبريل ١٩٨٥ إلى ١٩٨٦

١٠- الرئيس أحمد على الميرغنى ورئيس الوزراء صادق المهدى ، من ٣٠ يونيو ١٩٨٦ حتى ١٩٨٩ (أطيح بهما فى انقلاب عسكرى)

١١- رئيس الوزراء عمر حسن أحمد البشير ، ٣٠ يونيو ١٩٨٩ وتم تعيينه رئيساً للبلاد فى ١٦ أكتوبر ١٩٩٣ .

الجمهورية العربية السورية :

العاصمة : دمشق

تاريخ الاستقلال عن فرنسا : ١٧ أبريل ١٩٤٦

عدد السكان : ١٦ مليون و ٦٧٣ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.749

الحكام منذ الاستقلال :

١- الرئيس شكرى القواتلى ، ١٩٤٦ - ١٩٤٩ (تمت الإطاحة به فى انقلاب أبيض)

٢- الجنرال حسنى الزعيم ، من مارس ١٩٤٩ إلى أغسطس ١٩٤٩

٣- الجنرال سامى الحناوى : من أغسطس ١٩٤٩ إلى ديسمبر ١٩٤٩

٤- الكولونيل أديب الشيشكلى ، من ديسمبر ١٩٤٩ إلى فبراير ١٩٥٤ (تمت الإطاحة به)

٥- الرئيس صبرى العسلى ، ١٩٥٦ – ١٩٥٨

٦- جمال عبد الناصر ، رئيساً للجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) ، ١٩٥٨ – ١٩٦١ (كان عبد الحكيم عامر يتولى الإشراف على سوريا فى ذلك الوقت) .

٧- الرئيس حازم القدسى ، ١٩٦١ – ١٩٦٣

٨- الجنرال أمين الحافظ ، ١٩٦٣ – ١٩٦٦

٩- الرئيس صلاح الجديد ، ١٩٦٦ – ١٩٧٠ (أُطيح به فى انقلاب أبيض)

١٠- الرئيس حافظ الأسد : ١٩٧٠

١١- الرئيس بشار الأسد

جمهورية تونس :

العاصمة : تونس

تاريخ الاستقلال عن فرنسا : ٢٠ مارس ١٩٥٦

عدد السكان : ٩ ملايين و ٣٨٠ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.744

الحكام منذ الاستقلال :

١- رئيس الوزراء الحبيب بورقيبة ، من يوليو ١٩٥٦ إلى ١٩٥٧ (صارت تونس جمهورية)

٢- الرئيس الحبيب بورقيبة ، من يوليو ١٩٥٧ إلى نوفمبر ١٩٨٧ (أطيح به فى انقلاب أبيض)

٣- الرئيس زين العابدين بن على يستولى على السلطة ، عزل الرئيس بورقيبة فى نوفمبر ١٩٨٧ ، وجرى انتخابه رئيساً للبلاد فى انتخابات حزبية متعددة فى ١٩٩٩

جمهورية تركيا :

العاصمة : أنقرة

تاريخ الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية : ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.796

الحكام منذ الاستقلال :

١- الرئيس مصطفى كمال أتاتورك (كمال أتاتورك بعد ١٩٣٣) من ١٩٢٣ إلى ١٩٣٨

٢- الرئيس عصمت أنونو ، ١٩٣٨ - ١٩٥٠

٣- الرئيس محمود سلال بيار ، من ٢٧ مايو ١٩٥٠ إلى ١٩٦٠ (أطيح به فى انقلاب عسكرى)

٤- الجنرال كمال جورسيل ، ٢٧ مايو ١٩٦٠ - أكتوبر ١٩٦١

٥- الرئيس كمال جورسيل ، أكتوبر ١٩٦١ - ١٩٦٦

٦- الرئيس جودت سونداى ، ١٩٦٦ - ١٩٧٣

٧- الرئيس فخرى كوروتوك ، ١٢ سبتمبر ١٩٧٣ - ١٩٨٠ (أطيح به فى انقلاب عسكرى)

٨- الجنرال كنعان إيفيرين ، ١٢ سبتمبر ١٩٨٠ - ١٩٨٢

٩- الرئيس تورجوت أوزال ، أكتوبر ١٩٨٩ - أبريل ١٩٩٣

١٠- الرئيس سليمان ديميريل ، من أبريل ١٩٩٣

الإمارات العربية المتحدة :

العاصمة : أبو ظبى

تاريخ الاستقلال عن بريطانيا العظمى : ٢ ديسمبر ١٩٧١

عدد السكان : مليونان و ٣٠٣ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.855

الحكام منذ الاستقلال :

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان ، ١٩٧١

الجمهورية العربية اليمنية (اليمن الشمالى) ، استقلت عن الإمبراطورية العثمانية فى ١٩١٨

١- الإمام يحيى ، ١٩١٨ - ١٩٤٨ (قتل فى محاولة انقلاب)

٢- الإمام أحمد بن يحيى ، ١٩٤٨ - ١٩٦٢ .

٣- محمد البدر ، ١٩٦٢ (أطيح به بعد أسبوع)

٤- الفريق عبد الله السلال ، ١٩٦٢ - ١٩٦٧

٥- الرئيس عبد الرحمن الإيريانى ، ١٩٦٧ - ١٩٧٤

٦- الرئيس إبراهيم الحمدى ، ١٩٧٤ - ١٩٧٧

٧- الرئيس أحمد حسين هاشمى ، ١٩٧٧ - ١٩٧٨ (أطيح به فى انقلاب)

٨- الرئيس على عبد الله صالح ، ١٩٧٨ - ١٩٩٠

جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (اليمن الجنوبى)، استقلت عن بريطانيا العظمى فى ١٩٦٧

١- الرئيس قحطان الشعبى ، ١٩٦٧ - ١٩٦٩ (أطيح به)

٢- الرئيس سالم ربيع على ، ١٩٦٩ - ١٩٧٨ (أُعدم)

٣- الرئيس عبد الفتاح إسماعيل ، ١٩٧٨ - ١٩٨٠ (استقال)

٤- الرئيس على ناصر محمد ، ١٩٨٠ - ١٩٨٦

٥- الرئيس حيدر أبو بكر العطاس ، ١٩٨٦ - ١٩٩٠

جمهورية اليمن :

العاصمة : صنعاء

تاريخ الاتحاد بين شطرى اليمن : ٢٢ مايو ١٩٩٠

عدد السكان : ١٦ مليون و ٣٣٨ ألف نسمة (حسب تقديرات ١٩٩٨)

النقاط المسجلة فى مؤشر HDI 0.356

الحكام منذ الاتحاد :

الرئيس على عبد الله صالح ، ١٩٩٠

المصادر :

١- فانتو أجونافير : «النضال الثلاثي لجيبوتي من أجل الاستقلال : ١٩٧٧ - ١٩٦٧» - جامعة دنفر - ١٩٧٩

٢- راي أندرسون ، روبرت سيبيرت ، وجون واجنر : «السياسة والتغيير في الشرق الأوسط» - أنجلوود كليفس - نيوجيرسي - برنتيس هول - ١٩٩٨

٣- سي إي إي يوزورث ، وفان دونزل ، وبي لويس ، وشي بيلات : «موسوعة الإسلام» - المجلد الخامس ليدن - هولندا - إي .ج. بريل - ١٩٨٣

٤- جي ميلار دبور ، وروبرت .و. كولينز : « الحرب في السودان ، والجفاف ، وكارثة الإغاثة على ضفاف النيل» - بولدر - كلومبيا - مطبعة ويستفيو - ١٩٩٥

٥- توماس كوليلو : «سوريا : دراسة دولة» - سلسلة كتيبات الدول - واشنطن دي سي - مكتب الطباعة الحكومي - ١٩٨٨

* «لبنان : دراسة دولة» - سلسلة كتيبات الدول - واشنطن دي سي - مكتب الطباعة الحكومي - ١٩٨٩

٦- المجلة الفصلية للكونجرس : «الطبعة الثامنة عن الشرق الأوسط» - واشنطن دي سي - المجلة الفصلية للكونجرس ١٩٩٥

٧- مطبوعات أوروبا : «الشرق الأوسط وشمال أفريقيا» - الطبعة ٤١ - روشستر كنت - المملكة المتحدة - مطبعة ستايلز روشستر - ١٩٩٥

٨- أبريل جوردون ، وجوردون دونالد : «أفريقيا المعاصرة : محاولة للفهم» - الطبعة الثانية - بولدر كولومبيا - لين ريز - ١٩٩٦

٩- روبرت هاندولف : «موريتانيا : دراسة دولة» - سلسلة كتب الدول - - واشنطن دي سي - مكتب الطباعة الحكومي - ١٩٩٠

١٠- هيرو ديليب : «قاموس الشرق الأوسط» نيويورك - مطبعة سان مارتن - ١٩٩٦

١١- أجنس كورياني : «القاموس السياسي للشرق الأوسط» - لانهام - ميدلاند - مطبعة جامعة أمريكا - ١٩٩٥

١٢- كولين ليجوم : «دراسة معاصرة للشرق الأوسط» - مركز شيلواح للدراسات الشرق أوسطية والإفريقية - جامعة تل أبيب - المجلدات من ١ إلى ١٢ - نيويورك - هولمز ومير - ١٩٩٣ - ١٩٧٦

١٣- أ . م لويس : «تاريخ الصومال الحديث : شعب ودولة فى القرن الأفريقى» - بولدر - كولومبيا - مطبعة ويستفيو - ١٩٨٨

١٤- صمويل .م. ماكيندا : «البحث عن الإسلام من الفوضى : التدخل الإنسانى فى الصومال» - كولومبيا - لين ريز - ١٩٩٣

١٥- هيلين ميتسل : «ليبيا : دراسة دولة» - سلسلة كتب الدول - - واشنطن دى سى - مكتب الطباعة الحكومى - ١٩٨٩

* «العراق : دراسة دولة» - سلسلة كتب الدول - - واشنطن دى سى - مكتب الطباعة الحكومى - ١٩٩٠

* «مصر : دراسة دولة» - سلسلة كتب الدول - - واشنطن دى سى - مكتب الطباعة الحكومى - ١٩٩١

* «الأردن : دراسة دولة» - سلسلة كتب الدول - - واشنطن دى سى - مكتب الطباعة الحكومى - ١٩٩١

* «السودان : دراسة دولة» - سلسلة كتب الدول - - واشنطن دى سى - مكتب الطباعة الحكومى - ١٩٩٢

* «السعودية : دراسة دولة» - سلسلة كتب الدول - - واشنطن دى سى - مكتب الطباعة الحكومى - ١٩٩٣

* «الصومال : دراسة دولة» - سلسلة كتب الدول - - واشنطن دى سى - مكتب الطباعة الحكومى - ١٩٩٣

* «الجزائر : دراسة دولة» - سلسلة كتب الدول - - واشنطن دى سى - مكتب الطباعة الحكومى - ١٩٩٤

* «دول الخليج الفارسى : دراسات دولة» - سلسلة كتب الدول - - واشنطن دى سى - مكتب الطباعة الحكومى - ١٩٩٤

* «المحيط الهندى : دراسة دولة» – سلسلة كتب الدول – – واشنطن دى سى – مكتب الطباعة الحكومى – ١٩٩٥

١٦– هارولد نيلسون «المغرب : دراسة دولة» – سلسلة كتب الدول – – واشنطن دى سى – مكتب الطباعة الحكومى – ١٩٨٦

* «تونس : دراسة دولة» – سلسلة كتب الدول – – واشنطن دى سى – مكتب الطباعة الحكومى – ١٩٨٧

١٧– مالين نيوت : «جزر القمر : النضال ضد التبعية فى المحيط الهندى» – بولدر – كولومبيا – مطبعة ويستفيو – ١٩٨٤

١٨– هاريت هاريت أوتينهايمر ، ومارتن أوتينهايمر : «القاموس التاريخى لجزر القمر» – القواميس التاريخية الأفريقية – المجلد رقم ٥٩ – مويتشين – نيوجيرسى – مطبعة سيركرو – ١٩٩٤

١٩– ريثا سيمون ، فيليب ماتر ، وريتشارد .و. بوليت : «موسوعة الشرق الأوسط الحديث» – المجلد الخامس – نيويورك – سيمون وشوستر – ١٩٩٦

٢٠– بيتر سلوجليت ، وماريو فاروق سلوجليت : «دليل التايمز إلى الشرق الأوسط» – لندن – تايمز بوكس – ١٩٩٦

٢١– برنامج الأمم المتحدة الإنمائى : «تقرير التنمية البشرية» – نيويورك – مطبعة جامعة أوكسفورد – ١٩٩٨

٢٢– جون رايت : «كتاب النيويورك تايمز السنوى» – نيويورك – دار بنجوين للنشر – ١٩٩٨ .

المشاركون فى هذا الكتاب

* محمد أبو نمر : أستاذ مساعد العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية ـ واشنطن دى . سى .
* ميريام كوك : أستاذ اللغات الآسيوية والأفريقية والأدب فى جامعة ديوك فى نورث كارولينا
* جون ل . أسبو ستيو : أستاذ الديانة والشئون الدولية ومدير مركز التفاهم الإسلامى ـ المسيحى بجامعة جورج تاون فى واشنطن دى سى .
* ديبورا ج . جيرنر : أستاذ العلوم السياسية فى جامعة كانساس فى لورينس .
* آرثر جولد سميث : أستاذ التاريخ بجامعة بنسلفانيا
* دونالد ل . جوردون : أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية ومدير البرنامج الأفريقى ـ الآسيوى بجامعة فورمان فى ساوث كارولينا .
* محمد أ . مقتدر خان : مرشح لنيل درجة الدكتوراه فى العلوم السياسية من جامعة جورج تاون فى واشنطن دى سى ، وأستاذ زائر للعلوم السياسية فى كلية واشنطن ، بولاية ماريلاند .
* لورى كينج إيرانى : رئيس تحرير ميدل إيست ريبورت فى واشنطن دى سى .
* إيان ر . مانرز : أستاذ الجغرافيا فى جامعة تكساس فى أوستن .
* فالنتين م . مقدم : مدير دراسات المرأة وأستاذ علم الاجتماع بجامعة ولاية إيلينوس فى نورمال .
* باربرا مكين بارمنتر : محاضرة فى كلية الزراعة بجامعة تكساس فى أوستن .
* فيليب أ . شروت : أستاذ العلوم السياسية بجامعة كانساس فى لورينس .
* سيمونا شارونى : عضو هيئة التدريس فى كلية إيفرجرين فى أوليمبيا وباحث فى كلية جاكسون للدراسات الدولية فى جامعة واشنطن فى سياتل .
* ليزا تراكى : أستاذ علم الاجتماع فى جامعة بيرزيت فى فلسطين .
* مارى آرثر تيترول : أستاذ العلوم السياسية بجامعة ولاية أيوا فى أميس
* إلياس توما : أستاذ علم الاقتصاد بجامعة كاليفورنيا فى ديفيس .

المحررة فى سطور :

تعمل ديبورا ج . جيرنر محررة كتاب «الشرق الأوسط المعاصر : محاولة للفهم» أستاذاً للعلوم السياسية فى جامعة كانساس . وهى أيضاً مؤلفة كتاب «أرض واحدة وشعبان: الصراع على فلسطين» . وكتبت كذلك العديد من المقالات التى تتناول العلاقات الدولية والسياسية والمحلية فى الشرق الأوسط .

المترجم فى سطور

أحمد عبد الحميد أحمد من مواليد القاهرة عام ١٩٥٥ ، حاصل على ليسانس الآداب قسم الصحافة من كلية الآداب بجامعة القاهرة . يعمل حالياً صحفياً بجريدة العالم اليوم المستقلة ، وهو عضو بنقابة الصحفيين المصريين . وقد عمل لما يربو على العشرين عاماً فى الأقسام الخارجية والشئون العربية والدولية فى عدد من الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية ، وكذا وكالات الأنباء المحلية والدولية فى مصر ودول الخليج . وله العديد من الموضوعات والمقالات المنشورة فى هذه المطبوعات ، إلى جانب دراسات وكتب سياسية مترجمة ، أبرزها كتاب «الاجتياح الإسرائيلى لجنوب لبنان» ورواية من الأدب الأمريكى بعنوان «الزهرة واللهب» .

المراجع فى سطور :

رءوف عباس حامد ، أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة القاهرة ، له العديد من المؤلفات والمترجمات عن تاريخ مصر والشرق الأوسط .

رقم الإيداع ١٥٢٠٦ / ٢٠٠٤
I.S.B.N.
977-305-767-4
مطابع المجلس الأعلى للآثار

١-	اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	ت : بإشراف أحمد عتمان
١٧-	مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩-	الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس

٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف	ميجل دى ثرباتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين

-٩٤	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
-٩٥	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد عبد اللطيف
-٩٦	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
-٩٧	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
-٩٨	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نخبة	ت : أشرف الصباغ
-٩٩	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
-١٠٠	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
-١٠١	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
-١٠٢	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
-١٠٣	قبر ابن عربى يليه أياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
-١٠٤	أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
-١٠٥	مدخل إلى النص الجامع	جيرارجينيت	ت : عبد العزيز شبيل
-١٠٦	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
-١٠٧	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى
-١٠٨	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
-١٠٩	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
-١١٠	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
-١١١	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
-١١٢	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
-١١٣	راية التمرد	سادى بلانت	ت : أحمد حسان
-١١٤	مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
-١١٥	غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سمية رمضان
-١١٦	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
-١١٧	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم وهالة كمال
-١١٨	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
-١١٩	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت بإشراف: روف عباس
-١٢٠	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
-١٢١	الدليل الصغيرعن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى وإيزابيل كمال
-١٢٢	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
-١٢٣	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل ألكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
-١٢٤	الفجر الكاذب	جون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
-١٢٥	التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	ت : سمحة الخولى
-١٢٦	فعل القراءة	فولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
-١٢٧	إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
-١٢٨	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
-١٢٩	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
-١٣٠	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
-١٣١	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
-١٣٢	ثقافة العولمة	مايك فيزرستون	ت : عبد الوهاب علوب
-١٣٣	الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
-١٣٤	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
-١٣٥	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
-١٣٦	فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
-١٣٧	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
-١٣٨	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيفلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح

١٤١- إحدى عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبدالروف البمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت: إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت: حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت: نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت: سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت: محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت: شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت: شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت: شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميغيل دليبيس	ت: بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	ت: هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت: أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت: محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت: ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت: فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت: دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦- [illegible]	[illegible]	ت: [illegible]

-١٨٨	موت الأدب	ألفين كرنان	ت:بدر الديب
-١٨٩	العمى والبصيرة	بول دى مان	ت:سعيد الغانمى
-١٩٠	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجانى
-١٩١	الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد
-١٩٢	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	ت:محمود سلامة علاوى
-١٩٣	عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
-١٩٤	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
-١٩٥	شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
-١٩٦	المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت:أشرف الصباغ
-١٩٧	الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
-١٩٨	الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	ت:إبراهيم سلامة إبراهيم
-١٩٩	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت: جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
-٢٠٠	ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت: فخرى لبيب
-٢٠١	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
-٢٠٢	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
-٢٠٣	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
-٢٠٤	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت: أحمد محمود هويدى
-٢٠٥	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	ت: أحمد مستجير
-٢٠٦	الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
-٢٠٧	ليل أفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا
-٢٠٨	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
-٢٠٩	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
-٢١٠	مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
-٢١١	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت: محمود حمدى عبد الغنى
-٢١٢	قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
-٢١٣	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
-٢١٤	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
-٢١٥	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
-٢١٦	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
-٢١٧	مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	ت: نادية البنهاوى
-٢١٨	لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	ت: على إبراهيم منوفى
-٢١٩	بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
-٢٢٠	الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
-٢٢١	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام
-٢٢٢	فرانز كافكا	رونالد جراى	ت: نسيم مجلى
-٢٢٣	العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت: السيد محمد نفادى
-٢٢٤	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت: منى عبدالظاهر إبراهيم
-٢٢٥	حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت: السيد عبدالظاهر السيد
-٢٢٦	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت: طاهر محمد على البربرى
-٢٢٧	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركى	ت: السيد عبدالظاهر عبدالله
-٢٢٨	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت:مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
-٢٢٩	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	ت: أمير إبراهيم العمرى
-٢٣٠	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
-٢٣١	الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت: جمال عبدالرحمن
-٢٣٢	ما بعد المعلومات	توم ستينر	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
-٢٣٣	فكرة الاضمحلال	آرثر هيرمان	ت: طلعت الشايب

-٢٢٥ ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	ت: إبراهيم الدسوقى شتا
-٢٢٦ الولاية	ميشيل تود	ت: أحمد الطيب
-٢٢٧ مصر أرض الوادى	روبين فيرين	ت: عنايات حسين طلعت
-٢٢٨ العولمة والتحرير	الانكتاد	ت: ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
-٢٢٩ العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارفر – رايوخ	ت: نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
-٢٤٠ الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
-٢٤١ في انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ت: ابتسام عبدالله سعيد
-٢٤٢ سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت: صبرى محمد حسن عبدالنبى
-٢٤٣ تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	ت: على عبدالرءوف البمبى
-٢٤٤ الغليان	لاورا إسكيبيل	ت: نادية جمال الدين محمد
-٢٤٥ نساء مقاتلات	إليزابيتا آديس	ت: توفيق على منصور
-٢٤٦ مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	ت: على إبراهيم منوفى
-٢٤٧ الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر إرمبريست	ت: محمد طارق الشرقاوى
-٢٤٨ حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت: عبداللطيف عبدالحليم
-٢٤٩ لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت: رفعت سلام
-٢٥٠ علم اجتماع العلوم	دومنيك فينيك	ت: ماجدة محسن أباظة
-٢٥١ موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردن مارشال	ت: بإشراف: محمد الجوهرى
-٢٥٢ رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت: على بدران
-٢٥٣ تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت: حسن بيومى
-٢٥٤ الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
-٢٥٥ أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
-٢٥٦ ديكارت	ديف روبنسون وكريس جرات	ت: إمام عبد الفتاح إمام
-٢٥٧ تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت: محمود سيد أحمد
-٢٥٨ الغجر	سير أنجوس فريزر	ت: عُبادة كُحيلة
-٢٥٩ مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	اقلام مختلفة	ت: فاروجان كازانجيان
-٢٦٠ موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردن مارشال	ت بإشراف: محمد الجوهرى
-٢٦١ رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت: إمام عبد الفتاح إمام
-٢٦٢ مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت: محمد أبو العطا
-٢٦٣ الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	ت: على يوسف على
-٢٦٤ إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	ت: لويس عوض
-٢٦٥ روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	ت: لويس عوض
-٢٦٦ مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت: عادل عبدالمنعم سويلم
-٢٦٧ فن الرواية	ميلان كونديرا	ت: بدر الدين عرودكى
-٢٦٨ ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	ت: إبراهيم الدسوقى شتا
-٢٦٩ وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	ت: صبرى محمد حسن
-٢٧٠ وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم جيفور بالجريف	ت: صبرى محمد حسن
-٢٧١ الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	ت: شوقى جلال
-٢٧٢ الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	ت: إبراهيم سلامة
-٢٧٣ الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	ت: عنان الشهاوى
-٢٧٤ السيدة باربارا	رومولو جلاجوس	ت: محمود على مكى
-٢٧٥ ت. س إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت: ماهر شفيق فريد
-٢٧٦ فنون السينما	فرانك جوتيران	ت: عبد القادر التلمسانى
-٢٧٧ الجينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت: أحمد فوزى
-٢٧٨ البدايات	إسحق عظيموف	ت: ظريف عبدالله
-٢٧٩ الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	ت: طلعت الشايب

٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت: سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق	خوان رولفو	ت: على البمبى
٢٨٤- هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت: أحمد عتمان
٢٨٥- رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت: سمير عبد الحميد
٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	ت: محمد يحيى وآخرون
٢٨٨- الفن الروائى	ديفيد لودج	ت: ماهر البطوطى
٢٨٩- ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت: أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٢- المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربى	روجر ألن	ت: نخبة من المترجمين
٢٩٤- فن الشعر	بوالو	ت: رجاء ياقوت صالح
٢٩٥- سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت: بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦- مكبث	وليم شكسبير	ت: محمد مصطفى بدوى
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى	ت: ماجدة محمد أنور
٢٩٨- مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت: مصطفى حجازى السيد
٢٩٩- ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت: هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	ت: جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	ت: جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢- فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣- بوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- ماركس	ريوس	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد	كروزيو مالابارته	ت: صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	ت: نبيل سعد
٣٠٧- الشعور	ديفيد بابينو	ت: محمود محمد أحمد
٣٠٨- علم الوراثة	ستيف جونز	ت: ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩- الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى	ت: جمال الجزيرى
٣١٠- يونج	ناجى هيد	ت: محيى الدين محمد حسن
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت: فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت:أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت: عبدالله الجعيدى
٣١٤- الفن كعدم	جينس مينيك	ت: هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت: كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أ.ف. ستون	ت: نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	ت: أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت: أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت: حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	ت: نخبة من المترجمين
٣٢٢- وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	دبليو بوجين كليتباور	ت: خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت: هانم سليمان
٣٢٤- اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت: محمود سلامة علاوى
٣٢٥- عالم الآثار	فيليب بوسان	ت: كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت: حسن صقر
٣٢٧- [illegible]	[illegible]	[illegible]

٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت: محمد عيد إبراهيم
٣٣٠-	كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت: سامى صلاح
٣٣١-	عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت: سامية دياب
٣٣٢-	القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	ت: على إبراهيم منوفى
٣٣٣-	الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت: بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	آرثر س كلارك	ت: مصطفى فهمى
٣٣٥-	عصر الشك	ناتالى ساروت	ت: فتحى العشرى
٣٣٦-	متون الأهرام	نصوص قديمة	ت: حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٣٣٨-	نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)	نخبة	ت: جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	على أصغر حكمت	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت: فخرى لبيب
٣٤١-	قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت: حسن حلمى
٣٤٢-	سلامان وأبسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	ت: عبد العزيز بقوش
٣٤٣-	العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت: سمير عبد ربه
٣٤٤-	الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت: سمير عبد ربه
٣٤٥-	الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدى	ت: جمال الجزيرى
٣٤٧-	الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت: بكر الحلو
٣٤٨-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرون	ت: أحمد عمر شاهين
٣٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت: عطية شحاتة
٣٥١-	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت: أحمد الانصارى
٣٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت: نعيم عطية
٣٥٣-	الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدوناند	ت: على إبراهيم منوفى
٣٥٤-	الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدوناند	ت: على إبراهيم منوفى
٣٥٥-	التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت: محمود سلامة علاوى
٣٥٦-	الميراث المر	بول سالم	ت: بدر الرفاعى
٣٥٧-	متون هيرميس	نصوص قديمة	ت: عمر الفاروق عمر
٣٥٨-	أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت: مصطفى حجازى السيد
٣٥٩-	محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت: حبيب الشارونى
٣٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت: ليلى الشربينى
٣٦١-	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت: عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢-	تلميذ بابنيبرج	هاينرش شبورال	ت: سيد أحمد فتح الله
٣٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	ت: صبرى محمد حسن
٣٦٤-	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت: نجلاء أبو عجاج
٣٦٥-	سأم باريس	شارل بودلير	ت: محمد أحمد حمد
٣٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت: مصطفى محمود محمد
٣٦٧-	القلم الجرىء	نخبة	ت: البراق عبدالهادى رضا
٣٦٨-	المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت: عابد خزندار
٣٦٩-	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت: فوزية العشماوى
٣٧٠-	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت: فاطمة عبدالله محمود
٣٧١-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢-	عاش الشباب	وانغ مينغ	ت: وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت: على إبراهيم منوفى

٣٧٦-	الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت: إدوار الخراط
٣٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	على أصغر حكمت	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٧٨-	المسافر	محمد إقبال	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩-	ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت: جمال عبدالرحمن
٣٨٠-	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت: شيرين عبدالسلام
٣٨١-	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت: رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢-	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت: أحمد محمد نادى
٣٨٣-	هدية الحجاز	محمد إقبال	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤-	القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت: إيزابيل كمال
٣٨٥-	مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦-	دفاعاً عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت: ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧-	أغنيات وسوناتات	جون دن	ت: بهاء چاهين
٣٨٨-	مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٨٩-	من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠-	الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت: عثمان مصطفى عثمان
٣٩١-	الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت: منى الدروبى
٣٩٢-	مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	ت: عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣-	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت: زينب محمود الخضيرى
٣٩٤-	القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت: هاشم أحمد محمد
٣٩٥-	آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت: سليم حمدان
٣٩٦-	السافاك	تقى نجارى راد	ت: محمود سلامة علاوى
٣٩٧-	نيتشه	لورانس جين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨-	سارتر	فيليب تودى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩-	كامى	ديفيد ميروفتس	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠-	مومو	مشيائيل إنده	ت: باهر الجوهرى
٤٠١-	الرياضيات	زيادون ساردر	ت: ممدوح عبد المنعم
٤٠٢-	هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣-	ربة المطر والملابس تصنع الناس	توبور شتورم	ت: عماد حسن بكر
٤٠٤-	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت: ظبية خميس
٤٠٥-	إيزابيل	أندريه جيد	ت: حمادة إبراهيم
٤٠٦-	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت: جمال عبد الرحمن
٤٠٧-	الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت: طلعت شاهين
٤٠٨-	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت: عنان الشهاوى
٤٠٩-	انتصار السعادة	برتراند راسل	ت: إلهامى عمارة
٤١٠-	خلاصة القرن	كارل بوبر	ت: الزواوى بغورة
٤١١-	همس من الماضى	جينيفر أكرمان	ت: أحمد مستجير
٤١٢-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	ت: نخبة
٤١٣-	أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت: محمد البخارى
٤١٤-	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت: أمل الصبان
٤١٥-	صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت: أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦-	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت: مصطفى بدوى
٤١٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت: عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبى للإسكندرية	جون مايو	ت: نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس	فولتير	ت: الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة	[illegible]	[illegible]

٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت: وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامى	ت: محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	ت: محمود سلامة علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت: ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت: محمد أمان صافى
٤٢٩-	هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	فوكو	كريس هورروكس وزوران جفتيك	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت: حمدى الجابرى
٤٣٤-	الرومانسية	دونكان هيث وجودن بورهام	ت: عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت: ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت: عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى	صدر الدين عينى	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت: محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة	أروينداتى روى	ت: فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت: ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت: محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت: صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت: محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت: أحمد محمود
٤٤٧-	نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	الحركة النسائية	نخبة	ت: جمال الجزيرى
٤٥٠-	ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا ورببيكا رايت	ت: جمال الجزيرى
٤٥١-	الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناترى وأوسكار زاريت	ت: محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت: حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت: سوزان خليل
٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	ت: محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى	مريم جعفرى	ت: هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيدس غارثيا أرينال	ت: جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
٤٦٠-	الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	ت: عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	وليام بلوم	ت: كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت: حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت: جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت: فاطمة محمود
٤٦٧-	التفكير السياسى	ستيفن ديلو	ت: ربيع وهبة

٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	نخبة	ت: عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتي (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتي (القسم الثاني)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	ت: سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت: عادل هلال عناني
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسي	ماريلين بوث	ت: سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت: أشرف كيلاني
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	ت: عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت: عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت: عبد العزيز حمدى
٤٨١-	عباءة النبي	روى متحدة	ت: رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت: فاطمة محمود
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت: أحمد الشامي
٤٨٤-	جمالية التلقي	هانسن روبيرت ياوس	ت: رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت: عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسرل	ت: محمود رجب
٤٩٠-	أسمار البيغاء	محمد قادرى	ت: عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقي	نخبة	ت: سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت: محمد رفعت عواد
٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت: محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت: شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	ت: حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	ت: نخبة
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	ت: مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	ت: أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت: فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	ت: طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب	أرثر جولد هامر	ت: سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	هدى الصدّة	ت: هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	ت: إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	ت: إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديسًا	آن تيلر	ت: عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	ت: شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	أدم صبرة	ت: قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	ت: عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقّع	آن تيلر	ت: عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	ت: جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	ت: مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	ت: فدوى مالطى دوجلاس

٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	ت: هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	ت: أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	ت: عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	ت: على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	ت: على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير	وليم شكسبير	ت: محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	ت: نادية رفعت
٥٢٦-	علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	ت: محيى الدين مزيد
٥٢٧-	كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	ت: جمال الجزيرى
٥٢٨-	تروتسكى والماركسية	طارق على وفِلْ إيفانز	ت: جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	ت: حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	ت: عمر الفاروق عمر
٥٣١-	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	ت: صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	ت: بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	ت: محمد الشرقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	ت: حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار	نظامى الكنجوى	ت: عبدالعزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون	ت: شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية	نخبة	ت: عبدالغفار مكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	ت: محمد الحديدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	ت: محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	ت: رءوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	ت: مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	ت: نعيم عطية
٥٤٣-	السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	ت: وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	ميلانى كلاين	نخبة	ت: حمدى الجابرى
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	ت: عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	ت: توفيق على منصور
٥٤٧-	بارت	فيليب ثودى وآن كورس	ت: جمال الجزيرى
٥٤٨-	علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	ت: حمدى الجابرى
٥٤٩-	علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	ت: جمال الجزيرى
٥٥٠-	شكسبير	نيك جروم وبيرو	ت: حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	ت: سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	ت: على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	ت: رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	ت: عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	ت: أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	ت: حمدى الجابرى
٥٥٧-	الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين ڤان لون	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف	تشا تشاجى	ت: عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس	نخبة	ت: جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل	محمد إقبال	ت: جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	ت: عزت عامر

٥٦٤-	عش الغريب	[illegible]	ت: [illegible]
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا. ج. جيرنر	ت: أحمد عبدالحميد أحمد

يكتسب هذا الكتاب أهمية خاصة لدى جمهور القراء فى أرجاء الوطن العربى، وعلى الأخص فى أوساط الدارسين والباحثين المهتمين بدراسات الشرق الأوسط والمتخصصين فى شئون هذه المنطقة التى تحظى بأهمية إستراتيجية فى العالم؛ فهو يعد فى المقام الأول مرجعًا شاملاً يلبى احتياجات هذه الشريحة من القراء فى مجال البحث الأكاديمى. كما يستمد الكتاب أهميته من المجال الجغرافى الذى يغطيه، والذى يشمل العالم العربى، وإيران، وإسرائيل، وتركيا. وهو يركز على التطورات التى شهدتها منطقة الشرق الأوسط فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وعلى الأخص فترة التسعينيات. كما يأتى هذا الكتاب بشمولية موضوعاته وتنوعها ليسد فراغًا كبيراً فى الدراسات الشرق أوسطية؛ حيث حرص خمسة عشر باحثًا من الذين شاركوا فى تأليفه على معالجة سلسلة متنوعة من المشكلات والقضايا الشائكة التى تواجه الشرق الأوسط فى القرن الحادى والعشرين، وذلك من خلال فصول الكتاب التى تتناول جغرافية المنطقة، وتاريخها، واقتصادياتها، وعلاقاتها الدولية، والصراع العربى الإسرائيلى، ووضع المرأة، والديانات السماوية الثلاث، والتركيبة العرقية والطبقية، والنمو السكانى، والحركة الأدبية والثقافية فى المنطقة.